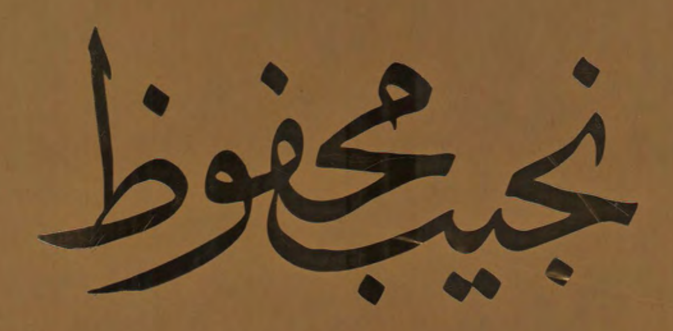


الأعمال الكاملة

٩



دار الشروق

الغلاف والتصميم

للفنان حلمى التونى

طبعة دار الشروق الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

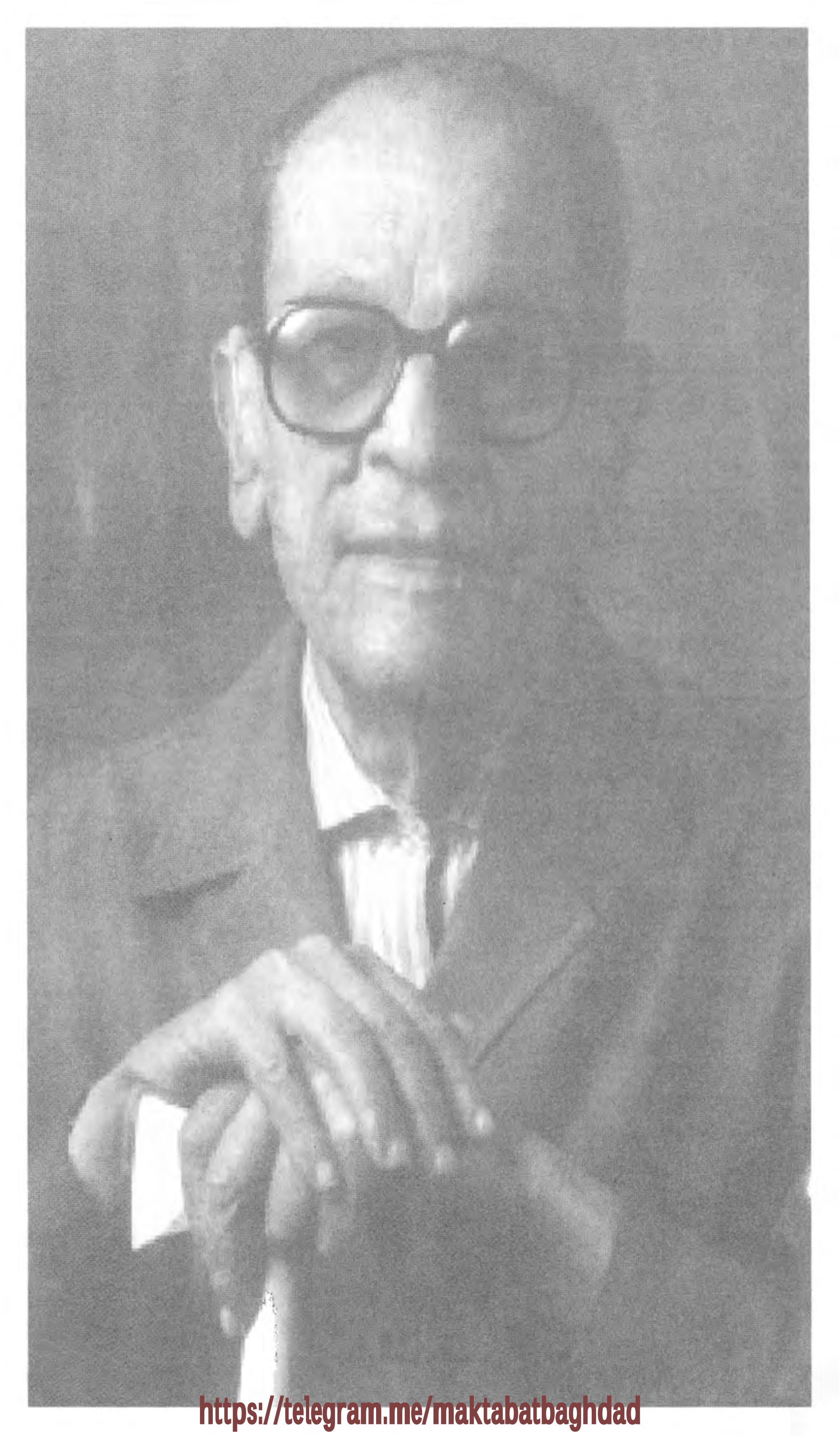
www.shorouk.com

الأعمـال الكـامـلة

نجيب محفوظ

٩

دار الشروق

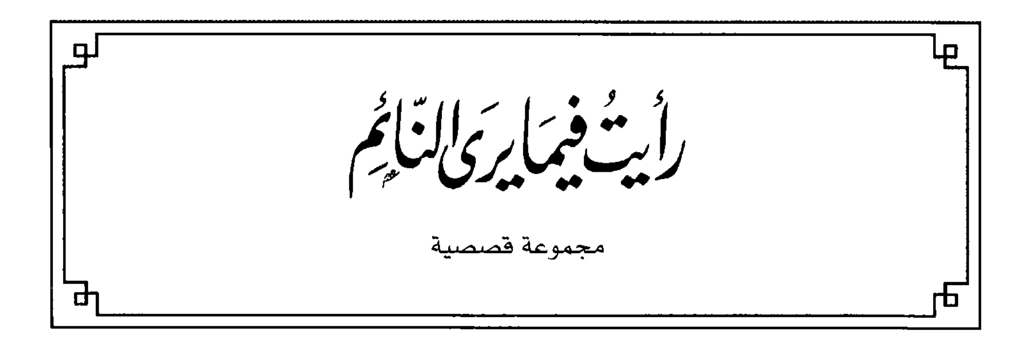


الأعمال الكاملة

نجيب محفوظ

٩





رأيت فيما يرى النائم

مجموعة قصصية

المحتويـــات

أهـــل الهـــوى

من فـوهة القبـو دائمـة الظلمـة زحف على أربع. زحف فى بطء وتخـاذل المريض المتهالك. مد ذراعه إلى جدار بيت، يتكئ عليه، ليقف فى عناء مترنحًا، تاركًا تأوهاته المتقطعة تتلاحق فى وهن. وفى صباح باكر مشرق بنور الربيع الصافى والحياة تدب متدفقة فى الحوانيت على الجانبين وفوق عربات اليد ونوافذ البيوت المتلاصقة العتيقة والسماء تعلو فوق كل شىء سقفا من الزرقة الرائقة. بدا عاريا تماما. فلفت الأنظار، خاصة أنظار الأقربين، نعمة الله الفنجرى تاجرة الخردة، رياض الدبش الكواء البلدى، وحلومة الجحش بياع الفول. تفرست نعمة الله فى منظره من مجلسها فوق الكرسى الخشبى أمام وكالة الخردة وجسمها العملاق ساكن فى جلبابها الرجالى الأزرق وتمتمت:

ـ يا فتاح يا عليم!

فقال رياض الدبش الكواء وهو يتابعه بوجهه المغولى:

ـ وراءه حادثة من حوادث القبو..

فقال حلومة الجحش بجسمه القصير البدين ووجهه الريان:

ـ يفعلها الذئاب ونتعب نحن بين س و ج..

واصلت نعمة الله تفرسها حتى وضح فى وجهها ذلك المزيج الغريب المكون من قوة مخيفة وأنوثة ناضجة مكشوفة ثم قالت بنبرة خبير:

ـ ابن ناس!

تجلى الاهتمام فى عينى الرجلين فتبادلا نظرة معبرة ربطت ما بين الدكانين الواقعين فى مواجهة الوكالة فى الجانب المقابل ثم حدجا القادم من المجهول بنظرة جديدة. إنه شاب فى الحلقة الثالثة، ناعم البشرة، مهذب الملامح، أبعد ما يكون عن الوجوه الكالحة المعهودة، ثم قال رياض الدبش مداريا انفعاله:

ـ اعتداء وسرقة!

ومضى يتجمع حوله جمهرة من المشاهدين ولكن نعمة الله نهرتهم فتفرقوا سراعا. وجاء مخلوف زينهم من أمام العيادة فى الوسط فتلقى الشاب بين يديه قبل أن يسقط فوق أديم الأرض عاجزا عن التماسك. ونادى عبدون فرجلة الشاب العامل فى الوكالة فأذنت له المرأة بتلبية النداء فتعاونا ـ مخلوف الممرض وعبدون ـ على حمله إلى العيادة. هناك أنامه مخلوف فوق كنبة وغطاه بملاءة منتظرا قدوم الطبيب محسن زياد فى ميعاده من الضحى. إنه رجل كهل فقد فى الحرب ابنا فى مثل سنه ولا ينقصه العطف على أى شاب رغم إيلافه مناظر العناء والمرض. ولما فحصه محسن زيان الطبيب تمتم:

ـ كدمات فى الرأس والجبين نتيجة ضربات شبه قاتلة، علينا أن نبلغ الشرطة..

فقال مخلوف زينهم بامتعاض:

ـ إنهم ذئاب القبو، وستغضب نعمة الله!

تبادلا نظرة تسليم واحتجاج، ثم تمتم الممرض:

ـ إنهم تحت حماية المرأة، وهم جنودها السريون عند الحاجة، ولا قبل لأحد بتحديها..

فشرع الطبيب فى العلاج وهو يقول:

ـ ما قيمة حياة تجرى تحت رحمة امرأة كهذه!

ولم ينقطع ذكر الشاب الضحية فى موقع وكالة الخردة. شغل حلومة الجحش بزبائن الفول وراح غلام فى دكان رياض الدبش يسخن المكواة فوق الجمر المتقد على حين انهمك عبدون فرجلة فى ترتيب ما تبعثر من إطارات السيارات القديمة وقطع الغيار المستهلكة والمحركات والمراوح البائدة.

وسألت نعمة الله عبدون عن حال الشاب الذى شارك فى حمله إلى العيادة فلاح فى وجهه الطويل الشاحب الضيق لاهتمامها به وقال:

ـ سنسمع قريبا عن موته!

فحولت رأسها المكلل بشعر أسود مفروق مسترسل فى ضفيرة غليظة ملتفة حول صفحة العنق ونافذة فى طوق الجلباب إلى رياض الدبش قائلة:

ـ سمعت ما يقول ابن التربى عن الأفندى؟!

فتساءل رياض الدبش مستنكرا:

ـ الأفندى؟!

ـ أفندى وحياتك، أفندى وابن ناس!

فدارى رياض غيظه بابتسامة ميتة وإن جارى عبدون فرجلة فى حنقه أما نعمة الله فتساءلت:

ـ ولكن ماذا جاء به إلى القبو؟

فقال رياض منفسا عن صدره:

ـ وراء بنت من حريم الذئاب!

فقالت بحدة بصوتها الجامع بين الأنوثة والذكورة:

ـ مثله لا يجرى وراء خنفساء!

ـ المؤكد أن الذئاب هجموا عليه فضربوه ثم جردوه من كل شىء..

ولما رجع إلى الظهور فى الحارة تبدى فى صورة أخرى. رفل حافيا فى جلباب قديم أهداه إليه مخلوف زينهم. لم يبق من آثار الحادث إلا ضمادة التفت حول رأسه كالعمامة. وبدلا من أن يذهب إلى حال سبيله هام على وجهه فى الحارة مثل كلب ضال بنظرة خائفة مستطلعة تعكس من الداخل خواء وحيرة ولا تعرف لنفسها هدفا. ووقف أخيرا فى مجال الرائحة الحريفة الدسمة البدائية المنتشرة من الطعمية فى ابتهال ذليل. حامت حوله أعين كثيرة لرجال ونساء سرعان ما هجرته فى لا مبالاة إلا عينين سوداوين ثبتتا عليه فى إصرار وتماد. ولمست عذابه فأمرت حلومة الجحش بأن يهدى إليه رغيفا وطعمية على حسابها. ورغم إشرافها على شحن ثلاث عربات بالخردة ومراقبة عبدون فرجلة والمشترين فقد تابعت التهامه للطعام بسرور وحشى.

يكاد الشعر النابت فى عارضيه ولغده أن يلتهم وسامة وجهه كما يلتهم هو الطعام. ترى لم لم يذهب إلى حال سبيله؟.. وماذا يبقيه فى هذه الحال الزرية البائسة؟. وبدافع من شعور فطرى بالامتنان تربع على الأرض غير بعيد من موقفها مسندا ظهره إلى جدار الوكالة الذى لاح له كمخزن لنفايات الحديد. وسألته باهتمام:

ـ اسمك يا جدع؟

فرفع إليها عينيه العسليتين فى حيرة واضحة ولم ينبس فتساءلت كالمحتجة:

ـ أهو سر لا يذاع؟!

فتحولت الحيرة إلى صورة ناطقة للعجز فقال لها رياض الدبش الكواء:

ـ الصبر ، ألا ترين أنه لم يشف بعد مما به؟

ـ لحد نسيان اسمه؟

ـ ما زال غير موجود!

فرجعت إلى الشاب قائلة :

ـ اسمك؟ . . تذكر وأجب ، من أنت ، من أين جئت؟

فانقلب العجز عذابا وتوجس خيفة فقالت بحدة :

ـ قل أى شىء . .

فغمغم مقهورا :

ـ لا أدرى . .

فرددت عينيها بين رياض وحلومة قائلة :

ـ إنه يهزأ بنا . .

فقال عبدون فرجلة وهو لا يكف عن العمل :

ـ دعينى أطرده بعيدا . .

فصاحت به :

ـ طردت العافية من بدنك!

ونادت مخلوف زينهم فلما حضر الكهل سألته عن الشاب فقال :

ـ إنه بلا ذاكرة!

فقالت بضيق :

ـ لم أسمع عن هذا المرض من قبل ، هل يطول غيابه؟

فقال الكهل بعطف :

ـ لا أحد يدرى ، من ناحيتى فإنى أسعى لدى الطيبين للتبرع بما يكفى لنشر صورة له فى الجرائد كى يهتدى أهله إليه .

فقالت المرأة بغلظة :

ـ كف عن ذلك ودع الأمر لى!

فرمقها الكهل بيأس ثم قال :

ـ لك الجزاء الحسن عند الله . .

ومضى نحو العيادة .

وأفسحت المرأة للشاب مجالا للعمل فى الوكالة معلنة بذلك اهتمامها به فأقلع الجميع

عن التفكير فيه إيثارا للسلامة. وراح يؤدى ما يطلب منه نظير طعامه وكسائه، وتجاهله عبدون فرجلة طاويا حقده فى قلبه خوفا من المعلمة، ولكن الحقد عليه تفشى فى قلوب كثيرة، فى مقدمتها قلبا رياض الدبش وحلومة الجحش. توقع كلاهما دهرا أن عبدون فرجلة هو المرشح للنعيم حتى زحف الفتى المجهول من القبو كالقدر، وتجلى رونق وجهه بعد الحلاقة، وشعر رأسه الممشط بعد إزالة الضمادة كما ارتسمت رشاقة قامته فى البنطلون القصير الكاكى والقميص الرمادى نصف الكم والحذاء الأسود الموكاسان. أما هويته المفقودة فلم تسترد، ومضت هوية جديدة بدائية تستكشف الوجود من حوله بدهشة ثابتة، مستهترة بالتقاليد والحياء والنفاق، لائذة بغرائزها المتحفزة. وتمنى له الحاقدون الشفاء لعله يختفى فجأة كما ظهر فجأة. أما نعمة الله الفنجرى، المرأة الرائعة المخيفة فكانت تحلم بمسيرة أخرى. سرتها نظراته النهمة البهيمية، ولغته الصامتة المكشوفة معا، وحومانه الحار الجنونى حولها بلا حياء، حتى قالت لنفسها «لابد من تهذيبه». قوتها الراسخة نفسها اهتزت حيال هوج انفعالاته الجامحة، فخافت أن يصيبها سوء مجهول بين يديه المندفعتين بعنف البراءة العمياء. وقالت لنفسها أيضا «إنى أخيف الرجال ولكن لا أدرى كيف أتعامل مع الزوابع». بدا غريزة مجسدة تهيم فى غابة من نفايات الحديد. وسمعت عبدون فرجلة يدعوه بالمجنون فنهرته قائلة بنبرة آمرة:

ـ إنه يدعى عبدالله!

فتساءل عبدون:

ـ ألا ترين أنه لا يعرف دينا ولا ربا؟!

فشكمته بضربة فى صدره أوشكت أن تطرحه أرضا، وسرعان ما عرف بعبد الله، ولكنها قلقت من حريته المطلقة المنذرة دائما بعواقب مجهولة. إنه لا يتورع عن مد يده إلى أى موضع خصب من جسمها فترجعه جادة حذرة، رغم ظهورها بمظهر الرجال فى الوكالة طيلة النهار، فكيف لو لمحها فى منظرها الأنثوى الطاغى فى مسكنها الناعم الخيالى فوق الوكالة؟!. وخطر لها خاطر حكيم ادخرته لزيارة الشيخ جابر عبدالمعين إمام الزاوية الذى يتلقى منها المعونة له وللزاوية فى أيام محددة. إنها تغطى طغيانها المخيف بنفحات كرم تسكت بها ذوى الألسنة القادرة، وتمارس فى الدين طقوسا وثنية فلا تأبى ـ رغم جبروتها ـ أن تؤنس وحدتها الداخلية بالأحجبة والتعاويذ. جالست الشيخ على أريكة قائمة فى الجانب الأيمن من الوكالة بين تلين من قطع الحديد. وتراءى عبد الله وهو يعاون عبدون فرجلة فى شحن عربة بالإطارات الملساء، ولمحت المرأة الشيخ وهو ينظر نحوه فقالت:

ـ أعطيته عملا ورزقا..

فقال الشيخ وهو فى أعماقه يخافها ولا يحبها :

ـ الله لا يضيع أجر من أحسن عملا . .

ـ ولكنه نسى الدين فيما نسى . .

ـ أعوذ بالله . .

فقالت بإغراء :

ـ هذه هى مهمتك يا شيخ جابر . .

ـ يا لها من مهمة شاقة ! . .

ـ لا تكن طماعا . وحظك محفوظ ، المهم أن تعلمه كيف يخاف ، يكفى هذا . .

أدرك لتوه أنها تريده على أن «يعده» لها . لعنها فى سره واستغفر ربه ، وقال لنفسه إنه ليس من حقه أن يسىء بها الظن استنباطا من نية لا يعلمها إلا الله ، وأن مهمته فى ذاتها خير يستحق عليه المثوبة . ودهش كثيرون عندما رأوا الفتى يساق كل عصر إلى الزواية لتلقى دروس فى الدين . وقال السذج إنها امرأة شريرة طاغية ما فى ذلك شك ولكنها لا تخلو من جانب خير . أما أمثال رياض الدبش وحلومة الجحش فقد فطنوا إلى اللعبة .

وتساءل حلومة بحرقة :

ـ متى أراها فريسة للزمن ؟ !

كثيرون يعيشون بجراح دفينة حفرتها فى قلوبهم أظافر المرأة . حظى من حظى منهم بالعشق حين جادت به وتجرعوا الهجر حين هجرت . وعند ظهور فتى جديد يختال فى أبهة النصر يتعزون عن الأسى يفترض النهاية المحتومة . إنها دائما تتربص هناك لا دافع لها ولا مهرب منها . ولكن متى تخمد نيران تلك الشهوة المتأججة ؟ ! . وراحت تكافئ الشيخ جابر على دروسه بكرم ثم تراقب الفتى وتنتظر . . ودخل فى مقام من مقامات الحيرة ، وتجلى التساؤل فى عينيه . ولم تشأ أن تسأله حتى يبادرها بالسؤال ، وقد سألها :

ـ أهو صادق فيما يقول ؟ . . أعنى الشيخ جابر عبدالمعين ؟

فقالت بحرارة :

ـ الصدق أعز ما يملك فى هذه الحياة . .

فاشتدت حيرته ومضى يعرف الحياء ، ويدارى انفعالاته ، ويأسف بعد ارتكاب الخطأ . وحثت هى الشيخ على أن يعفى الفتى من التعمق أو يكلفه بما لا يطيق . إنها تكره العارفين الذين يستشهدون عند كل موقف بما يناسبه من الآيات . إنها ترغب فى امتلاك الشاب وتخاف تمرده ، وعلمتها حياتها أن القليل من الدين مفيد أما الكثير منه فينذر بالخطورة والغم . وهى مرتاحة إلى نمو رغبته فيها وعذابه الدفين بالتردد والحياء والخوف بعد أن وسع قلبه الرغبة والعبادة فى آن . وتمتم أمام شيخه :

ـ الله والجنة والنار .

فقال له الشيخ جابر :

تدبر ذلك بعقل ناضج تجاوز الطفولة والصبا . .

فتساءل فى حيرة :

ـ والرغبات الجامحة من خلقها؟

فقال الرجل بضيق خفى :

ـ هذا هو امتحان الإنسان . .

وعلم فيما علم بما ضاع من ماضيه . أى فرد يجهل مستقبله أما أنا فأجهل ماضيّ ومستقبلى معا . ماض ليس بالقصير وحفل ولا شك بأشياء وأشياء . ولم يفطن إلى جو الحقد الذى يلفحه إلا قليلا ، فعدا عبدون فرجلة لم يشعر بعداوة مجسدة ، ولم يفطن كذلك إلى أن نعمة الله ترصد اللحظة المناسبة لانتزاعه نهائيا من يدى الشيخ عبد المعين . ولكن قلبا واحدا ظل يخفق بالعطف عليه هو قلب المرض مخلوف زينهم . تسلل مساء إلى الزاوية فصلى المغرب ثم انتحى بالشاب ناحية عقب انتهاء الدرس . لمس التجهم المشوب بالقلق يغشى وجه الشيخ جابر فغضب وقال له :

ـ اخش ربك وحده!

فتساءل الشيخ بحدة :

ـ وأنت ألا تخشى المرأة أيضا؟

ـ يمكن أن تستمد من العمامة قوة وليس لى ذلك .

فقال الشيخ :

ـ لولا المرأة ما كانت الزاوية!

فقال له بأسى :

ـ إنك تعلم أنها ترعاها من أجل الشيطان . .

وأقبل على الفتى معرضا عن الشيخ وقال :

ـ سوف تسترد ماضيك يوما ما ، مظهرك يدل على أنك منحدر من أصل طيب ، ولعلك كنت ماضيا فى مهمة نافعة ، لست من حينا فماذا جاء بك إليه؟ ، والعمل المتاح لك اليوم لا يناسبك فماذا كان عملك؟ . .

فتمتم عبدالله :

ـ لا حيلة لى الآن . .

ـ هذا واضح ، المهم ألا تتورط فى مأزق يتعذر الخروج منه إذا انقشعت الظلمات . .

ـ نعمة الله هيأت لى عملا ومأوى . .

ـ هى فى الحقيقة نقمة لا نعمة!

ـ لولاها . .

فقاطعه :

ـ إنها صاحبة خطة قديمة متجددة، سوف تهبك نفسها فتظن نفسك سيد العالمين . .

فتورد وجه الفتى وخانه السرور فأضاء به وجهه فقال الرجل بحزن :

ـ لست الأول ولن تكون الأخير، وسوف تلفظك حتمًا وبلا رحمة فتتلاشى ساعات السعادة الزائفة فى حمأة الهجر الدائم وتنضم إلى ركب التعساء الكثيرين . .

قلقت فى عينيه العسليتين نظرة حائرة ولكن موجة الفرحة القريبة الراقصة اكتسحت نذر المصير المخيف المجهول، فقال الرجل وهو يصارع الهزيمة :

ـ إنها قوية بلا حدود، حتى ذئاب القبو الذين اعتدوا عليك يخضعون لها، وعند الضرورة تزهق روح من يعاندها، هى السحر وكفى . .

فتساءل الشاب احتراما لعطف الرجل :

ـ ماذا تريد منى؟؟

ـ أن تهجر الحارة فى الحال . .

ـ إلى أين؟

ـ ستجد لك رزقًا فى مكان ما حتى تستعيد ذاتك . .

صمت دون حماس فتساءل الرجل بقلق :

ـ أوقعت فى قبضة قدرك؟

فأجابه بصمت ناطق واستخفته الفتنة، وشعر مخلوف زينهم أنه يجرى بعيداً عنه، وأنه ينطلق نحو تجربته المهلكة بحماس دافق. تنهد الرجل، قام وهو يتبادل مع الشيخ نظرة حنق ثم مضى وهو يقول للشاب :

ـ اللّه معك!

وهلّ الصيف بشخصيته الواضحة المتحدية، وتحت شمسه المحرقة سرى العنف فى الحناجر واحتدم الخصام لأتفه الأسباب. واتهم عبدون فرجلة الفتى بسرقة قروش افتقدها فانقض عليه يصارعه لولا ظهور نعمة اللّه فى اللحظة المناسبة وإنذارها عبدون بالطرد إذا عاود العدوان. وقررت المرأة كف الفتى عن دروسه الدينية اكتفاء بما حصل من قشور فكثر الفراغ فى حياته كما كثرت الهموم. بات يخاف اللّه، ويخاف عبدون، ويخاف تحذيرات عم مخلوف زينهم، ويتساءل عن ماضيه الطيب والمهمة التى جاءت به

إلى هذه الحارة العصبية، ويتساءل متى يبدأ العشق قصته، وماذا يمكن أن يقال عن المصير المحتوم، وألا يكون خسرانه أكبر إن تجنب التجربة المغرية ليتفادى من المصير المحزن؟!. خاض فترة قلق، وتطلع إلى معلمته بنفاد صبر، وجزع لانهماكها فى العمل وما يبدو من تجاهلها لحاله. غير أنها كانت قريبة منه أكثر مما يتصور، ومتغلغلة فى تلافيف ذاته بقوة امرأة آسرة وأسيرة فى آن. إنها رغم قوتها المعترف بها، وقدرتها الإدارية، وسطوتها الأسطورية، فريسة لخيالها المنطلق وعواطفها الجامحة. إنها تعشق حتى الموت، وعشقها داء لا دواء له، وعندما يرشح لها قلبها فتى من الفتيان فتهيم به وتجن، ولكن الخبرة ترسم لها وسيلة ظاهرها القوة واللامبالاة. تؤكد لديها أنها تعانى حال عشق جنونى لا نزوة طارئة فتأهبت للتجربة. لاذت بخلوتها الصغيرة بمسكنها الوثير المفروشة أركانه بالشلت الدسمة المكسوة بالأغطية الخضراء، يتوسطها وعاء نحاسى مجوف ملىء نصفه بالبخور ونصفه الآخر بقصاصات منقوشة بالتعاويذ والأدعية والنداءات الخفية.

ذرت قبضة من البخور فى مجمرة ثم لهجت بابتهالات تستحضر بها ساحرها القديم الذى غادر الدنيا على عهد شبابها الأول. وشملت الظلمة المكان إلا لآلئ تتألق فى الجمرات وانتشرت رائحة البخور العميقة مفعمة بالابتهال والنداء. وحل بالظلمة وجود جديد، ثمرة للرغبة الحارة المستميتة، كحضور ذى وزن ملأ فراغ الخلوة بثقله غير المرئى، وسرعان ما انقشعت الوحدة وتلاشى الألم. تشجعت وهمست دون أن تجفف عرقها:

ـ أهلا بك يا برجوان..

فنفذ إلى أعماقها صوته المغلف بالموت:

ـ القبو يطيعك، الرجال يخافونك، شبابك حى..

فهمست باشفاق:

ـ حل بى الجنون من جديد.

ـ صاحبك أيضًا مجنون.

ـ قد يرجع إلى ذاته قبل أن أبرأ من عشقه!

ـ إذا رجع نسى الماضى ولا حيلة فى ذلك.

فقالت بتوسل:

ـ سحرك قادر على كل شىء.

فقال بضجر:

ـ أولى بك أن تحذرى مخلوف زينهم.

فهمست بقلق:

ـ أعلم نواياه ولكنى أخاف أن أؤدبه بنفسى فأرعب الفتى . .

فتنهد الظلام فى استجابة، وتلاشى الحضور فى الحال فعادت إلى وحدتها ولكن بقلب مترع بالثقة. وأقعد المرض الممرض مخلوف زينهم عن عمله فى عيادة الطبيب محسن زيان. وعرف فى الحارة أنه أصيب بروماتيزم مفصلى شديد غير أن الشيخ جابر عبد المعين قال لزوجته:

ـ إنه من عمل نعمة اللّه!

فقالت المرأة مذعورة:

ـ ليتك لم تش به.

غضب الشيخ ولطمها على وجهها لطمة شديدة.

وأراد عبد اللّه أن يعود الرجل الذى كان أول من كساه بعد عرى ولكن نعمة اللّه قالت له:

ـ لا أحب هذا . .

ثم خففت من وقع أمرها فقالت له:

ـ مسكنى فى حاجة إلى الخدمة، وقد اخترتك لذلك.

ونسى صاحبه وتساءل فى سرور طاغ «ترى هل انتهى العذاب؟!» وثمة باب فى الوكالة يفتح على سلم للمسكن تسلل منه ليلاً. استقبلته رائحة البخور وضوء مصباح كهربائى مثبت فى أعلى الجدار. صعد فى الدرج ووجدانه يسبقه يطمس بحمياه معالم المكان. فى نهاية دهليز رأى بابا مواربًا يشع منه نور، مضى إليه وتنحنح. جاءه صوتها الليلى الرخيم داعيًا فدخل. لم ير من الحجرة سواها وهى مستوية على كنبة مسندها مطعم بالصدف فى جلباب حريرى أبيض يخفى قسمات الجسد ولكنه ينبئ عن عملقته بطريقة انسيابية تثير الخيال. وليس فى الوجه المتسلطن أثر من زواق ولكنه ينضج بأنوثة فوارة بعد أن خلعت قناع الذكورة الصارم الذى تتعامل به فى الوكالة والحارة. والشعر الأسود ذو لون طبيعى لا يشى بأى تكلف كيماوى، دافئ بشباب راسخ. تركته واقفًا فى جلبابه الفضفاض، لم تخفف من ارتباكه بكلمة، كأنما لتمتحن أثرها فيه، ولترى لأى تكون الغلبة: الخوف أم الرغبة؟. ومن شدة حرجه انتزع عينيه منها ليلقى نظرة عما حوله ولكنه لم ير سوى النظافة وكأنها تقوم بذاتها. وتنفس رائحة طيبة. قال:

ـ لعله وقت مناسب لتنظيف المسكن ولكنه ليس فى حاجة إلى تنظيف . .

فصبت من إبريق مفضض فى قدحين فوق خوان مطعم بالأصداف سائلاً فاحت منه رائحة القرفة الممزوجة بالزنجبيل، وعادت تنظر نحوه. وبسريان الخمر غير المنظورة فى دمه التصق بصره بها فى جرأة السكران. وتمادى فى انفعاله حتى اكتسح العواقب

واستسلم لتيار قوى دفع به نحوها كالقذيفة. وكالقذيفة راح يتنقل بين أبعادها وهى تتلقفه بحنان حار، ورضى آسر، واستجابة مستكينة وحماسية معًا. وما لبث أن توج فوق عرش النشوة والسيادة، وامتلأ واقعه بعذوبة الأحلام. وتمنى لو استمر ذلك دون توقف، لو كان الحب ذا سياسة أخرى، لو أن السعادة لا يجرفها تيار الذكريات. لكنه وجد نفسه راقدًا فى حضن الفتور الجليل يرى الأشياء لأول مرة. إنها حجرة أنيقة حقا. متوسطة الحجم، مزينة الجدران بسجاد صغير وبسملة مذهبة، تتوسط أضلعها كنبات وثيرة ذوات أغطية مختلفة الألوان ومساند مطعمة بالأصداف مموهة بالأمثال، مغطاة أرضها بسجادة حمراء فى وسطها مجمرة كبيرة تحت مصباح كهربائى فى قنديل. وسرعان ما انتقل من الفتور إلى القلق حتى قالت له:

ـ نظرة عينيك لا تعترف بجميل.

فلثم خدها وهو يقول ببراءة:

ـ أخاف النار!

فابتسمت قائلة بحنان:

ـ عندما تهب المرأة نفسها فالعلاقة شرعية مباركة!

فمال إلى تصديقها بكل قواه ورآها جديرة بالانقياد، أما هى فواصلت:

ـ منذ الساعة فأنت شريكى فى البيت ووكيلى فى الوكالة!

وتبدى فى صورة جديدة، صورة المعلم الشاب بجلبابه الأبيض ولاثته المزركشة، وزهوه المتورد. وعمل عبدون فرجلة فى ظله، مكرها على طاعة مرة كالسم، منطويًا عن مقت وحسد كالنار. وشاركه فى عواطفه الدفينة رياض الدبش الكواء وحلومة الجحش الفوال وآخرون. ولكن عبد اللّه تجاهل فى نشواته العواطف الدفينة. وأقبلت السعادة كالشمس تنتشر أشعتها فى جميع الأرجاء فجذبت مسمعيه ضحكات السكارى والمساطيل وأطربتها أنغام المزامير الراقصة وأغانى الراديو وتصادم عما عدا ذلك حتى آمن بأن مهجره الجديد ما هو إلا موطن للسرور والرحمة فشكر الحظ الذى ساقه من المجهول إلى القبو واستخلصه من ماض لا يجوز أن يأسف عليه. وانغمس فى الحب فى الليالى المذابة فى أقداح القرفة والزنجبيل الحاوية لنفثات السحر، الداعية لعوالم الخيال والذهول. وتكشفت نعمة اللّه عن معجزة لا نهاية لإبداعها وفنونها وأنغامها، ولا نهاية لقدرتها الخارقة فى إشعال الحيوية وتفجير الطاقة، وخلق المسرات، وإشباع الكرامة، وإرضاء الغرور، انغمس فى الحب حتى قمة رأسه، وتعلق بها حتى الجنون، وألهمته سعادته الإحساس بالدوام والخلود، فاقتنع بكل قواه بصدقها وإخلاصها ووفائها، وتطايرت أصداء ما قيل له عنها فأنسيه وكأنه لم يكن. ونسى تمامًا القلق والتساؤل

والحيرة والإساءات العابرة فبدت جميعها كالأشباح الوهمية التى تفنى فى ضوء الشمس الساطع. وقالت له ليلة فى دعابة:

ـ أراك لا تتكلم إلا نادراً..

فتحير قليلاً ثم قال:

ـ السعيد لا يجد ما يقوله إلا نادراً..

فابتسمت قائلة:

ـ كتب علينا ألا نسمع إلا ما يسوء!

فقال ضاحكًا:

ـ إنى أثرثر ولكن بغير لسان!

ـ ألا توجد فى قلبك رغبة؟

فقال بحماس:

ـ أن يدوم الحال..

فقالت بنبرة صدق:

ـ هو ما أوده أيضًا..

ـ إذن فلن يهدد دوامه شىء..

وصمتت قليلاً وهى تتفحصه ثم سألته:

ـ ألم يعد يهمك أن تعرف المجهول من حياتك؟

فهتف ضاحكا:

ـ أبدًا، الحق أنى أخشاه على حاضرى..

ـ وأنا أيضًا مثلك.

وبعفوية تبادلا قبلة ثم قال:

ـ ألا توجد وسيلة لحماية حبنا إذا انكشف المجهول؟

ـ هذا ما لا أدريه..

فتساءل بحرارة:

ـ ألا ترينه أقوى من أن يؤثر فيه شىء؟

فقالت بحماس:

ـ هو كذلك..

فاستوى حصنا منيعًا من اليقين والطمأنينة خليقًا بأن يصمد لأجن العواصف

والترهات . وثمل بسعادته فلم ينتبه لجريان الزمن . فى تلك الغفلة العذبة تلاحقت أيام الصيف لاهثة وتسلل الخريف بخطاه الخفيفة ، ينفث فى الجو أنفاسه الرقيقة ويخضب السماء بفرشاته البيضاء ويغزو القلوب بأنغامه الشجية . ومضت نيران العواطف المتأججة تخبو قليلا قليلا ، ويحل محلها حب هادئ ، موسوم بالاعتدال ، متحرر من جنون الإفراط ، مالك لوقت ينفقه فى التعامل مع سائر أركان الحياة . وزحف ذلك التطور على الطرفين معًا ، الفتى والمرأة ، فخلطا أحاديث الهيام بهموم الوكالة والحارة ، واستأثر الجد بالحوار حينا فخلا من أية مداعبة ، فانبثق التلاقى الحميم ثمرة للرغبة مرة ، وثمرة للعادة أو دفعًا للشكوك مرات ، حتى تساءل عبد اللّه ما هذا الذى يحدث؟! . بدا كل شىء بالقياس إليه ـ بخلاف المرأة ـ كأنما يحدث هكذا لأول مرة فى تاريخ البشر . واسترق النظرات إلى المرأة الهادئة فساورته الشكوك وازدحم أفقه بالفكر . ولمح يوما عم مخلوف زينهم وهو ماض نحو العيادة فاستعاد تاريخه معه فى لحظة . أدرك بكل سرور أن الرجل برىء من مرضه فاندفع نحوه بتلقائية ، ولكن الكهل صدمه بنظرة باردة رافضة وابتعد عنه فى تجاهل تام . توقف متعثرًا فى ارتباكه ، متذكرًا ذنبه فى إهماله حين مرضه ، وتراجع إلى موقفه وهو يتلقى من أعين كثيرة نظرات لاذعة . شعر بأنه خسر صديقه الوحيد فى الحارة . وانتبهت حواسه لما حوله من جديد فقرأ الحسد والشماتة فى أعين عبدون ورياض وحلومة! . الجو مشحون بالكراهية والحسد . وتذكر تحذيرات زينهم فأوشك أن يفقد الثقة ، وبدافع من تحد راح يقطع الحارة ذهابًا وإيابًا ويختلف إلى المقهى بعض الوقت . وتتلقى أذناه كلمة من هنا وكلمة من هنا . لم يتصور أن تكون امرأته الشغل الشاغل للناس بهذه القوة . هل عشقتهم ونبذتهم جميعًا؟! . إنهم يخافونها بقدر ما يمقتونها وكأنها لا حيلة لهم قبالتها . وهى فى نظرهم قوية ، بل أقوى من جملة رجال أشداء . ولكن لا أهمية لقوتها إذا قيست بتمرسها بالسحر وتعاملها مع العفاريت ، أو بتسلطها على ذئاب القبو الذين لا يتورعون عن القتل خدمة لها . ولا يكاد ينخدع أحد برعايتها للزاوية وشيخها أو برها ببعض الفقراء ، ويرون فى ذلك ستارًا كاذبًا تسدله على آثامها ورغبتها الشرهة فى التحكم فى الناس والأرزاق . وإذن فجميع مظاهر السرور فى الحارة ما هى إلا قشور أما الحقيقة فهى أنها تعيش فى جو يموج بالخوف والحقد ، تهدده فى كل حين الذئاب والعفاريت ، وتنحسر فى الوقت ذاته عن ساعات لذة عابرة جادت بها المرأة المحترفة فى غفلة من الزمن . أهذه هى نعمة اللّه حقًا أم أنه خيال يشعله الحسد والحقد؟! . ألم يجد حبها صادقًا وعطفها شاملاً وإخلاصها راسخًا؟! . وحتى الهدوء الذى آل إليه ألم يقع له نفس الشىء؟! . هل يمكن أن يتهم هو بسبب من الاعتدال بعد الجنون بفتور الحب أو انقلاب العاطفة؟! . ولكن من ناحية أخرى لم يتقرر له مصير غير مصير الآخرين؟! ، لم ينج من الكأس التى تجرعها الجميع حتى الثمالة؟! . وتلتقى عيناه

بعينيها وهى منهمكة فى العمل فتبتسم إليه ابتسامة حلوة تمحق وساوسه فيشرق الأمل بنفسه من جديد. وتشجع فى ليل ذلك اليوم الخريفى وقال لها وهما يرشفان من قدحى القرفة بالزنجبيل ويهيمان فى ملكوت الأوهام الحانية:

ـ أتدرين ما يقال عنك فى الحارة يا نعمة اللّه؟

فداعبت وجنته بأناملها وقالت:

ـ لست غافلة عن شىء يهمنى أبدا.

فقال بامتعاض:

ـ ما أظلمهم يا نعمة اللّه.. !

فتساءلت فى دعابة:

ـ أترانى ملاكًا؟

ـ إنك عظيمة وطيبة..

فقالت بهدوء:

ـ ولكى أكون عظيمة وطيبة يجب أن أكون أحيانًا حازمة وقاسية..

فتساءل وهو يكتم وساوسه:

ـ لك تاريخ عجيب ولا شك؟

ـ طبعا، إنى سليلة فتوات كما كان أول زوج لى فتوة فنشأت قوية ولكنى كنت يومًا وما زلت ذكية فسلمت بانتهاء عصر الفتونة، غير أنه لا غنى عن القوة والذكاء.

ـ أحقا تسيطرين على الذئاب؟

ـ نعم، إن لم أسيطر عليهم سيطر عليهم الآخرون وحلت الفوضى..

فسأل بعد تردد:

ـ وهل تجيدين السحر أيضًا؟

ففكرت قليلاً ثم قالت:

ـ هذا هو الاسم الذى يطلقه العجزة على الذكاء..

فقال بقلق:

ـ التعامل مع العفاريت أمر مخيف..

فتساءلت ساخرة:

ـ هل عثرت على عفريت فى هذا البيت الجميل؟!

فتنفس بارتياح وتساءل:

ـ لم لا تعيشين مثل الناس العاديين؟

فقالت بكبرياء :

ـ لأننى لست عادية!

وساد الصمت حتى تجلت للسمع أصوات رقيقة للخريف فى الخارج، وجعلت تلحظه باهتمام فلما لاذ بالصمت قالت مستلهمة نظراتها النافذة فى الأعماق :

ـ قل ما عندك، ما زال عندك ما يقال . .

فضحك ضحكة قصيرة وتساءل :

ـ أحقا تزوجت من كثيرين؟

فقالت باستهانة :

ـ نعم .

ـ وهجرتهم أو أجبرتهم على الهجران؟!

ـ نعم .

فتساءل وقلبه يخفق :

ـ ولكن لماذا؟

فقالت ببرود :

ـ لم أجد بينهم صالحًا . .

وراقبت وجومه قليلاً ثم همست فى أذنه :

ـ أنت أول من أجد!

فرنا إليها غير مصدق فقرأ الصدق فى عينيها الجميلتين المتسلطتين وهمس فى أذنها :

ـ لا حياة لى بدونك يا نعمة اللّه . .

ـ ولا حياة لى بدونك . .

فقال بحماس وحرارة :

ـ أخاف عليك حقدهم المنتشر . .

فقالت ساخرة :

ـ لا خوف من حقد مصدره العجز . .

ـ كراهيتهم لى أيضًا تلفحنى فى كل خطوة .

فقالت بوضوح :

ـ احذر أن تظهر خوفًا أو قلقًا .

مضى يسترد الثقة والسكينة بين يديها، ولكن تبدد أمنه فى الوكالة والحارة. استعاد حديثها كثيرًا فلم يعرف الاستقرار قلبه. امرأة تثير عواطف شتى ومتناقضة. تلهم الحب والطمأنينة والخوف والشك. يراها فى الوكالة شخصًا آخر. يرى رجلا قويًا ومثالاً للحزم والعنف أيضًا. لا تقارب بينه وبين الأنثى التى تبهر الليالى فى المسكن الناعم. وخطر له أن يسأل نفسه «ترى هل وجد مثل هذه الحيرة فى حياته المجهولة؟!». وكان يتذكر حياته الأخرى لأول مرة منذ أمد غير قصير. أكان أسعد حالاً أم أتعس؟!. أكان أرفع منزلة أم أدنى؟. أكان يحترق بغضب الآخرين أم نعم بسلام دائم؟!. من أى جهة جاء وأى جهة قصد؟!. لكنه عبر ذلك بسرعة وكاد ينسى كل شىء لولا أن سألته فى مجلس الليل:

ـ فيم تفكر يا عبد اللّه؟!

فأجاب بسرعة:

ـ لا شىء..

ـ كنت فى النهار كالمسافر.

وذابت إرادته تحت نظرة عينيها فاعترف لها بتساؤلاته. فنظرت إلى السقف المنقوش بزخارف متداخلة لا يعرف لها أول ولا آخر، وقالت:

ـ إنها أول إهانة أتلقاها منك..

فهتف بجزع:

ـ خواطر فارغة ولكن لى عذر.

ـ لا عذر لك..

ـ تقبلى أسفى..

فتساءلت فى عتاب:

ـ ماذا تريد أكثر مما أعطيتك؟

ـ لا شىء.

ـ ولكنك تحوم حول تساؤلات عقيمة، وهذا هو الحمق..

ـ نطقت بالحق.

ـ لا تكن منافقًا كالآخرين.

ـ بل نطقت بالحق وما أطمح إلا إلى دوام ما أنا فيه..

فقالت بحدة:

ـ ستعرف مجهول حياتك ذات يوم وسوف تندم..

ـ شعر بأنها امرأة محبة وغيور، ونعم ليلتها بسعادة صافية، وعندما ساد الظلام خطر بباله سؤال «ترى هل الندم هو الجزاء الأوحد لمعرفة المجهول من حياته؟!». ولكنه رغم الظلام، وهبوط النوم، خاف أن تفضحه نظرتها النافذة. وانغمس فى حياته بإصرار، وركز على سماع الأغانى والنكات، وتجنب ما استطاع نثار شواظ الغضب الهادر وتمنى أن تمضى حياته هكذا أبدا. على أن الحياة مضت فى طريقها على أى حال. ، وانتهى الخريف كما انتهى الصيف من قبل وإن لم ينته فى غفلة كاملة. ولا بنفس السرعة. ولكن الليل طال وتلفعت بواكير الصباح بالظلمة وزفرت الأبدان قشعريرة. وتأخر شروق الشمس حتى انقشاع الغمام وجادت السماء بمطرة واحدة. وغيّر ملابسه الداخلية والخارجية وتواصل التغيير فشمل أشياء كثيرة. تسلل التغيير فى خطوات غير مسموعة ولولا حساسيته ومخاوفه الدفينة لأفلت منه تماماً. وزاد من قلقه أن التغيير ينبثق منه، من أعماقه، ففتر حماسه لمجلس الليل الذى لا يعد بجديد وغدا الاستسلام للنوم ألذ من السهر، وتمنى لو كان له أصحاب يسامرهم فى المقهى حتى منتصف الليل. وانطفأت بروق كثيرة تحت عباءة العادة الثقيلة، فاستيقظ الفكر وخبت شعلة العواطف والغرائز، وخاف أن يقف كالمتهم بين يديها، أن يتلقى من عينيها السوداوين نظرة ساخرة ولكنه وجدها تسايره بارتياح وعفوية. وتشغل عن اللهو والزينة بالتفكير فى العمل أو باستقبال بعض العملاء ثم يأويان إلى النوم آخر الليل مثقلين بالتعب. توقع منها مطاردة محرجة فوجدها تغوص فى العقل والهدوء واللامبالاة. وفجر ذلك قلقه ولم يطمئنه، ورأى فيه نذير شر. وصمم على افتعال العاطفة وبعث الرغبة المرهقة مهما كلفه ذلك من جهد جنونى. ولم يحظ ذلك من الطرف الآخر بعطف فأعرضت عنه مرات فى استياء لم تحاول إخفاءه، حتى قالت له مرة:

ـ دع الأمور تجرى على سجيتها..

عند ذلك أضناه الحياء والألم. وندم على ما فرط منه من اندفاع جنونى أحمق. كأنما كانت كل ليلة هى ليلة الوداع. وبات ذلك الفتور شغله الشاغل فنسى كل مأساة إلا مأساة الحب. هل يفقد هذه القوة العجيبة كما فقد الذاكرة؟. وهل يجرى عليه ما جرى على أزواج نعمة الله السابقين؟!. وجعل يقوم بعمله فى الوكالة بعقل غائب ووجه نضب فيه معين السرور والمرح. ولحظ أن عبدون فرجلة يتابعه بشماتة، وأن نظرات رياض الدبش وحلومة الجحش تبرق بأضواء فرح شرير. ما أكثر الذين ينتظرون على لهف نهايته. ولكنه سيخيب الظنون ويبدع فى مجرى الحوادث ما لم يبدعه أحد ممن سبقه. سيظل الفتى المرموق فى هذه الحارة التى يحترف أهلها الشكوى والعويل وتردد أغانيها أنات الهجر والحرمان. وشعر بحاجته إلى صديق يشاوره. ولكن لا صديق له فمن يشاور؟!

وخطر له الطبيب محسن زيان فذهب إلى العيادة فكان أول زائر فى الصباح. قابله مخلوف زينهم كغريب فقال له عبد اللّه:

ـ السماح من شيم الكرام يا عم مخلوف.

فقال له الكهل باستياء:

ـ إنى أعلم متى ينسى أمثالك ومتى يندمون.

وغادره إلى حجرة الطبيب ثم عاد ليدعوه للدخول فى جفاء. نظر إليه الطبيب متفحصًا ملابسه البلدية الصوفية الفاخرة وابتسم، ثم سأله:

ـ جئت من أجل ذاكرتك؟

فأجابه بصوت مهموس عما جاء من أجله. وطرح الرجل عليه أسئلة بخصوص عمره وعمله والأسلوب الذى اتبعه فى حياته «الزوجية». ثم قال له:

ـ إنه الإفراط البعيد عن العقل.. والقلق النفسى.. تلزمك راحة جسدية ونفسية..

فهمس عبد اللّه:

ـ والدواء؟

هز رأسه نفيًا وقال:

ـ سيضرك أكثر مما يفيدك..

رجع إلى الوكالة مغتمًا وهو يلعن الطبيب. وازدادت حاله سوءًا فحصر فى ركن مظلم وغمغم لنفسه «كأنه مصير لا مفر منه». وإذا بعبدون فرجلة يسأله:

ـ سلامتك. لماذا ذهبت إلى العيادة؟

فقال له بحنق:

ـ انتبه لعملك، متى كانت صحتى تهمك؟!

فقال الشاب متظاهرًا بالجدية:

ـ سمعت الشيخ كافور يقول يومًا لا يملك إنسان ما يستحق أن يحسد عليه حقا»..

فصاح به:

ـ أنت كاذب ولم يخل قلبك من الحسد ساعة واحدة..

وخيل إليه أن حكاية الاستشارة الطبية تلوكها ألسنة لا حصر لها فازداد انحصارًا فى الغم واليأس وغمغم لنفسه مرة أخرى «كأنه مصير لا مفر منه» وفى هذه الدوامة المظلمة المنذرة بسوء المصير انساق بقوة إلى التفكير فى المجهول من حياته. فقد يجد فيه المأوى إذا افتقد مأواه. وقد يجد فيه العزاء إذا عز العزاء. هذه الحياة المتاحة تتسرب من يديه كالماء، لم تعد حقيقة ثابتة ولكنها حلم تحدق به يقظة الصباح القريب. وسوف يجد نفسه وحيدًا

منبوذًا ضائعًا إن لم يهتد إلى حقيقته الغائبة . إنه صاحب حياة ماضية ، تمثلت فى أهل وعلاقات وأناس ، تجسدت فى حى من الأحياء القريبة أو البعيدة ، وثمة عمل ارتزق منه ، وربما زوجة وأبناء ، وثمة هدف دعاه إلى المجيء إلى هذا الحى ، وحدث ما دفع به إلى القبو حيث وقع له ما وقع ففقد كل شيء . ترى ما السبيل إلى الكشف عن تلك الحقائق الغارقة فى الظلام؟! . وقد سمع ما يقال عن نشر صور المفقودين فى الصحف فلمَ لم يجد أحد فى البحث عنه؟! وهل ينشر هو صورته باعتباره فاقد الذاكرة؟! . تردد طويلاً أمام هذه الفكرة لخطورة عواقبها . أجل قد دار الحديث يوما فى المقهى عن هارب تبحث عنه الدولة لتشنقه ، كما سمع آخر يقرأ إعلانًا لأسرة موجهًا لابن هارب تقول له «يا فلان . . عد إلى أهلك ، جميع طلباتك مجابة!» ، فإلى أى الفرعين ينتمى؟ ، وهل إذا نشر صورته انقضت عليه الشرطة أو تحققت أمنياته جميعًا؟ ، ماذا يكمن وراء الباب المغلق ؟! . تراجع عن الفكرة وهو يزداد مرارة ، وشعر ـ كما لم يشعر من قبل ـ بحاجته إلى الصديق أو فى الأقل المشير . لم يفكر فى نعمة اللّه التى مضت توغل فى الغربة والبعد حتى كاد ينكر المسكن تواجدهما معًا تحت سقفه . ومضى إلى العيادة ، ولما رآه الطبيب محسن زيان تساءل باسما :

ـ من أجل الحب أيضًا؟

فأجاب بضيق وهو يشير إلى رأسه :

ـ من أجل الذاكرة . .

ففكر الرجل طويلاً ثم قال :

ـ لو كنت تعيش فى بيئتك القديمة بين أهلك لساعدك ذلك على الشفاء ، ولوجدت فى معلم ما أو شخص ما يوقظك من نومتك الطويلة ، ولكنك مارست حياة تشجع على النسيان وتخاف اليقظة . .

فسأله يائسًا :

ـ والعمل؟

ـ لعل إصابتك عضوية ، ولعلها أكثر مما قدرت ، وفى هذه الحال يستحسن أن تستشير إخصائيًا ، وربما أحالك إلى طبيب نفسى . .

فقال بضيق :

ـ إنه مشوار طويل .

ويحتاج إلى إرادتك فى جميع الأحوال ، وواضح أن صحتك ليست على ما يرام ، وسأكتب لك بعض المقويات كخطوة أولى . .

ولبث فى العيادة حتى غادرها الطبيب للغداء فوقف قبالة مخلوف زينهم قائلاً :

ـ إنى مصمم على نيل عفوك . .

فقال الرجل ممتعضًا :

ـ لا ثقة لى فيك ولا فى غيرك . .

ـ لا أحد يستحق الثقة كما قلت ولكن كثيرين يستحقون العطف . .

ـ أنكرتنى والشمس تشرق ورجعت إلى وهى تؤذن بالغروب . .

ـ اغفر لى ذنبى ومد إلى يدك . .

فهبطت حدته درجات وهو يسأله :

ـ ماذا تريد؟

ذهبا معا إلى المقهى ، فأرسلا الصبى لإحضار غداء من شوربة العدس ولحمة الراس ، وجعل يحكى له ما استجد فى حياته من شقاء ، وختم حكايته بنصيحة الطبيب محسن زيان . وكان يحدجه طيلة الوقت بنظرة كأنما تقول له «أرأيت عاقبة إهمالك لنصيحتى» . ثم قال :

ـ نهاية ابنى الشهيد معقولة أكثر من نهاية أمثالك ولكن لا فائدة من الرأى أو المشورة ، الجميع مصممون على تكرار الأخطاء حتى ولو لم يداخلهم أدنى شك فى النهاية يستوى فى ذلك من فقد ذاكرته ومن لم يفقدها ، والآن خبرنى علام عولت؟!

فقال عبد اللّه بضيق :

ـ طريق الطب طويل وباهظ التكاليف . .

ـ وغير مجد فى هذه الحال بالذات . .

ـ والعمل يا عم مخلوف؟ . . هل أزور الشيخ جابر عبد المعين إمام الزاوية؟!

فقال بغضب :

ـ لا هو إمام ولا الزاوية زاوية ، إنه رجل جاهل عينته نعمة اللّه لخداع السذج ، وهى التى شيدت الزاوية من مال حرام للخداع أيضًا ، إنها لعبة مكشوفة ولن تجد عنده رأيًا ولا شفاء عدا بعض السور الصغيرة التى كان يرتلها فى المقابر كلما جاء موسم دون أن يفقه لها معنى . .

فقال عبد اللّه بقلق :

ـ ولكنى أخشى عاقبة الإعلان عن نفسى فى الصحف . .

ـ معك حق ، فقد تكون أخطر مما تصورنا ، ولكن عندنا الشيخ كافور فهو من رجال اللّه . .

ـ أهو يستعين بالسحر والعفاريت؟

فقال مخلوف زينهم بازدراء :

ـ إنى أتحدث عن كافور لا عن نعمة اللّه الفنجرى .

وكان كافور يقيم فى بدورم البيت الذى يقيم فيه رياض الدبش الكواء البلدى ، فبدا جو حجرته فى لون الغروب أو الفجر ، وعبق بشذا بخور طيب . وجلس الرجل فى الصدر على أريكة قصيرة الأرجل على حين غطى سطح الحجرة بحصيرة مطموسة اللون . تربع مخلوف وعبد الله على الحصيرة أمام الأريكة بلا استئذان ولا تحية ، وتفرس عبد اللّه فى وجه الرجل فلم يميز ملمحًا من ملامحه ولا حتى لون وجهه . وقال مخلوف :

ـ هذا ابن ضال من أبنائنا يدعى عبد اللّه . .

فسأل صوت عميق هادئ رغم خفوته :

ـ ما اسم أمه؟

ـ لا يعرف أما ولا أبا . .

فمد الشيخ يده فهمس مخلوف فى أذن عبد اللّه :

ـ ضع يدك فى يده .

فصدع بالأمر وهو يتلقى قشعريرة هيبة أو خوف . وسرعان ما سرت من راحة الشيخ إليه برودة لطيفة أنعشته فتركز فى أذنيه ، ومضت دقائق نسى فيها كل شىء حتى ما جاء من أجله كأنما امتص الرجل وعيه كله ثم تردد الصوت العميق الخافت قائلاً :

ـ ستعرف ما تسأل عنه فى حينه بالتمام والكمال .

وسحب يده قائلاً :

ـ اذهبا بسلام .

وغادرا المكان وعبد اللّه يراوح بين الأمل والخيبة . قال لصاحبه فى الخارج :

ـ ظننت أننى سأسمع أكثر مما سمعت . .

فقال مخلوف زينهم :

ـ كلامه بالقطارة ، ثم إنك غير مؤهل لفهمه . .

ولما رجع إلى الوكالة وجد نعمة اللّه تجالس شابًا لم يره من قبل . شاب فى عز أبهة الشباب جميل الوجه رشيق القامة . فهم من مجرى الحديث أن الشاب يقترح فتح فرع للخردة فى الطرف الآخر من الحارة وأنها تقترح عليه أن يكونا شريكين . ولفت انتباهه الحيوية التى تألقت فى نظرات المرأة وهى ترنو إلى الشاب مما ذكره بالماضى السعيد الذى ذهب . وحانت منه التفاتة إلى عبدون فرجلة فقرأ فى عينيه الحادتين فرحة شماتة صارخة

فاشتعل قلبه بنار الغيرة . ومن موقفه الذليل مد بصره إلى رياض الدبش وحلومة الجحش فطالع السخرية مجسدة فلم يشك فى وساوسه . واقترحت عليه شياطينه حلاً داميًا ولكن ضعفه المتصاعد أخجله . ولم يتبادلا فى نهار العمل كلمة ، ولما أويا إلى مسكنهما دعاها إلى المجلس وأعد بنفسه القرفة والزنجبيل والمخدر . توقع أن تعلل بعذر ما ولكنها استجابت له فى برود وفيما يشبه التحدى . اضطرب لذلك أكثر مما سر . وزحف عليه خوف مجهول . غاب عن الحاضر المتاح تماما . واكتشف أن ضعفه بات عجزًا كاملاً . سحب نفسه إلى طرف كنبة واسترق إليها نظرة منكسرة وتمتم :

ـ إنه الحزن وأنت السبب . .

فقالت ببرود :

ـ إنى بريئة والحزن برىء !

فقال بصوت متهدج :

ـ حديثك مع الشاب قتلنى . .

ـ ما مر يوم إلا استقبلت فيه أشكالاً وألوانًا من الشباب !

أدهشه صدق قولها وقال معتذرًا :

ـ لعلى مريض .

فقالت بثقة :

ـ الحق أنك انتهيت !

سرت الحقيقة فى ذاته كالسم فلم يشك فى أنه انتهى ، وأن حياته فى جوارها توشك أن تنتهى أيضًا . ولكن كيف يمكن أن تتنكر له بعد ذاك العهد الطويل من المعاشرة الحميمة والعواطف المتأججة والحب العميق المتبادل؟ ! . ماذا تقول وماذا تفعل ، وألا يخونها القول أو الفعل ! . أى كلمات لم تسمع من قبل سيشيعه بها هذا الفم الملىء بالرغبات والحزم ! . وتسلل إليها بنظرة خجلى مشفقة فبوغت بالتغير كأنه زلزال منقض بلا نذير . ها هو وجه جديد يطالعه . بلا تردد ولا حرج ولا مبالاة . يتجسد فيه الرفض والإنكار والقسوة . كأنما لا ماض له ولا ذكريات . ولا وجدان ولا ضمير . ولا ذوق ولا حياء . ذهل وفزع فتمتم :

ـ شد ما تغيرت يا نعمة الله ! .

فقالت ببرود :

ـ لقد تغيرت أكثر يا عبد الله . .

فتساءل بأسى :

ـ أينتهى كل شىء كأن لم يكن ؟

فقالت بضجر :

ـ أنت الذى نهيته!

ـ لعلى مريض . .

ـ ولا أمل فى الشفاء .

فهتف حانقا :

ـ إنك أقسى مما يظن أعدى أعدائك .

فقالت ساخرة :

ـ بل إنكم لا تفكرون إلا فى أنفسكم . .

ـ أليس للحب حق؟

فقال بنبرة ختامية :

ـ إذا مات فلا حق له . .

ونهضت متبرمة فمضت إلى الخلوة وأغلقت الباب بقوة . لبث وحيدًا مع برودة آخر الليل واليأس . احتدمت الخواطر برأسه كفقاعات الماء المغلى فازداد يأسًا وتسليمًا بالواقع . وبدت له أحلام سعادته كذبة فاجرة قاسية . ومن شدة العناء والإرهاق هرب فى النوم ساعة واحدة . وفى الصباح الباكر هجر البيت متلفعًا فى عباءته السوداء ، حاملاً بيسراه حقيبة متوسطة الحجم . كانت الشمس ترسل أول طلقة من أشعتها الدافئة ، والحركة تدب فى الجنبات . فتحت نوافذ وأبواب وتتابعت أفواج الخلق . سار بخطوات وئيدة ثقيلة تغشاه مخايل الرحيل . رآه أول من رآه عبدون فرجلة فرماه بنظرة دهشة خلت من الحقد لأول مرة وسأله :

ـ أأنت راحل؟

فأجاب باقتضاب :

ـ أستودعك الله . .

وترامت عبارته إلى أقرب الجيران فقال رياض الدبش دون مبالاة :

ـ مع السلامة!

وتمتم حلومة الجحش :

ـ يا خسارة! .

وأثار رحيله اهتماما مؤقتًا وشاملاً . ورغم إرهاقه كان يرى ما تقع عليه عيناه بوضوح شديد فكأنه يراه لأول مرة فمازج نفوره حنين غامض . واعترضه عم مخلوف زينهم أمام الزاوية فتوقف دون أن يبتسم . سأله الكهل برقة :

ـ أأنت ذاهب حقا؟

فحنى رأسه بالإيجاب فسأله :

ـ إلى أين؟

فأجاب دون مبالاة :

ـ لا علم لى بشىء . .

ـ بوسعك أن تبقى حتى تسترد ذاكرتك .

فقال بمرارة :

ـ لا أستطيع ، وقلبى يحدثنى بأننى لن أعرف شيئًا ما دمت هنا .

فربت الرجل منكبه بحنان وقال مسلما :

ـ فى رعاية اللّه . .

وواصل المسير تتابعه الأعين من النوافذ والدكاكين والطريق . شيعته نظرات متضاربة من الحياد والشماتة ، العطف والكراهية ، السرور والحزن . واصل المسير حتى غيبة المنعطف الأخير عن الحارة إلى الأبد .

من فضلك وإحسانك

اكتشف الحب ، أو اكتشفه الحب ، أول عهده بالمرحلة الثانوية . فى الخامسة عشرة كان ، وفى الرابعة عشرة كانت . اتفقا على خطوبة غير رسمية يحتفظان بها سرا بينهما حتى يبلغ المرحلة الجامعية ، ثم تعلن وتمضى الأمور فى طريقها المعهود . وهو وسيم رشيق ذو سمرة صافية ، وهى فى نفس المستوى فى أعين الناس ولكن جمالها فى قلبه يتلألأ بأضواء مسحورة . ومع أن الأسرتين تقيمان فى عمارة واحدة بشارع مريوط بمنشية البكرى إلا أنهما لم يتعارفا قط ولا تبادلا تحية عابرة ، فاستمد معلوماته القليلة عن أسرة حبيبته «جميلة» من حديثها . عرف أن أباها يدعى عبد الرحيم يسرى ، من ذوى المعاشات ، مترجم سابق بالخارجية ، تركز اهتمامه أخيراً فى العبادة ولعب الطاولة . أما أمها شامة لطف اللّه فهى مفتشة بالتربية والتعليم ، معروفة بالحزم بقدر ما هى مغرمة بالتليفزيون . ولها أيضًا إخوة ثلاثة ، أكبرهم ضابط جيش استشهد فى حرب ١٩٤٨ ، ومهندس واقتصادى موظفان فى شركتين . ولم تكن جميلة متفوقة فى دراستها ولكنه كان هو أيضًا يماثلها فى ذلك . وكان مغرمًا بكرة القدم ويلعبها بمهارة لا بأس بها ، ولا يبدى أى اهتمام بالحياة العامة ، مثله فى ذلك مثل أبيه وأمه ، بل مثل شقيقتيه المهاجرتين

مع زوجيهما بليبيا والبحرين . لم يرتفع فى ذلك المسكن صوت لتأييد رأى أو معارضة رأى أو إعلان موقف ولا حتى كمتفرجين ، فلا مشاركة وجدانية وكأنما ينتمون إلى كوكب آخر . تدور الأحاديث عادة عن المدرسة ، المسلسلات التليفزيونية ، الكرة ، الطعام ، أو شركة الأجهزة المنزلية حيث يعمل الأب إبراهيم الدارجى مراجعًا للحسابات ، والأم بيسة فضل اللّه فى قسم الإعلانات . رأى عبد الفتاح جميلة أول ما رآها فى شارع مريوط الذى يعترض طرفه الشرقى الشارع العمومى المتجه إلى مصر الجديدة . رآها بعد ذلك فى مدخل العمارة . شملهما من بادئ الأمر مناخ طيب يجود بالأنس والاستلطاف . وتبادلا الابتسام والتحية .

وأعقب ذلك اللقاء فى الشارع العمومى بعيدًا عن الأنظار . انفجرت فى قلبه حياة جديدة بقوة ملهمة . فاعترف ، وتم الاتفاق على المستقبل القريب والبعيد ، وحملها أمانة كبيرة وهو يقول لها :

ـ لا حياة لى بدونك .

ولأول مرة يجاوز اهتماماته الصغيرة إلى حياة جديدة واعدة بثراء جديد ، ويحطم حاجز الانحصار الذاتى واثبا للغير . عاش عامين سعيدًا . عاش فى سعادة حقيقية ، ولكنها انسابت بخفة بلا تركيز أو وعى منه فلم يعرفها ـ مثل كثيرين ـ إلا كذكرى . ذلك أن الحب تعرض للاغتيال . وهو نفسه قال : «ليس لى قصة حب ، ولكن قصتى تبدأ بعد وفاة الحب» . تلقى منها رسالة بيد زميلة عالمة بسرهما تنبئه فيها بأنها خطبت ، وأنها عجزت عن إنقاذ حبها ، وأنها حزينة أسيفة ولكن لا مناص من قطع العلاقة . قرأ وأعاد القراءة . هل يمكن؟ . بلا تمهيد؟ . وهذا الأسلوب؟ ، قال للرسولة وتدعى بثينة أو قال على مسمع منها :

ـ أى جفاء . . إنها برقية لا رسالة . .

فقالت الفتاة معتذرة عن صديقتها :

ـ عواطفها أكبر من ذلك لكنها لا تحسن الكتابة !

وأخبرته أنها تألمت ، وأنها توسلت إلى أمها أن تتركها وشأنها ، أن تتركها لتنتظره ، وأنها راضية بحظها ، ولكنها لاقت موقفًا مصممًا ، مسلحًا بالحجج الواقعية الصارمة ، من تكاليف الزواج الباهظة ، وأزمة المساكن ، وعجز المرتبات ، وأنه لا أمل لشاب فى الحياة الزوجية إن لم يكن غنيًا أو مهاجرًا ، وأن الخطيب الجديد حامد بك مظهر هو مناسب جدا فى الظروف الراهنة . أجل إنه فى الأربعين من عمره ولكنه خبير ذو مرتب ضخم إلى جانب نشاط خاص يدر عليه دخلاً محترمًا ، فهو قادر وأهل للحياة الزوجية ، وفى كنفه ستحظى بالحياة الكريمة والسعادة الحقيقية ، لا السعادة الوهمية التى سرعان ما

تتلاشى فى خلاء التقشف والضنك، وحذرتها من أن تظن بها الطمع، أو تخلط بينها وبين النموذج التليفزيونى للمرأة المادية التى ترفع المادة فوق العاطفة، المسألة بكل بساطة أن الزواج ضرورى لها - لجميلة - وهو غير ميسر إلا مع رجل مثل حامد مظهر، ومن حسن الحظ أنه لا تشوبه شبهة من شبهات الانفتاح، فهو قادر وشريف، فلا مفر من التسامح فى عمره وهو على أى حال لم يجاوز السن المناسبة للزواج. ومضت بثينة تقول إن جميلة لم تستطع أن تقارع الحجة بالحجة، ولعلها لم تتصور أن الأمور معقدة إلى ذلك الحد فانطلقت تخاطب قلب أمها، وقلب أبيها أيضًا ولكن الأب قال لها «مسايرتك تعنى التضحية بك، أقسم لك بصلاتى أنى صادق، ليس ما تشعرين به هو الحب، فى مثل سنك لا تعرف القلوب الحب الحقيقى، ستعرفين ذلك بنفسك»، وعند ذاك قالت له بثينة:

- لعله مما ساعدها على الإذعان أنها ستنقطع عن الدراسة فهو يريدها ست بيت، وأنت تعلم أنها لا تحب المدرسة!

تابعها عبد الفتاح بذهول ثم ماج قلبه بالغضب والعذاب، وأصر على مقابلتها فكلف بثينة بإتمام ذلك. وجاءته فى أصيل اليوم التالى والخريف يقطر مناخًا معتدلاً. جاءت منكسرة الطرف تتعثر فى الخجل قابضة بأصابع متشنجة على منديلها الأبيض الصغير. حيته بغير ابتسام هامسة:

- إنى آسفة..

حثه منظرها على التمسك بها باستماتة غير أن نبرة صوته نمت عن الغيظ وهو يقول محتجًا:

- تقتليننى ثم تأسفين!. ماذا أصنع بأسفك؟

فقالت له بحرارة:

- حزنى أشد مما تتصور..

فقال ساخرًا:

- صدقت فيما يتعلق بتصورى..

- لا تظلمنى..

- أعلنى الرفض وأصرى عليه..

صمتت فى حيرة جلية فطفر الغيظ إلى قسمات وجهه وتساءل:

- ماذا قلت؟

فقالت وهى تتنهد:

ـ لن نستطيع الزواج كما نتمنى . .

فقال مستسلمًا لغيظه :

ـ أعرف ما قيل وما يقال ولكن الحب أقوى من ذلك . .

فقالت وعيناها تدمعان :

ـ الواقع أقوى من أمانينا .

ـ المسألة أن حبك ليس بالقوة التى ظننتها .

ـ لا تظلمنى .

شعر بأنها لا تريد أن تعدل عن قرارها . إنها لم تعد تحبه . إنها لم تحبه قط . هتف غاضبًا .

ـ أكذوبة !

تمتمت بانزعاج :

ـ ماذا؟

ـ خاب ظنى فيك .

قالت بتوسل :

ـ لا تزد فى عذابى .

لوح بيده غاضبًا فأصابت أنامله جبينها فتراجعت مذعورة . أفاق من غضبه . وثب نحوها قائلاً :

ـ معذرة . . لم أقصد . .

ـ كفى . .

ـ أكرر الأسف . .

فقالت بصوت هادئ :

ـ يجب أن أذهب . .

فتحول عنها دون تحية . توغل فى الطريق صوب الشمال والظلام يهبط ودفقات من الهواء الرطب تهب . عجب من فراغ الوجود من كل شىء إلا نبض الألم فى أعماقه . ألم وفراغ . فراغ وألم . إن لم يكن الحب مرضًا فلا بد له أن يوجد له دواء . ولكن أين وكيف ومتى؟ . وفكر فى أنه أخطأ فى تركها تفلت من يده فاستدار وراح يعدو ليلحق بها ولكنه لم يعثر لها على أثر . ورجع الفراغ ورجع الألم . وحلم أنه يستطيع أن يقتل أمها فقرر أن يقطع رأسها تحت المقصلة . استحضر بخياله صورة المقصلة كما رآها فى فصل الثورة الفرنسية . يا للداهية ! . . ما هذا الفراغ وما هذا الألم . ولأول مرة يعانى الوحدة وهو

وسط أصحابه وهم يقضون الفترة الأخيرة من العطلة الصيفية . رغم أنهم جميعًا على شاكلته ممن لا يكترثون للحياة العامة وتستغرقهم الشئون الخاصة . وبدافع من كبرياء لم يبح لأحد منهم بسره . أما أكثر اليوم فخلا فيه إلى نفسه فى حجرته الخاصة ـ للنوم والدراسة معًا ـ غارقًا فى التأمل . ولم يخرج من عزلته فى سهرة التليفزيون حيث تجتمع الأسرة وكأنها غير مجتمعة . غرق فى التأمل حتى وجد نفسه ولأول مرة يسأل عن معنى حياته أو معنى الحياة . ومضت المعانى تتلاشى وتتبخر فى الهواء . وقلب عينيه بين جدران الحجرة وسقفها وكأنما يجول فى الكون ثم سأل :

ـ هل يوجد فى قلب هذا الكون هدف أو معنى ؟ !

لو عرف هذا الهدف الكونى عرف بالتالى معنى حياتنا . ولكن ما السبيل إلى معرفة هدف الكون ؟ . كيف نحمله على البوح بسره ؟ . كيف ننقذ حياتنا من العدم ؟ ! . لم يجد نفسه فى هذا المقام الحائر نتيجة لثورة أو فكر ، ولكنه وجد نفسه فى خضمه بتلقائية من لا يملك ذخيرة أو تراثًا . ذلك أنه نشأ فى جو خاص غير عادى . جو خلقه والدان من نوع خاص أيضًا إبراهيم الدارجى الأب مشغول بالحياة لدرجة لم تترك له فراغًا لتساؤل أو تأمل . إنه أبعد ما يكون عن الطراز المتدين ولكنه فى الوقت نفسه أبعد ما يكون عن النموذج الملحد أو الشاك . لم يتفوه طيلة حياته بكلمة مع الدين ولا كلمة ضده . الدين بالنسبة إليه غير موجود أو مختف فى ظل كثيف ، ولا يخطر له ببال ، ولا يتذكره إلا فى المناسبات النادرة ، وقد ترد فى كلامه مصطلحات دينية يرددها دون أدنى انتباه إلى مغزاها فيقول أحيانًا «اللّه أعلم» ولا تعنى عنده أكثر من «لا أدرى» . وعيد الفطر عنده كعك وعيد الأضحى عنده «لحمة» . والأم بيسة لا تختلف كثيرًا عن زوجها فى لا مبالاته الفطرية وإن لم تخل من إيمان بالشعوذة والسحر . فلم يعبق البيت بنفحة دينية ولو عابرة . هذا هو الجو الذى نشأ فيه عبد الفتاح . ولم تضف إليه المدرسة سوى حكايات تحفظ وتنسى ، وألفاظ تشرح وتعرب ، وامتحانات يودعها محفوظاته قبل أن تتلاشى . وفى المدرسة عبرت أمامه ومن حوله تيارات متضاربة دينية ومادية ، فلم يهتم بها ، وسخر منها . ولذلك لم تتوثق الصلة بينه وبين أحد من المنتمين إليها واختار أصدقاءه ممن هم على شاكلته من اللامبالين . ومع ذلك هزته الهزيمة فوجم وتألم ولكنها لم تعدل به عن طريقه بل لعله أوغل فيه أكثر وأكثر . من أجل ذلك كله وثب فى أزمته إلى الكون يسائله عن معناه وهدفه بتلقائية ويسر دون أن تعيقه عن ذلك عقيدة سابقة . تعلق بالكون باعتباره الأمل الأخير الذى يمكن أن ينتشله من الفناء الزاحف على قلبه وروحه . ترى هل يوجد سر ذلك عند أحد من البشر ؟ . هل تتضمنه حكمة أو علم أو فلسفة ؟ ، وأليس مما يفزع أن ترتفع فجأة من كرة القدم إلى قلب الكون دفعة واحدة ؟ ! . وتوهم أن عالمه الداخلى يتوارى عن الأعين القريبة بما يفور فيه من تساؤلات حارة مستميتة ولكنه لاحظ فى أعين

والديه محاولات أبوية قلقة تروم النفاذ إلى أعماقه. وضح ذلك يوم الأحد ـ يوم العطلة الأسبوعية ـ عندما دعواه للجلوس معهما فى حجرة المعيشة عند الضحى. توقع فى الحال استجوابا حميما فضاق به قبل أن يعلن. وصدق حدسه عندما تساءل أبوه وهو يغوص بروبه الخفيف فى الفوتى الأرجوانى:

ـ مالك يا عبد الفتاح؟!

فتظاهر بالدهشة لغرابة السؤال فقالت أمه:

ـ لست كعادتك، لا خفاء فى ذلك..

وقال أبوه:

ـ بعد أيام معدودة سيبدأ عام الثانوية العامة، وهو عام يتقرر فيه المصير!

وقالت بيسة:

ـ ونحن أصدقاء ولا يجوز أن يحجز بيننا سر..

قال محاولاً الاحتفاظ بسره الغريب لنفسه:

ـ أنتما واهمان.

فقال الأب وأنامله تناجى حبات سبحته القهرمانية التى تلقاها هدية واستغلها لامتصاص القلق:

ـ بل إن صحتك ليست على ما يرام.

ـ أشعر بتمام الصحة والعافية.

ـ إنك تمر بفترة من العمر شديدة الحرج..

ضحك ضحكة جافة. تغير موقفه بغتة. جرفته موجة استهانة كرد فعل للسهاد والألم. قال:

ـ الحق أنه يشغلنى سؤال محير!

ـ أى سؤال يا بنى؟

قال ممهداً بضحكة كالاعتذار:

ـ سؤال عن الهدف الكونى!

تفشى صمت ثقيل حتى صار له دوى فى الآذان. نظر والداه إليه طويلاً، ثم تبادلا النظر طويلاً. وتمتم الأب متسائلاً:

ـ الهدف الكونى؟!

فتساءل عبد الفتاح:

ـ هل أندم على مصارحتكما بالحقيقة؟

فقالت بيسة بسرعة :

ـ أبدًا . . ولكننا لم نفهم . .

فقال بتحد :

ـ إني أسأل هل في الكون هدف!

فتساءل أبوه :

ـ الكون دفعة واحدة؟

ـ الكون دفعة واحدة .

ـ الكون شيء فوق التصور . . ماذا يهمك من ذلك؟

ـ لن أعرف هدف حياتي، إن لم أعرف الجواب . .

قال الأب برقة وبجهد :

ـ إنك كمن يريد أن ينتقل إلى مصر الجديدة عن طريق مدينة الكاب، بجنوب أفريقيا . لم لا تستعمل هذا الطريق الممهد الذي نراه من نافذتنا؟

فقال بيأس :

ـ لا معنى لحياتي إن لم أعرف ذلك الهدف البعيد!

فرمقه إبراهيم الدارجي بحنان وقال :

ـ عليك أن تنجح في الثانوية العامة، وأن تحرز المجموع الذي يفتح لك أبواب الكلية التي تريدها، وأن تعمل، ثم تتزوج وتنجب ذرية، وتستمر في التقدم حتى تنعم بمعاش مستقر سعيد، هل يوجد هدف وراء ذلك؟!

فتساءل بامتعاض :

ـ وماذا بعد المعاش المستقر السعيد؟!

فقال الرجل وهو يكظم غيظه :

ـ يجري علينا ما جرى على الناس منذ آدم!

فقال عبد الفتاح بعصبية :

ـ معنى ذلك أنه لا يوجد معنى يستحق أن نعيش من أجله!

فتساءل الأب ضاحكًا :

ـ لابد من معرفة هدف الكون؟!

ـ وإلا فلا معنى لشيء على الإطلاق . .

ونمت نبرة الرجل عن غيظ مكتوم وهو يقول :

ـ وكيف تعرف هذا الهدف؟ ، كيف تتابعت الأجيال دون أن تعرفه؟ ، وهل تؤجل امتحان الثانوية العامة حتى تعرفه؟!

فقال الشاب فى حزن :

ـ أعرف أنه سؤال مثير للسخرية ولكنى وقعت فى قبضته . .

فقالت بيسة بجزع :

ـ لا تقل ذلك ، عليك أن تنقذ نفسك . .

وقال أبوه بحرارة مدافعًا اليأس :

ـ حتى لو وجد جواب فهو لن يجىء بين يوم وليلة .

فصمت عبد الفتاح فواصل الرجل برجاء :

ـ لا خلاف فى ذلك ، فلنبدأ بالممكن . .

قالت الأم وهى فى غاية من القلق :

ـ لنبدأ بالممكن . .

فواصل الأب :

ـ بوسعنا أن نخلق هدفًا لحياتنا وأن نحققه ، ولك ألا تكف عن التفكير فى الآخر ، ومن يدرى فربما عرفته بعد عمر طويل!

وتنهدت الأم فى ارتياح قائلة :

ـ حل موفق ، أليس كذلك يا عبد الفتاح؟!

وقال الأب برجاء حار :

ـ أعلن موافقتك أرجوك . .

ابتسم ابتسامة شاحبة فى استسلام . اقتنعت الأم بأنه اقتنع . قالت بفرحة طفولية :

ـ سنسهر الليلة فى الميرى لاند ، لم نسهر معًا منذ مدة ، أمامنا عشاء ساهر وشراب منعش . .

وعند العشاء شرب قدحين من النبيذ فتلقى نشوة فرجت كربه وأشعلت ضوء الابتسام فى ثغره وعينيه حتى قال الأب لنفسه مستوهبًا العزاء :

ـ سحابة وانقشعت . .

ووجد الشاب نفسه ترحب بالحل الموفق . ربما هربًا من المأزق الخانق الذى يهدد بالشلل . وحمل والديه مسئولية تراجعه السريع تفاديًا من الاعتراف بالهزيمة . رأى أن يطوى اليأس فى ركن من نفسه وأن يرسم لحياته خطة كالآخرين ، ومن يدرى فقد يدهمه

الجواب من أعماق الحياة نفسها، وما الهدف الذى يختاره؟ . كلية الطب . حياة ثرية من الناحيتين العلمية والمادية، زواج وإنجاب، وإن يكن الناس يتساوون فى الموت فإنهم لا يتساوون فى الحياة ولا فى الذكاء . المهم الآن أن يمحق من قلبه جميلة وخيانتها، وأن يقتلع الحب من جذوره ليستعيد توازنه . وتمنى أن تزف إلى حامد مظهر سريعًا لعله يداوى الألم باليأس . وحدث ذلك فى الأسبوع الأول من العام الدراسى . وقف عند ملتقى شارع مربوط بالشارع العمومى ليلقى نظرة على موكبها الصغير وهو يميل نحو مصر الجديدة . وبالرغم من توقعه لذلك وتعجله له فقد أصابته هزة عنيفة فاقت تقديره وتخيله . سهر ليلتها فى حجرته حتى الصباح على ضوء بطارية صغيرة . قضى أكثر الوقت واقفًا أو ذارعًا الحجرة أو مرسلاً طرفه من النافذة إلى الليل الشامل . ومن خلال تجربة طارئة التحم بأثاث حجرته التحامًا غريبًا جنونيًا . ومضى فى التجربة على رغمه كأنما يؤدى طقوسًا لأوثان وقع تحت سيطرتها بقوة سحرية . جذب الفراش عينيه بدعوة نابعة من الصميم . وكأنه يكتشف لأول مرة الفراش الخشبى ذا اللون البنى الغامق، والملاءة البيضاء والغطاء البنفسجى المطوى للنصف . وبإدامة النظر إلى الفراش ومحتوياته دبت فيه ـ الفراش ـ حياة من نوع ما، فتبدت الوسادتان لعينيه ترنوان إليه، وشملت الملاءة والغطاء ألفة قديمة لا تكون إلا بين الأصحاب . ونفذ بصره إلى الأعماق فرأى القطن المكدس فى الحشية وراح يعد خيوطه الملتفة المضغوطة وهو يشعر بأنه سيختم الإحصاء بوثبة فى المجهول قد لا يرجع منها . وتفرس فى مكتبه فى الجانب المقابل من الحجرة وهو يحمل صفين من الكتب يفصل بينهما السومان فرآه يبادله النظر داعيًا إياه إلى سماع حوار حار دائر بين الكتب لم يكد يلاحقه من سرعته وحيويته وما ينذر من خطورة متعددة العواقب . ومد بصره إلى مرآة الدولاب القائم بين المكتب والفراش فعكست له صورته على ضوء البطارية الخافت جسما بلا رأس، ومن عجب أنه لم يدهش لذلك ولم ينزعج ولكنه فتح الدولاب كأنما ليبحث عن رأسه فى داخله فرأى بدلة مشتبكة فى معركة بالأيدى والأرجل فتراجع إلى فوتى يتوسط الجدار المواجه للدولاب وانحط عليه وأغمض عينيه فانفجرت فى رأسه خواطر مضطربة متلاطمة لم يستطع أن يمسك بواحدة منها متكاملة إذ سرعان ما تتلاشى فى أخرى مؤججة رغبة متصاعدة فى الإمساك بأى شىء ذى شكل سليم واضح، وظل فريسة الأطياف حتى نضحت النوافذ بضوء الصباح المترع بالخريف . انطوت الليلة ولم تتكرر وعزم على أن ينفذ خطته المرسومة . غير أن الكون لم يغب عنه تمامًا فكان يزوره من حين لآخر مذكرا إياه بحزنه المخزون المؤجل . وبالمثل كانت تهب عليه نفحات من صحراء الحب المهجور . ولكنه مارس حياة ناجحة فيما عدا ذلك وبشرت حاله ببلوغ المرام . ولما أعلنت نتيجة الثانوية العامة جاءت مخيبة للآمال . آمال آل الدارجى، ومن خلال التنسيق ضاعت الطب

والهندسة والعلوم فلم يجد إلا الحقوق لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وكانت تقبل عددًا محدودًا من الثانوية علمى. جاءت النتيجة صدمة لإبراهيم الدارجى وقال وكأنه يدافع عن كرامته الشخصية:

ـ هذه النتيجة تقطع بأنك لم تكن فى أحسن أحوالك.

وقالت الأم:

ـ رأيى أن تعيد السنة..

ولما كان أدرى بذاته فقد قال بتسليم نهائى:

ـ لتكن الحقوق!

ولم يشأ أحد أن يضغط عليه فقال الأب:

ـ على أى حال أمامك فرصة للعمل فى النيابة.

أما هو فقال لنفسه بمرارة «فشلت الخطة». واعتمد فى عمله على إرادته وحدها، وبلا دافع حقيقى. أجل شفى من الحب وتحرر من قبضة الكون، ولكنه لم يقهر الفتور المستقر فى همته. ومضى فى طريق النجاح الذى لا يبشر بأى تفوق أو امتياز حتى حصل على ليسانس بلا تهانى وعن طريق توزيع القوى العاملة ألحق كاتبًا بالنيابة العمومية. حزن الأب إبراهيم والأم بيسة لذلك حزنًا شديدًا. إنه الابن الوحيد، والحلم الكبير، وها هى النهاية تتجسد أمام عينيهما كتمثال للخيبة. وفاق حزنه حزن والديه ولكنه لم يدر بأى لسان يحتج على مصير صنعه بيديه. بل ذكر بكآبة أنه لم يمارس التفوق فى حياته أبدًا. وأن الأرجح أنه لا يستطيع أن يخلق لحياته هدفًا خيرًا من هذا. وقال لأبيه:

ـ أكثرنا الحديث يومًا عن الحياة والهدف ولكننا نسينا أمرًا هامًا، خبرنى الآن هل تعرف أحدًا من الكبراء القادرين على تجديد الأهداف؟!

فقال إبراهيم الدارجى بامتعاض:

ـ نشاطى يجرى فى مجال آخر، ولكن صبرا، ستهاجر ذات يوم لعمل مثمر فى الخارج..

تمثل له «الخارج» فى صورة منارة تشع نورًا من بعيد. وراح يوازن بين مرتبه الجديد وبين مصروفاته التى تعود عليها فى كنف والديه ثم تساءل كيف يواجه الحياة لو غاب والداه! ولأول مرة يشعر شعورًا ذاتيًا كم أنه فقير وكم أن الغلاء وحش مفترس. وتذكر فى الوقت نفسه الفارق الهائل بينه وبين رئيسه المباشر رغم أنهما متخرجان فى كلية واحدة. ما هو إلا ذرة رمل فى صحراء التفاهة. وسيمضى من سيئ إلى أسوأ. وما الراحة التى ينعم بها إلا هدية مهداة من والديه العاملين. عليه ألا يركن إلى الطمأنينة العابرة الخادعة، وأن يفكر فى المستقبل بجدية. تلزمه وثبة قوية غير معقولة. طفرة غير

متوقعة وغير منطقية. بأى ثمن يجب ألا تضيع الحياة هباء. ونحن فى زمن الخوارق. ولكنه لا يحب أيضًا المغامرة ولا يحب السجن. ولا يجوز انتظار المعجزة من «الخارج» وحده فقد يطول الانتظار، وخبرته لا يحتاج إليها «الخارج» مثل الخبرات الأخرى. الطريق شبه مسدود ولكن اليأس يعنى الموت. وحام خياله المحموم حول حياة النجوم من الممثلين الذين يمرقون إلى الهدف بسرعة الضوء. وربما من خلال فيلم واحد. لا وقت للطريق الطويل ولا قلب للمغامرة المحفوفة بالخطر. وغطى عمله الجديد على أحلامه المؤرقة فكشف له عن عالم من التجارب الطاحنة. إنه جلس إلى يسار المحقق باسطا أوراقه على المكتب، متطلعا إلى المتهمين الواقفين أمام المكتب. يرى ويسمع ويسجل. وتنهمر فوقه عوالم الأسرار. تراخى التحامه بأحلامه أمام المهربين والمختلسين والمرتشين واللصوص. إنهم إناس لا يختلفون عن الآخرين فى أشكالهم وأصواتهم، لا سمات تقليدية لهم مثل أشرار السينما، ووراء كل واحد منهم حلم يذكره بأحلامه، كلهم ينجذبون إلى أضواء الحياة كما تهيم الفراشات حول المصباح. وهم يذكرونه بنفسه، ويذكرونه بأبيه وأمه أيضًا. وعجب لذلك بقدر ما انزعج له. لم يذكرونه بوالديه؟!، ربما لتشابه فى الوظيفة، أو الاهتمامات، أو المحركات العارضة. ووجد نفسه يتساءل لأول مرة هل يتناسب دخل والديه مع مصروفاتهما؟!. إنهما فى الواقع لا يكترثان للغلاء، ولا يخلو أسبوع من وليمة تقام للأصدقاء، وفى العامين الأخيرين جددا أثاث الشقة واقتنيا عددًا من التحف والسجاجيد والنجف لا يستهان به. حقا إنهما لم يشتريا شيئًا ذا قيمة ثابتة كعقار أو سندات ولكنهما ينفقان عن سعة باتت تثير فى نفسه الخوف والكآبة. شك فى والديه وغزاه هم جديد انضاف إلى همومه الشخصية. وتعملقت همومه عندما أدلى إليه زميله عبد اللطيف محمود ـ كاتب يسبقه بأقدمية خمس سنوات ـ برأيه فى طبقات المجرمين. وكان عبد الفتاح قد تلقى تدريبه فى العمل على يديه، ولما آنس إليه همس له برأيه وهو أن القانون لا يطبق إلا على العاديين من الناس أما الأقوياء فيسبحون فوق القانون، إلا فيما ندر ولا يقاس عليه. لم يصدق ولم يكذب ولكنه مال إلى سوء الظن. كما مال إلى اتهام والديه. وتساءل كيف يجنبهما المصير الأسود؟!. وطرح السؤال يعنى فيما يعنيه أن شكه فيهما انقلب حقيقة من حقائق حياته المرة. ولذلك دارى رعبه بضحكة لا معنى لها. واهتدى إلى خير وسيلة لتحذيرهما وهى أن يقص عليهما لدى كل مناسبة طرفا من أخبار المنحرفين الذين يسجل اعترافاتهم يومًا بعد يوم، ويشهد عن كثب دموع البعض وهى تنعى آمالهم الخائبة. تصور ببدن مقشعر والديه وهما يزحمان مع الآخرين طرقات المجمع القضائى مثل حبات البن المتدافعة فى وعاء الطاحونة. وجعل يرقب الاثنين بإمعان ويتفحص ضيوفهما من الرجال والنساء. جميعهم أناس أذكياء وبلا مبادئ، المال معبودهم. والنجاح دينهم، والمغامرون

هداتهم. يشوهون الأسماء الرنانة دفاعًا عن أنفسهم وتبريرًا لسلوكهم الخفى. ويقول لنفسه:

ـ برح الخفاء!.

وازداد صدره انقباضًا. ترى كيف يتحمل المصيبة إذا وقعت؟!. إنها خليقة بتدمير أى شخص حتى ولو لم يكن من التافهين. وتنهد وهمس لنفسه «إلا شخصًا واحدًا»، ورجع يحوم حول النجم ونجاحه وكيف يتألق ويواصل التألق ولو تسربل بالفضائح!، شد ما تداعبه هذه الفكرة. وتحفر سراديبها فى وجدانه برشاقة وإغراء. غير أنه نحاها إلى حين ليجرى مع ذاته تحقيقًا فريدًا. هل يقدم على الانحراف إن وعده بتحقيق الآمال؟!. وراح يتفحص أعماقه بصدق وصراحة. وتبين له أنه لا يملك مناعة ضد الانحراف فى ذاته، ولكنه جبان يؤثر السلامة!. على ذلك ترك الموضوع دون حسم. وإذا بمكتب التحقيقات يسوق إليه تجارب جديدة ومثيرة، فيكشف له التاريخ عن وجهه ويريه من آياته ما جهل. حقًا عرف الكثير من خلال قضية اتهم فيها بعض رجال العهد الماضى بالتآمر على قلب نظام الحكم. رأى وسمع وسجل ورجع إلى شارع مريوط بمعلومات جديدة عن ماضى بلده القريب. واستسلم لأحلام اليقظة فتخيل نفسه بطلاً من أبطال العهد البائد، فخاض المعارك المنقضية، وأحرز انتصارات لم يعد أحد يذكرها بالخير. وتساءل وهو منفرد بنفسه فى حجرته.

ـ لماذا أتعاطف دائمًا مع المتهمين؟!

وزودته أحلام اليقظة بوقود جديد بظهور متهمين معاصرين على المسرح، من ذوى العقائد الدينية، وذوى العقائد المادية. أذهلته جرأتهم، واستهانتهم بالعواقب، وتحديهم التحقيق والمحقق. لأول مرة يتلقى تلك المبادئ كتجارب حية ممثلة فى أحياء، كحجج تفوح برائحة اللحم والدم، كتضحيات تستهين بكل غال، فيم يختلف عن هؤلاء الشبان؟!. كيف افترقت الهوايات والمصائر؟!. وركب الخيال فجرد سيفه حينا، وقبض على المطرقة حينا آخر، وهام فى وديان المجد المغمور. هام طويلاً حتى أدركه الإرهاق والملل. وعاد يتساءل:

ـ كيف استخلص نفسى من مستنقع التفاهة؟!

الهجرة؟، النجومية؟، الانحراف؟، الماضى؟، اللّه؟. الثورة؟. المهم أن ينجو من الواقع الكئيب. واتفق فى ذلك الوقت أن أهداه الأب إبراهيم حجرة جديدة عصرية بطاقمها المكون من الفراش والدولاب والشيفونيرة والتواليت وسجادة فرنسية. قال له:

ـ تغيير الجو يجب أن يساير تغيير الشخصية.

فغمغم:

ـ أى شخصية؟!

وفكر فى ثمن الحجرة فاستعاد شكوكه بمرارة جديدة. وقرأ الأب صفحة وجهه فاستشف معانى أخرى فقال:

ـ الهجرة آتية فاصبر قليلاً..

الصبر جميل لكنه مر. ولم ينقطع عن التفكير فى البدائل المتاحة. وسمع زميله عبد اللطيف محمود ينصح ضيفًا بالانضمام إلى حزب الأغلبية. ولم يكن يفرق بين جده ومزاحه ولكنه أنصت إليه وهو يقول للرجل:

ـ الانضمام يضمن لك التمتع بحقوق الإنسان!

فكر أنه بوسعه أن ينضم ولو إلى لجنة الحى ولكنه حزب ضخم يحوى الملايين وهيهات أن ينتشله من ضياعه، أو يخرجه من شرنقة التفاهة. فرق كبير بين أن تركب سيارة ولو صغيرة وبين أن تنحشر فى أتوبيس. فى الوقت ذاته فإنه من الجنون أن يسعى إلى أهل الدين أو أهل المادة فيعرض نفسه للهلاك!. كلا. إنه لم يخلق لذلك. ولم يبق أمامه إلا الهجرة أو الفن!.

وانبعثت فى نفسه وثبة متحدية ذات مساء وهو يحتسى قليلاً من النبيذ فى تافرنا. رقصت النشوة فى رأسه فانساب طموحه الحائر فقرر أن ينفلت من قبضة الأحلام وأن يفعل شيئًا. سعى إلى مقابلة بعض المخرجين وعرض عليهم نفسه كقانونى يهوى التمثيل، مستمدًا من شكله وحجمه ثقة وأملاً.

قال له المخرج:

ـ لا يمكن تشغيلك إلا إذا كنت متخرجًا فى المعهد..

فقال بثبات:

ـ يمكن كوجه جديد مرشح للبطولة!

ودعى إلى الاختبار. ولولا اليأس ما تغلب على ارتباكه. وكان يترك عنوانه ويذهب. وينتظر ثملاً بأحلام اليقظة بعد أن حل البلاتوه محل الجهاد والفردوس الأرضى. ولكنه لم يرده خطاب. وطال انتظاره حتى شطب فرق الفن فى سجل آماله المتهاوية أسوة بالنشاط السياسى كله فلم يبق إلا «الخارج» كأمل أخير. وسأل أباه ذات مساء:

ـ لا أخبار عن الهجرة؟

فأجابه بوجوم:

ـ انتظر الوقت المناسب!

التقط إحساسه المشحوذ بسوء الظن نبرة جديدة فى صوت أبيه. نبرة توحى بالهزيمة.

انظر جيداً. ليس الرجل كعادته، ولا أمه، إنهما يعانيان قهراً مجهولاً تبدى فى نظرة العين، وشهية الطعام، والحديث. وقال لنفسه «هل يتلاشى الأمل الأخير؟. سيقع شىء غير سار». وصدق حدسه فأعلن أبوه أنه طلب إحالته على المعاش لسوء حالته الصحية، ولحقت به أمه فى نفس الأسبوع معتلة بنفس العلة!. ذهل عبد الفتاح وهمس له سوء ظنه بالحقيقة الخفية، لا شك أنهما اضطرا إلى ذلك اضطرارا وتفاديا من عاقبة أسوأ. الصحة بريئة تمامًا، كانا من أحسن الناس عافية ومرحا. وجاراهما فتظاهر بالقلق على صحتهما واستمع إلى حديث طويل عن الضغط والطبيب، وقال بحرارة مصطنعة:

ـ الصحة أهم من العمل والمال..

وتوقفت حياة الترف المعهودة. انطفأت الشعلة، وبدوا كئيبين واجمين، وانتهت ليالى الولائم، وخيم على البيت جو غريب من الإثم والعقوبة، واختفى أصحاب المنفعة والانتهازية فخلا المسكن إلا من المنبوذين. وأمسى للنقود قيمة جديدة فلم تعد تنفق إلا بحساب، وتردد ذكر الغلاء مصحوبًا بلعن الانفتاح وذم المتاجرين بأرزاق الشعب!. ولم يخدع عبد الفتاح بهذا الصوت الوطنى الطارئ وعرف سره. إنه يكتسب كل يوم خبرة فى مكتب التحقيقات أثرت رؤيته وأفعمته بسوء الظن. لن يخدعه نقد المنحرفين إذا حيل بينه وبين الانحراف. وامتنعت المعونات التى كان يحظى بها من والديه، وتضاعف قلقه عندما سمع أباه وهو يقول:

ـ لا مفر من بيع بعض التحف لمواجهة الغلاء!

فمضت الدائرة تضيق حول عنقه ويديه وتخلقت فى حياته أزمة جديدة هى الأزمة الجنسية التى لم يشعر بوطأتها من قبل. وقال لوالده:

ـ إنى أعجب للذين لم ينحرفوا فى هذه الظروف الطاحنة..

فقال أبوه بيقين ساخر:

ـ هم الذين لا حاجة بهم إلى الانحراف..

فوافقه الشاب قائلاً:

ـ صدقت، فلكى يعيش فرد بلا نقود كافية يجب أن يكون صاحب معجزة..

فقال إبراهيم الدارجى ساخراً:

ـ وقد انتهى عصر المعجزات.

فتنهد الشاب قائلاً:

ـ الهجرة إلى الخارج هى الأمل الأخير..

فقال الرجل بلا حماس:

ـ انتظر واصبر ولا تيأس!

ولكن إلى متى؟. وإن وسعه أن يصبر مع التفاهة فكيف يروض وحش الجنس؟. حقا كانت أم حبيبته الغادرة بعيدة النظر، ولو أن الفتاة انتظرته لخيب أملها وفضح نفسه. وسأل زميله عبد اللطيف محمود:

ـ ألم تفكر فى الزواج؟

فأجاب ساخراً:

ـ أفكر فيه عدد شعر رأسى..

ـ هل استعددت له؟

فأجاب بعظمة:

ـ سأكون مستعداً عام ٢٠٠٠!

فابتسم فسأله عبد اللطيف:

ـ وأنت؟

فأجاب باقتضاب:

ـ حالى حالك!

فقال ضاحكًا:

ـ احلم بأن امرأة غنية وقعت فى هواك..

ولكن الأحلام أرهقته حتى الملل. وإنه على أتم الاستعداد للتخلى عن طموحه كله على شرط أن يتزوج وينجب قانعًا كل القناعة بتفاهته. وقال لنفسه «رضينا بالحد الأدنى ولكنه لا يرضى بنا». وهبط عليه إلهام غريب فى تافرنا وهو يحتسى النبيذ. أن يعلن حربا على الدولة!. أن يكتب منشورات سرية، دينية تارة ومادية تارة أخرى، ويرسلها إلى شتى الجهات ذات الخطورة فينشر بذلك القلق والرعب ويستمتع بالنصر والعبث. ما عليه إلا أن ينقل الآلة الكاتبة الخاصة بوالدته إلى حجرته بحجة أنه سيكتب عليها المتأخر من أعماله الحكومية. استجاب للإلهام وعزم على تنفيذه، وبذلك ينقذ نفسه من عذاب الانتظار والملل والتفاهة!. وراح ينفذ مشروعه بحماس وسرور وشيطنة. ويودع المنشورات فى مظاريف ويرسلها لشخصيات رسمية وغير رسمية. ورغم أنه استلهم مضامينها من منشورات اطلع عليها خلال التحقيقات إلا أنه زاد نقدها حدة وتهديداتها عنفًا. ولم يركز على صندوق بريد أكثر مما يجب فنوع الشوارع والأحياء، وانهمك فى العمل بقوة كأنما هو هدف حياته. وانتظر أن يتلقى أصداء عمله الخفى طويلاً حتى أوشك أن ييأس. وإذا بعبد اللطيف محمود يهمس فى أذنه ذات صباح:

ـ يتحدثون عن نشاط دب فى القوى الهدامة!

فخفق قلب عبد الفتاح واندفع متسائلاً:

ـ المنشورات؟!

وأدرك للتو تسرعه ففزع، وسأله الآخر:

ـ متى عرفت؟

فأنقذ نفسه قائلاً:

ـ فى المقهى يتحدثون!

ووصى نفسه بالحرص والحذر. فقال عبد اللطيف:

ـ أجهزة الأمن فى غاية من النشاط..

فتراوح بين السرور والخوف وتساءل:

ـ كيف؟

ـ المراقبة والتفتيش!

غض بصره إخفاء لانفعالاته. لم يكن هذا مقصده. تصور ما يتعرض له الأبرياء بسبب عبثه فغاص قلبه فى صدره. وأمضى اليوم قلقًا منزعجًا كئيبًا. لم يجلس إلى الآلة الكاتبة مرة أخرى. وتساءل هل يجيئون بهم ليسجل أقوالهم؟. وفى اليوم التالى دس إليه زميله عبد اللطيف ورقة قائلاً:

ـ إليك منشورًا!

تلقى المنشور بقلب خافق، ولكن قلبه توقف عن الخفقان عندما تبين له أنه منشور آخر حقيقى لا علاقة له بعبثه!. الجد والعبث يسيران جنبًا إلى جنب، ولكن ذلك لن يبرئه من الذنب فلا شك أن منشوراته تعتبر أيضًا مسئولة عما يجرى من تفتيش وتحقيق. ودار رأسه فشعر بأن أصبعا ستشير إليه بالاتهام. وفى صباح اليوم التالى لم يجد عبد اللطيف محمود على مكتبه. وسرعان ما علم بأنه ألقى القبض عليه فيمن ألقى القبض عليهم. قال له رئيس المكتب:

ـ كان منهم ونحن لا ندرى!

أغمض عبد الفتاح مغالبًا انفعالاته التى تموج بإعصار همجى. ولم يترك طويلاً للتأمل إذ دعى لمكالمة تليفونية لأول مرة مذ التحق بالعمل. وجد أن المتكلم هو والده قال له:

ـ فرجت، استعد للسفر، والتفاصيل وقت الغداء!

فرجت حقا!. الثروة فى الطريق ولن تستعصى مشكلة عن حل طيب. وقال لنفسه

ساخراً إنها نهاية سعيدة جديرة بمنحرف من صلب منحرفين! . واستحضر صورة الكون ممثلة فى السماء والأرض قال :

ـ خبرنى عن الهدف من فضلك وإحسانك!

قسمتى ونصيبى

عم محسن خليل العطار أجزل اللّه له العطاء فيما يحب ويتمنى عدا الذرية . دهر طويل مضى دون أن ينجب مع مجاهدة للنفس لترضى بما وهب اللّه وبما منع . كان متوسط القامة ممن يؤمنون بأن الخير فى الوسط . وكان بدينا وعنده أن البدانة للرجل كما للمرأة زينة وأبهة . وكان يزهو بأنفه الضخم وشدقيه القويين وبالحب المتبادل بينه وبين الناس . وحباه الحظ بست عنباية ذات الحسن والنضارة والطيات المتراكمة من اللحم الوردى الناعم، إلى كونها ست بيت ممتازة، يغنى سطح بيتها المكون من دور واحد بالدجاج والأوز والأرانب، ويلهج عشاق مائدتها بطواجنها المعمرة وفطائرها السابحة فى السمن البلدى . دنيا مقبلة فى كل شيء ولكنها ضنت بنعمة الإنجاب فى عناد تطايرت دونه الحيل . نشدت شورى الأحبة، ولجأت إلى أهل اللّه من العارفين والواصلين، وطافت بالأضرحة المباركة، حتى الأطباء زارتهم ولكنهم أصدروا فتوى غير مبشرة شملت الزوجين معا عم محسن وست عنباية وقالوا إن الأمل الباقى أضعف من أن يذكر . ووقفت فى سماء النعيم الصافية غمامة حزن مترعة بالحسرة لا تريد أن تتزحزح . ولما شارف عم محسن الخامسة والأربعين وست عنباية الأربعين تلقيا من اللّه رحمة . هتفت ست عنباية بعد تدقيق وعناية «يا ألطاف اللّه! . . إنى حامل وحق سيدى الكردى!» . كان عم محسن أول من طرب وشكر . وتردد الخبر فى الوايلية على حدود العباسية حيث يوجد بيت الأسرة ومحل العطارة . وانقضت الأشهر التسعة فى انتظار بهيج، وجاء المخاض يهزج بالأنين السعيد . ولما تلقت الحكيمة الوليد حملقت فيه مذهولة مبهوتة . وراحت تبسمل وتحوقل . وهرعت إلى الصالة الشرقية الوثيرة فوقفت أمام عم محسن مضطربة حتى تمتم الرجل خافق القلب :

ـ ربنا يلطف بنا، ماذا وراءك؟

همست بعد تردد :

ـ مخلوق عجيب يا عم محسن . .

ـ كيف؟

ـ أسفله موحد وأعلاه يتفرع إلى اثنين!

ـ لا!.

ـ تعال انظر بنفسك.

ـ وكيف حال الست؟

ـ بخير ولكنها غائبة عما حولها!

وذهب فى أثرها مضطربا خائب الرجاء. وحملق فى المخلوق العجيب. رأى أسفله موحدا ذا رجلين وبطن واحد، ثم يتفرع بعد ذلك إلى اثنين لكل منهما صدره وعنقه ورأسه ووجهه. وكانا يصرخان معا وكأن كلا منهما يحتج على وضعه أو يطالب باستقلاله الكامل وحريته الشرعية. هيمن على الرجل شعور بالارتباك والحيرة والخجل وحدس المتاعب تتجمع فوقه كالسحب المليئة بالغبار. وترددت فى داخله العبارة التجارية التقليدية التى يحسب بها الموقف عند فشل صفقة من صفقات العطارة وهى «يفتح اللّه». أجل ود لو فى الإمكان التخلص من هذه العاهة التى لن يذوق معها راحة البال. وقالت الحكيمة وهى مستغرقة فى عملها الروتينى:

ـ صحة جيدة، كأن كل شىء طبيعى تمامًا..

فتساءل عم محسن خليل:

ـ الاثنان؟

فقالت الحكيمة بحيرة:

ـ ليسا توءمين.. هذا وليد واحد!

فجفف الرجل عرق وجهه وجبينه المتصبب من داخله ومن جو الصيف وتساءل:

ـ ولم لا نعتبرهما اثنين؟

ـ كيف يكونان اثنين على حين أن انفصال جزء عن الجزء الآخر مستحيل!

ـ إنها مشكلة، ليتها لم تكن أصلا!

فقالت الحكيمة بلهجة وعظية:

ـ إنه منحة من اللّه على أى حال ولا يجوز الاعتراض على حكمته.. فاستغفر الرجل ربه فواصلت الحكيمة:

ـ سأسجله باعتباره واحدًا.

فتنهد عم محسن قائلاً:

ـ سنصبح أحدوثة ونادرة!

ـ الصبر جميل!

ـ ولكن ألا يستحسن اعتباره اثنين ذوى بطن واحد؟

ـ لا يمكن أن يتعامل مع الحياة إلا كشخص واحد .

وتبادلا النظر صامتين حتى سألته :

ـ ماذا تسميه؟

ولما لازم الصمت تساءلت :

ـ محمدين! . . ما رأيك فى هذا الاسم المناسب؟

فهز رأسه مستسلمًا دون أن ينبس . ولما انتبهت ست عنباية لما حولها صعقت . . وبكت طويلا حتى احمرت عيناها الجميلتان . وشاركت زوجها عواطفه . غير أن ذلك لم يستمر طويلاً فاستجابت ست عنباية فى النهاية إلى عاطفة الأمومة وعم محسن للأبوة . وراحت ترضع الأيمن فما سكت البكاء حتى أرضعت الأيسر . وبعفوية جعلت تنادى الأيمن بقسمتى والأيسر بنصيبى فمنذ الأسبوع الأول عرف الوليد باسمين . وتميز كل بفردية فربما نام قسمتى وظل نصيبى صاحيًا يتناغى أو يبكى أو يرضع . ومع الزمن خفت الدهشة وإن لم تخف أصداؤها فى الخارج ، وألفت الغرابة ، وزالت الوحشة . ونال قسمتى ونصيبى حظهما الكامل من الرعاية والحب والحنان . ومضت الأم تقول للزائرات من أهلها :

ـ ليكن من أمره ما يكون فهو ابنى ، أو هما ابناى .

واعتاد الحاج محسن ـ فقد أدى الفريضة بعد التجربة ـ أن يقول :

ـ للّه حكمته!

وعلم بفطرته أن الطفولة ستمر كدعابة ولكنه فكر فى المستقبل بقلق واختناق . أما ست عنباية فاستغرقتها متاعبها المضاعفة . كان عليها أن ترضع اثنين ، وأن تنظف اثنين ، وأن تربى اثنين . وأن تملك أعصابها إذا نام أحدهما واحتاج للهدوء وصحا الآخر ورغب فى الملاعبة . واختلفت بقدرة قادر صورتاهما ، فبدا قسمتى عميق السمرة رقيق الملامح عسلى العينين ، أما نصيبى فكان ذا بشرة قمحية وعينين سوداوين وأنف ينذر بالضخامة . وأخذ الوليد يحبو على قدمين وأربع أيد ، وينطق كلمة بعد أخرى ، ويحاول المشى . ولوحظ أن قسمتى كان أسرع فى تعلم النطق ولكنه كان يذعن لمشيئة نصيبى فى الحبو والمشى ، وفى العبث بالأشياء وتحطيمها . لبثت القيادة طيلة تلك الفترة المبكرة بيدى نصيبى واتسمت بالعفرتة والتدمير ومطاردة الدجاج وإيذاء القطط ، غير أن خضوع قسمتى لنصيبى أعفاهما من الشجار عدا الأويقات النادرة التى كان يميل فيها قسمتى للراحة فلا يتورع نصيبى عن لكزة بكوعه حتى يسترسل فى البكاء . ولما بلغا الرابعة من العمر وجاوزاها ، أخذا ينظران إلى الطريق من النافذة ويشاهدان الأطفال ، ويرفعان أعينهما نحو السماء من فوق السطح فانهمرت الأسئلة مع اللعاب :

ـ كل ولد ذو رأس واحد، لماذا؟

فتجيب ست عنباية مرتبكة:

ـ ربنا يخلق الناس كما يشاء..

ـ دائمًا ربنا.. ربنا.. أين هو؟

فيجيب عم محسن:

ـ هو يرانا ونحن لا نراه وهو قادر على كل شيء، والويل لمن يعصاه!

ويحدثهما الرجل عما يجب ليحوزا رضاه فيخاف قسمتي ويقول نصبي لقسمتي:

ـ اسمع كلامي أنا وإلا ضربتك..

ويريان القمر في ليالي الصيف فيمدان نحوه أيديهما. يتنهد قسمتي مغلوبًا على أمره ويثور نصيبي غاضبًا. ويتساءل الحاج:

ـ هل نحبسهما في البيت إلى ما شاء اللّه؟

فتقول ست عنباية:

ـ أخاف عليهما عبث الأطفال..

وقرر الحاج أن يقوم بتجربة فجلس أمام البيت على كرسي خيزران وأجلسهما إلى جانبه على كرسي آخر. سرعان ما تجمع الصغار من مختلف الأعمار ليتفرجوا على المخلوق العجيب ولم ينفع معهم زجر أو نهر حتى اضطر الرجل أن ينسحب من مجلسه وهو يحملهما على ذراعه، وتمتم في أسى:

ـ بدأت المتاعب.

ولكن اللّه فتح على ست عنباية بفكرة فاقترحت أن تقنع جارتها بإرسال ابنها طارق وبنتها سميحة للعب مع محمدين. ووافقت الجارة مشكورة فجاء طارق وسميحة، وكان طارق أكبر من محمدين بعام. أما سميحة فكانت تماثله في عمره. وقد فزعا أول الأمر ونفرا من الصحبة غير أن ست عنباية استرضتهما بالهدايا حتى زايلتهما الوحشة وجرفهما حب الاستطلاع والمغامرة، وسعد قسمتي ونصيبي بالرفيقين الجديدين، وأحبا حضورهما حبا فاق كل تقدير، رغم أنه لم يفز بحب في مثل قوته. وتنوع الحديث واللعب وابتكرت الحكايات. وجدت الكرة الصغيرة من يتبادل رميها، ووجد الحبل من يتصارع على شده، وباتت سميحة هدفا ورديا كل يرغب في الاستحواذ عليه، وكل يدعوها إلى الجلوس إلى جانبه إذا جمعهم التليفزيون. وبسبب سميحة نشبت بينهما أول معركة حقيقية على ملأ من الأسرة، فدميت شفة نصيبي وورمت عين قسمتي. وبها تحرر قسمتي من الذوبان في نصيبي وأخذ يشعر بأنه فرد بإزاء آخر فتبادلا من الآن فصاعدا التوافق كما تبادلا التنافر. وقال الحاج ذات يوم:

ـ جاءت السن المناسبة للمدرسة . .

فتجهم وجه عنباية وارتسم فى أساريره الشعور بالذنب فقال الحاج :

ـ إنه باب مغلق !

وتفكر مليًا ثم قال :

سأجيء لهما بالمعلمين ، يجب أن يعدا على الأقل ليحلا محلى فى الدكان . .

وجاء المعلمون ، ولقنوهما مبادئ الدين واللغة والحساب . واستجاب قسمتى للتعلم بدرجة مشجعة أما نصيبى فبدا راغبا عن العلم متعثرًا فى الفهم والاستيعاب ، ومن أجل ذلك حنق على الآخر ، وكدر ساعات مذاكرته بالعبث والغناء والمعاكسات الصبيانية ، وبدا الخلاف مزعجًا فى تقبل التربية الدينية التى أقبل عليها قسمتى بقلب مفتوح على حين وقف فيها نصيبى موقف اللامبالاة . وضاعف زجر المدرس من عناده ، ونهره أبوه كثيرًا ولكنه أشفق من ضربه . وعند بلوغ الثامنة أراد قسمتى أن يصلى ويصوم . ومع أن نصيبى لم يمل إلى ذلك إلا أنه وجد نفسه يشارك بقدر لا يستهان به فى الوضوء ، وأنه يرغم تقريبًا على الركوع والسجود . ولشعوره بضعف مركزه أذعن للواقع وهو يمتلئ حنقًا وغيظًا . وأمره أبوه بالصيام . وحاول أن يشبع جوعه فى الخفاء ولكن قسمتى أحتج قائلاً :

ـ لا تنس أن بطننا واحد ، وإذا تناولت لقمة واحدة أخبرت أبى . . وصبر يومه حتى نفد صبره فبكى فرقت له أمه وقالت للحاج :

ـ اللّه لا يكلف نفسًا إلا وسعها ، دعه حتى يكبر عامًا أو عامين . .

فقال الأب فى حيرة :

ـ ولكنه إذا أفطر أفطر الآخر !

وهى مشكلة لم يحلها إلا إمام سيدى الكردى فقال إن العبرة بالنية وأن صيام قسمتى صحيح حتى لو أفطر نصيبى . وصام قسمتى رغم إفطار نصيبى مستندًا إلى نيته أولاً وأخيرًا . وتوكد لكل شخصيته ، وحال بينهما نفور دائم آخذ فى الاستفحال ، وندرت بينهما أوقات الصفاء . وقالت الأم بعين دامعة :

ـ يا ويلى ، لا يطيق أحدهما الآخر ، ولا غنى لأحدهما عن الآخر ، فكيف تمضى بهما الحياة؟ !

مضت على الشوك ، وشمل الخلاف أشياء وأشياء . قسمتى يحب النظافة ونصيبى يكره فكرة الاستحمام إلا أن يضطر إليه اضطرارًا ، وتوسط الوالدان على أن ينزل قسمتى عن شيء من النظافة نظير أن ينزل نصيبى عن كثير من القذارة . ونصيبى نهم لا يشبع فكثيرًا ما كان يصاب قسمتى بالتخمة . ولقسمتى ولع بالأغانى العاطفية على حين يعشق

نصيبى الأناشيد الصاخبة. أما ذروة الخصام فقد احتدمت لحب قسمتى النامى للقراءة والاطلاع، يحب أن يقرأ كثيراً والآخر يفضل اللعب فوق السطح ومعاكسة السابلة والجيران. ونصيبى يمكن أن يصبر ساعة على انهماك الآخر فى القراءة ولكنه عند الضرورة يعرف كيف يفسد عليه تركيزه واستغراقه حتى يشتبكا فى معركة تسفر عادة عن انتصار نصيبى. وقال له قسمتى مجربا المناقشة بدلاً من العنف غير المجدى:

ـ لى هواياتى ولك هواياتك ولكن هواياتى أنسب لظروفنا غير الطبيعية..

فقال نصيبى بحدة:

ـ معنى ذلك أن تتحول الحياة إلى سجن دائم.

ـ لكن لا نصيب لنا فى الدنيا الخارجية.

ـ السعادة فى الدنيا والكآبة فى الحجرة.

فقال قسمتى:

ـ إنك تعاكس الناس فينهالون علينا بالسخرية.

ـ أموت لو فعلت غير ذلك.. بل إنى أفكر فى اقتحام الطريق..

ـ ستجعل منا أضحوكة وفرجة..

فصاح نصيبى:

ـ إنى أكره السجن وأحسد النجوم..

فقال قسمتى برجاء:

ـ يلزمك الكثير من العقل..

فقال نصيبى بازدراء:

ـ لا سبيل إلى الاتفاق.

ـ لكننا واحد كما ترى رغم أننا اثنان!

ـ هذه هى المصيبة ولكن عليك أن تذعن لى دون مقاومة..

ـ إنك عنيد وتحب الخصام..

ودعاهما الوالدان إلى الاجتماع فى حجرة المعيشة. حقا إنهما فقدا الشعور براحة البال وتنغص عليهما صفوهما. وآمنا بأن كارثة ستحل بالبيت إن لم يسارعا إلى حسم الداء. قبلتهما عناية وقالت:

ـ فليحب أحدكما الآخر، إن وجد الحب تلاشت المشاكل!

فقال نصيبى:

ـ هو الذى يكرهنى!

ولكن قسمتى بادره قائلاً:

ـ بل أنت الذى تكرهنى!

فقالت ست عنباية متأوهة:

ـ إنكما اثنان فى واحد لا يتجزأ ولا بد من الحب..

وقال الحاج محسن خليل:

ـ الحكمة تطالبكما بالوفاق وإلا انقلبت الحياة جحيمًا لا يطاق، ذوبان أحدكما فى الآخر مرفوض، والوفاق ممكن، فليصبر نصيبى عندما يرغب قسمتى فى القراءة، وفى مقابل ذلك على قسمتى أن يرحب بالحركة واللعب مع نصيبى، وليكن كل غناء مقبولاً ليستمتع كل بأغانيه المفضلة، أما الدين فلا مناقشة فيه..

فقال قسمتى:

ـ إنى على استعداد طيب للوفاق رغم ما يكلفنى من ضيق..

ولاذ نصيبى بالصمت فرجع قسمتى يقول:

ـ إنه لا يحب الوفاق، ولا يعد نفسه ليوم تدعونا فيه إلى العمل فى الدكان!

فقال الأب بحزم:

ـ لا بد مما ليس منه بد!

وعادت ست عنباية تقول بحرارة وضراعة:

ـ عليكما بالحب ففى رحمته النجاة..

ولكن الوالدين لم يصف لهما بال. وتابعا ما يحدث بقلق وأسى.. وبذل نصيبى فى سبيل الوفاق جهداً متردداً لغلبة الأهواء الجامحة عليه على حين مضى قسمتى فى الطريق الجديد بإرادة أقوى ورغبة أنقى مستأنسًا بعواطفه الصادقة وميله المخلص لوضع حد لعذاباته، ومستعينًا عند الضرورة بوالديه. ولما ناهزا الحلم وشارفا المراهقة تصاعدت أزمتهما إلى الذروة. احتدمت الأحلام المكبوتة منذرة بالانفجار. وتبلورت لكل منهما ذاتية مستقلة فبدا الآخر غريبًا مهدداً للأمن، وعدواً يجب أن يقهر. ضاق كل منهما بالرابطة القدرية التى فرضت عليهما وحدة كريهة لا فكاك منها. وتلاطما فى دوامة من الانفعالات المحرقة الجنونية. وفارت من الأعماق موجة عمياء جرفت ستر الحياء، فارتطم الاندفاع بالندم، واشتعل الغضب فانخرط الاثنان فى معركة وتبادلا الضربات القاسية. وهمدت الحركة غائصة فى الصمت والشجن. استمرت فترة غير قصيرة إلى أن قال قسمتى:

ـ إنها لعنة لا يمكن أن تمضى معها الحياة فى سلام..

فقال نصيبى بهدوء عنيد :

ـ لكنها ستمضى فى طريقها على أى حال!

فأظلمت عينا قسمتى العسليتان وقال :

ـ قضى علينا بالحرمان من الانسجام الذى تحظى به جميع المخلوقات . .

ـ إنك مريض ذو أفكار مريضة . .

فقال قسمتى بسخرية :

ـ أحدنا مريض ولاشك!

فقال نصيبى بتحد :

ـ لن أنزل عن حق من حقوقى . . فلا مهادنة بعد الآن . .

ـ لى أيضًا حقوقى . .

وتبادلا نظرة متحدية وبائسة ، فانقطعا عن الحوار على أسوأ حال . وفى ذلك الوقت رأيا سميحة ـ زميلة الطفولة ـ بعين جديدة . كانا يريانها من النافذة وهى تذهب وتجىء منفردة أو بصحبة أمها فتوقظ ذكرى عابرة ثم تختفى . أما ذلك اليوم فرأياها بعين جديدة . رأياها وقد أنضجتها شعلة الصبا فأضفت عليها بهاء وأثرتها بشهد الرغبة . أترع قلب قسمتى برحيق الفتنة فثمل على حين جن نصيبى بالأخيلة الجامحة . تلقى قلب قسمتى شعاع الحسن كما يتلقى البرعم شعاع الشمس فيتفتح . تمنى لو تحل محل نصيبى من وجوده التعيس ، ولأول مرة يشعر بأن نصيبى ليس قيدا فحسب ولكنه سد منيع فى طريق السعادة الحقيقية . أما نصيبى فظل رأسه يتحرك فى اضطراب ، ولما وجد الفتاة واقفة قريبة من مدخل بيتهما تنتظر اندفع إلى الطريق جارا معه قسمتى . . مرق من الباب إلى الطريق فرأته سميحة فتراجعت مبتعدة باسمة . ولكنه اندفع نحوها مسددًا يديه إلى صدرها ففزعت ووثبت داخلة إلى بيتها . ولفتت الهجمة الحيوانية أنظار بعض المارة فى شارع الوايلية ولكن قسمتى رجع إلى بيتهم بسرعة وهو يسب ويلعن والآخر مستسلم له بعد إفاقة مباغتة . وغضب قسمتى وصاح به :

ـ إنها فضيحة وما أنت إلا مجنون . .

فلم يجبه نصيبى مغلوبًا على أمره . وعلمت الأم بما حدث فجزعت ، ولما عرفت الحقيقة من قسمتى قالت للآخر :

ـ ستهلك نفسك ذات يوم . .

فهتف قسمتى :

ـ وسوف يهلكنى معه دون ذنب . .

فقال نصيبى بجرأة :

ـ نحن فى حاجة إلى زوجة !

فبهتت الأم ولم تدر ماذا تقول فواصل نصيبى :

ـ كما ولدتنا فإنك مسئولة عن تزويجنا من بنت الحلال . .

فقال قسمتى :

ـ لن توافق بنت على الزواج من اثنين !

فقال نصيبى بتحد :

ـ ابحثى لنا عن زوجتين .

فقال قسمتى بحزن :

ـ قضى علينا أن نعيش وحيدين !

فقال نصيبى :

ـ فلنعتبر شخصًا واحدًا كما نحن مسجلون فى دفتر المواليد .

فقال قسمتى بأسى :

ـ شخص للفرجة لا للزواج . .

واضطرت الأم أن تغادر الحجرة وهى تقول :

ـ قد يكون عند الحاج حل !

وثار غضب نصيبى ، وقال للآخر :

ـ لا حل إذا لم نعثر عليه بأنفسنا ، فلننتظر حتى ينتصف الليل ويندر المارة ثم ننطلق فى الظلام وراء أى صيد يقع .

فهتف قسمتى :

ـ خيال جنونى . .

ـ لا تكن جبانا .

ـ لا تكن مجنونا .

وقال الحاج محسن لزوجته :

ـ لم يغب عنى هذا الموضوع ، ولكن لا توجد أسرة ترضى بمصاهرتنا . .

ـ والحل ؟

فقال الرجل وصوته يخفض :

ـ ستجىء امرأة مسكينة فى الحلقة الخامسة لتقوم على خدمتهما !

وجاءت امرأة تعيسة الحال والمنظر، نشطوا إلى تغذيتها وتنظيفها لترضى بما يراد بها. وأعقب ذلك سكون ظاهرى على الأقل، أما فى الواقع فإن نصيبى كان يسىء معاملة المرأة نهاراً كتعويض عن اندفاعه الليلى، وأما قسمتى فبدا كئيباً مشمئزاً، ويسأل الآخر:

ـ ما ذنبى أنا؟

فنهره نصيبى متسائلاً:

ـ وهل الذنب ذنبى؟!

لم يحر جوابا لكنه تذكر سميحة بقلبه المسلوب، وعواطفه المتأججة المحرومة فتضاعف أساه. والحق أن كليهما شعر بالضياع والهوان، ولكن لم يشعر أحدهما بتعاسة الآخر، وعلى العكس اتهمه بأنه المسئول عن مأساته، وود لو يتخلص منه بأى ثمن. ودعاهما الأب للعمل فى الدكان ولو كتجربة لا مفر من ممارستها. كان يوم حضورهما فى الدكان يوما معتدل المناخ من أيام الربيع. تجليا للأعين فى بنطلون رمادى، وقميصين أبيضين نصف كم أما شعر رأسيهما فاستوى مشذبًا متوسط الطول. وقفا وراء الطاولة مرتبكين. وسرعان ما تجمع كثيرون ما بين زبون ومتفرج حتى ازدحم الطريق إلى نصفه. وقال الحاج موجهًا خطابه لابنيه:

ـ استغرقا فى العمل ولا تباليا بالناس.

ولكن الغضب تملك نصيبى على حين دمعت عينا قسمتى. وإذا بمصور صحفى يشق طريقه بين الجموع ويلتقط العديد من الصور لمحمدين أو قسمتى ونصيبى. وفى النصف الثانى من النهار جاء مندوب من التليفزيون يستأذن فى إجراء حوار مع الشابين، ولكن الحاج رفض بحزم وبنبرة شديدة الغضب. وبنشر الصور فى الصحيفة الصباحية اشتد إقبال الناس وهبط البيع للدرجة الدنيا، فاضطر الحاج محسن خليل لمنعهما من الذهاب إلى الدكان، وقال لامرأته بقلب محزون:

ـ سوف تصفى التجارة عقب انتهاء الأجل..

وعند ذاك تساءل نصيبى غاضبًا:

ـ لم لم تتخلص منا عقب ولادتنا؟. لم لم ترحمنا وترحم نفسك؟.

فقال الحاج فى تأثر شديد:

ـ لن تعرفا الضيم أبداً. وسترثان ما يحقق لكما الستر والكرامة.

فهتف نصيبى:

ـ لا قيمة للمال وحده، الواقع أننا ميتان، كم تمنيت أن أمارس التجارة وأبتاع سيارة وأتزوج من أربع!

وقال قسمتى فى حسرة :

ـ وعندى الاستعداد لأكون أستاذًا . . وأمارس السياسة أيضًا . .

ونظر نصيبى إلى قسمتى وقال بحنق :

ـ إنك العقبة التى تسد طريقى . .

فقال قسمتى بإصرار :

ـ أنت أنت العقبة . .

فتساءل الحاج :

ـ ألا تسلمان بالواقع وتسعيان إلى السعادة معًا؟

فقال قسمتى :

ـ لو خلقنا برأس واحد وأسفلين منفصلين لهان الأمر !

فقال الحاج برجاء :

ـ لن تعز السعادة على من ينشدها بصدق . .

فقال قسمتى بحنق :

ـ هذه السعادة هى سبب تعاستنا !

ثم التفت نحو نصيبى قائلاً :

ـ تخل عن عنجهيتك واتبعنى تبلغ أقصى درجات الرفعة والسعادة ، أما لو تبعتك أنا فيكون مصيرنا السجن . .

فقال نصيبى ساخرًا :

ـ محاولة خائبة لن تنجح . نحن مختلفان تمامًا ، أنا لا أحب المعرفة ، أما السياسة فإنك إن اخترت الحكومة اخترت من فورى المعارضة والعكس بالعكس ، لن أتبعك ولن تتبعنى ، ولن تهدأ المعركة . .

فقال الأب بنفاد صبر :

ـ ارجعا إلى الوفاق ، لا مفر منه ، إنه قدر ، كما أن اتحادكما قدر . .

وعادا كارهين إلى المحاولة . تجنبا الخلاف ما استطاعا ، وجارى كل الآخر رغم تقزز قسمتى الخفى وسخرية نصيبى بعيدًا عن عينى صاحبه . بدوا صديقين بلا صداقة ، متحالفين بلا إخلاص ، فعاش كل منهما نصف حياة ، وتعلق بنصف أمل . غير أن آثار العمر طبعت فى وجه نصيبى قبل الأوان ، وتوكد أنه يسرع نحو شيخوخة مبكرة . لعله نتيجة لإفراطه فى كل شىء . وراح يشكو من فتور فى الجنس وحساسية من الشراب ، وسوء الهضم . ولم تنفعه العطارة ولا الطب . وفى معاناته أعلن ما يخبئ من حنق على صاحبه فاتهمه قائلاً :

ـ حسدتنى عليك اللعنة . .

فتسامح معه قسمتى متمتمًا :

ـ سامحك اللّه !

فصاح به :

ـ لن تشمت بى ، إذا مت فستحمل جثتى إلى نهاية العمر وتتحول من بشر إلى قبر !

واشتد به الضعف حتى ركبه الخوف من الموت . ورق له قسمتى فى تدهوره فشجعه قائلاً :

ـ سترجع إلى خير مما كنت !

فلم يحفل بقوله ولم يصدقه . وذات صباح صحا مبكرًا وهتف :

ـ إنى ذاهب إلى موطن الحقيقة الباكية !

وهرولت إليه ست عنباية فأدركت أنه يحتضر فأخذته فى حضنها وراحت تتلو الصمدية وانتفض صدره ، وبكى قسمتى أيضًا ولكن سرعان ما غشاه الفزع من الموت المزروع فى جذعه ، وتبادل الوالدان نظرة حائرة . ماذا يفعلان بهذه الجثة التى لا يمكن دفنها؟ . واستدعى طبيب على عجل فتفحص الحال وقال :

ـ إنها مشكلة تتضمن مشكلات ، ولكن لا حل إلا تحنيطه إذ لا يمكن فصله . .

هكذا عاش قسمتى حاملاً جثة صاحبه المحنطة . أدرك من اللحظة الأولى أنه سيعيش نصف حى ونصف ميت . وأن الحرية التى حظى بها ، والتى طالما تمناها ، ليست إلا وهمًا ، وأنها نصف موت أو موت كامل . أجل قرر أن يهب نفسه للعمل طيلة الوقت بعد أن زال العائق ولكنه اكتشف أنه شخص جديد آخر . ولد الشخص الجديد فجأة وبلا تدرج . شخص فتر حماسه . وجفت ينابيعه ، وتلاشت همته ، وخمد ذوقه . شخص جفا الحياة والعبادة والمسرات اليومية البريئة . شخص يعيش تحت سماء ماجت بالغبار فلا زرقة ولا سحب ولا نجوم ولا أفق . وقال بأسى عميق :

ـ الموت فى الكون . .

ورئى طوال الوقت صامتًا واجمًا شبه نائم فسألته أمه :

ـ ألا تسلى نفسك بفعل شىء؟

فأجابها :

ـ إنى أفعل ما فى وسعى ، إنى أنتظر الموت . .

وبدا لعينيه أن الظلام يهرول نحوه واعدًا بالسلام .

العين والساعة

حدث ذلك فى آخر ليلة لى فى البيت القديم. أو الليلة التى تم الاتفاق على أنها ستكون الأخيرة. والبيت ذو شخصية منفردة رغم قدمه، وغربته الواضحة فى محيط العصر. بات وكأنه أثر من الآثار، وأكد ذلك موقعه المطل على ميدان ولد مع القاهرة فى عام واحد. نشأنا فيه بحكم الميراث، ثم حال الجفاء بيننا وبينه بحكم تنافر الأجيال، فتطلعنا إلى الأجواء الحديثة الباهرة بعيدا عن الجدران الحجرية المغروسة فى الأزقة الضيقة. كنت جالسا فى الصالة المعصرانية الواسعة على أريكة طاعنة فى السن تقرر الاستغناء عنها تحت منور محكم الإغلاق اتقاء لنزوات الخريف. وكنت أحتسى قدحا من القرفة رانيا إلى إبريق نحاسى صغير قائم على خوان بين يدى، يبرز ما فيه عود بخور جاوى يحترق على مهل نافثا خيطا من الدخان الطيب وهو يتماوج ويتأود تحت ضوء المصباح فى صمت الوداع، واعترى ارتياحى فتور لغيرما سبب ثم غمرنى شجن خفى. شحنت عزيمتى للمقاومة ولكن الحياة كلها تجمعت أمام عينى فى التماعة خاطفة مثل كرة من نور منطلقة بسرعة كونية، سرعان ما انطفأت واهبة ذاتها للمجهول غائصة فى جوفه الأبدى.

قلت لنفسى إنى على دراية بهذه الألاعيب، وإن الرحيل العارض المقرر غدا يذكرنى بالرحيل الأخير عندما يرفع الحادى عقيرته مرددا النشيد الأخير. وجعلت أتسلى عن أحزان الوداع بتخيل المقام الجديد فى الشارع العريض تحت أغصان البلح الملتحمة والحياة الجديدة الواعدة بمسرات أنيقة لا حصر لها، وما كادت القرفة تستقر فى جوفى حتى وثبت وثبة عملاقة مباغتة انتقلت بها من حال إلى حال، فمن أعماقى تصاعد نداء يدعو بثقة لا حد لها إلى فتح الأبواب وكشف الحجاب وغزو الفضاء واقتناص الرضى والسماح من جنبات الجو المعبق بالبخور. انجابت الهموم والأشجان وخواطر الفناء. وانهمرت سيول مترعة بالنشاط والهيام والطرب.

وانتفض القلب فى رقصة رائعة موحية بالإيهام والجذل. وشع نور فى الباطن فتجسد فى مثال. وقدم كأسا طافحة وقال بصوت عذب «تلق هدية معجزة» توقعت أن سيحدث حدث. وقد حدث. ذابت الصالة فى العدم وحل محلها فناء واسع يترامى حتى يفصل بينه وبين الميدان جدار غليظ أبيض، غطته دوائر وأهلة معشوشبة، وتوسطته بئر، وعلى مبعدة يسيرة منها نخلة فارعة، وتحيرت بين إحساسين، إحساس يقول لى إننى أرى

مشهدا لم تسبق لى رؤيته، وآخر يقول لى إنه ليس بالغريب وإننى أراه وأتذكره معا. حركت رأسى بعنف لأحضر إن كنت غائبا، ولكن المشهد ازداد وضوحا وسيطرة وتمثل لى بين البئر والنخلة بشر! إنه شخصى أنا رغم استخفائى فى جبة سوداء وعمامة عالية خضراء، وهذا وجهى رغم لحيته المسترسلة. حركت رأسى مرة أخرى ولكن المشهد ازداد وضوحا ويقينا، حتى لون الوقت الأسمر أشار إلى المغيب المغترب، وتمثل أمامى - بين البئر والنخلة - كهل يماثلنى فى الزى، رأيته يناولنى صندوقا صغيرا ويقول:

- إنها أيام غير مأمونة، يجب إخفاؤه تحت الأرض حتى تعود إليه فى حينه.

فسألته:

- ألا يحسن أن أطلع عليه قبل إخفائه؟

فقال بحزم:

- لا.. لا.. قد يحملك ذلك على التسرع فى التنفيذ قبل مضى عام فتهلك!

- أعلىّ أن أنتظر عاما؟

- دون نقصان، ثم أطع ما يمليه عليك..

وصمت لحظة ثم واصل محذرا:

- إنها أيام غير مأمونة، وقد يتعرض بيتك للتفتيش، فيجب إخفاؤه فى الأعماق..

وقام الاثنان بالحفر على كثب من النخلة، ودفنا الصندوق، ثم أهالا عليه التراب، وسويا السطح بعناية، ثم قال الكهل:

- أتركك للعناية الإلهية.. كن حذرا، إنها أيام غير مأمونة..

وعند ذاك تلاشى المشهد فكأنه لم يكن، رجعت صالة البيت القديم وما زال فى عود البخور بقية، ورحت أفيق من نشوتى بسرعة وأرتد إلى الواقع بكل كثافته، وغلبنى الانفعال والتأثر طويلا. ترى أكان وهما ما رأيت؟

هذا هو التفسير الجاهز ولكن كيف آخذ به وأنسى المشهد المجسد الذى نفث اليقين بكل أبعاده؟ لقد عشت واقعا ماضيا لا يقل فى صلابته عن الواقع الراهن، رأيت نفسى أو أحد جدودى وجانبا من عنصر انقضى، لا يجوز أن أشك فى ذلك وإلا شككت فى عقلى وحواسى، لا أدرى بطبيعة الحال كيف حدث ذلك ولكنى أدرى أنه حدث. وثمة سؤال غزانى بعنف: لماذا حدث ما حدث؟. ولماذا حدث فى هذه الليلة الأخيرة لى فى البيت القديم؟.

وفى الحال شعرت بأننى مطالب بعمل شىء ما. شىء لا مفر منه. وترى هل استخرج «الآخر» الصندوق بعد مضى العام وصنع ما يشير عليه به، هل نفد صبره فتسرع فهلك؟

هل انقلبت عليه خطته بسبب تلك الأيام غير المأمونة؟! يا لها من رغبة آسرة فى المعرفة لا يمكن مقاومتها!. وخطر لى خاطر غريب وهو أن الماضى لم يتمثل لى إلا لأن «الآخر» حيل بينه وبين الصندوق وأنى مدعو لاستخراجه وتنفيذ ما يشير به بعد إهمال طال واستطال أمداً غير معروف. إنه يأمرنى بألا أهجر البيت القديم لكى أعمل بكلمة قديمة مجهولة آن لها أن تتحقق. ومع أن الموقف كله تسربل بغشاء منسوج من الأحلام، متنافر تماما مع العقل، غير أنه هيمن علىّ بقوة طاغية فامتلأ القلب بأشواك التطلع والانتظار والآمهما الجامعة بين الترقب والعذوبة. ولم أنم من الليلة ساعة واحدة، وظل خيالى يجوب أرجاء الزمان الشامل للماضى والحاضر والمستقبل معا ثملا بخمر الحرية المطلقة، أمست فكرة الرحيل فى خبر كان. واستحوذت على نية التنقيب فى الماضى المجهول لعلى أعثر على الكلمة التى طال رقادها، ثم أتأمل ما ينبغى صنعه بعد ذلك.

وبالمقارنة بين المشهد البائد والمشهد الماثل لعينى، قدرت أن موقع النخلة القديم يقوم فى موضع السلم الصغير الصاعد إلى المنظرة. وعليه فالحفر يجب أن يبدأ على مبعدة يسيرة منه فيما يلى شباك المنظرة، اعترضتنى بعد ذلك مشكلة إخبار أخى وأختى بعدولى عن الرحيل بعد أن تم الاتفاق بيننا عليه.

وكنا لا نزال فى مرحلة التعليم الجامعى فأنا فى السنة النهائية بكلية الحقوق، وأخى الذى يصغرنى بعام يدرس الهندسة، وأختى التى تصغرنى بعامين تدرس الطب. احتج كلاهما على عدولى المفاجئ ولم يجدا له تفسيرا مقنعا وأصرا فى الوقت نفسه على الانتقال وحدهما غير يائسين من التحاقى بهما فى وقت قريب. وقبل أن يغادرانى ذكرانى بما اتفقنا عليه من عرض البيت للبيع للاستفادة من ارتفاع سعر الأراضى فلم أعارض بكلمة. هكذا افترقنا لأول مرة فى حياتنا وكنا نؤمن بأنه لن يفرق بيننا إلا الزواج أو الموت. ولم يبق إلا أن أشرع فى العمل. والحق أنى تهيبته أن يتمخض عن لا شىء ولكنى كنت مدفوعا بقوة لا تقبل التراجع. وعزمت على الحفر بنفسى ليلا فى حذر وكتمان، واستعنت بفأس ومجرفة ومقطف واستغرقنى العمل بهمة لا تعرف الكلل. صبغنى التراب وملأ صدرى واستقر فى أنفى رائحة مترعة بالأسى والزمان الأول. وتواصل العمل حتى غصت فى الأعماق مقدار طولى كله ولا معين لى إلا شعورى الباطنى بأنى أقترب من الحقيقة. وضربت الفأس مرة فرجع صوتا جديدا واشيا بجسم جديد فخفق فؤادى حتى زلزلت جذوره. رأيت الصندوق على ضوء شمعة يطالعنى بوجه أغبر لكنه حى.

وكأنما يعاتبى على طول تأخرى، ويؤنبنى على ضياع العديد من السنين، ويعلن استياءه على حبسه كلمة من حقها أن تعرف، من ناحية أخرى تجسد لى حقيقة صلبة لا يدانيها شك. معجزة مجسدة، صوتا يملأ الأسماع، وانتصارا محققا على الزمن،

صعدت به إلى سطح الأرض ثم هرولت إلى الصالة، حملت بين يدى الدليل الذى عبر بى من الحلم إلى الحقيقة هازئا بكافة المسلمات. نفضت عنه الغبار، وفتحته، فوجدت رسالة مطوية فى لفافة من كتان متهرئ، بسطتها برفق وأنشأت أقرأ:

ـ يا بنى ليحفظك الله تعالى..

مضى العام وعرف كل سبيله.

لا تهجر دارك فهى أجمل دار فى القاهرة فضلا عن أن المؤمنين لا يعرفون دارا سواها. ومأوى آمنا غيرها.

وقد آن الأوان لكى تلقى حامى الحمى مولانا عارف الباقلانى، فاذهب إلى داره، وهى الثالثة إلى يمين الداخل فى عطفة إرم جور واذكر له كلمة السر وهى: إذا تغيبت بدا وإن بدا غيبنى.

بذلك تؤدى واجبك وتقبل عليك الدنيا وتنال ما يحب لك المؤمنون وفوق ما تحب لنفسك.

قرأت الرسالة مرات حتى حالت القراءة آلية لا معنى لها. أما قرينى القديم فلا علم لى بما آل إليه مصيره. لكن المؤكد أن الدار لم تعد أجمل دار فى القاهرة ولا المأوى الآمن للمؤمنين، ولم يعد لحامى الحمى عارف الباقلانى وجود، فعلام كانت الرؤيا وعلام كان التعب؟!. ولكن هل يمكن أن تقع معجزة بهذه القوة لغير ما سبب؟!. أليس من الجائز أنها تطالبنى بالذهاب إلى الدار الثالثة بعطفة إرم جور لتجود علىّ بما لم يقع لى فى تقدير؟!. وهل أملك أن أصرف نفسى عن الذهاب إلى هناك مجذوبا بحب استطلاع نهم ورغبة تأبى أن تؤول معجزتى الفريدة إلى عبث عقيم، ذهبت مستظلا بجناح الليل متأخرا عن ميعادى عدة مئات من السنين. وجدت الحارة خاشعة تحت ظلمة يلوح فى عمقها بصيص نور يشع من مصباح، ولم أر من البشر إلا آحادا عبروا بسرعة نحو الطريق. جاوزت البيت الأول إلى الثانى وعند الثالث توقفت عن المشى. وملت نحوه كمن يسير فى حلم حتى تبين لى أنه ذو فناء صغير يقع وراء سور قصير وأنه لا يخلو من أشباح البشر، وقبل أن أتراجع فتح الباب وخرج رجلان طويلان فى ملابس عصرية، حصرانى بينهما فى حركة التفاف رشيقة ثم جاءنى صوت أحدهما قائلا:

ـ ادخل لمقابلة من جئت لمقابلته..

فقلت مأخوذا:

ـ ما جئت لمقابلة أحد ولكنى أود أن أعرف اسم من يقيم فى البيت..

ـ حقا. لماذا؟

فقلت وأنا أزيح عن صدرى انقباضه:

ـ أود أن أعرف إن كان المقيم هنا من آل الباقلانى .

فقال الرجل متهكما :

ـ دعك من الباقلانى وواصل رحلتك إلى نهايتها .

أفضى إلى قلبى بأنهما من رجال الأمن فخامرنى قلق وحيرة وقلت :

ـ لا توجد رحلة ولا مقابلة . .

ـ سوف تغير رأيك . .

وقبض كل منهما على ذراع ، وساقانى رغم مقاومتى إلى الداخل .

انتزعت من الحلم ودفعت إلى كابوس ، وأدخلت إلى حجرة استقبال مضاءة يقف فى وسطها شخص فى جلباب أبيض والقيد الحديدى فى يديه ، ورأيت فى أنحاء الحجرة رجالا من نوع الرجلين اللذين ساقانى على رغمى ، وقال أحد الرجلين :

ـ كان قادما للاجتماع بصاحبه .

التفت رجل ـ حدست أنه رئيس القوة ـ إلى المقبوض عليه وسأله :

ـ أحد زملائك؟

فأجاب الشاب بوجه متجهم :

ـ لم أره من قبل .

فنظر الرجل نحوى وسألنى :

ـ هل تردد الكلام نفسه أو توفر على نفسك وعلينا العناء ، وتعترف؟

فهتفت بحرارة :

ـ أحلف بالله العظيم على أنه لا علاقة لى بشىء مما تظنون .

فمد يده نحوى قائلا :

ـ بطاقتك .

أعطيته البطاقة فقرأها ثم سألنى :

ـ ما الذى جاء بك إلى هنا؟

فأومأت إلى الرجلين وقلت متشكيا :

ـ جاءا بى قسرا .

ـ اقتنصاك من عرض الطريق؟

ـ جئت الحارة للسؤال عن الباقلانى .

ـ ماذا يدفعك للسؤال عنهم؟

فارتبكت وتحيرت وشعرت بالحذر الواجب أن يشعر به من يجرى تحقيق معه، قلت :

ـ قرأت عنهم فى التاريخ وأنهم كانوا يقيمون فى ثالث بيت إلى يمين الداخل إلى هذه الحارة .

ـ دلنى على المرجع الذى قرأت فيه ذلك .

فغصت فى الحيرة أكثر ولم أحر جوابا ، فقال :

ـ الكذب لا يفيد ، بل إنه يضر !

فتساءلت فى شبه يأس :

ـ ماذا تريدون منى ؟

فقال بهدوء :

ـ إنك ملقى القبض عليك للتحقيق .

فصحت :

ـ لن تصدقونى إذا صارحتكم بالحقيقة .

ـ ترى ما هى هذه الحقيقة ؟

تنهدت وفى ريقى تراب ، ثم أنشأت أقول :

ـ كنت جالسا وحدى فى صالة بيتى . .

وأفشيت سرى تحت نظراتهم الصارمة الساخرة ، ولما انتهيت قال الرجل ببرود :

ـ ادعاء الجنون لا يفيد أيضًا .

فهتفت بشماتة وأنا أخرج الرسالة من جيبى :

ـ إليكم الدليل . .

تفحصها مليا وهو يهمس لنفسه :

ـ ورقة غريبة سنجلو سرها بعد قليل . .

وراح يقرأ السطور بعناية وشفته تنفرج عن بسمة هازئة ثم تمتم :

ـ شفرة مكشوفة !

ثم نظر نحو صاحب الدار المقبوض عليه وسأله :

ـ سيادتك عارف الباقلانى ؟ أهذا هو اسمك الحركى ؟

فقال الشاب باستهانة :

ـ ليس لى اسم حركى ، وما هذا الغريب إلا أحد مرشديكم جئتم به لتلفقوا لى تهمة ولكنى خبير بهذه الألاعيب !

وتساءل أحد المعاونين :

ـ ألا يستحسن أن نبقى لعل آخرين يأتون فيقعون فى الشرك؟

فقال الرجل :

ـ سننتظر حتى الفجر .

وأشار إلى الرجلين الممسكين بى إشارة خاصة فشرعا يضعان القيد الحديدى فى يدى غير مبالين باحتجاجى ، ولم أصدق المصير الذى انزلقت إليه . كيف يبدأ بمعجزة باهرة وينتهى بمثل هذه الوكسة؟! . لم أصدق ولم أستسلم لليأس . أجل إنى أنغمس فى محنة حتى قمة رأسى ولكن الرؤيا لم تتجل لمحض العبث . علىّ أن أعترف بخطئى الصبيانى وعلىّ أن أعيد النظر ، وعلى أن أناجى الوقت . .

وشملنا صمت ثقيل . تذكرت أخى وأختى فى الدار الجديدة ، والحفرة الفاغرة فى الدار القديمة ، وتراءى لى الموقف من خارجه ففرت منى ضحكة ، ولكن لم يلتفت لى أحد ، ولا خرج من الصمت .

الليلة المباركة

ما هى إلا حجرة وحيدة يتوسطها البار والرف المزين بالقوارير فى عطفة نورى المتواضعة والمتفرعة عن كلوت بك ، اسمها الزهرة ، و لكن يعشقها لحد الوله الشيوخ المدمنون ، وخمارها طاعن فى السن ، متماد فى الهدوء ، مؤثر للصمت ، غير أنه يشع مودة وأنسا ، وبخلاف الحانات تهيم فى سكينة رائعة ، وكان روادها يتناجون فى الباطن ويتحاورون بالنظرات ، وفى الليلة المباركة خرج الخمار عن صمته التقليدى وقال :

ـ حلمت أمس بأن هدية ستهدى إلى صاحب الحظ السعيد . .

فشدا قلب «صفوان» بنغمة مصحوبة بعزف عود خفى فتدفقت موجات الخمر فى أرجائه كالكهرباء فهنأ نفسه قائلا «مباركة الليلة المباركة» . وغادر الخمار ثملا يترنح ، غائصا فى الليل الجليل تحت سماء خريف لم يخل من وميض نجوم . مضى نحو شارع النزهة مخترقًا الميدان متألقًا بنشوة لم يعتورها أدنى خمول بدا الشارع خاشعا تحت ستار الظلام عدا أضواء المصابيح الرسمية المتباعدة ، بعد أن أغلقت الحوانيت أبوابها وركنت المساكن للنوم . ووقف أمام بيته ، وهو الرابع إلى اليمين ذو الرقم ٤٢ ، من دور واحد يتقدمه فناء قديم لم تبق من حديقته إلا نخلة فارغة . وعجب للظلام الكثيف الذى يحتويه . وتساءل لم لم تضئ زوجته مصباح الباب الخارجى كالعادة؟! . وخيل إليه أن

شبح البيت يتبدى فى صورة جديدة، جهمة غليظة موحشة وأن رائحة تفوح منه كالشيخوخة. ورفع صوته هاتفا:

- يا هوه!..

فاستوى أمام عينيه وراء السور شبح رجل يسعل ثم يتساءل:

- من أنت؟.. وماذا تريد؟..

فذهل صفوان لوجود الغريب وسأله بحدة:

- من أنت؟.. وماذا أدخلك بيتى؟!

فقال الرجل بخشونة وغضب:

- بيتك؟

- من أنت؟

- أنا خفير الأوقاف.

- لكن هذا بيتى..

فصاح الرجل ساخرا:

- هذا بيت مهجور من قديم تجنبه الناس لما يشاع عنه من أنه مسكون بالعفاريت..

سلم بأنه ضل طريقه، وهرول نحو الميدان، وشمله بنظرة شاملة، ثم رفع رأسه إلى لافتة الشارع، وقرأ بصوت مرتفع «النزهة»، ودخل هذه المرة وهو يعد البيوت عدا حتى بلغ الرابع. وقف مذهولا يكاد يجن. لم يجد بيته، ولا البيت المسكون، ولكنه رأى أرضا فضاء، خرابة، مبسوطة بين البيوت، وتساءل:

- أفقدت بيتى أم فقدت عقلى؟!

ورأى الشرطى قادما وهو يتفقد أقفال الحوانيت فاعترض سبيله وسأله وهو يشير نحو الخرابة:

- ماذا ترى هنا؟

فحدجه الشرطى بنظرة مستريبة وتمتم:

- هذه خرابة كما ترى، وتقام فيها سرادقات الموتى أحيانا..

فقال صفوان:

- كان يجب أن أجد مكانها بيتى، تركته وفيه زوجتى وهى فى تمام الصحة والعافية عصر اليوم فقط. فمتى هدم وأزيلت أنقاضه؟!

فدفن الشرطى ابتسامة طارئة فى عبوسة رسمية وقال له بخشونة:

- اسأل السم الزعاف فى بطنك!

فقال صفوان بكبرياء :

ـ إنك تخاطب مديرا عاما سابقا !

فقبض الشرطى على ذراعه ومضى به قائلا :

ـ سكر وعربدة فى الطريق العام !

وسار به إلى قسم الظاهر على مبعدة يسيرة وأوقفه أمام الضابط فى حال تلبس ، ورثى الضابط لوقاره وسنه ، فقال :

ـ البطاقة ؟

وأخرج له بطاقته وهو يقول :

ـ إنى فى تمام وعيى ولكن بيتى لم يعد له أثر . .

فقال الضابط ضاحكا :

ـ سرقة من نوع جديد لا أدرى كيف أصدقها . .

فقال صفوان بقلق :

ـ ولكنى أقول الحقيقة . .

ـ الحقيقة مظلومة ولكنى سأعاملك برفق إكراما لسنك . .

ثم قال الشرطى :

ـ اذهب به إلى البيت رقم ٤٢ بشارع النزهة . .

وذهب به الشرطى ، وأخيرا وجد نفسه أمام بيته كما يعرفه ، ورغم سكره دهمه الحياء . وفتح الباب الخارجى ، وعبر الفناء ، وفتح الباب الداخلى ، وأضاء مصباح المدخل ، وعند ذلك بهت ، وجد نفسه فى مدخل لم تقع عليه عيناه من قبل لا صلة ألبتة بينه وبين مدخل بيته الذى عاش فيه حوالى نصف قرن حتى أبلى أثاثه وجدرانه . وقرر التراجع قبل انكشاف أمره فمرق إلى الطريق ، وقف يتفحص البيت من الخارج ، إنه بيته ، من ناحية الشخصية والموقع ، وقد فتح أبوابه بمفتاحه فلا منفذ إلى الشك فى ذلك ، فماذا غيره من الداخل ؟ ! . ثمة نجفة صغيرة بهيئة الشمعدان ، والجدران مورقة ، وسجادة جديدة ! من ناحية هو بيته ، ومن ناحية أخرى هو بيت غريب . وماذا عن زوجته صدرية ؟ ! .

وقال بصوت مسموع :

ـ إنى أشرب منذ نصف قرن فماذا حدث فى هذه الليلة المباركة ؟ !

وخيل إليه أن بناته السبع المتزوجات ينظرن إليه بأعين دامعة ، ولكنه عزم أن يحل مشكلته بنفسه دون لجوء إلى السلطات وإلا عرض نفسه لسيف القانون ، واقترب من

سور الفناء وراح يصفق بيديه، وفتح الباب الداخلى عن شخص لم تتضح معالمه وجاءه صوت امرأة متسائلا :

ـ ماذا يوقفك فى الخارج؟!

خيل إليه أنه صوت غريب، أو شك فى ذلك، وتساءل :

ـ بيت من من فضلك؟!

فهتفت المرأة :

ـ لهذا الحد؟! . . لا . . لا . .

فقال بحذر :

ـ أنا صفوان . .

ـ ادخل وإلا أيقظت النائمين . .

ـ أأنت صدرية؟!

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، يوجد من ينتظروك فى الداخل . .

ـ فى هذه الساعة؟!

ـ إنه ينتظر منذ العاشرة . .

ـ ينتظرنى أنا؟!

فتأففت بصوت مسموع. فتساءل :

ـ أنت صدرية؟!

فهتفت بنفاد صبر :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله!

وتقدم، فى حذر أولا ثم باستهانة. وجد نفسه فى المدخل الجديد. ورأى باب حجرة الاستقبال مفتوحا والأضواء تنير الداخل بقوة أما المرأة فقد اختفت. ودخل حجرة الاستقبال فطالعته بمنظر جديد مثل المدخل.

أين ذهبت الحجرة القديمة بأثاثها العتيق؟! جدران حديثة الطلاء، ونجفة كبيرة تتدلى منها فوانيس من طراز أسبانى، وسجادة زرقاء، وكنبة وثيرة وفوتيات مريحة، فهى حجرة فاخرة، وفى الصدر جلس رجل غريب لم يره من قبل، نحيل غامق السمرة ذو أنف يذكر بمنقار الببغاء وفى بصره حدة، ويرتدى بدلة سوداء رغم أن الخريف كان يسحب خطاه الأولى. بادره الرجل بضيق :

ـ شد ما تأخرت عن ميعادنا!

فذهل صفوان وغضب فى آن وتساءل :

ـ أى ميعاد؟ . من أنت؟!

فهتف الرجل :

ـ هذا ما أتوقعه، النسيان! ، صادق أم كاذب ، الشكوى نفسها ، تتكرر كل يوم لا فائدة، ولكن هيهات . .

فصاح صفوان بحدة :

ـ ما هذا الهذيان؟

فقال الرجل وهو يضبط أعصابه :

ـ أعرف أنك صاحب «مزاج» وأنك تفرط أحيانا .

فقاطعه :

ـ إنك تخاطبنى وكأنك ولى أمرى على حين أننى لا أعرفك ويدهشنى أنك تفرض نفسك على بيت فى غياب صاحبه . .

وهو يضحك ضحكة باردة :

ـ صاحبه؟!

فتساءل فى عنف :

ـ كأنك تشك فى ذلك . . أرى ضرورة استدعاء الشرطة!

فاندفع الرجل فى غضب :

كى تقبض عليك بتهمة السكر والعربدة والاحتيال!

ـ اخرس إنك محتال وقليل الأدب . .

فضرب الرجل كفا بكف وقال :

ـ تتجاهلنى لتهرب من تعهداتك ولكن هيهات . .

ـ أنا لا أعرفك ولا أفهمك . .

ـ حقا؟! أتدعى النسيان والبراءة؟ . . ألم توافق على بيع البيت والزوجة وتحديد هذه الليلة لإنهاء الإجراءات النهائية؟!

فذهل صفوان وصاح :

ـ يا لك من شيطان كذاب . .

فقال بهدوء وهو يرفع منكبيه :

ـ كالعادة كالعادة أف لكم!

ـ أنت مجنون بلا شك . .

ـ لدى الدليل والشهود!

ـ لم أسمع عن إنسان فعل ذلك من قبل . .

ـ بل يحدث كل ساعة ولكنك ممثل بارع وسكران .

فقال صفوان وهو ممزق بين انفعالاته المتضاربة :

ـ أطالبك بالخروج فى الحال . .

فقال بصوت ملىء بالثقة :

ـ بل ننهى الإجراءات الناقصة . .

ونهض نحو الباب المغلق المفضى إلى الداخل ونقره ثم رجع إلى مجلسه وفى الحال دخل رجل قصير مربع الأنف بارز الجبهة يتأبط دوسيها متخما بالأوراق فانحنى تحية وجلس . ثقبه صفوان بنظرة قاسية وصاح :

ـ متى أصبح بيتى مأوى للأغراب؟!

فقال الرجل الأول مقدما الداخل :

ـ الأستاذ المحامى .

فسأله صفوان بشدة :

ـ من أذن لك بالدخول فى بيتى؟

فقال الأستاذ مبتسما :

ـ أنت مرهق ولكن الله يسامحك ، ماذا يغضبك؟

ـ يا لك من صفيق!

فقال الأستاذ دون مبالاة بقوله :

ـ الصفقة فى صالحك دون ريب .

فسأله بذهول :

ـ أى صفقة؟!

ـ أنت تعرف تماما ما أعنيه . . وأود أن أقول لك إن التفكير الآن فى التراجع غير مجد . القانون معنا والعقل أيضا . دعنى أسألك أترى أن هذا البيت هو بيتك حقا؟!

لأول مرة يشعر بالحرج ويقول :

ـ نعم ولا . .

ـ أكان على هذه الحال عندما غادرته؟!

ـ كلا .

ـ إذن فهو بيت آخر .

ـ لكنه نفس الموقع والرقم والشارع .

ـ جميع ذلك أعراض لا تمس الجوهر، وإليك أمرا آخر . .

وقام فنقر الباب ثم رجع إلى مجلسه . وسرعان ما دخلت امرأة متوسطة العمر والجمال مهذبة المظهر مع ميل إلى الحزن فجلست إلى جانب الرجل الأول وعاد المحامى يسأله :

ـ هل ترى فى هذه السيدة زوجتك؟

خيل إليه أنها تمت بشبه إليها ولكنه لم يملك أن قال :

ـ كلا .

ـ عظيم لا البيت بيتك ولا السيدة زوجتك فما عليك إلا أن توقع على الاتفاق الأخير ثم ترحل . .

ـ أرحل! . . إلى أين؟!

ـ يا سيدى لا تكن عنيدا . الصفقة فى صالحك تماما وأنت تعلم ذلك .

ودق جرس التليفون فى هذه الساعة المتأخرة من الليل وكان المتحدث الخمار .

وعجب صفوان لأنه كان يتلقن له لأول مرة فى حياته قال له :

ـ صفوان بك . . وقع دون تأخير . .

ـ لكن هل تعلم . .

ـ وقع . . إنها فرصة لا تعوض فى العمر إلا مرة واحدة . .

وأغلق السكة . تذكر صفوان الحوار القصير وإذا بأعصابه تهدأ وتستقر وتستسلم من أقصى طرف إلى أقصى طرف . فى ثانية تغير حاله تماما فانبسطت أساريره وزايله التوتر فوقع، عند ذاك سلمه المحامى حقيبة صغيرة وثقيلة نوعا ما وهو يقول :

ـ فليبارك الله خطاك، فى هذه الحقيبة كل ما يلزم الإنسان السعيد فى هذه الدنيا .

وصفق الرجل الأول فدخل رجل بدين جدا باسم الثغر جذاب الروح فقال المحامى يقدمه إلى صفوان :

ـ هذا رجل أمين وخبير فى عمله وسيوصلك إلى مأواك الجديد . حقا إنها صفقة رابحة!

ومضى الرجل البدين إلى الخارج فتبعه صفوان ساكنا مطمئنا ويده تشد على مقبض الحقيبة . تقدمه الرجل فى الليلة فتبعه، ولما لفحه الهواء ترنح فأدرك أنه لم يفق بعد من

سكرة الليلة المباركة. وأوسع الرجل خطاه فطالت المسافة بينهما فأسرع بدوره رغم سكره مسددا بصره نحو شبح الآخر وهو يعجب لجمعه بين الخفة والبدانة وهتف به:

ـ تمهل فى سيرك يا حضرة.

فكأنه حثه على مزيد من السرعة فتدفق فى خطى متلاحقة، فاضطر صفوان إلى الهرولة خشية أن يفقده فيفقد أمله الأخير ولكنه خاف أن يعجز عن الصمود فهتف به مرة أخرى:

ـ تمهل وإلا ضللت طريقى.

فإذا بالآخر يعدو غير عابئ به ففزع صفوان واندفع يجرى غير مبال بالعواقب وناله من ذلك عناء شديد وغير مجد أيضا لأن الرجل غاص فى الظلام وتوارى عن عينيه. وخاف أن يسبقه إلى ميدان الينابيع حيث تتفرق طرق شتى فلا يدرى فى أى طريق ذهب فراح يجرى بأقصى سرعة مصمما على اللحاق به. وأثمر جهاده فلاح له شبحه مرة أخرى عند مفترق الطرق. رآه ينطلق صوب الأمام نحو الحقول متجاهلا الفروع المائلة نحو المدينة شرقيها وغربيها فانطلق وراءه وتواصل العدو بغير انقطاع ودون أدنى شعور بالعجز من ناحيته وفغمت خياشيمه روائح طيبة مستثيرة ذكريات شتى لم يجد وقتا لتمليكها ومعايشتها وعندما انفرد بهما فضاء السماء والأرض أخذ الرجل يهدئ من سرعته على مهل حتى رجع إلى الهرولة فالمشى ثم توقف ولحق به وتوقف وهو يلهث. نظر إلى الظلمة الشاملة المشعشعة بأضواء النجوم الخافتة ثم تساءل:

ـ أين المأوى الجديد؟

فلزم الرجل الصمت على حين راح هو يشعر بغزو ثقل جديد ينقض على منكبيه وسائر جسمه ونما الثقل وتصاعد حتى خيل إليه أن قدميه ستغوصان فى الأرض واشتدت وطأته حتى لم تعد تحتمل الصبر وباندفاعة عفوية خلع حذاءه ومضت الوطأة فى صعود فنزع جاكتته وبنطلونه وطرحهما أرضا ولم يحدث ذلك أثرا يذكر فتخلص من ملابسه الداخلية غير مبال برطوبة الخريف غير أن الألم ألهبه فلم يجد بدا من ترك الحقيبة تهوى إلى الأرض وهو يتأوه. عند ذاك خيل إليه أنه استعاد توازنه وأنه يستطيع أن يتابع الخطوات المتبقية وانتظر أن يفعل صاحبه شيئا ولكنه غرق فى الصمت وأراد أن يحاوره فامتنع عليه الحوار وتسلل الصمت الشامل من مسامه إلى صميم قلبه. وخيل إليه أنه سيسمع بعد قليل الحوار الدائر بين النجوم.

رأيت فيما يرى النائم

الحلم رقم ١

رأيت فيما يرى النائم . .

أننى راقد . أننى نائم أيضا ولكن وعيى يرامق الظلام المحيط . . وثمة أنثى أقبلت يند عنها حفيف ثوب . والحجرة ما الحجرة؟ ، أهى حجرتى الراهنة أم أخرى آوتنى فيما سلف من الزمان؟ . ويتهادى الوجه إلى حسى رغم الظلام . باستدارته الناعمة وسمرته الصافية ورنوته الناعسة . نسق تسريحاتها عصرى أما ثوبها فقديم يجر ذيلا مثل سحابة رشيقة . وهمس صوت لم أر قائله :

ـ للزمن نصل حاد وحاشية رقيقة .

وركعت فى استسلام وانهمكت فى عمل . ثبتت عليها عيناى ولكنى لم أنبس بكلمة . وحدست وراء انهماكها غاية دانية . وقال الصوت :

ـ الأنفاس العطرة تصدر عن قلب طيب .

وانتظرت حتى جمعت أدواتها ونهضت فى رشاقة . ومضت نحو الخارج .

شدتنى بخيوط خفية لا تنقصف فانزلقت من الفراش وتبعتها . وهيمن علىّ شعور بأننى مدعو لأمر ما ، وأننى لن أحيد عن التطلع إلى الأمام . تمضى متأودة كأنها ترقص باعثة وراءها بنسائم من الذكريات . تعرف طريقها فى الليل وأهتدى أنا بشبحها . ومررت بأشياء وأشياء ولكنى أنسيتها فتوارت مثل شرر متطاير . وعند موضع عبق بشذا الحناء فصل بيننا قطار سريع طويل رج الأرض ومن عليها . . وبذهاب ضجيجه استوى الليل أمامى وحده فضاعفت من سرعتى . وأطبق الليل وحده واختلجت فيه الوعود المضمخة بشذا الحناء . لم يعد فى وسعى التراجع وليس معى من الحوافز إلا الظمأ والشوق .

الحلم رقم٢

رأيت فيما يرى النائم . .

حبة رمل ملقاة بين جذور أشجار فى مكان لعله غابة . جذبت انتباهى واستحوذت

عليه ببريقها، وبما أوحته إلى من أنها ترانى كما أراها. وقلقت فى موضعها فلم أشك فى أنها مقبلة على مغامرة وأثارت حب استطلاعى إلى أقصى حد. ومضت تنتفخ رويدا حتى آلت إلى كرة مغطاة بزوائد مثل أوراق الورد، مرقوم على صفحاتها كلمات لم أتبينها. ووثبت كأنما قذفتها قوة فى الفضاء مقدار أشبار وتهاوت مرتطمة بالأرض محدثة صوتا قويا استرسل صداه فيما يشبه النغم. وتمادت فى الانتفاخ حتى صارت فى حجم قبة ضخمة ثم انطلق منها عمود عملاق بسرعة مخيفة زلزلت لها الأشجار الفارعة حتى تلاطمت ذراها مع حشائش الأرض، وانبثقت من العمود فروع لا حصر لها غاصت فى الفضاء، وانبسطت أوراقها كالزواحف مثقلة بآلاف الكلمات المبهمة وركبنى الارتياع فعدوت بأقصى ما لدى من سرعة مبتعداً عن مركزها المتفجر. عدوت منها ولكنى عدوت فى مجالها وحضنها وقبضتها، فلا منفذ للهرب ولا صبر على التوقف أو الاستسلام. والفورة محدودة وسطح الأرض معاند والرياح على غير ما أشتهى واستوى فى شعورى البعد والقرب إزاء تلك الكينونة المتمادية فى التعملق بلا نهاية. إن صوت نموها الهائل يدوى وظلها يغشى الأشياء كالليل. وردة فعلها تعبث بالكائنات وأطراف قبضتها تنحدر فيما وراء الأفق. وتبين لى أننى لست الوحيد فى المأزق. وأن ملايين يلهثون من العدو، وأن السحب تركض أيضًا والرياح وأضواء النجوم. وارتفع صوت قائلاً:

ـ رفهوا عن أنفسكم بالغناء..

فتساءل صوت آخر:

ـ هل يطيب الغناء والمطرب يتخبط فى القبضة؟

فقال الصوت الأول:

ـ رفهوا عن أنفسكم بالغناء!

وتحركت الحناجر تغنى كل على ليلاه.. وتضاربت الأصوات فانقلبت عربدة تنضح بالوحشية والجمال.

الحلم رقم ٣

رأيت فيما يرى النائم..

أن ثمة عينا ترنو إلىّ. عين كبيرة كأنها فسقية، جميلة الرسم، عميقة السواد، ناصعة البياض، مستوية فى مكان غير معروف ولكن سحائب بيضاء تظللها. وفى

نظرتها ما يوحى بأنها ترانى، وربما تعرفنى، ولكن يكتنفها حياد يقصينى إلى ما وراء الغيب، وقلت لنفسى إنها عين امرأة فأين بقيتها؟. وقلت أيضًا بصوت مسموع:

ـ آفة الحب الحياء!

عند ذاك رأيت خيالى رفيق صباى الراحل فتعانقنا بحرارة، وفى غمرة الفرحة باللقاء نسيت حزنى الكبير عليه. وسرعان ما اختفى من مجال البصر لتحل محله ساحة المولد النبوى فى أيامها البعيدة الزاهرة. ووجدتنى فى صف طويل أمام شباك التذاكر الخاص بخيال الظل. ودخلت مسرحه الصغير ولكنى وجدت نفسى فى سرادق امتحان. واتخذت مجلسى كتلميذ وشرعت فى الإجابة. ولما لم يبق من الزمن إلا دقائق وضح لى أننى أجبت على سؤال غير السؤال المطلوب الإجابة عليه. وضاق صدرى فتساءلت:

ـ سهوة عابرة تضيع حياة؟!

فسألنى المراقب متهكمًا:

ـ أنسيت قول المتنبى؟!

فحرت أى بيت يقصد وتحاشيت السؤال. ووجدتنى بعيدًا أتأبط ذراع رفيق صباى الراحل متطلعين معا إلى العين. تبدت العين هذه المرة أوغل فى العمر وأحوز للحكمة وأعمق فى الحياد. قلت لصديقى:

ـ أخشى أن يغلبنى الحزن.

فأضاء وجهه بضحكة صافية وسألنى هامسًا:

ـ من القائل «آه لو تعلمون ما أعلم..»؟

فعصرت ذاكرتى لأتذكر ولكن الديك صاح مؤذنًا بطلوع الفجر.

الحلم رقم ٤

رأيت فيما يرى النائم..

أننى فى العوامة كالأيام الماضية.. وغنى صوت فى أعماقى «عادت ليالى الهنا». وشعرت بالدفء وسط الأصدقاء والأحباب. ولما تفرست فى الوجوه انتقلت من حال إلى حال. المكان هو المكان، والمنظر هو المنظر، ولكن أين الوجوه أين؟! أمسك الزمن بقلمه نقش على صفحاتها تجاعيده. وبث فى مجاريها ذبوله. وامتص بنهمه النضارة والرونق. وفى مواضع المصابيح الكهربائية حلت شموع تحترق فلم يبق من قاماتها

الرشيقة إلا أنصاف وأرباع. ورقصت ظلال الأشباح فوق الجدران، ومن الأفواه المثرمة تساقطت ضحكات فاترة كأنها أنات وتنهدات. وفى مركز الجلسة بسطت سجادة مربعة صفت عليها جنبًا إلى جنب جثث محنطة للأعزاء الراحلين. قال صوت:

ـ هكذا كان يفعل قدماء المصريين فى حفلاتهم.

فتساءلت:

ـ ولكن أين ذهبت الحضارة؟

فقال صوت:

ـ المنبع والمصب يقعان خارج أسوار الحضارة.

وافتقدت بشدة الحوار والثرثرة فتساءلت:

ـ ماذا أسكتنا؟!

فأجاب صديق ضاحكًا وعيناه تدمعان:

ـ اللعنة فى التكرار.

فتساءلت:

ـ أليس ثمة شكوى جديدة تقتضى ضحكة جديدة؟

فأجاب مستزيداً من الضحك والدموع:

ـ ثبت أن جميع الشكاوى مسجلة على حجر رشيد..

واقتحم عم عبده علينا مجلسنا وهو يقول:

ـ آن أوان قراءة الطالع..

ونظر فى بطون نعالنا مليا ثم قال:

ـ ستسيرون فوق الماء إلى جزيرة الذهب..

وهيمن علينا الحلم والابتسام..

الحلم رقم ٥

رأيت فيما يرى النائم..

أننى فى استديو. مضيت كمن يعرف طريقه إلى البلاتوه رقم «١» فى صمت كامل يوحى بأن ثمة تصويراً للقطة ما. اقترب منى رجل بدين ذو مظهر سيادى وهمس فى أذنى:

ـ أهلا بك يا أستاذ .

ووجدتنى أعرف أنه المنتج وأننى مندوب فنى لمجلة الفن . وتابعت المشهد الذى تدور الكاميرا لتصويره وسط جمع من الفنانين والفنيين يتابعونه أيضًا فى صمت تقليدى وباهتمام غزير . وكان المشهد يمثل صحراء مترامية ليس بها قائم سوى نخلة فارعة رقد تحتها عربى متلفعًا بعباءته . ويدخل المشهد رجلان ، عربى وأعجمى ، يقتربان من النائم ، ثم ينحنى العربى فوقه قائلاً بإجلال :

ـ يا أمير المؤمنين !

يستيقظ النائم ثم يجلس مرسلاً بصره نحو القادمين فيقول العربى مشيراً إلى الأعجمى :

ـ رسول قادم من بلاد فارس .

ينهض أمير المؤمنين ، يتبادل التحية مع القادم ، ثم يسأله :

ـ ماذا وراءك ؟

القادم يتأمله بدهش ثم يسأله :

ـ أأنت حقا أمير المؤمنين ؟

فيجيب بتواضع :

ـ إنى عبد اللّه وإمام المؤمنين من عباده .

فيقول الرجل فى انبهار :

ـ عدلت فأمنت فنمت . .

وعند ذاك ينتهى تصوير اللقطة . . ينظر المنتج إلىّ قائلاً :

ـ أخيراً سمحت الرقابة بإنتاج فيلم عن سيدنا عمر . . فقلت مهنئًا :

ـ خطوة عظيمة . .

فقال الرجل فى مباهاة :

ـ لقد اقتضى السعى أن نطلب وساطة الرئيس الأمريكى ريجان !

وقمت بجولة سريعة فى بعض ملاهى الهرم ثم رجعت إلى البلاتوه رقم « ١ » لمشاهدة تصوير لقطة جديدة . كان المشهد الذى يجرى تصويره هو نفس المشهد السابق ، الصحراء المترامية والنخلة الفارعة . غير أنه كان ثمة رجلاً عربيًا فى عباءة رثة لابسا فى رأسه طرطوراً وهو مكب على حفر موضع غير بعيد من النخلة . إنه نفس الممثل ونفس المنظر ولكنه لا يمكن أن يكون الفاروق عمر ! . . يمر به عربى آخر فى عباءة من الخز ثم يدور بينهما الحوار الآتى :

العربى القادم: مالك يا جحا؟

جحا: إنى قد دفنت فى هذه الصحراء دراهم ولست أهتدى إلى مكانها.

العربى: كان يجب أن تجعل عليها علامة!

جحا: قد فعلت.

العربى: ماذا؟

جحا: سحابة فى السماء كانت تظلها، ولست أرى العلامة!

وانتهى تصوير اللقطة فأعقبه همهمة من الاستحسان. وسألت المنتج عن معنى وجود جحا فى فيلم عن عمر وكيف يقوم بالدورين ممثل واحد، فضحك طويلاً وقال:

- إنى أنتج فيلمين فى وقت واحد، أحدهما عن عمر والآخر عن «جحا فى بلاد العرب»، ورأيت أن أستفيد من كل منظر مشترك توفيراً للجهد والمال، وهذا منظر مشترك فصورنا عمر للفيلم الأول، وجحا للفيلم الثانى.

- والممثل واحد فى الحالين؟!

فقال بثقة:

- إنه نجم شباك، ومن القلة النادرة التى تحسن تمثيل الدراما والكوميديا.

رأيتنى عقب ذلك وأنا أركض بسرعة فائقة، ولكنى لم أدر أأركض وراء هدف أريد أن أدركه أم أركض من مطارد يروم القبض علىّ..

الحلم رقم ٦

رأيت فيما يرى النائم..

أننى فى حجرة بلا نوافذ مغلقة الباب، بها مقعد واحد وشمعة تحترق مثبتة فوق الأرض. ودق الباب دقًا متتابعًا ففتحته فخيل إلىّ أننى أنظر فى مرآة. إنه صورة طبق الأصل منى إلا أنه عار تمامًا إلا مما يستر العورة سألته:

- من أنت؟

فأجاب وهو يلهث مما دل على أنه شق طريقه ركضًا:

- إنك تعرف تمامًا من أكون.

- ولكنى لا أصدق عينى.

فقال وهو يتنفس بعمق ليسترد توازنه:

ـ أما أنا فأصدق كل شىء، ورائى عمر وأجيال لا تحصى . .

فقلت برثاء :

ـ كان ينبغى أن تكون راقدًا فى سلام . .

فقال بعتاب :

ـ لكنك لم تتركنى للسلام، ما زلت تلاحقنى بخواطرك حتى أخرجتنى من الزمن!

فقلت بأسف :

ـ كأنك مطارد!

ـ كيف أفلت من القبضة دون مطاردة؟! . أسرع لنهرب معًا . .

فقلت محتجًا :

ـ مجيئك إلىّ ورطنى فى جريمة لا شأن لى بها . .

فجال ببصره فى الحجرة وقال :

ـ لا يبدو أن حظك أسعد من حظى، أسرع . .

فقلت بقلق :

ـ ليس الأمر كما تتصور . .

فقال بضيق :

ـ ولا هو كما تتصور أنت، أسرع فإنهم لن يفرقوا بيننا . .

ـ لولا مجيئك ما لحقتنى الشبهة . .

ـ إنها مسئوليتك، لا تبدد الوقت . .

فسألته بغيظ :

ـ ولكن إلى أين؟

فقال بعجلة :

ـ سنفكر فى ذلك ونحن نعدو . .

وتماسكنا باليد وأطلقنا ساقينا فى الليل كمجنونين . وتساءلت :

ـ كيف نحسن التفكير ونحن نركض بهذه السرعة؟

فهتف بحدة :

ـ أجر . . أجر . . ألم تشعر بفساد جو الغرفة؟!

فقلت كالمعتذر :

ـ إنى لا آوى إليها إلا فى الليل . .

فهتف :

ـ لا يوجد ليل ولا نهار ولكن يوجد الهواء والركض . .

وتساءلت :

ـ لماذا لا أسمع أصوات من يطاردوننا؟ !

ولكنه لم يجب . وشعرت بأن يدى لم تعد تقبض على شىء ، وأنه لم يعد له أثر ، ولم تساورنى أى رغبة فى التوقف .

الحلم رقم ٧

رأيت فيما يرى النائم . .

أننى فى حديقة من أشجار الليمون . وأن الناس يزدحمون حول أشجارها ويتبارون فى ملء مقاطفهم من ثمارها . وأن ثمة بيعًا وشراء ومساومات وتنافسا حاميا يشتعل . وأن رجال الشرطة يتدخلون أحيانًا لفض نزاع بهراواتهم فتسيل دماء . وكنت أتجول بين الجماعات بلا مقطف حتى قال السمسار ساخرًا :

ـ رجل مجنون جاء السوق بلا مقطف!

والحق أن الشذا هو الذى دعانى لا السوق ، فهمت على وجهى أتغزل برشاقة الأشجار وخضرتها الباسمة وأغصانها الثرية . وتخلق حب خالص فى رعاية القبة الزرقاء . وفى لحظة مشرقة استحلت غصنًا فأفلت من مطاردة السمسار . ومضى الزمن وأنا أتأود على دفقات النسيم ، وأنهل من حرية عبقة بشذا الليمون .

الحلم رقم ٨

رأيت فيما يرى النائم . .

أننى عيسى بن هشام بطل مقامات الهمذانى ومريد أبى الفتح الإسكندرانى . وأننى كنت أعبر ميدانا فى مكان وزمان غامضين . وترامى إلى هتاف مدو بحياة الاستقلال وسقوط الحماية . ثم وجدتنى على حافة مظاهرة ضخمة تحدق بخطيب مفوه جهير الصوت . عرفته رغم بعده عنى بزيه الأزهرى وهو يهدر داعيًا إلى الثورة والفداء . وهجم الفرسان الإنجليز فنشبت معركة ثم وجدتنى وجهًا لوجه مع الخطيب قريبًا من مدخل جامع .

قلت :

ـ أنت أبو الفتح الإسكندرى ، خطيب الثورة الحر . .

فقال بحزن ملتهب :

ـ نفوا الزعيم الجليل نفاهم اللّه من الوجود . .

ثم أنشد يقول :

لن ينال المجد من ضا ق بمـــا يغشـــاه صـدرا

وتغير المكان والزمان كما أوحى إلى وجدانى . ورأيتنى أمتطى سلحفاة معمرة فى حجم عنزة . وشهدت اجتماعًا فى قاعة عظيمة الاتساع تحرسها رماح الجنود . وظهر فوق المسرح خطيب اندفع يقول بحماس :

ـ لوذوا بالمليك ، صاحب العرش ، هو العامل الأول والعالم الأول والوطنى الأول وقد دالت دولة المهرجين . .

سرعان ما عرفته رغم زيه الجديد المكون من البدلة الإفرنجية . وتبعته إلى الطريق وهو ينادى تاكسى فاقتربت منه قائلاً :

ـ أهلاً بأستاذنا أبى الفتح الإسكندرى . .

فعرفنى بدوره وصافحنى ثم سألنى :

ـ ماذا فعلت بك الأيام؟

ـ كعادتها خيراً وشراً ، ولكن ماذا غيرك أنت فنقلك من النقيض إلى نقيض؟ !

فقال بجفاء :

ـ العزة فى التنقل .

ثم أنشد يقول :

الذنـــب للأيـــام لا لـــــى فاعتـب عـلى صـرف الليالى

بالحمـــق أدركــت المنـــى ورفلـت فى حلل الجمـــال

* * *

ومضى الزمن بى وأنا ممتط هذه المرة حماراً . ووجدتنى فى ميدان لو ذررت الملح فيه لم ينفذ إلى الأرض من هول الزحام . وفوق حافة نافذة فى الدور الأسفل من بناء ضخم وقف خطيب يرتدى بنطلونًا وقميصًا نصف كم يعلوه وقار الكهولة ويقول :

ـ ثورة مباركة تنسخ حياة فاسدة ، وزعيم مبارك يشهر سيفه فى وجه ملك فاسد ، وحلم يتحقق تنبأت به كلماتى الحارة المسطورة فى الصحف !

ثم وجدتنى مع الخطيب عقب انفضاض الجمع الحاشد . قلت :

ـ يا أبا الفتح يبلى الزمان وتبقى لك جدتك لا تبلى .

فقال باسمًا :

ـ حمدا لله الذى أبقانى حتى أشهد هذا الزعيم

فقلت بعد تردد :

ـ ولكنى لا أذكر أنك تنبأت بما حدث أو ضقت بما كان!

فأنشد قائلاً وهو يضحك :

أنا ينبوع العجائب فى احتيالى ذو مراتب
أغتدى فى الدير قسيسا وفى المسجد راهب

* * *

وجرى الزمان وقد أركبنى بغلاً . وإذا بأمواج من البشر تتلاطم وتقذف بالهتافات إلى أركان المعمورة ، وثمة سيارة تمضى على مهل يقف فى مقدمتها رجل يخطب من خلال مكبر صوت :

ـ محق الله الزيف والضلال ، اختفى مدعى الزعامة ، واستوى على العرش الزعيم ، الشاب المكافح ، والمناضل ، المعلم ، والرائد ، ومتبنى ثورات العالم . .

وخلوت إليه فى مكان ذكرنى بزاوية العميان بالباب الأخضر ، وقلت :

ـ ما أنت إلا شيخنا أبو الفتح الإسكندرى . .

فقال وهو يشد على يدى :

ـ لا يحتاج الأمر إلى فراسة!

فقلت :

ـ يا لك من وثاب لا يثبت على حال!

فقهقه طويلاً ثم أنشد :

بؤسًا لهذا الزمان من زمن كل تصاريف أمره عجب
أصبح حربا لكل ذى أدب كأنما ساء أمه الأدب

* * *

ووجدتنى أزحف مع الزمان فوق السلحفاة كرة أخرى . ورأيت جموعًا لم أر لكثافتها مثيلاً من قبل ، تسفح الدمع وتمزق ثيابها من لوعة الحزن . هذا والمدفع يمضى بالنعش دائسًا على إرادات البشر . ثم وجدتنى فى بهو مكتظ بالمستمعين ، ورجل وقور أبيض الشعر يقول بحكمة وأسى :

ـ دعوا البكاء للنساء ، مصر باقية لا تموت ، وآن لنا أن ننطق بالحق ، ما كان عهده إلا

عهد التعذيب والإفلاس والهزائم. أفيقوا من الحزن والسحر معًا، وابدءوا الحياة من جديد. .

فخرقت الصفوف حتى واجهته وهتفت به:

ـ إنك لمعجزة يا أبا الفتح.

فهز رأسه ساخرًا وأنشد:

هـذا الزمان مشوم كمـا تـــراه غشـوم

الحمق فيه مليــح والعقــل عيب ولوم

والمال طيف ولكن حــول اللئام يحــوم

فسألته:

ـ ألك نظير فى العباد؟!

فقهقـه عاليًـا وأنشـد:

إسكنـــدريـــــة دارى لـو وقر فيهـــا قرارى

لكـــن بالشـــام ليـــلى وبـــالعراق نهـــارى

الحلم رقم ٩

رأيت فيما يرى النائم. .

أننى فى مدينة أنيقة أرضها أعشاب عميقة الخضرة، تنتشر فى جنباتها عيون ماء، وتظللها أشجار بلح وليمون وبرتقال. تجولت فيها طويلاً فلم أصادف إنسانًا ولا جانًا ولا حيوانًا ثم لمحت تحت صفصافة أسدًا يقرأ فى كتاب فقصدته متشجعًا بطمأنينة باطنية. رفعت يدى تحية وسألته:

ـ ماذا تقرأ يا ملك الملوك؟

فرمقنى بهدوء وتمتم:

ـ كليلة ودمنة. .

فسألته باهتمام:

ـ لماذا يا ملك الملوك؟

ـ منه تعلمنا كيف نعيش فى سعادة. .

ـ ولكن المدينة خالية!

فقال بسخرية:

ـ يلزمك أن تتعلم كيف تنظر، ما صناعتك؟

فقلت بإيحاء داخلي:

ـ أنا مغن!

فتهلل وجهه وقال:

ـ نحن لا نستقبل إلا المغنين، أسمعني بعض ما عندك..

فغنيت:

ما فى النهار ولا فى الليل لى فرج

فما أبالى أطال الليل أم قصرا

فهز رأسه طربا حتى تشعثت لبدته وقال:

ـ أرحب بك فى مدينتنا لتذكر أهلها بتعاساتهم القديمة فيزدادوا امتنانًا لما حلت بهم من نعمة.

ونادى نسرا فهبط وئيدًا فى جلال وطاعة فأمره قائلاً:

ـ اذهب بهذا الضيف الجديد إلى فندق الرضى..

الحلم رقم ١٠

رأيت فيما يرى النائم..

أننى فى صحراء لا يحدها إلا الأفق. أقيم خيمة لأمضى بها عطلة نهاية الأسبوع. لا صحبة إلا الرمال فى الأرض والزرقة العميقة فى السماء وحدأة تدور عاليًا فوق رأسى كأنما تنتظر. وظهر أمامى فجأة رجل فى عباءة حمراء ينطق وجهه بالشباب والأسى. تبادلنا النظر ثم تبادلنا التحية. قلت له:

ـ لعلك فى عطلة مثلى؟

سألنى وكأنه لم يسمعنى:

ـ من أنت؟

فأجبته بإيجاز:

ـ اسمى نديم.

ـ نديم من؟

ـ إنه اسم لا صفة، كأنك تبحث عن شيء؟!

فقال بحيرة:

ـ ملابسك غريبة، أأنت من أهل المكان؟

ـ إنى أزوره أحيانًا التماسًا للنزهة.

ـ متى زرته آخر مرة؟

ـ منذ شهر.

فأشار إلى موضع من الرمال المترامية وقال:

ـ كان هنا يقوم قصر الملكة.

فتساءلت بذهول:

ـ أى ملكة؟

فأشار إلى موضع آخر وقال:

ـ وذاك موضع دار القضاء..

فداخلنى شك فى عقله وسألته:

ـ متى زرت المكان آخر مرة؟

فقال دون مبالاة:

ـ منذ خمسة آلاف سنة!

فلم أتمالك من الضحك فقال ببرود:

ـ ماذا يضحكك يا هذا؟!

وجعلت أنظر إليه فى حذر متحاشيًا إثارته فقال وهو يشير إلى موضع جديد:

ـ وهناك كانت تصدح أرجاء البهو بالغناء.

فقلت أجاريه متظاهراً بتصديقه:

ـ مائة عام كافية لتغيير أى مكان فما بالك بخمسة آلاف سنة، من حضرتك؟

فقال بهدوء:

ـ أنا الخضر..

ـ سيدنا الخضر؟!

ـ سيدنا؟!

ـ لقد حظيت بالخلود فأنت سيد البشر!

فقال بأسى :

ـ أنا أسير الوحدة ، فأنا الخلاء وأى أغراب لا يعرفوننى . .

واندفعت بإلهام قوى أقول :

ـ هلا سمحت لى بمرافقتك بعض الوقت؟

فهز منكبيه وقال :

ـ لن تستطيع معى صبرا .

ومضى مبتعداً وهو يسير بسرعة البرق . .

الحلم رقم ١١

رأيت فيما يرى النائم . .

أننى حزين وقلبى ثقيل ولكننى لا أعرف سببًا معينًا لحالى . وسرت فى طريق مجهول حتى أرهقنى السير . وشعرت طوال الوقت بأننى أسعى وراء غاية لكنها غابت عن وعيى أو غاب عنها وعيى . وتبرق لحظة خاطفة فى غياهب نفسى مغررة بى فأتوهم أننى مستكشفها ولكنها سرعان ما تغوص فى الظلام مخلفة يأسًا . ودومًا لا أكف عن التطلع والانخداع واليأس ولا أكف عن السير . وصحبنى الحزن مع خطاى ، وانثالت علىّ صور متلاحقة سريعة هامسة بذكريات الهناء الراحل والأحبة الذاهبين . وأذهلتنى كثرتها كما أذهلنى عدمها . وقعقع الرعد حتى ارتعشت أطرافى ، ولكنه قال بصوت واضح :

ـ سوف تنقشع الأحزان وينهمر المطر .

الحلم رقم ١٢

رأيت فيما يرى النائم . .

أن الأرض تتقشر ، وتتشقق . وتتقلص وتموج ، ومن الأعماق تبرز على مهل عمد وأسطح وقباب ، ثم مضى يتجلى وجه مدينة غامرة . شوارعها محجوبة بالأتربة ، مساكنها متهدمة ، وما بها من قائم سوى المعابد وبعض التماثيل . وتحلقها قوم لا حصر لهم ينظرون ويتحاورون :

ـ مدينة أثرية جديدة. .

ـ وثائق لتاريخ جديد.

ـ ألا يوجد أثر لإنسان؟

ـ المقابر لم تكتشف بعد.

ولبثت ما لبثت حتى انتبهت فوجدت نفسي وحيدًا. ورحت أخترق شارعها الرئيسي حتى أدركني الليل وأظلتني النجوم. ومزقت السكون صرخة. صرخة أنثى فيما بدا لي. وثمة طيف هرع نحوي حتى جثا بين يدي، وثمة صوت هتف:

ـ أنقذني. .

سألتها:

ـ ماذا يتهددك؟

ـ سيف الجلاد.

ـ من أنت؟

ـ أنا بريئة.

فسألتها بشدة:

ـ ما تهمتك؟

ـ التهمة التي لا يبرأ منها أحد، حتى أنت!

فقبضت على يديها وأنهضتها، ثم انطلقنا معا كشهابين في ظلمة الليل. .

الحلم رقم ١٣

رأيت فيما يرى النائم. .

امرأة في الخمسين تذهب وتجيء بوجه جففته الوحدة. قلت إني أعرف هذا الوجه ولكن من، ومتى، وأين؟. وحيرتني سحب النسيان. غير أن المرأة لم تهجع ولكنها ذهبت محمومة وهي ترمقني بعين مفكرة ثم رجعت بشاب رث الهيئة وهي تربت خده بحنان. وانقض عليها الشاب فاعتصرها بين ذراعيه مليا حتى تأففت. ورماها بنظرة نكراء ثم دفعها فتهاوت على الأرض فانهال عليها ضربًا ثم ذهب. جعلت تتأوه وتبكي، ثم قامت في إعياء شديد وقد فقدت ذراعها اليسرى. قلت لها:

ـ ذراعك!

فأعرضت عنى ومضت، ثم رجعت وهى تربت خد شاب شبه عار. وجذبها إليه مثل ذئب جائع واعتصرها بين ذراعيه. وانفصل عنها متقززاً وصب عليها قبضتيه وقدميه حتى سقطت على وجهها. وغادرها فاستسلمت للنحيب ثم نهضت طاعنة فى السن وقد فقدت ذراعها اليمنى وقلت لها:

ـ ذراعك!

فأعرضت عنى وولت. وتكرر الفعل وردة الفعل حتى لم يبق منها إلا اللسان. وغزانى الحزن والعجب فتساءلت:

ـ ماذا فعلت بنفسك؟!

فأجابنى لسانها:

ـ الوحدة والحنان..

وتساءلت فى حيرة «متى سمعت هذه العبارة من قبل..؟».

الحلم رقم ١٤

رأيت فيما يرى النائم..

شاباً وسيماً، يسير بسرعة، يشع من عينيه الصافيتين نور يضىء له الطريق. يوحى مظهره بالفتوة والحماس ومعرفة الهدف، فانجذبت إلى اتباعه لأحظى برؤية ما هو فاعل. منيت نفسى بمشاهدة حدث أو نجاح مأثور، فكلما تحفز تحفزت، وكلما ضاعف من سرعته ضاعفت، وكلما أشرق وجهه أشرقت. وقطعنا أماكن كثيرة، ورأينا مناظر عجيبة، وتعاملنا مع أناس لا ينسى لهم خير ولا شر، وسليت نفسى المتوترة بأن المشهد المرموق سيهل علىّ بطلعته الشافية المترقبة. ولم أكترث للزمن المنطوى ولا للجهد الضائع. ولكن الشاب الوسيم راح يتغير منظره، وتتقلص عضلات ساقيه وتنخفض درجات سرعته رويدا. وجعلت أسمع تردد أنفاسه وهى تغلظ وتثقل، وأنات شكواه المتصاعدة، وبرمه بكل شىء. وأخذ يسب ويلعن ويشتعل غضباً. وأخيراً توقف عاجزاً عن الاستمرار، ثم تهاوى على الأرض وهو يلهث. وجزعت جزعاً شديداً. وهتفت:

ـ تشدد واستمر..

وخيل إلىّ أن النوم يغالبه فصحت:

ـ عليك تقع مسئولية شرودى وانخداعى..

فرفع إلىّ عينين مظلمتين وهمس :

ـ هبني رحمة الوداع . .

حولت عنه عينىّ الحانقتين ورفعتهما إلى السماء فرأيت السحب تتراكم كأنها الليل ثم استجابت لرياح الشرق فانقشعت فبشرنى هاتف الغيب بالعزاء .

الحلم رقم ١٥

رأيت فيما يرى النائم . .

أننى أسير فى شارع ضيق طويل . شغلت بهدفى فلم أنتبه للمارة وفى نهاية الشارع طالعنى مبنى يجمع فى هيئته بين المعبد والجامع والمسكن . دخلته مطمئنًا إلى دعوة لا أدرى متى ولا كيف تلقيتها . وقطعت دهليزاً بلغ بى بابا مقبب الهامة فدفعته ودخلت . لم أر من المكان إلا الرجل الجالس فى صدره . رجل بالغ الكبر ولكنه على كبره واضح الصحة والعافية . بارز الملامح ، ذو وجه عريق مجلل بالوقار واللحية البيضاء ، ينفث عطراً يذكر بالعصور الخالية . لثمت يده وقلت معتذراً :

ـ جئت تلبية للدعوة .

فقال بصوت عميق التأثير فى النفس :

ـ تأخرت قليلاً ولكن لا بأس . .

وأشار إلى فتربعت على شلتة بين يديه وأنا أسائل نفسى عما وراء دعوته . ولكنه لم ينبس بكلمة وسرعان ما وجدت عينىّ تنجذبان إلى عينيه حتى خيل إلى أننى أنظر إلى بللورتين متوهجتين . اختفى العالم والوجود . ثم عدت إلى وعيى على لمسة من يده وسمعته يقول :

ـ يا له من حديث ويا لها من مناجاة !

فهممت أن أقول إننى لا أذكر شيئًا ولكنه بادرنى بنبرة توديع حاسمة :

ـ اذهب مصحوبًا بالسلامة .

رجعت من الشارع الضيق الطويل وأنا أشعر بأننى مشدود إليه بأسلاك غير مرئية ، وأننى أسيره الأبدى . وأردت أن أمارس حياتى المألوفة فقصدت لو نابارك نزهتى المفضلة ولكن الأسلاك الخفية صدتنى عنها فتحولت عنها وأنا أقول لنفسى :

ـ إنى مسير بإرادته !

اقتنعت تمامًا بأننى أفعل ما يريد لا ما أريد أنا، وأنه يسوقنى إلى أشياء وأشياء وأننى لم أعد أنتفع بعقلى أو ذوقى. وسمعت الناس يتحدثون عما يقع ويتساءلون عن الفاعل المجهول. وها هم يجدون فى أثرى والحلقة تضيق ولكنهم لا يتفقون على رأى، فمنهم من يطالب بعنقى ومنهم من يدعو لى بالسلامة! ، والحق أن الرجل لم يثر فى نفسى الكراهية، ولكننى تقت للتحرر من سطوته الشاملة المخيفة. ولا أدرى كيف ساقنى الحظ إلى مكتب التحقيق فرأيتنى أمام المحقق وهو يقول لى :

ـ اعترف فهو خير لك.

فقلت :

ـ إنى برىء وما كان بوسعى أن أفعل إلا ما يمليه علىّ.

فقال متهكمًا :

ـ الرجل ينكر قصتك المختلقة معه فأنت أمام القانون عاقل حر . .

فهتفت وكأنما أخاطب الرجل :

ـ إنك تعرف الحقيقة فأنقذنى!

ومكثت فى السجن أنتظر يوم الإعدام. وبلغ بى الضيق منتهاه. وإذا بشعور يهمس لى بأن ما أعانى ما هو إلا كابوس. عند ذاك قررت أن أستيقظ مهما كلفنى الأمر. ورحت أضرب مقدم رأسى بقوة ودون توقف ناشداً بإصرار اليقظة المأمولة . .

الحلم رقم ١٦

رأيت فيما يرى النائم . .

أن طيفًا زارنى بليل فقدم لى كأسًا وقال بصوت عذب :

ـ اشرب.

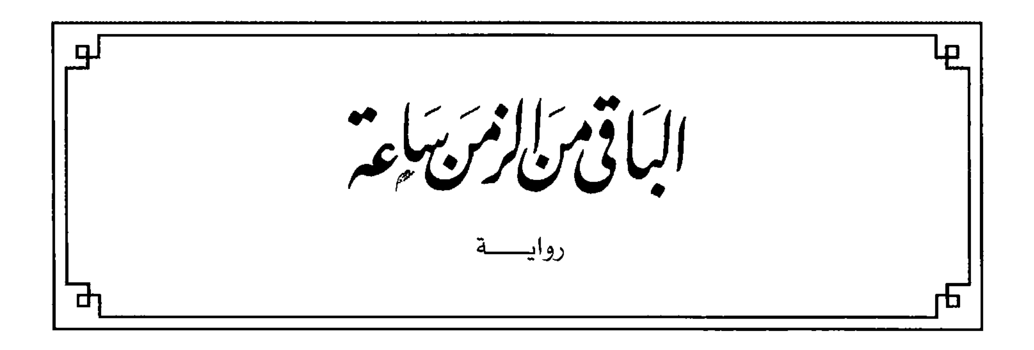
فشربتها حتى الثمالة. ذاب الطيف فى الظلمة. وانتشر السائل فى جسدى وروحى كالشذا الطيب. ونهضت وأنا أشعر شعورًا راسخًا بأننى أملك قوة لا حد لها. وأردت أن أجرب صدق شعورى فأمرت النوافذ أن تفتح. وفى الحال انفتحت النوافذ على مصراعيها وتدفق النور. وخرجت أتجول فى شوارع المدينة معتزاً بالقوة الخارقة. وفطنت غرائز القوم الملهمة لسر القوة الكامنة فى أعماقى فخاطبتنى نظراتهم الكسيرة بأمانيهم المكبوتة. تلقيت عشرات الرسائل الخفية الضارعة بمحو هذا الشر أو ذاك، وتحقيق هذه

الرغبة أو تلك، وتأديب هذا الرجل أو قتل ذاك. ووجدتنى مثقلاً بالآمال والأمانى والتبعات فاستحالت القوة إلى عبء تنوء به الجبال. وتسلل إلى خاطر لا أدرى من أين جاء بأن هذه القوة الخارقة لن تدوم إلا ما دام السائل فى جوفى. وعلى ذلك تركز تفكيرى فى استغلالها لدعم سعادتى الشخصية. وألقيت العبء عن كاهلى وانحصرت فى هدف محدد واضح ولكن ما كاد يزايلنى القلق حتى ترامى إلىّ وقع أقدام ثقيلة تطاردنى. وهزئت بالمطاردة والمطاردين وقلت لنفسى سيروننى فى اللحظة الحرجة وأنا أحلق كالنسر أو أختفى كالوهم. واقتربت منى الأقدام والأصوات الغاضبة فأمرت جسدى بالاختفاء عن الأعين. وحدثت معجزة ولكن مضادة. لم يصدع جسدى بأمرى وتطايرت قوتى فى الجو فوقعت بين يدى المطاردين بلا حول. ولم يعد لى من أمل إلا فى صحوة رحيمة تعقب كابوسًا مخيفًا. .

الحلم رقم ١٧

رأيت فيما يرى النائم. .

أننى جالس تحت مظلة سوداء، أتسلى بمشاهدة صندوق الدنيا. وتتابعت المشاهد أمام عينى المبهورتين بدءًا بالإنسان البدائى، مرورًا بالحضارات القديمة والمتوسطة والحديثة حتى صعود الإنسان إلى القمر، ثم وجدتنى فى مسكنى فريسة لرغبة جامحة هى أن أصعد إلى القمر، وكنت أجلس وسط متاع غزير، تراكم بعضه فوق بعض حتى غطى الجدران وسد النوافذ، وكان جسمى نفسه مثقلاً بالأوسمة والهدايا الثمينة حتى تعذرت على الحركة وأخذت أغوص فى الأرض. وعلمت بطريقة ما أننى أنتظر زائرًا هامًا فحرت كيف أستقبله، وأين أجلسه، وخفت سوء العاقبة. وضاق صدرى بفساد الجو والزمن فتمردت على حرصى وأقبلت أنزع الأوسمة والهدايا من أركان جسدى، وأركل المتاع يمنة ويسرة حتى شققت لنفسى طريقًا إلى الخارج. وتنفست بعمق فأذهلتنى خفة وزنى. ولاح الزائر قادمًا عند الأفق ولكننى لم أستطع انتظاره إذ مضيت أترجح وأرتفع عن الأرض على مهل وثبات. أدركت أنى أحلق فى الفضاء وأنى كلما ارتفعت مترًا ازددت سرعة. وغمرنى الشعور بالانعتاق ووعدنى بمسرات تعجز عن وصفها الكلمات.



الباقي من الزمن ساعة

رواية

للصورة التذكارية تعود كلما نبض قلبها بالحنين. حجرة المعيشة تزدان جدرانها الخضراء بثلاث لوحات فى أطر مموهة بالذهب. البسملة فى الصدر، الشهادة الابتدائية القديمة بالجناح الأيمن، صورة الرحلة التذكارية بالجناح الأيسر. نسيت أشياء وأشياء، ولكنها لم تنس عام ١٩٣٦ تاريخ الصورة، ففى ذلك التاريخ كتب الخلود للحظة زمانية من تاريخ أسرتها وهى تمرح فوق كليم مفروش فوق الأعشاب بحديقة القناطر الخيرية. فى الوسط جلس حامد برهان رب الأسرة ممدود الساقين، ممتلئا بالعافية، بدينا ، وسيم الوجه، ذا سمرة عميقة، وإلى يمينه جلست هى - سنية المهدى - متربعة مغطية حجرها وساقيها بشال عريض متألقة الوجه بملامحها الدقيقة، الصغيرة، أما إلى يساره فجلست كوثر البكرية بجمالها المتواضع ونظرتها الوديعة، يليها محمد فى الجلسة كما يليها فى العمر مثل أبيه فى التكوين والشكل، تليه منيرة بجمالها الفائق ونظرتها المتوهجة. كان الأب فى الخمسين والأم فى الأربعين والإخوة يناهزون البلوغ، وكان الجميع يبتسمون، تحبو فوق وجوههم فرحة الرحلة والسلام، وبين أيديهم تقوم قوارير المياه الغازية وأطباق ورقية ملئت بالسندوتشات والموز والبرتقال، على حين نهضت فى الخلفية هضبة متدرجة معشوشبة وأشجار منثورة. تنطلق فيما وراءها منارات القناطر وجماعات من المتنزهين. تجللتها - الصورة - عذوبة شاملة ولم يظهر فيها أثر للزمن. غير أن الزمن لم يتوقف لحظة واحدة خارج الصورة، ومن ضمن ما قضى به ألا يبقى فى بيت الأسرة اليوم إلا مالكته سنية المهدى وكبرى ذريتها كوثر. وهو بيت فسيح، مكون من دور واحد يعلو فوق الأرض بدرجات خمس، وحديقته تمتد من جانبه الجنوبى، مساحتها نصف فدان، تغنت عهدا بالازدهار، وكابدت عهودا من الاضمحلال والوحشة. وضخامة البيت والحديقة أثر من آثار حلوان القديمة، الرخيصة النائية، المغموسة فى السكينة والتأمل، التياهة بمياهها المعدنية وحماماتها الكبريتية وحديقتها اليابانية، مصحة الأعصاب المتوترة والمفاصل المتوعكة والصدور المتهرئة والعزلة الغافية. وجميع الدور بشارع ابن حوقل متشابهة - ما عدا البيت المواجه لبيت الأسرة الذى بيع فى

أثناء الحرب العظمى الثانية لتشيد مكانه عمارة جديدة ـ ولكن بيت المهدية يتميز بطلائه الأخضر، وهو طلاء أغلب حجراته ذوات الأسقف العالية، وهو لون أغطية المقاعد بحجرة المعيشة، والإصرار عليه يعكس ولع المرأة به، ويشير أيضا إلى ولعها بالبيت نفسه الذى وثقت بينهما محبة خلقت للأبناء والأحفاد مشكلة تعذر حلها فى حينها. ومشيد البيت أبوها عبد الله المهدى، وكان فى آخر أطوار حياته فلاحا من الملاك المتوسطين، ولما اجتاحه الروماتيزم نصح بالإقامة فى حلوان مدينة الصحة والجفاف فابتاع أرضا وأقام البيت تاركا أرضه لابنه البكرى، مهاجرا بزوجته ووليدته سنية. ووزع الرجل أملاكه بالتراضى بين ابنه وابنته جاعلا البيت فى حصتها فلعب دورا ذا شأن فى حياتها، إذ نوهت به الخاطبة وهى تزكى سنية عند أم حامد برهان فكان ضمن مغريات اختيارها. لكن سنية كانت على درجة من الوسامة المقبولة، ونالت أيضا الابتدائية، واعترف لها بالذكاء وبأنها كانت خليقة بإتمام تعليمها لولا إصرار الأب على حجبها. وكم حزنت لقراره، وكم سفحت من دموع احتجاجا عليه، ولذلك فرغم مهمتها كربة بيت وأم واظبت على قراءة الصحف المجلات ووسعت مداركها حتى بلغت درجة من النضج غير معهودة سندت بها حدسها الروحى وأحلامها العجيبة. ولعلها كانت المرأة الوحيدة فى شارع ابن حوقل التى تمسك دفتر حسابات لميزانية الأسرة كما كانت ترسل أخاها بالخطابات المطولة، ربما رغبة فى التعبير وإثباتا لقدرتها عليه. وعلى حبها القديم العميق لزوجها حامد برهان شعرت فى أعماقها بتفوقها عليه، ذكاء وعقلا، فضلا عن أنه لم يحصل إلا على الابتدائية وإن التحق بعد ذلك بمدرسة التلغراف وتخرج فيها. يضاف إلى ذلك أنه لا يعرف عن سلسلته العائلية إلا جدا واحدا ولا يكاد يعرف عنه أكثر من اسمه، أما هى فتعرف كثرة من الجدود وإن لم تشر إليهم إلا إشارات عابرة وفى مناسبات نادرة، وكبر حظ جدها لأبيها من الذكر بسبب نقطة التحول التى أحدثها فى حياته عندما دخل الإسلام بعدما كان قبطيا من صلب أقباط. وفى ذلك قالت سنية ذات يوم لحامد برهان ضاحكة:

ـ تاريخى غير راكد.

وكان حامد برهان ـ مثل زوجه ـ محبا للفخر فجرى وراء المتاح من أسبابه فى حياته البسيطة المتواضعة، ملحا على إثبات رجولته، ودون إغفال للحقيقة الساطعة وهى أنها مالكة البيت، وأنها مدبرته الحكيمة، وأنها مربية الأبناء الرشيدة الواعية، فضلا عن أنها خالقة الجو السعيد الذى نعم به طويلا. ومن آى حبه للفخر أيضا حومانه المصر حول الإنجاز السياسى الوحيد فى حياته، وهو تحريضه على إضراب الموظفين فى مطلع ثورة ١٩١٩، فهو يرويه بتفاصيله كلما سنحت فرصة، علما بأنه الفعل الوحيد فى حياته السياسية التى لم يبق له منها سوى حب قلبى عميق للوفد لا يتجلى بصورة عملية إلا فى

الظروف النادرة التى يسمح فيها بإجراء انتخابات حرة بين الأحزاب. وكان زوجا مثاليا فى أكثر من ناحية، فهو مولع بزوجه وأبنائه، وهو فحل فى الرجال، وهو برىء من الأدواء التى تتطفل على ميزانية موظف صغير مثله فلا يسكر ولا يدخن ولا يفسق بعينيه حتى سهرته يمضيها مع إخوانه فى حجرة الاستقبال شتاء أو الفراندا بقية العام، وهم من أهل حلوان مثله، جعفر إبراهيم ناظر على المعاش، خليل الدرس وكيل أعمال الوجيه نعمان الرشيدى، حسن علما مهندس مبان، راضى أبو العزم مدرس علوم، تنطوى لياليهم فى السمر ولعب الطاولة وحديث السياسة مرددين نغمة واحدة صادرة عن لحن وفدى أصيل فلا نزاع ولا خصام ـ وعرف حامد برهان بالنظافة والأناقة والتدين السمح اليسير الذى يعبق به جو الأسرة. وجبر الله خاطر الوالدين بمحمد ومنيرة فشقا طريقهما فى التعليم بنجاح واعد، خاصة منيرة التى اختصت بالذكاء والجمال معا، إلا أن كوثر تمخضت عن مشكلة مثيرة للقلق، فهى لم تظهر ميلا للتعليم ولا توفيقا فيه. وانجذبت بطبعها نحو التدين وشئون البيت، فاضطرت إلى ملازمة البيت بعد سقوط عامين متتاليين فى المرحلة الثانوية. يومها قالت سنية لحامد:

ـ ست البيت غير مطلوبة فى هذا الزمان.

وتذكر الرجل حظها المتواضع من الجمال فغلبه الأسى، ولكنه قال:

ـ يوجد أيضا الحظ وهو لا قانون له!

وكان للأسرة حياتها الاجتماعية المشتركة، تجد فى الرحلة سرورها، فيوم للحديقة اليابانية، ويوم للقناطر الخيرية، ويوم لدار الآثار، رغم أنها كانت أيام أزمة عالمية طاحنة، غير أن الموظفين ذوى المرتبات الثابتة وجدوا يسرا فى ظل الكساد وهبوط الأسعار، فاقتلعت العاصفة الهوجاء كل قائم ولاذت الأعشاب بالأمان فمرحت وهزجت بالأغانى. وكان حامد برهان يمضى بأسرته دون حجاب، غير مبال بالقيل والقال، فلم يمل إلى التزمت قط، وكانت وراءه امرأة تحسن التربية، وتعطى مثالا فى أداء الفرائض والسلوك الطيب. وتمضى الأيام فلا يتقدم أحد لطلب يد كوثر وهى الوحيدة التى لا غاية لها إلا الزواج. وتبسط سنية راحتيها بالدعاء عقب كل صلاة، أو يتهلل وجهها بالبشر أحيانا وهى تقول لحامد:

ـ رأيت حلما سيكون له شأن!

أو تكلف أم سيد بقراءة الفنجان وتصغى إلى تأويلاتها الوردية فينتعش حامد بالأمل يهدهد همه المطارد. وما يلبث أن ينسى همه إلى حين وهو يتابع أنباء المظاهرات، والصراع حول دستور ١٩٢٣، والسعى نحو إيجاد وحدة قومية لمواجهة الموقف. ويتمخض الجهد والدم عن حدث غير عادى فتعقد معاهدة ١٩٣٦. ليلتها ثمل حامد برهان بالنصر وقال للسمار:

ـ كلل جهاد الوفد أخيرا بالفوز المبين .

* * *

أجل ، كان ثمة آراء معارضة رددها الأستاذ راضى أبو العزم مدرس العلوم معتذرا بقوله «ناقل الكفر ليس بكافر» ، وكانت وردت قبل ذلك على لسان محمد ومنيرة نقلا عما يسمعان فى المدرسة . غير أنه لم يكن لها أثر يذكر فى الأسرة فسنية وفدية مثل زوجها ومحمد وفدى أيضا ، حتى منيرة تعد وفدية بلا حماس ، أما كوثر فلا تهتم إلا بما يدور فى باطنها . أما فى جلسة السمر فكان الوفد متسلطا دون شريك فتساءل جعفر إبراهيم :

ـ كيف يتوقعون نتيجة أفضل من هذه؟

فقال حسن علما :

ـ المعاهدة ثمرة صراع مرير بين إمبراطورية طاغية من ناحية ، وبلد أعزل من ناحية أخرى ، فهى مشرفة لا ريب فى ذلك . .

فقال حامد برهان :

ـ على من لا يقتنع أن يزحف على العدو بجيشه !

فقال خليل الدرس وكيل أعمال الوجيه نعمان الرشيدى :

ـ انتهت أيام اللعنات وسوف يحكم الوفد إلى الأبد . .

ولكن بدا أن أيام اللعنات لا تريد أن تنتهى فقد انفجر صراع جديد بين الوفد والملك الجديد ، حول المعركة من معركة موجهة نحو الفقر والجهل والمرض إلى المعركة التقليدية حول الدستور والحكم الديمقراطى ، وإذا بالوفد يطرد والأقليات تلعب دورا ديمقراطيا زائفا كغطاء متهتك للاستبداد الملكى . تبادل الأصدقاء نظرات أسى مشتعلة بالغضب . أملوا أن يغضب الشعب غضبة من غضباته الماضية ولكنه آثر أن ينتقل من مكانه العريق فوق خشبة المسرح إلى مقاعد المتفرجين ، حتى تساءل حامد برهان :

ـ من أين جاءنا هذا الحظ الأسود؟!

واسترقت سنية نظرة إلى كوثر ، وقالت لنفسها :

ـ مثل حظك تماما يا بنتى !

واكفهر جو العالم كله وتطاير منه الشرر ، ثم انحسر قناعه الأصفر عن حرب عالمية جديدة . وأكثر من صوت قال :

ـ إيطاليا فى ليبيا على بعد شبر منا !

وكان محمد قد التحق بكلية الحقوق . ومنيرة على وشك الالتحاق بالآداب . أما كوثر فما زالت تنتظر . ومحمد ـ مثل أبيه ـ انصهر بهزيمة الوفد وأنباء المعارك ، وجذبت نظره

ذات يوم لافتة مثبتة على قضبان شرفة شقة بشارع سعفان مسجل عليها بالخط الفارسى «الإخوان المسلمون» فدعاه حب الاستطلاع والتوتر إلى اقتحام الشقة . ومضى يختلف إليها من حين إلى حين وينوه بما يلقى عليه فيها بين أسرته ، حتى قال له حامد برهان :

ـ حسبك ، إنى غير مرتاح لذلك . .

فدافع الشاب عن وجهة نظره دفاعا بريئا ، ولكن أباه قال :

ـ أنت وفدى ، وأى تجمع آخر ما هو إلا منافس للوفد .

فقال محمد بإصرار :

ـ إنها مفتوحة للجميع .

ولم يطرأ عليه فى تلك الفترة من تغيير إلا أن أضاف إلى مجال اطلاعه بعض الكتب الدينية ، على أن كوثر استغرقتها العبادة أكثر منه وإن عكست عيناها الوديعتان نظرة أسى دائم . وضاعف من حرج الأسرة أن منيرة ـ وهى تشرئب للجامعة ـ تقدم لطلب يدها مدير عام بالسكة الحديد فى الخامسة والأربعين من عمره . لا شك فى أن «درجته» فتنت حامد برهان ، ولكنه ـ مثل سنية ـ توجع لحال كوثر . غير أنه لم يكن بد من عرض الموضوع على منيرة التى أدهشتهم بقولها الحاسم :

ـ لا أوافق . .

فقال لها محمد :

ـ يستحسن أن يسبق أى قرار بالتفكير المناسب .

فقالت بصراحة :

ـ لا داعى لذلك على الإطلاق .

وارتاح الوالدان فى أعماقهما وإن تظاهرا بغير ذلك . ولم يكن القهر يلعب دورا فى الأسرة ، وكان الأبناء يحظون بنعمة غير معهودة من الحرية والصراحة . على أن منيرة لم ترفض الرجل لفارق السن فقط ، فالحقيقة أنها كانت واقعة فى حب . لم يفطن أحد إلى حبها ، ولا أمها التى ترى بروحها أحيانا بالإضافة إلى عينيها ، وكان حبها مشكلة . أحبت شابا من حلوان تبين لها أنها تكبره بسبعة أعوام! كان طالبا بالمرحلة الثانوية ، كثير السقوط ولكنه ذو مظهر خادع . رأته أول ما رأته فى الحديقة اليابانية فاتسعت عيناه مرسلة دهشة ذاهلة باسمة تحية للحسن الرائق ، وجلس قبالتها فى القطار أو لعله تعمد الجلوس قبالتها وراح يسترق النظر طيلة الطريق إلى القاهرة . كان ذا مظهر يكبر سنه بكثير ، مترامى الأبعاد مبادرا للرجولة قبل أوانها فظنته موظفا أو طالبا فى القمة ، وكان إلى ذلك فحل الملامح والصوت . وراح يتابعها بإصرار وشغف حتى غزاها بلطف وثبات . وجد قلبا يخفق بنظرة متوثبة ، متعطشة لأول قطرة ماء كى تتفتح أكمامها وتنبثق ألوانها الضاحكة .

هكذا تسلط على فؤادها فاستسلمت للنداء المطرب حالمة بسعادة مشرقة . وعند لحظة فريدة يتصارع فيها الحياء والمغامرة ردت آخر تحياته أمام تمثال بوذا الغافى فى سلام بالحديقة اليابانية ، فقال متنهدا :

ـ أخيرا ! . . سامحك الله . .

وفى ارتباكها سألته متلعثمة :

ـ ماذا تريد؟

فقال بهدوء مغتصب :

ـ ليس عندى أكثر مما يدل عليه حالى .

فعضت على شفتيها لتئد ابتسامة خائنة ، فقال برقة :

ـ ليس وراء الحب شىء . .

قالت لنفسها : ما أصدقه ! وتلاقيا مرات فى الجنفواز على مبعدة يسيرة من الجامعة ليزدادا ببعضهما تعارفا . كان ثمة تشابه بين أسرتيهما فأبوه ناظر مدرسة ابتدائى ، له أخت متزوجة وأخ ضابط بالجيش ، اسمه سليمان بهجت . ولما عالنها بسنه وصفه المدرسى تلقت لطمة مباغتة لم تتوقعها . كانت تشارف مرحلتها الجامعية بقسم اللغة الإنجليزية ، وربما توظفت وهو يلتحق بالجامعة فأى مهزلة وأى خدعة . اضطرب ميزان عقلها ولكن قلبها صمد صمود العاشقين ، طرحا العواقب جانبا . ولاحظ سليمان وجومها ولم تغب عنه أسبابه ، فقال :

ـ فى الحب لا أهمية للمشكلات السطحية .

فتساءلت بحيرة :

ـ أهى سطحية حقّا؟

ـ بلا شك ، علينا أن نصر على حبنا حتى نتزوج .

فقالت بسرور خفى :

ـ إنك جاد ولى فيك كل الثقة ، ولكنى أسألك مهلة للتفكير لصالح كلينا . .

فقال بيقين :

ـ إنى أعرف صالحى تماما (ثم ضاحكا) ولن أسمح لك بالتراجع . .

ولم تجد فى أسرتها من تفضى إليه بسرها سوى أمها . اقتحمت غرفتها الخضراء عقب صلاة العصر رادة الباب وراءها وجلست قائلة :

ـ إليك حكايتى يا ماما . .

لما أدركت أنها حكاية خطوبة نور قلبها بالسرور ، ولكنه سرعان ما انطفأ لدى طرح

المشكلة. وتفرست فى وجهها فاستشفت ميلها الدفين وراء قناع الحيرة فأدركها الجزع. قالت لنفسها: إن حظ كوثر سيئ، أما جوهرة الأسرة فلا يجوز أن يسوء لها حظ. قالت بثبات:

ـ مشروع فاشل ولا خير فيه.

فرمقتها منيرة بنظرة كئيبة فواصلت:

ـ الرجل الأكبر فى السن مقبول ألف مرة أكثر من المرأة الكبرى، حذار يا منيرة، ما هو إلا عبث صبى لا يوثق به وأنت رشيدة مثقفة..

فلاذت بالصمت الذى أدركت الأم معناه، فقالت بقلق:

ـ الناس يحبون ليسعدوا لا ليجعلوا من حياتهم نادرة يتندر بها، لن يمنعك أحد مما تريدين، أنت حرة تماما فى اتخاذ قرارك، ولكنى أحذرك، فالمرأة تمضى إلى الشيخوخة أسرع من الرجل..

فتمتمت بغموض:

ـ أشكرك يا ماما..

فقالت برجاء:

ـ لا داعى للعجلة، فكرى على مهل، دعى الأمر معلقا حتى يئين أوان الزواج، ثم انظرى ماذا يبقى منه.

فقالت منيرة وهى مستغرقة بالحيرة:

ـ حل موفق يا ماما..

ـ عظيم، وليكن الأمر سرا حرصا على الكرامة..

ولكنها لم تعتد أن تخفى عن حامد برهان أمرا ذا بال فأشركته فى همها قبل انتقاله إلى مجلس السمار. وفاق تأثره بالسر تأثرها إذ كان عاطفيا أكثر منها أو كان دونها فى ضبط النفس، قال بنبرة المتشكى:

ـ أى حظ يا بنتى! إنك درة التاج فلم تبتلين بهذه التجربة؟

وتفكر مليا، ثم قال:

ـ إنه مشروع فاشل، ولكنه خليق بأن يقوم عثرة فى سبيل من يطلب يدها..

ولم تر سنية حلما ذا معنى، وضربت تأويلات أم سيد للفنجان فى آفاق بعيدة عن الموضوع. أما سليمان بهجت فقد عدل عن رغبته الملحة فى إعلان الخطوبة، قانعا بعلاقة أقرب إلى الصداقة مورست فى مودة وتحفظ وصينت بالصبر الطويل. على أن سرا بهذه الخطورة لا يمكن أن يبقى سرا طويلا فما دام توجد رائحة نفاذة وجو ذو قابلية لسريان

الرائحة فلا بد للرائحة من أن تنتشر . انكشف فى بيت سليمان بهجت ، وقال له أخوه الضابط :

ـ أحسنت الاختيار .

وكثرة من زميلات كوثر بالكلية عرفنه ، وزحف أخيرا على شارع ابن حوقل فنوقش فى مجلس السمار ، وبذلك عرف القاصى والدانى أن كريمة حامد برهان الجميلة «محجوزة» فلم يتقدم أحد ليخطبها ، مثلها مثل أختها كوثر التى طال بها الانتظار وتقدم بها العمر . وكانت أيام حرب وبلاء ، واحتلت الوفيات الصفحات الأولى من الصحف ولكن على نطاق العالم والتهم الخراب العواصم الزاهرة ودنا الخطر من مصر حتى ترددت أنفاسه فى القاهرة والإسكندرية ، فقال حامد برهان :

ـ من راقب بلوى العالم هانت عليه بلواه . .

واختل ميزان المعيشة فتوارت الأسعار القديمة إلى الأبد وانهمرت الثروات على أناس فلم يبق فى القعر إلا الموظفون ، فتساءلت سنية :

ـ ما جدوى إمساك دفتر لميزانية وهمية؟!

ولولا عودة الوفد للحكم عقب أزمة خطيرة وتقريره علاوة الغلاء لهلك الموظفون . ولم يزعزع الحدث إيمان حامد برهان بوفديته ، بل رقص السمار فرحا وشماتة بالملك . وقالت منيرة :

ـ إنه شىء بشع لا يصدق .

وقال محمد لأبيه :

ـ ما أفظع ما يقال!

فقال حامد برهان بثقة :

ـ كل قول جدير أن يتحطم على صخرة صلدة هى وطنية مصطفى النحاس .

فهزت سنية رأسها باسمة وتمتمت :

ـ نطقت بالحق .

وتمضى الأحداث ، ويميل مؤشر النصر إلى الناحية الأخرى ، ويقال الوفد كالعادة من الحكم ، وبعد عامين يحال حامد برهان إلى المعاش لبلوغه السن القانونية ، شد ما انقبض صدره حتى ساوره شعور بأنه يموت قبل الموت . لدى رجوعه إلى حلوان نازعا معطف الوظيفة لأول مرة اجتاحته كآبة ثقيلة ، وداخله إحساس بالخجل كأنما ارتكب إثما . قال لنفسه :

ـ ما زلت فى تمام الصحة والعافية .

ورسم لنفسه ـ وهو قابع فى قطار حلوان ـ خطة يتحدى بها قرار الحكومة . أن يستيقظ فى ميعاده المبكر ، أن يتمشى ما بين الصحراء والحديقة اليابانية كل صباح مغترفا من هواء حلوان الجاف ، أن يواظب على الارتواء من المياه المعدنية ، أن يعنى بحديقة البيت ما وسعته طاقته المالية المحدودة . وتلقته سنية باسمة ، دعت له بطول العمر ، مطاردة أفكارا كئيبة تطن فى باطنها كالذباب . عطفت عليه ، رأت وجومه وراء ضحكته المفتعلة ، قاسمته الانفعال بالزمن والخوف من المجهول ، بالإضافة إلى همومها كربة بيت تفعل المستحيل للاحتفاظ بالحد الأدنى فى مواجهة حياة يشتد عسرها فى بطء وثبات . وحمدت الله على الفرج المنتظر بتخرج محمد ثم منيرة ، قالت فى لحظة تأمل :

ـ أشعلوا الحرب وذهبوا وعلينا أن ندفع الثمن . .

واستوعب الغذاء والكساء كل شيء ولكن ألا يحتاج هذا البيت الكبير إلى ترميم وطلاء؟ وهذه الحديقة التى عقمت أشجارها الباقية ، وذبلت شجيرات أزهارها ، وشغلت الأرض الرملية أكثر سطحها ألا تحتاج إلى بعث؟ أين هى من ذلك كله؟! وهى حتى متى تحمل أعباء البيت ولا معين لها إلا فتاة منكسرة القلب وخادم تماثلها فى السن ضئيلة المهارة لا تحسن إلا قراءة الفنجان ونادرا ما تصدق لها قراءة؟ ولكن الهموم تتداوى بالهموم أحيانا ، فقد اقتحم البيت هم فى صورة فرح باسم . أجل . أخيرا جاء رجل يطلب يد كوثر ! كان خليل الدرس ـ أحد السمار ـ هو الخاطب ! وكان العريس الوجيه نعمان الرشيدى الذى يعمل الرجل وكيلا لدائرته . قال خليل الدرس لمحمد برهان :

ـ رجل ولا كل الرجال .

ثم مبادرا قبل أن تلعب الآمال بقلب حامد :

ـ حقّا لم يتعلم ولكن ما حاجته إلى التعليم؟ وهو فى الستين ولكنه يحظى بصحة ابن الثلاثين ، له أبناء ثلاثة ولكنهم موظفون ومتزوجون ، يملك أرضا وعمارات وأموالا سائلة ، يقيم فى فيللا أنيقة بشارع الزقازيق بمصر الجديدة ، ولما ماتت زوجه منذ عام غشيته وحدة لم يألفها فضاق بها وغمرته كآبة ثقيلة حتى اقترحت عليه فكرة الزواج فرحب بها بحماس فاق تقديرى بكثير فطلبت إلى زوجتى أن تدعو ست سنية وكوثر لزيارة ، ودعوته من ناحيتى ، ويسرت له رؤيتها فى الحضور والانصراف فسُرَّ جدّا وأمرنى أن أتم السعى ، وهأنذا أفى بما تعهدت به . .

هكذا ذابت هموم الحياة اليومية واستأثر المشروع الجديد بالأفئدة . أسكتوا الراديو فى حجرة المعيشة ، وأفضى حامد برهان بما لديه ، ثم قال :

ـ هذا هو العريس فما الرأى؟

همت كوثر بالانسحاب ، ولكن حامد برهان أمسك بساعدها وجذبها إلى جانبه بحنان قائلا :

ـ هنا مكانك .

فقال محمد ضاحكا :

ـ من حسن الحظ أن الحكومة لا تتدخل فى هذه الشئون .

وساءلت سنية نفسها : لم يتعثر حظ ابنتيها فلا يعرف الطريق المألوف؟ وقالت :

ـ لنترك الأمر لصاحبة الشأن . .

فقال حامد برهان :

ـ طبعا . . طبعا . . ولكن لا بأس من إبداء الرأى مساعدة لها ، الرجل ثرى ، والمال زينة الحياة الدنيا !

وهمَّ محمد بتكملة الآية ولكنه عدل عن ذلك . كان ينظر إلى بقاء أخته فى البيت الكبير بلا زواج ولا علم ولا عمل بقلق شديد . قال :

ـ فرصة لا يصح الاستهانة بها .

فقالت منيرة :

ـ أوافق على رأى كوثر دون قيد أو شرط . .

فقال لها أبوها :

ـ لم تقولى شيئا . .

فقالت بإصرار :

ـ قلت كل شيء .

ونظر حامد برهان نحو سنية وهى متربعة فوق الكنبة ، فتمتمت :

ـ رجل مقبول من بعض النواحى ، ولكنى تمنيت لها حظا أفضل . .

وهربت بوجهها من نظرتهم فاستقرت عيناها على الصورة التذكارية . وقالت كوثر لنفسها إنهم يميلون للموافقة . وهى أيضا مالت إليها منذ اللحظة الأولى . فهذا الرجل هو أول رجل يتقدم . وهى تغوص فى السادسة والعشرين تكتنفها أحوال تدعو إلى اليأس . وهى تثير العطف حتى كرهته . وباتت تخجل من لقاء الزائرات . ولما لمسها أبوها برقة متسائلا :

ـ وأنت يا كوثر؟

أحنت رأسها وغمغمت بصوت لم يسمع :

ـ موافقة .

وانتهت الجلسة بسلام ، ولكن ثمة شعور بالذنب طاردهم قاوموه بالشعارات الطيبة .
وعندما خلا حامد برهان بسنية عقب انصراف السمار قال :

ـ بارك الجميع قرارنا . .

نظرت إليه فهالها أن ترى عينيه دامعتين . لم تدهش لما تعلمه من سخاء عينيه إذا مس وتر حميم فى قلبه، أما هى فتبكى فى الداخل . وسألته بأسى :

ـ لم تبكى يا رجل؟

فتنهد قائلا :

ـ من العجز وسوء الحظ .

عنى عجزه المالى وسوء حظ ابنته . وهو كان يرى أكثر مما يتصور من حوله . لاحظ بقلب متغضن انزواء كوثر، أسى نظرتها، معاناتها للمراهقة، إغراقها اليائس فى العبادة، تطوعها لخدمة إخوتها فى استسلام كامل، فدفعه ذلك كله إلى مواجهة عجزه . ماذا فعل من أجلها؟ ماذا يملك من المغريات؟ وكم قسا عليها أيام الدراسة مصرا على تحميلها ما يفوق طاقتها رغم أنه كان مثلها فى معاناة التعليم، وإلا لشق لنفسه طريقا آخر أبعث للآمال له ولذريته . وسأل زوجته ومرشدته :

ـ ما العمل الآن؟

استخرجت من الجملة القصيرة مضمونها الخفى فقالت :

ـ عندى مجوهرات لا بأس بها . .

فقال بذل :

ـ أحاول أن أقترض أيضا؟

فقالت بضيق :

ـ لن تجد ضامنا، ولا ضرورة لذلك .

على أن السيد الوجيه نعمان الرشيدى جعل من العسر يسرا . نشط نشاطا كبيرا فأهدى أثاث فيللته إلى أبنائه، وأعاد تأثيثها على أحدث طراز، وفى مقابل ذلك اتفق على صداق ومؤخر صداق رمزيين . وارتاحت الأسرة فى الأعماق لذلك، ولكن تجلى طفحه فى الوجوه فى صورة كبرياء جريح . لذلك غالت الأم فى تزويد كريمتها بالثياب أشكالا وألوانا وأغدقت عليها هدايا ثمينة : أساور ذهبية وقرطا ماسيا وساعة أثرية . وبدا الوجيه حريصا على الوقت فتحدد يوم لكتب الكتاب فى البيت الكبير شهده الأصدقاء ولم يحضره أحد من أبناء الوجيه معلنين بذلك مقاطعتهم التى تواصلت إلى الأبد . ومضى الوجيه بعروسه فى سيارته المرسيدس البيضاء مودعا ببسمات متلألئة بالدموع كرمز للفرح والأسى معا . وعقب الزيارة الأولى التى قامت بها الأسرة لفيللا شارع الزقازيق، قال حامد برهان :

ـ كوثر سعيدة والحمد لله .

كانت سعيدة حقّا، وسرعان ما بادلت زوجها حبا بحب . كان حبا حييا هادئا، ولكن بالقياس إليها كان الحب كله . وما لبثت أن بشرتهم بمقدم مخلوق مجهول من الغيب فانغرست البشاشة فى قلب سنية المهدى طارحة ورودا وأزهارا . وأضفت التسريحة الجديدة على وجه كوثر أنوثة . وأكسبها الزواق ملاحة، وأسبغت عليها الثياب الفاخرة جلالا وسؤددا وإن لم تهمل يوما سجادة الصلاة . وأخفت عن أمها هموما صغيرة تسللت إلى وجدانها من جراء محاولات مستميتة بذلها نعمان الرشيدى ليقنعها باحتساء القليل من الويسكى، لاجئا إلى إصدار فتاوى شخصية لا أساس لها بأن الشرب الشرعى حلال، حتى يئس فقنع بالمتاح . وما إن رفع حامد برهان رأسه عن همّ كوثر حتى ركز عينيه على العمارة الجديدة التى استوت قائمة فى مواجهة بيته . وبدأ الهدم ورمى الأساس من سنوات، وتوقف العمل وقتا غير قصير لأسباب مجهولة، ثم استؤنف حتى اكتملت بقاعدتها الواسعة وقامتها المديدة . أسف حامد لذلك غاية الأسف، وتحسر على زوال حديقة البيت الأصلى وأن يقوم مقامها بناء فيحجب ما يحجب من منظر مأنوس ويمنع ما يمنع من هواء طلق . وانقض على العمارة سكان جدد فاق عددهم سكان «ابن حوقل» جميعا، لا يعرف بعضهم بعضا ولا يتحمسون لمعرفة أحد . قال جعفر إبراهيم :

ـ هذا مصير بيوتنا الكبيرة القديمة . .

فتساءل حامد برهان :

ـ ولكن ما حلوان إذا اغتصب هدوءها الأبدى؟!

وخُيّل إليه أن بوذا سينتبه من تأملاته العميقة محتجا، ثم يرحل وراء الهدوء إلى أعماق الصحراء .

ولم تكن العمارة بالهمّ الوحيد الذى طرأ فقد تدفق طوفان فى ميدان السياسة دافعا بين يديه مظاهرات من الطلبة والعمال مطالبين باستقلال حقيقى يكافئ ما بذلته مصر من تضحيات وخدمات فى أثناء الحرب . وكالعادة غلبت السياسة على السمر وانهمك حامد برهان الوفدى العريق فى همومها ، وقال :

ـ لو بقى مصطفى النحاس فى الحكم لطالب الإنجليز بجزاء تأييده لهم فى وقت الهزيمة .

غير أن همومه لم تحل بينه وبين رؤية ساكنة جديدة فى الدور الرابع من العمارة الجديدة . كان يتمشى فى حديقته الموحشة مصارعا الفراغ الجديد المهيمن على حياته فحانت منه التفاتة فرآها تتمشى فى مطلع خريف . لعلها تماثل سنية فى العمر ـ فى الخمسين ـ ولكنها رشيقة مزخرفة ذات شعر ذهبى وعرق أجنبى . استقبل من ناحيتها تيارا

مثيرا هو الذى لم يهتم بالنظر إلى امرأة منذ تزوج من سنية المهدى. عاش حياته زوجا مثاليا لا يزهد ولا يتغير ولا يحلم حتى لفت الأنظار إليه بطبعه العجيب. ولا يذكر أحد من معارفه أنه سمعه يحدّث عن عالم المرأة، حتى قال صاحبه راضى أبو العزم مدرس العلوم:

- حامد متخصص فى زوجته.

وبدا أن المرأة هيجت اهتمامات الجيران بفرنجيتها وعصريتها وملابسها فانتشر من نافورتها الشادية رذاذ المعلومات. قيل إن أمها إفرنجية - وإن لم يحدد الجنس - وإنها أرملة للمدعو حسن كمال الذى كان مدرسا بمدرسة الفنون وعضو بعثة فى الخارج. وقيل إن لها ابنة وحيدة مترجمة بوزارة الخارجية، ثم صحح الخبر فيما بعد فقيل إنها ابنة زوجها من زوجة سابقة متوفية، وإن المرأة تبنتها لعقمها فعد ذلك حسنة تحسب لها. ثم عرف أن اسم المرأة - بعد إسلامها - ميرفت وأن البنت اسمها ألفت. وكانت المرأة تسلى وحدتها بالمشى فى شوارع حلوان وزيارة الحديقة اليابانية، تمضى رشيقة براقة مثيرة داعية - دون مبالاة - لشتى الظنون، باسمة متحدية، بخلاف ألفت المواظبة على عملها والمتسمة بالجدية والحياد أيضا. وبالقياس إلى حامد برهان لم تكن ميرفت مجرد امرأة مثيرة تسعى ولكنها كانت غزوة اقتحمت حصنه المنيع، ونارا أشعلت هشيم خياله، وسيلا جرف سده العالى. وعجب الرجل لحاله مغمغما:

- أعوذ بالله.

وذكره ذلك بما جرى فى الحرم الجامعى وفوق كوبرى عباس من مظاهرات وسفك دماء، فقال:

- هذا يثبت أن الأرض تدور على قرن ثور!

وعم البلاء عندما وهبته المرأة انتباهها ولم يعد ثمة شك فى أنها تشجعه! وذات يوم تلاقت أعينهما فى نظرة آسرة فابتسمت إليه. تناثرت إرادته وانفجرت غرائزه، وتمخض جسده البدين عن جنون أحمر. تناسى واقعه وسنية وكوثر ومحمد ومنيرة فمضى وراءها إلى الحديقة اليابانية، ولم يكن يدرى شيئا عن الغزل ولا حتى عما يجب أن يقال فسلم نفسه فى براءة طفل، وتواعدا على اللقاء فى القاهرة مختارا اليوم الذى يتسلم فيه معاشه على سبيل الحذر. وبهذه العلاقة استوى فى مقام الحيرة. أدرك من أول وهلة أن «مصروفه» لا يسمح له بعلاقة غير مشروعة، فضلا عن أنهما لا يجدان عشا مناسبا. وقالت له:

- إنى سيدة محترمة!

فقال - وكانا يجلسان فى محل باليرمو بالهرم - بصراحة مؤثرة:

ـ وأنا كما ترين فقير . .

فقالت بجرأة غريبة :

ـ لدى إيراد خاص لا بأس به .

فقال بسذاجة :

ـ ممكن أحتفظ بنصف معاشى إذا توظف ابنى وابنتى فى القريب العاجل .

هكذا انحرف الحديث إلى «الشرع» وقذف بحامد برهان إلى حياة جديدة لم تجر له فى خاطر ورجع إلى حلوان وهو يقول لنفسه :

ـ أدرك الآن معنى أن يغلب إنسان على أمره !

أى قنبلة انفجرت فى صدر سنية المهدى والزوج المستأنس المحب البكاء يقف بين يديها حانى الظهر ، مغروز العينين فى البساط القديم المنجرد وهو يقول :

ـ إنه أمر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . .

استيقظت من كهفها على صدمة كهربائية مزلزلة .

ـ ماذا يقول الرجل الممسوس؟

ـ تزوجت ، إنها محنة ، ولكنك ستظلين الزوجة والأم !

إذن فأى شىء يمكن أن يحدث .

ـ إنك مجنون ولا شك !

وكعادته عند غلبة الانفعال دمعت عيناه . استمسكت هى بمظهرها الرزين المجلل بذهول غامض . كرهت دموعه واحتقرتها وتردت بيقين فى هاوية . وثبت بها دفعة مباغتة لصفعه ولكنها لم تفعل . كظمت دوامتها بسلك صلب . أمرت قلبها بأن ينكسر وحده وفى صمت جليل وبأن يتشرب أشنع الآلام كما لو كانت ماء عذبا . قال بصوت رجل آخر :

ـ لن يفصل بيننا شىء .

عند ذاك هتفت به :

ـ لا ترنى وجهك أبدا .

وتلقى محمد ومنيرة الخبر ، فصاح محمد :

ـ يا خبر أسود !

أما منيرة فلم تنبس ثم أفحمت فى البكاء . وقف قلباهما وراء أمهما وأدانا أباهما دون قيد أو شرط .

وقالت منيرة لمحمد وهما فى الفراندا وحيدين :

ـ أنا لا أفهم شيئا . .

فقال بامتعاض شديد :

ـ إنها مأساة ألقيت على بابا لتلقى بعد ذلك على ماما ثم تطوقنا جميعا .

ودفع الزواج الجديد الزوجين إلى ضربين من الجنون . جنون صمت وكبرياء غزا الأم . صممت على ممارسة حياتها اليومية وكأنها لاتبالى بيد أنها كانت مشتعلة القلب والعقل طيلة الوقت فراحت ترى وراء الأحداث اليومية ـ المسموعة والمقروءة ـ شبح مأساة كونية غامضة ، وأن حماقة الإنسان داء متأصل لن يشفى منه إلا بمتناقضات شتى كالعنف والحكمة والرحمة! وبذهاب «العجوز المتصابى» أتيح لها فراغ لم تعهده من قبل فتعلق اهتمامها بالبيت ، وشعرت أكثر من أى وقت مضى بأنه ليس على ما يرام . إنه يطعن فى القدم دون رعاية ولا عناية . ها هى ذى تتجول بين الحجرات والحديقة ، تنظر وتتفحص ، بهتت الألوان ، تقشرت الأركان ، تشقق خشب الأرضية وفقد مرونته ، ذبلت الحديقة وملأتها الوحشة وتراكمت فى أجزاء منها الأوراق الجافة ، وقالت :

ـ العين بصيرة واليد قصيرة .

وتابعها محمد مرة بعينيه ، ثم همس فى أذن منيرة :

ـ إنى قلق .

فهمست له بدورها :

ـ ليتها تروح عن نفسها ولو بالدموع؟

أما حامد برهان فلم يبق له إلا أن يغمض عينيه ويصم أذنيه حيال الماضى وأن يرمى بنفسه فى بحر العسل . انقلب إلى مراهق ذى رأس أبيض وجسم ملىء بعنفوان لا يدرى من أين جاء . ووجد فى ميرفت امرأة فائقة المقدرة متقنة لفنون من العشق لم يعرفها من قبل . وبادلته هياما بهيام ، ولولا دعمها المالى لحياتهما المشتركة ما أمكن لها دوام . وبمضى الأيام انتقل مجلس السمار إلى الشقة الجديدة ، وأضافوا إلى أحاديثهم المألوفة موضوعات جديدة عن وصفات ناجعة لتجديد الشباب . وفى أثناء ذلك ولد رشاد بن كوثر ، وتخرج محمد ، ثم لحقت به منيرة ، وهى أحداث خليقة ببعث السرور الشامل ، ولكنها لم تحظ إلا بفرحات سريعة الزوال كانفراج السحب عن شروق الشمس دقائق فى يوم مطير عاصف . وزاد من تجهم الجو اشتعال حرب فلسطين فعلا صوت المعركة المبهم المشحون بالقلق على معارك حامد برهان الجنسية الظافرة وشد سنية المهدى من حال سيئة إلى أخرى كمن يفلت من قبضة صداع ليقع فريسة لروماتيزم ، على حين تابعت منيرة الأنباء من موقع وظيفتها الجديدة كمدرسة للغة الإنجليزية بمدرسة البنات بالعباسية ، أما محمد فوجد عملا فى مكتب الأستاذ عبد القادر قدرى المحامى الوفدى المعروف ، وكان

موصولا بصداقته من عهد وفديته الخالصة فلم ينقطع عنه بعد أن مازجت وفديته «إخوانية» متصاعدة. وبذل محمد جهدا صادقا فى عمله حاز به ثقة أستاذه. غير أن الحرب انتهت بهزيمة العرب، ومقتل النقراشى، وإعلان حرب داخلية لا هوادة فيها ضد الإخوان، فقبض على محمد فيمن قبض عليهم ضمن شعبة حلوان. وهز النبأ الأسرة هزة فاقت أحزانها الخاصة والعامة. واستقبل البيت القديم بحلوان الوجيه نعمان الرشيدى وكوثر، بل جاء حامد برهان نفسه. وتجاهلت سنية زوجها تماما فتجنب إزعاجها ومضى يوجه حديثه إلى نعمان أو منيرة. ولم يكن دون سنية قلقا، حتى قال الوجيه نعمان:

ـ مؤكد أنه لم يتورط فى جريمة فلا خوف عليه..

فقالت منيرة:

ـ أخشى ألا يفرقوا بين البرىء وغيره فى حومة الانتقام.

فقال حامد برهان:

ـ لم يرتح قلبى قط لانضمامه إلى الإخوان، وكلنا مسلمون والحمد لله..

وشعر نعمان الرشيدى بأنه مطالب بأكثر من الكلام لعلاقته الوثيقة بالمسئولين من جميع الأحزاب، فقال:

ـ سأبذل ما فى وسعى رغم أن الدفاع عن إخوانى فى هذه الظروف تصرف مرعب!

كان حريصا على علاقاته الودية بجميع الأحزاب، لذلك ساءه أن يكون أخو زوجته إخوانيا، فكيف يسعى بنفسه إلى الكشف عن هذه الحقيقة الفاضحة؟! وجعلوا يواسون سنية باعتبارها المحور الأول للحزن، فقالت بأسى:

ـ ثقتى بالله لا تتزعزع.

غير أن الحزن قطع قلبها فساء نومها، وكانت تنام إذا نامت وقلبها مسهد، وتحلم بالعذاب. وجاءها خطاب من أخيها ينعى إليها بكريه الذى استشهد فى الحرب بعد أن ظن أنه مفقود، فسرعان ما سافرت إلى بنى سويف للعزاء. على أنه أفرج عن محمد بعد فترة غير قصيرة فرجع ذات يوم وألقى بنفسه فى حضن أمه. وتظاهر ـ رغم شحوبه وذبوله ـ بالسرور مخفيا عن أمه الأخبار المحزنة. ورجع إلى عمله بمكتب الأستاذ عبد القادر قدرى مصمما على الاجتهاد. ولما سأله الأستاذ:

ـ هل شبعت من الإخوانية؟

أجابه ضاحكا:

ـ العكس هو ما حصل!

فقال الأستاذ عبد القادر :

ـ افهم معنى الوفد قبل فوات الأوان ، إنه ليس حزبا ولكنه قاعدة الأساس المتماسك ، هو بكل إيجاز «مصر» .

فتساءل محمد :

ـ هل ندور على مدى العمر حول الاستقلال والدستور ؟ !

ـ جدد ما تشاء ولكن فوق القاعدة المتماسكة وإلا وجدت نفسك فى عهد ما قبل الأسر !

ولما انفرد محمد بأخته منيرة قالت له برثاء :

ـ شد ما هزلت !

فقال متجهما :

ـ لن تنزع من روحى آلام الضرب الذى انهمر على جسدى كالمطر !

وأدركت سنية ذلك بحدسها ، وبتأويل أحلامها ، ولكنها صممت على الصبر مع الحياة الجديدة . لفظت حامد برهان من ضميرها كما يبصق الإنسان حلوى فضح الريق فسادها ولكنه بقى جرحا مفتوحا ينعى الحب والوفاء . وقالت إنها ستنسى تماما وتسلو ، بل وتسعد ، لو أمكنها ذات يوم أن تعيد إلى البيت شبابه الغض . لديها نصف معاش «الخائن» ومرتب منيرة ومحمد ، ولكن الغلاء يمضى فى سبيله فى بطء وثبات ، ثم إن لمحمد ومنيرة آمالهما الخاصة ! لم يبق لها إلا الحلم . هو الذى يرمم ويطلى ويبيع الأثاث القديم ويشترى أثاثا جديدا ، هو الذى يشذب الأعشاب ، ويغذى الجذور ، ويسمد الأرض ، ويغرس أشجار الورد . إنها تحلم وتناجى أرواح الأولياء والجدود . وتقاوم فى مجرى ذلك ذاكرتها التى تخون الإرادة فتقذف بشهاب خاطف لذكرى جميلة ما كان ينبغى أن تبرق فى الأفق وتقول لنفسها :

ـ لا تطمئنى لشىء طيب .

وتغدق على منيرة تساؤلاتها القلقة فتعلم أن بهجت سليمان توظف بشهادة زراعية متوسطة فى وزارة الزراعة وأنهما ما زالا مقيمين على العهد فتغمغم لذاتها :

ـ الأمر لله !

أما محمد فهو آخذ فى استرداد صحته وشق طريقه . لم تعد توجد شعب إخوانية ولكن الدين أصبح على رأس مطالعاته ، واكتسب عنه رؤية جديدة مختلفة عن دين أسرته المتسم بالسماحة والبساطة . وقد استأذن أمه فى زيارة أبيه عقب الإفراج عنه فأمضى ساعة طويلة معه شهدتها ميرفت هانم وآنسة ألفت . رأى ألفت لأول مرة بتمعن وعن قرب فتحرك قلبه البرىء ، واصطحبها معه فى عباءة خياله عند انصرافه . ورآها فى

القطار، بل وجالسها فيه أحيانا وتبادلا الحديث. وتسلطت بعد ذلك على ذاكرته وخياله. فلزمته فى البيت والمكتب والمحكمة على حين وهبته ـ فى واقع الحياة ـ استجابة طيبة. وخفق قلبه بسعادة الحب حتى تساءل بقلق:

ـ ولكن ماما؟!

وإذا بالحياة العامة تباغته بفرحة غير متوقعة فتستقيل الوزارة ويبشر الأفق بانتخابات حرة. صرخ محمد:

ـ اللهم لا شماتة!

أما حامد برهان فرقص طربا. والتقى مع محمد فى دائرة انتخابية واحدة فهمس فى أذن ابنه:

ـ الشكر لله على أنك مازلت فى الأعماق وفديا.

فقال له محمد باسما:

ـ الإخوان معكم فى هذه الانتخابات.

ورجع الوفد إلى الحكم فصعد حامد برهان إلى العرش من جديد وهو يقول:

ـ الخلود ممكن فى هذه الحياة.

وأقبلت أيام وردية فآمن الناس بأن أيام المحن قد ولت. وراحت منيرة تفكر فى مستقبلها من موقع حبها العتيد، كما ربط الحب بين محمد وألفت فتعاهدا على الزواج والانتظار مع تأجيل إعلان الخطوبة لفرصة طيبة. ثم تعثرت مفاوضات تعديل المعاهدة وتفشى القلق حتى جلجل صوت مصطفى النحاس بإلغاء المعاهدة. وبلغ الحماس مداه فى مجلس السمار بشقة ميرفت هانم. وتذكر حامد برهان حماسه يوم عقدت المعاهدة على ضوء حماسه الجديد لإلغائها فقال:

ـ من تكون عروسا فى ١٩٣٦ فكيف تصير فى ١٩٥١؟!

فقال خليل الدرس:

ـ إنه زمن سريع وقلب!

فقال حامد برهان:

ـ لا يقدر على إلغائها إلا من قدر على عقدها، هو الوفد دائما وأبدا..

وتتابع الفداء والعنف حتى اشتعلت النيران فى جنبات القاهرة. قال حامد برهان لميرفت:

ـ الويل للخونة!

فقالت وهى بعيدة عن مشاركته:

ـ حلوان بمأمن من ذلك .

ووقفت سنية فوق السطح تنظر صوب القاهرة من خلال منظار مكبر ربحه محمد فى صباه فى نصيب سينما أوليمبيا وهى تردد بقلق بالغ :

ـ ارفع يارب غضبك ومقتك عنا . .

ولما اربد وجه القاهرة بالغضب وأنذر بأوخم العواقب مضى محمد إلى وزارة الخارجية فاصطحب ألفت إلى محطة باب اللوق قائلا :

ـ أخاف أن تنقطع المواصلات . .

رجعا قبل أن يقدرا مدى الخطر الحقيقى الزاحف لالتهام صفحة كاملة من تاريخ دام. وهوى رد فعل عنيف كالصاعقة . وقال حامد برهان لسماره :

ـ المجرمون يقهقهون!

غير أن القهقهة انقطعت حال ارتفاع صوت جديد فى الصباح الباكر من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . تبادلت الأسرة النظرات حول مائدة الإفطار وتكلم محمد قائلا :

ـ فلنستبشر خيراً فأى شيء خير مما كان .

وتساءلت منيرة :

ـ والإنجليز؟!

فقالت سنية :

ـ أمل مجهول خير من يأس راهن!

وتابع حامد برهان سيل الأخبار المتدفق بذهول . كان ـ كوفدى ـ يشارك فى الأحداث إيجابا أو سلبا عندما كانت الحلبة خالية للوفد وأعدائه ، أما هذه المرة فالقوة الفعالة غريبة وطارئة ومبهمة . ورأى العدو التقليدى ـ الملك ـ يرحل إلى الأبد فلم يدر أيعتبر ذلك نصرا أم هزيمة ، وهيمن عليه فتور فتوجس خيفة غامضة . ولما رأى ميرفت دامعة العين لذهاب الملك تمتم بميكانيكية :

ـ هذا جزاء العبث!

فتساءلت ميرفت :

ـ ألا ترى أن السلطة آلت إلى رجل وضع نفسه فوق القانون؟!

فقال وهو لا يصدق حرفا مما يقول :

ـ إنهم يعدون بتقديس الدستور .

ومثل ميرفت بكت كوثر وهى تستمع إلى نبإ طرد الملك ، واستشهد الوجيه نعمان الرشيدى بالقرآن لأول مرة فى حياته فقال :

ـ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ .

وتحمست منيرة للحركة بلا تحفظ وبتلقائية ، وأيضا متأثرة بحماس حبيبها سليمان بهجت الذى وضح أن أخاه ضمن الضباط الأحرار . ولحق بها محمد عندما آمن بأن الحركة «إخوانية» بل قد دعى إلى بعث النشاط من جديد فى شعبة حلوان . ودعا حامد برهان ابنه محمد إلى مقابلة عاجلة وكان على علم بما بينه وبين ألفت ، وقال له :

ـ ابعد عن الإخوان ، حسبك ما أصابك نتيجة لانضمامك البرىء إليهم . .

فقال محمد بدهشة :

ـ كيف أهجرهم بعد أن توج كفاحهم بالفوز المبين؟

فقال الأب كاظما غيظه :

ـ ما هى إلا حركة بلا جذور شعبية فلا تعرض نفسك لغضب الشعب كما تعرضت سابقا لغضب الحكومة . .

فابتسم محمد ثقة وقال :

ـ الماضى مات قبل أن تمتد يد لقتله . .

واعتبرت الأسرة أن لها فى الحركة الجديدة عضوا ، وأنها تتحول به من أسرة مغمورة إلى أسرة حاكمة أو مشاركة فى الحكم ، واعتبرت منيرة أن لها عضوين ، أخاها وحبيبها ، وانشرح صدر سنية وخُيِّل إليها أن حلم تجديد البيت سيتحقق فى وقت قريب وأن متاعب المعيشة ستخف يوما بعد يوم ، حتى أحزانها الخاصة ستذوب فى النشوة الشاملة . وتطور محمد فى أحاديثه من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم ، فبات يقول سنفعل كذا وكذا ، وتمنت ألفت أن يلمع كالآخرين وأن يذلل العقبات المعترضة لزواجها . ودون أن تدرى مضت تهتم بالسياسة وبالدين متخذة من محمد مرجعا ومرشدا ، حتى قال محمد لنفسه :

ـ إنها مختلفة تماما عن أمها التافهة .

وذات يوم سأل منيرة :

ـ كيف تتصورين موقف ماما منى إذا كاشفتها بعلاقتى بألفت؟

ففاجأته منيرة قائلة :

ـ أخبرتها رحمة بها!

فهتف :

ـ لكنى لم أشعر بأى تغير من ناحيتها!

ـ ألا تعرف ماما؟!

وكانت سنية قد رأت ألفت مرارا من نافذة حجرة نومها الخضراء. وكالعادة تنبأت بما سيحدث فوطنت النفس على التسليم به. وقالت إن حظها على أى حال أحسن من حظ ملكة مصر الضائعة، وإنه من الحماقة أن تتحدى أحداثا تحمل فوق جبينها طابع القدر. ولكن كيف يستعيد البيت شبابه؟ سيمسى ذلك حلما لا يتحقق إلا بحلم ولا يبقى لها إلا أن تعبد الله. وذات مساء راح حامد برهان يشرح خبايا الموقف السياسى لسماره قائلا:

ـ ما الحركة إلا مؤامرة أمريكية للقضاء على الوفد!

وأراد أن يحلل رؤيته ولكن حماسه فتر فجأة. وصمت. وشحب لونه وتفصد جبينه عرقا رغم برودة الجو. وطرح جسمه البدين على ظهر الفوتيل الكمونى، فسأله حسن علما المهندس بقلق:

ـ مالك؟

حاول أن يبتسم فعجز، خانته قواه، لاح له وجه بوذا، ثم أسبل جفنيه. وحملوه إلى فراشه، استدعت ميرفت طبيب الضاحية فشخص الحال بأنه هبوط فى القلب وأمره بالراحة التامة. انزعج الأهل والسمار، وذهبوا فى تفسير الحال مذاهب شتى، قالوا إنها الانفعال السياسى المستمر، وقالوا إنه الزواج دون غيره، حتى قال جعفر إبراهيم:

ـ إنها مشيئة الله.

ولما عرف الخبر خارج شقة ميرفت عاده محمد ومنيرة وكوثر ونعمان الرشيدى، وعادته أيضا سنية المهدى خاصة وأنه لم ينتزع من نفسها تماما رغم كل شىء. أجل ضاق صدرها لدى اقتحامها لحصن ضرتها ولكنها صافحت لأول مرة ميرفت وألفت، وانحنت فوقه متمتمة:

ـ شد حيلك!

ابتسم معلنا امتنانه، وتأزم الجو بتوتر خفى، وتضاربت شعارات المجاملة مع الانفعالات العدوانية الباطنة. وعلمت ميرفت بأنه لن يخلو يوم من أيامها من التنغيص لرؤية الوجوه التى لا تطيقها. وطال الرقاد، وعرف أنه سيطول أكثر، بل عرف أن حامد برهان لن يرجع إلى سابق عهده أبدا. وأصبح تمريضه عبئا على امرأة صاحبة مزاج كميرفت. ولم يفقد المرض حامد برهان حساسيته فسرعان ما شعر بأنه غريب فى مرقده، وضاق بموقعه. ووجد فى قهر المرض ما شجعه يوما على أن يهمس لمحمد ابنه:

ـ أريد أن أرقد عندكم..

وفى الحال قال محمد على مسمع من ميرفت مخاطبا أباه:

ـ لو رقدت عندنا لأعفيتنا من زيارات لا نهاية لها!

وأدركت ميرفت مغزى قوله، فقالت مدارية ارتياحها:

ـ إنى فى خدمته مهما طال الزمن!

فقال محمد بشجاعة رجل شارع فى الزواج من ابنتها :

ـ هذا لا شك فيه . . ولكن يوجد عندنا كثيرون وأنت وحيدة . .

فقالت بلباقة وهى فى الواقع تختم علاقتها بالرجل :

ـ إنى راضية بما يريحه!

ولم تعارض سنية، وخالط حزنها على حامد ارتياح لاعترافه بأنها رفيقة المرض وأن بيتها هو المأوى. هكذا رجع حامد برهان إلى فراشه القديم بالحجرة الخضراء فاستقر السلام فى عينيه الجميلتين. ولم يكن بقى من جسمه الهائل شىء يذكر، وتجسدت الشيخوخة فى وجهه كأنما ألقيت عليه فى لحظة خاطفة. ونظر فيما حوله بسرور طارئ، وقال بصوت متهدج :

ـ أوحشتمونى يا أولاد . .

ولم يوجه كلمة إلى سنية قانعا بأن رجوعه يغنى عن أى قول. والحق أنه عندما جفت ينابيع شهوته لم يجد فى قلبه سوى حبها القديم كالكنز المدفون عندما تزاح عنه طبقة الأرض. وأن روحه ـ إذا حان الأجل ـ يجب أن تصعد من هذا المكان العتيق المبارك المعبق بأطيب الذكريات. وجعلت كوثر تنظر إليه طويلا ثم خانها صبرها فدمعت عيناها وقالت :

ـ تغيرت كثيرا يا بابا!

فوجم الحاضرون، ولكن حامد برهان ابتسم وقال بلسان مضى يثقل :

ـ وأنت يا بنت ألم تصيرى أما؟!

ولكنه سر الجميع بطمأنينته وأنسه بالمكان وأصحابه. وجاء يوم فى مطلع الربيع شديد الحرارة، فقال :

ـ لم أستحم منذ عهد طويل!

فقالت منيرة بإشفاق :

ـ نرجع إلى الطبيب.

فقال بمرح :

ـ الإنسان طبيب نفسه!

وذهب إلى الحمام معتمدا على سنية ومحمد، وجرى الماء على جسده فاجتاحته فرحة شخص اعتاد طيلة حياته النظافة والأناقة، وعاد إلى فراشه سعيدا وهو يقول :

ـ الإنسان بلا صحة أقل من حشرة.

ولما جاء الليل لم ينم. تدهور بسرعة مذهلة حتى صار شحوبا مركبا على هزال. وأرق الليل كله يتأوه وجسمه يكاد يتقصف. وجيء بالطبيب فاحتج على الحمام بلا تحفظ، ولكنه حرر روشتة على أى حال، وعند منتصف الليل، وأهله محدقون به، أسلم الروح دون جهد كأنما غلبه نعاس مفاجئ. ودل الحزن الشديد عليه على تعلق الجميع به. سنية فاق حزنها كل تقدير. ولما لم يكن يملك مدفنا فقد دفن فى مدفن آل المهدى بالإمام. وأنكرت سنية حال المدفن التى آل إليها، ورأت أنه أصبح فى حاجة إلى تجديد كالبيت القديم، فانضاف ذلك إلى الهموم التى استأثرت بها فى الزمن الأخير. ولعل كوثر كانت أحزن الإخوة عليه لطبعها الذى يستجيب للحزن بقوة غير عادية، ولأنها أحبت الرجل لدرجة العبادة حتى إنها غفرت له زواجه من ميرفت قبل محمد ومنيرة بزمن غير قصير. وعند مطلع الصيف رجع الموت لزيارة الأسرة فأخذ نعمان الرشيدى زوج كوثر متسمما بالباولينا عقب تدهور الكلى. ولعل الموت أراحه من رعبه الذى لم يكف عن مطاردته منذ جاءت الثورة. أجل، لم تكد تمسه قوانين الإصلاح الزراعى إذ إن مصادر ثروته ترجع إلى العمارات والأموال السائلة ولكنه اعتقد بأن دوره حتم مؤجل وأنه آت لا ريب فيه. وبكته كوثر بحرارة وصدق، ولكن سرعان ما أفاقت على تحرش أبنائه، فخف محمد إلى جانبها بأخوته وخبرته كمحام، ولكنها قالت له من أول يوم:

ـ أبعدنى عن التحديات فلا شىء فى الدنيا يساوى الشقاء.

فقال بتصميم:

ـ حقك تأخذينه لآخر مليم.

فقالت بضراعة:

ـ حقى مكفول بالقانون، ولكنهم ينظرون بطمع إلى الفيللا، وهى كبيرة ولا أطمئن فيها وحدى وأريد أن أعود إلى ماما فى حلوان.

ورجعت كوثر إلى حلوان حاضنة رشاد، وانهمك محمد فى فرز إرثها هى وابنها من الأرض والعمارات والأموال السائلة ثم انقطعت الصلة بآل الرشيدى إلى الأبد. ورحبت الأسرة فى باطنها الخفى بثروة كوثر. وانبعثت فى صدورهم آمال لما هو معروف عنها من طيبة واستكانة فاعتبروها هدية مرسلة من السماء حاملة الفرج لأزماتهم المستعصية. منيرة توغلت فى العمر حتى قاربت الثلاثين وهى ملهوفة على الزواج، ومحمد يشعر بأن عهد خطوبته طال أكثر مما ينبغى، حتى سنية تتوق بكل قواها لتجديد البيت والمدفن. تربصوا جميعا بأيام الحداد، ولما خفت الغيوم وواصل الراديو أغانيه. تشجعت سنية فقالت فى حياء مخاطبة كوثر:

ـ حبيبتى ألا ترين معى أن البيت فى حاجة إلى تجديد؟!

سرعان ما شعر محمد بالخطر يهدد مشاريعه فتبادل مع منيرة نظرة سريعة جمعتهما فى وجدان مشترك، فقال:

ـ البيت لا يعيبه شىء وهو يستطيع أن ينتظر.

فقالت سنية محتجة:

ـ إنه مأوانا على مدى العمر..

فقال بخبرة اكتسبها فى المحكمة:

ـ نحن فى حاجة إلى المعونة لا البيت..

وأشار إلى منيرة وإلى ذاته، ثم واصل ليخفف وقع كلامه:

ـ ولو على سبيل القرض!

فسرعان ما انهزمت سنية أمام رغبة محمد ومنيرة مؤجلة أحلامها إلى مستقبل مجهول، على حين تمتمت منيرة ضاحكة:

ـ ولو على سبيل الاقتراض.

ولكن كوثر على طيبتها كانت متمرسة بواجبات ست البيت منذ عملت مساعدة لأمها، وتعلمت منها مسك الدفاتر والحرص الحكيم وكراهة الإسراف، فكانت طيبة وحكيمة. وقد شاركت فى ميزانية البيت منذ أول يوم لها فيه مما يسر العسر وأضفى على البيت سلاما. ولم تغب عنها أزمة محمد ومنيرة، فمالت إلى إسداء المعونة ووعدت بها. وحدث أن جاءتها خاطبة عقب وفاة زوجها بثلاثة أشهر بعريس محترم يماثلها فى السن فانقبض صدر محمد ومنيرة، وقال محمد بنبرة الناصح:

ـ علينا أن نتأكد من إخلاصه.

ولكن من حسن حظهما أن كوثر أعلنت زهدها فى الزواج مرة أخرى، واهبة نفسها لرشاد الذى يملأ دنياها، ومتشجعة بطبع هادئ يوشك أن يكون برودا. وعلى أى حال فبفضلها أمكن أن تتزوج منيرة من بهجت سليمان، وأن يتزوج محمد من ألفت. تزوجت منيرة بعد أن صار حبها حكاية واختارت عشها شقة جديدة بالعباسية على مقربة من مدرستها، أما محمد فزف فى شقة بعمارة نصف جديدة بباب اللوق؛ ليكون على مقربة من المكتب من ناحية، وليمارس نشاطه السياسى فى مجاله المركزى. وخلا البيت القديم لسنية وكوثر ورشاد وأم سيد. وورثت كوثر لنظرة أمها المتطلعة وأشواقها الدفينة فأمرت بطلاء الحجرات بالزيت وتنظيف الحديقة وشراء بعض أصص القرنفل، ورغم أن ذلك لم يحقق من الحلم عشره إلا أن سنية سعدت به ولم تيأس من هطول الرحمة ذات

يوم، خاصة عندما يكبر رشاد الوسيم ويدعو الأصدقاء للزيارة كما كان يفعل جده حامد برهان. وفى سكرة الفوز الطارئة أشارت بحياء شديد إلى المدفن، ولكن كوثر قالت:

ـ ماما . . إنى أتشاءم من هذه السيرة!

فلم تلح، وأسفت، وقالت لنفسها «ما هو إلا البيت الباقى». غير أن قلبها فاض بالشكر. فلو أنها لقيت الحياة وحيدة بعد زواج منيرة ومحمد لاضطرت إلى استجداء أبنائها، ولتجهمتها الحياة كما تتجهمها الأحلام فالحمد لله على أى حال. وسعدت سنية أيضا لتوفيق منيرة ومحمد فى زواجهما كما استشعر ذلك قلبها فى زياراتها لباب اللوق والعباسية. وقالت يوما لكوثر:

ـ بهجت أثبت إخلاصه بصبره الطويل ولكنى غير مطمئنة لربيبة ميرفت . .

فقالت كوثر بهدوء:

ـ محمد يعرف كيف يتصرف . . .

وبرزت منيرة فى عملها التربوى أكثر بعد أن شملتها سكينة الحب، ودعا الأستاذ عبد القادر قدرى محمد إلى مشاركته فى مكتبه بعدما اعتقل أكثر من مرة لوفديته. قال يوما لمحمد:

ـ الوفدية أصبحت تهمة فانظر وتأمل!

وكاد محمد أن يجزع وهو ينتظر أن تسفر الثورة عن وجهها فتعلن حكم الإسلام ليحتل هو مكانته المشروعة. ولم يكن طموحه شخصيا فقط، فقد ملكته التجربة الدينية التى انساق إليها قديما هاويا وبمحض المصادفة، فبات يحلم بحكم الإسلام كأنه غاية من الغايات. وأنجب محمد شفيق وسهام كما أنجبت منيرة أمين وعلى وتورد الأفق. وإذا بأزمة تعترض سبيل الثورة، وصراع عنيف يقوم بين رئيسها الأول ورئيسها الثانى. وبين شد كادت تصفى به الثورة وجذب رجعت به إلى قواعدها انقض طوفان لتصفية الإخوان! وبدلا من أن يجد محمد نفسه على رأس مؤسسة أو وزارة ألقى به فى أعماق سجن رهيب. وبالرغم من أنه لم تثبت عليه تهمة إلا أنه قضى فى الاعتقال عامين، وخرج منه بعين واحدة وساق عرجاء. وهرع الجميع إلى شقة باب اللوق، واجتمعت للمرة الرابعة سنية وميرفت حتى قالت سنية لنفسها «قضى على ألا أراها إلا عند حلول المصائب». وضمت محمد إلى صدرها وهى تبكى وهتفت:

ـ عند الله الحساب يا بنى . .

وتقنع محمد بوجه جديد خبر الموت والعذاب، ولكنه تجلد أمام الأعين، وقال:

ـ إنى أحسن حظا ممن أهلكتهم المشانق أو غيبتهم السجون إلى الأبد.

وحاول أن يبتسم ثم قال بإصرار حقيقى:

ـ بقى لى إيمان لا يتزعزع.

وكان إصراره أقوى من صوته. الآن عرف الحياة والناس كما عرف الوحشية والعذاب. واستمد من أهله قوة أشعل بها شمعة فى عالم يموج بالظلام. وحانت منه التفاتة إلى ألفت فقبض على يدها ورفعها كأنما يقدمها إلى الجمهور فى حفل عام وقال:

ـ إليكم أفضل زوجة على وجه الأرض!

أجل، لقد صمدت فى المحنة. قامت بواجبها كمترجمة وربة بيت وحضنت شفيق وسهام بالرعاية متحدية النبذ والتحقيق والرزق المحدود. أثبتت أنها أقوى مما توقع محمد أو تصورت ميرفت، وأقامت على حب الزوج الغائب بتفان، وتحمست أكثر لمبدئه، ولما رجع شبحا محطما غمرته بالحب والحنان راشقة فى سمائه السوداء نجمة ماسية. وكانت كوثر تزورها كثيرا طيلة العامين، وعرضت عليها معونة، ولكن ألفت اعتذرت شاكرة وإن قبلت الهدايا لشفيق وسهام. فى تلك الأيام الحزينة قالت كوثر لأمها:

ـ ألفت هدية نادرة المثال.

فأجبتها سنية ـ ربما لأول مرة ـ وقالت:

ـ الشكر لله على أنها لم تعجن بطينة أمها.

ولم يكن تعريضها لميرفت من أجل مأساة الماضى وحدها، ولكن لرعونتها ـ عقب وفاة حامد برهان ـ التى صارت حديث حلوان. برزت كامرأة متصابية فى الخامسة والخمسين، متبهرجة، تنطلق بمفردها إلى الحديقة اليابانية أو السينما كأنما تعرض نفسها على الرائح والجائى. وجرى الهمس عن علاقة جديدة تتخلق بينها وبين حسن علما مهندس المبانى ـ أحد سمار مجلس المرحوم حامد برهان ـ ولما شاع ما يقال وملأ الأسماع تحولت العلاقة إلى خطوبة، وطلق المهندس امرأته، ولكن الزواج تأجل؛ إكراما لزوج ألفت السجين، وإن مورس بالفعل بصفة غير رسمية. وكانت كوثر تعلم بما يعلمه الناس جميعا، ولكنها قالت:

ـ ألفت معدن آخر والحمد لله!

وأخفى الخبر عن محمد فأمضى فترة نقاهة قصيرة، ثم رجع إلى مكتبه بعين واحدة وأخرى زجاجية وقلب متوثب للعمل. وغشى المحاكم وهو يعرج متأبطا حقيبته بذراع متوكئا بالأخرى على عصا غليظة. وانهمك فى عمله انهماك مؤمن معذب يحلم بطوفان نوح من جديد. ومضت سنية فى معاشرة آلامها التى لا شفاء منها، وأحلامها المعاندة المستعصية، مستوصية بالهدوء والصبر والرنو من حين إلى حين إلى الصورة التذكارية. ولكى تعفيها كوثر من بعض متاعبها استخدمت امرأة جديدة «أم جابر» كطاهية بعد أن اقتربت أم سيد ـ مثل أمها ـ من الستين، ولكى تستثمر جل وقتها فى رعاية رشاد الذى ألحقته بروضة الأطفال سابقا ابنى خاله ـ شفيق وسهام ـ وابنى خالته ـ أمين وعلى. هكذا

بدأ جيل الأحفاد، أبناء العشق والآلام، والوطن تتجاذبه عوامل الصراع الخفية من ناحية وأحداث البطولات من ناحية أخرى. وعرفت منيرة زوجها أكثر وأكثر، زوجا عاشقا وفحلا عملاقا، وساذجا فيما يتعلق بالثقافة أو الحياة العامة، ولم يخدعها اهتمامه المباغت بالسياسة عقب اكتشافه أخاه ضمن الضباط الأحرار، وابتسمت فى باطنها لأحاديثه عن الثورة ورجالها، وحملته على الماضى ومخازيه، ومرة قال لمنيرة مفاخرا:

ـ نحن نعتبر من الأسرة المالكة الجديدة.

فضحكت قائلة:

ـ على مهلك يا أمير!

رغم حماسها للثورة منذ ساعتها الأولى، والتى لم تتغير تغيرا يذكر بمأساة أخيها التى هزتها من الأعماق. على أن قلقا ساورها مذ طعنت فيما بعد الثلاثين. إنها تمضى وحدها مخلفة وراءها زوجها يزداد تألقا وفحولة، وجعلت تطارد كلمات أمها القديمة كلما نبضت فى خواطرها. واحتل سليمان بهجت مركزا ممتازا بقسم الخبرة بالزراعة بدفعة قوية من أخيه، وبدلا من أن يزيد من إسهامه فى ميزانية البيت ابتاع سيارة بالتقسيط رغم التحاق أمين وعلى بالروضة وارتفاع الأسعار ببطء ماكر. وذات مساء انفجرت قنبلة تأميم قناة السويس مبشرة بميلاد زعيم جديد. ليلتها قال بهجت لمنيرة:

ـ سمعت من مخضرم أن استقبال جمال فى عودته إلى القاهرة فاق استقبال سعد زغلول حين رجوعه من المنفى..

فوافقته منيرة رغم أنها لا تكاد تعرف عن سعد شيئا يذكر. ولم يستطع محمد أن يتذوق المغامرة بفمه المليء بالمرارة. واتفقت ألفت معه قائلة:

ـ معاملة إنسانية شريفة خير من بناء هرم.

فقال محمد:

ـ النبى عليه الصلاة والسلام أنشأ دولة إنسانية ولم يشيد هرما.

واستمع البيت القديم فى حلوان إلى النبإ العظيم. لم تفهم أم سيد ولا أم جابر شيئا، وتوقفت كوثر عن تعليم رشاد دقيقة ثم واصلت عملها بحماس، أما سنية التى لم تشغلها آلامها وأحلامها عن قراءة الجريدة والاستماع إلى الراديو فقد خفق قلبها، واقتنعت ـ رغم مأساة محمد ـ بأن زعيما جديدا يتخذ موضعه فى لوحة الزعماء الذين أحبتهم كما أحبهم زوجها الراحل. وسكر البلد بالنصر والعظمة، وانطلقت من صوت العرب زعامة عربية جديدة، وتضاربت الأنباء، واستفحلت الشائعات، حتى تجسدت الحقيقة فى صورة عدوان ثلاثى، ومرحت طائرات العدو فى سماء القاهرة ليلا ونهارا، تمطر قنابلها على المطارات والمواقع العسكرية. ومع أن الدبابات لاذت بأفنية العمائر إلا أن انتصارات

وطنية ملأت الجو كالعاصفة وتمزق الناس بين الحماس والترقب. وتابع محمد وألفت الإذاعات الأجنبية، حتى قال الرجل:

ـ انتهت حركة المجرمين، ولكن ما أفدح الثمن!

وقالت سنية لكوثر:

ـ أذنى سعيدة وقلبى كئيب!

فقالت كوثر مدفوعة بالخوف الذى ركبها:

ـ البلد خرب يا ماما.

فأشارت سنية إلى فوق متمتمة:

ـ لكنه موجود.

وآنست منيرة من سليمان بهجت ذعرا كأنه فأر مطارد. ودعا ربه قائلا بحرارة:

ـ اللهم لا تشمت بنا الأعداء..

وكانا يستمعان إلى صوت أمريكا بوجوم ويغوصان فى هوة خطوة فخطوة. ولكن هبت رياح شرقية وغربية فتناغمتا معا لأول مرة. احتجت أمريكا بجدية وصرامة. وتتابعت الإنذارات الروسية كالصواريخ حتى أجبر الغزاة على تصفية نصرهم بأنفسهم فى إذلال لا نظير له فى التاريخ. وتجلى نصر عجيب كما تتجلى فتاة الساحر من الصندوق ـ بعد غرز سيوفه فيه من جميع النواحى أمام المشاهدين ـ وهى تبسم فى مرح وأمان وثقة! وسرعان ما آمن الحى والجماد بأن الزعيم حقق ظفرا كالمعجزة وبأنه عملاق بين أقزام. وصادر أموال الإنجليز والفرنسيين، ضاربا للمضطهدين مثلا أعلى، واهبا للعرب زعامة جبارة، وانتفخ بالتالى كل مواطن نافضا عن كاهله ذل العصور، وآوى الخصوم إلى الجحور ولا مطمع لهم أكثر من النسيان. ودخل الأحفاد المرحلة الابتدائية وهم يتغنون بالزعامة والنصر. سبحوا فى بحيرة ناصرية صافية متطلعين إلى صورته الشامخة بانبهار وحب. ذلك البطل الذى بدأ به تاريخ مصر فى أعقاب جاهلية ترامى ظلامها آلاف السنين. أجل، حفلت المدارس الجديدة بمنغصات ـ كالكثرة العددية وندرة المدرسين المؤهلين وقصور البرامج ـ ولكن التلاميذ الجدد لم يشعروا بها، فعاناها أولياء الأمور وحدهم. أما كوثر فحلت المشكلة بمالها فكلفت الأستاذ جعفر إبراهيم ـ ناظر مدرسة على المعاش ومن سمار المرحوم حامد برهان ـ بإعطاء رشاد دروسا خصوصية فى العربية والجغرافيا والتاريخ، كما كلفت الأستاذ راضى أبو العزم ـ من السمار أيضا ـ بإعطائه دروسا فى العلوم والرياضة. وانتزع محمد وألفت من وقتهما المشحون بالعمل ساعات لمساعدة شفيق وسهام، على حين نهضت منيرة وحدها بعبء التدريس لأمين وعلى. وامتعضت مدام ميرفت من الحال من ناحية أخرى، فقالت لألفت:

ـ كيف ترضين لشفيق وسهام بالجلوس جنبا إلى جنب مع أبناء البوابين والخدم؟!

فقالت ألفت:

ـ مدارس اللغات والمدارس الخاصة باهظة التكاليف.

واستاء محمد لأسباب أخرى وهو يراجع كتب التاريخ والتربية الوطنية فضرب كفا بكف، وقال لألفت:

ـ إنهم يحشون عقول الأولاد بالأكاذيب..

وتضاعف استياؤه وهو يشاهد حماس شفيق وسهام وتغنيهما بالزعيم على مسمع منه، وهو لا يملك إزاءهما أية مراجعة، حرصا على سلامتهما، وسلامته أيضا أن يرددا أقواله فى المدرسة فيحدث ما لا تحمد عقباه. من أجل ذلك أخفى عنهما سر عوره وعرجه، وراح يغمغم:

ـ نحن فى زمن القهر والصمت!

ونشأ رشاد وسيما، ذا طول ورشاقة، أنيقا، مغرما بأمه وجدته، مغرما بالسباحة، مع اعتدال فى تحصيل العلم حتى ساواه أبناء خاله وخالته. وأحبته جدته أكثر من شفيق وسهام وأمين وعلى؛ لقربه من القلب والعين، ولأفضال أمه المحبوبة، ولأنها عقدت به تحقيق آمالها فى تجديد البيت والمدفن. أجل، بدا لعينى جدته ـ مثل شفيق وسهام وأمين وعلى ـ كأنه مخلوق بلا جذور، وكأنه لا يتنفس فى جو بيتها القديم. من ذلك أنه سمع مرة اسم سعد زغلول يتردد فى حديث، فسأل أمه ببراءة:

ـ سعد زغلول حى يا ماما؟

وانزعجت سنية رغم أنها بررت جهله بشتى الأعذار. ومن ذلك أيضا بروده إزاء أغانى أم كلثوم وعبد الوهاب وولعه بعبد الحليم حافظ والأغانى الإفرنجية، وتساءلت كيف دهمه هذا التمرد على تقاليد أسرته وذوقها؟! وأخير قالت بتسليم:

ـ إنهم مزعجون ولكن لكل جيل شأنه!

ومن شدة حبها لرشاد قالت أيضا:

ـ التنوع له جماله أيضا..

أما شفيق فكان أشبه الأحفاد بحامد برهان، فاق والده محمد فى ذلك، وكان ذا صوت مقبول يحاكى به الأغانى الخفيفة، وبشر اجتهاده بحياة مدرسية ناجحة، وكان يغالى فى عواطفه حتى يضيق به أبوه أحيانا، ويحول بينه وبين محاولة التسلط على أخته سهام. وكانت سهام صورة من عمتها منيرة فى جمالها البراق وذكائها اللامع فسُرَّ محمد بذلك سرورا لا مزيد عليه. وأما ابنا منيرة فقد عُرف أمين بالاجتهاد كما عُرف على بالعناد، واتفقا معا فى طول غير عادى، حتى قال سليمان بهجت:

ـ هكذا كان والدى . .

واعتاد محمد ومنيرة ـ وأفراد أسرتيهما ـ أن يتناولوا الغداء كل جمعة فى البيت القديم مع سنية وكوثر ورشاد. توثقت الصلات بين الصغار، ووضح الخلاف بجلاء بينهم وبين آبائهم. وسعدت سنية بالزيارة الدورية سعادة خففت من وطأة آلامها الدفينة وأحلامها الملحة. وبإزاء تعنت أحلامها تحول اهتمامها مؤقتا إلى ذاتها. ند ذلك عنها دون شعور أو تخطيط، ولكنها انساقت إليه خطوة بعد خطوة، كأنما قررت أن تصون نفسها من شوائب الزمن. مرة لا تعجبها أسنانها فتمضى إلى طبيب الأسنان للتنظيف أو الحشو أو الوقاية. ومرة تتوعك عيناها وهى تقرأ فتذهب إلى طبيب العيون فيعد لها نظارة طبية. وعلى حين أن كوثر تتوارى فى زهد وتكبر قبل الأوان وتتعبد فى حماس فإن سنية ـ على تدينها وتقواها ـ ضاقت بأول شعرة بيضاء تحبو وسط شعرها الفاحم. كرهت منظر الشيب ووجدته متنافرا مع ما تحظى به من صحة جيدة. وفى الحال أحيت تقليدا كانت أمها تتبعه فى حياتها وهو صبغ شعر رأسها بالحناء فتحل الحمرة الداكنة المتفردة محل السواد التليد والبياض الوليد. وترى كوثر وهى ترمقها باسمة فتقول بوقار متغلبة على حيائها:

ـ إنها وصية جدتك يا بنت!

وهى فخور بنفسها، بذكائها واطلاعها الدائب، وتضع نفسها فى موضع أعلى من محمد ومنيرة المتعلمين فى إدراك أبعاد الحياة المعاصرة، بالإضافة إلى موهبة الحلم والحدس التى لم ينعم الله عليها بشىء منها، ولكنها كانت تكره الشيخوخة ومظاهرها وترنو إلى شباب دائم مازجة ذلك بحب صاف للحياة ولله خالق كل شىء. وفى لقاءات الجمعة لمست تطلع محمد ومنيرة لإعداد أبنائهما للطب أو الهندسة فخامرها قلق من ناحية حبيبها رشاد وما يستطيع أن يحققه لمستقبله. وتملت جمال سهام بنت محمد فرأت أنه سيكون هدفا يدور حوله رشاد وأمين وعلى، وأنه سيثير متاعب عاطفية فى أسرتها الممتحنة بعواطفها دائما وأبدا فسألت الله السلامة، وعزت نفسها متنبئة بأن صاحب القسمة والنصيب سيفوز بها قبل أن يقع أحد أقربائها فى حبها. وفى حماية العلاقة الأسرية نشبت مناقشات صريحة بين محمد وسليمان بهجت، تبدأ عادة عندما يذهب الأحفاد للعب فى الحديقة أو للمشى فى شوارع حلوان الهادئة المترعة بالنقاء والجفاف. يقول محمد متأسفا:

ـ حتى أمام الابن لا يأمن الأب أن يفضى بذات نفسه!

فيقول سليمان ومنيرة تضحك منه فى سرها:

ـ ملايين الفقراء لا يعرفون الخوف، إنه عهد الفقراء!

فيقول محمد:

ـ خير من ذلك أن يكون عهد الفقراء والأغنياء على السواء فالله خالق الجميع ومدبر لكل عملا صالحا يرضاه!

ومضت الزعامة الجديدة تتوطد وتعلو من سماء إلى سماء حتى وحد سحرها المتطاير ما بين مصر وسوريا فى وحدة باهرة. تجسدت القومية العربية كحقيقة زاحفة مثلما تتجسد فى الخيال كحقيقة تاريخية. وعبده الأحباب، وسلم به الأعداء مقرين بأنه ليس ابنا للمصادفات أو المؤامرات الأجنبية ولكنه ابن القدر المنذور لتغيير مجرى التاريخ. وانقلبت الرعية إلى نسور ودناصير، وتعملقت الدولة الجديدة، وألقت السماء بلسما ليداوى جرح أمة تمرغت فى التراب قرونا تحت أقدام القهر والعدوان. وما مضى وقت يذكر فى تاريخ الأمم حتى انتبه السعداء على جعجعة نيزك داهم على الوحدة فيفتتها فى لحظة مهداة للأحزان. أى رد فعل عنيف هز الناس المتزاحمين حول الراديو فى شتى المواقع! قال كل إنسان ما يشتهى. وانتفضت من جديد أصوات الشماتة والسخرية. وتلقى الزعيم الضربة بغضب، ثم ردها بعنف نحو مرمى جديد فانفجرت القرارات الاشتراكية، وحقق الفقراء نصرا تاريخيا من خلال معركة لم يقتربوا خطوة من ميدانها. وقال الأستاذ عبد القادر قدرى لمحمد:

ـ لم يعد للمحاماة وزن!

ـ كان الرجل فى الأربعينيات عضوا بمجلس النواب، وعين فى الخمسينيات عضوا بمجلس الشيوخ، وكان خطيبا ذا شأن وبرلمانيا ممتازا، وهو اليوم يبدو شاحبا هرما دائم الامتعاض، معدا حقيبته لأى اعتقال محتمل. وأدرك محمد أبعاد الموقف فأفضى به لألفت ثم قال:

ـ ستزداد الحياة عسرا.

واهتمت كوثر لأول مرة بما يجرى حولها. لم تمسها الإقرارات فى شىء، ولكنها شعرت بأن فوهة المدفع مسددة نحو القلعة التى تنتمى إليها، وسألت أمها:

ـ ماذا يخبئ لنا الغد؟

فقالت سنية:

ـ المخبأ فى الغد مكتوب قبل أن تخلق السماوات والأرض!

فقالت كوثر بإشفاق:

ـ إنى أفكر فى رشاد، وفيك أيضا يا ماما!

فقالت بهدوء:

ـ إنه رحمن رحيم!

وكانت تسائل نفسها هل يدركهم المد؟ قالت لنفسها إن قراراته ـ الزعيم ـ تجىء فى

صالح الفقراء الذين لا يملكون فلا خوف على محمد ولا منيرة. أما كوثر فالأمر مختلف، وكذلك رشاد، فهما يملكان أرضا وأنصبة فى عمارات، وأموالا سائلة.

وقالت كوثر بقلق:

ـ العهد الذى فعل بأخى محمد ما فعل لا يعف عن كبيرة!

وراحت سنية تفكر. أما أحلامها عن البيت والمدفن فقد تراجعت خطوات. وفى أحد لقاءات الجمعة قال محمد لكوثر:

ـ اسحبى نقودك من البنك واحفظيها تحت يدك قبل أن يشمها الوحش.

فقالت كوثر بتلقائية:

ـ قد يسرقها لص عادى!

فقال لها:

ـ ابتاعى بها ذهبا وسجاجيد!

عند ذاك نظرت كوثر نحو زوج أختها سليمان بهجت كأنما تستطلع رأى الجهات الرسمية، فقال:

ـ خير الأمور الوسط.

ومالت لرأيه داعية الله أن يحفظ مال رشاد. وفى طريق عودتهم بسيارة سليمان بهجت الفيات قال محمد:

ـ لا أمان لأحد!

قالت منيرة لنفسها تجنبا لإغضابه: «٩٠٪ من الشعب ثملون بالأمل». وعاد محمد يقول:

ـ ما هى إلا قرصنة وإلا فلماذا يعيشون عيشة الملوك؟!

فقال سليمان بهجت:

ـ حتى فى روسيا يعيشون كذلك!

فقال محمد:

ـ رحم الله ابن الخطاب!

وتجلت رؤيا سنية فرأت البيت القديم يضىء بجدة زاهية. رممت أركانه، وتجددت أبوابه وسلاليمه، ووافاه أثاث جديد، أما غرف النوم فحافظت على شرقيتها، ولكن العصرية شملت حجرات الاستقبال والسفرة، وبعثت الحديقة من جديد فاخضرت أرضها وانتشرت فوقها أشجار البرتقال والليمون والمانجو ودوائر الأزهار والورود، أما سورها الطويل فغطى تماما بالياسمين، ولمحت حامد برهان يقوم بعمل البستانى مستردا صحته وبدانته. سعدت جدّا، ولكنها سألت البستانى بعتاب:

ـ لم لَمْ تزرع شجرة حناء؟!

ولم تبح بحلمها لكوثر أن تتوهم أنها تذكرها بأحلامها فى وقت غير مناسب. وسرعان ما نسيت الحلم تماما عندما أذاع الراديو نبأ ثورة اليمن وموقف مصر منها. وفى أول لقاء عقب الحدث دار النقاش حوله بعد الغداء. قال محمد ساخرا:

ـ أصبحنا أوصياء على ثورات العالم!

فقال سليمان بهجت:

ـ ما هى إلا نزهة تحل بعدها اليمن مكان سوريا.

فقال محمد بعناد:

ـ ما زالت أغلبية الشعب حفاة!

ـ لا تنكر أنكم كنتم أول من شارك فى الثورة على الإمام!

ـ اشتراك الفدائيين بطولة، أما الدولة فمسألة مختلفة تماما.

فسأل سليمان سنية مداعبا:

ـ ورأى أمنا الحكيم؟

ولكن سنية قالت باقتضاب:

ـ صدرى لا ينشرح للحرب..

فقال محمد متهكما ومعلقا على اشتراك الجيش المصرى فى الحرب:

ـ كأنه قرار إسرائيلى!

وسرعان ما شغلت سنية بأمر آخر. جعلت تقارن بين منيرة وسليمان بقلق. لم يتجلى الكبر فى وجه منيرة بسرعة؟ لم يزداد زوجها فتوة وشبابا؟ ما زال بينها وبين الأربعين بضع سنوات، ولكن سحر جمالها ينطفئ بمعدل غير طبيعى. ولعلها ليست على ما يرام. إن قلبها لا يخطئ. حياتها تدعو للسرور بعكس ما يبدو. أمين وعلى يطويان المرحلة الابتدائية بنجاح، زوجها نال فى عمله أضعاف أضعاف ما يستحق، هى نفسها ستعين ناظرة دون نقل إلى الأقاليم بفضل أخى زوجها، ولكن فارق السن بينها وبين زوجها يتسع بسرعة غير معقولة ولا مقبولة. محمد نفسه ألف عوره وعرجه وتراجع رزقه، وها هو ذا يمضى فى حماية إيمان لا يتزعزع، وزوجته سعيدة. والتقت عينا منيرة بعينى أمها فقرأت صفحة طويلة وخُيّل إليها أن سرها انكشف. هل تفضح عيناها مخاوفها الباطنة؟! الحق أنها استشعرت تغيرا غير حميد فى قلب سليمان وسلوكه معها. قالت مرة لنفسها وهى وحيدة:

ـ لم أتزوج رجلا واحدا ولكن جملة رجال فى رجل.

واستعاذت بثقافتها فقالت أيضا :

ـ لعل هذا ما يئول إليه الحب !

وتذكرت كلمات ومواقف تهادت إليها على مدى العمر من علم النفس والروايات والمسرحيات والأفلام، على أنها كرهت أن تفتح أمها ذلك الباب . وإذا بسليمان يقول مغيرا مجرى الحديث :

ـ أخيرا قررنا إدخال التلفزيون فى بيتنا !

كانت منيرة من رأيها التريث حتى يعرف أثره على الأولاد، وتبعتها فى ذلك كوثر ومحمد، غير أن سليمان قال لها :

ـ لا يمكن أن نعيش خارج زماننا . .

وكانت أيضا فى قرارة نفسها مقتنعة بقوله فسرعان ما سلمت . وما إن ذهب الزوار حتى قال رشاد لأمه :

ـ تلفزيون يا ماما . .

ولحق بهما كذلك محمد . وفاقت فرحة الأحفاد بالتلفزيون كل تصور . فقد جاءهم إلى مجلسهم بنجومهم المحبوبين، والعالم كله، فضلا عن زعيمهم المقدس الذى عاشرهم ليلة بعد أخرى . ولما رأت سنية التلفزيون تذكرت يوم دخل الراديو لأول مرة فى بيتها . كانت أمها ما تزال على قيد الحياة فقالت :

ـ اقتربت القيامة يا أولاد !

وكان هدوء حلوان فى تلك الأيام البعيدة شاملا وعميقا حتى ليستمع فيه الإنسان إلى خواطره، لا كهذه الأيام التى مضى يتكدر فيها صفوه بإقامة العمائر بل والمصانع . وكانت هى فى غاية من السعادة وصفاء البال رغم أن الوطن لم يعرف الراحة قط . ويجىء الزمن كل يوم بجديد، وتكثر مسراته وأحزانه، ويتمزق القلب فى معاناة الحنين بين الماضى والحاضر . وأخشى ما تخشاه أن يجىء الأجل قبل أن يتحقق الأمل . ولما انتهى إرسال التلفزيون لأول مرة قالت لكوثر :

ـ سيزورنا العالم كل ليلة بكل ما فيه . .

فابتسمت كوثر، ثم نظرت إلى رشاد قائلة :

ـ لا يلهينك شىء عن المذاكرة يا حبيبى .

ولكن عصر التلفزيون كان قد بدأ . وثار فى صدور الأحفاد صراع بين الواجب والتلفزيون .

كان لمحمد مكتبة، وكذلك منيرة، وأقبل شفيق وسهام، وأمين وعلى، على كتب

الأطفال وغيرها إقبالا يبشر بالخير، وسوف يزداد ولا شك بدخولهم المرحلة الثانوية فى العام القادم، غير أن التلفزيون أثبت أنه منافس خطير فالتهم نصف وقت القراءة فى أول جولة ومضى يهدد النصف الآخر. وفى ذلك الوقت ناهزوا البلوغ فلفتهم حيرة مشرقة متحدية، وانطلقوا فى العطلة الصيفية مع الصحاب إلى الميادين والحدائق ودور السينما، واحتدمت المناقشات، وطالب كل فرد منهم باستقلاله الذاتى، فلم يتفقوا على شىء قدر اتفاقهم على القبوع ليلا أمام صندوق الدنيا الجديد بمتنوعاته التى لا نهاية لها، وضيافته الكريمة التى تمتد من الأصيل إلى ما بعد منتصف الليل. فى ذلك المعترك الجديد اعتقد رشاد أنه رجل البيت القديم، وأخذ يعرف أشياء عن ثروته المحفوظة ويستفحل أمره إزاء ضعف أمه وحب جدته له. ورأته كوثر اتفاقا ذات جمعة وهو يغتصب قبلة من سهام فى ناحية من الحديقة. ورجعت سهام منسحبة من ملعب الأحفاد إلى مجلس الجدة والآباء شاردة اللب. وخافت كوثر أن تشكو سهام إلى والديها ما ند عن رشاد ولكن الأزمة مرت بسلام. ولما خلت كوثر إلى أمها بعد ذهاب الزوار أفضت إليها بالسر فابتسمت سنية متمتمة:

ـ لعب برىء!

فقالت كوثر:

ـ سهام أنضج من سنها وعلى منيرة أن تفتح عينيها!

وتفكرت قليلا ثم سألت أمها:

ـ أينبغى أن أحذره؟

فكان جواب سنية أن نادت رشاد. أجلسته لصقها فى حنان وقالت مقتحمة الموضوع مباشرة كعادتها:

ـ قالت لى العصفورة إنك معجب ببنت خالك سهام؟

فتورد وجهه، ولكنه قال بجرأة ناظرا صوب أمه:

ـ إنى أعرف هذه العصفورة!

ـ ماذا تريد منها؟

فقال بجرأة أكثر:

ـ أن أتزوج منها يوما ما.

فابتسمت سنية، ولكن كوثر قالت:

ـ الاختيار الصحيح ما يقع فى الوقت المناسب.

ولكنه تجاهل أمه وقال لجدته:

ـ افعلى شيئا يا ستى!

وفى الجمعة التالية غابت عن المناقشة المحتدمة متحينة فرصة لإعلان طلبها. كانت المناقشة تدور حول «نزهة اليمن التى انقلبت إلى متاهة دموية متعطشة لدماء الأبطال وأموال الفقراء. قال محمد:

ـ أسمعت ما يقال عن أغنية أم كلثوم «أسيبك للزمن»؟ . . يقال إن الأصل هو «أسيبك لليمن»!

فقال سليمان بازدراء:

ـ اشتموا كيف شئتم بدماء الأبطال . .

فتساءل محمد جادا:

ـ أيرضى عاقل بذلك وعلى حدوده عدو كإسرائيل؟

فقال سليمان وقد بات يحلم بوكالة وزارة الزراعة:

ـ إننا أقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط.

ـ بفضل الملحدين!

ـ نحن نأخذ منهم السلاح والعدالة ولا شأن لنا بإلحادهم.

ونفد صبر سنية فقالت بصوت جهير مخاطبة محمد:

ـ هدئ روعك وأعطنى سهام لرشاد!

لم يفهم محمد مضمون الطلب لأول وهلة ولما أدركه تناسى انفعاله وقال بسرور خفى:

ـ الله . . الله . . ما زالوا أطفالا . .

فقالت سنية:

ـ ولكنى جادة تماما، ورشاد هدية . .

ـ وسهام هدية أيضا ولكن إعلان خطوبة الآن أمر يدعو للضحك . .

ـ هل ترفض؟

ـ أبدا . . . لنقرأ الفاتحة . . ليكن حجز حتى يجىء الوقت المناسب . . وعلىَّ أن أشاور البنت أيضا!

وتمت الموافقة وتم الحجز. واستمد رشاد من حبه الناشئ همة أكبر فى العمل، ولكن السباحة ظلت حائزة لاهتمامه الأول. وكان جل أصحابه من الرياضيين فكان فى السياسة والدين معتدلا، وعلى رغم شعوره بالثراء والأصل فإنه كان لطيفا سمحا محبا للناس تياها فى الوقت نفسه بقوته الجسدية وحسن منظره. وأمل أن ييسر له «الحجز»

إشباع حبه فى حدود البراءة، ولكن سهام ـ مع ميلها إليه ـ لـم تشجعه، وكفت ـ مرحبة بنصيحة أمها ـ عن مشاركة الأحفاد فى ملعب الحديقة، منضمة إلى مجلس جدتها، تتابع أحاديث السياسة بفتور، وتستاء لأقل إشارة تسىء إلى الزعيم. ولم تكن صفحة بيضاء فقد انسربت إلى أذنيها معلومات محرمة من زميلات فى المدرسة أو فى البيت سرعان ما ربطت بينها وبين ما تسمع من تلميحات فى التلفزيون. ولما كانت علاقتها بأمها علاقة صداقة فقد تجرأت على أن تروى لها بعض النوادر، التى لا تخلو من مغزى جنسى حتى نصحتها ألفت فى التدقيق أكثر فى اختيار صاحباتها. وبسبب من ذلك قالت ألفت لمنيرة ذات يوم:

ـ هذا التلفزيون يهيئ للبنت الصغيرة معلومات لا تتاح عادة إلا لشابة ناضجة!

فأدركت منيرة ما تعنيه، ولكنها تساءلت:

ـ أليس هذا أفضل؟

ـ فى الخير نعم، ولكن ليس فى الشر!

فتفكرت منيرة قليلا، ثم قالت:

ـ لعله أفضل أيضا!

فقالت ألفت باسمة:

ـ إنك ناظرة ومربية ولكن محمد له رأى آخر!

ـ لا خير فى بناء يقوم على الجهل!

ثم وهى تتنهد:

ـ مشكلة أمين وعلى أنهما يفقدان متعة القراءة يوما بعد يوم..

فتساءلت ألفت:

ـ أكان الأفضل ألا ندخل التلفزيون فى حياتنا؟

ـ لا جدوى من قرار يتخذ ضد تيار الحياة، المسألة هى كيف يمضى التطور بأكبر فائدة وأقل خسارة.. الواقع أننا نسىء إليهم بالمدرسة أكثر من التلفزيون ألف مرة..

ـ هذا حق، وحتى فى السياسة لا وزن لوعيهم السياسى، إنهم يؤمنون بالزعيم وبأى كلمة ينطق بها ولا شىء قبل ذلك أو بعده..

فقالت منيرة بارتياح خفى:

ـ بداية لا بأس بها فى مثل سنهم..

كانت مثل ابنيها ناصرية لحما ودما وكانت سعيدة بذلك. ليتها تسعد فى حياتها الحميمة كما تسعد فى حياتها العامة. وإن يكن الفتور آفة حتمية تقرض جذور الحب،

وإن يكن أثره قد تجلى فى حب سليمان لها فلم لا يحدث المثل فى حبها له؟! لم تصر على مكابدة حب ذلك الرجل الذى لا تعد مثالبه؟ ولم يقف عذابها عند هذا الحد وإنما بات يطاردها إحساس وحشى بأنها موشكة على فقده. وكانت سنية المهدى مستسلمة لخواطرها الحزينة عن منيرة عندما فاجأها محمد بزيارة عند أصيل يوم أحد فتوجس قلبها خيفة. سبقها إلى حجرة نومها الخضراء وجلس أمامها يرنو إليها كمن يتهيأ لإلقاء ما عنده ثم قال:

ـ ماما، بلغنى من مصدر فوق الشك أن سليمان بهجت متزوج من الراقصة زاهية!

اختلجت عيناها وراء نظارتها وساد صمت ثقيل. كانت مرتدية روبا بنيا ثقيلا، متلفعة بشال قطيفة أزرق، اتقاء لبرد قارص. ولما طال الصمت قال:

ـ تأكدت من الخبر تماما..

ساءلت نفسها: هل تتوارث المآسى؟ وكيف يقع هذا لدرة الأسرة؟! وتملصت من صمتها قائلة:

ـ الأخبار السيئة لا تكذب.

وساءلت نفسها: ألا يخلو أحد فى أسرتى من عاهة؟! قالت:

ـ الأمر لله، استمر..

ـ يجب أن تعرف!

ـ إنى خير من يبلغ الأخبار السيئة.. وبعد؟!

ـ ستطالب بالطلاق، ولكنى ضد ذلك إلى الأبد..

ـ أوافقك، ما هى إلا نزوة طارئة، ولكن يلزمنا طاقة خيالية لإقناعها..

ـ فليكن!

وسرعان ما استدعت منيرة، وعلى طريقتها فى مواجهة المصائب قالت:

ـ عندى خبر سيئ يا منيرة..

كان كالموت يفجر الإحساس بالمفاجأة رغم التسليم بمجيئه الحتمى. لم يجد جديد إلا الجهر بالوساوس المعذبة الخفية. لكنها اصفرت غضبا وارتسمت فى قسماتها صورة صارمة. قالت:

ـ أمر يثير التقزز..

ثم بحسم:

ـ الطلاق..

غطت سنية وجهها براحتيها متفكرة، ثم تمتمت برجاء:

ـ على مهلك!

ـ لامجال للتمهل أو التفكير . .

ـ التسرع فى قرار مصيرى غير مقبول .

ـ لكنه الحل الوحيد يا ماما . .

فقالت متنهدة :

ـ لا أراه كذلك . .

ـ لا مفر منه .

ـ حدث لى ما يحدث لك ، ولكننى لم أفكر فيه . .

ـ ذاك زمان مضى ، والملابسات جد مختلفة فأنا ناظرة مدرسة فكيف ألقى الرجال والنساء وهم يعلمون أننى زوجة لها ضرة راقصة !

ـ ما هى إلا نزوة ، فكرى بالبيت والأولاد والمستقبل .

وائتمروا جميعا على معارضتها وإقناعها بالصبر . والعجيب أن سليمان بهجت صمد للعاصفة ببلادة وثقة ، معتزا بحقه المطلق فى الزواج ، متناسيا عهد حبه القديم . وقال :

ـ علينا أن نتسامح مع أمور يتكرر وقوعها كل طلعة شمس . .

فقالت له بحدة :

ـ افعل ما تشاء ولكن خلصنى . .

فقال متظاهرا بالانزعاج :

ـ معاذ الله . . إنك الأصل والأم والأبناء . .

فهتفت بحنق :

ـ هل عملت حسابا للأولاد قبل أن تفعل فعلتك ؟

فقال بمسكنة :

ـ إنى أمر بمحنة وأنت عقل كبير ، ولكنى لن أفرط فى بيتى !

وجدت نفسها وحيدة مع فكرتها ، وفضلا عن ذلك فلم يكن الطلاق بيدها ، وأخيرا قال لها محمد :

ـ رجائى أن تؤجلى البت فى الموضوع شهرا !

فمنحها حلا تدارى به هزيمتها . وسافر سليمان بهجت إلى المغرب لحضور مؤتمر زراعى على مستوى البلاد العربية . ولما رجع إلى العباسية وجد منيرة قد جعلت من حجرة مكتبها مكتبة وحجرة نوم فأضافت إلى ركن منها كنبة تتحول إلى فراش عند اللزوم فاطمأن إلى أنها عدلت عن التشبث بالطلاق وإن قررت أن تنفذه فى الواقع . وشعر فى أعماقه بارتياح خفى فانطلق من أريحية مباغتة يقول :

ـ أنت أنت ، وكما كنت مذ ربط بيننا الحب .

كرهت محادثته كما كرهت النظر إليه . كانت تعانى أتعس لحظات حياتها . اندفن حبها تحت ركام من الحنق والغيرة والإحساس الأليم بالغدر . وغرقت فى حوار طويل مع نفسها المحمومة . إنها تستحق أضعاف ما حاق بها جزاء حبها لرجل تافه . قد تعذر على حبها فى سن باكرة ، ولكنها نضجت فلم تتلاش الغشاوة عن عينيها ، بل نضج الحب أيضا وتفاقم خطره . واغتفر الحب عيوبه ، فقبله رغم أنه ما هو إلا حيوان جميل ، بلا عقل ولا روح ، يحركه الطمع والمنفعة الرخيصة . وما حبها إلا شهادة ضدها . ملأ القلب دون أن تزحمه قطرة واحدة من الاحترام . هل يصح أن تهيمن على حياتنا قوة عمياء لا معقولة تزرى بما حصلناه من ثقافة وحضارة؟! إنه مخجل بقدر ما هو حقيقة واقعة . على ذاك فعقابى دون ما أستحق . وغمغمت بعذاب :

ـ غجرية ، لا ناظرة ولا مربية!

فلتقتلع من الآن فصاعدا جذور الحب من قلبها الضال . ولتكن مثل أمها فى الكبرياء فلا ترضى بمنافسة امرأة دونها . وقد قرأت لها أم سيد الفنجان وقالت وهى تقرب عينيها الضعيفتين من جوفه :

ـ بعد الشدة يجىء الفرج .

واقترحت حيلا من السحر والرقى وزيارة بعض الأضرحة المشهود لها بالفاعلية فابتسمت بمرارة ولم تنبس . وقالت لنفسها :

ـ لا دواء للغدر إلا الرفض .

على أى حال برئت من مطاردة القلق الوحشية ، وتحررت من إلزام نفسها ما لا يلزم ـ تشبثا بذيول جمالها ـ من رجيم قاس وزينة مبالغ فيها . الآن تستطيع أن تهب نفسها خالصة لعملها الجاد وابنيها الواعدين ، متأسية بأخيها محمد فى صبره وعزيمته وإيمانه . أما أمين وعلى فعلى دهشتهما لم يدركا أبعاد المأساة . كانت علاقتهما بأبيهما ودية وسطحية بخلاف أمهما المربية والمرشدة والصديقة . وقال أمين لعلى :

ـ بابا أخطأ .

فقال على :

ـ وأساء لماما . .

وكلما ظهرت زاهية فى التلفزيون تفرسا فيها باهتمام وفضول وحنق . وقال أمين لنفسه :

ـ بابا يتزوج للمرة الثانية ، أما أنا ففقدت سهام إلى الأبد!

لماذا؟ إنه ليس دون رشاد رواء، وأطول منه، وأذكى، ولكن الآخر غنى. ولعله لم يحب سهام كما أحبها رشاد، ولكنه لعن رشاد وسهام والجميع. وقال لأمه:

ـ الثورة معتدلة أكثر مما ينبغي يا ماما!

فدهشت منيرة وسألته:

ـ أتريدها شيوعية؟!

فتساءل:

ـ وما الشيوعية؟

فترددت قليلا، ثم قالت:

ـ هى الإلحاد!

فوجم. واعترف فيما بينه وبين نفسه بأن سهام أهون من أن يخسر بسببها دينه. وكانت منيرة تعرف عنه أكثر مما يظن فأحزنها أن تكابد ـ هى وابنها ـ مرضا واحدا، فأوشكت أن تنهزم أمام دمعة محتدمة. وقالت له بغموض:

ـ ما نتصوره ونحن صغار يتغير ونحن كبار!

أما على فكان يهيم ببلوغه فى واد غريب، عشق بطريقة عشوائية ميرفت هانم حماة خاله محمد. رآها عن قرب فى بيت خاله وهى تزور ألفت مصحوبة بزوجها الأخير الأستاذ حسن علما. لم يكترث لسنها الزاحف نحو الستين، ولكن بهرته أناقتها، وصوتها العذب، وشعرها الذهبى، وبشرتها المنيرة. سرعان ما عشقها انفراديا، وكانت أول امرأة من لحم ودم تحل فى قلبه المشغوف بكواكب التلفزيون. وقد نفخته بالغرور عندما قالت له وهى تصافحه:

ـ إنك فى طول رجلين معا.

واستوعبت المرحلة الثانوية جميع الأحفاد، التحق شفيق بن محمد وأمين وعلى بالقسم العلمى على حين التحقت سهام ورشاد بالقسم الأدبى. وبدأ رشاد يتكلم عن المستقبل متأثرا بما يقال فى مجلسه مع أصدقائه الرياضيين. حلم بحياة الأعيان ولكن صده عن حلمه قول الزعيم «من لا يعمل لا يأكل»، وهو زعيم قادر، وفى وسعه أن يحرم الأعيان الكسالى من لقمة العيش، فقال لأمه يوما:

ـ أزرع أرضى وأربى العجول!

فقالت كوثر:

ـ إذن اتجه إلى كلية الزراعة.

وفكر وفكر، ثم قال:

ـ الكلية الحربية أفضل . .

فتذكرت كوثر ويلات الحروب وقالت :

ـ لا ، لا تلق بنفسك إلى التهلكة !

فقال وهو يرنو إلى جدته :

ـ الأعمار بيد الله وحده .

لو تيسرت له حياة الأعيان لتزوج من سهام عند الانتهاء من الثانوية العامة ليسكت هذا الجوع الضارى الذى يغرز فى جوانحه خناجر مبللة بالشهد . وفى تلك الأيام خسر الاجتماع الأسبوعى للأسرة حرارة الشباب . ولم يعد يشهده إلا محمد ومنيرة وألفت ، ومع أن اختفاء سليمان بهجت لم يدهش أحدا إلا أنه لم ينقطع تماما ، كذلك سهام كانت تجىء فى أغلب المرات ، ولكن أين شفيق؟ أين أمين؟ أين على؟ ! وتسأل سنية المهدى فيكون الجواب إنهم فى رحلة ، سينما ، مع أصحاب . .

ـ ألا يبادلوننى الأشواق؟

فتقول منيرة :

ـ إنهم يحبونك يا ماما ولكن سرقتهم الدنيا !

غزت صداقة جديدة صدر شفيق ممثلة فى عزيز صفوت ، زميل المدرسة ، لأب بسيط موظف فى محل تجارى ، متقشف الحياة والمظهر ، لكنه متنوع الحديث ، ويعكس حديثه دأبه على غشيان دار الكتب فأثار حماس شفيق ، بل وسهام أيضا . وكانت ألفت تتابع حديثه أحيانا ، فقالت لشفيق :

ـ صديقك لا يعجبه شىء !

وقال له أبوه محمد :

ـ إنى لا أحب هذا النوع من البشر ، ولا أحب الاختلاط ، ولكنى أنصح ولا أفرض وصايتى ، والعاقل من لا يسلم برأى حتى يمتحنه .

وكان موقف محمد من العهد قد عُرف مع الزمن لشفيق وسهام ، كما عُرف لأمين وعلى ، فاستطاع الرجل أن يقول لشفيق أخيرا :

ـ الإسلام هو الدعامة والهدف .

فقال شفيق :

ـ وإنى لمسلم يا بابا ولكنى ناصرى أيضا !

ولم يكن عزيز صفوت ضد الناصرية ولكنه لم يكن ناصريا بالدرجة التى يرضى عنها شفيق أو سهام . أما إذا انفرد أحدهما بالآخر فى مقهى فكان حديث المرأة يستقطب جل الاهتمام . كانا يطاردان النساء بأعين جاحظة ، ويقول عزيز :

ـ حينا بولاق حى شعبى وبه فرص لا بأس بها!

فيقول شفيق:

ـ إنها أزمة لا حل لها.

فيقول عزيز متهكما ببنطلونه القديم وقميصه الرمادى الرخيص:

ـ تلزمنا سيارة أو شقة خصوصية!

ويطير خيال شفيق مستحضرا وجوه النساء بعمارة باب اللوق ويظل فريسة للسياط والجمرات. وقد لمح مرة أمين ابن عمته فى ميدان التحرير وهو ماض مع بنت تقاربه فى السن نحو محل دندورمة فأتبعه ناظريه فى حسد. وكان أمين سعيدا جدّا بصاحبته التى بدت إلى جانب طوله قصيرة. وكانت سمراء مسمسمة رشيقة. انتبه إليها كجارة، وحام حولها فى محطة الترام يوما بعد يوم حتى شجعته بابتسامة فتعارفا، وتقابلا، وتبادلا القبل كلما تيسر ذلك، فصارا حبيبين. وعرف أنها هند رشوان، ابنة ميكانيكى فى ورشة لإصلاح السيارات، فى المرحلة الثانوية مثله، وكبرى بنات أربع ثلاثتهن فى المرحلة الابتدائية. ولم يغتبط بالمعلومات ولكنه تجاوزها فلم تفتر همته، وكان يتنفس فى جو يستبق فيه «الخاصة» فى اكتشاف جذور شعبية لهم وقاية من العواصف. أما على فنعم وحده ـ وفى سرية تامة ـ بحب ميرفت هانم. وعلم بأنها كانت زوجة أيضا لجده حامد برهان فلم يثنه ذلك عن حبه، فاختزنه ضمن هواياته كالتلفزيون والولع بالخلوات. وشجعتهما علاقتهما الحميمة بمنيرة على مواجهة الحياة فهى تشاركهما فى روح العصر بخلاف خالتهما كوثر وخالهما محمد اللذين أطلا عليهما من نافذة زمن ماض مجهول. إنهم أبناء اليوم والغد ولا ماضى لهم، وهم رعايا دولة عظمى مهيمنة على العرب وإفريقيا، حليفة لدولة عظمى، ومتحدية لدولة عظمى أخرى! انحصرت مشكلتهم الملحة فى الجنس وهى ستحل بطريقة ما فى حينها. وارتفع صوت فى الراديو ينعى أثرا من آثار الماضى، جهله الجيل الجديد، وعرفته قلة كرمز للخيانة. نعى الراديو مصطفى النحاس. لم يترك الخبر أى أثر فى الأحفاد. اتسعت عينا كوثر ومنيرة لحظات ثم شغلت كل بما بين يديها. وكانت سنية تتمشى ما بين حجرة المعيشة والفراندا فى جو أغسطس الحار فسرعان ما أسلمت نفسها إلى أقرب مقعد وشخصت بعينيها إلى الحديقة المهملة فى تأثر شديد، ثم غمغمت:

ـ آه! لكل أجل كتاب.. إلى رحمة الله ورضوانه.

وتلقت من ذكرياتها الحميمة حزنا هادئا عميقا. أما محمد فقد نبض عرق قديم فى هيكله المتجدد فرأى الماضى والحاضر والمستقبل فى لوحة رمادية تقطر أسى ورحمة. وكان ساعتها يجالس الأستاذ عبد القادر قدرى فى حجرته فرآه يطرح جسمه على مسند كرسيه ويطوق رأسه براحتيه ويصمت طويلا، ثم يردد بخشوع:

ألا يا نفس أجملى جزعا   إن الذى تحذرين قد وقعا

ثم نظر إلى محمد بعينين مربدتين وقال :

ـ مات آخر الزعماء .

فلاذ بالصمت مشاركا فى تأثره ، فقال عبد القادر :

ـ سيشيع غدا فى جنازة لا تليق بمقام راقصة درجة رابعة . .

ولكن الجنازة كانت انفجارا بركانيا غير مسبوق بإنذار . شاهدها محمد من شرفة المكتب بشارع صبرى أبو علم فذهل ولم يصدق عينيه . وتساءل :

ـ كيف حصلت هذه الأسطورة؟!

أى طوفان من جموع بلا نهاية؟ أى هتافات تتطاير بشواظ القلوب؟ أى دموع تترقرق فى الأعين؟ أى حزن يغشى الشيوخ والشباب؟ أجل ، والشباب أيضا؟ وتساءل محمد :

ـ من أين جاء هؤلاء الشبان؟

كيف فرضت هذه الزعامة نفسها على القلوب ساعة الوداع بعد أن توارت عن السمع والبصر وغطتها أيدى الرقباء برداء النسيان . أما زال للوفد مريدون بهذا العدد؟ هل انضم إليهم كل محب للحرية ومحروم منها؟! اضطربت الجموع فى أسى حميم عميق شامل وكأنما تنعى الدنيا والأمل الوحيد . ولمح محمد الأستاذ عبد القادر قدرى تلاطمه الأمواج وراء النعش وهو يلوح بيديه بحماس يفوق سنه ، ولم يكن يتصور أنه يراه لآخر مرة ، فقد اعتقل مساء اليوم نفسه فيمن اعتقل من المشيعين المتحمسين ، وقضى فى الاعتقال عامين ثم توفى عقب الإفراج عنه بيومين . واختصت الجنازة بحديث طويل فى الجمعة التالية فى اجتماع الأسرة غير أن محمداً كان يدخر خبرا لا يقل عنها إثارة ، فقال مخاطبا منيرة :

ـ زوجك يبنى فيللا فى المعادى!

فتجلت فى عينى منيرة نظرة إنكار ، على حين تساءلت سنية :

ـ من أين له المال؟

فقال محمد وهو يغمز بعينه الباقية :

ـ إنه يؤجر شققا مفروشة استأجرها وهى خالية ـ بفضل أخيه ـ من عمارات الحراسة . .

ونقل وجهه بين الوجوه ثم واصل :

ـ إنه يستأجر الشقة خالية وتتعهد الراقصة بفرشها فهما شريكان!

فقالت منيرة بازدراء :

ـ ما ننال منه مليما فوق نصف مرتبه . .

فقال محمد :

ـ ويقال إن زوجته على علاقة مع المخابرات!

وانتبهوا ذات يوم والجيش يجلجل فى شوارع القاهرة . تابعت منيرة وأمين وعلى منظره المهيب من شرفة شقتهم بالعباسية . ورآه شفيق وعزيز صفوت بميدان التحرير . وسرعان ما ذاع وملأ الأسماع أن الجيش ذاهب إلى سيناء ليمنع تهديد إسرائيل لسوريا . وفى الحال تجسدت الحرب كحقيقة وشيكة الوقوع فى أخيلة الناس . وفى البيت القديم بحلوان نظرت كوثر نحو رشاد كأنما تطالبه بالعدول عن نيته فى الالتحاق بالكلية الحربية وتساءلت :

ـ ما هذه الحروب؟ كأنها أعياد موسمية!

ووجمت سنية . تذكرت حلما رأته ولم تحدث به أحدا . رأت القبر مفتوحا والأجداث داخله متراصة ، وأنها كانت تنادى شخصا ما ليسده ولكن صوتها لم يسمع . همست بالإشارة إلى الحلم ولو إشارة غامضة ولكنها عدلت وآوت إلى الصمت . أما كوثر فرجعت تقول :

ـ حلوان اليوم بها مصانع حربية!

ففكرت سنية ببيتها القديم وتساءلت :

ـ هل يتحمل بيتنا الانفجارات القريبة؟

ثم واصلت بشىء من الثقة :

ـ ولكن الرئيس يعرف ما يصنع .

وفى شقة باب اللوق دار حديث الحرب بحضور محمد وألفت وشفيق وسهام وعزيز صفوت . تساءلت ألفت :

ـ ماذا يعنى إغلاق المضايق وانسحاب الجيش الدولى؟

فقال محمد بسخرية :

ـ يعنى أن سفن إسرائيل كانت تمر فى أمان منذ عشر سنوات أو منذ النصر المزعوم . .

ولكن عزيز صفوت أجابها متجاهلا سخرية محمد :

ـ إنها الحرب يا سيدتى!

فتساءل محمد :

ـ وجيشنا موحول فى اليمن؟!

فقال عزيز صفوت :

ـ نحن أقوى قوة فى الشرق الأوسط، والرئيس لا شك فى أنه يعرف لقدمه قبل الخطو موضعها . .

فكظم الرجل غيظه، على حين قالت سهام :

ـ كلماته مليئة بالثقة والقوة!

ظن محمد لحظة أنها تصف حديث عزيز صفوت، ولكنه سرعان ما أدرك أنها تعنى زعيمها، ثم لعن الثلاثة فى سره. وفى العباسية لاحظ أمين قلق أمه، فقال لها :

ـ نحن أقوياء يا ماما .

فقالت منيرة :

ـ إنى مؤمنة بذلك وهو ما يقلقنى، ليست إسرائيل بمشكلة، ولكننا إذا اخترقنا حدودها فسنجد أنفسنا وجها لوجه مع الولايات المتحدة . .

فقال على :

ـ معنا الاتحاد السوفيتى!

فتساءلت :

ـ أتظنه يقدم على دمار العالم من أجلنا؟!

فقال على بإصرار :

ـ ولا الولايات المتحدة تقدم على دماره من أجل إسرائيل!

فاعترفت منيرة قائلة :

ـ الحق أنى فى غاية القلق . .

وجاء سليمان بهجت فى زيارة طوارئ. كان يزورهم من حين لآخر وظلت علاقته بابنيه ودية وسلبية معا، أما منيرة فكانت تعامله معاملة رسمية. استمع لخواطرهم عن الحرب، ثم قال بنبرة العالم ببواطن الأمور :

ـ لا داعى للقلق ألبتة، وفى اعتقادى أنه لن تقوم حرب . .

ثم بعد هنيهة صمت :

ـ ولكن مبالغة فى الحيطة أود أن تقيموا معنا هذه الأيام فى الزمالك فهى آمن من العباسية . .

فقالت منيرة بهدوء وبرود :

ـ لك الشكر، لكننا لا ننوى هجر مسكننا ولا نجد ضرورة لذلك .

فلم يضايقها بإلحاحه، ولعله لم يتوقع قبولا من الأصل، وقال :

ـ روح البلد عالية جدًا . .

فسأله أمين :

ـ ألسنا أقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط؟

فأجاب بيقين :

ـ هذا مفروغ منه، ولكنى لا أتوقع حربا على الإطلاق!

وقضى الأمر. فى الساعة التاسعة من صباح الاثنين ٥ يونيو ١٩٦٧ دوت صفارة الإنذار وقضى الأمر. بدا كل شىء هادئا فى القاهرة عدا جموع تجمهرت حول الراديو تتلقى أنباء عن انتصارات وطنية خارقة. وتابعت منيرة الأنباء فازدادت قلقا وساءلت نفسها :

ـ ما لنا لا نسمع عن هجوم؟!

ومرق محمد وألفت إلى محطة لندن وصوت أمريكا فدهمتهما أخبار أخرى، وتساءلت ألفت :

ـ ماذا يجرى؟ أتصدق هذا؟!

فقال محمد وعواطف متضاربة تتنازع قلبه :

ـ أصدقه تماما، ما هو إلا بناء من الورق يقوم على الكفر والفساد..

وأخيرا أعلن عن بيان سيذيعه الرئيس على الشعب. استقر الكبار فى البيوت وانتشر الشباب فى الشوارع والمقاهى. انتظر الجميع ـ ملهوفين ـ البيان متوترين بانفعالات محتدمة. منقبة أعينهم فى الظلمات عن بارقة أمل. أليس ثمة رابطة وثيقة بين لسان الرئيس والأمل؟ أجل. إنه لا ينطق إلا مرسلا باقات من الآمال المنعشة لكنه ـ ذلك المساء ـ طالعهم بوجه جديد، وصوت جديد، وروح جديدة. اندثر رجل وحل محله رجل آخر. رجل آخر يتحدث عن نكسة، يشهر إفلاسا، يندب حظا، يحنى قامته العملاقة لواقع صارم عار عن الأحلام والأمجاد، ويلتمس مخرجا بائسا فى التنحى، مخليا مكانه الشامخ المتهدم لخليفة أراد له أن يرث تركته المثقلة باللامعقول والعار. خرقت الحقيقة الوحشية القلوب الملتاعة وتردت بأصحابها إلى قاع الهاوية، فاندفعت دموع من الأعماق الجريحة إلى الأبصار الزائغة. بكت سنية وكوثر أيضا بكت. بكت ألفت وسهام على حين تحجرت عين محمد، أما منيرة فغشيها بكاء طويل. واندفع شفيق وأمين وعلى وعزيز فى طوفان الجموع الصاخبة الغاضبة المحتجة يخوضون ظلاما دامسا، يتحدى صراخهم أزيز الطيارات وطلقات المدافع المضادة، وتطالب بالتنحى عن التنحى. وتتابعت أيام محمومة جنونية مليئة بالانفعالات والتحرشات والاعتقالات والانتحار. وبقى الرئيس وانتحر القائد، وفرغ الناس من متابعة الأحداث السياسية ليفتحوا قلوبهم لهلوسة تاريخية فريدة وليشاركوا بلذة جنونية معذبة فى حفلة زار عصرية شاملة. ماذا

حصل؟ كيف حصل؟ لماذا حصل؟ وأمطرت السماء شائعات، وسخريات، ونكات، ونوادر، ودموعا. وتفشت أعراض مرض مجهول فبدا وكأنه لا شفاء منه. وشهد اجتماع الأسرة جميع الأجيال كالماضى البعيد. بدا الكبار محزونين والصغار حيارى مبهوتين. وحزنت سنية لنفسها كما حزنت لأولادها وأحفادها. تذكرت حلمها الكئيب، تذكرت حامد برهان وجهاده الصغير الذى عاش تياها به، استرقت إلى محمد نظرة إشفاق، رنت إلى الأحفاد بشوق وعطف، وأصغت إلى صوت خفى تردد فى أعماقها يطالبها بأن تيأس تماما من تجديد بيتها وحديقته. من يفكر فى هذا الترف وهو فى جوف النيران المؤججة؟ وتمتمت:

- يا لها من أحزان!

فقال محمد ممتعضا:

- المسألة أننا نسينا الله فنسينا الله..

فقال سليمان بهجت وهو قاعد جسدا بلا روح:

- ما هى إلا مكيدة أمريكية!

فهتف محمد:

- لا عذر عن الغفلة والحماقة..

ثم تنهد فى غيظ:

- وتخرج الجموع للتمسك به بدلا من المطالبة بمحاكمته؟

ونظر صوب ابنه شفيق متسائلا:

- ماذا دفعك للاشتراك مع الجموع؟

فأجاب شفيق بوجوم:

- لا أدرى بالضبط، ربما خُيِّل إلىَّ أن الحياة لا يمكن أن تمضى بدونه!

وقال أمين:

- قلنا إن هدف العدو إقصاؤه فتمسكنا به تحديا لقرار العدو.

فضحك محمد بجفاء ساخرا:

- وهل يطمع العدو فيمن هو خير منه؟!

وصمت لحظات، ثم واصل:

- أعترف لكم بأننى سررت أيضا لبقائه، أجل، يجب أن يبقى على رأس الخراب الذى تسبب فيه، ليعانى معنا، وليتحمل مسئولية إصلاحه، هذا خير من الهرب إلى الخارج والتمتع بحياة أصحاب الملايين!

صمت شفيق وسهام وأمين وعلى ورشاد كأن الأمر لم يعد يعنيهم، أو أن «ناصريتهم» غرقت فى مستنقع من الحيرة. تخبطوا فى الظلام صامتين. أما سليمان بهجت فتردد طويلا قبل أن يقول:

ـ ثمة كلام عن تكوين جديد للجيش على أسس جديدة!

فأطلق محمد ضحكاته الجافة ثانية وقال:

ـ ما نحن اليوم إلا إقليم تابع للاتحاد السوفيتى، لم تنتصر إسرائيل والولايات المتحدة فقط، ولكن الاتحاد السوفيتى انتصر أيضا، أذنابه يقولون اليوم بكل قحة إن الاشتراكية أهم من سيناء..

وغمغمت سنية فى أسى:

ـ لنا الله.

وتساءلت سهام:

ـ أينتهى الوضع على هذه الحال؟

فخُيِّل إلى سليمان بهجت أنه مطالب بإجابة، فقال:

ـ كلا طبعا! سنجد أيضا فرصة لإعادة النظر فى شئوننا، ثمة عوامل فساد كانت تنخر فى عظامنا، يقال إن الرئيس نفسه كان ضحية من ضحاياها!

فقال محمد حانقا:

ـ قال إنه مسئول عن كل شىء، لعله أول صدق ينطق به فى حياته!

ففقد سليمان بهجت بعض أعصابه وقال:

ـ أعداء النظام شامتون كأن المصيبة حلت بوطن آخر..

فلوح محمد بيده محتجا وقال:

ـ إنهم محزونون لا شامتون، لقد بذل الجيل الماضى ما استطاع حتى وقَّت للاحتلال البريطانى وقتا ثم جاء الأبطال يحلمون بإنشاء إمبراطورية فانتهى سعيهم باستيراد احتلال جديد مارسته أصغر وأحدث دولة فى العالم، هى النتيجة الحتمية للجهل والغرور والفساد والاستبداد، واليوم تفصح الوجوه فلن ترى توازنا واستقرارا إلا عند الشيوعيين!

ـ لسنا شيوعيين على أى حال.

ـ ولكنكم ذيول لهم، لو صدقتم فى قتال إسرائيل عشر صدقكم فى قتال المسلمين لكتب لكم النصر..

فقال سليمان بضيق:

ـ الشعب الكادح يعرف بغريزته كيف يهتدى إلى رجله . .

فجاوز محمد حلمه قائلا :

ـ لا تحدثنى عن الشعب الكادح ، وحدثنى عن الشقق المفروشة !

اصفرّ وجه سليمان وأفصحت عيناه عما ينذر بإفساد اللقاء كله غير أن سنية قالت بصوت مسموع :

ـ لا . . لا أسمح بهذا ، نحن هنا أسرة ولا مكان بيننا لمعركة . .

وعلت الكآبة المجلس والمأدبة ، ولم ير سليمان بهجت بعدها فى البيت القديم ، لا بسبب نزاعه مع محمد فقط ، ولكن لأن التحقيقات أدانت فيمن أدانت زوجته «زاهية» مثبتة استغلالها لنفوذها المستمد من المخابرات لإثراء غير مشروع فقُضى عليها بالسجن خمس سنوات . وأصابت ضربات التطهير أخا سليمان الضابط فقُضى عليه بالسجن أيضا ، ووجد سليمان نفسه وحيدا ضعيفا بلا سند مطاردا بسوء السمعة مما اضطره إلى تقديم استقالته . وفى ذلك الوقت فرغ من بناء فيللا المعادى فأقام بها وحده منتظرا عودة زاهية . وأنعش أمل قلب سنية الجريح فتصورت أن الأحداث تمهد لعودة العلاقة بين سليمان ومنيرة إلى سابق عهدها ، ولكن منيرة قالت لأمها بصدق :

ـ لقد انتهيت منه تماما !

ولم يختلف هو عنها فى ذلك فوهبت منيرة حياتها كلها للعمل ولابنيها . وقد ترقت مفتشة وازدادت جدية فى حياتها ، وإذا بها تحج بصحبة محمد ذات عام ، وتواظب بعد ذلك على الفرائض مثل كوثر منتمية إلى أسلوب أمها فى التدين لا أسلوب محمد ، محافظة فى الوقت نفسه على «ناصريتها» ملبية نداء العاطفة فى ذلك أكثر من العقل ، ورافضة التخلى عنه فى سوء حظه ، قالت :

ـ ما هو إلا ضحية للاستعمار العالمى !

وسارعت إليها الكهولة مثل كوثر وأكثر ، ولكنها ـ من حسن الحظ ـ لم تلحظ تغير وجهها الجميل كما لاحظه الآخرون ، كما أنها لم تعد تستعمل أى أداة من أدوات الزينة . ووقعت مظاهرات الطلبة مفاجأة لها كما كانت مفاجأة لكثيرين . إنها أول تحد داخلى يواجه الزعيم من أخلص أبناء قبيلته . تردد الهتاف بسقوطه ، وتطايرت فى الجو السخريات المسجوعة . وتاقت الأنفس لحكم الشعب ولمعرفة الماضى على حقيقته . وجدت منيرة نفسها ممزقة ، ففى جانب يتظاهر أبناؤها ، وفى الجانب الآخر يقف زعيمها . وعجبت لموقف أمين وعلى كما عجبت لموقف شفيق وسهام . وسألت وهى تقلب عينيها فى وجهى ابنيها :

ـ أليس هو الرجل الذى ثرتم لإبقائه ؟

فقال أمين مرددا ما أفعم رأسه :

ـ يجب أن يكون الدور الأول للشعب!

ـ أتريد رجلا آخر؟

فهزَّ منكبيه قائلا :

ـ لا يوجد رجل آخر!

وتساءل على فى حيرة :

ـ ما جدوى التحقيق؟!

فسألت بإلحاح :

ـ أترومون تصفية الناصرية؟

فأجاب أمين :

ـ لسنا رافضين، ولكننا غير راضين!

ـ إنكم محيرون!

فقال على ضاحكا :

ـ نحن حيارى!

وكانت الجامعة تستقبلهم واحدا بعد آخر. اثنان منهما نالا ما أرادا فالتحق رشاد بالكلية الحربية رغم معارضة كوثر، والتحقت سهام بكلية الآداب مستهدفة قسم اللغة الإنجليزية. أما شفيق وأمين فقد أرادا الطب ولكن التنسيق حولهما إلى الهندسة، وأراد على الهندسة فمضى إلى كلية العلوم. وفى الجامعة دهمهم جو فائر بالبلبلة، صاخب بالأصوات الجهيرة المتضاربة. الدين.. الدين.. الدين، ما انتصرت إسرائيل إلا بالتوراة فالحرب يجب أن تكون بالقرآن. الماركسية.. الماركسية.. الماركسية، هى التى تقتلع مجتمعا متهرئا من جذوره الخرافية لتشيد فوق أنقاضه مجتمعا علميا عصريا، العلم.. العلم.. العلم.. ما انتصرت إسرائيل إلا بالتكنولوجيا، وأملنا الحقيقى فى العلم والتكنولوجيا. الديمقراطية.. الديمقراطية.. الديمقراطية، فما خسف بنا الأرض إلا الاستبداد. الناصرية.. الناصرية.. الناصرية، وما عليها إلا أن تخلص لمبادئها حتى نخلص لها. دوامة لا تسكن ولا تهدأ، والقلوب ثقيلة، والأنفس مريرة، والأفق متجهم، والشهوات مكبوتة، وأحلام اليقظة مرهقة. وقال شفيق لأبيه ذات مساء :

ـ نحن جيل من الضحايا، إنى أصدق من يقول ذلك..

فسأله محمد :

ـ ضحايا لمن؟

ـ لجميع من سبقنا!

فتغيظ محمد وسأله :

ـ ماذا تعرف عن مصر ما قبل الثورة؟

ـ دعنا من هذا وخبرنى كيف أريد أن أكون طبيبا فتأمرنى الحكومة أن أكون مهندسا؟

فقال محمد بامتعاض :

ـ اعرف وطنك، إليك مكتبتى فهى تحت أمرك . .

وعرف شفيق صديقه عزيز صفوت أكثر فأدرك أنه ماركسى . لم يفطن لذلك من قبل؛ لقلة معلوماته من ناحية، ولتركيز عزيز على نقد أوضاع شتى دون كشف النقاب عن هويته من ناحية أخرى . يلاحظ الآن أن الهزيمة لم تنل منه عشر معشار ما نالت من الآخرين فتذكر قول أبيه عن «توازن الشيوعيين»، ونظر إلى عزيز صفوت نظرة غريبة وسأله وهما يسيران بلا هدف وسط المدينة :

ـ لعلك ممن يفضلون الاشتراكية على سيناء؟!

فارتسمت ابتسامة فى وجه عزيز الشاحب، وقال :

ـ التوجه نحو الاشتراكية هو المكسب الحقيقى لثورة يوليو . .

فقال شفيق وهو يرمقه باستغراب :

ـ أنت ماركسى!

وراح الشاب يتحدث عن الهدم والبناء من جديد ففتنت الفوضى خيال شفيق واستجابت لها نفسه الحائرة . غير أن عزيز انقض على المقدسات بسخرية فاجرة لم يتوقعها شفيق فأحدثت عنده رد فعل مفاجئ رغم خفة تدينه . وبدافع من العناد والغضب والرغبة فى الجدل والاحتجاج على التطرف عارض آراء صاحبه وكأنه صاحب موقف بالرغم من أنه لم يعرف من المواقف إلا الناصرية التى زعزعت الهزيمة أركانها . ولما شبع من الجدل قال :

ـ إنى فى حاجة شديدة إلى امرأة!

فقال عزيز ضاحكا :

ـ توجد فرصة حسنة .

اعترف له بأنه يحوز صديقة، وأن لها أختا قد يجد فيها مطلبه . وزاده بهما علما فقال إنها من بنات المدارس، وإن أمهما أرملة فقيرة تتعيش من شراء الفاكهة نصف الفاسدة بأبخس الأثمان وتبيعها للفقراء . وإنها لم تضن على ابنتيها بالتعليم، ولكن الفتاتين اعتمدتا على نفسيهما فى الاستمرار فيه بلا موافقة أو رفض من ناحية الأم . قال عزيز صفوت :

ـ لى حجرة مفروشة فوق السطح، والتكاليف معقولة.

وذهب به ذات يوم إلى سطح البيت بعطفة بهان ببولاق. اخترق حوارى كئيبة لم يألفها من قبل، ولم يتنفس بارتياح إلا فوق السطح، ومد بصره جنوبا متجاوزا بضعة أسطح فرأى النيل يجرى فى شموخه ورأى شاطئه الآخر المجلّل بالأشجار والقصور والعمائر فى الزمالك. ومضى به عزيز إلى الحجرة المفروشة فدهمه منظرها بالوحشة! طولها أربعة أمتار وعرضها متران، على يسار الداخل كنبة وفى الجدار المواجه للداخل كوة وثمة مسمار مغروز فى الجدار الأيمن وأرضها مغطاة ببلاط معصرانى أغبر اللون. وجم شفيق ولكن الآخر لم يلق إليه بالا، وما لبث أن جاءت زكية محمدين فى بنطلون رمادى وقميص أزرق كاشف عن أعلى الصدر، مفروقة الشعر، مقبولة القسمات والهيئة، مفصلة الحمولات. تم التعارف والرضا، ولدى ذهاب عزيز أحبها حب الجائع المحروم. تحدثت بطلاقة وعفوية كأنها فى بيتها فخامره شىء من الأسف، ولكنه ضمها إلى قلبه بقوة واستماتة. وتواصلت العلاقة بترحيب وسعادة من ناحيته كأنما بلغ بها أقصى ما يتمنى. وحفظ لعزيز صفوت جميله، ولكن ذلك لم يمنعه من معاندته كلما تهجم على الإسلام، أجل، وجد نفسه يدافع عن الإسلام كأنه من تياره. ولاحظ أمرا أزعجه. قرأ أحيانا فى عينى أخته سهام إعجابا بآراء عزيز صفوت. انفرد بها ذات مساء وسألها:

ـ لعلك لا تدرين أنه ماركسى؟

فحدجته بنظرة محايدة ولم تجد ما تقوله فسألها:

ـ أتحبذين آراءه الشيوعية؟

فقالت بعد تردد:

ـ المسألة أنها جديدة ومثيرة!

ـ هل فرغت من الناصرية؟

ـ لا أظن..

ـ هل هان عليك الإسلام؟

فتفكرت قليلا، ثم قالت:

ـ غير معقول.

فقال وكأنما يصف نفسه:

ـ إنك لا تدرين لنفسك رأسا من رجلين..

وثمة مفاجأة أخرى كانت ترصد فرصتها، فما كاد رشاد يخطر فى بزته الرسمية كطالب فى الكلية الحربية حتى صارح أمه وجدته قائلا:

ـ آن لى أن أعلن خطبتى لسهام .

وتحمست كوثر لذلك بدافع لم تتبينه بل تمنت أن يتم الزواج فى أقرب وقت ، ورحبت بذلك سنية أيضا فحدثت به محمد وألفت . غير أن ألفت عندما فاتحت سهام فى الموضوع قالت الفتاة :

ـ آسفة !

فاستقبطت أنظار ألفت ومحمد وشفيق ، وسألتها ألفت :

ـ أتريدين مزيدا من التأجيل ؟

فقالت بصراحة :

ـ لا أريدها على الإطلاق !

ذهل الجميع وتبادلوا نظرات مستنكرة ، وقال محمد :

ـ ولكنك كنت موافقة طوال الوقت !

فقالت بهدوء وتصميم :

ـ الأمر كله كان عبثا ، ثم تبين لى أننى لا يمكن أن أوافق . .

هتفت ألفت :

ـ رشاد شاب ممتاز وغنى ووسيم وابن عمتك ، فكرى بما سيحدثه الرفض !

فقالت بتصميم أشد :

ـ أى شىء أهون من الكذب فى مصير حياة .

فقال محمد متأوها :

ـ إنى رجل مؤمن ، والمؤمن يؤمن بالزواج أيضا ، ولو كان لى مال لزوجت شفيق وهو رجل فكيف بالأنثى ؟ !

فقالت بصوت متهدج :

ـ لا أريد يا بابا . .

غلبه الإشفاق . تنهد قائلا :

ـ الأمر لله ، سأسلم بما أكره ، ولكنى حزين ، على نفسى وعليك ، على الأيام ، كل ما حاق بنا ، لقد ماتت جاذبية الأرض وتطايرت الأشياء فى الفضاء !

وبطبيعته التى تؤثر المواجهة سافر إلى حلوان . جلس فى حجرة المعيشة بين أمه وكوثر ورشاد وقال :

ـ إنى حزين يحمل رسالة حزينة !

وصب عليهم الحقيقة واضعا نفسه تحت شلالها كأنه ضحية ـ مثلهم ـ من ضحاياها . وقال :

ـ لم يعد لنا من سلطان على أولادنا!

جفت حيوية أرواحهم . تلقى كل منهم لطمة داهمة . ولم يعلق أحد بكلمة فتفشى الفتور حتى ذهب محمد . وسرعان ما بكت كوثر وهى تقول :

ـ ابنى خير شباب الأسرة!

فقالت لها سنية :

ـ سيغنيك بمن هى خير منها .

أما رشاد فمضى من توه إلى شقة باب اللوق ، فأخلى ما بينه وبين سهام ، وسألها :

ـ ماذا غيّرك بعد أن سمحت لى بأن أحبك وأعقد بك آمالى؟

فقالت سهام بصوت خافت :

ـ أعترف بخطئى وأسفى ، إنك شاب رائع ، ولكن لا حيلة لى . .

فازداد تعاسة وسألها :

ـ أيوجد شخص آخر؟

فأجابت بوضوح :

ـ كلا .

فصمت قليلا ، ثم قال :

ـ إذا كان الأمر كذلك فلم لا نجرب حظنا؟

فقالت بحزن :

ـ آسفة ، انس الموضوع كله وسامحنى إن أمكن . .

وانفرد محمد بألفت وسألها :

ـ هل يوجد شخص آخر؟

فقالت :

ـ أبدا ، إنها لا تخفى عنى سرا .

فهتف الرجل :

ـ هذا أدهى وأمر .

ولكن كان ثمة «آخر» . غير أن سهام لم تشر إليه لأنه لم يعترف بعد ، وقد تكون واهمة . فمما لا شك فيه أن ميلا خفيا دفعها باستمرار نحو عزيز صفوت! إنه يراسلها

بنظرات خاصة أبلغ من أى لسان. مضى زحفه وئيدا متواصلا حتى تفتح قلبها للحب، وعند ذاك فقط عرفت أنه شىء آخر غير الميل الذى وجدته ذات يوم نحو رشاد. وكان رشاد أقوى جسما، وأجمل صورة إلى وزنه المالى المعترف به. عزيز نحيل، شاحب الوجه، ذو ملامح شعبية ومظهر فقير، ولكن سحرها نور يشع من عينيه، وجدة أفكاره وحيوية روحه وذكاؤه البين. والحق أن عزيز ومض فى رأس ألفت دقيقة، ولكنها سرعان ما استبعدته كفرض يتعذر قبوله. . كان يزور شفيق كثيرا ويرى سهام كثيرا، وفكرة حجب ابنتها لم تخطر لها ببال، وكانت هى تجالسهم أحيانا وكذلك محمد. ثم ألم يسلم محمد نفسه بضرورة إلحاقها بالجامعة؟ قنع بضرب المثل الإسلامى لهم فى حياته اليومية وحثهم على تأدية الفرائض وما يتسع له وقتهم من ثقافة دينية، مسلما بعد ذلك أمره لله. لعل أمين ـ ابن منيرة ـ كان الأوحد فى الأسرة الذى شمت برشاد فى محنته لسابق شغفه بسهام. وظن أن فرصة طيبة تسنح له من جديد فعبر فوق علاقته بهند رشوان وأكثر من التردد على مسكن خاله محمد، وراح يتودد إلى سهام، ولكنه شعر منذ أول خطوة بأنها لا تشجعه ألبتة فلم يتماد فى تجربته وقال لنفسه ساخطا:

ـ ستكون صورة طبق الأصل من ميرفت هانم!

وندم على شروعه فى خيانة هند رشوان فكفر عن زلته بالتأكيد على إظهار حبه لها وتعلقه بها. وبالفعل دخل طورا جديدا من علاقته اتسم بالحرارة والجدية. ومضى يفكر فى المستقبل، وفى العقبات التى تعترض طريق الزواج مثل اختلاف مستوى الأسرتين، والانتظار الطويل الذى لا مفر منه، وتكاليف الزواج التى لا مفر منها أيضا. وعند ذاك تذكر ما يقال عن ثراء أبيه، ولكنه لم ينس «زاهية» التى ينتظر خروجها من السجن، والتى يقال إنها شريكته بل إنها القوة الحقيقية وراء استثماراته. بالإضافة إلى ذلك فإن نفوذ عمه انتهى إلى الأبد بدخوله السجن. أما عن دخل أسرته الخاص فإنه بالكاد ييسر لها معيشة عادية أبعد ما تكون عن الترف. وكم ود أن يخلو بهند رشوان لعله يروح عن أعصابه بطريقة فعالة وآمنة، ولكن أقصى ما أتيح له أن يختلس القبلات واللمسات فى شوارع العباسية الجانبية. ولم يخل فى حياته العامة عن عاطفية أيضا فكان أقل الأحفاد تمردا على الناصرية، وأعجب بأمه لتمسكها بها، وربما من أجل ذلك شعر بمأساة أمه الخاصة أكثر من أخيه على، وآنست منيرة منه ذلك فاختارته بخيالها، وأيضا عقب رجوعها من الحج شاركها فى الاهتمام بدينه متبعا أسلوبها متحاشيا أسلوب خاله محمد. ولاحظ خاله محمد رجوعه إلى ناصريته فقال له:

ـ إنى لا أفهمك يا أمين!

فقال أمين:

ـ معذرة، لا أستطيع أن أنسى الخلاص من النظام الملكى، الإصلاح الزراعى، تمصير الاقتصاد، التأميم، التعليم المجانى، مكاسب العمال والفلاحين، فلا الهزيمة ولا الفساد ولا الاستبداد سينسينى ذلك!

رغم ذلك لم يعد حماسه بالحماس الذى كان، لكنه كان شيئا ما بخلاف أخيه على. على خسر كل شيء وخسر نفسه أيضا. طحنته الخيبة، جفت ينابيع أحلامه، حدس طنين العداوة حتى فى الخلوات وفى الليالى القمرية. وكما صمم قديما ألا يقتنى قطة عقب فجيعته بموت قطة محبوبة فقد عاهد الله على تجنب المذاهب والزعامات عقب الهزيمة مصمما على الرفض وحده. وحزنت منيرة على حاله فسألته مرة:

ـ ماذا تحلم عن المستقبل؟

فقال بعصبية:

ـ ليتنى أجد عملا فى بلد أفضل!

فسألته بعتاب:

ـ وتهجر وطنك؟

فقال بوضوح وتأكيد:

ـ فى ألف داهية!

فقالت محتجة:

ـ ليس فى أسرتنا تفكير من هذا النوع!

فقال ساخرا:

ـ لنا فى السجن عم وزوجة أب!

وفى تلك الأيام تُوفى الأستاذ حسن علما آخر أزواج ميرفت هانم. اشترك على فى تشييع جنازته وخياله يحوم حول أرملته. خفق قلبه المحروم ونشط خياله الذى لم تبرحه المرأة مذ غزته فى بيت خاله. وتبلورت وراء إرادته اندفاعة متربصة مغامرة. ولأنه يعيش تحت مظلة من الاستهتار فقد اكتسب سلوكه جرأة غير معهودة. راح يعد الأيام حتى وافى يوم الأربعين، ثم سافر يوم الجمعة التالى إلى حلوان مساء؛ اتقاء للأعين. ودق جرس الشقة التى اتخذ جده حامد برهان منها عشا لعشقه وزواجه. وعرفته ميرفت هانم من أول نظرة فى بنطلونه الأزرق وقميصه الأبيض المفتوح الطاقة لاستقبال نسمات الربيع. دهشت، ولكنها رحبت به قائلة:

ـ أهلا..

فتبعها إلى حجرة الاستقبال وهو من الانفعال لا يرى. وجلس قائلا:

ـ جئت لأعزيك ولو متأخرا . .

فشكرته وهى تتفرس فى وجهه بارتياب . كانت ترتدى فستانا أسود يكشف عن ذراعيها وأكثر ساقيها ، ولم يمنعها الحداد من العناية بشعرها ووجهها فشع منها ذاك النور الباهر . ربما بدت أصغر من سنها ، ولكن العين لا تخطئ كهولتها خاصة كراميش الفم وما تحت العينين ، ولكنه كان ينشد هذه الصورة دون غيرها . وتذكرت هى نظراته التى استوعبتها فى أكثر من زيارة لبيت ألفت فلم تشك فى أن وراء الزيارة ما وراءها . أيمكن ذلك حقّا؟! وما عسى أن تصنع به؟ ودل ترحيبها به وتقديمها القهوة على أنها تترك الباب مواربا حتى ترى ما يجيء به الغيب . وكان من ناحيته عازما على ألا يتجاوز التمهيد ، فنظر إلى الصالون المموه بالطلاء الذهبى وقال :

ـ ما أجمل ذوقك!

فقالت باسمة :

ـ إنه يشبه طاقم مامتك .

وكان لمح على الجدار صورة المرحوم مكللة بغلالة سوداء فلم يدر ماذا يقول . ولم تشأ المرأة أن تزيد من حرجه فسألته :

ـ هل زرت جدتك؟

فأجاب مرتبكا :

ـ كلا .

ـ لعل أحدا لمحك؟

ـ كلا . . نور الطريق لا يسمح بذلك .

ـ إنى أشكرك على أى حال .

عند ذاك قام وهو يتساءل :

ـ هل تسمحين لى بالزيارة عند سنوح الفرصة؟

فقالت باسمة :

ـ إنه بيتك بغير استئذان . .

رجع من حلوان وهو يقول لنفسه : «إنها ذكية ولا مانع لديها» . وشغل بعد ذلك بامتحان آخر العام فى الكلية ، ثم استقبل عطلته الصيفية . وبلا تردد كرر الزيارة بجرأته المقتحمة ، وجلس وهو يقول :

ـ منعنى الامتحان من زيارتك!

كأن الزيارة واجب غير قابل للمناقشة . وسألها وهو يلاحقها بنظرات محمومة :

ـ وحدك دائما؟

فأجابت بأسى :

ـ تقريبا . .

وأفصحت نظراته عن رغبته بقوة لا يفى بها كلام . وقال لنفسه : إنها تفهمنى وتنتظر . وقال أيضا : لو كذب ظنى فلن أخسر من الدنيا أكثر مما خسرت . ولما جاءته بقدح ليمون مد يده فقبض على ساعدها . حدجته بنظرة متسائلة وهى مقطبة فشدها إليه بقوة ثم أحاطها بذراعيه . وسألته كالمحتجة :

ـ أأنت فى وعيك؟

فأجاب وهو ينهض بطوله الفارع :

ـ لم أفقده كله بعد .

هكذا شرعت ميرفت هانم فى غرامها الأخير . وسجلت تلك الليلة أول كلمة فى صفحته الموردة ، وحقق به على حلما قديما يائسا ، أما ميرفت فقدمت على مذبحة ولعها العارم بالحياة والشباب . والعجب أنه سعد مثلما سعدت وأكثر . والأعجب أن سيطرتها عليه فاقت سيطرته عليها ، فوفقت دائما إلى نفخه بالخيلاء والأريحية والجنون حتى باتت المستقر الوحيد فى الدنيا الذى يجد فيه ذاته وشفاءه وخلوده . وكانت سهام فى نفس الوقت يتفتح لها طريق آخر . امتعضت نفسها المتطلعة عندما علمت باضطرار عزيز صفوت إلى الانقطاع عن الدراسة بعد الثانوية العامة ليرتزق من مراسلة بعض الجرائد العربية . وكان عزيز قد يئس تماما من جذب شفيق إلى فكره ، بيد أنه ـ وهو بسبيل إقناعه ـ دفعه وهو لا يدرى إلى حضن الدين فلحق بأبيه . ولكنه حقق نجاحا عفويا مع سهام وهو ما لم يركز عليه من أول الأمر . عند ذاك انساق إليها بعقله وقلبه معا فباتت غاية حياته . وزارها فى الكلية ودعاها إلى لقاءات قاصرة عليهما دون شفيق ، فلما وافقت تلقى من الحياة بركة صافية . وناقشها برفق كمبتدئة ، ولكنه لم يصبر مع عواطفه المتأججة فقال لها :

ـ إنى أحبك ، من قديم ، ربما من أول يوم . .

وجد فى صمتها المحفوف بالرضا استجابة أخطر من استجابتها العقلية ، ولعلها كانت الاستجابة الصادقة الأصيلة القائمة على أساس مكين حقّا . قالت له :

ـ إنى آسفة لانقطاعك عن الدراسة .

فتساءل باستهانة :

ـ هل تعطيك الجامعة شيئا يعتبر الحرمان منه خسارة؟

ثم ضغط على راحتها بحنان وقال :

ـ لن أنقطع عن الثقافة أبدا .

وتساءل عما يدور برأسها من هموم المستقبل فرآه فى ضوء ساطع ، وصارحها بما رأى كالشهادة الجامعية وطبقة الأسرة والفقر ، فقالت :

ـ لا يهمنى هذا كله !

فقال لها :

ـ إنها مشكلات حقيقية ، ولكن فى العالم الذى يؤمن بها ، فإذا كفرنا بهذا العالم فلا وجود ثمة لها . .

وتحمست بدافع حبها لتقويض ذلك العالم المغضوب عليه ، ولكنها ترنحت على الحافة وهى تشعر بحاجتها إلى المزيد من القوة لتحقق واقعا جديدا . ومع أن جو أسرتها عوّدها على الصدق والصراحة إلا أنها أسدلت على أسرارها الجديدة ستارا لما تعرفه جيدا عن أبيها ، بل وأخيها الذى انضم إلى الأب من خلال عناده الجدلى قبل أى شىء آخر ، وقالت لنفسها :

ـ فلنؤجل المعارك إلى حينها !

ولكنها لم تستطع أن تعرف خواطرها عن «المستقبل» فسألت عزيز يوما وهما جالسان فى الجنفواز :

ـ ألديك صورة واضحة عن المستقبل ؟

فقال بهدوء لم يخل من امتعاض :

ـ عندما تكفين عن الاكتراث بهذه الشواغل أعرف أنك وصلت !

فصممت على أن تحوز ثقته مهما جشّمها ذلك من متاعب . وكان يجد فى زينات محمدين ـ أخت زكية صديقة شفيق ـ مفرجا عن توترات شبابه لينعم بصفاء الحب مع سهام غير أن زينات فاجأته ذات يوم قائلة :

ـ سأتزوج من تاجر ليبى وأسافر معه إلى ليبيا .

فقال لها قبل أن يفيق من المفاجأة :

ـ سيتاجر بك هناك !

فقالت دون مبالاة :

ـ أربح لى أن أكون سلعة هناك .

واختفت من حياته مخلفة أعصابه فى مهب الريح . واستأثر شفيق وزكية بحجرة السطح . والتحقت زكية بكلية التجارة ، وتوثقت العلاقة بينهما ملتحمة بالألفة وشىء من الاحترام ، حتى قال له عزيز صفوت :

ـ لم تعد علاقة عابرة، على الأقل من ناحيتك . .

فابتسم شفيق وتساءل :

ـ ألا تخشى أن تلحق بأختها ذات يوم؟

ـ فرض محتمل . .

فقال شفيق متنهدا :

ـ نحن نتدهور مثل مرافقنا العامة . .

ـ إنهم يستعدون للحرب . .

فسأله باهتمام :

ـ هل نقدم حقّا على هذه المغامرة؟

ضحك عزيز ضحكة غامضة، ثم قال بيقين كأنه أحد أعضاء هيئة أركان الحرب :

ـ فى اللحظة الأولى سوف ينقض الطيران الإسرائيلى على مرافق الماء والكهرباء والمواصلات تاركا مهمة تصفية النظام للملايين من سكان القاهرة!

فتساءل شفيق بقنوط :

ـ إذن لماذا ننفق الآلاف من الملايين؟

ـ لا حيلة لنا فى ذلك!

ـ والحل؟

فقال عزيز باسما :

ـ الحل فى الداخل!

فقال شفيق بمرارة :

ـ الحق أن مصر محتلة بالروس قبل الإسرائيليين!

فقطب عزيز قائلا :

ـ الإسرائيليون يأخذون، أما الروس فيعطون ولولاهم لانتهى كل شىء!

صمت شفيق بفم ملىء بالمرارة، ثم قال وكأنما يخاطب نفسه :

ـ تكون كارثة لو لحقت زكية بأختها!

وسبقهم رشاد نعمان الرشيدى ـ ابن كوثر ـ إلى خوض الحياة العملية وألحق بسلاح المدفعية. ولما بلغ سن الرشد تسلم تركته حائزا درجة من الثراء لا بأس بها. وقالت له كوثر :

ـ دعنى أخطب لك!

فقال ضاحكا :

ـ لا أتزوج على الطريقة القديمة .

فقالت بلهفة :

ـ تزوج بالطريقة التى ترضيك .

لم يكن جرحه قد اندمل تماما ، فقال :

ـ صبرك ، ليس فى الجبهة عرائس .

وأفزعتها كلمة «الجبهة» التى علمت بها لأول مرة ونظرت صوب سنية ، فقال لها :

ـ الجميع هناك ، والأعمار بيد الله .

فتساءلت كوثر فى كآبة :

ـ والاستنزاف والردع ؟ !

فقالت سنية :

ـ قلبى يحدثنى بخير والله حارسه .

تظاهرت بالشجاعة لتبثها فى روح كوثر ، ولكن حناياها درت إشفاقا على الحفيد الذى تحبه أكثر من الجميع . وصدقت نيتها على تلاوة آية الكرسى عقب صلاة العشاء ، ليلة بعد أخرى ، لتحل به ورفاقه بركتها . وكم انتظرت بلوغه سن الرشد لتفضى إليه بآمالها عن البيت والحديقة والمدفن ، وها هو ذا يبلغه وهو فى الجبهة فكيف يطاوعها لسانها على الكلام ؟ ! دائما وأبدا يعترضها الشوك وهى تقطف الوردة . بل هى أسرة لا يهادنها سوء الحظ أبدا . كوثر ، منيرة ، محمد ، رشاد وسهام ، وقبل هؤلاء تطل من أفق الذكريات مأساة حامد برهان ، فمتى تدركنا العناية الإلهية ؟ ! والعجيب بعد ذلك أن تولى شخصها كل عناية ورعاية كأنما تتحدى الشيخوخة الزاحفة . إنها تتردد على عيادات الأطباء فى مواعيد منتظمة ، تروى عطشها من مياه حلوان المعدنية ، تملأ رئتيها بالهواء الجاف المنعش ، وتطارد الشيب بالحناء متوجة رأسها دائما بهذا اللون الأرجوانى المهيب . وإذا لمحت على شفاه الأبناء ابتسامة قالت :

ـ علينا أن نعد أنفسنا للصلاة ونحن على خير حال !

وكم من مرة تنتقد فيها إهمال كوثر ومحمد ومنيرة الذى جعل من رءوسهم مرتعا للشيب يجول فيه ويصول دون معارض . وقالت لها أم سيد ذات مساء وهى راجعة من السوق :

ـ رأيت فى العتمة سى على ابن ست منيرة داخلا عمارة ست ميرفت !

فقطبت ثم قالت :

ـ لعله يزور زميلا له .

ثم مخاطبة نفسها :

ـ لم يفكر فى زيارة جدته !

وشكته إلى منيرة فى لقاء الجمعة ، وسألته منيرة بعد العشاء فى شقتهما بالعباسية :

ـ أذهبت أول أمس حقّا إلى عمارة ميرفت هانم بحلوان؟

انحشر قلبه فى حلقه وظن أنه انفضح ، غير أن منيرة أنقذته وهى لا تدرى ، فواصلت :

ـ لا تهمنى الزيارة فى ذاتها فلعلك زرت صديقا ، ولكن أما كان الواجب أن تمر بجدتك؟ عليك أن تزورها لتخفف من حزنها !

فازدرد ريقه قائلا :

ـ لم يتسع الوقت !

ثم بصراحة خشنة :

ـ والبيت القديم ممل !

فقالت بعتاب :

ـ لك جدة مدهشة لا تمل !

فلاذ بالصمت مستوصيا بمزيد من الحذر . ولما رجع رشاد لقضاء عطلته الدورية أثارت القاهرة انفعاله . هذه المدينة الخالدة التى تعيش بمعزل عن الزمان ! وصمم من بادئ الأمر على ألا يشير بحرف إلى حياة الجبهة الحقيقية . وبعد العناق قال :

ـ ليست الجبهة كما تتصورون ، ما هى إلا مبالغات وأوهام !

احتفظ بمعاناته فى سرية مقدسة ، كما دفن زلازل الانفجارات فى أعماق ذاته . ومرارة الهزيمة الموروثة عن غيرهم ، والمسئولية التى تنوء بمناكبهم عما حدث وعما يحدث وعما سيحدث . لذلك قذفت به الجبهة فى أعماق هموم عامة عاش أكثر عمره فى هامشها ، ولكن شد ما تبدو القاهرة لا مبالية معربدة متمردة ! وقال لأمه دون تمهيد :

ـ ماما ، إنى أفكر جادا فى الزواج !

فهتفت كوثر :

ـ ما أسعدنى بسماع ذلك !

وقالت سنية بمرح :

ـ رأيت ولا شك ما غيّر فكرك !

فقال بغموض :

ـ فى المرة القادمة تتضح الأمور!

الحق أنه فى ليالى المعاناة وردت عليه فكرة الزواج كإلهام مشرق. ووثبت إلى إرادته عندما رأى أخت زميل له فى القاهرة. ولم يكن حبا من أول نظرة، وجدها مقبولة وكفى، ولم يكن برئ تماما من سهام. وأنفق العطلة فى التسكع مع الزملاء. وزار خاله وخالته أيضا. وهناك صارحهم بما أخفاه عن أمه وجدته. وجد منيرة ملهوفة على المصير أكثر من الجميع، ولكنه لم يرو لها ظمأ. وقال رشاد بعتاب:

ـ القاهرة مشغولة بذاتها!

فسأله على:

ـ ماذا تتوقع غير ذلك؟

وقالت منيرة فى حيرة:

ـ الناس إما يحاربون أو يسالمون، أما نحن فقد اخترعنا حالا جديدة غير مسبوقة بنظير!

وفى بيت خاله محمد ارتفعت درجة الغليان درجات أكثر. هو أيضا ثمل بالأسى عندما رأى سهام وهاجت شجونه. ولما عاملته برقة وأدب وتحفظ كأن لم يكن بينهما شىء حزن أكثر. وقالت له:

ـ نتمنى لك السلامة.

فلم يحدث له أى سرور. أما خاله محمد فقد لخص الموقف من وجهة نظره قائلا:

ـ إنه يضحى كل يوم بأرواح بريئة ليدارى بها عاره!

فسأله:

ـ هل عندك حل يا خالى؟

فقال محمد:

ـ ولا حل غيره. اسمه الحل الإسلامى!

وشعر لأول مرة بأن شفيق منحاز إلى رؤية والده فأدرك مدى التغير الزاحف على آله فى غيبته عنهم ما بين الكلية والجبهة. لكنه لم يحزر مدى الانقلاب الذى حل بسهام. إنها الآن مؤمنة بالثورة المطلقة. أجل، لعب قلبها الدور الأول فى ذلك، كما لعب العناد الجدلى دوره فى انقلاب شفيق، ولكن النتيجة واحدة. وكانت تخوض عاصفة عنيفة وتشعر فى الوقت ذاته بأنها ليست إلا بداية. وما تدرى إلا وعزيز صفوت يقول لها:

ـ إنى أدعوك إلى حجرتى بدلا من التسكع!

وجمت، وتورد وجهها الجميل، وتمتمت:

ـ حجرتك!

فقال بعجلة:

ـ سحبت اقتراحى!

تساءلت عما يعنيه انسحابه؟ ارتاحت له كقرار، ولكنها انسحقت تحت وطأة القلق. دائما تلهث وراءه فحتى متى؟!

أما هو فقال بهدوء وحنان:

ـ ما زلت أنت أنت، سهام كريمة المربية الفاضلة منيرة وحامد برهان.

فقالت بعصبية:

ـ كلا، لا تسئ بى الظن، ولكن هذا لا يعنى..

وتوقفت عن الكلام، فقال:

ـ هذا يعنى أنك لم تتخطى المرحلة بعد.

فتساءلت:

ـ لم العجلة؟ لا توجد فى طريقنا عقبة حقيقية!

فتساءل باسما:

ـ ولم الصبر؟!

ها هو ذا يحاصرها فى ركن مستندا إلى امتلاكه قلبها حتى جذوره. ولدى اللقاء التالى تصرف تصرفا غاية فى الشذوذ، ولكن بطمأنينة وثقة كاملتين. مضى بها نحو طريق جديد ولما سألته عن وجهته أجاب:

ـ نحن ذاهبان إلى بولاق!

انساقت معه كالمنومة شاعرة بأنها تعبر حدود وطنها مهاجرة إلى الأبد. ونبض قلبه بالصدق وأعذب النوايا فتخيل أنهما جسد واحد ووعى واحد. ولما دخلا الحجرة شبه العارية استرق إليها نظرة متفحصة وقال:

ـ دون مقامك بما لا يقال.

فنظرت من الكوة صوب النيل وهى ترفع منكبيها استهانة فقال لنفسه: «إن هذه الحجرة ذات التاريخ الطويل فى سوء السمعة تستقبل ـ لأول مرة ـ صدقا وأصالة». ورغم تظاهرها بالثبات انتفض داخلها بتيارات متضاربة. وكانت رغبتها لا تقل عن رغبته، ولكنها لم تطاوعه بدافع رغبتها، أو لم تطاوعه بدافع رغبتها وحدها. وأقنعت نفسها بأنها لا تستسلم، ولكنها تثب إلى قمة فريدة، غير أنها شعرت من ناحية أخرى بأنها تتردى إلى قعر هاوية من الأسى الدائم. وحدست بغريزة ما أنه ـ على عنفه الظاهر ـ فى

حاجة إلى حنانها، وبأنها ستفتقد الحنان إلى الأبد. ووهبت الكثير دون أن تنال ذرة من عطاء لاضطرام عقلها، أما هو فمسح على وجهه فى ارتياح وتمتم:

ـ بكل بساطة ، هذا هو الزواج!

فامتعضت لهذا القرار المحفوف باليأس، ولكنها ابتسمت فسألها:

ـ كيف تشعرين؟

فأجابت وهى تلثم خده:

ـ بالسعادة.

ـ أعترف بأنك حظى من الحياة..

فقالت برجاء:

ـ لعلك لا تستسلم للحنق بعد الآن!

فتفكر قليلا ثم قال:

ـ إنه الوجه الآخر للحب العميق..

هكذا ولدت من جديد فى عالم جديد. تمادت فى التوغل فيه بكل قوة. لا اختيار لها فإما الثورية وإما الضياع. إنها تنفصل نهائيا عن أبيها وأمها وأخيها، وتعايشهم اليوم كفرد من طابور خامس. واستعرضت رحلتها الطويلة ما بين رشاد وعزيز فبدت خيالية، وأن كل خطوة تخطوها ينهدم ما وراءها فينقلب هاوية لا تسمح بالتراجع قيد أنملة. وغمغمت لنفسها:

ـ يوجد أيضا حزن عميق.

متى يتأتى لها أن تنشر أسرارها دون مبالاة؟! وضاعفت من اجتهادها الدراسى لهفة على الاستقلال. ولم يجدّ جديد بالنسبة لمشروع رشاد عن الزواج، ولم يحضر فى ميعاد إجازته الدورية. بدلا من ذلك بلغتهم أنباء رسمية بأنه يعالج فى مستشفى الجيش من إصابة غير خطيرة. هرعت إليه كوثر وسنية وهما على حال من الفزع لا توصف. وعرفا أن ثمة شظية أصابت ترقوته اليمنى تحتاج إلى اعتكاف قصير. وكانت إصابة كوثر أفدح من إصابته رغم أن حاله دعت إلى الاطمئنان التام. وقالت له كوثر:

ـ لن ترجع إلى الجبهة فيما أعتقد..

فضحك قائلا:

ـ سأرجع حال شفائى..

ثم وهو يربّت ظهر كفها:

ـ نحن نقترب من هدنة!

ولكن كوثر آمنت بأنها أيام حروب وفواجع . وقالت :

ـ كنا نستعد للزواج !

فقال ضاحكا :

ـ تبين لى أن فتاتى مخطوبة !

فقالت بضيق :

ـ ما أكثرهن لمن يشاء !

فقال مداعبا :

ـ تتكلمين باعتداد الخاطبة مع أنك لا تبرحين البيت إلا عند الملمات !

وكان أمين بن منيرة أول من افتتح عصر الشرعية فى جيله على غير توقع من أحد . وجد هند رشوان تواصل نجاحها فى كلية التجارة بهمة عالية فصارحته بأنها تود أن يخطبها وأنها باتت تضيق بسرية علاقتهما . وكان يحبها فوافقها على رأيها . واقتحم حجرة مكتبة أمه التى تقرأ فيها بعض الوقت كل مساء وجلس قبالتها . نظرت إليه متسائلة ، فقال :

ـ أريد أن أخطب !

دهشت منيرة وطالبته بمزيد من الإيضاح ، فقال ببساطة :

ـ هند رشوان جارتنا . .

أدرك دون جهد أنها لم تسر ، وكان يتوقع ذلك ، ولكنه كان واثقا بحكمتها أيضا ، أما أبوه فقد كتبت عليه الموافقة دون تردد بحكم المثل الذى ضربه ! وسألته منيرة :

ـ أواثق أنت بنفسك ؟

ـ بكل يقين يا ماما ، إنها فتاة ممتازة .

فأخفت معركتها الباطنية وقالت :

ـ على خيرة الله .

فقال ضاحكا :

ـ أيضا فى كل أسرة يجب أن يوجد ٥٠٪ من العمال والفلاحين !

فقالت مفصحة بعض الشىء عن موقفها الباطنى :

ـ ولكن الرئيس نفسه زوج بناته من الطبقة العالية !

ورغم شتى التعليقات كانت الخطبة أول حدث سار فى جو الأسرة . وقيل إنها خطبة تحمل طابع زمانها الغريب فى كل شىء . وشهدت الأسرة جميعا حفل الخطبة البسيط فى شقة الأسطى المتواضعة وفى مقدمتها سليمان بهجت . وتأثر رشاد بالطقوس ففاض قلبه

بالحنين، أما سهام فشعرت بوطأة سرها أكثر من أى وقت مضى. وتساءل على فى نفسه: «لم لَمْ تدع ميرفت حبيبتى؟»، أما شفيق فتذكر زكية محمدين مقرا بأنها لا تقل فى شيء عن هند رشوان، ولكنها تنتمى إلى طائفة المنبوذين! وأدركت منيرة من سياق الحديث مع أم هند أنها تحلم بزواج قريب عقب التخرج فساورها قلق وتساءلت: «متى يصبح أمين قادرا على الزواج حقّا؟!». وهذه الهموم تتضخم فى ضمائر أصحابها حتى تحاكى الأفلاك فى دورانها، ولكنها تذوب وتختفى إذا اصطخبت موجة عاتية. وانصبت هذه الموجة دون نذير وبلا مقدمات مثل زلزال. فذات مساء تغير وجه الإرسال التلفزيونى فاقتصر على إذاعة القرآن الكريم. ولفّت الحيرة الناس من كل جانب. قال البعض:

- هذا لا يكون إلا لموت عظيم فى الدولة.

- أو موت أحد ضيوفنا العرب!

- غير مستبعد أن يكون الملك حسين قد قُتل..

وإذا بأنور السادات ينعى إلى الأمة العربية أعظم الرجال جمال عبد الناصر. قذف نائب الرئيس المستحيل فى وجوه الناس باعتباره ممكنا وتطايرت الأفئدة فى الصدور وحل عالم خرافى محل العالم القديم. متى؟ وكيف؟ ولماذا؟ وهل هذا ممكن؟ ولم لا يكون ممكنا؟ ما تصور أحد أنه سيشهد موته. ما تصور أنه يجوز أن يموت. ثمانية عشر عاما مضت وهو يصول ويجول فى كل صدر، ممتط لكل منكب، منتشر فى كل وعى، خفاق وراء كل قلب، هو الحظ والرزق، والأمان والخوف، الأمل واليأس، الصديق والعدو، القوة والضعف، الأمس واليوم والغد، السلام والحرب، النصر والهزيمة، فماذا يبقى للناس إذا تلاشت فجأة هذه العواطف؟! غشيت الكآبة البيت القديم. أجهشت كوثر فى البكاء بلا منطق واضح إلا أن تقدم احترامها المشوب بالرهبة والخوف أمام حضور الموت المتجسد لعينيها. وسرعان ما بكت أم سيد وأم جابر. وصمتت سنية طويلا، ثم اغرورقت عيناها قائلة:

- لا دائم إلا وجهه!

وسمع محمد بالخبر لأول مرة وهو ماض فى طريقه إلى باب اللوق. قابله زميله فهمس به فى أذنه. لم يصدقه، وخشى أن يكون وراءه شرك لجر الأعداء إلى المعتقل، فقال لزميله بحدة:

- لا تردد ما ليس لك به علم!

فقال الرجل بيقين:

- أمام تلفزيون المقهى شاهدت وسمعت!

هرول إلى شقته فوجد ألفت وشفيق وسهام حول التلفزيون، ولا تخلو عين من أثر دموع، قال وهو يجلس:

ـ البقية فى حياتكم.

جلس واضعا حقيبته على حجره مسندا عصاه إلى خوان وأغمض عينيه، وانقضت دقائق قبل أن يفيق من ذهوله. ولما أفاق من ذهوله شعر بأنه يولد فى عالم جديد. شعر بالقيود تنحل من حول عنقه ويديه وقدميه. شعر بأن وزنه يخف، وأن نسائم الأمان تهفو إلى وجدانه. وسرعان ما اجتاحه ارتياح عميق، وملأه حبور قوى لا حيلة له فيه فأخفاه خلف جفنيه المسدلين. وتمادى به الحبور فاستغفر الله فى سره وخاف أن يفلت منه الزمام فيغشى عليه. وقد بكت ألفت لاقتحام حقيقة الموت لقلبها بقوة لم تعهدها من قبل. وبكى شفيق وسهام من أجل المعاشرة الوجدانية القديمة التى لم تتبخر كلها. وتساءلت سهام:

ـ من كان يتصور ذلك؟

فأجاب محمد:

ـ لقد أنسانا كل شىء حتى القدر.

فتساءل شفيق:

ـ من يخلفه يا ترى؟

فقال محمد بازدراء:

ـ ليس فى الإمكان أسوأ مما كان!

أما فى العباسية فقد ملك الحزن منيرة وأمين بقوة لا تبشر بعزاء قريب على حين لبث على فريسة للذهول، حتى تمتم بمرارة ساخرة:

ـ هذه هى التنحية التى لا رجوع عنها!

وعاش عزيز صفوت تلك الأيام أكثر وقته فى الشوارع والمقاهى. صاحبته سهام وقتا منها غير قصير. وقال لها بثقة:

ـ عهد السادات قصير، أما المستقبل فلرجالنا!

وخاض خضم الحزن الشامل، وشهد الجنازة، وسمع التلقين المذاع فتخيل القبر كنهاية لا مفر منها، كزنزانة غارقة فى الظلام، وتصور الضجعة المنفردة المعزولة عن المجد والخاشعة فوق حفنة من تراب. وسرعان ما دهمه وارد لم يجر له فى بال متمثلا فى سيل من النكات! تأمل ذلك وتعجب، فقالت سهام:

ـ أعداؤه كثيرون أيضا.

ولكن بدا الأمر أوسع من ذلك . وقال لها :

ـ إنه رمز للحب والخوف فهو حقيق بأن يثير عواطف متناقضة .

أجل ، ليس الحزن وحده ما يحرك الناس . إنه حزن ظاهر وفرح خفى ورعب كامن تتناغم جميعا فى لحن جنونى . الموت يعلن على الملأ أنه يأخذ عبد الناصر نفسه فأشعر كل إنسان بقربه الشديد فقاسمه موته وهو لا يدرى . قال لسهام :

ـ الناس تبكى أنفسها أولا!

فقالت سهام :

ـ اعتاد الناس أن يروه وحده فوق خشبة المسرح ، اليوم المسرح خال ، وليس أمام الفراغ إلا الضياع والذعر . .

ـ أوافقك تماما ، فيما مضى أراد أن يتنحى فاستبقوه فيما يشبه الثورة ، ها هو ذا الموت يفلته من قبضتهم اليائسة ، ويطالبهم بحمل أمانة لم يعتادوا حملها ، فراحوا فى يأسهم يبكون وينكتون . .

ويمضى الوقت ويأخذ الطوفان فى الانحسار وما تلبث الدراما أن تحفل بالأحداث يجر بعضها بعضا . وتتأزم الأمور وتتعقد ، ولكنها تنتهى بنهاية غير متوقعة فينتصر الرئيس الجديد على أعدائه انتصارا مبينا . وبالانتصار تلوح بشائر زعامة جديدة ، ومولد شعبية جديدة متعطشة للانتصار ومتطلعة للأمان ، وتبدأ دورة جديدة للبحث عن مخرج من الأزمات المتراكمة . وكان رشاد قد رجع إلى الجبهة فى كامل عافيته ، وبدا أنه انهمك فى العمل لدرجة أنسته إلى حين مشروع زواجه ولكن كوثر لم تنس . وأدركتها هموم جديدة باعتلال كبدها فتبدت للناظر أضعف من أمها ـ الماضية فيما بعد الستين ـ مع محافظتها على صحتها ورونقها ، ومصارعتها للكبر مصارعة لا هوادة فيها . وفى أواخر الخريف أمطرت السماء مطرا غزيرا فرشح سقف الصالة وانداحت بقع بالجدران على حين تسللت قطرات من ركن حجرة المعيشة . عند ذاك تشجعت سنية قائلة :

ـ لا مفر من إصلاح السطح . .

وأذعنت كوثر لمشيئة أمها دون تردد . وجاءتهما أم جابر الطاهية بقريب لها ، أزال الطبقة المتهرئة وثبت مكانها طبقة من الأسمنت . وتساءلت الأم :

ـ ألا نعيد طلاء الصالة وحجرة المعيشة؟

ولكن كوثر ـ وكانت مدخراتها تنفد باستمرار ـ أجابت :

ـ فلنؤجل ذلك!

فقالت سنية وهى تدارى هزيمتها بابتسامة :

ـ سيجىء الفرج على يد الرئيس الجديد .

فقالت كوثر بوجوم :

ـ ولكن رشاد غارق فى الجبهة يا ماما !

ـ الرئيس مشغول بالداخل ، جاد فى البحث عن حل سلمى ، وعلاقته بالعرب تتحسن يوما بعد يوم . .

وفى شقة باب اللوق استعاد محمد شخصيته المفقودة . مضى يتكلم بعد عكوف طويل على المناجاة الباطنية . وتمت لقاءات كثيرة بينه وبين أصدقائه القدامى . وقال له أحدهم مرة فى مكتبه :

ـ الرئيس الجديد صديق .

فقال محمد بحذر :

ـ ليكن اعتمادنا على أنفسنا . .

ـ العدالة تزحف حتى شملت الإقطاعيين أنفسهم . .

فراح يذكرهم بتجربة الماضى الخائبة ، ووافقه على ذلك شفيق . أما سهام فأساءت الظن بالعهد الجديد منذ تم النصر لرئيسه ، لا ترديدا لأقوال صفوت فقط ، ولكن لأنها بلغت الغاية فى تطورها الجديد ، حتى الدين اقتلع من قلبها . واشتد شعورها بالغربة فى أسرتها ، وشعرت بتهديد خفى يحدق بأمنها وهى بينهم ، حتى قالت لنفسها مرة :

ـ هذه الشقة لا ينقصها إلا مؤذن كى تصير مسجدا .

وقد آنست من أحد مدرسيها ميلا نحوها حتى كاشفها يوما برغبته فى الزواج منها . وذعرت بشدة ، وأخبرته بأنها «محجوزة» ، مشفقة فى الوقت نفسه من ترامى الخبر إلى أهلها . لذلك فكلما ذكر للزواج سيرة كانت تقول على سبيل الاحتياط للمستقبل :

ـ لن أفكر فى ذلك حتى أكمل دراستى !

وتبلورت فى عقلها خطة للمستقبل وهى أن تتزوج من عزيز ولو اضطرت إلى إبلاغ والديها من بعيد . بالمراسلة ! وزادتها الأيام ثقة بحبيبها ومعرفة بجوانب حسنة فيه . فهو يحبها بصدق لا تخطئه غريزتها ، وهو جاد كل الجد فى تمسكه بمبدئه ، وحتى غضبه على أعدائه مبطن برومانسية موهوبة لإنسانية لم توجد بعد . ثم إنه إنسان ، يتذوق الشعر والموسيقى ويحب الكلاب . ولكن شد ما حقد على الرئيس الجديد . وقال لها مرة :

ـ إنه مقلب لم يجر لنا فى خاطر ، وهو دائب على مغازلة الرجعية العربية والغربية !

وضاعف من قلق سهام أن رؤيتها السياسية الجديدة لم تعد سرا مصونا ، فمن انسياق فى الأحاديث المتبادلة بينها وبين زميلاتها فى قسم اللغة الإنجليزية أفلتت تعليقات شتى

تنم عن حقيقتها، فضلا عن أن واحدة منهن على الأقل لمحتها فى الجيزة بصحبة عزيز صفوت. أما أسرة منيرة بالعباسية فقد مضت حياتها فيما يشبه الهدوء. أجل، أثار مشاعرها نبأ خروج زاهية من السجن، حتى تساءل على ساخرا:

ـ ألا يقضى الواجب بزيارة فيللا المعادى للتهنئة؟!

ولكن منيرة كانت شفيت تماما من سليمان بهجت، وسلمت أيضا بفقد عبد الناصر فاستغرقها تماما عملها الرسمى ونشاطها الخاص فى مكتبتها. وتبدت فى وقار كهولة بشعرها الأبيض وجمالها الذابل كأنما تماثل أمها فى العمر أو تزيد عليها. ولم تلق بالا لعتاب أمها وهى تسألها:

ـ ما الذى يجعلك تبقين على هذا الشيب المبكر؟!

وسعد أمين وهند بخطبتهما وهما بعيدان عن موعد المشكلات، وغرق على فى بحر العسل الذى يستحلبه بين أحضان ميرفت. غير أن «ناصرية» منيرة وأمين انتبهت منزعجة وهى فى سبات الحداد على همسات تتردد أحيانا بالنقد لعصر الزعيم الراحل، قالت على مسمع من أمين:

ـ يا لها من وقاحة!

فقال أمين بامتعاض:

ـ لا عجب فنحن نسير فى طريق جديد!

ولكن ما المخرج من المشكلة الأساسية المتجسدة فى الجبهة؟! أجل. ثمة شعور بالأمان وسيادة القانون. وثمة غزل للديمقراطية، ولكن الجو راكد والغد محجوب بغمامة قاتمة. ونفد صبر الأعصاب فانفجرت مظاهرات فى الجامعة. وبلغت درجة من الخطورة قبل أن تتلاشى فى السكينة من جديد. واختلفت المواقف بين الأحفاد، فاشترك فى المظاهرات أمين وسهام بدافعين مختلفين متقاربين، واشترك على بلا دافع على الإطلاق، أما شفيق فانسحب إلى قاعدة المتفرجين. ورجع ذات مساء ـ فى أثناء الاضطرابات ـ إلى أسرته بباب اللوق مضطربا شاحب اللون، جلس مع أسرته فى حجرة المعيشة، ثم قال بتأثر بالغ:

ـ عزيز صفوت قُتل!

وإذا بصرخة تفر من فم سهام ممزقة بالألم وهى تصيح:

ـ لا!

سرعان ما تحولت مشاعر الأسرة من النبإ المحزن لتتركز فى فتاتها الجميلة. وغلبها الحزن فانهارت تماما غير مبالية بالنظرات المستطلعة وما وراءها. هكذا تكشفت لهم الحقيقة، وفى ظرف يدعو للأناة والصبر. ونهضت ألفت فاحتوت سهام ومضت بها إلى

حجرتها، ولبث محمد وشفيق يتبادلان النظر فى ذهول ووجوم. واكفهر وجه محمد وبلغ به القهر منتهاه فقال لابنه بجفاء:

ـ إنك المسئول الأول!

انكمش شفيق أمام انفعال أبيه وقال بصوت ضعيف:

ـ ليس ذنبى..

ثم وهو يستميت فى دفع التهمة عنه:

ـ جرى كل شىء تحت أعينكم..

فصاح محمد:

ـ لم يكن لرأيى وزن أمامكم، وحيال زمانكم..

فقال شفيق برجاء:

ـ حلمك يا بابا، كان يمكن أن يحدث أى شىء فى الخارج، وكيف نعيش خارج زماننا؟!

فقال محمد بحنق:

ـ أعرف ما يقال، سمعته مرارا وتكرارا، ما هى إلا لعنة وباء!

ثم حدج ابنه بنظرة متفحصة كأنما يحقق معه وسأله:

ـ معروف أنه انقطع عن الدراسة فماذا دسه بين المتظاهرين من الطلبة؟

ـ لعله ذهب كصحفى!

ـ بل ذهب للتحريض كشيوعى..

ـ ربما، لست مسئولا عنه..

فقال الرجل بحنق:

ـ لست آسفا عليه، ولكن آسف على نفسى!

أما ألفت فقد غسلت وجه سهام بالكولونيا ووهبتها من الحنو فوق ما تملك. وقالت:

ـ ليتك تسلطت على أعصابك!

فقالت وهى لا تكف عن البكاء:

ـ لا يهمنى..

ـ تمالكى عواطفك، أرجوك!

ولكن قلبها كان يتقطع إربا، والحزن يزحف مهيبا قاسيا منذرا بالخلود، وخرابة قاحلة تقترب لتكون لها منفى أبديا، لم يبق إلا قلب يخفق وحده كقرار نغمة يفتقد جوابه على

الدوام. وفى صباح اليوم التالى لم يشر أحد بكلمة إلى «حادث» الأمس. انتشر السر مثل شعاع الشمس فى الصيف، ولكن تجاهلته الأعين فلم تره. ومضت أيام قبل أن يخلو إليها أبوها فيسألها:

ـ كيف حالك؟

فحركت شفتيها دون أن تنبس. عند ذاك قال بحنان لم تتوقعه:

ـ لا بأس من المعاناة فهى حال الدنيا، وعلينا أن نرضى بقضاء الله دون قيد أو شرط..

وربّت يدها وواصل:

ـ كنت يوما مثلك سعيدا بآمال لا تحصى، وفى بضع ساعات تقوض عالمى ففقدت عينا وساقا ونصف رزقى على الأقل، ولكننى لم أنهزم ولا ماتت ثقتى بالله، ومن يعتز بالإيمان لا يذل بالهوان، وربنا معك يا بنتى..

انحسر ستار الغربة أمام دفقة سلام أبوية، ولكن سرعان ما جثم الظلام كرة أخرى. الحقيقة الثابتة أنها غريبة تماما فى أسرتها. غربة لا يداويها الحنان أو الحب. إنهم يتعاملون مع «أخرى» لم يعد لها وجود، وما هم فى الحق إلا أعداؤها. أكان أبوها يخاطبها بهذا الأسلوب لو علم بما خسرته من جسدها وروحها؟! المسألة فى نظره تنحصر فى حبها لشاب يرفضه هو لعقيدته وعدم كفاءته لها، ولعله سُرَّ بالقدر الذى أزاحه من طريقه مؤملا فى الوقت نفسه أن يهبها الحظ من هو خير منه. إنها فى واد وأباها فى واد آخر، ولا إنقاذ لها إلا أن تهاجر بطريقة ما من هذا البيت الذى تقطعت بينها وبينه الأسباب. وهل بقى لها من عزاء إلا فى ثوريتها وهى الإرث الحقيقى لحبيبها؟! وستظل بين حاضر مشتعل ومستقبل غامض تحت تهديد دائم بالحرج والفضيحة. ولم يشر محمد بكلمة واحدة إلى مأساة ابنته فى البيت القديم. وأصبحت منيرة محتكرة الصوت المعارض الوحيد فى جلسة الجمعة. قال لها محمد:

ـ إنه عهد أمان بعد خوف، وقانون بعد فوضى..

فقالت منيرة ساخرة:

ـ تجلت وحشيته فى قمع المظاهرات!

فتقبض قلب محمد وقال بفتور لم يلحظه أحد:

ـ حال استثنائية، والموقف يتطلب الحزم..

ـ دائما يدور الكلام عن الموقف، والحقيقة أنه لن يجرؤ على خوض حرب..

وكان محمد فى أعماقه يؤمن بذلك. وتساءلت كوثر:

ـ لماذا تريدين الحرب؟ سيجند ابناك بعد عامين على الأكثر . .

ـ لا أريد الحرب ، ولكنى أريد أن أقول إنهم يتخذون منها عذرا لوحشيتهم . .

فقالت سنية :

ـ لندع له بالتوفيق . .

فقالت منيرة بامتعاض :

ـ صدقونى أنه لن يقنع بتصفية السلبيات الماضية ، ولكنه سيلحق بها الإيجابيات أيضا .

فقال محمد باسما :

ـ قولى ما شئت فالحق أنه لا وجه للمقارنة بين ما كان وما هو كائن . .

وإذا بكوثر تقول :

ـ أتمنى أن أسمع خبرا واحدا هو أن الحرب انتهت ، وأن رشاد راجع ليتزوج !

وعاودت محمد ذكرى مأساته فعجب كيف فضلت سهام عزيز صفوت على رشاد؟ ! وقال لنفسه :

ـ لا تفسير لذلك إلا سوء حظى !

ولكن حظا أسوأ من حظه بما لا يقاس انقشع فى لحظة أبدية كأنه سحابة صيف . ارتفع صوت راسخ النبرات فى الراديو يزف إلى الشعب نبأ عبور قواته المسلحة للقناة . أهى الحرب من جديد؟ ! هل تمخض الجو الراكد المؤذن بنوم طويل عن صاعقة تقتلع الأعصاب من جذورها؟ هل يتطاير المستحيل ويتلاشى كأنه وهم ماكر؟ ! هتفت كوثر بجزع :

ـ ابنى !

وتساءلت سنية المهدى فى ذهول :

ـ حرب؟ ! ما بالها تتكرر كالصلاة؟ !

وقالت لها كوثر بصوت متهدج :

ـ لم يكن خوفى لغير ما سبب . .

فغمغمت سنية :

ـ إنه رحمن رحيم !

ولم يصدق أحد من أسرة محمد الخبر ، أو لم يصدق ما يقال عن النصر . تذكروا ما ذاع وملأ الأسماع أيام ٥ يونيو . وتساءل محمد بحيرة :

ـ لماذا نتطوع بالانتحار؟ !

وقالت سهام لنفسها : إن يكن انتحارا حقّا فسيجىء بالشفاء لبعض أوجاعها . أجل . فلن يخلص البلد من الرجعية إلا هزيمة ساحقة . وربما انفجرت فى أعقاب ذلك القوى الشعبية المطحونة . وكالعادة لجأ محمد وألفت إلى محطة لندن وصوت أمريكا . تضاربت الأخبار بادئ الأمر ثم تأكد النبأ المذهل . تجلى النصر فى هالة سحرية كمعجزة باهرة تحلق فوق الخيال والتاريخ . اندثرت شخصية صفراء مهزولة وحلت محلها شخصية تضطرم بالعافية والثقة ، تلاشت روح فاسدة مكفنة فى الهزيمة وخلقت روح جديدة تختال بالحبور والإلهام ، تبخر يأس الهزيمة وذل القهر وانكسار القلب وهزجت الأنفس بسكرة التناغم مع الذات والحياة والكون .

ـ انتشل الرجل مصر من الفناء ، وانتشل العرب . .

سهام منيت بالهزيمة وحدها . قتل عزيز صفوت من جديد وانتصر العدو ووئد الأمل وابتسم المستقبل للرجعية المصرية التى تحرر سيناء ، ولم تعد هى إلا فتاة ضائعة ، منبوذة ، مهددة ، بالفضيحة . ولم تخل منيرة من سرور ، كذلك أمين ، ولكنه سرور أفسدته الغيرة ، وكدره الحنق ، وتساءلت بحيرة :

ـ كيف انهزم الأصل وانتصر الظل؟ !

ثم عزت نفسها قائلة :

ـ لكنه جمال الذى خلق هذا الجيش وجهزه !

وتشبث أمين بهذا القول كأنه طوق النجاة . حتى على هزت نشوة نفسه الرافضة ، ولكنه سرعان ما استردته هموم طارئة بسبب مرض ميرفت هانم . قهرها روماتيزم مفصلى ومتاعب فى الجهاز الهضمى وفساد فى الأسنان اقتضى خلعها . انطفأ ولعلها بالحياة وعجزت عن الحب واجتاحتها طفرة من الشيخوخة فراح يمضى وقت زيارته إلى جانب فراشها مفعم القلب بالرثاء والأسف والقرف . وفى قمة النصر حدثت الثغرة ، وكانت مفاجأة غير سارة ، ولكنها لم تخدش المعالم الأساسية للصورة . غير أنها لم تخل من رد فعل شامت عند منيرة وأمين ، أما سهام فقالت بجرأة على مسمع من والديها وأخيها :

ـ إنها هزيمة أشنع من ٥ يونيو !

فقطب محمد وقال بجفاء :

ـ هذا ما يردده زملاء لى من الشيوعيين ، حذار يا سهام ، إنك تحيرينني . .

فقالت بإصرار :

ـ إنى حرة فى رأيى . .

فهتف بها :

ـ حرة نعم ، ولكنك مسلمة أيضا !

فقالت لنفسها: «لست مسلمة». وقالت أيضا دون أن يدرى بها أحد:

ـ إنى أختنق فى هذا البيت . .

وتوقف القتال، وتنفست الكائنات المتوترة، وتم البعث فلا رجوع عنه. غير أن البيت القديم لم يسلم، أو لم يسلم تماما. وكان محمد أول من علم بالخبر إذ زاره فى مكتبه صديق من ضباط المدفعية، وقال له:

ـ ابن أختك رشاد أصيب فى الثغرة، ونجا بأعجوبة!

قرأ محمد فى وجه صاحبه أنه لم يدل بكل ما عنده، فحدجه بنظرة واجمة متسائلة:

ـ اقتضى الأمر جراحة لبتر الرجلين!

تجلى الحزن فى عين محمد الباقية، فقال الآخر:

ـ نحن على أى حال فى عصر الأطراف الصناعية.

وغادره وهو يقول:

ـ إنه بطل!

شعر محمد بثقل المهمة. وأبلغ منيرة أولا ثم اتفقا على الذهاب معا إلى حلوان. وجدا كوثر على حال شديدة من القلق بخلاف سنية التى بدت رصينة جامدة، حتى قال محمد لنفسه: «لعلها رأت حلما منذرًا». وسبقته منيرة فقالت لكوثر:

ـ الحرب انتهت، ورشاد نجا والحمد لله . .

فهتفت وهى تنظر نحوها بارتياب:

ـ حقّا؟!

فألقى محمد بنفسه فى الاعتراف قائلا:

ـ تعرض لإصابة، إنه بطل، ولكنه نجا . .

فهتفت:

ـ قلبى لا يكذب.

فقال:

ـ أجريت له جراحة ناجحة!

حلت بالبيت الحقيقة والحزن. واستقبلت القلوب أسى دائما ولكنه مبطن بالحمد. وامتزج الدمع بالفرح عندما رجع رشاد إلى البيت محمولا. أجلس من أول يوم على كرسى طبى ذى عجلتين، ولكنه أبدى روحا عالية. لم يكن الأمر محض تمثيل ولكنه ـ أيضا ـ الشعور بالنجاة من هلاك محقق كان مصير رهط من أقرانه طالت به عشرتهم فى الكلية والخندق والحرب. وقلب عينيه الجميلتين فى الوجوه المحدقة به. سنية . .

كوثر . . منيرة . . محمد . . شفيق . . سهام . . أمين . . على . . سليمان بهجت وقال ضاحكا :

ـ ها قد اجتمعتم مرة أخرى !

وأشار إلى أمه قائلا :

ـ هذه السيدة لا تريد أن تحمد الله !

ونظر إلى سهام وقال وهو يضحك من جديد :

ـ نجوت من مصير لا يسر !

فاحمرّ وجهها الجميل حرجا وقالت :

ـ إنى فخور بك .

فقال بحرارة :

ـ لتكن آخر الحروب . .

سُرَّ برجوعه إلى البيت سرورا عميقا فتمتع بالدفء والحب . واستهان ساعات بمصابه . غير أنه كان يشرد أحيانا وهو ينظر إلى المتبقى من جسده الفارع فيذكر نشاطه وتقلبه بين الأماكن المحبوبة مختالا بشبابه وجماله فيهزج قلبه بالأشجان الخفية . ولم يكن يستسلم للحزن ، كان يدفعه ويطارده ويقول لنفسه :

ـ عش فى الواقع وإنه لغنى بإمكانات لا حصر لها . .

ولما قالت له جدته مرة :

ـ إنى راضية إذعانا للمشيئة الإلهية . .

فتفكر مليا ، ثم قال لنفسه ناشدا الراحة المطلقة :

ـ لا بأس لمن أبى الاستسلام للعدو أن يستسلم للقدر !

وقررت سنية أن تصوم رجب وشعبان ورمضان بالإضافة إلى يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع . أما كوثر فأوقفت نفسها على رعايته . وملأ هو وقته بألوان التسلية ، يدفع كرسيه إلى الفراندا فى الأجواء المناسبة ، يتابع الراديو ، التلفزيون ، يستقبل أصدقاء النادى الرياضى فى مساء معين فأحيا ذكرى اجتماعات السمر التى ولع بها جده حامد برهان . ولم يجد فى أمه محدثة شائقة بخلاف جدته التى لا ينفد مدخرها من ذكريات الماضى وغرائب الأحلام وعجائب عالمى الغيب والشهادة إلى مناقشاتها الواعية عن الدنيا وأحوالها . وتسأل كوثر أمها وهما منفردتان :

ـ كيف يصنع إذا وجد نفسه وحيدا ذات يوم؟

فتقول سنية بإيمانها الراسخ :

ـ لن يجد نفسه وحيدا أبدا . .

ولأول مرة فى حياته يغازل القراءة وتغازله . ومن عجب أنه انساق إليها بيسر وشغف . وتخلق فى أعماقه ميل جديد نحو الدين فاقتنى من مراجعه ما شاء وهيمن عليه الاطلاع الدينى بقوة مضت تزداد يوما بعد يوم، وحام حول الأسئلة المحيرة فتطلع إلى عالم الثقافة والأشواق بحماس لم يخطر له ببال من قبل . حتى الكتابة حلم بتجربتها، حتى قال لنفسه من فوق كرسيه الطبى :

ـ ما أضيق الوقت وأقصر العمر!

وفى أحد أيام الجمع سأل خاله محمد :

ـ أينبغى أن يفقد الإنسان نصف جسمه ليهتدى إلى نفسه؟

فسأله محمد عما يعنيه، فأجاب :

ـ فتح لى العجز الأبواب المغلقة .

وراح يحدثه عن شغفه الجديد بالثقافة وفى مقدمتها الدين فسُرَّ محمد ورفع عكازته بيمناه قائلا :

ـ طوبى لما يهبنا خصوبة الروح . .

فقال رشاد :

ـ ويخطر لى أحيانا أن أكتب .

فهتف محمد :

ـ الله أكبر!

إنها رغبة مبهمة لم تتبلور فى هدف محدد، ولكنه دخل فى دين الإسلام بالنية والعمل معا . صلى وعزم على الصيام والزكاة ومضى يقرأ القرآن والبخارى ويزداد تقبلا لقدره ورضًا عنه . وهو سعيد باشتراكه فى النصر والتضحية والبطولة، وهيهات أن تنغص عليه صفوة بعض الكوابيس التى تنتاب نومه أحيانا أو صور الشهداء التى تلم بخياله أحيانا أخرى . ويتساءل :

ـ لم تعذر على الإنسان أن يعيش حياة سعيدة فى هذه الدنيا؟!

ثم تساءل فى حيرة :

ـ هل أجد عروسا ترضى بى زوجا؟!

وصاحب ذلك ميل المؤشر من الشرق إلى الغرب وانبثاق دعوة مصرة إلى الانفتاح، مع تفجر حملة ضارية على الزعيم الراحل فاضت بها الكتب والصحف والمجلات، وبرز فى ميدانها المفتوح أعداء وأصدقاء ومحايدون فصارت انتقاما وتشفيا ويقظة

واعترافا وتقربا. ووقف جيل الأحفاد منها موقف الدهش والبلبلة، يستوى فى ذلك من أقام على ناصريته مثل أمين، أو من وافقه مثل سهام، أو من رفض كل شىء مثل على، أو من آوى إلى عقيدة جديدة مثل شفيق.

- ألم يعبدوه بالأمس؟

- ألم يكن القائد والزعيم والمعلم والملهم؟

- أى نفاق وأى خسة وأى جبن!

- جيل يستحق التصفية..

- من نصدق؟!

- أنصدق ما يقال الآن؟!

- ليس بلدا، ولكنه مرحاض عمومى..!

ولم تمر الحملة فى لقاء الجمعة دون إثارة. لم يعد رشاد يبعث على الرثاء، فقد بات عادة، وعبر هو الأزمة بشجاعة وتطور بها إلى ما هو أفضل. لذلك أفصح محمد عن سعادته بالانقضاض على العصر الناصرى. قال:

- ليعلم من لم يكن يعلم، ولينتبه من فقد وعيه!

فتساءلت منيرة:

- هل ننسى القضاء على النظام الملكى، والجلاء، والإصلاح الزراعى، والتأميم، وتمصير الاقتصاد، والقومية العربية؟!

فقال محمد متهكما:

- سيعترف له المستقبل بفضل واحد باعتباره منشئ الإمبراطورية الإسرائيلية!

فسألته منيرة بمرارة:

- أتدرى ما يقول الشباب؟

- إنك تقصدين الناصريين وحلفاءهم من الملاحدة، أما غالبية الشباب فبخير وعافية وهى تعرف سبيلها كما تعرف ربها.

واشترك رشاد فى الحديث قائلا:

- لكل عهد إيجابياته وسلبياته ومهمة الأحرار أن يؤيدوا الإيجابيات ويحاربوا السلبيات..

فقالت سنية:

- ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾ صدق الله العظيم.

فقالت منيرة بازدراء :

ـ لا يعلو صوت على النفاق ، هذه هى مأساتنا . .

فقال محمد بحدة :

ـ عرفنا المشانق ولم نعرف النفاق قط . .

فقالت منيرة متهكمة :

ـ اعرفوا أيضا الانفتاح .

فتساءلت سنية :

ـ ماله الانفتاح؟ حتى روسيا أخذت به . .

ـ ولكنه سيعنى عندنا الغلاء والخراب .

وعند تلك النقطة غيّر محمد شراعه قائلا :

ـ نحن نوافق عليه ضمن خطة الإنتاج . .

فتساءلت منيرة :

ـ وهل توافق على ذلك الصقور المتحفزة؟

وجرت خواطر سنية فى أسى ، إنهم يتحدثون عن كل شىء ، ألا يذكر أحدهم البيت القديم بكلمة طيبة؟ ! وإن يكن هذا هو حظ البيت فمن عسى أن يذكر المدفن؟ ! وثمة نظرة عطف تحبو فوق الشاب العاجز متضمنة توسلاتها الصامتة . البيت يوغل فى القدم ، أثاثه يبهت ويتهرأ ، حديقته تحتضر ، أيليق هذا بمقام البطل؟ ! وقال رشاد :

ـ الحق أن الغلاء يزحف بقوة ، إليكم تجربة مارستها بنفسى ، منذ عام وأشهر عرضت علىّ فيللا بالمعادى بستة آلاف جنيه ، علمت أمس أن صاحبها رفض بيعها بخمسة وعشرين ألفا من الجنيهات !

فقالت منيرة :

ـ ما يقال عن الأراضى لا يصدقه العقل . .

فقال محمد :

ـ وخلو الرجل أصبح خرافة . .

فقال رشاد :

ـ أفكر أحيانا فى تجديد هذا البيت !

فهتفت سنية وقد أشرق صدرها بنور ربها :

ـ خيرا ما تفعل يا رشاد ، مساحة الحجرة من حجراته أوسع من مساحة فيللا حديثة ، ولا تنس الحديقة المهجورة التى يمكن أن تتحول إلى جنة . .

وساءل محمد نفسه : هل يجدد رشاد البيت لوجه الله أو يسجل التكاليف كيلا يهضم حق أمه عندما يئول البيت ـ بعد عمر طويل ـ إلى الورثة؟ لم يتحمس للفكرة ولم يعلق، وتبادل مع منيرة نظرة ذات معنى دلت على تناغم وساوسهما . أما رشاد ففاجأ الضيوف بقوله :

ـ سأفكر يوما فى الزواج!

اتجهت صوبه الأعين . وسعدوا فى الحقيقة بالخبر الذى كانوا منه فى شك، ولم تتمالك كوثر إلا أن هتفت :

ـ دعنا نبحث لك عن عروس لائقة!

فقال بجدية :

ـ صبرك ، كل شىء رهن بوقته .

ورسخ الغلاء منذرا بالتعملق، وانتشر العرب فى الأحياء كالماء والهواء . جاء الغلاء بالوحشية، أما العرب فجاءوا بالكرم تياهين بموقفهم القومى فى البترول، ولكنهم نفخوا فى الغلاء من حيث لا يقصدون . حتى أم جابر الطاهية طالبت بمضاعفة راتبها لمواجهة الغلاء فتحققت مشيئتها فى الحال، غير أنها ذهبت ذات يوم ولم تعد، وعلم أنها سافرت بصحبة ابنها النجار إلى السعودية لتعمل طاهية بأجر خيالى . عند ذاك أنذرتهم الحياة بعناء جديد . أجل، طالما أثبتت سنية مهارتها الفائقة فى الطهى، ولكنها بلغت من الكبر ما لايجوز معه الاضطلاع بمهمة الطهى الشاقة رغم تمتعها بصحة جيدة يغبطها عليها من يماثلونها فى السن . ورغم أن رعايتها لصحتها لم تهن وإن كفت عن صبغ رأسها بالحناء منذ رجع رشاد إلى بيته محمولا على أيدى الرجال . تركت الشيب يرعى رأسها بلا حسيب قانعة بإخفائه تحت منديل محكم وتلفيعة بيضاء . ولم تر كوثر مفرا من القيام بالمهمة رغم اعتلال كبدها وهزالها وتوسطها الحلقة المفضية للستين، مستعينة فى التجهيز بأمها وأم سيد . وجدّوا فى البحث عن طاهية حتى وافقت ـ أم عبده ـ على منحهم نصف يوم بثلاثين جنيها شهريا . والتهمت ميزانية الطعام قدرا لا يستهان به، يزداد مع الأيام دون توقف، حتى توارت سنية بمعاشها خجلا وأدركت أنها تعيش عالة على كوثر وابنها . لذلك لم تتردد كوثر أن تقول لرشاد وهى منفردة به :

ـ هأنتذا تفكر فى تجديد البيت والحديقة، كن حكيما، الأسعار ترتفع كما ترى، والبيت ـ بعد عمر طويل ـ لن يئول لنا إلا ربعه، الحذر واجب، فإيرادك ثابت وقيمته تقل يوما بعد يوم . .

فقال متمهلا :

ـ لا تنسى أننا نقيم فيه، وأننى حبيسه، ويلزمنى مناخ طيب . .

فقالت متنهدة :

ـ كما تشاء ولكن عليك بالحكمة والحذر . .

فاجأهم سليمان بهجت بطلاق منيرة مدعيا في الوقت نفسه أنه يحررها من قيد يعيق حرية إرادتها ويهدر سعادتها دون مقابل حقيقي . ولم يخدع محمد بالطلاء ، وكان بحكم مهنته ونشاطه السياسي ذا قدرة على النفاذ إلى الأسرار ، فقال لمنيرة :

ـ المسألة أنه وزوجه يعملان في الاستيراد ، وهي كما نعلم مركز القوة والعقل المدبر فحملته على الطلاق لتستأثر بثمرة عملها !

فقالت منيرة بعتاب :

ـ هذا ما أردته من أول يوم .

فهزَّ رأسه آسفا وقال :

ـ فيللا المعادي تعتبر اليوم قصر استقبال لأغنياء العرب ، يختلط فيه اللهو بالعمل ، إني أرثي لأمين وعلى لانتسابهما إليه !

فقالت بامتعاض :

ـ حدثني عن موقف الدولة من هذا الفساد !

ـ لا جدوى من الشكوى ، سليمان وزاهية ما هما إلا قردان في حديقة ملأى بالقرود ، جن الناس ، فقدوا وعيهم ، يحومون حول العرب ، الذين فوق يتعهرون والذين تحت يشحذون!

وتبادلا نظرة متجهمة ، ثم سألها :

ـ كيف تواجهين الحياة؟

فأجابت بوجوم :

ـ كلما مر شهر تساءلت : ترى هل نحافظ على مستوى معيشتنا الشهر القادم؟

ـ مثلك تماما ، لنا أولاد ، من الخطر أن يهبطوا عن حد معين من الحرمان ، لنحمد الله على أنهم وصلوا إلى المرحلة النهائية . .

فقالت متهكمة :

ـ ثم تبدأ مرحلة من المشكلات الجديدة ، يا لهم من جيل محاصر سيئ الطالع ! ألم يكن الأجدر بالعرب أن ينشلونا من وهدتنا بدلا من أن يجعلوا منا حقلا للتسول والدعارة؟ !

وكأن على كان يحاورهما عن بعد وهو يقذف بنواياه المتقدة نحو الوجود . يلعن وطنه و مواطنيه ويتربص باللحظة المناسبة التي يهجره فيها إلى الأبد . وذات صباح نعت إليه

أمه ميرفت هانم حماة خاله محمد! لم تفطن أمه بطبيعة الحال إلى هزته الباطنية. وقال لنفسه يعزيها:

ـ ماتت فى الواقع منذ أشهر.

المرأة التى وهبته حبا بهيميا غريبا خارقا للمألوف داوى بها جهازه العصبى المختل. خبر معها راحة متجددة. وأنانية متسلطة، وخيلاء معربدة، وحبا غير مألوف يتحدى الأكليشيهات الشعرية الجارية، انتشله من مخالب أزمته وفى الوقت نفسه رسخ رؤيته المتمردة. وقال متهكما:

ـ خير ما فعلت!

وهز منكبيه قائلا:

ـ أخى أمين أسعدنا حظا..

وكان أمين سعيدا حقّا، يحب بنتا ممتازة وتحبه، ولكنه باقترابه من نهاية المرحلة التعليمية الأخيرة رأى عن قرب مستقبله المعقّد بالمشكلات. على أنه سره أن يسمع هند وهى تردد:

ـ لا مشكلة بلا حل!

فقال لها مغالبا همومه:

ـ ومعنا الحب، وفيه ما يكفى..

وكانت هند بخلافه لا تكترث للسياسة ولا الأحاديث العامة. أجل، كانت متفوقة كطالبة، ينحصر اهتمامها فى دراستها وشئونها الخاصة ومستقبلها وتعنى فى الوقت نفسه بإتقان شئون البيت كأنها امتداد لدراستها، كما كان حبها لأمين أقوى عاطفة فى حياتها. ولم يكن لها من الدين ـ كالسياسة ـ إلا قشور، ولكن الدين تسلل إليها ـ على غير شعور منها ـ عن طريق الأخلاق. لذلك اعتدها أمين ـ وهو يتنفس مناخا ينضح بالفضائح ـ لقية لا توزن بمال. أما شفيق بن محمد فقد تمادى فى توثيق علاقته بزكية محمدين حتى أحبها. وبهبوط الحب عليه انسربت إلى أعماقه الهموم والفكر. ومن قبل ذلك لم يخلُ ضميره من قلق. كان يداوم على الاتصال بها ويجتر وساوس القلق والمحاسبة. ولما أحبها قال لنفسه:

ـ لا يدرى أحد أين يجد قلبه مستقره؟!

وكان التفاهم بينه وبين أبيه حميما راسخا، كابن وأب، وكمؤمنين فى عقيدة واحدة. وجد فى نفسه الشجاعة الكافية كى يعترف لأبيه بعلاقته بزكية محمدين غير مخف عليه سرا من أسرار حياتها. أصغى محمد إليه كاظما انفعالاته تشجيعا له ورحمة به. وختم شفيق اعترافه بقوله:

ـ أخطأت الفتاة ولها عذر كما أخطأت ولى عذرى أيضا!

فهز محمد رأسه نفيا وقال :

ـ كلا ، كان بوسعها أن تحافظ على شرفها وكان بوسعك أن تصبر . .

حدس الجواب من قبل فتساءل :

ـ وإذا تاب كلانا؟

فقال محمد وهو يتفحصه بعناية :

ـ التوبة أمل الخاطئين . .

فتردد لحظات ثم تساءل :

ـ أعنى أتوافق عند ذاك على زواجنا؟!

وجد نفسه محاصرا وتجرع خيبة أمل مريرة . واستسلم لانفعاله فقال :

ـ اختيار سيئ لن يعفى من عواقب وخيمة!

ـ ظننته ينقذ نفسين ضالتين . .

ـ لا ضمان لذلك . .

ثم بامتعاض كالأنين :

ـ أى حظ سيئ! لم نفق بعد من تجربة سهام المريرة ، وهأنتذا فى نفس الطريق الوعرة . .

فقال شفيق بأسى :

ـ حسبتك ستبارك قرارى . .

هام فى وادى الخيبة طويلا . وراجع نفسه وانفعالاته . ثم تنهد قائلا :

ـ سمعت رأيى ، ولكن إذا أصررت على رغبتك فلن أعارض .

ونقل شفيق صورة مما دار بينه وبين أبيه إلى زكية فى ألطف أسلوب ممكن . تابعته بانتباه وعمق . لم تكن فى مثل براءته بعد أن طحنتها الحياة من رأسها إلى قدميها . كفرت بكل شىء إلا ذاتها ، والمال . . ذلك الساحر الذى قدمت له نفسها قربانا . ولم تكن تبنى أى خيال على تخرجها القريب وقد أنضجتها الحياة أكثر من أساتذتها أنفسهم الذين يتاجرون أيضا بطريقتهم الأكاديمية الخاصة . أيغريها هذا الشاب بالزواج؟ وما قيمة الزواج منه؟ وما الداعى إلى تحمل احتقار أهله؟! ثم إنها لا تحبه كما يتصور . إنهم يصدقون أى كلام يند عن جسد المرأة . وإن لم تنكر أنه أوثق الزبائن علاقة بها وأقربهم مودة إلى نفسها . ولم ترتح لإدلاله وهو يعرض عليها الزواج ، ولا عن قوله «الإقلاع عن الحياة الفاسدة» . أين هم المحترمون؟ ولما سألها عن رأيها أجابت بوضوح :

ـ غير موافقة !

تساءل بذهول :

ـ حقّا؟ !

ـ لا تغضب ، فكّر قليلا وستقتنع بأنك غير أهل للزواج !

فتساءل بإنكار :

ـ أنا؟ !

فقالت باسمة :

ـ وأنا أيضا !

واختفت من حياته كوهم . وكاد يجن . وبالتحرى المحموم عرف أنها اهتدت أخيرا إلى الطريق العربى . وأنها وثبت وثبة موفقة إلى شقة مفروشة آخذة معها أمها الكادحة . طارت من قفص الحياة اليومية كما طارت أختها من قبل ، وارتفعت فوق تطلعات طبقته . وكان محمد يلاحظه بقلق ، ويعجب لصمته . وذات يوم سأله :

ـ ماذا فعلت يا بنى؟

فأجابه بإيجاز :

ـ اقتنعت برأيك !

لم يصدقه الرجل الخبير ، ولكنه تنهد بارتياح قائلا :

ـ فليحفظنا الله بعنايته .

ـ ولكن الزواج ضرورة لأمثالى ، فما العمل؟

ارتبك محمد وشعر بالقهر ، ثم قال محتدا :

ـ ما أجدر أن نوجه هذا السؤال إلى وزير التخطيط أو إلى المجموعة الاقتصادية !

وبعد فترة صمت تمتم :

ـ لنضع ثقتنا بالله سبحانه . .

وتخرج شفيق وابن عمته أمين على حين انتقل على وسهام وهند رشوان إلى السنة النهائية . وجند شفيق وأمين . ووجد على فرصة للسفر إلى الخارج ضمن رحلات الطلبة الموسمية . سافر ولكن أحدا لم يره بعد ذلك . وأرسل ـ من ألمانيا ـ خطابا إلى أمه يخبرها فيه بأنه وجد عملا ـ كعامل ـ فى مصنع ، وأنه لدراسته العلمية اعتُبر عاملا فنيا ، وأنه ينوى إتمام دراسته عندما يتقن اللغة الألمانية ، وعلى أى حال فلن يرجع إلى مصر أبدا . أعادت منيرة قراءة الخطاب بعينين دامعتين ، وقالت لنفسها :

ـ عثرة جديدة تضاف إلى سوء حظى !

وبتكليف منها أبلغ محمد الخبر إلى سليمان بهجت. وسُرَّ الرجل به قائلا:

ـ أحسن صنعا!

ثم واصل ضاحكا:

ـ سأعثر عليه فى إحدى رحلاتى لأبارك خطوته..

فتساءل محمد:

ـ أما كان الأوفق به أن يصبر عاما حتى يحوز شهادته؟

ـ هرب من التجنيد، وله حق!

وتلقى البيت القديم الخبر بهدوء نسبى إذ لم تعد تهزه الأنباء السيئة. غير أن سنية قالت:

ـ لك الله يا منيرة..

فقالت كوثر:

ـ حظها أفضل من حظى!

فقالت سنية بعتاب:

ـ ابنك جدير بالإعجاب لا الرثاء.

رغم أنه لم يحقق إلا بعضا من آمالها. أجل. سُدت الثقوب، وسنفرت الأرضية، وطليت الجدران فشعّت رونقا، ونُجدت المراتب والأغطية والمقاعد والكنب، واتفق مع بستانى على تنظيف أرض الحديقة وغرس ياسمين ولبلاب أسفل الأسوار لتكسو الخضرة الأسياخ الصدئة، وتشذيب البقية الباقية من النخيل والبلخ. سُرّت كثيرا وسعدت ولكن أين هذه الحديقة الفقيرة من الجنة الموعودة؟! وخفف من فتورها وضاعف من امتنانها ما تطلع عليه يوما بعد يوم مما ينفق على البيت. رشاد ينفق بسخاء كأنه رب البيت تاركا المعاش لنثرياتها. كيف كانت الحياة تمضى لولا يده المبسوطة؟! وكأنما كانت تشاركه أفراحه فى سياحته اليومية بين الكتاب والراديو والتلفزيون، وسهرته الأسبوعية مع زواره وسماع ضحكته المترعة بالسرور. وها هو ذا يحلم بالزواج والكتابة وينتظر مزيدا من الضياء. وآمن رشاد بأنه حقق حلم جدته المحبوبة. وكم سره أن يجد منها استجابة قلبية لأحلامه. فهى ـ بخلاف أمه ـ تشجعه على الكتابة وتقول له:

ـ عرفت الحرب والسلام، ماذا تريد أكثر من ذلك؟

وهى الوحيدة فى الأسرة التى تتفق معه على حب زعيمى الثورة، السلف والخلف معا، وتقول:

ـ لكل منهما مزاياه وأياديه، أما الأخطاء فسبحان من له الكمال وحده!

وقال يوما لزوار الجمعة من أهله :

ـ تبدون أحيانا كأنكم فقدتم الأمل، أنا وجدتى لا نفقد الأمل أبدا . .

فقالت منيرة بمرارة :

ـ عربدة الغلاء أنستنا النصر!

ثم تساءلت متنهدة :

ـ وأين على؟!

وحمل محمد على الزعيم الراحل كعادته وقال :

ـ كل ما نعانى من شر فمن صنع يديه . .

فتساءلت منيرة :

ـ وأخطاء الانفتاح أهى من صنع يديه أيضا؟!

فقال بإيجاز :

ـ إنى راض عن الرئيس الحالى باعتباره التمهيد لدولة الإسلام!

وساءل رشاد نفسه : «متى تنفرج الأزمة؟». وعقب ذهاب الزوار زارت سنية ـ كالعادة ـ صورة القناطر التذكارية. ساق كرسيه مقتربا منها ورنا إلى الشباب المخصب للصورة وسألها مداعبا :

ـ تحنين للشباب يا جدتى؟!

فقالت بشرود :

ـ إنى أنظر وأتساءل من كان يتصور؟!

وخطرت له فكرة مشرقة، فقال :

ـ ليست الحرب هى التجربة الوحيدة فى حياتى، ولكن أيضا هذه الصورة ذات المصائر العجيبة!

فتمتمت :

ـ فكرة!

ورجعا إلى مجلسهما وآخر شعاع للشمس يتقلص مودعا حجرة المعيشة. وتذكّر إشارات خاطفة كانت تصدر عنها فى أحوال نادرة عن جدودها لم يهتم بها أحد قانعين جميعا بمعرفة جدهم صاحب البيت والأرض. غير أن رغبة جديدة فى معرفة كل ما يمكن معرفته غزته بسحر جديد، فقال لها :

ـ أود أن تحدثينى عمن عرفت من جدود يا جدتى.

فانبسط وجهها وسألته :

ـ أتريد أن تكتب عنهم أيضا؟

ـ إن استحقوا ذلك!

ـ إنهم يستحقون وزيادة!

وداری وراء ابتسامة عدم تصديقه وهو العليم بحساسيتها ونظرتها الخاصة للأمور . قال :

ـ إنى شديد الرغبة فى الاستماع .

تبدت مستجيبة متحمسة واندفعت تروى قصة جدودها كأنما كانت تنتظر هذا الإذن منذ دهر طويل .

قالت :

ـ أقدم جد سمعت عنه كان يدعى فرج ، من الصعيد الجوانى ، وكان قويا ، رزقه يأتيه من قوته ، ولكنه يقبل الهدايا ولا يغتصب ، فأحبه الجيران بقدر ما هابوه ، وكان هو وزوجته يؤاخيان الأرواح ويعرفان الغيب . .

دهش رشاد . ودهش أكثر لما طالعه فى وجهها من الجدية . وما تمالك إلا أن ضحك قائلا :

ـ هذا يعنى أنه كان قاطع طريق!

فهتفت محتجة :

ـ لو كان كذلك ما حدثنى عنه أحد بكلمة!

ـ لكن هذه الأوصاف . . ؟!

ـ بهذه العقلية يا حبيبى يعتبر حكامنا الأجلاء قطاع طرق!

ـ تعتبرينه إذن من الحكام؟

ـ فى بيئته ، لم لا؟!

وتظاهر بالتسليم ليشجعها على الاستمرار ، فقال :

ـ لا يخلو رأيك من وجاهة يا جدتى . .

فمضت بثقة :

ـ وبلغ المائة ولكن قدمه زلت وهو فى قمة العمر .

فاشتد انتباهه ، ولكنها بدت كأنما تريد أن تعبر فوق تلك النقطة ، فقال بتوسل :

ـ الحقيقة يا جدتى ، وإلا فما جدوى الحديث؟!

فابتسمت فى حياء وقالت بصوت خافت :

ـ يقال إنه أغرى بنتا فى الخامسة عشرة!

فكتم ضحكة كادت تفلت منه وهمس :

ـ شيء يفوق الخيال . .

ـ إنها زلة ولا شك ولكنه كان فحلا!

ـ وماذا فعل أهل البنت؟

ـ لا علم لى بذلك، ولكنه مات بعدها بقليل بغدرة جمل عضه .

الحق إن جدته التى استوت أمام عينيه كمثال للرصانة والقوة والثقافة، الحق إنها تملك جانبا خفيا أشبه بالأسطورة يحتار الإنسان فى تقييمه . وإذا بها تسأله :

ـ ما رأيك؟

ـ رجل عظيم حقّا، ولكننى أخشى أن يسيء إلى سمعتنا فى نظر الناس العاديين . .

ـ ألم تصادفك أحداث مسيئة للسمعة أكثر من زلة رجل فى المائة؟!

فقهقه عاليا ثم قال :

ـ استمرى يا جدتى .

فواصلت والنشوة تورد وجنتيها الذابلتين :

ـ الجد التالى يدعى غزال، الشهير بحرك، إذ فرض عليه رزقه التنقل المتواصل بين قرية وأخرى سعيا وراء الصيد والبيع، لم يعاشر أسرته إلا لماما، فلم ينعم بالعلاقات الحميمة، كأنه مطارد، ولذلك وهنت علاقته بالغيب والأرواح، ولم يعرف الاستقرار، ولا الرفاهية، وشغل مسيرته بالغناء متشكيا من الزمان، حتى عثر على جثته ذات يوم ملقاة فى مصرف، ولم يستدل على قاتله فقيل إنه إنسان، وقيل إنه حيوان، وقيل إنه عفريت . .

ووهبت دقيقة صمت للرثاء الذى تجلى فى عينيها، ثم قالت :

ـ من شدة حزنى عرفت سر مصرعه . .

فتساءل رشاد :

ـ كيف يا جدتى؟

ـ بالحلم المضيء، رأيت بدويا قاطع طريق وهو يخنقه ليسلبه ماله، ثم جاء ذئب فنهش بطنه، وشهد الواقعة من أولها عفريت ساحر هو الذى رمى به فى المصرف!

وتبادلا نظرة طويلة، حتى سألته :

ـ ما رأيك؟

فتساءل بارتباك :

ـ أيستحق غزال أن يؤرخ له أيضا؟

فقالت بجدية أدهشته :

ـ كيف لا؟ وهل قدر لمصرى أن يلى مكانة أسمى من مكانته فى زمنه؟ عاش مكافحا ومات شهيدا!

فقال مجاملا :

ـ كلامك كله حكمة يا جدتى . .

فقالت بعتاب :

ـ حذار من السخرية ، إنى أنضج عقل فى هذه الأسرة المبعثرة بين النزوات وسوء الحظ!

ـ ثقى بجديتى واستمرى . .

فقالت باسمة :

ـ ثم جاء فرج ، فرج الثانى المتسمى باسم جده ، نهض لحمل الأعباء بعد مصرع أبيه ، فعدل عن حياة التجوال عملا بنصيحة أمه ، فاختار عملا بين بين ، يقوم على الحركة ، ولكن فى القرية والسوق ، يسرح بالأغنام ويبيع اللبن ، فنعم بحياة مستقرة عادية وعشق الله والنساء ، وقرر ذات يوم أن يفجر قنبلة فى بيئته العائلية الساكنة . .

ـ قنبلة؟!

ـ أشهر إسلامه وتسمى باسم محمد المهدى!

فتساءل رشاد :

ـ كيف دخل جدنا الإسلام؟

ـ أعلن أن النبى عليه الصلاة والسلام زاره فى المنام وعرض عليه الإسلام فقبله دون تردد ، أما أهله فأكدوا أنه عشق فلاحة مسلمة!

ـ ورأيك أنت يا جدتى؟

ـ سيرته بعد ذلك شهدت له بالصدق ، وقد نذر بكريه للأزهر ، وهو الشيخ عبد الله المهدى أبى وجدك!

ـ هذا جدنا المعروف . .

ـ لعل الوحيدة التى تذكره هى كوثر أمك ، وقد عمل أول حياته مدرسا ، وكان أيضا يرتل القرآن بصوت عذب ، ثم اشترى أرضا وتفرغ لزراعتها فعُرف بمهارته كما عُرف بورعه ، ولما اجتاحه الروماتيزم انتقل إلى حلوان وشيد هذا البيت وكان قطعة من الجنة . . !

تأثر رشاد بأريحية جدته ونشوتها أكثر مما تأثر بسير الجدود أنفسهم. ولم تكن تبلورت لديه فكرة عن نوعية الكتابة التى سيختارها ولا عن ضرورة ـ أو عدم ضرورة ـ اشتراك الأجداد فيها. غير أن نشوة جدته أضفت على الرجال الغابرين سحرا خاصا نفخ فيهم ضياء فى مواقعهم الموغلة فى الزمان فأجّل قراره إلى حينه. وفكّر من جديد فى بعث الحديقة وتحقيق حلم جدته الملح.

وقال لأمه:

ـ ليتنى فكّرت فى شراء هذا البيت قبل الانفتاح..

فقرأت كوثر أفكاره وقالت:

ـ ما فات فات، تذكر ما سبق أن قلته.. ولا تنس الغلاء الذى لا يريد أن يقف عند حد.. ويحسن بك أن تفكر فى شىء واحد هو الزواج..

ـ تمنيت لو أتزوج هنا ولو نظير أجر أدفعه للمستحقين..

فقالت كوثر باهتمام:

ـ عندى فكرة أحسن، أن تبيع الأرض، وتكتفى بالعمارة، وبثمن الأرض تشترى شقة فى إحدى عمارات التمليك التى تقام فى حلوان وتواجه أيضا تكاليف الزواج..

ـ ونترك جدتى وحدها؟

فبادرته:

ـ إنى باقية معها لآخر العمر، المهم متى تشرع فى الزواج؟

فضحك قائلا:

ـ أرينى همتك!

فهتفت متهللة:

ـ وكلف بذلك أيضا جميع أصدقائك..

وتخرجت سهام وهند رشوان فى عام واحد، أما هند فانتظرت خطاب التعيين الذى لن يصل قبل عام، وأما سهام فقررت تقديم رسالة ماجستير طامحة إلى وظيفة معيدة اعتمادا على تفوقها البين. وأنهى شفيق وأمين مدة التجنيد فألحق الأول مهندسا بشركة الملاحة، والثانى مهندسا بشركة الصناعات الكيمياوية. وهمست ألفت فى أذن سهام بأن محاميا فى قضايا الحكومة يسعى لخطبتها فارتعدت وقالت:

ـ لن أفكر فى ذلك حتى أحصل على الماجستير.

فاعترضت ألفت قائلة:

ـ ولكن . .

غير أنها قاطعتها قائلة :

ـ لى أمل كبير فى بعثة إلى إنجلترا .

ـ والعمر ؟ !

ـ لا أهمية لذلك !

وعلم محمد برأيها ، فقال لها بحدة :

ـ إنك غير محتملة .

فقالت ملاينة :

ـ لى خطة يا بابا .

فصاح :

ـ خطة كالقطران !

واشتد غضبه فقال لها :

ـ لم يؤذنى أحد فى حياتى ـ باستثناء عبد الناصر ـ مثلما آذيتنى !

وحلمت سهام بالبعثة كملاذ أخير ، تلوذ به بمبدئها وجرمها الخفى ، وهما إرثها عن حبيبها الذى تلاشى فى غمضة عين . وجو أسرتها كان ينذرها دائما بالتهديد والخوف حتى تمنت هجره وشارفت مقته . وخُيِّل إليها أن أباها وشفيق أيضا يرمقانها بعين الريبة . وإن يكن فى ذلك شك فمما لا شك فيه أنهما لا يباركان موقفها من الحياة . وكل يوم فهما يزدادان إسلاما فيزدادان خطرا وتزداد هى غربة . وأمها لا أمل فيها ، فهى محبة لأبيها لدرجة العبادة ومؤمنة ببطولته ، وهى فى الوقت نفسه ـ على رقتها ـ غير موافقة أيضا على موقفها . فكيف إذا انكشف سرها وأعلنت خسائرها ! وجمعت المشكلات بين شفيق وابن عمته أمين . سأله شفيق :

ـ ما قيمة المرتب؟

فأجاب أمين ببساطة :

ـ لا شىء .

ـ ويهمنى جدّا أن أتزوج .

ـ أنا عندى خطيبتى ولا أدرى كيف أتزوج !

ـ بنات الهوى ارتفعت أسهمهن فى بورصة العرب لدرجة خيالية . .

ـ نحن محاصرون من جميع الجهات . .

ـ وقد تيأس خطيبتك فترحب بأى قادر .

فقال أمين بثقة :

ـ ليست من هذا النوع . .

ـ لو أنى مكانك لكتبت كتابى لأروح عن نفسى تاركا المستقبل للمستقبل !

وحليت الفكرة لأمين، ولكنه راح يقلّبها على شتى جوانبها قبل أن يندفع إليها كالمجنون . ووجد بابا لم يطرقه فقرر أن يطرقه . وقرر أن يطرقه سرا فأخفى عزمه حتى عن أمه المحبوبة . ذهب إلى فيللا المعادى لمقابلة أبيه سليمان بهجت . إنه يزوره من حين لآخر زيارات بريئة، وفى كل مرة يخيل إليه أن الفيللا تزداد تألقا وترفا . وكالعادة لقيه أبوه برقة معهودة، وسأله عن مامته وجدته وسائر أفراد الأسرة . وحضرت زاهية المقابلة فهى لا تترك الابن يخلو إلى أبيه أبدا . ولم يجد أمين بدّا من عرض قضيته على مسمع منها . قال :

ـ إنى خاطب كما تعلم يا بابا وأريد أن أتزوج . .

لم ينظر نحو زاهية، ولكنه شعر بأنها ماجت بالانفعالات . وتساءل الأب ببلاهة :

ـ وماذا يمنعك؟

فضحك محرجا وقال :

ـ أنت أدرى يا بابا .

هزَّ الرجل رأسه وقال :

ـ طالما أفهمت الجميع أننى لا أملك إلا جدران هذه الفيللا !

فتساءل برجاء :

ـ ولو على سبيل القرض؟

فقال سليمان بهجت بأسى :

ـ ليس لدى إلا الحزن والأسف .

وتدخلت زاهية فى الحديث قائلة :

ـ يا باشمهندس، أنتم أغنياء ولست فى حاجة إلى قرض .

فتحول إليها كارها ومتسائلا :

ـ أفندم؟

ـ هل لديك فكرة عن ثمن بيتكم القديم بحلوان؟

لم ينبس فقالت :

ـ ألف شركة أجنبية مستعدة أن تشتريه بمليون، سامعنى؟!

ثم وهى تضحك :

ـ أرأيت أنكم من أصحاب الملايين؟! أنا مستعدة أن أبيعه لكم في يوم!

وغادر أمين فيللا المعادى خائب المسعى، ولكن الملايين تتطاير من خياله معيدة خلق الدنيا من جديد. أجل. إن البيت ملك جدته، وهى نفسها تعيش بمعاش لا جدوى منه فى هذا الزمن. البيع يغنيها ويغنى أولادها وأحفادها. وحتى متى ينتظر أبناؤها؟! كوثر ومحمد ومنيرة يدنون من الستين ويعانون حياة متقشفة. جدته فى الثمانين، وهو يحبها، أو لا يكرهها، وصحتها أحسن من صحة كوثر ومنيرة أمه، وثمة حل متاح يعد الجميع بالسعادة. وهو خير على أى حال من رصد موتها باعتباره مفتاح الفرج للجميع. وبشّر بفكرته لدى أمه وخاله محمد وابن خاله شفيق وبنت خاله سهام. قال:

ـ وتنزل لكل مستحق عن حقه فتعفى التركة من الضرائب ويبقى لها ما يجعلها من الأغنياء إلى آخر العمر.

وطابت الفكرة لمن يغالبون وحش الغلاء. وقد خطرت لمنيرة كما خطرت لمحمد من قبل، ولكنهما أشفقا من إعلانها رحمة بأمهما، عاشقة البيت، والحالمة أبدا بإعادة الشباب إليه. وما الضرورة فى تكدير صفو امرأة محبوبة فى الثمانين من عمرها؟! ولكنهما غلبا على أمرهما إزاء حماس الأبناء المرهقين بالأزمة، وقال محمد:

ـ ليكن فى علمكم بأننا ـ أنا ومنيرة ـ لن نكون البادئين بفتح الموضوع.

ولم تحمل سهام للمشكلة كلها همّا، وقالت لنفسها:

ـ فليأكل بعضهم بعضا!

وانضم أمين وشفيق إلى لقاء الجمعة التالى فأحدث حضورهما دهشة، وقالت سنية:

ـ حسن أن تتذكرا بين الحين والحين أن لكما جدة!

فانقبض قلبا محمد ومنيرة على حين تربص شفيق وأمين بالفرصة المناسبة. وجرى الحديث بعيدا عن النيات المضمرة، آخذا فى مجراه زواج رشاد فى المقدمة، ثم كالعادة احتلت السياسة مكانها الدائم المرموق. قال رشاد:

ـ النصر لم يبشر حتى الآن بسلام دائم.

فقالت منيرة بلا تركيز حقيقى:

ـ بل ثمة إشارات فى الصحف إلى احتمال حرب خامسة!

فقالت كوثر بمرارة:

ـ كأنها مباريات الكرة الدورية..

مضى الحديث فى درجة حرارة منخفضة على غير عادة والضمائر مضطرمة بالمهمة الثقيلة التى جاءوا من أجلها. وساد صمت غير طبيعى. وتبادل أمين وشفيق نظرة متضمنة دعوة بالتقدم. واخترق أمين جدار الحرج فقال لجدته:

ـ معنا كلام يستحق أن يسمع!

فرمقته بنظرة بريئة باسمة، فقال:

ـ تعلمين طبعا بمتاعب الناس فى هذه الأيام، خاصة الشباب الذين يبحثون لأنفسهم عن مستقر..

فقالت سنية بحنان:

ـ قلبى معكم والله لن ينسى عبده!

فقال شفيق:

ـ ولكن يوجد حل يا جدتى.

ـ يسرنى أن أسمع ذلك.

ـ الحل بيديك أنت!

فدهشت سنية وتساءلت فى حيرة:

ـ أنا؟!

فقال أمين:

ـ إنك تملكين مليونا من الجنيهات!

قلّبت المرأة عينيها فى الوجوه ضاحكة، وقالت:

ـ مليون! ما أملك إلا معاش جدكم الذى تتناقص قيمته كل طلعة شمس..

فقال شفيق:

ـ هذا البيت القديم يساوى اليوم مليونا بالكمال والتمام..

تراجع جذعها حتى التصق بمسند الكنبة ذات الغطاء الأخضر كأنما تلقت ضربة، وتمتمت بصوت مبحوح:

ـ البيت القديم!

وراحت كالمستغيثة تنقل بصرها من رشاد إلى محمد إلى منيرة، ثم تساءلت بحدة:

ـ فيم تفكرون؟!

شعر محمد بأنه ينبغى أن يشترك فى الحديث ليصد عنه أى مضاعفات، فقال برقة:

ـ ماما، معذرة، إنهم متأزمون، ويروحون عن أنفسهم بالشكوى..

فقالت بوجه متجهم:

ـ إنى متألمة.

فقال بنبرة ملاطفة:

ـ معاذ الله، امنحينا بعض الصبر، لا بأس من شرح الفكرة، وأنت فى النهاية صاحبة الحق المطلق فى القبول أو الرفض، علم الله أننى كاره للحديث، ولكن هل يجوز أن نتجاهل أنات أبنائنا؟!

فقالت سنية بامتعاض شديد:

ـ سأصغى إليك وأنا كارهة!

فقال مستعينا بمهارته المهنية:

ـ عم تمخض تفكير الأولاد؟ يقولون إن الشركات الأجنبية تشترى الأراضى بأسعار خيالية، ويؤمنون بأنه يمكن أن نبيع بيتنا بمليون، لا عليك بعد ذلك أن تشترى شقة أو فيللا صغيرة مناسبة وأن تستثمرى بقية المال فى مشروعات تدر أرباحا محترمة، فى الوقت نفسه تمدين الأحفاد بما يمكنهم من تأسيس حياتهم وتحقيق آمالهم، خاصة وأن معاشك لا خير فيه وانتفاعك بالبيت قاصر على الإقامة المجانية، هذه هى الفكرة، وهى تستحق المناقشة، ولن يحملك أحد على قرار تأبينه..

اشتد التأثر بسنية لحد أنها لم تستوعب حديث محمد، غاية ما أدركته أنهم ائتمروا معا للانقضاض على البيت الذى لا تتصور للحياة معنى خارج جدرانه. قالت:

ـ ضقتم بحياتى والله لا يحب ذلك!

فهتفت منيرة:

ـ ماما، كيف هان عليك أن تقولى ذلك؟ نحن نحبك أكثر مما نحب أنفسنا..

ـ عندما رأيتكم داخلين ملكنى شعور غريب..

فضحك محمد مداريا مرارته، وقال:

ـ لا.. اطردى هذا الشعور من فضلك..

ـ وهذا تأويل حلم رأيته الليلة الماضية!

ـ تأويله خير ولا يمكن أن يكون إلا خيرا!

فقالت بحزم:

ـ إذن فلنغير الحديث..

ولكن أمين تساءل:

ـ ألا يحزنك ألمنا يا جدتى؟

فقالت بانفعال:

ـ كيف لا، إنكم تعيشون فى خواطرى وأحلامى وإن تجاهلتم وجودى لا فرق بين من يقيم منكم فى القاهرة أو فى ألمانيا.

ـ إنك جدتنا المحبوبة فى جميع الأحوال .

فلم تستجب لقوله وقالت :

ـ توجد فرص كثيرة فيما نقرأ ونسمع . .

فقال لها شفيق :

ـ أعطنا مثلا .

ـ البلاد العربية ، أيضا ممكن أن يبدأ أمين حياة الزوجية فى شقة العباسية . .

فقال أمين :

ـ أى زوجين يودان الاستقلال بمسكن . .

وقال شفيق :

ـ والبلاد العربية ليست تحت طلب الطالب . .

فقالت بحرارة :

ـ فكروا ، ولكن بعيدا عن هذا البيت . .

فقال أمين :

ـ يبدو أنك لم تفهمى الموضوع يا جدتى .

فقالت بعناد :

ـ لا حاجة بى إلى ذلك ، ولن يمس البيت وأنا حية !

ونظرت فيما أمامها وقالت بتعاسة لا تحل بها إلا فى الملمات :

ـ لم يبق من العمر إلا قليل ، اتركونى فى سلام حتى يستردنى الله الرحيم . .

فقالت منيرة بعصبية :

ـ ولا كلمة أخرى فى الموضوع ومعذرة يا ماما . .

ولما غادروا البيت أسبلت المرأة جفنيها فى إعياء وغمغمت لنفسها :

ـ الله يرحمه ويغفر له !

ودون دافع واضح قررت أن تمضى صباح الغد فى الحديقة اليابانية قبل أن ينطوى الخريف ويهل الشتاء . لم تعد فى نشاطها الأول ، وكثير من الذكريات تتلاشى ، وكثير من الأحلام تتراءى ولا تخلو من كوابيس . ثم إنها تغيب كامرأة وتتجسد فى صورة ورقة مالية يحوم حولها الجشع . ومضت على مهل ، حتى وقفت أمام الصورة التذكارية وهمست :

ـ أنت الدليل الحى على أن السعادة حقيقة لا خيال .

وقالت كوثر لرشاد :

ـ اشرع فى بيع الأرض وحسبك ما رأيت وسمعت . .

فهزّ رأسه موافقا وقال :

ـ لكنى لن أضنّ على الحديقة ببعض المال . .

ـ لا أدرى معنى لذلك . .

فقال برقة :

ـ جدتى تحبنى أكثر من الجميع وعلىَّ أن أبادلها حبا بحب . .

أما الراجعون إلى القاهرة فقد جمعهم الديزل وهم فى غاية من الانفعالات المتضاربة ، قال أمين :

ـ ما كنت أتصور أنها تملك هذه الطاقة الكبيرة من العناد!

فقال شفيق :

ـ لا تريد أن تفهم ولا أن تتفاهم . .

ـ لا أريد أن أعمر حتى أبلغ تلك الحال . .

فقالت منيرة بحدة :

ـ تذكرا أنكما تتحدثان عن أمنا!

واختلطت الهموم الشخصية بالهموم العامة ، وآمن كثيرون بأنها همّ واحد ذو أسماء متعددة ، ألا يكون الحل فى السلام ، فى الديمقراطية ، فى الشريعة الإسلامية؟! المهم ألا يكون حلا سبق أن جرب وأسهم فى تجميع الثمار المرة الراهنة . ليكن السلام ولكن ما باله يتدلل ويتعذر؟ ولكن الديمقراطية ، ها هى ذى الأفكار تتحاور وتتصارع ، وتتطور من منابر إلى أحزاب صريحة ، بل ها هو ذا الوفد يتعملق كمارد حطم قمقمه ، وتهتز الأرض وتنشق عن قرارات انضباط تعيد المارد إلى قمقمه ، ولكن الأحزاب الأخرى تتكون وحتى اليسار يكرس له حزب شرعى لأول مرة . وينادى كل حزب بتطبيق الشريعة الإسلامية ويشترك اليسار فى النداء ، ويشعر محمد بأنه لم يكن فى يوم من الأيام أقرب إلى هدفه مما هو اليوم . ومع ذلك قال بأسى :

ـ حتى الشيوعيون لهم حزب ، أما نحن فلا حزب لنا!

وارتفعت الأصوات المعارضة ، ولكن الأسعار ارتفعت أكثر وامتلأت الأسواق بالسلع المستوردة ، استهلاكية وكمالية ، وتحدّث المرهقون عن طبقة جديدة من أصحاب الملايين ، كالوباء ، يعرف بآثاره وعواقبه ولا ترى مكروباته بالعين المجردة . وإذا بالسماء تمطر دهشة أنست كل ذى هم همه . دهشة أسطورية لم يتصورها خيال من قبل . دهشة

تتميز بخواص الخوارق وسجايا المعجزات ونشوة الأساطير . عندما عُرف وأُعلن أن أنور السادات سيهبط فى أرض إسرائيل ! وتجمع كثيرون من سكان الأرض أمام التلفزيون ليشاهدوا بأعينهم كيف تتحدى الإرادة البشرية مجرى التاريخ لتحوله عن مساره الحتمى عنوة وبلا سلاح . وتجلى اللقاء بين أعداء الأمس ، تصافحت الأيدى ، تبودلت الضحكات ، والخطب ، والصلوات ، وتدفق ماء عذب من شقوق صخر صلد لتصب فى مجرى مليء بالحصى . واستأثرت الزيارة العجيبة بحديث الجمعة فى البيت القديم .

قال عنها رشاد :

ـ كأنها غزو القمر .

وتجلى الفتور فى وجهى محمد ومنيرة ، أخيرا وجدا ما يتفقان فيه . قال محمد :

ـ هذه هى الثغرة التى لا انسداد لها . .

وقالت منيرة :

ـ إنه استسلام لا سلام . .

فتساءلت كوثر ببرود :

ـ أتريدون حربا بلا نهاية ؟ !

وبدت سنية مطمئنة وسعيدة وإن خفق قلبها طيلة الوقت حبا وعطفا على رشاد . ونظرت صوب محمد وسألته :

ـ ما رأى شفيق ؟

ـ إنه مسلم مثلى تماما .

ـ إنى مسلمة قبلك بربع قرن ، وماذا عن سهام ؟

فقال بسخرية :

ـ متفقة معنا لأول مرة !

ـ وألفت ؟

ـ أظنها مثلك يا ماما !

فالتفتت نحو منيرة قائلة :

ـ وأمين على رأيك ؟ طبعا ، أخيرا اتفقوا !

ورجعت بعينيها إلى محمد وقالت :

ـ إنك رجل تغوص بين الناس ، أصدقنى بربك ما رأيهم ؟

فمطّ بوزه ممتعضا وقال :

ـ الشعب مع السلام بلا عقل !

فقالت سنية :

ـ رأيت استقبالهم للرئيس عند عودته فلم أدهش يا بنى ، كان الاستقبال مبايعة لشخصه من جديد ومباركة لخطوته ، هم الذين يموتون عند الحرب ويجوعون عند اللاسلم واللاحرب ، ورأيهم رأى الفطرة السليمة بعيدا عن شرك المذاهب . .

فقال محمد بصلابة :

ـ الجهاد لا يعتل بالعلل ، والحق كالشمس . .

ـ كل شيء مشروع فى سبيل الدفاع عن النفس !

فقالت منيرة :

ـ يبدو يا ماما أننا خسرنا العرب . .

فقال محمد :

ـ دمغونا بالخيانة ولهم حق .

فسألته باهتمام :

ـ ماذا يقول الناس عن ذلك؟

ـ إنهم حانقون على العرب ، نسوا التاريخ قديمه وحديثه ، ومهما قيل عن أخطائهم فأياديهم لا يمكن أن تنسى . .

فقالت سنية :

ـ أوافقك على ذلك ، ولكن الصواب يتوارى عند احتدام الخصام !

ـ بدأ أناس يقولون ما لنا وللعرب ، لسنا عربا ، هكذا تبدأ فترة مأساوية فى تاريخنا الحافل بالمآسى . .

فقالت بهدوء :

ـ الصواب يتوارى عند احتدام الخصام ، ولكنه لا يفنى أبدا . .

فقالت منيرة بازدراء :

ـ ليس أمامه اختيار : فإما يدور فى فلك الولايات المتحدة ، وإما الموت جوعا !

ولكن العجوز كانت متفائلة . بل عادت تحلم بتجديد شباب البيت والحديقة ، والمدفن أيضا .

وفى ذلك الوقت عهد رشاد إلى خاله محمد بمهمة بيع الأرض وشراء شقة له فى حلوان فقام بالمهمة على خير وجه ، واشترى له شقة جديدة فى عمارة للتمليك فى شارع الأمين غير بعيد من شارع ابن حوقل . أما مهمة البحث عن زوجة فقد تعثرت رغم كثرة الباحثين . ولدى كل فشل كانت كوثر تثور غاضبة وتقول :

ـ لولاه ما كان نصر ولا سلام!

وأخيرا أحرزت منيرة أول توفيق مع مدرسة فى دائرتها التعليمية . كانت أرملة لمدرس فى الثلاثين من عمرها ـ تكبر رشاد بعامين ـ وأم لغلام فى العاشرة ، تدعى سميحة ، وقد شرطت أن يقيم ابنها معها . واستمعت كوثر للمواصفات والشروط بفتور ، ولكنها سرعان ما غيّرت رأيها عندما زارت سميحة فى عين شمس ببيت والدها ، فأقرت لها بالوسامة وقوة الخلق . ودعيت للغداء مع منيرة فى البيت القديم ـ نظرا لظروف رشاد ـ فتم التعارف ، والارتياح من جانب رشاد ، فقال عقب انصرافها :

ـ نعمة من الله . .

وتنبأت له جدته بالتوفيق والذرية . ونشطت كوثر وسميحة مع معونة محمد لتجهيز الشقة الجديدة وكان من المتفق عليه أن يقوم رشاد بالأعباء المالية . وفى نفس الوقت اتفق رشاد ـ بوساطة محمد أيضا ـ مع مقاول حدائق ، لزراعة الحديقة بشجيرات الورد والأزهار كالفل والقرنقل والنرجس والحناء والنسرين وأشجار النخيل والكافور والسرو والحور والأكاسيا . واستعادت روح العجوز مرحها فشعشع رأسها بالآمال وقالت :

ـ ما دام أمكن هذا فكل شيء ممكن . .

وتم زواج رشاد فى وقار وهدوء يناسبان حاله . وتذكرت سهام طريقها الأول فغشيتها كآبة عابرة وضاعفت من ساعات عملها بعزيمة ثابتة . العمل وحده يضمد جراحها ويفتح لها الأبواب . ولم تيأس من الرسو فى مرفأ آمن ما دامت تهيمن على صياغة مستقبلها . كانت وما زالت مطمئنة إلى جمالها الفريد ولو أن الجمال لا يعفى من عثرات الحظ ـ وهل ينسى مثل عمتها منيرة ـ وكان ينتابها حنين إلى الحب والجنس أيضا ، وتسرها مداعبات المعجبين وما أكثرهم ، فتقول لنفسها أحيانا :

ـ فى مكان ما يوجد رجل مناسب واسع الإدراك . .

والتحمت رويدا رويدا بشبان وشابات ينتمون إلى رؤيتها السياسية فأترعت حياتها بالأنس والخطر معا ، وقالت لنفسها :

ـ لكلٍّ كأس عليه أن يشربها حتى الثمالة!

ولما يئس أمين من جدته كما يئس أبوه من قبل قرر أن يكتب كتابه . وحظيت الفكرة بارتياح أهل خطيبته فضلا عن هند رشوان نفسها . بذلك وجد الفرص للترويح عن أعصابه وخف ضغط الحياة عليه . وكان ـ وابن خاله شفيق ـ يتابعان الإعلانات عن الوظائف المطلوبة فى البلاد العربية . وسأل ابن خاله :

ـ ألا يعرقل موقف العرب الأخير مساعينا؟

فقال الآخر :

ـ علينا أن نجرب . .

وفعلت هند رشوان مثلهما فى متابعة الإعلانات ، فقالت منيرة لأمين :

ـ ممكن أخلى لك غرفة فى شقتنا تجهز للنوم .

فتساءل :

ـ والمهر ؟

فلم تحر جوابا ، فقال :

ـ المهندس على أى حال مطلوب وسنعثر على حل بطريقة ما فى الخارج أو فى إحدى شركات الانفتاح . .

وظن محمد أنه وجد حلا لمشكلة شفيق حينما علم بأن لأحد تجار الحديد ـ وهو زميل له فى الإخوانية ـ ابنة فى سن الزواج . وقال لشفيق :

ـ سيتكفل أبوها بكل شىء ، حتى المسكن ، قانعا منا بشىء رمزى .

فرحب شفيق ترحيب المستغيث ، ولكن أفراحه انطفأت لدى رؤيتها ، فهى لم تكن عاطلة من الجمال فقط ، ولكنها كانت أيضا صورة طبق الأصل من أبيها فتراجع وهو يقول لنفسه :

ـ كأنما أتزوج من الرجل نفسه !

وتضايق أبوه وقال له :

ـ مال وأخلاق ودين ، كن من أهل الباطن !

فأشار شفيق إلى أمه ألفت ، وقال ضاحكا :

ـ بل أكون مثلك من أهل الظاهر والباطن معا !

فتنهد محمد قائلا فى غيظ :

ـ احتار دليلى . .

وكان يتسكع فى ميدان طلعت حرب عندما دهمه منظر مثير . رأى صديقته القديمة زكية محمدين خارجة من أحد الحوانيت ، ماضية نحو سيارة شيفروليه زرقاء منتظرة . تراءيا فتوقفا عن الحركة وتهلل وجهاهما بابتسامة ، ثم تصافحا . دعته إلى الركوب إلى جانبها وانطلقت بالسيارة . لم تعد الطالبة المنحرفة ، ولكن أصبحت امرأة تخطر فى هالة ذات مغزى دسم . غانية تبرق بالجاه المستورد . لعل عريكتها قد لانت عقب انقطاع السيل العربى . وغلى ماء الشباب المحبوس فى عروقه فتبخرت التقوى ولو إلى حين . قالت وهى تتجه نحو المنيل :

ـ لم تزرنى فى شقتى الجديدة !

وكشخص يقيم فى جلبة محطة باب اللوق سحره الهدوء الوافد مع نسائم النيل، كما فتنته الديكورات والمرايا والتحف. وبلغت دهشته غايتها عندما رأى أم زكية ـ وقد رآها قديما وهى تسرح بالفاكهة الفاسدة ـ مقبلة لتحيته فى روب مزركش وخمار أرجوانى وشبشب مستورد، بيدها مسبحة من الكهرمان، وطيلة الوقت عانى من القلق كما عانى من الشهوة المضرمة. سلم بالهزيمة فى اللقاء الأول إذ كانت المقاومة فوق طاقته. لم يلمس كأس الكونياك، هذا ما استطاعه. ولما انقصفت مخالب الوحش الناشبة فى صدره حل فى ثقوبها الانقباض كالصديد. وسألته ضاحكة:

ـ أتذكر مشروعك القديم؟

فأجاب بذهول بدافع الحرج:

ـ طبعا.

ولم تعلق بحرف. ترى أتريد زوجا حقّا؟ ولأى غرض؟ وفى الحال تذكر سليمان بهجت ـ زوج عمته السابق ـ وزاهية، وما يتردد على الألسنة. وغادر الشقة بقلب ثقيل وهو يرجو ألا يضطر إلى العودة إليها مرة أخرى.

وكمثل حظوظهم تعثرت مفاوضات السلام حتى أوشك أن يقنط أنصارها ويشمت أعداؤها، ثم ولدت ولادة عسيرة فى كامب ديفيد، فانبسطت بحيرات الرضا كما انفجرت براكين الغضب. وكالعادة اجتمعت الأسرة فى حلوان عدا الأحفاد منضما إليهم رشاد الذى انتقل إلى شقته الجديدة بشارع الأمين. وكان المطر يجىء قليلا ويذهب قليلا ولا ينقطع، والسماء ملبدة بالغيوم تضفى على الضاحية جوا كالمغيب الدائم. وكان العمل قد بدأ فى الحديقة، ولكنه لم يتواصل كالمتوقع بسبب غياب العمال المتكرر، أما فى ذلك اليوم فقد توقف بسبب المطر. نظر محمد إلى أرض الحديقة التى تبدت كهدف متخلف عن غارة جوية وقال:

ـ ستكون أجمل حديقة فى حلوان.

فقالت سنية بجزع:

ـ إنى أعد الساعات والدقائق، ولكنى أدعو لرشاد من صميم قلبى..

فقالت كوثر:

ـ ها هو ذا السلام فمتى الرخاء؟!

فقال محمد متهكما:

ـ ما هو إلا كارثة، ولا نجاة إلا بالإسلام!

فابتسمت سنية قائلة:

ـ دائما تنذروننا بالكوارث ولكن الله يخيب الظنون . . وجعجع الرعد فارتجفت كوثر ، وقالت منيرة :

ـ أخشى أن يتعذر علينا الرجوع .

وجعلت سنية تسترق إليهم النظرات فتمتلئ بالشجن . هزلوا وشاخوا قبل الأوان ، حتى محمد على رغم الإصرار المحفور فى صفحة وجهه الذى يذكرها بحامد برهان . ماذا جرى لهم؟ لم ينعم أحد منهم بفرحة صافية قط . ولا أحد من أبنائهم . شفيق ، سهام ، أمين ، على ، الجميع سواء . الوحيد الذى عرف نفسه مستقرا هو رشاد ولكن بأى تضحية فادحة؟! والبيت هل يتجدد حقّا؟ وهذه الأرض المطينة متى تستوى حديقة غناء؟ إنها فى خيالها فردوس ، وأما فى الواقع فأرض تخددها الحفر ، وتحدق بها أكوام الطين ، متى تنبسط؟ متى تجىء المشاتل؟ متى ينقطع المطر؟ متى يواظب العمال؟ وعقب تناول الغداء انهل المطر أكثر وأرعدت السماء وهبطت السحب المعتمة فى تموجات عنيفة . قال محمد :

ـ علينا أن نذهب حال توقف المطر .

فقالت سنية :

ـ ما أجمل أن تبيتوا ليلتكم عندنا !

فسألها محمد مداعبا :

ـ ما آخر أخبار أحلامك؟

فقالت بفتور :

ـ إنى أحلم الآن وأنا يقظانة !

فقالت منيرة ضاحكة :

ـ كرامة جديدة يا ماما !

وحست سنية آخر رشفة فى فنجان القهوة ثم نادت أم سيد وأعطتها الفنجان قائلة :

ـ اقرئى هذا وأسمعينى ما يقول .

فتساءل محمد ضاحكا :

ـ أما زالت تصدقينها يا ماما؟

ـ إنها مثل أجهزة الإعلام ولكن لا غنى عنها !

وقرّبت المرأة الفنجان من عينيها الذابلتين ، وتفحصته مليا ، ثم قالت بنفس الثقة التى تتحدث بها منذ نيف ونصف قرن :

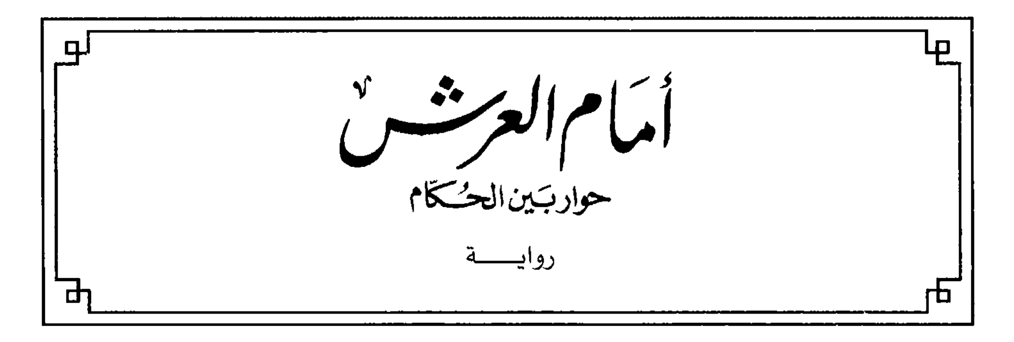
ـ أمامك سكة ليست بالقصيرة، فيها عقبات ، ولكن انظرى (مقربة الفنجان من سنية) . . هناك تنتظرك السلامة . .

وهزم الرعد فكاد الفنجان يسقط من يد العجوز ، ولكن محمد ضحك سائلا :

ـ ومتى يا أم سيد تزول العقبات؟

وكانت سنية المهدى تصعد بصرها وتصوبه ما بين السماء والحديقة فتطوعت بالإجابة قائلة :

ـ عندما يتوقف الرعد!



١

انعقدت المحكمة بكامل هيئتها المقدسة فى قاعة العدل بجدرانها العالية المنقوشة بالرموز الإلهية وسقفها المذهب تسبح فى سمائه أحلام البشر. أوزوريس فى الصدر على عرشه الذهبى، إلى يمينه إيزيس على عرشها، وإلى يساره حورس على عرشه، وعلى مبعدة يسيرة من قدميه تربع تحوت كاتب الآلهة مسندا إلى ساقيه المشتبكتين الكتاب الجامع، وعلى جانبى القاعة صفت الكراسى المكسوة بقشرة من الذهب الخالص تنتظر من سيكتب لهم الخلاص من القادمين.

وقال أوزوريس:

ـ قضى على البشر منذ قديم بأن تمضى حياتهم على الأرض معهم عند عبور عتبة الموت، كالظل تتبعهم حاملة الأفعال والنوايا، وتتجسد فوق أجسامهم العارية، وعقب حوار طويل اتفقت الكلمة على أن هذه الساعة هى الساعة الفاصلة، وها هى المحكمة تنعقد من أجل سياحة طويلة فى الزمن.

وأومأ أوزوريس إلى حورس فصاح الشاب بصوت جهورى:

ـ الملك مينا.

ودخل من الباب فى أقصى القاعة رجل متلفعا بكفنه، عارى الرأس، حافى القدمين، وأخذ يقترب من العرش بجسمه القوى وملامحه الواضحة حتى وقف على بعد ثلاث أذرع منه فى خشوع كامل.

وأومأ أوزوريس إلى تحوت كاتب الآلهة فراح يقرأ من الكتاب:

ـ أعظم ملوك الأسرة الأولى، حارب الليبيين وانتصر عليهم، وهاجم مصر السفلى وضمها إلى مملكته الجنوبية وأعلن نفسه ملكا على مصر كلها وتوج رأسه بتاج مزدوج، حول مجرى النيل وأنشأ مدينة منف فى الفراغ المتخلف عن ذلك.

وقال أوزوريس مخاطبا مينا:

ـ هات ما عندك .

فقال الملك مينا :

ـ لخص تحوت كاتب الآلهة حياتى فى كلمات فما أسهل الكلام وأشق العمل !

فقال أوزوريس :

ـ لنا رؤيتنا فى تقييم الرجال والأفعال فلا تبدد الوقت فى الثناء على نفسك .

فقال الملك مينا :

ـ ورثت مملكة الجنوب عن أسرتى ، وورثت معها حلما كبيرا طالما راود رجالها ونساءها وهو تطهير البلاد من الغرباء وخلق وحدة أبدية تضم بين جناحيها مملكتى الجنوب والشمال .

وكان صوت عمتى أوز أقوى محرك لإشعال ذلك الحلم الكبير كانت ترمقنى بإشفاق وتقول :

ـ أتقضى عمرك فى الأكل والشرب والصيد؟

أو تقول بكبرياء :

ـ لم يعلمنا أوزوريس الزراعة لتكون مناسبة للاقتتال حول توزيع ماء الفيضان . .

وقلت لزوجتى المحبوبة إننى أشعر بجذوة تستعر فى صدرى ولن تبرد حتى أحقق الحلم ، ووجدتها زوجة ملكية رائعة فقالت لى بحماس :

ـ لا تدع الليبيين يهددون عاصمتك ولا تدع الناس يمزقون الأرض التى وحدها النيل .

وانكببت على تدريب الرجال الأشداء وصليت إلى الآلهة مستوهبا الرضا والنصر حتى تحقق على يدى الحلم الذى طالما راود آبائى وأجدادى .

فقال أوزوريس :

ـ أزهقت من أرواح الليبيين مائة ألف !

ـ كانوا المعتدين يا مولاى .

ـ ومن أرواح المصريين شماليين وجنوبيين مائتى ألف .

ـ راحوا فدية للوحدة . . ثم حل الأمن والسلام وتوقف نزيف الدم الموسمى من جراء النزاع حول مياه النيل . .

فسأله أوزوريس :

ـ لم لَمْ تقنع قومك بالكلمة قبل اللجوء إلى السيف؟

ـ فعلت ذلك مع جيرانى وانضم بعضهم دون قتال ثم حقق السيف فى أعوام ما لم تكن تحققه الكلمة فى أجيال .

ـ يقدم كثيرون هذا المنطق مداراة لإيمانهم بالعنف .

فقال مينا بحرارة :

ـ استحوذ على مشاعرى مجد مصر وأمنها .

ـ ومجدك الشخصى أيضا .

فقال الملك مينا بتسليم :

ـ لا أنكر ذلك ولكن الخير عم البلاد .

ـ وكان لأسرتك وأعوانك أوفى نصيب منه وللفلاحين الحد الأدنى .

ـ مضى أكثر عهدى فى القتال والبناء ، لم أنعم بحياة القصور ولم أهنأ بلذيذ الطعام والشراب ولم أمس من النساء إلا زوجتى ، وكان لابد من مكافأة الأعوان على قدر أعمالهم . .

وطلبت إيزيس الكلمة ثم قالت :

ـ مولاى يحاكم بشرا لا آلهة ، وحسب هذا الرجل الشجاع أنه زهد فى النعيم والكسل فطهر البلاد من الدخلاء ، ووحد مصر فأطلق قوتها الكامنة وكشف عن خيراتها المطمورة ، ووفر للفلاحين الأمن والسلام ، إنه ابن أعتز ببنوته .

وصمت أوزوريس قليلا ثم قال :

ـ أيها الملك ، اتخذ مجلسك على أول كرسى فى الجناح الأيمن .

فمضى الملك مينا إلى كرسيه مدركا أنه أصبح من أهل النعيم فى العالم الآخر .

٢

وصاح حورس :

ـ الملك زوسر ووزيره أمحتب .

وجاء من الباب فى أقصى القاعة رجلان فى تتابع . المتقدم منهما ربعة متين البنيان ، والمتأخر نحيل أميل إلى القصر ، كلاهما متلفع بكفنه عارى الرأس حافى القدمين ، مضيا نحو العرش حتى مثلا بين يدى أوزوريس على الوضع الذى سارا عليه .

وقال أوزوريس مخاطبا أمحتب :

ـ تقدم وقف فى حذاء الملك فلا فرق فى هذا المكان بين ملك ورعية .

فصدع أمحتب بما أمر ، وراح تحوت يقرأ صفحة جديدة .

ـ الملك زوسر، أسس الأسرة الثالثة، غزا النوبة، اكتشف مناجم النحاس فى الصحراء الشرقية، بنى الهرم المدرج.

الوزير أمحتب، حكيم حفظت الأجيال حكمه، برع فى الطب والفلك والسحر والهندسة وقدس الناس ذكره بعد وفاته بمئات السنين.

ودعا أوزوريس الملك زوسر للكلام فقال:

ـ ورثت مملكة موحدة مترامية الحدود جمة الخيرات، تحب السلام ولكن يطمع فيها المحدقون بها.. فابتكرت سياسة لنفسى ولمن يجىء بعدى تقوم على أن الدفاع عن مصر يقتضى غزو القائمين وراء حدودها، ولما كانت النوبة هى أكثر البلاد تسللا إلى وطنى فقد قررت توسيع الحدود الجنوبية بغزو النوبة الشمالية وإقامة معبد للإله فيها. وعرف أمحتب بعلمه وسحره الكنوز المخبوءة فى الصحراء الشرقية فأرسلت البعثات لاستكشاف بطن الأرض فجوزينا على ذلك بالعثور على مناجم النحاس الذى وجدنا فيه منافع قيمة فى السلم والحرب، وتكاثر الخير فشيدت الهرم المدرج، كما شجعت العلوم ومكافأة النابغين فيها، ومضت الأيام فى عهدى حاملة لمصر التقدم والقوة.

ودعا أوزوريس أمحتب للكلام فقال:

ـ نشأت محبا للعلم والمعرفة، ودرست على كهنة منف العظام فحصلت على أقصى الدرجات فى الطب والهندسة والفلك والسحر والحكمة، ولما علم الملك بتفوقى دعانى إلى العمل فى حاشيته رغم انتمائى إلى الشعب الفقير فأثبت جدارتى فى كل ما كلفنى به، عالجت بنجاح الملكة من مرض من أمراض الخماسين وأنقذت بالسحر كبرى الأميرات من روح شريرة وعين حاسدة فولانى الملك الوزارة وعهد إلىّ ببناء الهرم فكان تحفة البناء فى عصره، وما بلغت ما بلغت من شأو فى العلم والعمل إلا بتأييد رع وإلهامه..

وقال أوزوريس للملك زوسر:

ـ لقد غزوت النوبة دون أن تبدر منها أى بادرة اعتداء على حدود مملكتك؟

فقال الملك زوسر:

ـ قلت يا مولاى إننى اهتديت إلى فكرة الدفاع عن الحدود بغزو القائمين وراءها.

ـ نظرية لا تصدر إلا عن قوىّ يضمر العدوان..

ـ كان واجبى الأول أن أدفع عن بلادى أى أذى محتمل..

ـ وشيدت معبدا للإله وأوقفت عليه أراضى كان ينتفع بها الفقراء.

ـ ولكن للمعابد حقوقا فوق كل حقوق.

ـ كلام لا يقبل دون مراعاة للظروف والملابسات .

ولاذ الملك بالصمت فقال أوزوريس :

ـ ولم توفر لعمال المناجم الرعاية الكافية فهلك منهم كثيرون!

فقال الملك :

ـ لا ينجز عمل كبير بلا تضحية وضحايا .

ووجه أوزوريس الخطاب إلى الوزير أمحتب قائلا :

ـ حدثنى عن موقفك من سياسة الملك . .

فقال الوزير أمحتب :

ـ كان رأيى أن العلاقات التجارية أنجع من الغزو فى تأمين الحدود ، وأن نفقات المعبد يجب أن تؤخذ من مصر ويعفى منها أهالى النوبة الفقراء ، كما رجوت ألا نرسل البعثات إلى الصحراء الشرقية حتى نوفر لها الرعاية الطبية والتموين الكافى ولكن مولاى كان متلهفا على دعم أسباب الأمان والرخاء لمصر وأهلها . .

فقال له أوزوريس :

ـ سعيد من يوفق بين الدفاع عن نفسه أمامنا فلا تحاول الدفاع عن غيرك ، والآلهة لم تقصر فى تربيتكم فلقنتكم مبادئ الزراعة والقتال والأخلاق معا .

وطلبت إيزيس الكلمة ثم قالت :

ـ زوسر ملك عظيم رغم هفواته ، وأمحتب ابن عزيز تتشرف به أمة . .

وهنا قال أوزوريس :

ـ أيها الملك ، سأكتفى بلومك ، فاجلس أنت ووزيرك بين الخالدين .

فجلس زوسر إلى يمين مينا كما جلس أمحتب إلى يمين زوسر .

٣

ونادى حورس :

ـ الملك خوفو .

فجاء الملك بقامته المتينة المائلة للطول ، عارى الرأس حافى القدمين متلفعا بكفنه حتى مثل أمام العرش بخشوع .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ الملك خوفو، رأس الأسرة الرابعة، صاحب الهرم الأكبر، نظم الإدارة تنظيما لم تعرفه من قبل ولا من بعد، وفى عصره فاضت الأرض بالخيرات وعمرت الأسواق وبلغت الزراعة والصناعة والفنون أقصى درجات الرفعة، وانفجرت هيبة فرعون فى الآفاق كالشمس فهابتها القبائل فشمل السلام الربوع والأنفس. .

ودعا أوزوريس الملك للكلام فقال:

ـ فُتنت منذ صغرى بالدقة والنظام، وآمنت بأنه يجب أن يكون لكل نشاط قوانينه وتقاليده لا فرق فى ذلك بين الشرطة والنحت أو العمارة أو الحياة الزوجية، فنفذت شخصيتى إلى كل قرية متمثلة فى الموظفين ورجال الأمن والمعابد وأصبحت مصر مجموعة من التقاليد السامية والنظم الدقيقة، وهو ما أعاننى على تشييد أعظم بناء عرفه الإنسان، اشتركت فيه الألوف المؤلفة على مدى عشرين عاما فلم يتسلل إليه اضطراب أو إهمال، ولم يحرم أحد من العاملين فيه من العناية والرعاية ولم يغب فى الوقت نفسه عن عين الرقابة الساهرة، هكذا خاض قومى تجربة فذة بنجاح مثالى وأثبتوا قدرتهم الفائقة على خدمة الإله والفوز برضاه وبركاته.

فسأله أوزوريس:

ـ هل سخرت أمتك لبناء قبر لك؟

فقال الملك خوفو:

ـ لو أردت قبرا لحفرته فى الجبل بعيدا عن الأعين الطامعة ولكنى شيدت رمزا للخلود الإلهى يحوى من الأسرار ما لا يحيط به عقل بشر، وتنافس الناس فى العمل به حتى أقمت لهم مدينة كاملة وسعيدة ومقدسة حيث يبذل الجهد فيها من أجل الإله وحده. . كان عملا يليق بالأحرار لا العبيد!

والتفت أوزوريس إلى الجالسين إلى يمينه ممن كتب لهم الخلود السعيد فى العالم الآخر وقال:

ـ يسمح الكلام لمن يشاء.

فقال الملك مينا:

ـ عمل مجيد يذكرنى ببناء منف العظيمة التى لم يمهلنى العمر لأتمها.

وقال الملك زوسر:

ـ كان الأوفق توجيه القوة المتاحة للغزو وتأمين الحدود.

فقال الملك خوفو:

ـ كانت خيرات البلاد المتاخمة تأتينى بلا قتال، وكان حرصى على أرواح رعيتى لا يقل عن حرصى على المجد والخلود.

فقال له أوزوريس :

ـ ولكنك أزهقت روحا بريئة عندما تنبأ لك رجل بأن طفلا سيرث عرشك .

ـ على الملك أن يدافع عن عرشه دفاعه عن وحدة أمته ، وفى سبيل ذلك يصيب ويخطئ .

ـ ألم يكن فى ذلك تحد لإرادة الإله؟

ـ نحن نفعل ما نراه واجبا ويفعل الإله ما يشاء .

فقال أوزوريس :

ـ وذاعت أقاويل عن احتراف كبرى بناتك الدعارة .

فقال خوفو بأسى :

ـ قد يصاب أنبل الناس فى عرضه بغير علمه .

ـ بل قيل إنك باركت سقوطها لتواجه عسرا ألمّ بك؟

ـ محض افتراء ، ولا يجوز الخداع فى هذه القاعة المقدسة!

وطلبت إيزيس الكلمة ثم قالت :

ـ هذا ملك منير مثل الشمس فى سماء العروش ، وكم من إمبراطوريات تلاشت وبقى هرمه شامخا ، وطالما كانت عظمته مثار حسد لدى العاجزين من بنى وطنه والغرباء .

وعند ذلك قال أوزوريس :

ـ اجلس أيها الملك على كرسيك بين الخالدين .

٤

وهتف حورس :

ـ الحكيم بتاح حتب .

فدخل رجل صغير الجسم نحيله ، لم يقلل عرى رأسه وقدميه من وقاره ، وتقدم على مهل حتى مثل فى أدب أمام العرش .

ومضى تحوت كاتب الآلهة يقرأ :

ـ الحكيم بتاح حتب ، عاش مائة وعشرة ، عمل وزيرا للملك أسيسى أحد ملوك الأسرة الخامسة ، له وصايا قيمة ذائعة الصيت .

ودعاه أوزوريس للكلام فقال :

ـ تلقيت العلم فى معبد بتاح، وتجلى تفوقى منذ صباى، وعملت كاهنا ردحا من الزمن حتى اختارنى الملك وزيرا له، وكانت أيام العظمة والمجد قد ولت وكأنها لم تكن، وولى العرش ملوك لا قوة لهم ولا حكمة، شغلوا بأهوائهم عن البناء والتدبير وتحقيق الأهداف، فقوى نفوذ الكهنة وطمع حكام الأقاليم فى السلطة ونيل المآرب، وانتشر الفساد بين الموظفين، فناء الفلاحون بالظلم والهوان، وارتفعت أنات الشكاوى حتى انعقدت دخانا فى السماوات، ودأبت على تأمل الأحوال بمرارة وأذهلتنى العلاقة المبهمة بين الآلهة والناس، ولم أقصر فى إبداء المشورة ولكنها تلاشت فى تضاعيف التسيب والأنانية، ولما بلغت العاشرة بعد المائة استدعانى الملك وأمرنى أن أضع كتابا أجمع فيه مختارات من وصاياى ففعلت. .

فقال له أوزوريس:

ـ أسمعنا بعضا من وصاياك.

فقال بتاح حتب:

ـ إذا دعاك كبير إلى طعام فاقبل ما يقدمه لك ولا تتكلم إلا عندما يسألك.

ـ ما سر اهتمامك بآداب المائدة؟

ـ قصدت فى الظاهر آداب المائدة ولكنى عرضت فى الحقيقة بجشع الكهنة الذين كانوا يطالبون بالمزيد من الأوقاف ويتخمون بالمآكل والمشارب!

فقال أوزوريس:

ـ أسمعنا مزيدا من وصاياك.

فقال بتاح حتب:

ـ لا تخن من ائتمنك لتزداد شرفا ويعمر بيتك، وعنيت بها حكام الأقاليم الذين دأبوا على بسط نفوذهم متحدين وحدة المملكة.

وهنا تساءل الملك مينا:

ـ هل نسوا الدماء التى سفكت فى سبيل الوحدة؟

فقال الملك خوفو:

ـ وكيف استهانوا بالتقاليد والأخلاق التى تقدست فى عهدى؟

وأشار أوزوريس إلى الحكيم بتاح حتب ليواصل حديثه فقال:

ـ قلت أيضا «إذا دخلت منزل غيرك فاحذر أن توجه ذهنك إلى خدر نسائه، فكم هلك أناس من جراء ذلك». . وقد أعلنت ذلك بناء على ما ذاع عما يجرى فى حريم القصر.

فسأله أوزوريس :

ـ ألم يكن الملك يسىء معاملة حريمه؟

ـ من أجل ذلك قلت أيضا «إذا كنت عاقلا فدبر منزلك وأحب زوجتك، شريكتك فى حياتك، وقدم لها الطعام والملابس، وأحضر لها العطور وأدخل عليها السرور، ولا تكن شديدا معها، فباللين تملك قلبها، وأد مطالبها الحقة ليدوم معها صفاؤك ويستمر هناؤك».

فقال أوزوريس :

ـ أسمعنا وصية موجهة للجميع.

ـ لا تترك التحلى بحلية العلم ودماثة الأخلاق.

فقال الملك مينا :

ـ لم يكن فى عصرى حكماء ولكن الرجال حرروا أرضهم من الدخلاء ووحدوا مملكتهم، وها هو عصر انحلال وفساد لم يتمخض عن فعل قيم، ولكنه ترك بعض الكلمات الجميلة، فما جدوى الحكمة؟!

فاعترض خوفو قائلا :

ـ الحكمة تعيش كالهرم وأكثر.

وقالت إيزيس :

ـ لا تقللوا من قيمة ابنى الحكيم، نحن نحتاج إلى الحكيم فى عصور التدهور كما نحتاج إلى الطبيب فى أيام الأوبئة، وسيظل للكلمة الطيبة أريجها على الدوام.

وأخيرا قال أوزوريس :

ـ اذهب أيها الحكيم إلى كرسيك بين الخالدين.

٥

وصاح حورس بصوته الجهورى :

ـ ثوار فترة الظلام الممتدة ما بين سقوط الدولة القديمة وقيام الدولة الوسطى.

تدخل جماعة متباينة الأشكال والأحجام، مضت فى أكفانها عارية الرءوس حافية الأقدام حتى مثلت فى صف واحد أمام العرش.

وتلا تحوت كاتب الآلهة صفحة جديدة :

ـ هؤلاء هم رءوس الثورة، قادوا الجماهير الغاضبة فى ثورة دموية مخربة، ثم حكموا البلاد عهدا طويلا امتد ما بين سقوط الدولة القديمة وقيام الدولة الوسطى. ولم يتركوا وراءهم أثرا يدل عليهم إلا المعابد المهدمة والقبور المنهوبة والذكريات المرعبة.

فقال أوزوريس:

ـ رشحوا من يمثلكم عند اقتضاء الكلام.

فأشاروا إلى رجل نحيل طويل كأنما قد وجهه من صخر، وقالوا:

ـ أبنوم، فهو أول من دعا إلى العصيان والقتال.

فدعاه أوزوريس إلى الكلام فقال أبنوم:

ـ تجاهل التاريخ أسماءنا وأفعالنا، فهو تاريخ يدونه الخاصة ونحن من عامة الفلاحين والصناع والصيادين، ومن عدالة هذه القاعة المقدسة أنها لا تغفل من الخلق أحدا، وقد تحملنا من الآلام فوق ما يتحمل البشر، ولما انصب غضبنا الكاسر على عفن الظلم والظلمة نعتوا ثورتنا بالفوضى ونعتونا باللصوص، وما كانت إلا ثورة على الطغيان باركتها الآلهة. .

فسأل خوفو:

ـ كيف تبارك الآلهة العدوان على المقدسات؟

فقال أبنوم:

ـ بدأت المأساة بضعف الملك بيبى الثانى لعجزه وطعونه فى السن وذهوله عما يجرى حوله وتسليمه بأكاذيب المنافقين من حوله، فاستقل حكام الأقاليم بأقاليمهم واستبدوا بالأهالى، فرضوا المكوس الجائرة، ونهبوا الأقوات، وأهملوا أى إصلاح للرى والأرض، وانضم إليهم الكهنة حرصا على أوقافهم، يبيحون لهم بفتاواهم الكاذبة كل منكر، غير مبالين بأنات الفقراء وما يعانون من قهر وذل وجوع، وكلما قصدهم مظلوم طالبوه بالطاعة والصبر ووعدوه بحسن الجزاء فى العالم الآخر، وبلغ منا اليأس غايته، فلا حاكم يعدل، ولا قانون يسود، ولا رحمة تهبط، فانطلقت بين قومى أدعوهم إلى العصيان ومحاربة الظلم بالقوة، وسرعان ما استجابوا إلى النداء، فحطموا حاجز الخوف والتقاليد البالية، ووجهوا ضرباتهم القاتلة إلى الطغاة والظالمين، وسرت النار المقدسة إلى جميع البلاد وانطلقت قذائف الغضب الأحمر على الحكام والموظفين ورجال الدين والمقابر، ثم استولينا على مقاليد الحكم.

فقال أوزوريس:

ـ أما قرأت أشعار إيبوور الحكيم وهو يرثى المقدسات وما حل بالصفوة وضياع القيم؟

فقال أبنوم :

ـ كان إيبوور شاعرا حقا ولكنه كان ينتمى إلى السادة الظالمين ففاضت دموعه حزنا على أبناء وبنات الطغاة وهاله أن يحل محلهم أبناء الشعب . .

فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ إنك تتحدث يا أبنوم من منطلق حقد أسود وهو إثم كبير .

فقال أبنوم :

ـ إنه الحقد الذى زرعه فى صدورنا السادة الظالمون .

فقال الملك زوسر :

ـ عجيب ما أسمع وحق الآلهة : . . ما مصر إلا مركب من تقاليد مقدسة إذا اختل منه عنصر تطاير البناء وتفتت ، ففرعون هو الإله المجسد ، والصفوة نوابه الذين يعكسون نوره ، والموظفون خدمه وأتباعه المبلغون رسالته ، فكيف يحل مكان هؤلاء قوم من الفلاحين والصناع والصيادين؟

فقال أبنوم :

ـ لقد حلوا محلهم بالفعل وأثبتوا أنهم خير منهم وأن الآلهة تتجسد فيمن يرفع راية العدل والرحمة أيا يكون . .

فهتف الملك زوسر :

ـ يا لك من وقح!

فالتفت أوزوريس إليه قائلا :

ـ لا أسمح بتجاوز الأدب فى الخطاب ، اعتذر .

فقال زوسر فى خشوع :

ـ أقدم المعذرة والأسف .

فقال أوزوريس مخاطبا الجالسين على كراسى الخلود :

ـ تسمح تقاليد المحاكمة لكم بالمناقشة ولكن فى حدود الأدب ، وتذكروا جيدا أنكم قد تناقشون أناسا من ديانات أخرى جدّت بعد دينكم!

ثم التفت إلى أبنوم وقال :

ـ كان عهدكم عهد ظلام فلم لَمْ يخلف وراءه أثرا ولا وثيقة؟

فقال أبنوم :

ـ ذاك من فعل المؤرخين ، لقد أقام الفلاحون حكومة من أبنائهم ، حكمت البلاد

فاستتب الأمن وانتشر العدل وامتد ظل الرحمة، شبع الفقراء وتلقوا العلم والمعرفة وتولوا أكبر المناصب، قامت دولة لا تقل فى عظمتها عن دولة الملك خوفو. ولكنها لم تبدد المال فى بناء الأهرامات ولا فى الحروب، وأنفقته فى النهوض بالزراعة والصناعة والفنون وتجديد القرى والمدن، ولما رجعت مصر بعدنا إلى عصر الملوك أحرقوا وثائق البردى المسجلة لأعمالنا..

فقال الملك خوفو:

ـ غابت عنك حكمة بناء الهرم.

وقال الملك زوسر:

ـ وغابت عنك حكمة إعلان حرب لغزو بلد على الحدود.

فقال أبنوم:

ـ كان شعارنا أن تربية فلاح خير من بناء معبد.

فقال الحكيم بتاح حتب:

ـ نطقت بالكفر.

فقال أبنوم:

ـ ليس الإله بحاجة إلى معبد ولكن الفلاح بحاجة إلى التربية، من أجل ذلك باركتنا الآلهة فحكمنا مئات السنين فى سلام ورخاء.

فسأله الملك زوسر:

ـ إذن فلماذا تقوضت مملكتكم؟

ـ تقوضت عندما نسى الحكام أصلهم الذى نبتوا فيه وتوهموا من جديد أنهم منحدرون من صلب رع فأصابهم الكبر وتسلل إليهم الظلم فحاق بهم ما حاق بكل ظالم.

فقال أوزوريس:

ـ تخلل ثورتكم ارتكاب جرائم فاضحة لا يقرها دين أو خلق أو قانون.

فقال أبنوم:

ـ أشهد أمام عدالتكم بأننى لم آمر بها ولم يبلغنى خبر عنها..

وهنا قالت إيزيس:

ـ أقر لهذا الابن بأنه من أحكم أبنائى وأنبلهم، سعدت بلادى فى عهده سعادة لم تذقها من قبله ولا بعده، وأن إيمانه يشهد له بالصدق والتقوى، أما ما ارتكب من جرائم فى ثورته فلا تخلو الجماهير الثائرة من مجرمين يندسون فى جموعها إشباعا لنزواتهم.

وتفكر أوزوريس وقتا ثم قال :

ـ اذهبوا يا سادة إلى مجالسكم بين الخالدين .

٦

وصاح حورس :

ـ أمنمحعت الأول .

وجاء رجل متوسط الطول قوى البنيان بالحال التى يجىء عليها القادمون ، فمثل بين يدى العرش .

وراح تحوت كاتب الآلهة يقرأ :

ـ رأس المملكة الوسطى ، طهر البلاد من بعض الدخلاء ، قضى على المنازعات الداخلية ، وساس حكام الأقاليم بالحكمة ، وغزا بلاد النوبة .

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال :

ـ كنت أحد حكام الأقاليم ، وكانت السلطة المركزية فى غاية من الضعف والفساد ، وكانت الحروب لا تهدأ بين حكام الأقاليم حتى غزا البدو بعض أطراف المملكة ، وأحزننى جدا ما آل إليه حال بلدى فصممت على إنقاذها ، فرضت على نفسى وأسرتى التقشف ودربت الرجال ثم غزوت ما حولى من أقاليم وأعلنت نفسى ملكا وطالبت الحكام بالولاء ، ورضيت فى سبيل ذلك بالنزول لهم عن بعض الامتيازات واتخذت من أبنائهم حاشية لى ، ثم زحفت بجيش قوى على المتسللين فطهرت البلاد منهم ، ونظمت الإدارة وأصلحت المعابد ونشرت الأمن والعدل فى الريف ، ثم غزوت النوبة لأقيم معبدا للإله الذى أيدنى بنصره .

فقال أوزوريس :

ـ كدت تقتل فى مؤامرة دبرتها حاشيتك فما تعليلك لذلك؟

ـ أرادت امرأة أن تغتصب العرش لابنها وضمت إليها بعض رجال النوبة . .

ـ النوبة بلاد فقيرة لا تحتمل اغتصاب بعض أراضيها لوقفها على المعابد .

ـ تصادفنا ضرورات لا مفر منها .

وهنا تكلم الثائر أبنوم قائلا :

ـ كان عليك أن تعيد الحكم للفلاحين ، ولكنك نسيت أصلك وأرجعت البناء الظالم القديم إلى أصله .

ـ كان حكام الأقاليم قد نسوا أصلهم ، وإرجاع الحكم للفلاحين كان يعنى حربا أهلية . . .

فقال له الملك خوفو :

ـ لقد أعدت إلى مصر تراثها المقدس .

وقالت إيزيس :

ـ لقد أنقذ مصر من الفوضى وأجلسها على عرش المجد من جديد ، ولم يكن فى وسعه أن يفعل خيرا مما فعل .

ونطق أوزوريس بالحكم قائلا :

ـ خذ مجلسك بين الخالدين .

٧

وهتف حورس :

ـ الملك أمنمحعت الثانى .

ومضى تحوت كاتب الآلهة يقرأ :

ـ اتبع سياسة والده .

فدعاه أوزوريس إلى الكلام فقال :

ـ أحطت خبرا بكل سياسة أبى ولم أجد من سبيل خيرا من أن أتبعها بكل دقة وأمانة .

فقال الثائر أبنوم :

ـ ولكن من لا يتقدم خطوة يتأخر خطوتين .

فقال أمنمحعت الثانى :

ـ لقد وطدت علاقة مصر بالنوبة ، وأنشأت علاقات جديدة مع بلاد بنت جلبت لنا العطور والبخور . .

فوجه أبنوم سؤالا إلى أوزوريس قائلا :

ـ مولاى ، هل يتساوى جميع الخالدين فى العالم الآخر؟

فقال أوزوريس بجفاء :

ـ يجب أن تعلم أنك لم تعد ثائرا يا أبنوم ، ولكن لا بأس من أن أشرح لكم المصير ، فاعلموا أن محكمتى تفضى إلى ثلاثة مقامات ، مقام الجنة ، ومقام الجحيم ، ومقام

بينهما للتافهين غير المذنبين ممن لا يستحقون الجنة ولا النار، وفضلا عن ذلك فإن الجنة مراتب، ففيها ملوك وفيها خدم كل بحسب عمله فى الدنيا . .

وقالت إيزيس :

ـ حسبه أن البلاد نعمت فى عهده بما نعمت به فى عهد أبيه من أمان ورخاء غير منكور .

فقال أوزوريس :

ـ خذ مجلسك بين الخالدين .

٨

وصاح حورس :

ـ أمنمحعت الثالث .

فدخل رجل عملاق، سار بكفنه حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ تمتعت الدولة فى عهده بالاستقرار والأمان والقوة، وجه همته لاستخراج المعادن من الصحراء، جدد وسائل الرى، زادت المحاصيل وعم الرخاء . .

ودعاه أوزوريس للكلام فقال :

ـ ورثت ملكا مستقرا فزدته استقرارا ببناء جيش قوى، ودام حكمى خمسين عاما فأتيحت لى فرصة طيبة لإرسال الحملات إلى الصحراء واستخراج المعادن . وجددت وسائل الرى، ففاض الخير، وارتقى الأدب والفن كما لم يرتقيا من قبل، وقد تغنى الناس بعهدى مترنمين :

يكسو القطرين حلة خضراء

هو الغذاء وفى فمه الخير

فقال أوزوريس :

ـ ترك لك جدك وصية تقول «واجبك يحتم عليك استعمال الشدة مع مرءوسيك، فالناس تحترم كل من يخيفهم ويفزعهم، لا تتخذ منهم أخا ولا رفيقا ولا صاحبا، كل من أكل خبزى قام ضدى، وكل من ائتمنته خاننى» فكيف انتفعت بها؟

فأجاب أمنمحعت الثالث :

ـ لا أنكر أنى تأثرت بها أول عهدى بالحكم، وجميع أفراد أسرتى زلزلتهم المؤامرة التى كادت تودى بحياة جدى العظيم الطيب حتى الذين لم يعاصروها، ونصحنى بعض المستشارين بألا أغدق الخير على شعبى أن يتمرد ويطغى، ولكن القلب لا يستجيب فى المعاملة إلا إلى إلهامه الذاتى، وقد وجدته يحثنى على حب الناس وفعل الخير فلم أتردد فى إطاعته ولم أندم على ذلك أبدا.

فقال أمنمحعت الأول:

ـ لقد أخطأت يا بنى ولولا حسن حظك لهلكت..

فقال الحكيم أمحتب وزير الملك زوسر:

ـ بل أصبت السداد والرشاد فإن القلب إن نطق عن الخير فإنما عن إلهام إله ينطق.

فقال الثائر أبنوم بمرارة:

ـ واأسفاه، كان الشعب يحكم فأصبح الإحسان إليه موضع جدل..

وهنا قالت إيزيس:

ـ هذا الابن الطيب العظيم تتفتح له أبواب السماء بلا دفاع.

فقال أوزوريس:

ـ اذهب إلى مجلسك بين الخالدين..

٩

ونادى حورس قائلا:

ـ الملوك سبكمساف، نفرحوتب، حاتحور، نفر خارع، أنتف، تبمايوس.

فدخل الستة فى أكفانهم وساروا عراة الرءوس حفاة الأقدام حتى مثلوا بين يدى العرش.

قرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ حكموا مددا قصيرة، اشتهرت بالضعف والفساد والتناحر على العرش، فقوى حكام الأقاليم والكهنة، وطغى الموظفون، وجاع الشعب، وطمع فى مصر لصوص الأمم حتى احتلها الهكسوس فأذاقوها الهوان.

فدعاهم أوزوريس إلى الكلام، فقال سبكمساف:

ـ عشت مهددا من أسرتى والحاشية، فعجزت عن مواجهة التحديات.

وقال الآخرون مثل قوله ثم غشيهم الصمت .

فقال أبنوم :

ـ واضح أنه لم يوجد فى مصر كلها رجل ينبض قلبه بالإخلاص ، وما أشبه تلك الحال بالحال التى كانت عليها البلاد يوم دعوت الفلاحين للثورة .

فقال أمنمحعت الأول :

ـ إنك لا تفكر إلا فى الثورة ، وقد كنت حاكما لإقليم ووجدت البلاد تغرق فى الفوضى فلم أدع إلى فوضى أشد ، ولكنى دربت الرجال واستوليت على العرش فأنقذت الأرض والناس دون عدوان على الأوضاع المقدسة ودون إهدار للأرواح والأعراض . .

وقالت إيزيس :

ـ كانوا ضعافا ولا حيلة لضعيف .

فقال أوزوريس :

ـ لقد ارتكبتم فى حق وطنكم جريمة لا تغتفر ، ولم يكن الضعف ذنبكم الوحيد ، ولكن خلت قلوبكم من النبل والنوايا الطيبة ، فاذهبوا إلى الباب الغربى المفضى إلى الجحيم .

١٠

وهتف حورس :

ـ الملك سيكننرع .

يدخل رجل نحيل القامة مع ميل إلى الطول ، فتقدم فى كفنه حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ كان أمير طيبة وحاكم الجنوب الأقصى وهو الإقليم الذى لم يخضع لحكم الهكسوس وإن اضطر إلى دفع الجزية لهم ، وتحرش به الهكسوس تمهيدا لضم إقليمه إلى سيادتهم المباشرة مدعين أن خوار أفراس البحر فى بحيرة قصره تنفى النوم عن أجفان ملكهم ، ولكنه أبى التسليم ، وتقدم على رأس جيشه لمواجهة التحدى ، وقد أبلى بلاء حسنا وسقط فى المعركة قتيلا بإصابات عديدة فى رأسه ووجهه . فدعاه أوزوريس إلى الكلام فقال :

ـ إنى أنتمى إلى الأسرة التى قاومت الغزو وتحصنت فى الجنوب حتى مل العدو محاربتها فأعلنت الهدنة وترك الجنوب الأقصى تحت حكم أسرتى نظير جزية سنوية، واستمر الحال على ذلك أكثر من مائة عام حتى وليت الحكم، ولم أكن أنأى عن التفكير فى العدو الغاصب ولا فى الاستعداد لمناجزته إذا سولت له نفسه الزحف جنوبا. وكانت إمكاناتى فى العدة والعدد محدودة فضممت النوبة إلى إقليمى وعاملتها معاملة الند للند وقويت جيشى بتجنيد بعض رجالها. ولما تحدانى العدو تضاربت الآراء من حولى، فدعت قلة إلى الدفاع وحذرت الكثرة من سوء العاقبة، ولكننى شجعت الخائفين وأيقظت الهمم بالدين والحكم والأمثال حتى صحت العزيمة على القتال. وقد قاتل جيشى قتالا مريرا استرد به بعض ثقته بنفسه، وفى إحدى المعارك أحاط بى الأعداء فقتلت منهم ثلاثة ثم انهالت علىّ الحراب والبلط.

فسأله الحكيم بتاح حتب:

ـ هل استنفدت جميع الوسائل السياسية قبل الدخول فى معركة غير متكافئة؟

فقال سيكننرع:

ـ قد فعلت، إذ كانت تلزمنى ثلاث سنوات استعدادا للتاريخ الذى وقّته بدءا للمعركة ولكننى علمت بأنهم حشدوا جبهتهم قبل إرسال إنذارهم.

فقال أبنوم:

ـ عشت بطلا ومت بطلا.

فقالت إيزيس:

ـ أكرر ما قال ابنى أبنوم من أنك عشت بطلا ومت بطلا.

وعند ذاك قال أوزوريس:

ـ إلى كرسيك بين الخالدين.

١١

ونادى حورس:

ـ الملك كاموس.

فجاء رجل متوسط القامة متين البنيان فمضى إلى موقفه أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ تولى الإمارة فى نفس اليوم الذى قتل فيه أبوه حتى لا تهن العزائم، وألقى نفسه فى المعركة دون تردد، وظلت الحرب سجالا وهو صامد على رأس جيشه حتى مات.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ وجدت نفسى مطالبا من بادئ الأمر بالمحافظة على روح القتال بين جنودى الذين هزمهم مصرع قائدهم، فانقضضت على مقدمة العدو ولم أترك لجندى من جنودى فرصة للتردد. ولم تغب عن تقديرى قوة العدو وتفوقه، فتحصنت فى موقع ضيق بين النيل والجبل واتخذت موقف الدفاع حتى أسترد الأنفاس وأجمع الشمل، وفى الوقت نفسه واصلت التجنيد والتدريب، وفارقت الحياة بعد أن أعيانى الجهد والسهر..

فقال الملك مينا:

ـ عاش كلانا مدة حكمه فى ميدان القتال.

وقال أبنوم:

ـ جميع الملوك مدينون بجاههم لمصر إلا هذه الأسرة فإن مصر مدينة لها..

وقالت إيزيس:

ـ ليس الرجل فى حاجة إلى دفاعى.

فقال أوزوريس:

ـ خذ مجلسك بين الخالدين.

١٢

وصاح حورس:

ـ الملك أحمس.

فدخل رجل طويل ممشوق القامة، فمضى بكفنه حتى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ حل محل أبيه عقب وفاته، ولم يكف عن مناجزة العدو، واستكمل فى أثناء ذلك استعداده فتحول من الدفاع إلى الهجوم وأثبت مهارة فى القيادة تضاهى شجاعته الشخصية فانتقل من نصر إلى نصر، حتى حاصر هواريس عاصمة الهكسوس واقتحمها، ثم طارد العدو فى آسيا حتى مزقه وشتت فصائله..

فدعاه أوزوريس إلى الكلام فقال :

ـ الحق أننى جنيت ثمرة استعداد أسرتى الطويل ، وأعاننى فى الكفاح ابن من أبناء الشعب هو القائد أحمس بن إبانا ، وكلما ظفرنا فى موقعة ارتفعت روح القتال فى جنودى وتخاذلت بين جنود العدو ، فلم نعد نتصور أنه يمكن أن ننهزم ولم يعد يتصور أنه يمكن أن ينتصر ، وبسقوط عاصمته ، انتهى حكم الهكسوس وتحررت مصر . ولم يهدأ لى بال حتى طاردتهم خارج الحدود الشرقية كيلا تقوم لهم قائمة مرة أخرى أو يفكروا فى الانتقام ، وأمضيت بقية عمرى فى تطهير البلاد من آثارهم وأعوانهم وفى تنظيم الإدارة وإصلاح الرى والأرض ، وانتهى عهدى ومصر تستقبل جيلا جديدا من أبنائها يزهو بالبطولة ويحلم بالغزو ويضطرم بروح الاقتحام .

فقال خوفو :

ـ تلك طبيعة جديدة .

فقال زوسر :

ـ وهى رائعة أيضا .

فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ لعلها لا تخلو من شر .

فقال سيكننرع :

ـ لا سبيل إلى حياة كريمة وسط متوحشين إلا بها .

وهنا قالت إيزيس :

ـ فلنبارك هذا الابن الذى حرر أرضنا .

فقال أوزوريس :

ـ إلى كرسيك بين الخالدين .

١٣

ونادى حورس :

ـ الملك أمنحتب الأول .

ودخل رجل ربعة عريض المنكبين فمضى متلفعا بكفنه إلى العرش ، ومثل فى خشوع .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ فى أول عهده زحف الليبيون على الغرب فطردهم بعد أن كبدهم خسائر فادحة ، كما مد حدود مصر الجنوبية ، ثم غزا جانبا كبيرا من سوريا .

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال :

ـ وليت العرش فوجدت أن ذكريات الماضى البعيد والقريب لا تبرح الأذهان . فالشيوخ لا ينسون أشباح الهكسوس وإذلالهم لهم ، والشبان ينتشون بانتصارات أحمس ويطالبون بالمزيد منها ، فعكفت أولا على تنظيم الإدارة ونشر مظلة القانون والأمن ومراقبة الموظفين ، وحدث أن تعرضت الحدود الغربية لزحف ليبى فتصديت له بسرعة فاقت تقدير العدو وأنزلت به هزيمة منكرة ، ولفحتنى نار الحماس المؤججة فى قلوب القواد والضباط فقمت بغزوة موفقة فى مجاهل النوبة ، ثم أبلغتنى العيون أن فلول الهكسوس تتجمع طمعا فى استرداد ما فقدته فى بلادنا فسرت على رأس حملة فأعلنت فلسطين الولاء دون قتال ، ثم هجمت على تجمعات الهكسوس فى غرب سوريا فمزقت شملهم وقضيت على البقية الباقية منهم ، وأمرت بتشييد معبد لآمون ثم رجعت بالأسرى والغنائم ، وتعهدت جميع البلاد المغزوة بدفع الجزية فازدادت موارد البلاد وعمرت الأسواق .

فقال أحمس :

ـ أحسنت بما فعلت كل الإحسان ، فحدود مصر الجنوبية لا تأمن إلا بامتلاك النوبة ، ومركز الدفاع عن حدودنا الشرقية يقع فى سوريا .

فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ هذا يعنى أن أمان مصر لا يوجد حقا إلا بخلق أعداء موتورين خارج حدودنا !

فقال أحمس :

ـ علمتنى الحياة أنها صراع مستمر لا راحة فيه لإنسان ، ومن يتهاون فى إعداد قوته يقدم ذاته فريسة سهلة لوحوش لا تعرف الرحمة .

فقال أمنحتب الأول :

ـ ولم أضن بغال من القرابين على المعابد ، استجلابا لبركة الآلهة ففى ساحتها المقدسة الضمان الأول والأخير لنجاة مصر . .

فقالت إيزيس :

ـ أعمال هذا الابن خير شهادة له .

فقال أوزوريس :

ـ امض إلى مجلسك بين الخالدين .

١٤

وهتف حورس :

ـ الملك تحتمس الأول .

فدخل رجل متوسط القامة رشيق القد وتقدم فى كفنه حتى مثل بين يدى العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ استقرت الأحوال فى الداخل فى عهده، قام بغزوة فى النوبة، وأخمد ثورة فى سوريا واقترب من حدود ما بين النهرين، وعمل على جلب الأخشاب من لبنان فأدخلها فى بناء المعابد .

ودعاه أوزوريس للكلام فقال :

ـ كانت أمى امرأة من الشعب فلم يكن دمى الملكى خالصا، فتزوجت من الأميرة أحعموس، وأصبحت بذلك ولايتى للعرش ولاية شرعية . وجذبنى التطلع إلى المجهول إلى التوغل فى بلاد النوبة لعلى أصل إلى النبع المقدس الذى يتسلل منه النيل، وسددت سهمى إلى قائد العدو فأرديته قتيلا فتمزق شمل جيشه، وكنت أول من بلغ الشلال الثالث، ونصبت هناك خمسة أحجار أثرية سجلت انتصاراتى كما شيدت قلعة أقمت فيها حامية، ونظمت الإدارة فتحسنت أحوال القبائل وما كدت أرجع إلى طيبة حتى جاءتنى أخبار عن ثورة قامت فى سوريا فقدت حملة إليها وأخمدتها . وبرجوعى إلى مصر قررت أن أخصص الجزية للإصلاح والبناء، معتمدا على عبقرية المهندس أنينى الذى شيد صرحين كبيرين عند مدخل معبد آمون وبناء ساحة كبيرة مسقفة ذات عمد من خشب الأرز اللبنانى، وأسعدنى الحظ بإصلاح معبد أوزوريس ـ معبدكم يا مولاى ـ بالعرابة المدفونة وزودته بالأثاث الجميل والأوانى الذهبية والفضية، وأوقفت عليه الأوقاف .

فسأله أحمس :

ـ ما سبب قيام الثورة فى سوريا؟

ـ التخلص من دفع الجزية .

فسأله أمنحتب الأول :

ـ ألم تترك حامية بها كما فعلت فى بلاد النوبة؟

ـ كلا، فقد أشفقت من تمزيق قواتى وأبقيت عليها درعا للطوارئ.

فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ هكذا نحصد ما زرعنا!

أما الثائر أبنوم فقال :

ـ بلغ بك الهوان أن تضطر إلى الزواج من أميرة لإضفاء الشرعية على ولايتك، لا لذنب سوى أن أمك كانت من نساء الشعب، ولولا أنكم تبرأتم من ثورة الشعب المجيدة وحكمه العظيم وأسدلتم عليها ستار الظلمات، لما عرضتم كرامتكم لذلك الهوان.

فقال خوفو مخاطبا أوزوريس :

ـ نشكو إليك أيها الإله هذا المشاغب الغريب بيننا.

فقال أوزوريس :

ـ لقد احتل موضعه بموجب حكم إلهى عادل!

وقالت إيزيس مشيرة إلى تحتمس الأول :

ـ لا يحتاج هذا الابن إلى دفاع.

فقال أوزوريس :

ـ إلى كرسيك بين الخالدين.

١٥

ونادى حورس بصوته الجهورى :

ـ الملك تحتمس الثانى.

فدخل رجل نحيل بادى الضعف، وذهب إلى موقفه أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ قضى على تمرد قام فى الجنوب وآخر فى آسيا، وكان ضعيفا عليلا فحكم فترة قصيرة وانتقل إلى العالم الآخر.

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال :

ـ عقب وفاة أبى طمع الأبناء فى العرش واستند كل إلى حزب يؤيده. وقد رشحنى أبى للعرش ولكن أختى حتشبسوت اغتصبته وتزوجت من أخى لتغطى به أنوثتها،

غير أن حزبى تمكن من رد حقى إلىّ فوليت العرش دون عنف أو سفك دماء. حتى الانتقام لم ألجأ إليه، ورغم سوء صحتى فإننى لم أتردد عن ضرب التمرد الذى قام فى الجنوب والآخر الذى قام فى آسيا، وتعذر علىّ الاستمتاع بالحياة وعجزت عن الاستمرار فيها إلا بضعة أعوام.

فقال الملك مينا:

ـ كان يجب أن تنزل عن حقك لضعفك، فما ينبغى أن يتصدى للحكم ضعيف..

فقال تحتمس الثانى:

ـ رغم ذلك فقد انتصرت.

فقال مينا:

ـ بفضل الحظ ورغم ضعفك..

فقالت إيزيس:

ـ لقد بذل ما فى وسعه واقترن عمله بالفلاح.

فقال أوزوريس:

ـ خذ مجلسك بين الخالدين.

١٦

ونادى حورس:

ـ الملكة حتشبسوت.

فدخلت امرأة متوسطة القامة مليئة البناء فمضت فى كفنها حتى مثلت أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ مضى عصرها فى سلام ورخاء، وقد شيدت معبد الدير البحرى، وأحيت الصلات ببلاد بنت وأحضرت منها شجر المر وغرسته فى ساحة المعبد، وانهالت عليها الجزية فتفشى الثراء ورضى الناس.

ودعاها أوزوريس إلى الكلام فقالت:

ـ كنت الوحيدة المستحقة للعرش، فأنا آخر من بقى من ذرية الملكة أحعموس ودمائى ملكية إلهية، بخلاف أخى تحتمس الثانى الذى كان ابنا لزوجة غير شرعية تدعى موت نفرت، وأخى تحتمس الثالث كان ابنا لمحظية تدعى إيزيس. وقد اضطررت

للزواج من تحتمس الثالث احتراما لتقاليد بالية تستهجن حكم النساء، وقد عمل كاهنا فى معبد آمون ولم يكف عن المكائد للوصول إلى العرش وعاونه على ذلك كهنة آمون. وقد انتزع الملك منا وتولى أخى تحتمس الثانى بفضل تنظيم حزبه، ولما مات عاد الحكم إلىّ ومعى تحتمس الثالث. وقد فرضنا من الرقابة حصارا حوله فأبطلنا مكائده وانزوى فى الظل كشىء لا قيمة له، واستعنت برجال يعتبرون من أعظم الرجال مثل سنموت، وسن من، وحابوسنب، ووهبت للناس عصرا ذهبيا من السلام والرخاء حتى آمنوا بالمرأة وقدرتها على الحكم..

فقال أبنوم:

ـ فى عهدنا الذى دفنتموه فى الظلام حكمت ملكتان عظيمتان..

وسألها الحكيم أمحتب:

ـ ولم لم تدعمى عرشك بإشراك أخيك فى الحكم؟

فقالت حتشبسوت:

ـ لم يكن مثلى من سلالة الشمس، وكانت سابقته فى حَبْك المكائد توجب الحذر منه، وقد أشاروا علىّ باغتياله ولكننى كرهت الغدر وسفك الدماء.

فسألها الحكيم بتاح حتب:

ـ هل يفهم من كلامك أن العلاقة الزوجية بينكما كانت مجرد علاقة رسمية؟!

فأجابت قائلة:

ـ نعم.

فعاد يسألها:

ـ وهل أفنيت عمرك عذراء؟

فقال أوزوريس:

ـ لا حق لك فى طرح هذا السؤال والملكة فى حل من تجاهله.

وقالت إيزيس:

ـ ابنة تفخر بها أى أم وليست فى حاجة إلى دفاع.

وقال أوزوريس:

ـ إلى كرسيك بين الخالدين.

١٧

ونادى حورس :

ـ الملك تحتمس الثالث .

ودخل رجل قصير القامة متين البنيان تنطق معالم وجهه بالجلال ، فتقدم متلفعا بكفنه حتى مثل فى خشوع أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ تولى العرش عقب وفاة حتشبسوت فطهر الإدارة من خصومه وقبض على النظام بيد من حديد ، أكرم كهنة آمون وبوأهم منزلة السيادة على كهنة القطرين ، وأعد جيشا وأسطولا لم تعرف البلاد لهما نظيرا من قبل ، وخاض غمار حروب عديدة تمخضت عن إنشاء أكبر إمبراطورية شهدها العالم القديم حتى وقته ، دانت بسلطانها آسيا الصغرى وأعالى الفرات وجزر البحر ومستنقعات بابل وليبيا وواحات الصحراء وهضاب الصومال وشلالات النيل العليا ، فأصبحت مصر ملتقى الأجناس من جميع الأمم ومستودع الخيرات والسلع ، وأقام المعابد والحصون والمسلات فى مصر وجميع البلاد التابعة لها ، وترك وراءه وطنا يتربع فوق قمة العظمة والحضارة .

فدعاه أوزوريس إلى الكلام فقال :

ـ ذقت فى مطلع حياتى الظلم كما لم يذقه ملك ، كنت أحق إخوتى بالعرش نظرا لما أودعت الآلهة فىّ من قوة ، ولما حصّلته من علوم الدنيا والدين ، ولكنى حُرمت من حقى بسبب تافه هو أصل أمى ، ولم أصل إلى حقى بمكيدة كما قيل ، ولكن الإله آمون وهو يستعرض الكهنة فى عيده توقف أمامى وأنا ماثل بين الكهنة معلنا عن ترشيحه لى للعرش ، فسجدت بين يديه متقبلا نعمته ، ولكن حزب الملكة ضرب حولى حصارا معتمدا على القوة ، فتعطلت كافة صلاحياتى ، وعشت فى الظل كرجل لا وزن له ، ولما قبضت على مقاليد السلطة بعد موت الملكة ، أنزلت العقاب بالرجال الذين اغتصبوا سلطتى الشرعية ودنسوا فراش زوجيتى . وأثمر حكم المرأة ما كان خليقا أن يثمره من ضعف ، فتفكك الجيش وتفشى العصيان فى الولايات الخارجية وتلاشت هيبة مصر وإلهها آمون العظيم ، وكانت الإمبراطورية حلمى الأكبر لا حبا فى القتال أو طمعا فى الثراء ، ولكن دفعا لشعاع الحضارة المصرية كى يعم نوره ما حولنا من أقوام ، وكى يحتل آمون مكانته الرفيعة بين جميع الآلهة .

فقال أحمس :

ـ أشهد بأنك حققت أحلامنا جميعا ، وحسبك أنك عرفت النصر عشرات المرات ولم تعرف الهزيمة مرة واحدة .

وسأله أبنوم :

ـ ماذا قدمت للفلاحين؟

فأجاب تحتمس الثالث :

ـ كان منهم جنودى وضباطى وقوادى ، وقد أصلحت وسائل الرى وأشبعت احتياجاتهم فقتلت الفقر فى ربوعهم ، وتحول منهم جمع غفير للعمل فى المدن فى شتى الصناعات والحرف والتجارة .

فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ لقد قامت إمبراطوريتك على الآلاف المؤلفة من جماجم المصريين والأمم!

فقال تحتمس الثالث :

ـ الموت لا مفر منه ، ولئن يموت الإنسان وهو يبنى المجد خير من أن يهلك فى وباء أو بسبب لدغة ثعبان ، والحق أننى لم أكن جبارا ولا محبا لسفك الدماء ، ورسمت خططى على أساس من المفاجأة والإتقان لأحصل على أسرع نصر بأقل تكلفة من الأرواح ، وعقب حصار مجدو وقع فى يدى جميع أعدائى من الجنود والملوك والأمراء ، فاستوهبونى حياتهم فرق قلبى لهم ووهبتهم الحياة ، وأرسلت أبناءهم إلى طيبة ليتلقوا العلم والحضارة ، وليتأهلوا لحكم بلادهم مكان الحكام المصريين ، وهى سياسة إنسانية حكيمة لم تعرف قبلى .

فقالت الملكة حتشبسوت :

ـ لولا الثراء الذى تركته لك ما استطعت أن تحشد حملة واحدة من حملاتك العديدة على آسيا .

فقال تحتمس الثالث :

ـ حقا لقد أورثتنى ثراء فى المال ، ولكنك تركت الجيش على حال تستحق الرثاء ، وسرى الفساد بين رجالك المقربين . .

فقالت حتشبسوت :

ـ ما زلت حاقدا سيئ الظن فاسد الطوية ، وما زلت مصرا على اتهامى فى شرفى دون دليل . .

فقال أوزوريس :

ـ حسبكما تبادل للكلمات الجارحة . .

وهنا سألته إيزيس :

ـ أكنت تحبها يا بنى؟

فقال تحتمس الثالث :

ـ كانت تسخر من قصر قامتى التى سجدت أمامها ملوك جميع الأمم . .

فقالت إيزيس :

ـ هذا الابن العظيم جدير بأن تفخر به مصر على مدى الزمان .

فقال أوزوريس :

ـ اذهب إلى مجلسك بين الخالدين .

١٨

وصاح حورس :

ـ الملك أمنحتب الثانى .

فدخل رجل عملاق تطفح الهيبة من طوله وعرضه فمضى فى كفنه حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ لم يعرف العرش رجلا فى قوته البدنية ، وكان عهده عهد سلام فعكف على البناء والتعمير .

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال :

ـ كنت قويا فخافنى جميع القريبين منى ، والتزم كل بواجبه وكأن عينى تراقبه ، وكان لى قوس لا يستطيع جذب وتره سواى ، ودعانى الاستقرار المستتب إلى تركيز همتى على البناء والتعمير ففعلت .

وسأله الحكيم أمحتب :

ـ ماذا كان موقفك حيال عظمة سلفك؟

فأجاب أمنحتب الثانى :

ـ كان مثلى الأعلى ، ولكنى كنت أشعر أحيانا بضآلتى بالقياس إليه فتعترينى كآبة شديدة . .

فقالت إيزيس :
ـ على أى حال لقد حكمت فعمرت ولم يطالبك زمانك بأكثر مما قدمت . .
فقال أوزوريس :
ـ إلى مجلسك بين الخالدين .

١٩

ونادى حورس :
ـ الملك تحتمس الرابع .
فدخل رجل طويل نحيل تقدم حتى مثل بين يدى العرش .
وراح تحوت كاتب الآلهة يقرأ :
ـ تولى العرش بسبب وفاة ولى العهد ، وقام تمرد فى الأملاك الأسيوية فأدب المتمردين ، وتزوج من موت أويا ابنة ملك ميتانى .
ودعاه أوزوريس للكلام فقال :
ـ لم أكن مرشحا للعرش ، وذات يوم قمت برحلة إلى أبى الهول وجلست فى ظله أستريح ، وداعبنى شبه نعاس فسمعت صوته يطالبنى بإزالة الرمال من حوله واعدا إياى ـ إذا فعلت ـ بالعرش . وفى الحال دعوت العمال وأمرتهم بإزالة الرمال متحملا عبء ذلك كله . وحدث ما لم يتوقعه أحد فمات ولى العهد ووجدتنى على العرش دون منافس . ومن أول يوم أدركت أن واجبى ينحصر فى المحافظة على العظمة الموروثة ، فتعقبت المتمردين ، ولتوثيق العلاقات مع الأمم تزوجت من ابنة ملك ميتانى .
فقالت الملكة حتشبسوت :
ـ إنها خطوة تشى بشىء من الضعف . .
فقال تحتمس الرابع :
ـ اعتبرتها سياسة حكيمة . .
فقال خوفو :
ـ اختيار ملكة من الخارج أمر لا يخلو من الخطورة!
فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ أوافق الملك على أنها سياسة حكيمة .

فقال تحتمس الرابع :

ـ وفضلا عن ذلك فالحريم الملكى لا يخلو أبدا من نساء الأمم . .

فقالت إيزيس :

ـ قام هذا الابن بواجبه فى الداخل والخارج .

فقال أوزوريس :

ـ إلى كرسيك بين الخالدين .

٢٠

ونادى حورس :

ـ الملك أمنحتب الثالث والملكة تيى .

ودخل الزوجان الملكيان وتقدما فى كفنيهما حتى مثلا أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ دعيت الملكة تيى مع الملك لمشاركتها فى الحكم ، وكان عهد هذا الملك عهد رخاء وعز لم يسبق له مثيل إذ استقبلت مصر خيرات الأمم وأموالها ، وسهر على إمبراطوريته بيقظة وكفاءة ، فأدب أى متمرد أيا كان موقعه ، واستمتع بالحياة كما لم يستمتع ملك من قبل ، فشيد القصور والمعابد ، وعشق الطعام والشراب والنساء ، وفى آخر أيامه تزوج من ابنة ملك ميتانى فى سن حفدته فعجلت بوفاته .

ودعاه الملك للكلام فقال :

ـ ورثت عن جدى العظيم تحتمس الثالث إمبراطوريته فعقدت العزم على أن أرث عظمته أيضا ، ولم يكن ثمة مجال لتوسيع الإمبراطورية فقويت دعائمها وأدبت متمرديها ، ثم مارست العظمة فى البناء والتعمير وتوفير الرخاء لشعبى ، وتحديت التقاليد فتزوجت فتاة من الشعب كانت خير شريك لى فى ملكى بما أوتيت من فطنة وحكمة ، وخلفت ورائى عهدا سيظل رمزا للسعادة والرخاء .

فقالت الملكة حتشبسوت :

ـ سرتنى شهادتك للملكة بالجدارة فهى شهادة للمرأة وفيها رد بليغ على أعدائها .

فقال أمنحتب الثالث :

ـ تيى ملكة عظيمة بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء .

فقال أبنوم :

ـ ولكنك جازيتها أسوأ الجزاء بولعك النهم بالنساء .

فقال أمنحتب الثالث :

ـ لكل ملك حريمه ، وتلك الأهواء العابرة لا تنال من مكانة الملكة العظيمة . .

ـ وتتزوج في شيخوختك بنتا فى سن حفيدتك؟

فقال الملك :

ـ أردت أن أوثق علاقة مصر بميتانى .

فقال أوزوريس :

ـ لا يجوز الكذب فى هذه القاعة المقدسة .

فقال أمنحتب الثالث بنبرة المعتذر :

ـ الحق أنى سمعت عن جمالها الفائق وكنت مجنونا بالجمال ، ورغم الشيخوخة والمرض أفرطت فى الحب حتى قضى علىّ .

فسأله الحكيم بتاح حتب :

ـ أكانت تلك ذروة حكمة العمر؟

فقال أمنحتب الثالث :

ـ ميتة الحب أفضل من ميتة المرض .

* * *

ودعا أوزوريس الملكة تيى للكلام فقالت :

ـ اختارنى الملك زوجة عن حب ، وانجذبت إليه مبهورة بالحب وأبهة الملك ، وربط الحب بيننا حتى آخر العمر . وقد استشارنى ذات مرة فيما يعرض له من شئون الملك فارضاه رأيى غاية الرضا وقال لى : «إنك يا تيى امرأة حكيمة بقدر ما أنت أنثى محبوبة» . ومن يومها لم يعقد أمر حتى يستمع إلى رأيى ، وجعلنا نستقبل الوزراء والمسئولين معا ، وأشارك برؤيتى فى المسائل المطروحة على بساط البحث ، وكل مسئول فى المملكة اعترف بقدرى وحكمتى . وهرع إلىّ الكهنة فى إبان الأزمة الدينية التى استفحل أمرها بسبب دعوة ابنى إخناتون ، وقد بذلت أقصى جهدى لتجنب الكارثة ، ومنع الحرب الأهلية .

أما عن ولع زوجى بالنساء فقد كان لكل فرعون حريمه ، ولم تطمح زوجة إلى

الاستئثار بالملك، بل لم أجد بأسا فى انتقاء الجميلات له حتى تصفو نفسه وينهض بأمانته على خير وجه قاهرة بقوة إرادتى غير المرأة الطبيعية مقنعة نفسى بأن الملكة ليست امرأة عادية وأنها مسئولة عن سياسته!

فسألتها حتشبسوت:

ـ ألم تنهزم الملكة ولو مرة أمام المرأة؟

فقالت تيى:

ـ لم أعرف الهزيمة إلا أمام ابنى..

فقال الحكيم بتاح حتب:

ـ ولكن المرأة هى المرأة..

فقالت تيى:

ـ ولكن تيى مثال وحدها لا يتكرر!

فقالت إيزيس:

ـ أثبتت هذه السيدة جدارة المرأة بالحكم أكثر من حتشبسوت نفسها، وكان زوجها ملكا عظيما، وهيهات أن ينقص من قدره ولعه بالنساء ولذة العيش، وقد تقلب فى النعيم بعد أن يسره لعامة شعبه فتقلب معه فى النعيم، فليهنأ قلبى بهذا الابن وهذه الابنة.

فقال أوزوريس:

ـ إلى مجلسكما بين الخالدين.

٢١

وهتف حورس:

ـ الملك إخناتون والملكة نفرتيتى.

فدخل رجل تختلط الذكورة والأنوثة فى قسمات وجهه، وامرأة جميلة، فتقدما فى كفنيهما حتى مثلا أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ ورثا العرش والحكم شريكين فى القيام بالأمانة، فجر ثورة دينية فدعا إلى عبادة إله جديد واحد، وألغى الدين القديم وآلهته، وبشر بالحب والسلام والمساواة بين

البشر، تعرضت البلاد فى الداخل للانحلال والفساد، كما تعرضت الإمبراطورية للتمزق والضياع، ومضت الأرض إلى حافة الحرب الأهلية، فسقط الملك، وقضت ثورة مضادة على ثورته، ومحق المؤرخون والملوك عهده من التاريخ واعتبروه شر عهد انقض على حضارة مصر فأوشك أن يبيدها . .

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال إخناتون :

ـ منذ الصغر وأنا مواظب على ملء روحى بالمعرفة والحكمة الإلهية، حتى هبط على قلبى وحى السماء بنور الإله الواحد والدعوة إلى عبادته، وكرست حياتى لذلك، ثم كرست عرشى لما وليت العرش لخدمة نفس الهدف . وسرعان ما قام صراع وحشى بين دعوتى النورانية وبين ظلمات الجهل والتقاليد وأطماع الكهنة والحكام الظامئين إلى الجاه واستعباد الفلاحين ورعايا أمم الإمبراطورية، ولم يتسلل الضعف قط إلى جهادى الروحى ، ولم أرضَ باستعمال العنف أو القهر، وذقت النصر أعواما فنشر الخير جناحيه، ولكن انعقدت سحب المكائد والدسائس، وزحفت جيوش الظلام حتى حاصرتنى من جميع الجهات فتهاويت بلا حول وحلت بى الهزيمة ولكن ثقتى فى النصر النهائى لم تتزعزع قط، فلم يعرف ملك حياة أسمى من حياتى ولا منى بنهاية أتعس من نهايتى . .

وقالت الملكة نفرتيتى :

ـ صدق يا مولاى فيما قال، لقد جاهدنا جهاد الأبطال، حتى اجتاحتنا قوى الشر فتقوض البنيان السامق وتداعت أركانه . .

وكان الحكيم أمحتب أول المعلقين فقال :

ـ لقد كنا نحدس قوة إلهية واحدة تربض وراء آمون ورع وبتاح وسائر الآلهة ولكنا لمسنا تعلق الناس بالرموز المجسدة يلتفون حولها فى كل إقليم يستمدون منها القوة والعزاء فتركنا الأمور تجرى مع ما جرت عليه رحمة بالقلوب المؤمنة وحفظا لها من الضياع . .

فقال إخناتون :

ـ وجدت الناس فى ضلال وأنه آن لهم أن يواجهوا الحقيقة بكل أبعادها . .

فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ معاملة الناس فن عسير أيها الملك ومن لا يحسنه فقد تخذله نواياه الطيبة فيقتل من يحب وهو ساع إلى إنقاذه .

فقال إخناتون :

ـ لولا المغرضون لتم الخلاص لمن نحب .

فسأله أبنوم :

ـ وماذا فعلت بالمغرضين؟

ـ عاهدت نفسى منذ البدء على التعامل بالحسنى ونبذ الإيذاء والقهر .

فهتف أبنوم :

ـ ليس للأشرار إلا العصا والسيف!

فقال إخناتون :

ـ آمنت بالحب للعدو والصديق .

فقال أبنوم :

ـ لقد ضيعت رسالتك بسذاجتك وليس رجل الخير إلا مقاتلا!

فقال تحتمس الثالث :

ـ لقد تركت لك أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ فكيف ضاعت فى عهدك وتحت إمرتك جيش لا مثيل لقوته؟

فقال إخناتون :

ـ كان مبدئى الحب والسلام . .

ـ زدنى شرحا من فضلك .

ـ كنت أدعو لإله واحد هو الأب والأم لجميع البشر فكلهم يتساوون تحت مظلته، وكنت أدعو إلى أن يحل الحب محل السيف بين الناس . .

فقال تحتمس الثالث بغضب :

ـ طبيعى أن تضيع الإمبراطورية نتيجة لهذا الأسلوب من التفكير، ما أنت إلا مجنون!

فقال أوزوريس :

ـ لا أسمح بتجاوز حدود الأدب فى الخطاب، اعتذر .

فقال تحتمس الثالث :

ـ معذرة، ولكنى أسجل أسفى على ضياع عمرى هدرا!

وقال الملك مينا :

ـ لقد قامت وحدة مصر على السيف وتل من الجماجم، وعلى نفس الأساس كان يجب أن تقوم وحدة الإمبراطورية، ولكن سوء الحظ سلط علينا عدوا اسمه الأفكار فغزانا من الداخل وعبث بمجدنا أيما عبث . .

فقال إخناتون :

ـ لا جدوى من مناقشتكم ، فالمسألة بكل بساطة أننى سمعت صوت الإله ، وأن تلك النعمة الإلهية لم تحل بكم .

وقالت الملكة نفرتيتى :

ـ طالما طاردتنا هذه الآراء من أعداء وأصدقاء ، وقد حطمتنا الدنيا بجبروتها ولكننا اليوم نقف بين يدى إله عادل .

وعند ذاك سألتها الملكة حتشبسوت :

ـ إذن لماذا هجرت زوجك فى قمة الأزمة؟

فأجابت نفرتيتى :

ـ لم يداخلنى شك فيه ولكننى توهمت أننى بهجره قد أنقذه من القتل .

وهنا قالت إيزيس :

ـ هذا الابن آمن برسالة أراد أن ينقذ بها البشر ولكن لم يكن أحد مستعدا لفهمه أو التفاهم معه فكانت المأساة ، وسوف أظل فخورة به إلى الأبد . .

وقال أوزوريس :

ـ اجلس أنت وزوجك بين الخالدين .

٢٢

ونادى حورس :

ـ الملك ساكرع ، الملك توت عنخ آمون ، الملك آى .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ حكم ساكرع أربعة أعوام ، وتوت عنخ آمون ستة أعوام ، وآى أربعة أعوام ، وكانت عصورهم عصور اضطراب وفساد ، وعجزوا جميعا عن مواجهة الأزمة .

ودعاهم أوزوريس للكلام فقال ساكرع :

ـ بدأت حكمى شريكا لإخناتون ولم أستطع أن أعيد للعرش هيبته .

وقال توت عنخ آمون :

ـ كانت السلطة الحقيقية بيد كهنة آمون .

وقال آى :

ـ وازداد نفوذ الكهنة فى عهدى وكنت طاعنا فى السن فعجزت عن الإصلاح . .

وسأل إخناتون آى :

ـ كيف تخليت عنى وقد كنت أقرب المقربين إلىّ كما كنت والد زوجتى؟

فقال آى :

ـ تخليت عنك لأجنب البلاد شر الحرب الأهلية .

فقال إخناتون :

ـ وكفرت بالإله الواحد بعد أن أعلنت إيمانك به بين يدى .

فلاذ آى بالصمت .

وقالت إيزيس :

ـ كان أبنائى الثلاثة غير أكفاء للعرش ، ولولا قانون الوراثة الأعمى ما جلس أحدهم عليه ، ولكنهم يستحقون الرحمة .

فقال أوزوريس :

ـ إلى الباب الشمالى المفضى إلى مقام التافهين .

٢٣

وصاح حورس :

ـ الملك حور محب .

فدخل رجل متوسط القامة متين البنيان صلب الملامح ، فسار متلفعا فى كفنه حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ ولى العرش رغم عدم انتمائه إلى الأسرة المالكة ، وتزوج من موت نجمت لكى يضفى الشرعية على ولايته بالرغم من تقدمها فى السن ، وانبرى بقوة للقضاء على الفوضى والفساد والتسيب وإصلاح ما تخرب من معابد على عهد إخناتون ، وبفضله استتب الأمن والنظام فى داخل البلاد ، أما الإمبراطورية فقد أصبحت ـ باستثناء القليل ـ فى خبر كان .

ودعاه أوزوريس للكلام فقال :

ـ حقا لم أكن من الأسرة المالكة ولكنى أنتمى إلى أسرة عريقة من أسر الشمال ،

وقد نشأت نشأة عسكرية وأديت خدمات ناجحة على عهد الملك أمنحتب الثالث، ولما ولى إخناتون العرش قربنى إليه ومنحنى ثقته ولكنه للأسف لم يأخذ برأيي فى وجوب معاقبة المفسدين فى الداخل وإرسال حملات لتأديب المتمردين فى أنحاء الإمبراطورية، ولما بلغت الأزمة أشدها وتخايلت فى الأفق نذر الحرب الأهلية تفاهمت مع كهنة آمون على التصفية النهائية لحكم إخناتون مؤثرا المصلحة العامة على عواطفى الشخصية. وكان الرأى متفقا على أهليتى لمواجهة الفوضى الضاربة فى أنحاء البلاد ولكن رئى أن يحترم القانون أولا فتولى الملوك الثلاثة ساكرع وتوت عنخ آمون وآى، وعقب وفاة آى قامت ثورة ونهبت المقابر فلم نجد مفرا من تحمل الأمانة، وقد تزوجت من موت نجمت أخت نفرتيتى لأنها كانت من أوائل من كفر بإخناتون ورأت الانضمام إلى الكهنة لإنقاذ البلاد. ووجدت أمامى مهمة ثقيلة ومتشعبة ولكن لم تكن تعوزنى القوة أو العزيمة، فأخمدت الثورة، ونظمت الجيش والشرطة والإدارة، وراقبت الموظفين ولم أرحم منحرفا، ثم جددت المعابد ونظمت الأوقاف، وحميت الضعفاء من الأقوياء، ولو امتد بى العمر أكثر مما امتد لاستردت ما ضاع من إمبراطورية العظيم تحتمس الثالث.

وتكلم الملك خوفو فقال:

ـ قمت بعمل مجيد أيها الملك.

فقال أبنوم:

ـ عمل مجيد حقا ولا لوم عليك لعدم إرجاع السلطة إلى الشعب بما أنك من سلالة أسرة عريقة وترجمتها الأمينة عندى أسرة عريقة فى النهب والسلب!

فقال أوزوريس:

ـ لا أوافق على هذا الأسلوب فى الخطاب، اعتذر.

فقال أبنوم متجهما:

ـ معذرة.

وقال تحتمس الثالث بأسف:

ـ كنت خليقا بإرجاع الإمبراطورية إلى مجدها الأول.

فقال حور محب:

ـ كانت البلاد ممزقة وعلى حال من الفساد والفوضى تفوق الخيال.

وتكلم إخناتون فقال:

ـ لم أحب أحدا من أتباعى كما أحببتك يا حور محب ولم أكرم أحدا منهم كما

أكرمتك، وكان جزائى أن خنتنى وانضممت إلى أعداء الشعب وأعدائى، ثم هدمت مدينتى ومعبدى ومحوت اسمى وصببت علىّ اللعنات . .

فقال حور محب :

ـ لا أنكر مما قلت شيئا، وقد أحببتك أكثر من أى رجل عرفته ولكنى أحببت مصر أكثر .

ـ وشاركت فى محو عبادة الواحد الأحد وإرجاع الآلهة الزائفة إلى عروشها . .

فقال حور محب :

ـ لم يكن فى وسعى ما تنبض به قلوب الملايين .

وهنا قالت له نفرتيتى :

ـ لقد أحببتنى يا حور محب ولمّا تزوجت من إختاتون أضمرت له الحقد .

فقال حور محب :

ـ أقول لك أيتها الملكة فى هذه القاعة التى لا يجوز فيها الكذب إن المرأة لم تشغل من قلبى إلا أتفه جزء فيه، ، وإن معركتى معكم كانت معركة وطنية لا معركة غرامية !

وهنا قالت إيزيس :

ـ ابنى هذا أقوى من أن يحتاج إلى دفاع .

فقال أوزوريس :

ـ إلى مجلسك بين الخالدين .

٢٤

وصاح حورس :

ـ الملك رمسيس الأول .

فدخل رجل طاعن فى السن طويل القامة، فمضى فى كفنه حتى مثل بين يدى العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ ولى العرش على كبر، شرع فى بناء بهو الأعمدة بمعبد الكرنك ثم أدركه الموت قبل أن يتمه .

فدعاه أوزوريس إلى الكلام فقال :

ـ بوفاة حور محب لم يجد العرش وريثا شرعيا ، وكنت كاهن التراتيل بمعبد آمون معروفا بالحكمة وسداد الرأى والورع فرشحنى الإله للعرش ، ولم تكن الإمبراطورية تغيب عن ذهنى ، ولكن حالة البلد لم تسمح بشن حرب طويلة فأمرت بالعناية بالأرض ووسائل الرى لزيادة الثروة ، وشرعت فى بناء بهو الأعمدة ولم يكن فى العمر زيادة لمواصلة البناء . .

فقالت إيزيس :

ـ لعل الاختيار لم يكن موفقا ولكن مصر لم تجد وقتها الرجل المناسب ، أما هذا الابن فقد بذل أقصى جهده ولا ملامة عليه .

فقال أوزوريس :

ـ خذ مجلسك بين الخالدين .

٢٥

وهتف حورس :

ـ الملك سيتى الأول .

فدخل رجل طويل القامة قوى البنيان ، فمضى فى كفنه حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ تولى العرش عقب وفاة أبيه ، غزا النوبة ، استرد فلسطين ، ثم ركز على البناء والتعمير .

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال :

ـ عملت من أول يوم تبعا لخطة مرسومة ، فحفظت النظام فى الداخل ، ثم غزوت الجنوب حتى أقصى حدوده ، واستردت فلسطين منتصرا على الحيثيين ثم عقدت معهم معاهدة صلح ، وأتممت بعد ذلك قاعة الأعمدة بمعبد الكرنك ، وأصلحت المعابد التى لم تمتد إليها يد الإصلاح ، وفى عهدى استتب الأمن والنظام والعدل وانتشر الرخاء ، وازدهر الفن والأدب وقضيت حياة طيبة لولا ما شاب آخرها من قيام نزاع بين ولى العهد وأخيه .

فسأله تحتمس الثالث :

ـ لم لَمْ تستمر فى محاربة الحيثيين؟

فقال سيتى الأول :

ـ شعرت بأن جيشى قد أنهكت قواه، بالإضافة إلى أن الحيثيين كانوا قوما أشداء فى القتال .

فقال تحتمس الثالث :

ـ المعاملة الوحيدة المجدية مع عدو قوى هى القضاء عليه لا عقد معاهدة صلح معه!

فقال سيتى الأول :

ـ معاهدة الصلح بديل معقول عن حرب غير مجدية .

فتساءل إخناتون :

ـ ولم لا تجربون القانون الإلهى، قانون الحب والسلام؟!

فقال حور محب بحدة :

ـ هو الذى أضاع الإمبراطورية بلا دفاع!

فسأله خوفو :

ـ وهل أوصلت أسبابك بالسلالة الإلهية لتصير حقا من صلب الإله؟

فقال سيتى الأول :

ـ تم ذلك لزوجتى فى معبد آمون تبعا للطقوس المتبعة .

فقالت إيزيس :

ـ إنى سعيدة بهذا الابن عالى الهمة!

فقال أوزوريس :

ـ خذ مجلسك بين الخالدين .

٢٦

وهتف حورس :

ـ الملك رمسيس الثانى .

فدخل رجل طويل القامة رشيق القد، تقدم فى كفنه حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ تولى الملك عقب وفاة أبيه، وطد نفوذ مصر فى النوبة وآسيا، حارب الحيثيين ثم عقد معهم معاهدة سلام. ثم كرس حياته المديدة للبناء بصورة لم تعرفها البلاد

من قبل، وكان عصره عصر تعمير وازدهار للفن والأدب والرخاء، وقد طال عمره حتى قارب المائة واستمتع بالحياة طولا وعرضا وأنجب من الأبناء ما يقارب الثلاثمائة.

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

ـ الحق أننى اغتصبت العرش من أخى ولى العهد، ليقينى بأن الساعة تطلبت ما أوتيت به من قوة وأن ضعف أخى سيكون طامة على البلاد لو ولى العرش، وكنت طموحا مقداما، فصممت على أن أوفر لوطنى فى داخله أقصى درجات الأمان والنظام والعدل والرفاهية، وأن أرجع الإمبراطورية لسابق عهدها المجيد، فوطدت نفوذى فى الجنوب، ثم قدتها إلى فلسطين وسوريا ولبنان، وهرع إلىّ الحكام والأمراء يقدمون فروض الطاعة، ثم توجهت بجيوشى إلى قادش لأنزل الضربة القاضية بعدوى القوى وهو ملك الحيثيين، وقد أوقعنى سوء الحظ فيما يشبه الحصار فأحاط بى العدو وبقية جيشى بعيدة عنى فى الجنوب، وثار بى الغضب، وخفت على كرامة مصر التى باتت أمانة بين يدى، وصليت إلى إلهى طويلا، مذكرا إياه بأننى ما غادرت بلادى إلا لرفعة اسمه وتوطيد جلاله، ثم هجمت على العدو وحولى شرذمة من الحرس، وانقضضت عليهم كالصاعقة فشتت نور جلالتى قلوبهم وتوالت مصارعهم تحت ضرباتى فشققت بينهم ثغرة نفذت منها إلى جيشى ثم كررنا عليهم فسحقناهم سحقا حتى رموا بأنفسهم فى مياه النهر وتم لنا النصر، وحاصرت قادش فاقترح الملك معاهدة صلح وسلام لم أجد بها بأسا، خاصة بعد أن استرددت الإمبراطورية عدا أجزاء لا يعتد بها، ثم رأيت أن أكرس حياتى للبناء فتزوجت من ابنة ملك الحيثيين دعما للسلام، ورفعت من الأبنية ما لم يرفع فرعون قبلى، وهيأت من السعادة لأهل مصر ما لم يعهدوه من قبل ولا أحسب أنهم عرفوه من بعد.

وكان سيتى الأول أول المتكلمين فقال:

ـ ولكنك بدأت حياتك باغتصاب حق أخيك ولى العهد الشرعى.

فقال رمسيس الثانى:

ـ إنى لا أحترم قانونا يورث عرشا لعاجز لا يستحقه.

فقال إخناتون:

ـ من أين لك معرفة الغيب؟ لقد قيل عنى يوما مثلما تقول عن أخيك، ولكنى كنت أول ملك يقيم للإله الواحد مملكة مقدسة فوق الأرض.

فقال رمسيس الثانى :

ـ بل كانت كارثة حلت بالوطن والإمبراطورية . .

وسأله تحتمس الثالث :

ـ خبرنى كيف رضى قائد مظفر بأن يعقد معاهدة سلام مع عدوه ثم يتزوج من ابنته؟

ـ هو الذى طلبها، ووجدتها مفيدة للطرفين .

ـ كيف وقعت فى الحصار أيها الملك؟

ـ وقع فى يدنا جاسوسان للعدو اعترفا كذبا بأن العدو مرابط شمال قادش فأسرعت بالفرقة الأولى لأحتل جنوب قادش ولكن العدو كان كامنا فى الشرق فاخترق مؤخرة الجيش وضرب حصاره .

ـ لقد تسرعت وكان يجب أن تنتظر جيشك القادم من الجنوب، إنك شجاع ما فى ذلك شك ولكنك قائد غير محنك .

ـ لقد حطمت الحصار ثم كررت على العدو ببقية جيشى فوقع فى المصيدة التى نصبها لى فمزقته شر ممزق وأحرزت نصرا حاسما .

فقال تحتمس الثالث مواصلا مناقشته :

ـ لم يكن هدفك كسب معركة ولكن واضح أنك أردت الاستيلاء على قادش كما فعلت أنا باعتبارها مفتاحا لجميع الطرق، فلا حق لك فى ادعاء النصر إلا بتحقيق الهدف من الحملة .

فسأله رمسيس الثانى :

ـ وماذا تقول فى قضائى على جيش العدو؟

فأجاب تحتمس الثالث :

ـ أقول إنك كسبت معركة ولكنك خسرت الحرب، وعدوك خسر معركة وكسب الحرب، وقد استدرجك إلى السلام لينظم صفوفه، ورحب بمصاهرتك ليأمن مواجهتك قبل أن يعوض خسائره، قانعا بالفوز بقادش ليهدد منها أى موقع فى إمبراطوريتك فى المستقبل .

فقال رمسيس الثانى :

ـ طوال حكمى الطويل لم يختل الأمن ساعة واحدة فى الداخل أو تقم معركة تمرد واحدة فى الإمبراطورية المترامية أو يفكر عدو فى استراق النظر إلى الحدود .

فقال تحتمس الثالث :

ـ لا أنكر فضلك، لقد أعدت إلى مصر الجزء الأكبر من إمبراطوريتها، كما تميزت بشجاعة شخصية فائقة كانت خليقة بأن تلقى الرعب فى القلوب.

ـ ولا تنس أن عصرى كان عصر التعمير الأعظم. فسأله خوفو:

ـ هل بنيت هرما؟

فأجاب:

ـ كلا، ولكن ليس بالهرم وحده يعمر الإنسان، ما من إقليم فى مصر خلا من معبد أو مسلة أو تمثال لى.

فقال إخناتون:

ـ لقد استوليت على عمد معبدى المهدم وشيدت بها معبدك الجنائزى، وتكرر سطوك على آثار السابقين، كما حفرت اسمك على آثار غيرك بغير حق، وقللت من شأن كل عظيم سبقك كأن الآلهة لم تخلق سواك.

فقال رمسيس الثانى:

ـ فى هذه القاعة المقدسة لا أنكر خطأ ولا أدافع عن نزوة ولكن دع غيرك يوجه إلىّ الاتهام يكون مبرءا من الكفر والاستهتار.

فقال أوزوريس:

ـ لا تنس أيها الملك أنك تخاطب رجلا تمت محاكمته واستحق الخلود. اعتذر.

فتمتم رمسيس الثانى بهدوء:

ـ معذرة!

وعند ذاك سألته الملكة حتشبسوت:

ـ وما قصتك مع النساء؟ . . وهل وجدت وقتا لملاطفة أبنائك الثلثمائة؟!

فقال رمسيس الثانى:

ـ لم يتمتع أحد بالسعادة كما تمتعت، وهبتنى الآلهة عمرا مديدا وصحة كاملة وقدرة بلا حدود على الحب، ولم تهن قوتى حتى آخر العمر، رغم ما خصصت به زوجتى الملكة نفرتارى من احترام ومودة، أما أبنائى فما عرفت إلا أقلهم!

فسأله أمنحتب الثالث:

ـ هل استعنت بالسحر فى الاحتفاظ بحيويتك الهائلة؟

ـ كنت أصنع سحرى بيدى، فكنت أقف فى القاعة الكبرى وأنا فى التسعين من عمرى وتدخل صفوف العجلات الحربية، تقود كل عربة امرأة عارية وترقد داخلها جارية أخرى عارية، فتظل تدور من حولى حتى تتدفق فى العروق الفانية دماء الشباب!

فسأله الحكيم بتاح حتب :
ـ أكانت نفس العجلات التى أحرزت بها انتصاراتك؟
فأجاب رمسيس الثانى :
ـ كلا ، كانت عجلات الحب مطعمة بالذهب الخالص معبقة بروائح النساء . .
فقال أبنوم :
ـ حياتك أيها الملك جامعة بين الجدية بكل معانيها وبين العبث بكل نزواته فلعل الحكم عليك يجمع بين الإنصاف والردع!
فنظر أوزوريس نحوه وقال :
ـ المحكمة فى غنى عن إرشادك وما أراك إلا تحن إلى إشعال ثورة جديدة فى عالم الخلود ، فلا تتجاوز منزلتك واعتذر .
فقال أبنوم :
ـ معذرة يا سيدى العظيم .
وقالت إيزيس :
ـ أعاد هذا الابن مصر إلى سابق مجدها وعم الرخاء فى عهده القصور والبيوت والأكواخ وإذا قسنا هفواته بطول عمره تبدت تافهة .
وقال أوزوريس :
ـ اذهب إلى كرسيك بين الخالدين .

٢٧

وصاح حورس :
ـ الملك منفتاح .
ودخل رجل طويل القامة ، كهل ، فمضى على هيئته المعلومة إلى موقفه أمام العرش .
وقرأ تحوت كاتب الآلهة :
ـ قضى مدة حكمه وهى عشرة أعوام فى الدفاع عن الإمبراطورية فلم يمسها سوء .
ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال :
ـ طال عمر أبى فلم يدع لأحد من أبنائه أملا فى اعتلاء العرش ، وقد توفى لى

عشرات الإخوة بين الشباب والكهولة حتى حقت لى ولاية العهد، ولما وليت العرش كنت قد نيفت على الستين، وباختفاء الكبار تحركت رءوس الفتنة فنهضت شاهرا سيفى رغم كهولتى، انتصرت على متمردى آسيا، ومزقت شمل غزوة غادرة جاءت من الغرب وقبضت على زمام الأمور فى الداخل بالحزم والعزم فاستتب الأمن وانتشر الأمان.

فقال إخناتون:

- لقد اعتديت على الآثار لتشيد بأحجارها بعض القصور والمعابد مترسما سيرة أبيك!

فقال منفتاح:

- قضيت عمرى فى ميادين القتال فلم يتسع الوقت للبناء.

فقال تحتمس الثالث:

- أشهد بأنك قائد ماهر.

وقالت إيزيس:

- شكرا لك يا بنى على بطولتك وإخلاصك.

وقال أوزوريس:

- إلى مجلسك بين الخالدين.

٢٨

وهتف حورس:

- الملك أمنمسس والملك سبتاح والملك سيتى.

فدخل الثلاثة وتقدموا فى أكفانهم حتى مثلوا أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- شغلوا بمنازعاتهم على العرش، فساد الفساد والانتهازية وتمزقت وحدة البلاد وانتشر القتل والسلب والنهب.

ودعاهم أوزوريس إلى الكلام فقال أمنمسس:

- كنت الأحق بالعرش ولكن أحاطت بى الدسائس فسقطت بعد عام واحد.

وقال سبتاح:

ـ بل كنت أنا الأحق بالعرش ولكنه اغتصب منى لخلاف قام بينى وبين منفتاح فى أواخر حكمه، وشغلت عن واجبات الحكم بمطاردة الدسائس حتى اضطررت للتخلى عن العرش.

وقال سيتى:

ـ كنت أملك من القوة ما أستطيع بها أن أحكم حكما طيبا، ولكن الفساد كان قد استشرى فاجتاحنا الانحلال.

فقال الحكيم أمحتب وزير الملك زوسر:

ـ ما أسرع أن يحل الفساد محل المجد، وأن ينعكس ضعف حاكم واحد على حضارة متكاملة..

فقال تحتمس الثالث:

ـ لعل المشكلة تتلخص فى كيف تعثر على الرجل القوى المناسب فى الوقت المناسب.

فقال حور محب:

ـ لم يكن فى الأسرة رجل قوى كفء ولكن هل خلت البلاد من ذلك الرجل؟

فقالت إيزيس:

ـ قضى القانون بأن يرشح الموجود لا أن يتجشم العناء فى البحث عن المطلوب. ولم يكن فى وسع هؤلاء أن يفعلوا خيرا مما فعلوا..

فقال أوزوريس:

ـ اذهبوا إلى مقام التافهين.

٢٩

ونادى حورس:

ـ الملك ستنخت.

فدخل رجل قصير القامة قوى البنية فمضى فى كفنه حتى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ أعاد للقانون سيادته.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ عشت فى زمن الفوضى، تعرضت للقتل مرة وأنا مسافر فى النيل ونجوت بأعجوبة، وكنت ذا قرابة بعيدة بالملك منفتاح، فسعيت إلى العرش بمعاونة الكهنة، ولم يعترف بى أحد من حكام الأقاليم الفاسدين ولم أكن أملك القوة لإخضاعهم ولكن لم تعوزنى الشجاعة فانقضضت على إقليم أخنوم وهو من أشد الأقاليم مناعة ومحقت المتمردين ومثلت بهم، ومنه زحفت على طيبة، وسرعان ما تسابق الجبناء إلى تقديم فروض الطاعة، فنظمت الجيش والشرطة، وبذلت جهدا مضنيا حتى أرجعت إلى القانون سيادته فأمن الفلاح فى أرضه واستأنف نشاطه، وللأسف فارقت الحياة قبل أن أشعر رعايانا فى الإمبراطورية بقوة مصر.

فقال الملك خوفو:

ـ كان عملك الذى يمكن تلخيصه فى كلمتين أشق من تشييد الهرم الأكبر.

وقال له الملك مينا:

ـ لقد أعدت إلى قلبى نبضه.

وقالت إيزيس:

ـ ابن عظيم سجل عزيمته فى الأرواح لا فى الأحجار.

وقال أوزوريس:

ـ اجلس بين الخالدين.

٣٠

ونادى حورس:

ـ الملك رمسيس الثالث.

فدخل رجل طويل القامة ذو عملقة بادية فمضى فى كفنه حتى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ انتصر على الأعداء فى آسيا والغرب والوافدين من البحر، ونشر فى البلاد الأمن والأمان.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ نتيجة للمعاناة فى الداخل تمرد الأمراء فى آسيا، وطمع الليبيون فى الغزو، ثم دهمنا من بحر الشمال أقوام بنسائهم وأطفالهم يرومون الاستيطان، وفى الحال نهضت للقتال دون هوادة فطردت الليبيين، وقضيت على الشماليين وأسرت نساءهم وأطفالهم، ثم قدت حملة إلى آسيا ففتكت بالعصاة دون رحمة، وحظيت البلاد فى عهدى بالأمان والاستقرار فشيدت العديد من القصور والمعابد، ومن سوء الحظ أننى تعرضت فى شيخوختى إلى مؤامرة فى الحريم لاغتصاب العرش، ونجوت من الموت بأعجوبة، ثم شكلت محكمة عليا لمحاكمة المذنبين وأمرت بالعدل بحيث لا ينجو مجرم ولا يؤخذ برىء، ومن المؤسف أن قاضيين سقطا بإغراء بعض نساء الحريم ولما انكشف أمرهما انتحرا.

فقال تحتمس الثالث:

ـ مواقعك تشهد لك بأنك من القواد الأفذاذ.

فقال رمسيس الثالث:

ـ لقد ترسمت خطاك فى غزوتى الآسيوية.

فقال إخناتون:

ـ إن معاملتك للمتآمرين عليك، وتقديمهم للمحكمة بدلا من أن تبطش بهم وحثك المحكمة على تحرى العدل وحده، كل أولئك يقطع بتقديسك للقانون وشغفك بمكارم الأخلاق، كأنما كنت من عباد الإله الواحد..

فقال رمسيس الثالث:

ـ كنت من عباد مكارم الأخلاق وهى تربية ينشأ فى أحضانها المؤمن بالآلهة!

فقال بتاح حتب:

ـ إنه كيد النساء كاد يفتك بملك عظيم وأهلك قاضيين..

فقالت الملكة نفرتيتى:

ـ لقد خلق الإله الواحد النساء ليكشفن معادن الرجال، الثمين منها والخسيس!

فقالت إيزيس:

ـ تحية لهذا الابن الجامع بين العظمة والنبل.

فقال أوزوريس:

ـ اذهب إلى مجلسك بين الخالدين.

٣١

ونادى حورس :

ـ الملوك رمسيس الرابع والخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر .

ودخل تسعة رجال مختلفى الأحجام فمضوا فى أكفانهم حتى مثلوا صفا أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ حكموا بالتتابع مددا قصيرة ولم يكن لأحدهم من هم إلا المحافظة على مركزه وممارسة شهواته فاضطربت الأحوال وتفشى الفساد حتى استقل الوجه البحرى فى عهد آخرهم . ودعاهم أوزوريس للكلام فلاذوا بالصمت .

وتكلم رمسيس الثانى فسأل رمسيس الرابع :

ـ لم اتخذت اسمى اسما لك ، ألك بى قرابة؟

فأجاب رمسيس الرابع :

ـ اتخذناه على سبيل التبرك والفخر!

فقال رمسيس الثانى :

ـ ولكنكم لم تعرفوا قدره ولم توفوه حقه .

فقالت إيزيس :

ـ لا يسعنى أن أطالب لهم بالعفو ، ولكنّى أسأل لهم الرحمة .

فقال أوزوريس :

ـ اذهبوا إلى مقام التافهين .

٣٢

ونادى حورس :

ـ الحاكم بسو با نبدد .

فدخل رجل بدين متوسط الطول فمضى حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ استقل بحكم الوجه البحرى فى عهد رمسيس الثانى عشر ، فازدادت الأحوال اضطرابا فى الداخل ، وتقلص نفوذ مصر فى الخارج .

ودعاه أوزوريس للكلام فقال :

ـ كنت من أعيان تانيس ، وساءنى ما تتردى فيه مصر من فوضى وانحلال ، ولم يكن فى وسعى أن أستولى على العرش فاستقللت بالوجه البحرى بأمل أن أحقق له الأمن والأمان ، وقد بذلت من أجل ذلك غاية جهدى .

فقال أبنوم :

ـ إنى خير من يفهم لغة الأعيان ، حقا إنهم يتوقون لتحقيق الأمن والأمان ولكن لأنفسهم على حساب الفلاحين التعساء .

وقال الملك مينا :

ـ قضيت بفعلتك على وحدة الوطن التى أنفقت حياتى لتحقيقها .

وقال الحكيم بتاح حتب :

ـ واأسفى على عامة الناس الذين عاصروك !

وقالت إيزيس :

ـ لا أدرى كيف أدافع عن هذا الابن .

فقال أوزوريس :

ـ إلى الباب المفضى إلى الجحيم .

٣٣

وأشار أوزوريس إلى تحوت كاتب الآلهة فراح يقرأ :

ـ قضت إرادة الآلهة أن تغزو ليبيا مصر وتكوّن أسرة حاكمة ، وفى نهاية حكمها تطايرت وحدة مصر فاستقلّت الأقاليم ورجعت إلى العهد الذى كانت عليه قبل الملك مينا . ثم غزاها الأشوريون وتتابعت الأحزان .

٣٤

ونادى حورس:

- الملك بسماتيك.

فدخل رجل نحيل مائل للطول فمضى فى كفنه حتى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- أعلن نفسه ملكا على مصر، وأعاد إليها وحدتها، وثبت دعائم النظام. وكون جيشا قويا من المرتزقة الأجانب استرد به نفوذ مصر فى فلسطين.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- إنى أنحدر فى الأصل من ستنخت، وكنت أحد اثنى عشر أميرا يحكمون الوجه البحرى تحت نفوذ الآشوريين وتقلص نفوذ الآشوريين لأسباب خارجية فعقدت العزم على توحيد مصر وإعلان استقلالها. وقضيت على سلطة الأمراء فى سلسلة من الغزوات، وأعلنت نفسى ملكا على مصر، وعينت أختى نيتقريس سيدة لكهنة طيبة لأهيمن على الكهنة فعادت الوحدة وعاد النظام. وركزت على تحسين الحال الاقتصادية، وألفت جيشا من يونانيين وكاريين وسوريين وليبيين. ونعم الشعب بالأمان وحسن المآل. واندفعوا اندفاعا ذاتيا نحو عهدهم القديم فى الذوق والتقاليد وطقوس العبادة فلم أجد فى ذلك من بأس، واستردت الحكم المصرى فى فلسطين فرجعت مصر إلى قريب مما كانت عليه منذ خمسمائة عام على أيام رمسيس الثالث.

فقال الحكيم أمحتب وزير الملك زوسر:

- عمل جليل مشكور.

وقال الملك خوفو:

- وما أجمل أن توجه الشعب نحو تراثه القديم!

فتساءل إخناتون:

- إنى أعتبرها حركة رجعية، فما تفسيرك لها أيها الملك؟

فقال بسماتيك:

- كابد الشعب ما كابد من مذلة تحت حكم الأجانب فثار ثورة سلمية على تقاليدهم المستوردة ومن ثم لاذ بعراقته الأصيلة وسلفه الصالح.

فقال تحتمس الثالث :

ـ وسرت أنت فى اتجاه مضاد فألفت جيشك من مرتزقة الأجانب !

فقال بسماتيك :

ـ كانت مصر مهددة من الشرق والغرب والجنوب ، وكان المصريون قد فقدوا طموحهم العسكرى واستكانوا للهزيمة فأنقذت الموقف بالمتاح من الوسائل .

وعند ذاك قالت إيزيس :

ـ انظروا إلى ما قدم إلى وطنه من خدمات فى ظروف بالغة السوء .

فقال أوزوريس :

ـ خذ مجلسك بين الخالدين .

٣٥

وهتف حورس :

ـ الملك نيخاو .

فدخل رجل ذو طول وضخامة فتقدم متلفعا فى كفنه حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ امتد سلطانه إلى سوريا ، وانتصر على آشور ويهوذا ، ولكن صادف ذلك ظهور بابل فاستولت على سوريا وفلسطين ، فقوى حصون الحدود للدفاع ، وعمل على تحسين التجارة ، كما أرسل بعثة من الفينيقيين لاكتشاف سواحل إفريقيا .

فدعاه أوزوريس للكلام فقال :

ـ لم أتقاعس عن واجبى أبدا ، فصادفنى الحظ فى مطلع حياتى وحلت بى الهزائم فى نهايتها ، ولكن الداخل حظى بالأمن والأمان والازدهار .

وتكلم تحتمس الثالث فقال :

ـ كان يجب أن تعرف أن الأمم الفتية لا تقف أطماعها عند حد ، وأن تعمل على إعداد شعبك للقتال .

فقال نيخاو :

ـ للأسف كان الشعب قد فقد روحه .

فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ لقد فقدت أنت روحك فوضعت ثقتك فى الجنود الأجانب!

فقالت إيزيس :

ـ لم يتوان عن الكفاح سواء فى ميدان القتال أو فوق الأرض الخضراء .

فقال أوزوريس :

ـ اتخذ مجلسك بين الخالدين .

٣٦

ونادى حورس :

ـ بسماتيك الثانى .

فدخل رجل ذو ميل للبدانة والقصر فمضى حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ وطد النظام فى الداخل ، ومن أجل ذلك عين ابنته أتحنس رع رئيسة لكهنة آمون مكان عمته المسنة نيتقريس ، ووثق علاقته باليونان .

ودعاه أوزوريس للكلام فقال :

ـ ليس عندى ما أضيفه سوى أن عهدى مضى فى أمان وسلام .

فقال له تحتمس الثالث :

ـ كأنك نسيت أن مصر كانت إمبراطورية ذات يوم!

فقال بسماتيك الثانى :

ـ ما جدوى تذكر الشباب الذى ولى؟

فقال رمسيس الثانى :

ـ ونسيت أن بابل رابضة على الحدود؟

فسأله الملك أحمس :

ـ ماذا صنعت لبعث روح القتال فى الشعب؟

ولما لم ينبس بكلمة قالت إيزيس :

ـ مضى عهده فى أمان وسلام!

فقال أوزوريس :

ـ مقامك بين التافهين .

٣٧

ونادى حورس :

ـ الملك أبريس .

فدخل رجل ربعة فمضى فى كفنه حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ حرض إسرائيل على بابل ، واشترك فى القتال فغزا بأسطوله فينيقيا ولكن حلت به الهزيمة ، وشق عصا طاعته الأمير أمازيس فقام بينهما نزاع قتل فى أثنائه .

ودعاه أوزوريس للكلام فقال :

ـ كانت بابل شغلى الشاغل ، ورسمت خطة تتلخص فى تحريض إسرائيل عليها ، على أن أغزو فينيقيا فى أثناء القتال وألتف وراء البابليين ، ولكن الخطة فشلت وحلت بنا الهزيمة .

فقال تحتمس الثالث :

ـ خطة لا بأس بها ، ولكن أعوزتها الأيدى المنفذة .

فقالت إيزيس :

ـ أطلب الرأفة .

فقال أوزوريس :

ـ إلى مقام التافهين .

٣٨

ونادى حورس :

ـ الملك أمازيس .

فدخل رجل طويل نحيل ، مضى فى طريقه حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ وطد النظام فى الداخل ، وغالى فى اعتماده على اليونانيين ، وشغف بالولائم

والعربدة، وفى عهده ظهرت دولة الفرس فسعى إلى إقامة حلف من مصر وبابل واليونان لصدها ولكنها اجتاحت بابل.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ اعتبرت الملك أبريس مسئولا عن هزيمته أمام بابل وقدرت أنه أضعف من أن يواجه الموقف المعقد فخرجت عن طاعته، واستوليت على العرش، وقد أقمت حلفا لصد الفرس ولكن الفرس اجتاحت أقوى جناح فيه فتفرغت للإصلاح فى الداخل.

فسألته الملكة حتشبسوت:

ـ ماذا فعلت للداخل؟

فأجاب أمازيس:

ـ عم بلادى رخاء ملحوظ، وأصلحت القانون المدنى وحسبى أن أذكر المادة التى ألزمت كل غنى بأن يبين لرئيس مدينته مصادر ثروته.

فسأله تحتمس الثالث:

ـ ماذا فعلت لإعداد قوم لمواجهة الطامعين الجدد؟

ـ لم يعد قومى يبالون إلا بالفلاحة وحياتهم الخاصة.

فقال له رمسيس الثانى:

ـ وكنت قدوتهم فى ذلك بشغفك بالولائم والعربدة، وأنا لست ضد الولائم والعربدة إذا جاءت فى إطار العظمة!

فقالت إيزيس:

ـ إصلاحاته لا يستهان بها وكانت له خطة حكيمة لولا الفشل.

وتفكر أوزوريس قليلا، ثم قال:

ـ تمكث فى مقام التافهين ألف سنة ثم تنقل إلى الجنة فى درجة متواضعة تناسبك.

٣٩

وهتف حورس:

ـ بسماتيك الثالث.

فدخل رجل متوسط القامة قوى البنية، سار فى كفنه حتى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ حكم ثلاثة أشهر ، ثم تصدى بجيشه للدفاع عن مصر أمام جيش قمبيز ملك الفرس ، وانهزم جيشه ووقع فى الأسر ، وقتله قمبيز واستولى على البلد .

ودعاه أوزوريس للكلام فقال :

ـ توليت العرش والجيوش الفارسية تتوغل فى آسيا وتتجه نحو مصر فاستعددت بقواتى اليونانية وجندت على عجل جيشا صغيرا من المصريين ، ولاقيت العدو فى معركة حامية فدارت الدائرة علينا ووقعت فى الأسر ، وقد أراد قمبيز أن أتولى العرش بوصفى تابعا له ، ولكنى عملت فى الخفاء على مقاومة الغزاة فانكشف أمرى ودفعت حياتى ثمنا لذلك .

وتكلم تحتمس الثالث فقال :

ـ حدثنى عن مقاومة اليونانيين والمصريين فى المعركة .

فقال بسماتيك الثالث :

ـ لا شك أن مقاومة المصريين كانت أشد بما لا يقاس .

فقال تحتمس الثالث :

ـ توقعت أن أسمع ذلك ، وربما لو كان جيشك كله مصريا لتغير مصير المعركة ، ولكنكم أهملتم شعبكم واعتمدتم كل الاعتماد على الأجانب ، وبذلك انتهى تاريخ مصر المستقلة على يدكم .

فقال سيكننرع :

ـ لا يجوز أن ننسى أنه رفض العرش فى ظل الحكم الأجنبى ، وبنفسه ضحى فى ذلك ، وشاركنى نفس المصير . .

فقالت إيزيس :

ـ أمامكم ابن سيئ الحظ ، حارب بشجاعة ، ولو كان هدفه أن يحكم بأى ثمن لدان له الحكم ولكنه قتل عزيزا شريفا .

وقال أوزوريس :

ـ خذ مجلسك بين الخالدين .

٤٠

وقال أوزوريس:

ـ أيها السادة، لقد انتهت مصر الفرعونية، وليس من اختصاص هذه المحكمة أن تحاسب الحكام الأجانب، وهى تعتبرهم جميعا أجانب ملعونين وإن اختلفوا فى الدرجة بين حاكم مصلح وحاكم مفسد، وسوف نواصل محاسبة المصريين، من اكتسب مصريته بالوراثة أو من اكتسبها بالإقامة والقلب، وسيكون حكمنا غير نهائى فى حالة اعتناق المصرى لدين جديد مثل المسيحية أو الإسلام فيكون حكمنا نوعا من التقدير التاريخى نرجو أن يوضع فى الاعتبار عندما يحاكم المواطن أمام محكمته الدينية فى عالم الأبدية، والآن أترك الكلمة لتحوت كاتب الآلهة:

فقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ انتهت مصر الآلهة والأهرامات والمعابد والضمائر المنيرة. أصبح الفرس ملوكا على العرش الذهبى، عبدوا آلهتنا وتمسحوا بتقاليدنا ولكن المصريين مقتوهم مقتا، ثاروا وتحرروا، وهزموا واستعبدوا، وجاءنا الإسكندر غازيا ومحررا، ثم ورث مصر أحد قواده فأنشأ لأسرته دولة وحضارة، واستأثر الأجانب بالنشاط الجوهرى على حين عاش المصريون فى الظل يفلحون الأرض ويقنعون بالدرجة الدنيا، باستثناء الكهنة الذين بقيت لهم الشئون الدينية. وقد انفجرت حركات مقاومة فى صورة هجرات جماعية أو إضرابات، وكانت تقابل بالعنف والشدة، وقامت ثورات وأخمدت بقسوة وأريقت دماء غزيرة، وانتهى حكم الأسرة اليونانية فى عهد الملكة كليوباترة، ودخلت مصر تحت حكم أجنبى جديد هو الحكم الرومانى، فاعتبرت ضيعة لإمداد روما بالغلال، وازداد وضع المصريين سوءا، وكلما ثاروا على الظلم أخمدت ثورتهم وسفكت دماؤهم، وفى عهد الحاكم الرومانى نيرون دخلت المسيحية مصر فأقبل فريق من المصريين يغيرون دينهم، ولم يكن دينا نابعا فى مصر كما حدث على عهد إخناتون ولكنه كان واردا من الخارج، وغلب الزهد على معتنقى الدين الجديد فاعتصم كثيرون منهم بكهوف الصحراء فرارا من ظلم الحكام وفساد الدنيا، وقد قاومت الحكومة الرومانية الدين الجديد وانهالت بحرابها على معتنقيه حتى عرف عصر

الإمبراطور دقلديانوس بعصر الشهداء، وفى عصر تيودوسيس حتم الإمبراطور اعتناق المسيحية على رعاياه فكان للديانة القديمة شهداؤها كذلك ولكن الأغلبية اعتنقت المسيحية، واستقلوا فيها بمذهب خاص بهم، وامتزجت الروح الدينية بالروح الوطنية وعملا معا على الثورة والاستقلال فتعرضوا لمذابح وعذابات لا حصر لها. واتخذ الصراع صورة معركة دينية بين الكنيسة المصرية وكنيسة الدولة الرومانية، واستمر النزاع مصحوبا بأشد أنواع الاضطهاد.

وفى الصمت الثقيل الذى صاحب كلام تحوت وأعقبه أشار أوزوريس إلى حورس فصاح حورس:

ـ المقوقس حاكم مصر.

فدخل رجل بدين مائل إلى القصر فمضى متلفعا فى كفنه حتى وقف أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ حاكم مصر من قبل الإمبراطور الرومانى، اعتبره الأقباط مصريا، وفى عهده غزا العرب مصر، وقد اتفق مع العرب تخلصا من الرومان، وبذلك دخلت مصر فى عهد جديد تحت حكم العرب.

فدعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ وليت حكم مصر من قبل الإمبراطور، ورغم أصلى اليونانى فقد اعتنقت المذهب اليعقوبى المصرى، فرضى عنى الأقباط واعتبرونى واحدا منهم، وقد رأيت الاتفاق مع العرب تخلصا من الرومان وحصلت بذلك على شروط حسنة.

فسأله أبنوم:

ـ كيف أمنت للاتفاق مع الغزاة؟

فأجاب المقوقس:

ـ أشهد أنهم كانوا غزاة شرفاء، وقد قسم قائدهم عمرو بن العاص القطر إلى أعمال وضع على رأس كل منها حاكما قبطيا فشعر الأهالى براحة لم يعرفوها منذ مئات السنين، وحرر العبادة من كل قيد فعبد الأقباط ربهم بالطريقة التى آمنوا بها..

فسأله رمسيس الثانى:

ـ ولم جشموا أنفسهم مشقة الغزو إذن؟

فقال المقوقس:

ـ كانت الجزية تحمل إلى بلادهم الأصلية أما الهدف الأساسى للغزو فيما بدا لنا فكان الدعوة إلى دين جديد بشروا به يدعى الإسلام.

فقال أبنوم:

ـ واستقبلت مصر عصر شهداء من جديد؟

فقال المقوقس:

ـ كانوا يدعون إلى دينهم دون إكراه، ومن يشأ الثبات على دينه يدفع الجزية.

فسأله خوفو:

ـ ما وجه الخلاف بين هذا الدين وديننا القديم؟

ـ كانوا يؤكدون على وحدانية الإله!

فصاح إخناتون:

ـ هذا دينى وهذا إلهى، طالما آمنت بأننى سأنتصر فى النهاية، خبرنى كيف استقبل الناس هذا الدين؟

ـ لم يعتنقه فى حياتى إلا قلة لا وزن لها..

فقال أبنوم:

ـ دعونا من الشجار حول الآلهة وحدثنى عما أفاده الفلاحون الكادحون؟

ـ لقد ألغى عمرو بن العاص كثيرا من المكوس التعسفية فتحسنت أحوال الفقراء.

فقالت إيزيس.

ـ عادت سياسة هذا الرجل على أبنائى بخير غير منكور.

فقال أوزوريس:

ـ يمنح شهادة تزكية لعلها تنفعه أمام محكمته الدينية.

٤١

وهتف حورس:

ـ البطريق بنيامين.

يدخل رجل نحيل متوسط القامة، يتقدم حتى يمثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الألهة:

ـ بطريرك الأقباط، حمله الاضطهاد على الانعزال فى الصحراء، أفرج عنه عمرو ابن العاص بإعلانه حرية العبادة وطرده للرومان.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال :

ـ العقيدة هى شرف الإنسان وكرامته وعزته وطريقه إلى الله ، وقد تحملت ما تحملت من اضطهاد رومانى فلم أتزعزع عن عقيدتى ، ثم آويت إلى الدير محتجا على السقوط البشرى فى هاوية الظلم والفساد ، وقضى الله أن تقع مصر فى أيدى بنى إسماعيل ، وأن يهيئوا للناس حرية العبادة فرجعت إلى كرسى البابوية بالإسكندرية ومارست الزعامة الروحية للأقباط .

فقال تحتمس الثالث :

ـ أصبح غاية ما يرتجيه المصرى أن يفوز بغازٍ أجنبى عادل !

فقال البطريرك بنيامين :

ـ مضى على شعبنا العاكف فى قراه زهاء ألف عام وهو خاضع لأسرات أجنبية تحكمه بقوة السلاح .

فسأله أبنوم :

ـ ألم تستغل سلطتك الروحية لإيقاظ الشعب؟

فقال البطريرك :

ـ عاصر غازيا جديدا أتاح لنا حرية العقيدة وخفف الأعباء عن الفقراء ولم يحاول إكراهنا على اعتناق دينه ، فلم يكن الوقت مناسبا لبث روح التمرد .

فقالت إيزيس :

ـ لا لوم على الرجل فقد عاش فى زمن كان هواه مع غيرنا .

فقال أوزوريس :

ـ ليس لدى محكمتنا ما تؤاخذك عليه .

٤٢

ونادى حورس :

ـ المصرى أثناسيوس .

فدخل رجل نحيل متوسط القامة فمضى فى كفنه حتى مثل أمام العرش .

وقال أوزوريس :

ـ قامت هذه المحكمة لمحاسبة الحكام المصريين ، وليس هذا الرجل حاكما ولكنه يمثل عودة المصريين إلى الحكومة ، فلا تخلو شهادته من قيمة تاريخية .

ودعا أثناسيوس إلى الكلام فقال :

ـ عملت مترجما من القبطية إلى العربية حين كانت القبطية هى لغة الدواوين . وقد عاشت مصر فى سلام وأمان حتى كان عهد الخليفة عثمان الذى انقسم المسلمون حول سياسته ، وخاضوا نزاعا انتهى بقتله ، وانقسم العرب فى مصر تبعا لذلك إلى فريقين ، مؤيدين لعثمان ومعارضين له ، ونشبت بين الفريقين حروب عانى منها المصريون الذين جرت فى بلادهم . واشتد الأمر عندما قامت حروب بين العرب حول الخلافة حتى آلت إلى خليفة يدعى معاوية ، وتولى أمر مصر حكام من أتباعه . وبصفة عامة لم نحظ بحاكم أرفق بنا من عمرو بن العاص . وفى عهد الحاكم عبد العزيز بن مروان أحدث بعض الإصلاحات ولكنه فرض ضريبة دينار على الكهنة بعد أن كانوا معفين من الضرائب كما ضرب على البطاركة ثلاثة آلاف دينار سنويا .

فسأله الحكيم أمحتب :

ـ وكيف كانت ردة الفعل عند الكهنة والبطاركة؟

ـ كانت ردة فعل مسيحية قوامها الحب والسلام والتعالى عن مطالب الدنيا .

فقال إخناتون :

ـ لم يدبروا ثورة كما فعل أجدادهم معى !

فقال أثناسيوس :

ـ رغم ذلك كانت الأحوال تعتبر حسنة إذا قورنت بما كانت عليه أيام الرومان ، ولكننا نحن الأقباط تكدرنا عندما علمنا بدخول أفراد منا فى الدين الجديد ، وتراءى لنا أنهم كفروا تفاديا من أداء الجزية . أما هم فزعموا أن الإسلام ما هو إلا مذهب من المسيحية وأن معتنقه ليس بكافر .

فقال الملك خوفو :

ـ لقد مهدتم لهم الطريق بتغيير دينكم الأول فكرستم سُنة اللعب بالعقيدة . .

فقال إخناتون :

ـ لا يلام الإنسان على تغيير دينه إذا كان دافعه القربى من ذى الجلال والنور ، ولكنى أعجب كيف اهتدى العرب إلى إلهى بينا نبذه قومى جيلا بعد جيل .

وقالت إيزيس :

ـ لا أجد ما يوجب الدفاع عن هذا الابن طالما أن أحدا لم يوجه إليه تهمة ما .

فقال أوزوريس :

ـ نحن نرجو لك يا أثناسيوس حسن الختام أمام محكمتك المسيحية . .

٤٣

وهتف حورس :

ـ المعلم أنتناش .

فدخل رجل ربعة ، ومضى حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال :

ـ توليت أمر الكتابة بالقبطية لتبحرى فيها ، وفى حكم عبد الله أخى الخليفة الوليد بن عبد الملك صدر قرار بإحلال اللغة العربية مكان اللغة القبطية ، فعزلت من وظيفتى وتولاها رجل من حمص ، وعرف عن حاكمنا بأنه يقبل الرشوة رغم تحريم دينه لها ، وتولى بعده قرة بن شريك وكان جائرا ظالما ، فاحتقر عقائدنا حتى كان يقتحم الكنائس أحيانا ويوقف الصلاة .

فتساءل أبنوم :

ـ وأين ذهب اتفاق عمرو بن العاص؟

فقال أنتناش :

ـ ما أسرع أن ينسى الحكام دينهم !

فسأله أبنوم :

ـ وماذا فعل الشعب؟

ـ لم يكن لنا قدرة على مقاومة السلطة الحاكمة .

فقال رمسيس الثانى :

ـ أسفى على حكم الفراعين !

فقال له أبنوم :

ـ الأسف حقا على الشعب فى الفترة التى كشطتموها من التاريخ ، أما الفراعين فكثرتهم كانت أقسى على الشعب من الأجانب !

فقال رمسيس الثانى :

ـ أنا لا أسمح . . .

ولكن أوزوريس قاطعه قائلا :

ـ أنا الذى أسمح أو لا أسمح .

وساد صمت مدة غير قصيرة، ثم قال أوزوريس مخاطبا أنتناش :

ـ فليصحبك التوفيق أمام المحكمة المسيحية .

٤٤

وهتف حورس :

ـ دميانة السويفية .

فدخلت امرأة متوسطة القامة، وتقدمت حتى مثلت أمام العرش .

ودعاها أوزوريس للكلام فقالت :

ـ فلاحة من بنى سويف، ترملت وأنا أم لولد صغير، وكان متولى الخراج أسامة بن يزيد وقد اشتهر بالظلم والعسف، وقد أمر أن يلبس كل كاهن خاتما من حديد فى إصبعه محفورا عليه اسمه يأخذه من جابى الخراج إشارة إلى خلو طرفه، وهدد من يخالف ذلك بقطع اليد، وفرض أيضا ضريبة عشرة دنانير على كل من يركب النيل، وقد اضطرتنى ظروف المعيشة للسفر فى مركب شراعى، وحدث أن تدلى ابنى ليشرب فخطفه تمساح ومعه تذكرة السفر، وعند محط الوصول طالبونى بالتذكرة، ولم يفرج عنى رغم شهادة الشهود حتى بعت ما بين يدى . .

فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ الدين إسلامى والحكم رومانى .

فقال أبنوم :

ـ فيما عدا فترة الظلام لم يعرف الفلاح إلا الظلم بصرف النظر عن اسم الظالم وجنسيته . .

قالت دميانة :

ـ ونفد صبر الناس فتجمهروا ثائرين، واستمرت الثورة حتى مات الخليفة فى دمشق فهدأت الأحوال على أمل تغيير السياسة .

فقال أبنوم :

ـ لتباركك الآلهة على أول خبر سار نسمعه .

وقال أوزوريس :

ـ أرجو أن تحظى بالإنصاف فى ساحة محكمتك .

٤٥

ونادى حورس :

ـ الحاج أحمد المنياوى .

فدخل رجل طويل القامة قوى البنيان ، وتقدم حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام فقال :

ـ فى الأصل من أسرة ميخائيل المنياوى ، هدانى الله إلى الإسلام فأسلمت ، وتعلمت اللغة العربية وحفظت القرآن الكريم ، واشتغلت بالتدريس ، ثم مكننى الله من أداء فريضة الحج . . وفى أيامى تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز وكان من الخلفاء الراشدين مثل خلفاء المسلمين الأوائل فشكا الأقباط أسامة بن يزيد إليه فأمر بعزله ثم قبض عليه وحمل إلى الخليفة مكبلا فمات فى الطريق ، وتولى مكانه أيوب بن شرحبيل وكان ورعا فعوض الأقباط عما حاق بهم من ظلم .

وسأله إخناتون :

ـ لم اعتنقت الإسلام؟

ـ الإيمان ينفجر فى القلب دون مقدمات .

فقال إخناتون :

ـ صدقت ، ولن يصدقك مثل خبير ، ولكن ألم تكن لأناشيدى دخل فى ذلك؟

فقال أوزوريس :

ـ لم يعرف اسمك إلا بعد أيامه بألف عام .

فقال الملك خوفو مخاطبا أحمد :

ـ لعلك رغبت فى التخلص من الجزية!

فقال أحمد :

ـ أبدا ، لقد كان قائد الجيش حيان بن شريح يطالب الداخلين فى الإسلام بالجزية ، ولما بلغ ذلك الخليفة أمره برفعها كما أمر بضربه عشرين سوطا وقال له إن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا . .

فقال أوزوريس :

ـ ليصحبك التوفيق أمام محكمتك الإسلامية .

٤٦

ونادى حورس :

ـ سمعان الجرجاوى .

فدخل رجل ربعة وتقدم حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام فقال :

ـ حداد من أسرة حدادين ، وفى أول خلافة هشام بن عبد الملك قام الأقباط بثورة ، واشتركت فيها ، وفقدت حياتى فى إحدى معاركها ، وكان يتولى أمرنا حنظلة بن صفوان وكان ظالما غشوما ، ولم يكتف بالضرائب المفروضة على الإنسان ففرض ضرائب على الحيوان ، وقد عزل بسبب ذلك بعد إخماد الثورة .

فقال أبنوم :

ـ أحييك كثائر من أبناء شعبنا ، ولكنى أتساءل عما يحبط الثورات؟ !

فأجاب سمعان الجرجاوى :

ـ قوة الخلافة لا تقهر ، وكنا شعبا أعزل قد فقد روحه القتالية ، كما فقدنا مشاركة إخواننا الذين اعتنقوا الإسلام وأخلصوا قلوبهم للخلافة . .

فقال أبنوم :

ـ هذا غزو من الداخل لم يحدث من قبل .

وقال أوزوريس :

ـ اذهب إلى محكمتك المسيحية مصحوبا بتزكيتنا وبركاتنا .

٤٧

ونادى حورس :

ـ حليم الأسوانى .

فدخل رجل طويل نحيل ، مضى فى كفنه حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام فقال :

ـ تاجر غلال من أسرة كبيرة اعتنق نصفها الإسلام، وحدث أن انتقلت الخلافة إلى أسرة جديدة، عاصرت منها خليفة يدعى أبا جعفر المنصور، وتتابع الولاة على مصر لا يمكث أحدهم إلا عاما أو بعض عام، ولا يجد فرصة للتفكير فى الإصلاح، فساءت الأحوال، وثار الأقباط فى سخا، واشتدت الحال سوءا فعم البلاء والجوع حتى أكل الناس الكلاب والآدميين.

فسأله الحكيم أمحتب وزير الملك زوسر:

ـ وكيف كان حال المسلمين؟

ـ عانوا مثلنا وبلغ بهم السخط غايته واتهموا الولاة بالخروج على الشريعة، واتحدت مشاعرنا رغم اختلاف الدين ولكن القوة الحاكمة كانت أقوى من الجميع..

فقال إخناتون:

ـ لو اعتنقتم جميعا ديانة الإله الواحد لبادر إلى إنقاذكم.

فقال له أبنوم:

ـ كانت مشكلة خبز لا مشكلة لاهوتية.

فقال أوزوريس:

ـ لعلك تجد الحكم العادل فى محكمتك.

٤٨

ونادى حورس:

ـ سليمان تادرس.

فدخل رجل متوسط القامة بدين، مضى حتى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ نقاش ماهر، عاصرت أربعة خلفاء هم: المهدى والهادى والرشيد والمأمون، وعشرات من الولاة المتتابعين غلب على أكثرهم الفسق والرشوة والظلم، وفى أيامهم قامت انتفاضات كثيرة، وفى بعضها قام الأقباط المسيحيون والأقباط المسلمون والعرب، اتحدوا ضد الظلم وتعاونوا على دفعه، حتى جاء المأمون بنفسه لتفقد الأحوال، فأجرى العدل، وتحسنت أحوال الناس على اختلاف أديانهم.

فسأله أبنوم:

ـ هل اشتركت فى ثورة من الثورات؟
ـ كلا، ولكنى فقدت ابنا فى إحداها . .
فقال الحكيم بتاح حتب :
ـ يخيل إلىّ أن الأمور مضت فى مجرى جديد .
وقال أوزوريس :
ـ إنك تستحق عطفنا فاذهب إلى محكمتك بسلام .

٤٩

وهتف حورس :
ـ موسى كاتب سر أحمد بن طولون .
فدخل رجل مديد القامة، ومضى حتى مثل أمام العرش .
ودعاه أوزوريس للكلام فقال :
ـ قبطى مسيحى، وهبنى الرب علما ودراية فاختارنى الوالى أحمد ابن طولون كاتب سره، ولم يكن عربيا، وقد آلت إليه الأمور فى خلافة المعتمد بن المتوكل، فعمل على تثبيت ولايته، وكأن مصر قد عاد إليها استقلالها، بل إنه ضم لحكمه سوريا وأجزاء من آسيا الصغرى، وعكف على الإصلاح والبناء والبر وإقامة العدل حتى انتشرت مظلته فوق المسلمين والمسيحيين واليهود فلهجت الألسنة بالثناء عليه . وكان يجلس يومين للمظالم مثلما فعل الخلفاء الراشدون، لذلك فعندما اشتد عليه المرض خرج الجميع يدعون له فوق جبل المقطم، المسلمون بقرآنهم والمسيحيون بإنجيلهم واليهود بتوراتهم .
فسأله الحكيم بتاح حتب :
ـ هل انتفع الأقباط المسيحيون بمنزلتك عند الوالى؟
فأجاب موسى :
ـ لقد كان اختياره لى دليلا على إيمانه بالمساواة بين الطوائف فاعتنقت إيمانه بالمساواة وحتى عندما رشحت له المهندسين المسيحيين لبناء الحصون والمساجد كنت متحريا الدقة بلا تحيز، والحاكم العادل يستخرج من طوايا معاونيه خير ما فيها بما هو قدوة لهم . .

وسأله الحكيم أمحتب وزير زوسر :

ـ وكيف جرت العلاقات بين الطوائف؟

ـ على خير ما يكون وكما ينبغى لها أن تجرى فى ظل حاكم عادل . فى عهده أصبحت مصر شعبا واحدا ذا أديان ثلاثة ، وكان الإسلام قد أخذ ينتشر ويكثر عدد معتنقيه .

واستأذن تحوت كاتب الآلهة فى توجيه سؤال ولما أذن له قال :

ـ لماذا سجن البطريرك ميخائيل بطريق كنيسة الإسكندرية؟

فأجاب موسى :

ـ لم يكن الذنب ذنبه ، ولكنه كان دسيسة من أسقف حقود يدعى سكا زعم لابن طولون أن البطريرك يدخر ثروة طائلة لاحاجة له بها فطالبه ابن طولون بالتبرع بشىء من ثروته فى ظرف كان الوالى يتوثب لدفع جيوش أجنبية ، فاعتذر البطريرك بعجزه فسجنه بتهمة الخيانة ، ولما ولى ابنه خمارويه بعده تبين له وجه الحقيقة فأطلق سراحه وأرجعه مكرما ، ولم يكن خلفاء ابن طولون مثله قوة وحزما فدالت دولتهم ورجعت مصر تتطلع إلى الغد بعين حذرة .

فقال أوزوريس :

ـ عرضت صفحة مشرقة فلتصحبك السلامة .

٥٠

وهتف حورس :

ـ على سندس .

فدخل رجل قوى البنية متوسط القامة ومضى حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام فقال :

ـ سقاء ، عشت جل حياتى فى ظل الدولة الإخشيدية ، وكانت مصر قد عادت إلى الخلافة العباسية وتتابع عليها الولاة بالعشرات يصبون المظالم على المصريين غير مفرقين بين مسيحى ومسلم حتى تولى أمورنا محمد أطفيح ، مملوك ، من سلالة ملوك فرغانا ، فاستقل بمصر ولقب نفسه بالإخشيدى كما جرى عليه العرف بين ملوك فرغانا ، وصد عن مصر الطامعين فيها ، وكان ـ لدى كل حملة ـ يطالب المسيحيين بالمعاونة ، ثم آل الحكم إلى وزيره الخصى كافور الذى لقب نفسه

بالإخشيدى، وفى عهده حكمت مصر الحجاز والشام، وطارد الموظفين الفاسدين فتحسنت الأحوال فى عهده.

وسأله رمسيس الثانى:

ـ كيف رضيتم بأن يحكمكم مملوك وخصى؟

فأجاب على سندس:

ـ ما كان يهمنا كمسلمين إلا أن يحكمنا حاكم مسلم عادل، والعبد العادل خير من الأمير الظالم..

فسأل رمسيس الثانى:

ـ ومن أين لعبد أن يتفوق على أمير؟

فأجابه إخناتون:

ـ بفضل عبادة الإله الواحد، لقد دعوت فى حياتى للمساواة بين البشر فرميت بالجنون!

فقال أوزوريس:

ـ لتصحبك السلامة إلى محكمتك الإسلامية.

٥١

وهتف حورس:

ـ ابن قلاقس.

فدخل رجل قصير القامة مع ميل للبدانة وسار حتى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ أنا أبو الفتح نصر الله بن عبد الله الشهير بابن قلاقس اللخمى الإسكندرى الملقب بالقاضى الأعز.

فقال أوزوريس:

ـ إنه اسم يفوق فى طوله اسم أى فرعون، ماذا كنت تعمل؟

ـ مرسى السفن المقلعة من مصر ولكننى كنت شاعرا، زرت المغرب وصقلية ومدحت أمراءهما كما مدحت الفاطميين وملوك اليمن وكانت مصر بلدى والإسلام وطنى والمدح رزقى، من ذلك قصيدتى فى مدح ياسر بن بلال التى مطلعها:

سافـــر إذا ما شئت قدرا سار الهلال فصار بدرا
والماء يكسب ما جـــرى طيبا ويخبث ما استقرا

وأنا القائل أيضا :

انظـر إلى الشمس فـوق النيل غاربة
واعجـب لما بعدها من حمرة الشفق

فقال أوزوريس :

ـ حدثنا عن زمانك، أما الشعر فله محكمة أخرى .

فقال ابن قلاقس :

ـ دالت دولة الإخشيد فاستولى الفاطميون على مصر دون حرب، وبنوا القاهرة والأزهر وحسنت فى أيامهم الإدارة وجرت الأرزاق، ولما جاء المعز لدين الله استقبل صفوة القوم وكان فيهم عبد الله بن طباطبا الأديب العلاّمة فسأل الخليفة : «إلى من ينتسب مولانا؟» فسل الخليفة نصف سيفه وقال : «هذا نسبى» ونثر عليهم الذهب وقال : «وهذا حسبى» . فقالوا جميعا : سمعنا وأطعنا .

فسأله أبنوم :

ـ لماذا لم تستقلوا ببلدكم عقب انهيار دولة الإخشيد؟

فأجاب ابن قلاقس :

ـ ولم نستقل على حين يوجد أكثر من خليفة مسلم؟ . . المسلم لا يهمه الاستقلال وما يريد إلا حاكما مسلما قويا عادلا وقد وجدناه عند الفاطميين .

ـ وبايعتم على الطاعة أمام السيف والذهب؟

ـ وهل تقوم دولة إلا عليهما؟! وقد حفل عهد الفاطميين بالعلم والفن والبناء وحظى المسيحيون بالثقة والأمان، ولكن عهد الحاكم بأمر الله لا ينسى فقد تلاطمت فيه المتناقضات، مرة ينصف المسلمين، ويضطهد الأقباط وأخرى ينصف الأقباط ويضطهد المسلمين وثالثة يضطهد الجميع، ثم ختم عهدهم بمجاعة ضاربة عفت المهابة والمجد وأصابت الناس بالمحن . .

فقال أوزوريس :

ـ اذهب بسلام إلى محكمتك .

٥٢

ونادى حورس :

ـ الوزير قراقوش .

فدخل رجل ربعة ومضى حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال :

ـ دالت دولة الفاطميين فجاء صلاح الدين الأيوبى إلى مصر لينشئ دولة جديدة هى الدولة الأيوبية ، وعملت تحت جناحه وزيرا ، وشهدت إصلاحاته الداخلية من تنظيم للإدارة وتخفيف للمكوس وإقامة العدل ، كما شهدت إنجازاته الخارجية مثل توحيده العرب ومحاربة المسيحيين الأجانب والانتصار عليهم ، واستوائه بين الفرسان مثالا للشجاعة والشهامة والمروءة والعظمة . وقد تحريت فى كل أعمالى الصلاح والعدل ولكنى اشتهرت بالظلم بلا وجه حق وذلك نتيجة لاضطرارى إلى إزالة مساكن كثيرين وأنا أبنى سور القاهرة ، فما عرف عادل بالظلم كما عرفت .

وسأله ـ بعد استئذان ـ تحوت كاتب الآلهة :

ـ ألم تعتد على أحجار بعض الأهرامات لتبنى بها سورك دون احترام للغابرين؟

ـ انتزعتها من آثار وثنية لأقيم بها مبانى فى سبيل الله ورسوله . .

فقال خوفو :

ـ نسى الأحفاد دين الأجداد وشغلوا بحاضرهم .

فقال إخناتون :

ـ حسبهم أنهم آمنوا بإلهى .

فقال قراقوش :

ـ لم يكن خلفاء صلاح الدين على مستواه ، وجاء مسيحيو الشمال ليقضوا على مجدهم فهلكت دمياط وتعذبت رشيد وقتل الرجال وانتهكت النساء ، ولكنهم فى النهاية انهزموا وغادروا البلاد .

فقالت إيزيس :

ـ وذهبت دولة بخيرها وشرها .

فقال أوزوريس :

ـ اذهب إلى محكمتك مشكورا .

٥٣

ونادى حورس :

ـ الشهاب الخفاجى .

فدخل رجل قصير القامة مفرط البدانة وقدم فى سيره حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام فقال :

ـ ولدت فى سرياقوص ، وصرت من رجال اللغة والأدب ، فأنا القائل :

حتام يغزونى صدوده والصبر قد كثرت جنوده

نشوان يعبث بى كما عبثت بآمالى وعوده

وقد عاصرت زمن المماليك الذين اقتناهم الأيوبيون لجمالهم ، ثم ربوهم تربية حسنة ليقوموا بخدمتهم ، فورثوا الملك عنهم . وقد كان منهم سلاطين عظام ، حسن إسلامهم ، فأحبوا العدل والنظام وشيدوا العمائر ، وهم الذين صدوا التتار وطهروا بلاد الإسلام من الصليبيين ، ولكن أكثرهم كانوا فاسقين جشعين ، فعانى الأهالى على أيديهم العذاب والفقر والذل .

فقال تحتمس الثالث :

ـ ما كنت أتصور أن يكون للمماليك عصر .

وقال الحكيم بتاح حتب :

ـ لقد قلت فى الحب شعرا ، ألم يحرك عذاب الناس وجدانك الشعرى ؟

فقال الشهاب الخفاجى :

ـ فى رسالة لى قلت عن الأهالى «ذهب أرباب الهمم العالية ولم يبق إلا من يفتخر بالرمم البالية ، روح الشوم ، ونتيجة اللوم ، وخليفة البوم ، وإن طال التحمل والسكوت ، فكم بكت السماء أرضا فقدت حبيبا ، وساعدتها سحب انتحبت نحيبا ، هكذا مر على شعب مصر مئات أعوام من العذاب والذل ، ولولا الإسلام لهلكوا وبادوا . . » .

فسأله أبنوم :

ـ وماذا قلت عن المماليك ؟

ـ ما كان فى وسعى أن أعرض رقبتى لسيوفهم !

فسأله الحكيم أمحتب :

ـ ماذا كان دور الإسلام الذى أشرت إليه؟

ـ كان الشجعان من رجال الدين يتصدون أحيانا للطغاة دفاعا عن المظلومين فيكلل مسعاهم بالنجاح، وكان البؤساء يجدون فى دينهم العزاء والأمل . .

ونظر أوزوريس نحو الخالدين فوق مقاعدهم وقال :

ـ أيها السادة، إنى أشعر بحزنكم وغضبكم، وأود أن أخبركم بأن المحكمة ستوجه لدى الفراغ من عملها نداء إلى المحكمتين، المسيحية والإسلامية، بإنزال أشد العقوبات بجميع الحكام الظالمين الذين اعتلوا عرش الفراعنة .

ثم نظر إلى الشهاب الخفاجى وقال :

ـ اذهب بسلام إلى محكمتك بلا تزكية ولا إدانة منا .

٥٤

وقال تحوت كاتب الآلهة :

ـ ولما دالت دولة المماليك سقطت مصر غنيمة فى يد الدولة العثمانية، وتتابع عليها مئات الباشوات كولاة، وشاركهم فى حكم البلاد الجيش العثمانى وبقية المماليك، ولم تعرف البلاد إلا النادر واليسير من الراحة والتقدم فى فترات عابرة، ثم قام النزاع بين القوى الحاكمة، وتفشى الاغتيال والغدر، وغرق الشعب فى الهم والذل والجهل، واستمر ذلك بضع مئات أخرى من السنين .

* * *

ونادى حورس :

ـ على بك الكبير .

فدخل رجل ذو طول وقوة ومضى فى كفنه حتى مثل أمام العرش .

وقال أوزوريس :

ـ إنك أول حاكم أجنبى نستدعيه إلى محكمتنا لما تضمنته سياسته من نزعة مصرية واضحة لم تلمس من قبل، وها أنا أدعوك إلى الكلام .

فقال على بك الكبير :

ـ كنت فى الأصل من مماليك إبراهيم كخيا، فميزنى لشجاعتى فصرت أحد البكوات

المعدودين، ثم رقيت شيخا للبلد، وعند ذاك فكرت بالاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية، وتم لى ما أردت، وسرعان ما خففت المكوس وأقمت العدل ونفذت بأمانة حكم الإسلام فنعم بالسلام والأنام أهل مصر، مسلمين ومسيحيين ويهودا، ومددت سلطانى حتى شمل الجزيرة العربية والشام والنوبة، ولولا خيانة أبى الذهب أحد مماليكى المقربين لكان لمصر مصير غير المصير، ومت كريما كما عشت كريما. .

وتكلم إخناتون فسأله:

ـ ألا يعتبر استقلالك بمصر تمزيقا لوحدة الإسلام دين الإله الواحد؟

فقال على بك الكبير:

ـ كان العثمانيون يمارسون الظلم والفساد تحت شعار إسلام زائف، وهالنى ما يلقى أهل مصر من عذاب، فلم أجد من سبيل إلى إسعادهم فى ظل إسلام حقيقى إلا بالتحرر من ربقة العثمانية.

فقال تحتمس الثالث:

ـ وبدأت مشكورا فى استرداد بعض من إمبراطوريتى.

وقال أمنمحعت الأول:

ـ لم تنتفع بوصيتى التى دونتها عقب مؤامرة دبرت فى قصرى بيد أقرب المقربين لى وكدت أهلك ضحية لها!

فقال على بك الكبير:

ـ الحق أنى لم أسمع عنها، وقد كان لى فى كتاب الله وسنة رسوله ما يكفينى لولا أن الحذر لا ينجى من القدر.

فقال أوزوريس:

ـ إنك تستحق عندنا كرسى الخلود وسيسجل ذلك فى تزكيتنا لك.

٥٥

وهتف حورس:

ـ السيد عمر مكرم.

فدخل رجل دون الطويل وفوق المتوسط ذو بنيان مستقيم، فمضى فى كفنه حتى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ ولدت فى أسيوط، وتلقيت العلم والأخلاق والدين على يد الصفوة، ثم تبوأت نقابة الأشراف، ودأبت على ردع القوى دفاعا عن الشعب المعذب، ولما جاء الفرنسيون لغزو بلادنا دعوت الشعب للقتال وسرت فى طليعته، ولكن جيوشنا انهزمت واحتل الفرنسيون القاهرة، وقد اختارونى لعضوية الديوان فرفضتها بإباء وهاجرت إلى سوريا تاركا أموالى وأملاكى عرضة للنهب، ولما غزا الفرنسيون سوريا أعادنى نابليون إلى مصر مكرما ولكنى اعتزلت فى بيتى، ولما ثارت القاهرة كنت على رأس ثورتها، فلما أخمدت بقسوة هاجرت من مصر ثانية ولم أعد إلا بعد جلاء الفرنسيين. وتزعمت الثورة على المماليك، وعلى الوالى التركى، وبايعت حاكما جديدا لما آنست فيه من ميل إلى المصريين وجنوح إلى العدل والاستقامة، وحتى ذلك الحاكم قاومته لما تناسى تعهده لنا فنفانى، وانتهت حياتى فى المنفى..

وتكلم أبنوم فقال:

ـ إنك فرد من الشعب كرس حياته للدفاع عن الشعب، دعاه للقتال لأول مرة منذ ثورتى المباركة، وثار على الحاكم الأجنبى وولى بقوة الشعب حاكما جديدا، خبرنى أكان الحاكم الجديد من أبناء الشعب أيضا؟

فأجاب السيد عمر مكرم:

ـ كلا، ولكنه كان مسلما وبدا لى عادلا.

ـ يا للخسارة، ولم لم تستول على الحكم؟

ـ ما كانت الدولة العثمانية توافق على ذلك..

ـ أقول مرة أخرى يا للخسارة..

فقال إخناتون:

ـ لعلك آثرت وحدة الإسلام دين الإله الواحد؟

فأجاب السيد عمر مكرم:

ـ أجل، ذاك ما آثرته كمؤمن بالله ورسوله.

وقالت إيزيس:

ـ على أى حال فإنى سعيدة بهذا الابن.

وقال أوزوريس:

ـ إنك تستحق مكانك بين الخالدين وسيسجل ذلك فى تزكيتنا لك.

٥٦

ونادى حورس :

ـ محمد على باشا .

فدخل رجل مليء مستقيم البنيان قويه وتقدم حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام فقال :

ـ ولدت فى مدينة قولة ، نشأت يتيما ، ولما ترعرعت انتظمت فى سلك الجندية ، وذهبت إلى مصر ضمن حملة لقتال الفرنسيين . ولما جلا الفرنسيون عن مصر جعلت أدرس الأحوال وأفكر فى المستقبل . تكشف لى ضعف العثمانيين ، ووحشية المماليك ، وانتبهت إلى قوة ثالثة لا يحسب حسابها أحد هى قوة أهالى البلاد وزعمائهم ، فقررت أن أوثق علاقتى بهم لعلهم يصلحون أساسا أقيم عليه دولة جديدة تستعيد من الماضى أمجاده الغابرة . ونجحت فى ذلك أيما نجاح ، حتى خلع الأهالى الوالى التركى وبايعونى حاكما محله . واعترف الباب العالى بالأمر الواقع فاستتب لى الأمر . وشرعت فى العمل فلم أكف عنه حتى نهاية عمرى . تخلصت من المماليك وهم الشر المقيم . وتلقيت من الباب العالى أمرا بمحاربة الوهابيين فى الجزيرة العربية فانتصرت عليهم . وكونت جيشا من المصريين ، وفتحت السودان ، وقتل ابنى إسماعيل فى الحرب فانتقمت له بقتل عشرين ألفا من العدو ، وأنشأت للجيش مدارس ومصانع كما أنشأت أسطولا مستعينا فى ذلك كله بالخبراء الفرنسيين . ولم أغفل الإصلاح فأدخلت زراعات جديدة كالقطن والنيلة والأفيون وغرست الأشجار والحدائق ، كما أنشأت مدارس للطب وبنيت المستشفيات ، وأرسلت البعثات من أبناء البلاد لفرنسا بلد الحضارة الحديثة ، ونظمت الإدارة والأمن ، ومن آثارى الكبرى القناطر الخيرية ، كما أنشأت أول مطبعة فى الشرق وهى مطبعة بولاق . وطلب منى الباب العالى أن أحارب عنه فى المورة والشام فحققت انتصارات عظيمة حتى حل الرعب فى قلب الباب العالى نفسه فأراد أن يوقفنى عند حدى ولكنى حاربته وغزوت بلاده وكدت أستولى على عاصمته لولا تدخل الدول الأجنبية التى خافت أن تتجدد دولة الإسلام على يدى ، وتألبت علىّ الدول ، واضطرتنى للخضوع للباب العالى نظير أن يجعل مصر وراثية فى بيتى ، واضطررت لتصفية الجيش وكثير من المدارس والمصانع ، وساءت حال البلاد ، ولم أحتمل النهاية ففقدت عقلى ثم حياتى . .

قال خوفو :

ـ كأنها أسرة فرعونية جديدة رغم أصلها الأجنبى .

وقال تحتمس الثالث :

ـ لقد أعدت إمبراطوريتى ، وإنى أشهد لقائدك بالبراعة ، ولكنك فقدتها فى أثناء حياتك فهى أقصر الإمبراطوريات عمرا فى التاريخ ، وإنى أعجب كيف قتلت عشرين ألفا انتقاما لابنك كأنك لم تسمع عن سياستى الحكيمة فى الأمم المغزوة؟

فقال محمد على :

ـ لم أسمع عنها ولم يهتم أحد بآثاركم قبل أن يهتم بها علماء الحملة الفرنسية ويحلون ألغاز لغتها ، غير أننى كنت أستلهم حكمتى الخاصة من المعاملة المباشرة للبشر . .

فقال تحتمس الثالث :

ـ إنى أشهد لك بالعظمة ، وعلى ضوء ذلك أفهم غرورك ، وكان بودى أن أتسامح معك لولا النهاية السريعة الأسيفة التى آلت إليها إمبراطوريتك ، وهذا يعنى أن إدراكك رغم ذكائك كان ناقصا ، لم تدرك أبعاد الموقف الدولى جيدا فتحديته وأنت لا تدرى وعرضت نفسك لقوة لا قبل لك بها .

ـ اعتقدت أن فرنسا ستقف إلى جانبى حتى النهاية . .

فقال له الحكيم بتاح حتب :

ـ هذا أيضا لا يدفع عنك مظنة قصر النظر .

فقال محمد على :

ـ كانت ثمة فرصة مواتية لتجديد دولة الإسلام من منطلق مصر الفتية .

فقال إخناتون :

ـ إنى أدرك ذلك تماما وأحيى طموحك لإحياء دولة الواحد الأحد . .

فقال الملك خوفو :

ـ ليتك وضعت عبقريتك وأحلامك فى تقوية مصر وقنعت بذلك .

وقال أبنوم :

ـ لم يكن إيمانك بالشعب كاملا ولا حبك له بالقدر الذى يجعلك توظف جهدك الحقيقى لإحيائه ودعمه ، استخدمت الفلاح فى سبيل الأرض والدولة وكان الواجب أن توجه كل مؤسسة لخدمة الشعب ، ولكن لا يفكر بهذه الطريقة إلا من كان مثلى أنا . . ومهما يكن من أمر فلن أنسى لك فضل دفعك الفلاحين إلى مسرح الإدارة والسياسة والعسكرية والعلم . .

وهنا قالت إيزيس :

ـ من أجل ذلك أعتبر هذا الحاكم الأجنبى من أبنائى .

وقال أوزوريس :

ـ لو كانت هذه المحكمة هى صاحبة الفصل فى تقرير مصيرك لوجهت إليك نقدا قاسيا وتوبيخا جارحا ثم حفظت لك حقك فى مقعدك بين الخالدين ، وسنرفع بشأنك تقريرا إلى محكمتك الإسلامية ينوه بأعمالك الجليلة وسيعتبر فى جملته تزكية لشخصك من مصر وأهلها .

٥٧

ونادى حورس :

ـ أحمد عرابى .

فدخل رجل مائل للطول والامتلاء ذو رزانة ووقار ، فتقدم حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام فقال :

ـ حفظت القرآن صغيرا بقريتى بالشرقية ، وانتظمت فى سلك الجندية فى الرابعة عشرة ، وصلت إلى رتبة قائمقام فكنت أول مصرى يصل إلى هذه الرتبة ، وكانت الرتب الكبيرة وقفا على الشراكسة ، وكان المصرى محتقرا فى وطنه ، فأقنعت بعض الزملاء بالمطالبة بعزل وزير الحربية الشركسى المتحيز فقبض علينا ، فثار الجند الوطنيون حتى أفرج عنا ، ولمست ما يعانيه الشعب من ظلم فتحركت بالجيش إلى قصر عابدين وطالبت الخديو بإسقاط الوزارة وتشكيل مجلس نواب فقال لى : «أنا ورثت ملك هذه البلاد وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا» فقلت : «لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا ، فوالله الذى لا إله إلا هو إننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم» وقد انتصرنا على أعداء الشعب وتكوّن مجلس نيابى ووزارة وطنية ، ثم تدخلت الدول الأجنبية لمنع المصريين من تولى شئونهم خوفا على مصالحها ، وخان الخديو وبعض الانتهازيين الوطن فاتفقوا مع أعدائنا الإنجليز ، ودافعنا عن وطننا بكل ما نملك ولكننا انهزمنا وحُوكمنا وحُكم علينا بالنفى المؤبد ومصادرة أملاكنا .

وتكلم الملك خوفو فقال :

ـ ولكنك تحديت الجالس على العرش وخاطبته بما لا يخاطب به الملوك !

فقال أوزوريس :

- تغير الزمان أيها الملك فلم يعد الملوك يحكمون نيابة عن الآلهة ولكن بالمشاركة مع الشعوب .

فقال خوفو :

- مشاركة الفلاحين فى الحكم تعنى الفوضى .

فقال أبنوم :

- بل هى وثبة كبرى فى مدارج الخير .

وقال أحمد عرابى :

- كان الخديو ورجاله من عنصر أجنبى .

فقال الملك مينا :

- لقد قامت وحدة مصر على عناصر بشرية متنوعة اندمجت جميعها فى الوطن وأخلصت للعرش .

فقال أحمد عرابى :

- لم أكافح إلا العناصر التى أبت الاندماج ، والدليل على ذلك أن حزبى لم يخل من وطنيين من أصل شركسى .

فسأله أبنوم :

- ولم لم تقتل الخديو وتكون أسرة جديدة من أصل شعبى؟

- كان هدفى تحرير الشعب وإشراكه فى حمل المسئولية . .

فقال أبنوم :

- كان قتله أفضل ولكنك على أى حال صاحب الفضل فى الدفاع عن حق الشعب . .

وتكلم تحتمس الثالث فقال :

- كان الموقف يتطلب قيادة عسكرية خارقة فى عبقريتها وللأسف لم يتهيأ لك شىء من ذلك .

فقال أحمد عرابى :

- بذلت أقصى ما لدى .

وقال رمسيس الثانى :

- وكان يجب أن تقاتل حتى الموت بين جندك .

وقال أبنوم :

- وكان يجب أن تقضى على جميع أعدائك لتقضى على الخيانة فى مهدها .

فقال إخناتون :

ـ إنك رجل طيب القلب فجرت عليك النهاية المقدرة للقلوب الطيبة .

فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ هكذا ثرت من أجل حرية الشعب فجررت عليه احتلالا أجنبيا . .

وهنا قالت إيزيس :

ـ هذا ابن مترع القلب بالنوايا الطيبة . وهب شعبه ما يملك من حب غير محدود وقدرات محدودة ، وقد تآمر الأعداء على تصفية ثورته ولكنهم لم يستطيعوا استئصال البذرة التى غرسها فى الأرض الطيبة .

وقال أوزوريس :

ـ إنى أعتبرك نورا تألق فى الظلمات التى رانت على وطنك ، وقد عوقبت فى حياتك بما يعتبر تكفيرا عن أخطائك فعسى أن تحظى بالبركات فى ساحة محكمتك ، ولن نقصر عن التنويه بفضلك بما أنت أهله .

٥٨

وهتف حورس :

ـ مصطفى كامل .

فدخل شاب ممشوق القامة عذب الملامح ، ومضى عارى الرأس حافى القدمين حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال :

ـ بلغت الوعى وأنا تلميذ فى عصر الاحتلال البريطانى فكرهته وصممت على محاربته ، وشرعت فى ذلك وأنا تلميذ ، وزارنا فى المدرسة جناب الخديو عباس الثانى فاستقبلته بخطبة وطنية حماسية استجابت لها وطنيته وشبابه ، وتوثقت بينى وبينه منذ ذلك اليوم علاقة وثيقة ، فمضى يمدنى بالتشجيع والمال للتخلص من الاحتلال ، واستوت علاقتى على نفس النهج مع الخليفة والجمعية الإسلامية ، أما قبلتى فى جميع الأحوال فكانت استقلال مصر وحريتها ، من أجل ذلك تغير موقفى من الخديو عندما اتفق مع الاحتلال ، وكانت حال الشعب لا تبعث على الأمل ، ولكنى لم أقصر فى إيقاظ وعيه الوطنى بالكلمة فى الصحف والخطابة ، كما قمت بالدعاية لقضية وطنى فى الخارج حتى عرفها الأحرار فى أوروبا وخاصة فرنسا ، ولما

ارتكب الإنجليز جريمتهم الكبرى فى دنشواى استنكرت أعمالهم الوحشية ونددت بالأحكام التى أصدرتها المحكمة الزائفة على أهل القرية الأبرياء فزعزعت عرش طاغية الإنجليز فى مصر حتى اضطرت بلاده إلى استدعائه، ثم أسست الحزب الوطنى وهو أول حزب سياسى منظم أنشئ فى مصر، تضمن برنامجه الجلاء والدستور فى ظل الدولة العثمانية، وواظبت على الجهاد فى الداخل والخارج حتى أسلمت الروح فى عز الشباب . .

وتكلم بسماتيك الثالث فسأله :

ـ ألم يقتلك الإنجليز؟

ـ كلا .

ـ هذا عجيب، لقد عاصرت الاحتلال الفارسى مثلما عاصرت الاحتلال الإنجليزى، ومثلك حاولت إيقاظ الوعى الوطنى ولما علم قمبيز بأمرى قتلنى دون تردد، فكيف تركك الإنجليز دون عقاب؟!

فقال مصطفى كامل :

ـ كان الاحتلال قد تمكن من دعم سيطرته الكاملة على البلاد فلم ير بأسا من منح معارضيه شيئا من الحرية، استهانة بهم فى الواقع، وتظاهرا أمام العالم باحترام القيم . .

ـ ألم تتعرض لأذى ملموس؟

ـ أضمر لى الكراهية وحرّض أصدقاءه على مهاجمتى .

ـ زمانك وفر لك من الأمان ما لم يوفر لى بعضه، والحق أنى لم أعرف مجاهدا سعيد الحظ مثلك، حظيت بتأييد الخديو والخليفة والجمعية الإسلامية، وهاجمت عدوك فى الداخل والخارج دون عقاب، واكتسبت مجدا وشهرة دون أن تدفع ثمنا، لم تقتل كما قتلت أنا، ولم تنف كما نفى أحمد عرابى . .

فقال مصطفى كامل :

ـ أحمد عرابى خائن جر على بلاده الاحتلال . .

فقال له أبنوم :

ـ كيف تتهم الرجل بالخيانة وهو ما ثار ونفى إلا دفاعا عن شعبك! وما كان الخائن إلا والد صديقك ومؤيدك ومعينك، وقد خان وطنه بشهادتك كما خان أبوه من قبل .

فقال مصطفى كامل بإصرار :

ـ إنى أعتبره المسئول الأول عن الاحتلال . .

قال أبنوم :

ـ إنك شاب وطنى متحمس صادق النية سعيد الحظ عشت حياتك فى جو معبق بأبهة العرش والخلافة والحضارة الفرنسية ، لم تشم رائحة العرق الكادح ولم تكابد آلام الجهاد الحقيقية ولم تتورع عن النيل من الثائر الحقيقى . .

وهنا قالت إيزيس :

ـ إنه الابن الذى أيقظت حماسته الوجدان الوطنى بعد أن كاد الاحتلال يخمد أنفاسه .

وقال أوزوريس :

ـ لم يكن بوسعك أن تفعل خيرا مما فعلت ولن ينسى فضل كلماتك ، فاذهب إلى محكمتك مصحوبا بدعواتنا القلبية .

٥٩

وهتف حورس :

ـ محمد فريد .

فدخل رجل ربعة ريان الوجه وتقدم عارى الرأس حافى القدمين حتى وقف أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام فقال :

ـ انحدرت من أسرة عريقة فى الأرستقراطية ، وشاركت مصطفى كامل فى موقفه الوطنى منذ بدايته ، وبسبب ذلك استقلت من الحكومة متفرغا للقضية الوطنية قبل كل شيء ، وتوثقت العلاقة بينى وبين مصطفى فرشحنى لخلافته فى رياسة الحزب ، وقد سرت على نهجه فى الوطنية والخطابة والكتابة حتى قبض علىّ وزج بى فى السجن ، وفى السجن ساومونى كى أخفف من عنف موقفى لقاء العفو فرفضت أى مساومة وخرجت من السجن أصلب عودا وأشد مراسا ، وقمت برحلات فى البلاد داعيا للوطنية ، فدبرت مؤامرات لإدخالى السجن مع قادة الحزب الكبار فقر قرارنا على الهجرة ومواصلة الجهاد فى الخارخ ، وأحكمنا التدبير للهرب فى الوقت المناسب ونجحنا فى ذلك ، وبقدر ما أنجزنا من أعمال فى الخارج بقدر ما تعرض الحزب فى الداخل إلى الضعف والتفكك ، وكابدنا المر من الحنين إلى مصر والأهل

وتخلى الكثيرون عنا، وقامت فى مصر ثورة ١٩١٩، ثورة غير متوقعة، لم تجر لى فى بال، قامت وأنا فى منفى منسى وآخرون يتربعون على كراسى الزعامة. وقد أظهرنا رضانا على رجالها مع اعتقادنا بعدم إخلاص أكثرهم، وهنأنا الأمة على ثورتها، وحيينا ذكرى شهدائها ودعوناها إلى الصمود حتى النهاية، وانتهت حياتنا فى المنفى.

وتكلم بسماتيك الثالث فقال:

ـ زعامة مقنعة بما تعرضت له من اضطهاد.

وقال الحكيم بتاح حتب:

ـ كان بوسعك أن تنعم بحياة مترفة وجاه كبير كسائر رجال طبقتك الثرية، ولكنك طرحت ذلك كله واخترت النضال والعذاب فى سبيل مصر، إنك رجل عظيم.

أما أبنوم فقال:

ـ خبرنى كيف يترك زعيم أمته فى محنة ليجاهد فى الخارج؟

فقال محمد فريد:

ـ دبروا للزج بنا فى السجن.

فقال أبنوم:

ـ ولكن الزعيم الحق يعلم أنه خُلق للسجن أو القتل لا للجهاد فى الخارج.

ـ كان الجهاد فى الخارج ضمن خطتنا الوطنية منذ أيام مصطفى كامل.

فقال أبنوم:

ـ قد يُقبل كعمل إضافى لاستكمال العمل الأصلى فى الداخل، أما أن تهاجر أنت والقادة تاركين حزبكم بلا قيادة حقيقية فهو تصرف بعيد عن الشجاعة والحكمة معا، المسألة أنكم من الأعيان الذين قضيتُ عليهم فى ثورتى بلا رأفة، إنكم تحبون الزعامة ما ضمنت لكم الجاه والاحترام، ولكن لا قبل لكم بالكفاح الصادق وما يسوق إليه من سجن أو تعذيب أو موت، لذلك تخليت عن الأمانة فى اللحظة الحرجة مؤثرا الجهاد الآمن فى الخارج، أصبحت بذلك المسئول عما حاق بالحركة الوطنية من ضعف وتفكك، لذلك أيضا لا أعجب لدهشتك لاشتعال ثورة عامة فى الشعب، وأدهش فى الوقت نفسه لشعورك المتعالى بالظلم لاختيارها زعيما غيرك، كأن الزعامة ميراث يتداول فى طبقتك كالأرض والمال حتى بعد الهرب من ميدانها.

فقال محمد فريد:

ـ إنك تردد ما قاله أعداؤنا!

ـ لا أنكر وطنيتك، ولكنك أحببت مصر على حين انطويت فى صميمك على احتقار للمصريين، ولم يفارقك الشعور بالانتماء إلى أصل أسمى، ولم يكن مفر من أن تنقلب حياتك إلى مأساة لأنه لا يمكن أن يتبوأ زعامة شعب إلا رجل من الشعب، ويتميز بالعظمة الإنسانية لا العظمة الأرستقراطية.

وهنا قالت إيزيس:

ـ أما أنا فأعتبره من خير أبنائى خلقا وإخلاصا ووطنية، ولم يكن فى وسعه أن يفعل خيرا مما فعل مع مراعاة ظروف مولده ونشأته.

وقال أوزوريس:

ـ لك منا تزكية يسندها الحب والاحترام فاذهب بسلام إلى محكمتك مع أصدق تمنيات التوفيق.

٦٠

ونادى حورس:

ـ سعد زغلول.

فدخل رجل طويل القامة، مهيب الطلعة، قوى القسمات، جذاب الملامح، وتقدم فى سيره حتى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ ولدت فى أبيانة، درست فى الأزهر، تتلمذت على يد جمال الدين الأفغانى، عملت محررا بالوقائع المصرية تحت رياسة وأستاذية محمد عبده، انضممت إلى العرابيين فى ثورتهم، وفى أول عهد الاحتلال البريطانى اعتقلت كعضو فى جمعية الانتقام وفصلت من وظيفتى، وعملت فى المحاماة، فالقضاء، اخترت وزيرا للمعارف ثم وزيرا للعدل، وعقب انتهاء الحرب العظمى الأولى وإعلان الهدنة توليت زعامة الحركة الوطنية، وأقمتها على أساس متين من الوحدة الوطنية بين المسلمين والمسيحيين، وناديت بحق مصر فى الحرية والاستقلال، فقبضت علىّ السلطات البريطانية ونفتنى إلى جزيرة مالطة، وما إن ذاع الخبر حتى قامت الثورة الشعبية احتجاجا على نفيى ومطالبة بالاستقلال، مما اضطر إنجلترا إلى الإفراج عنى، وسافرت مع أعضاء الوفد إلى باريس لعرض قضيتنا على مؤتمر الصلح فأغلق أبوابه فى وجوهنا، ودخلنا فى مفاوضات مع الإنجليز دون نتيجة، وحدث انقسام

فى الوفد، ورجعت إلى مصر، ثم نفيت مرة أخرى إلى جزر سيشل فى المحيط الهندى ولم يفرج عنى إلا سنة ١٩٢٣، وتوليت الوزارة سنة ١٩٢٤ بعد انتخابات شعبية، ودخلت فى المفاوضات التى سرعان ما فشلت، واضطررت إلى الاستقالة عقب اغتيال أحد كبار الإنجليز، ثم ائتلفت الأحزاب أمام دكتاتورية الملك، وتوليت رياسة مجلس النواب، تاركا رياسة الوزارة للدستوريين، ودارت المفاوضات من جديد ولكنى غادرت الدنيا قبل أن أعرف نتائجها . .

وتكلم أبنوم فقال:

ـ لقد قمت أنا بأول ثورة شعبية فى نهاية الدولة القديمة وقمت أنت بالثورة الشعبية الثانية بعد آلاف السنين فأنت أخى وخليفتى وحبيبى .

فقال الملك خوفو:

ـ ثمة فرق بين الثورتين يجب أن يذكر وهو أن ثورة أبنوم كانت ثورة العامة على الصفوة أما ثورة سعد زغلول فكانت ثورة شعب مصر كله فقراء وأغنياء على الاحتلال الأجنبى . .

فقال أبنوم:

ـ أعتقد أن الأغنياء لا يحبون الثورة .

فقال سعد زغلول:

ـ حرصت من أول الأمر على الاتحاد كقوة لا غنى عنها أمام العدو، ولكن ثبت لى أن الأغنياء يكرهون الثورة أكثر مما يكرهون الاحتلال .

فقال أبنوم:

ـ كان يجب أن تتخلص منهم .

فقال سعد زغلول:

ـ لقد انشقوا علىّ راسمين لأنفسهم طريقا إلى الاستقلال يناسب رؤيتهم .

وقال الملك مينا:

ـ لقد وحدت المصريين كما وحدت أنا مملكتهم فأنت فى ذلك صديقى وخليفتى . .

وسأله أمحتب وزير الملك زوسر:

ـ رغم ما ثبت لك من زعامة بعد الثورة فإنك قبلت العمل فى ظل الاحتلال قبل الثورة ولم تنضم للحزب الوطنى، ما تفسير ذلك؟

فقال سعد زغلول:

ـ كان الحزب الوطنى يدعو إلى مبادئ خيالية، من ذلك أنه لا مفاوضة إلا بعد الجلاء

مما يعنى بقاء الاحتلال إلى الأبد، ومنه مقاطعة الوظائف العامة لهيمنة الإنجليز عليها، ولا يكفى فى نظرى أن تطالب الناس بسلوك معين ولكن يجب أن يكون هذا السلوك ممكنا دون تهاون أو إجحاف، وأن يصلح للتطبيق العام، وقد استطاع مصطفى كامل مقاطعة الوظائف بما كان يمده الخديو وغيره به من مال، واستطاع محمد فريد ذلك لثرائه الواسع، ولكن ماذا يصنع أتباع الحزب؟ . . إن اتبعوا مثل زعامتهم هلكوا وإن خالفوها مضطرين خانوا العهد، فكيف يدعو أناس إلى ذلك المبدأ المتعالى الذى يعز على التطبيق ويورث الشعور بالإثم؟ . . ثم كيف نترك الوظائف العامة للأجانب؟ وقد قبلت الحياة الرسمية لأمارس من خلالها ما استطعته من مقاومة ومن أداء خدمات لوطنى كان فى أشد الحاجة إليها، وقد اعترف بذلك خصومى قبل أصدقائى . .

فقال أوزوريس مخاطبا الجميع :

ـ أعمال هذا الزعيم مدونة فى الكتاب لمن يريد أن يطلع عليها ولكنا فى هذه المحكمة لا نناقش إلا الأعمال الفاصلة .

ثم خاطب سعد قائلا :

ـ زعم خصومك أن الثورة قامت وأنت فى المنفى وأنك لم تفعل شيئا لإشعالها بل إنك دهشت لقيامها كحدث غير متوقع، فما قولك فى ذلك؟

فقال سعد زغلول :

ـ كانت حال البلاد تدعو لليأس، وأعترف بأننى دهشت لقيام الثورة كما دهش الزعيم السابق لى وهو محمد فريد ولكنى لم أقصر فى تهيئة الجو لها بالخطابة لدى كل مناسبة والاجتماع بالناس فى بيتى وفى دعوة الناس فى الريف والمدن لتأييدى فى موقفى مما عبأ الشعور القومى، والثورة قامت احتجاجا على نفيى فكان شخصى فى الواقع هو مشعلها المباشر .

فقال أبنوم :

ـ الموقف الخطير يتطلب عادة سلوكا معينا والزعيم القادر هو من يستطيع أن يكون القدوة لهذا السلوك، وقد كان الموقف يحتاج إلى التضحية، فهى أقصى ما يستطيع شعب أعزل أن يقدمه حيال قوة قاهرة، ولما تحدى سعد العدو واضطره إلى نفيه أعطى هذه القدوة المطلوبة ففعل الشعب مثله وقامت الثورة، ومما يشهد لسعد بالعظمة أنه أقبل على التضحية وهو يائس من ثورة تحميه أو تدافع عنه فكانت تضحيته كاملة، شجاعة نبيلة لا أمل لها فى أى نوع من النجاة، ولو كان يأمل فى ثورة لقلل ذلك درجة من ضخامة تضحيته . .

فقال أوزوريس :

ـ وقيل أيضا إن تعصبك لزعامتك هو ما اضطر العقلاء من معاونيك على الانشقاق عليك ، فما قولك فى ذلك؟

فقال سعد زغلول :

ـ المسألة أننى اندمجت فى الثورة وآمنت بها ووجدت فيها ضالتى التى كنت أبحث عنها طوال حياتى ، أما العقلاء فقد كرهوا الثورة وخافوها وقنعوا بالحلول الزائفة ، كانوا ذوى مال وخبرة وحنكة ولكن وطنيتهم لم تكن خالصة كما كان إيمانهم بالشعب معدوما . .

فقال أوزوريس :

ـ وقال بعض أعوانك إنه كان يجب أن تبقى على رأس الثورة ولا تقبل رياسة الوزارة؟

فقال سعد زغلول :

ـ كانت وزارتى امتدادا للثورة على المستوى الرسمى . .

فقال أبنوم :

ـ كنت أفضل أن تأخذ برأى أولئك الأعوان!

وهنا قالت إيزيس :

ـ لتبارك الآلهة هذا الابن العظيم البار الذى برهن على أن شعب مصر قوة لا تقهر ولا تموت .

وقال أوزوريس :

ـ إنك أول مصرى يتولى الحكم منذ العهد الفرعونى ، وتوليته بإرادة الشعب ، من أجل ذلك أهبك حق الجلوس بين الخالدين من أجدادك حتى تنتهى المحاكمة ، ثم تمضى بسلام إلى محكمتك مصحوبا بتزكيتنا وصادق أمانينا .

واتخذ سعد زغلول مجلسه بين الخالدين فى قاعة العدل المقدسة .

٦١

وهتف حورس :

ـ مصطفى النحاس .

فدخل رجل قوى الجسم والوجه مائل للطول ، تقدم فى سيره حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام فقال :

- ولدت فى سمنود فى أسرة من أبناء الشعب الفقراء، وبفضل اجتهادى أتممت تعليمى، ولتفوقى عينت فى القضاء فعرفت بالعدل والنزاهة، وكنت من أنصار الحزب الوطنى الذى زاملت رئيسه طالبا بالمدرسة الخديوية، وعند تأليف الوفد برياسة سعد زغلول اختارنى عضوا فيه، ونفيت معه إلى سيشل عام ١٩٢١، واشتركت فى وزارته الشعبية الثورية، وعقب وفاته انتخبت رئيسا للوفد، وحملت عبء الجهاد فى سبيل الاستقلال والحياة الديمقراطية ربع قرن من الزمان، وقد توليت الوزارة سبع مرات وأقلت منها ست مرات لخلافات مع الإنجليز أو الملك، وفى ١٩٣٦ وتحت ضغط التهديد بحرب عالمية قبلت الائتلاف مع الأحزاب وعقدنا معاهدة مع الإنجليز اعترفت باستقلال مصر ، ووعدت بالجلاء بعد عشرين عاما، وقامت الحرب العالمية فى فترة حكم استبدادى ملكى، واتهم الملك بالاتصال بأعداء الإنجليز فنشبت أزمة سياسية خطيرة وفكر الإنجليز فى خلع الملك، وتقدمت لإنقاذ البلاد والعرش وألفت وزارة فى ظروف عسيرة، ولما انتهت الحرب بانتصار الإنجليز شرعت فى المطالبة بالجلاء الفورى ولكن الملك أقالنى، ورجع الملك إلى استبداده وسارت الأمور من سيئ إلى أسوأ حتى اضطر إلى الموافقة على استفتاء الشعب عام ١٩٥٠، فرجعت إلىَ الوزارة، وفاوضت الإنجليز من أجل الجلاء، ولما لم أجد منهم استجابة ألغيت المعاهدة وأعلنت الجلاء فتآمر علىّ أعدائى فى الداخل والخارج واستطاع الملك أن يتخلص منى. وقامت ثورة يوليو واضطررت إلى اعتزال السياسة حتى وافانى الأجل.

فقال أوزوريس:

- يهم الحاضرين أن يعرفوا بعض الإنجازات التى قدمتها فى أثناء توليكم الوزارة؟

فقال مصطفى النحاس:

- بالرغم من أن الشعب لم يحكم إلا ثمانية أعوام نظير تسعة عشر عاما استبد فيها الملك وأحزاب الأقلية بالسلطة، وبالرغم مما تعرضت له من اضطهاد وعسف ومحاولات متكررة لاغتيال حياتى فقد وفقنى الله إلى تحقيق خدمات غير قليلة، منها على سبيل المثال، إلغاء الامتيازات الأجنبية، إلغاء صندوق الدين، تأسيس جامعة الدول العربية، استقلال القضاء، استقلال الجامعة، قانون التوظف، منع الأجانب من تملك الأراضى الزراعية، التعويض عن إصابات العمل والتأمين الإجبارى ضدها، الاعتراف بنقابات العمال، فرض استعمال اللغة العربية فى الشركات الأجنبية، الضمان الاجتماعى، ديوان المحاسبة، مجانية التعليم الابتدائى والثانوى والمتوسط، ديوان المحاسبة.

وقال أبنوم :

ـ مرحبا بالثائر الشعبى الثالث فى حياة شعبنا ، وقد استمد قوته من إيمانه بشعبه وإلهه ، واتسمت حياته بالكفاح الطويل والنزاهة ، وقد عاش فقيرا ومات فقيرا .

وقال الملك إخناتون :

ـ تقبل حبى أيها الزعيم ، إنك مثلى تفانيا فى الإيمان بالإله الواحد ، والإخلاص للمبادئ الطاهرة ، ومثلى أيضا فى حب البسطاء من الشعب والاختلاط بهم دون حاجز من التعالى أو الكبرياء ، ومثلى تعرضت لعداوة الأوغاد وعباد السلطة وأسرى الأنانية حيا وميتا ومثلى أخيرا فيما حظيت به من نشوة النصر وما ابتليت به من الجحود والهزيمة ، ولكن أبشر فالنصر فى النهاية لنا . .

وهنا قالت إيزيس :

ـ هذا ابن أصيل من أبنائى البررة .

فقال أوزوريس :

ـ إنى أهبك حق الجلوس مع الخالدين حتى نهاية المحاكمة ، ثم تمضى إلى محكمتك مشفوعا بأكرم تزكية .

٦٢

وهتف حورس :

ـ جمال عبد الناصر .

فدخل رجل طويل القامة ، واضح الملامح ، عظيم الشخصية ، ومضى فى سيره حتى وقف أمام العرش .

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال :

ـ أنتمى إلى قرية بنى مر من أعمال أسيوط ، ونشأت فى أسرة فقيرة من أبناء الشعب فكابدت مرارة العيش وشظفه ، وتخرجت فى الكلية الحربية عام ١٩٣٨ ، واشتركت فى حرب فلسطين ، وحوصرت مع من حوصر فى الفالوجا ، وقد هالتنى الهزيمة ، وهالتنى أكثر جذورها الممتدة فى أعماق الوطن ، فخطر لى أن أنقل المعركة إلى الداخل حيث يكمن أعداء البلاد الحقيقيون ، وأنشأت فى حذر وسرية تنظيم الضباط الأحرار ، ورصدت الأحداث انتظارا للحظة المناسبة للانقضاض على النظام القائم ، وقد حققت هدفى فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ثم تتابعت إنجازات الثورة

مثل إلغاء النظام الملكى، واستكمال استقلال البلاد بالجلاء التام، والقضاء على الإقطاع بإصدار قانون الإصلاح الزراعى، وتمصير الاقتصاد، والتخطيط لإصلاح شامل فى الزراعة والصناعة يستهدف خير الشعب وتذويب الفروق الطبقية، وبنينا السد العالى وأنشأنا القطاع العام متجهين نحو الاشتراكية، وكوّنا جيشا حديثا قويا، ونشرنا الدعوة للوحدة العربية، وساندنا كل ثورة عربية أو إفريقية، وأممنا قناة السويس فكنا منارة وقدوة للعالم الثالث كله فى نضاله ضد الاستعمار الخارجى والاستغلال الداخلى، وحظى الشعب الكادح فى عهدى بعزة وقوة لم يعرفهما من قبل، ولأول مرة يشق طريقه إلى المجالس التشريعية والجامعات ويشعر بأن الأرض أرضه والوطن وطنه، وقد تربصت بى قوى الاستعمار حتى أنزلت بى هزيمة منكرة فى ٥ يونيو ١٩٦٧ فزلزلت العمل العظيم من جذوره وقضت علىّ بما يشبه الموت قبل موافاة الأجل بثلاثة أعوام، وقد عشت مصريا عربيا مخلصا ومت مصريا عربيا شهيدا.

وتكلم الملك رمسيس الثانى فقال:

ـ دعنى أعرب لك عن عظيم حبى وإعجابى، وما حبى لك إلا امتداد لحبى لذاتى فما أكثر أوجه الشبه التى تجمع بيننا، كلانا يشع عظمة تملأ الوطن وتتجاوز حدوده، وكلانا جعل من هزيمته نصرا فاق كل نصر، وكلانا لم يقنع بأعماله المجيدة الخالدة فأغار على أعمال الآخرين ممن سبقوه، وقد ساندنى الحظ بأن توليت عرش مصر وهى سيدة الأمم، أما أنت فحكمتها وهى أمة صغيرة وسط عمالقة، وقد وهبتنى الآلهة طولا فى العمر وقوة فى الروح والجسد وضنت عليك إلا بالقليل فعاجلك الأجل قبل الأوان..

وتكلم الملك مينا فقال:

ـ ولكن اهتمامك بالوحدة العربية فاق اهتمامك بالوحدة المصرية فحتى اسم مصر الخالد شطبته بجرة قلم، واضطررت العديد من أبناء مصر إلى الهجرة التى لم يمارسوها إلا فى فترات قهر عابرة!

فقال جمال عبد الناصر:

ـ ليس الذنب ذنبى إذا توهم بعض المصريين أن الوحدة العربية تعنى الضياع لهم، وليس الذنب ذنبى إذا تحققت أعمال مجيدة على يدى بعد أن عجز السابقون عن تحقيقها، فالحق أن تاريخ مصر الحقيقى بدأ مع ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

وسرت همهمة بين الجالسين مضت تشتد حتى هتف أوزوريس:

ـ النظام والهدوء أيها السادة، أفسحوا صدوركم لأى قول يقال..

فقال أبنوم :

ـ اسمح لى أن أحييك بوصفى أول ثائر من فقراء مصر ، وإنى لأشهد لك بأن الفقراء لم ينعموا بالأمان والأمل فى عهد ـ بعد عهدى ـ كما نعموا فى عهدكم . ولا مأخذ لى عليك إلا إصرارك على أن تكون ثورتك بيضاء على حين كان يجب أن تجرى الدماء فيها أنهارا!

فتساءل الملك خوفو محتجا :

ـ ماذا يقول هذا السفاح؟!

فقال أوزوريس بحدة :

ـ تذكر أنك لست على عرشك ، اعتذر .

فقال خوفو بخشوع :

ـ معذرة . .

وقال الملك تحتمس الثالث :

ـ على الرغم من نشأتك العسكرية فقد أثبت قدرة فائقة فى كثير من المجالات إلا العسكرية ، بل إنك لم تكن قائدا ذا شأن بأى حال من الأحوال!

فقال جمال عبد الناصر :

ـ تعذر علىّ النصر على جيش متفوق فى التسليح ومؤيد بأقوى دولة على سطح الأرض!

فقال أمحتب وزير الملك زوسر :

ـ كان واجبك أن تتجنب الحرب وأن تكف عن استفزاز الدول الكبرى . .

فقال جمال عبد الناصر :

ـ كان ذلك يتناقض مع أهدافى وقد خدعت أكثر من مرة .

فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ إنه عذر أقبح من الذنب .

وقال سعد زغلول :

ـ لقد حاولت أن تمحو اسمى من الوجود كما محوت اسم مصر ، وقلت عنى إننى اعتليت الموجة الثورية عام ١٩١٩ ، فدعنى أحدثك عن معنى الزعامة ، الزعامة هبة ربانية وغريزة شعبية ، لا تلحق بإنسان مصادفة ولا كضربة حظ أعمى ، والزعيم المصرى هو الذى يبايعه المصريون على اختلاف أديانهم وإلا لم يكن زعيما مصريا أبدا ، إن جاز أن يكون زعيما عربيا أو إسلاميا ، بيد أننى رغم ذلك لم أضمر لك

الرفض، واعتبرت تجنيك على نزوة شباب يمكن التسامح معها نظير ما قدمت من خدمات جليلة، لقد قامت الثورة العرابية فناضلت نضالا كريما وأحبطت إحباطا أليما، وقامت ثورة ١٩١٩ فحققت من المآثر ما شهد به التاريخ ولكن تكاثر أعداؤها حتى اجتاحها حريق القاهرة، ثم جاءت ثورتك فتخلصت من الأعداء وأتمت رسالة الثورتين السابقتين، وبالرغم من أنها بدأت كانقلاب عسكرى إلا أن الشعب باركها ومنحها تأييده، وكان بوسعك أن تجعل من الشعب قاعدتها وأن تقيم حكما ديمقراطيا رشيدا، ولكن اندفاعك المضلل فى الطريق الاستبدادى هو المسئول عن جميع ما حل بحكمك من سلبيات ونكبات . .

فقال جمال عبد الناصر :

ـ كان يلزمنا فترة انتقال لتحقيق الأسس الثورية . .

فقال مصطفى النحاس :

ـ حجة دكتاتورية واهية طالما سمعناها من أعداء الأمة، كان بين يديك قاعدة وفدية شعبية انهلت عليها بدباباتك، وعجزت عن إقامة بديل عنها فظلت البلاد تعانى الفراغ، ومددت يدك إلى المنبوذين من الأمة فوقعت فى تناقض مؤسف بين عمل إصلاحى يعتبر فى روحه امتدادا لروح الوفد أسلوب حكم يعتبر امتدادا لحكم الملك والأقليات، حتى قضى أسلوب الحكم على جميع النوايا الطيبة!

فقال جمال عبد الناصر :

ـ الديمقراطية الحقيقية كانت تعنى عندى تحرير المصرى من الاستعمار والاستغلال والفقر . .

فقال مصطفى النحاس :

ـ وأغفلت الحرية وحقوق الإنسان، ولا أنكر أنك كنت أمانا للفقراء ولكنك كنت وبالا على أهل الرأى والمثقفين وهم طليعة أبناء الأمة، انهلت عليهم اعتقالا وسجنا وشنقا وقتلا حتى أذللت كرامتهم وأهنت إنسانيتهم ومحقت إيجابيتهم وخربت بناء شخصياتهم والله وحده يعلم متى يعاد بناؤها، أولئك الذين جعلت منهم ثورة ١٩١٩ أهل المبادرة والإبداع فى شتى المناشط السياسية والاقتصادية والثقافية، بل أفسد الاستبداد عليك أجمل قراراتك، انظر كيف فسد التعليم، وتفسخ القطاع العام، وكيف قادك التحدى للقوى العالمية إلى الهزائم المخجلة والخسائر الفادحة، ولم تَفِدْ من الرأى الاخر ولم تتعظ بتجربة محمد على، وماذا كانت النتيجة؟ . . دوىَ وجلجلة وأساطير فارغة تقوم على تل من الخرائب . .

فقال جمال عبد الناصر :

- لقد نقلت وطنى من حال إلى حال كما نقلت العرب وسائر الأمم المغلوبة على أمرها، وسوف تعالج السلبيات حتى تزول وينساها الزمن ويبقى ما ينفع الناس، وعند ذاك يقر الناس بعظمتى الحقيقية . .

فقال مصطفى النحاس :

- ليتك تواضعت فى طموحك، ليتك عكفت على إصلاح وطنك وفتح نوافذ التقدم له فى شتى مجالات الحضارة. إن تنمية القرية المصرية أهم من تبنى ثورات العالم، إن تشجيع البحث العلمى أهم من حملة اليمن، ومكافحة الأمية أهم من مكافحة الإمبريالية العالمية، واأسفاه لقد ضيعت على الوطن فرصة لم تتح له من قبل، فلأول مرة يحكم ابن وطنى من أبناء البلاد دون مناوئ من ملك أو مستعمر، ولكنه بدلا من مداواة ابن وطنه المريض دفع به إلى مباراة البطولة العالمية وهو ينوء بأمراضه فكانت النتيجة أن خسر البطولة وخسر نفسه . .

وهنا قالت إيزيس :

- إن فرحتى برجوع العرش إلى أحد أبنائى لا تقدر، وإن أعماله الجليلة لتحتاج إلى جميع جدران المعابد لتسجيلها، أما الأخطاء فلا أدرى كيف أدافع عنها . .

فقال أوزوريس :

- لو كانت محكمتنا هى صاحبة الكلمة الأخيرة فى الحكم عليك لاقتضانا العدل تأملا وعناء طويلين، فقليلون من قدموا لبلادهم مثلما قدمت من خدمات، وقليلون من أنزلوا بها مثلما أنزلت من إساءات، ولكن بالنسبة لأنك أول من يجلس على عرشها من أبنائها، وأول من يخص الكادحين برعايته فإننا نسمح لك بالجلوس بين الخالدين لحين انتهاء المحاكمة، وستذهب بعد ذلك إلى محكمتك مؤيدا بتزكية مناسبة .

٦٣

ونادى حورس :

- محمد أنور السادات .

فدخل رجل متوسط القامة رشيق القد عميق السمرة، مضى فى سيره حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام فقال :

ـ ولدت فى قرية ميت أبو الكوم، ونشأت فى أسرة فقيرة، ووجدت عناء لا يستهان به كى أستمر فى الدراسة، وقد تشبعت بروح الوطنية منذ صغرى، وشاركت فى المظاهرات الوفدية، ثم أمكننى الالتحاق بالكلية الحربية التى فتحت أبوابها لأمثالى من أبناء الشعب بعد معاهدة ١٩٣٦، ومنذ تخرجى هالنى وضع الجيش تحت سلطة البعثة العسكرية الإنجليزية، وخامرتنى أفكار للدعوة لثورة مسلحة ضد الإنجليز فأنشأت أول تنظيم سرى فى الجيش عام ١٩٣٩، وقد اتصلت بالإخوان المسلمين وأعجبت بنشاطهم، كما حاولت أثناء الحرب الاتصال بالألمان، وعقدت العزم على اغتيال المتعاونين مع الإنجليز من المصريين، وقد قُبض علىّ نتيجة لذلك، وحُوكمت، ولكنى نلت البراءة، بل ورجعت إلى خدمة الجيش، وفى ذلك الوقت اتصل بى جمال عبد الناصر وضمنى إلى تنظيمه، وقامت الثورة فى يوليو ١٩٥٢، وتتابعت الأحداث حتى وافى الأجل جمال عبد الناصر فخلفته فى منصبه فى ظرف بالغ الدقة، وكنت على علم بالسلبيات التى نخرت فى عظام عهد عبد الناصر فتوثبت لإحداث ثورة جديدة تنقذ البلاد من الموت الذى تتردى فيه، قضيت على مراكز القوى، واتجهت على مهل نحو الأمان وسيادة القانون والديمقراطية، وفى ٦ أكتوبر ١٩٧٣، فاجأت العدو المحتل، بل فاجأت العالم بهجوم لم يتوقعه أحد، وحققت انتصارا أنقذ الروح العربية من القنوط كما انتشل الشرف من الهوان، ثم تسنمت بمغامرة أخرى باقتحامى بلد الأعداء داعيا إلى تصفية الموقف بالكلمة لا بالسلاح، وانتهى سعيى الطويل إلى معاهدة كامب دافيد، وناديت بالانفتاح لإنقاذ الاقتصاد الوطنى، وتقدمت فى الديمقراطية خطوات جديدة، ولكن اعترضتنى عقبات غيرت من حساباتى، فقد انحرفت المعارضة، وهب التيار الدينى يهدد البلاد بالعنف، فوقفت من الجميع موقفا حازما لا مفر منه، ولكن الأمور انتهت باغتيالى فى ذكرى اليوم الذى حققت فيه لوطنى عزة النصر.

وتكلم الملك إخناتون فقال:

ـ أحييك كداعية من دعاة السلام، ولا أدهش لاتهام خصومك لك بالخيانة فقد تلقيت منهم نفس التهمة لذات السبب.

فقال تحتمس الثالث:

ـ يذكرنى انتصارك بانتصار رمسيس الثانى الذى كلل بمعاهدة سلام والزواج من ابنة ملك الحيثيين!

فقال رمسيس الثانى:

ـ الحاكم مسئول أولا عن حياة شعبه، ومن هذا المنطلق يقوم على الحرب أو يجنح إلى السلام.

فقال أنور السادات :

ـ وقد آمنت بصدق بعقم الاستمرار فى الحرب .

وقال الملك أمنحتب الثالث :

ـ ما أشبهك بى أيها الرئيس فى حب الرفاهية لشعبك ولنفسك ، كلانا عشق الأبهة والنعيم والعظمة والقصور ، غير أن زمانى سمح لى بأن أنهل من النعيم بلا كدر . أما زمانك فأذاقك الحلو والمر ، دعنى أعرب لك عن حبى وعطفى .

وقال الملك حور محب :

ـ توليت الحكم فى ظروف تشبه فى بعض مناحيها الظروف التى تحدتنى أول حكمى عقب وفاة الملك العجوز آى . وأعترف بأنك قمت بأعمال جليلة ، ووجهت ضربات صادقة ، ولكنك تهاونت فى معاقبة الفساد والمفسدين حتى أوشكوا أن يحيلوا انتصاراتك إلى هزائم .

فقال أنور السادات :

ـ شغلت بتشجيع العاملين عن الضرب على أيدى المفسدين .

فقال حور محب :

ـ لا قيام لدولة إلا على الانضباط والأخلاق .

وسأله جمال عبد الناصر :

ـ كيف هان عليك أن تقف من ذكراى ذلك الموقف الغادر؟

فقال أنور السادات :

ـ اتخذت ذلك الموقف مضطرا إذ قامت سياستى فى جوهرها على تصحيح الأخطاء التى ورثتها عن عهدك .

ـ ولكنى عهدتك راضيا ومشجعا وصديقا؟

ـ من الظلم أن يحاسب إنسان على موقف اتخذه فى زمن رعب أسود خاف فيه الأب ابنه والأخ أخاه!

ـ وما النصر الذى أحرزته إلا ثمرة استعدادى الطويل له!

فقال أنور السادات :

ـ ما كان لمنهزم مثلك أن يحقق انتصارا ، ولكنى أرجعت للشعب حريته وكرامته ثم قدته إلى نصر أكيد .

ـ ثم تُنازلت عن كل شىء فى سبيل سلام مهين فطعنت وحدة العرب طعنة قاتلة وقضيت على مصر بالانعزال والغربة . .

فقال أنور السادات :

ـ لقد ورثت عنك وطنا يترنح على هاوية الفناء، ولم يمد لى العرب يد عون صادقة، ووضح لى أنهم لا يرغبون في موتنا كما لا يرغبون فى قوتنا كى نظل راكعين تحت رحمتهم، فلم أتردد فى اتخاذ قرارى . .

ـ واستبدلت بعملاق طالما ساندنا عملاقا طالما ناصبنا العداء .

ـ اتجهت إلى العملاق الذى بيده الحل، وصدقت الحوادث ظنونى !

ـ واندلقت فى الانفتاح حتى أغرقت البلاد فى موجة غلاء وفساد، وبقدر ما كان عهدى أمانا للأغنياء واللصوص .

فقال أنور السادات :

ـ لقد عملت لخير مصر فوثب الانتهازيون من وراء ظهرى !

وتكلم مصطفى النحاس فقال :

ـ حاولت اغتيالى وكدت تنجح لولا العناية الإلهية، ثم فقدت حياتك نتيجة للاغتيال، ترى ألا زلت تؤمن به؟

فقال أنور السادات :

ـ نحتاج لأضعاف عمرنا كى نتعلم الحكمة .

فقال مصطفى النحاس :

ـ وسمعت عن دعوتك إلى الديمقراطية فدهشت ثم تبين لى أنك تريد حكما ديمقراطيا تمارس على رأسه سلطاتك الدكتاتورية !

ـ أردت ديمقراطية ترعى للقرية آدابها وللأبوة حقوقها .

ـ هذه ديمقراطية قبلية .

فقال سعد زغلول :

ـ هذا حق، ولكن الديمقراطية الحقيقية تؤخذ ولا تمنح فلا تغال فى لومه . .

وقال مصطفى النحاس :

ـ واشتدت الضائقة بالناس، وحدث ما يحدث عادة فى مثل تلك الظروف من أعراض الفتن والتطرف، فتركت الأمور تستفحل كأنك لا تبالى، ثم انفجرت بغتة فألقيت بالجميع فى السجون فأغضبت المسلمين والمسيحيين والمتطرفين والمعتدلين، وانتهى الأمر بمأساة المنصة . .

فقال أنور السادات :

ـ وجدت أنه لا مفر من ضربة حاسمة اتقاء لفوضى توشك أن تجر البلاد إلى حرب أهلية .

فقال سعد زغلول :

ـ عندما يغتصب الحاكم حقوق شعبه يخلق منه خصما ، وعند ذاك تهدر قوة البلاد الأساسية فى صراع داخلى بدلا من أن توجه للعمل الصالح .

وهنا قالت إيزيس :

ـ بفضل هذا الابن ردت الروح إلى الوطن ، واستردت مصر استقلالها الكامل كما كان قبل الغزو الفارسى ، وقد أخطأ كما أخطأ سواه وأصاب أفضل مما أصاب كثيرون .

فقال أوزوريس :

ـ أرحب بك بين الخالدين من أبناء مصر ، وسوف تمضى بعد ذلك إلى محكمتك الأخرى مؤيدا بتزكية مشرفة منا .

٦٤

قلب أوزوريس عينيه فى الخالدين وقال :

ـ ها هى حياة مصر ، قد عرضت عليكم بكل أفراحها وأحزانها ، منذ وحدها مينا وحتى استردت استقلالها على يد السادات ، فلعل لبعضكم رؤية يريد أن ينوه بها .

وطلب الملك إخناتون الكلمة ، ثم قال :

ـ أدعو للاستمساك بعبادة الإله الواحد باعتباره المعنى والخلود والتحرر من أى عبودية أرضية .

وقال الملك مينا :

ـ والحرص على وحدة الأرض والشعب فالنكسة لا تجىء إلا نتيجة لخلل يصيب هذه الوحدة .

وقال الملك خوفو :

ـ على مصر أن تؤمن بالعمل ، به شيدت الهرم ، وبه تواصل البناء .

وقال أمحتب وزير الملك زوسر :

ـ وأن تؤمن بالعلم فهو القوة وراء خلودها .

وقال الحكيم بتاح حتب :

ـ وأن تؤمن بالحكمة والأدب لتنعم بنضارة الحياة وتنهل من رحيقها .

وقال أبنوم :

ـ وأن تؤمن بالشعب والثورة لتطرد مسيرتها نحو الكمال .

وقال الملك تحتمس الثالث :

ـ وأن تؤمن بالقوة التى لا تتحقق حتى تلتحم بجيرانها .

وقال سعد زغلول :

ـ وأن يكون الحكم فيها من الشعب بالشعب من أجل الشعب .

وقال جمال عبد الناصر :

ـ وأن تقوم العلاقات بين الناس على أساس العدالة الاجتماعية المطلقة .

وقال أنور السادات :

ـ وأن يكون هدفها الحضارة والسلام .

وهنا قالت إيزيس :

ـ ليضرع كل منكم إلى إلهه أن يهب أهل مصر الحكمة والقوة لتبقى على الزمان منارة للهدى والجمال .

فبسط الجميع أكفهم واستغرقوا فى الدعاء .



رحلة ابن فطومة

رواية

المحتويات

الوطن

الحياة والموت، الحلم واليقظة، محطات للروح الحائر، يقطعها مرحلة بعد مرحلة، متلقيا من الأشياء إشارات وغمزات، متخبطا فى بحر الظلمات، متشبثا فى عناد بأمل يتجدد باسما فى غموض. عم تبحث أيها الرحالة؟ أى العواطف يجيش بها صدرك؟ كيف تسوس غرائزك وشطحاتك؟ لم تقهقه ضاحكا كالفرسان؟ ولم تذرف الدمع كالأطفال؟ وتشهد مسرات الأعياد الراقصة، وترى سيف الجلاد وهو يضرب الأعناق، وكل فعل جميل أو قبيح يستهل باسم الله الرحمن الرحيم. وتستأثر بوجدانك ظلال بارعة براعة الساحر مثل الأم والمعلم والحبيبة والحاجب، ظلال لا تصمد لرياح الزمن ولكن أسماءها تبقى مكللة بالخلود. ومهما نبا بى المكان فسوف يظل يقطر ألفة، ويسدى ذكريات لا تنسى، ويحفر أثره فى شغاف القلب باسم الوطن. سأعشق ما حييت نفثات العطارين، والمآذن والقباب، والوجه الصبيح يضىء الزقاق، وبغال الحكم وأقدام الحفاة، وأناشيد الممسوسين وأنغام الرباب، والجياد الراقصة وأشجار اللبلاب ونوح اليمام وهديل الحمام. وتحدثنى أمى فتقول:

- يوم مولدك.

وتهز رأسها جميل التكوين فأقول بحبور:

- بل يومك هو الأصل!

كان أبى محمد العنابى تاجر غلال مترعا بالثراء. أنجب سبعة تجار مرموقين، وعمر حتى جاوز الثمانين متمتعا بالصحة والعافية. وفى الثمانين رأى أمى الجميلة فطومة الأزهرى وهى بنت سبعة عشر، آخر عنقود جزار يدعى الأزهرى قطائف فغزت قلبه وتزوج منها وأقام معها فى دار رحيبة اشتراها بإسمها محدثا فى أسرته غضبا وشغبا. اعتبر إخوتى الزواج لعبة قذرة غير مشروعة، واستعانوا على أبيهم بشفاعة القاضى وكبير التجار ولكنه مرق من قبضتهم مروق عاشق مسلوب الإرادة، فاعتد الزواج حقا لا يقبل المناقشة، وفارق السن وهما يتعلل به المغرضون، وراح ينهل من معين سعادته بقلب ملىء بالثقة.

ـ وجاء مولدك مؤكدا للهزيمة مجدداً للغضب!

وأقول لها كثيراً:

ـ لا حد لطمع الإنسان!

فمنذ حداثتى وأنا أتلقى أجمل الكلمات رغم ارتطامى بأقبح الفعال. وسمانى أبى «قنديل» ولكن إخوتى أطلقوا على «ابن فطومة» تبرؤا من قرابتى وتشكيكا فيها. ومات أبى قبل أن يطبع صورته فى وعيى تاركا لنا ثروة نضمن حياة رغدة حتى آخر العمر. وقطعت الخصومة ما بيننا وبين اخوتى. وخافتهم أمى على نفسها وعلى فأطاحت بها الوساوس والظنون حتى قررت ألا ترسلنى الى الكتاب. فعهدت بى الى الشيخ مغاغة الجبيلى ـ وكان جارا لأسرتها ـ ليلقننى العلم فى دارى. وعنه تلقيت دروسا فى القرآن والحديث واللغة والحساب والأدب والفقه والتصوف والرحلات. كان فى الأربعين، قويا مهيبا، ذا لحية رشيقة وعمامة عالية، وجبة أنيقة، وعينين لامعتين ثاقبتى النظرة، يمد صوته الملىء عند إلقاء الدرس، ويرسله على مهل وهدوء، ويذلل الصعب بجودة الشرح ورقة الابتسامة. وكانت أمى تتابع الدروس باهتمام مستفيدة من فراغها الطويل، تنصت من وراء ستار ونحن فى القاعة شتاء، ومن وراء خصاص ونحن فى السلاملك فى بقية الفصول، وكانت تقول لى:

ـ أراك سعيدا بمعلمك، وهذا حظ حسن..

فأقول لها بحماس:

ـ انه شيخ عظيم..

وكان يخصص وقتا للمناقشة، فيطرح مايرى من أسئلة ولكنه يدعونى لإعلان خواطرى ويعاملنى معاملة الراشدين.

ويوما ـ لا أذكر فى أى فترة من العمر ـ سألته:

- اذا كان الإسلام كما تقول فلماذا تزدحم الطرقات بالفقراء والجهلاء؟!

فأجابنى بأسى :

- الإسلام اليوم قابع فى الجوامع لا يتعداها الى الخارج! ويفيض فى الحديث فيلهب الأوضاع بنيرانه . . حتى الوالى لايسلم من شرره . وقلت له :

- إذن إبليس هو الذى يهيمن علينا لا الوحى .

فقال برضا :

- أهنئك على قولك ، إنه أكبر من سنك . .

- والعمل يا سيدنا الشيخ؟

فقال بهدوء :

- أنت ذكى ، وكل آت قريب . .

أما حديثه عن الرحلات فمثار للعشق والسرور . وتكشف فى مجرى حديثه عن رحالة قديم . قال :

- عرفت الرحلات فى صحبة المرحوم أبى فطوفنا بالمشرق والمغرب . .

فأقول بلهفة :

- حدثنى عن مشاهداتك يا سيدنا .

فحدثنى بسخاء حتى عايشت بخيالى ديار المسلمين المترامية ، وتبدى لى وطنى نجما فى سماء مكتظة بالنجوم . وقال :

- ولكن الجديد حقا لن تعثر عليه فى ديار الإسلام!

وتتساءل عيناى عن السبب فيقول :

- جميعها متقاربة فى الأحوال والمشارب والطقوس ، بعيدة كلها عن روح الإسلام الحقيقى ، ولكنك تكتشف ديارا جديدة وغريبة فى الصحراء الجنوبية . .

أثار أشواقى لدرجة الاشتعال ثم قال :

- قمت بتلك الرحلة وحدى عقب وفاة أبى ، فزرت ديار المشرق والحيرة والحلبة ، ولولا الظروف المعاندة لزرت الأمان والغروب والجبل ، ولكن القافلة وقفت عند الحلبة بسبب قيام حرب أهلية فى دار الأمان . .

ويحدجنى بنظرة غريبة ثم يقول :

- وهى ديار وثنية!

فهتفت :

- أعوذ بالله!

ـ ولكن الغريب لايلقى فيها أو فى الطريق إليها إلا الأمن لحاجتها الملحة الى التجارة والسياحة . .

فهتفت مرة أخرى :

ـ ولكنها ملعونة . .

فقال بهدوء :

ـ لا حرج على المشاهد .

ـ ولمَ لم تعاود الكرة؟

ـ ظروف الحياة والأسرة أنستنى أهم هدف من الرحلة وهو زيارة دار الجبل .

فسألته بشغف :

ـ وما خطورة دار الجبل؟

فقال متنهدا :

ـ تسمع عنها الكثير ، كأنها معجزة البلاد ، كأنها الكمال الذى ليس بعده كمال . .

ـ لا شك أن كثيرين من الرحالة قد كتب عنها . .

فقال بنبرة لم تخل من أسى :

ـ لم أصادف فى حياتى آدميا ممن زاروها ، ولا وجدت كتابا عنها أو مخطوطا . .

فقلت بضيق :

ـ إنه أمر عجيب لا يصدق . .

فقال بكآبة :

ـ إنها سر مغلق . .

وكأى سر مغلق شدنى إلى حافته ، وغاص بى فى ظلماته ، وضرم النار فى خيالى ، وكلما ساءنى قول أو فعل رفت روحى حول دار الجبل . وراح الشيخ مغاغة الجبيلى ينور عقلى وروحى ويبدد الظلام من حولى ، ويوجه أشواقى الى أنبل ما فى الحياة . وسعدت أمى بما أكتسبه يوما بعد يوم ، وشاركت فى تكوينى بحبها وجمالها . متوسطة الطول كانت ، رشيقة العود ، تنضح بشرتها بالبياض والصفاء والملاحة . ولم تتردد مرة عن إعلان إعجابها بجمالى ولكنها قالت لى بنفس الصراحة :

ـ كلامك كثيرا ما يكدر صفوى . .

وتساءلت عن السبب فقالت :

ـ كأنك لاترى إلا الجانب القبيح من الحياة!

ولم تكن تنكر أقوالى أو ترى فيها أى مبالغة ، ولكنها أفصحت عن إيمانها قائلة :

ـ الله صانع كل شىء، وله فى كل شىء حكمة . .

فقلت مندفعا :

ـ ساءنى الظلم والفقر والجهل!

فقالت بإصرار :

ـ الله يطالبنا بالرضا فى جميع الأحوال .

وطرحت الموضوع للمناقشة مع الشيخ ولكن موقفه كان واضحا تماما فهو يؤمن بالعقل وحرية الاختيار ولكنه همس فى أذنى برقة :

ـ تجنب إزعاج والدتك . .

وهى نصيحة انسقت إلى اتباعها مدفوعا ومدعما بحبى الكبير لها، ولم أجد فى ذلك مشقة فقد كانت سذاجتها تعادل جمالها نفسه. غير أن الأيام التى وهبتنى الدرس والتربية دفعت بى أيضا إلى مشارف الشباب فهطلت السماء بأمطار جديدة، وتجلت مشاهدها على ضوء مشاعل جديدة. ويسألنى الشيخ مغاغة الجبيلى :

ـ ماذا نويت أن تعمل فى هذه الحياة التى لا تكتمل إلا بالعمل؟

ولكنى كنت أرى حليمة عدلى الطنطاوى بعين جديدة. طالما رأيتها على عهد الصبا وهى تقود أباها الضرير قارئ القرآن. لهم بيت صغير قديم فى حارتنا التى تقوم فيها دارنا متألقة كالكوكب. وكان اهتمامى يتجاوزها الى أبيها بقامته النحيلة وعينيه المطموستين وأنفه الغليظ المجدور. أثار عطفى ودهشتى، وأعجبنى صوته وهو يؤذن للصلاة متطوعا أمام باب داره. وحولتنى الأيام اللاهثة الى البنت فاكتشفتها من جديد. كانت أرض الحارة زلقة غب مطر خفيف، وكان الشيخ يسير بحذر مسلما يسراه لابنته ويمناه على عصاه الغليظة تتحسس له مواضع قدميه بضربات متتابعة كمنقار دجاجة تنقب عن حب. وسايرته حليمة غائصة فى جلباب فضفاض غامق اللون لايظهر من خمارها المسدل إلا عينان، ولكن هيئتها تمثلت لعينى المشربتين بماء الفتوة أنثى كاملة، تتجسد جواهرها المستورة كلما خفق النسيم بجلبابها كأنها جمرات تحت رماد. وزلت قدمها أو كادت فشدت عضلاتها بسرعة لتحفظ توازنها فتحرك رأسها حركة نافرة أطاحت بطرف الخمار عن وجهها فانطبع بتمامه على بصرى غارسا حسنه فى أركان وجدانى. تلقيت فى لحظة عابرة رسالة طويلة مشحونة بكافة الرموز التى تقرر مصير قلب. وسألتنى أمى بناء على ما سمعته من حديث الشيخ مغاغة عن العمل الذى تكتمل به الحياة :

ـ ألا توافقنى أنه لا يصلح لك إلا التجارة؟

فأدهشتها إذ قلت :

ـ إنى أفكر فى الزواج أولا!

ورحبت بحرارة مؤجلة الحديث عن «العمل» وراحت تصف لى بعض بنات التجار ولكنى أدهشتها مرة أخرى وأنا أقول :

ـ وقع اختيارى على حليمة بنت الشيخ عدلى الطنطاوى . .

تلقت أمى صدمة لم تدارها وقالت :

ـ إنها دون المطلوب فى كل شىء!

فقلت بإصرار :

ـ ولكنى أريدها . .

فقالت باستياء متجهمة الوجه :

ـ ستشمت بنا إخوتك!

ولكن إخوتى كانوا كشىء لم يكن . وشعورى بأنى رجل الدار كان يتعاظم مع الوقت . وهى لم تعاندنى وإن ضنت على بالموافقة ، وفى الوقت نفسه لم تفقد الأمل . وإذا بالأمور تجرى مع رغباتى وإن يكن بثمن باهظ . مضت معارضة أمى تخف حتى قالت لى مسلمة :

ـ سعادتك أغلى عندى من أى شىء أو اعتبار . .

وفى الحال قامت بما ينتظر منها فذهبت من السراى إلى البيت المتهرئ وخطبت لى حليمة . ومرة تالية صحبتنى معها فجالسنا الشيخ عدلى الطنطاوى وحرمه ، ودخلت العروس فأبدت ما يسمح به الشرع بابدائه من الوجه واليدين ، ومكثت دقائق معدودة ثم ذهبت . ومضى الاستعداد للزواج بسرعة محمودة . ولاحظت يوما أن أستاذى الشيخ مغاغة الجبيلى يعانى ارتباكا غير معهود ، وأنه يحدثنى بنبرة جديدة تماما . قال بهدوء وهو ينظر الى مركوبه :

ـ ثمة أمر هام يا قنديل .

فأثار اهتمامى لأقصى درجة فقلت :

رهن إشارتك يا مولاى . .

فقال بأسى :

ـ لم أعد أطيق وحدتى . .

كان الشيخ أرمل ، وقد أنجب ثلاث بنات تزوجن وقرن فى بيوتهن . سألته ببراءة :

ـ ولم تبقى وحيدا؟ . . ألم يتزوج النبى عليه الصلاة والسلام عقب وفاة السيدة خديجة؟!

ـ صدقت وهذا ما أفكر فيه . .

فقلت بحماس :

ـ وإنك لرجل ترحب به كرام الأسر .

فقال بحياء :

ـ ولكن مطلبى فى أسرتك بالذات !

فدهشت وأحدق بى انزعاج شامل . تساءلت :

ـ أسرتى ؟ !

فأجاب بخشوع :

ـ أجل ، الست والدتك !

فقلت بعجلة :

ـ ولكن والدتى لا تتزوج !

ـ لم يا قنديل ؟

فحرت قليلا ثم قلت :

ـ إنها أمى !

فقال بهدوء :

ـ الزواج شريعة الله سبحانه ، ولن يهون عليك أن تتزوج وتترك أمك وحيدة !

صمت قليلا ثم قال :

ـ الله يهدينا إلى سواء السبيل . .

فى وحدتى تلاطمت أفكارى ، وترتبت الأحداث فى خيالى فى صورة جديدة كئيبة . قلت لنفسى إن إذعان أمى المفاجئ لرغبتى فى الزواج من حليمة ليس إلا نتيجة لرغبتها فى الزواج من الشيخ مغاغة الجبيلى . حصلت أمور بريئة من وراء ظهرى ولكنها اعترضت حلقى ، وجدت نفسى فى موقف دقيق حرج ما بين أعز شخصين فى حياتى وبين غضبى وسخطى وحيائى . وهتفت من أعماقى :

ـ اللهم جنبنى الظلم والحمق . .

الحق أننى سلكت سلوكا هو أحق بشخص أكبر منى سنا وتجربة . تركت الأمور تجرى كما يشاء الله ، وأقنعت نفسى المتمردة بأن الزواج حق للرجل والمرأة ، وأن أمى ليست أما خالصة ولكنها امرأة أيضا ، وأننا خلقنا لنكابد الحقيقة ونصمد لها ، ونتلقى نصيبنا من السرور والألم بشجاعة المؤمنين . وحملت التجربة بكافة أبعادها على عاتقى وفاتحت أمى بالموضوع بصراحتى المألوفة . وأبدت دهشة أحنقتنى وتمتمت :

ـ ما خطر لى ذلك ببال . .

فقلت ببرود :

ـ ولكنه حق وعدل .

ومضيت أهضم خيبتى على حين قالت هى فى تلعثم :

ـ أريد فرصة للتفكير . .

اعتبرت ذلك أول إشارة للموافقة لتناقضه الشديد مع أسلوب الرفض الواضح، وانتظرت بقلب كئيب، حتى همست لى فى حياء وارتباك :

ـ لتكن مشيئة الله!

وتأملت كيف نزخرف أهواءنا بكلمات التقوى المضيئة، وكيف نداري حياءنا بقبسات الوحى الإلهى . وجرى الاستعداد المألوف لزواج الابن والأم، وتم الاتفاق على انتقال أمى الى دار الشيخ مغاغة وهى دار حسنة، وانتقال حليمة الى السراى . وصممت على أن ألوذ بالسعادة المتاحة نافضا عن ذيلى رواسب الأكدار . ولكن هبط علينا قدر فنسف خطتنا . زحم حياتنا الهادئة الحاجب الثالث للوالى فاقتحمنا كعاصفة . رأى ذات يوم حليمة فقرر أن يجعل منها زوجته الرابعة . وذعر الشيخ عدلى الطنطاوى وقال لأستاذى الشيخ مغاغة :

ـ لا قبل لى بالرفض!

وفسخ الخطوبة وهو يرتعد، فزفت حليمة الى الحاجب الثالث ما بين يوم وليلة . انطويت على نفسى ذاهلا وأنا أتساءل عن قلب حليمة، عن مشاعرها الدفينة، هل شاركتنى ألمى أو أن لألاء الملك أسكرها وبهر عينيها . ووجدتنى فى وحدتى أقول لنفسى :

ـ خاننى الدين، خانتنى أمى، خانتنى حليمة، ألا لعنة الله على هذه الدار الزائفة . .

بدا كل شىء كالحا، بدءا من أبسط الأفراد مثل الشيخ عدلى الطنطاوى حتى الوالى نفسه، مرورا بأناس ومعاملات تستحق الطوفان ليحل محلها عالم جديد نظيف . لم أتأثر بعطف أمى وحزنها، ولا حكم الشيخ مغاغة التى ذرها علىّ، بدت لى الدنيا صفراء كريهة لا تحتمل ولا تعاشر . وقالت لى أمى :

ـ يجب أن تتزوج فى أقرب وقت ولعل الله يدخر لك أفضل مما اخترت!

فهززت رأسى رافضا، فقال الشيخ مغاغة :

ـ اشرع فى العمل بلا تأخير .

فهززت رأسى أيضًا . . فقال الرجال :

ـ لديك ولا شك خطة . . ؟

فقلت معربا عن عواطفى الجائحة :

ـ أن أقوم برحلة !

فتساءلت أمى فى انزعاج :

ـ أى رحلة؟ . . إنك لم تكد تبلغ العشرين من عمرك !

فقلت :

ـ هى أنسب سن للرحلة . .

ونظرت الى أستاذى مليا وقلت :

ـ سأزور المشرق والحيرة والحلبة ولكنى لن أتوقف كما توقفت بسبب الحرب الأهلية التى قامت فى الأمان ، سأزور الأمان والغروب ودار الجبل ، أى وقت يلزمنى لذلك؟ فقال الشيخ مغاغة الجبيلى وهو يلحظ أمى باشفاق :

ـ يلزمك عام على الأقل إن لم يزد .

فقلت بتصميم :

ـ ليس هذا بالكثير على طالب الحكمة ، أريد أن أعرف ، وأن أرجع إلى وطنى المريض بالدواء الشافى . .

وهمت أمى بالكلام ولكنى سبقتها قائلا بحزم :

ـ أنه قرار لا رجعة فيه . .

واستحوذ على الحلم ، وتلاشى الواقع ، وتراءت دار الجبل لعين خيالى كنجم معشوق يعتلى عرشه وراء النجوم ، فنضجت الرغبة الأبدية فى الرحلة على لهيب الألم الدائم . أذعن الشيخ مغاغة الجبيلى للواقع فدعا صاحب القافلة للعشاء معنا . كان فى الأربعين ، يدعى القانى بن حمديس ، قوى البنيان والرأى . قال الشيخ مغاغة :

ـ أود أن يذهب معك ويرجع معك .

فقال الرجل :

ـ هذا يتوقف على رغبته ، نحن نقيم فى كل دار عشرة أيام ، فيمضى معنا من يقنع بها ويتخلف من يروم المزيد ، وعلى أى حال توجد قافلة كل عشرة أيام . .

فقال لى الشيخ مغاغة :

ـ عشرة أيام فيها الكفاية . .

فقلت :

ـ أعتقد ذلك . .

أما أمى فركزت على مسألة الأمن فقال لها الرجل بوضوح :

ـ لم تتعرض قافلة لهجوم أبدا، إن أهل البلاد لا يحظون بعشر معشار ما يحظى به الغريب من حماية . .

وأخذت فى الاستعداد للرحلة مسترشدا بأستاذى الشيخ مغاغة فملأت حقيبة بالدنانير وثانية بالملابس وثالثة باللوازم ومنها الدفاتر والأقلام والكتب. ورأيت أن يتم زواج أمى بالشيخ قبل رحيلى، غير أن الشيخ انتقل إلى السراى حتى لا تهجر بلا ساكن. ولبستنى حال جديدة، فقل تفكيرى فى أحزانى، وهيمنت الرحلة على حواسى، وانفسح أمامى مجال غير محدود للأمل . .

دار المشـــــرق

ودعتنى أمى وداعا حارا دامعا وهى تقول :

ـ أغنانا الله عن ذلك كله ولكنها إرادتك!

فقلت لنفسى : «على أى حال لم أتركك وحدك» وصحبنى الشيخ مغاغة الجبيلى إلى ميدان المكوس فبلغناه قبيل الفجر، ورأينا القافلة على ضوء المشاعل. امتد الظلام حولنا يتنفس نسائم الربيع وفوقنا ترامقت النجوم الساهرة. همس الشيخ مغاغة فى أذنى :

ـ لا تتخلف عن قافلة ابن حمديس.

على حين ارتفع صوت صاحب القافلة وهو يهتف :

ـ السير عقب صلاة الفجر.

ورآنا فصافحنا وقال لى :

ـ جميع الرفاق من التجار وأنت الرحالة الوحيد بيننا!

فلم يسرنى ذلك ولكنى ولم أتكدر له. وارتفع صوت الأذان محلقا فوق الرءوس فمضينا نحو جامع السوق، وانتظمنا فى آخر صلاة جامعة تتاح لنا. وانطلقنا من الجامع إلى القافلة فاتخذنا مجالسنا مع الحقائب. وبدأ الطابور يتحرك على إيقاع حاد فغاص قلبى بحنين الوداع وتحركت فى أعماقه ذكريات أمى وحليمة فى غلاف من ذكريات الأسى الشامل الذى يحتوى وطنى كله. وغمغمت فى أحضان الظلام :

ـ اللهم بارك خطاى.

وأخذت الظلمة ترق، وتلوح بشائر النور الموعود فى الأفق، حتى تخضب بحمرة باسمة وبزغ حاجب الشمس، ناشرا الضياء فوق صحراء بلا حدود. تجلت القافلة خطا راقصا فى صفحة كونية متحدية بالجلال، وانغمر جسمى فى حركة رتيبة متتابعة تحت

موجات من نور متدفق، وهواء سابح، وحرارة تتصاعد منذرة بالعنف، ومنظر ثابت بين رمال صفراء وسماء زرقاء صافية. لذت من المنظر الواحد بنفسى فغصت فى ذكرياتها الملحة وانفعالاتها المرة، وأحلامها الوردية. وعند كل عين ماء كنا نتوقف للطعام والوضوء والصلاة والسمر. عرفت نخبة من الرفاق التجار ورمقوا «الرحالة الوحيد» بنظرات غريبة. وقلت مفسرا ومتباهيا:

- سأذهب حتى دار الجبل!

فتساءل أحدهم باستهانة:

- وما دار الجبل؟

وقال ثان بفخار:

- نحن دار الإسلام . .

وقال ثالث:

- التجارة من العمران والله يأمرنا بالعمران . .

وقال رابع:

- كان النبى عليه الصلاة والسلام تاجرا.

فقلت كالمعتذر:

- وكان أيضا رحالة ومهاجرا!

فقال الأول:

- ستبدد ثروتك فى الترحال وترجع إلى بيتك فقيرا . .

فقلت كاظما غيظى:

- لا يعرف الفقر من يؤمن بالعمل . . .

وكنت أحترم التجارة ولكننى آمنت بأن الحياة رحلة كما هى تجارة. وتتابعت الأيام طويلة وثقيلة، حارة بالنهار باردة بالليل، رأيت النجوم كما لم أرها من قبل جليلة ساحرة لا نهائية، وعرفت أن حزنى من أمى أكبر مما تصورت، وأن حبى لحليمة أقوى من أن يؤثر فيه الليل والنهار والنجوم والتطلع نحو المجهول. وسرنا ما يقارب الشهر حتى لاحت لنا من بعد أسوار دار المشرق. عند ذلك قال القانى بن حمديس:

- سنعسكر عند العين الزرقاء، وندخل الدار عند منتصف الليل. وأعددنا أنفسنا. ولما صلينا العشاء سمعت من يهمس:

- آخر صلاة حتى نرجع من بلاد الوثنية!

فامتغضت كثيرا ولكنى كنت أعد نفسى لحياة جديدة فقلت لنفسى : «الله غفور رحيم» .

وقبيل منتصف الليل تقدمت القافلة من الدار الجديدة . وقابلنا عند المدخل رجلاً عارى الجسد إلا من وزرة تستر العورة ، بدا طويلا نحيلا على ضوء المشاعل ، وقال الرفاق إنه مدير الجمرك . قال الرجل بصوت جهورى :

ـ أهلا بكم فى المشرق عاصمة دار المشرق ، إنها ترحب بالتجار والرحالة ، ومن يلزم حدوده فلن يلقى إلا الطيب والجميل .

ودخلت القافلة بين صفين من الحراس ، فمضى التجار إلى السوق ، ومضى بى دليل إلى فندق الغرباء . أناخ الجمل أمام سرادق كبير كأنه ثكنة ، وحمل الدليل حقائبى إلى الداخل فأدركت أنه فندق الغرباء . . كان سرادقا كبيرا منقسما إلى جناحين يفصل بينهما بهو ممتد ، وكل جناح يحوى غرفا متلاصقة أضلاعها مبنية من الأقمشة الوبرية . وكانت الحجرة التى اختيرت لى بسيطة بل بدائية ، أرضها رملية ، وبها فراش عبارة عن خشبة مطروحة على الأرض ، وسحارة للملابس ، وشلتة فى الوسط . وما أن فرغت من تفقد حقائبى حتى هرعت إلى الفراش بحنين شخص حرم من الرقاد الطبيعى شهرا كاملا ، فنمت نوما عميقا حتى أيقظنى حر النهار . ونهضت كالمتوعك ، ومرقت إلى البهو فوجدته مكتظا بالنزلاء وقد جلسوا أمام حجراتهم يفطرون . وجاءنى رجل قصير لا يخلو من بدانة مؤتزرا بما يغطى العورة وقال لى باسما :

ـ أنا فام صاحب الفندق ، هل قضيت ليلة مريحة؟

فقلت والعرق يسيل فوق جبينى :

ـ شكرا .

ـ هل آتيك بالفطور؟

فقلت بلهفة :

ـ بل أريد الحمام .

وقادنى إلى نهاية البهو فأزاح ستارة فوجدت ما يلزمنى لأغتسل وأمشط شعر رأسى ولحيتى الصغيرة . وعدت نحو غرفتى فوجدت فام قد جاء بطبلية وراح يعد لى الفطور . سألته :

ـ هل أستطيع أن أصلى فى غرفتى؟

فقال محذرا :

ـ قد يراك أحد فتتعرض لما يسوءك . .

وجاءنى بإناء به تمر ولبن وفطيرة شعير فأكلت بسرور حتى شبعت. وقال لى:

- كنت ذات يوم ممن يعشقون الرحلات.

فسألته:

- أأنت من المشرق؟

- أصلى من الصحراء ثم استقر بى المقام فى المشرق..

سرنى أن أجد فيه رحالة قديما فقلت:

- دار الجبل هى الهدف الأخير من رحلتى..

- وهى هدف الكثيرين ولكن أسباب الرزق حجزتنى عنها..

فسألته بلهفة:

- ماذا تعرف عنها يا سيد فام؟

فأجاب باسما:

- لا شىء إلا ما توصف به أحيانا كأنما هى معجزة الدهر، ومع ذلك لم أصادف رجلا واحدا ممن زاروها..

وقال لى صوت باطنى بأننى سأكون أول ابن لآدم يتاح له أن يطوف بدار الجبل ثم يعلن سرها للعالمين. وسألنى:

- هل تمكث طويلا فى المشرق؟

- عشرة أيام ثم أذهب مع قافلة القانى بن حمديس..

- عظيم، سر وانظر وتمتع بوقتك، وحسبك غطاء للعورة ولا تزد عن ذلك..

فقلت مستنكرا:

- لا أستطيع أن أخرج بلا عباءة.

فقال ضاحكا:

- سترى بنفسك، نسيت أن أسألك عن اسمك الكريم؟

- قنديل محمد العنابى.

فرفع يده إلى رأسه تحية وذهب. غادرت الفندق فى الضحى متلفعا بعباءة خفيفة واسعة المسام، لابسا عمامتى لتقينى الشمس. وأنا أعجب من حرارة الربيع وأتساءل عن حرارة الصيف كيف تكون. ولدى مغادرتى الفندق هالنى أمران، العرى والفراغ.

الناس، النساء منهم والرجال على السواء، عرايا تماما كما ولدتهم أمهاتهم. والعرى عادة مألوفة لا تلفت نظرا ولا تثير اهتماما، كل ذاهب لوجهته، ولا يثير الغرابة إلا الغرباء أمثالى لما يرتدون من ملابس. والأجساد نحاسية اللون، نحيلة لا من رشاقة

ولكن من قلة الغذاء فيما يبدو وإن غلب عليهم الرضى بل والمرح. وجدت مشقة لأزيل عن وجدانى الشعوربالشذوذ لملابسى التى أرفل فيها، ووجدت مشقة أكبر فى صرف بصرى عن مشاهد العرى المثيرة وما بعثته فى دمائى من نيران متأججة. وقلت لنفسى:

ـ يا لها. من دار تقذف بمن كان فى شبابى إلى فتنة محرقة!

أما الأمر الغريب الثانى فهو هذا الفراغ الممتد المترامى، كأنما انتقلت من الصحراء إلى صحراء. أهذه هى حقا عاصمة المشرق؟ أين القصور، أين البيوت، أين الشوارع، أين الحوارى؟؟ لاشىء إلا أرضا تعلو جوانب منها أعشاب ترعاها الماشية، وثمة تجمعات هنا وهناك من خيام تقوم على غير نظام، يتجمع أمامها نساء وفتيات يغزلن أو يحلبن البقر والمعيز. وهن عرايا أيضا، وجمالهن لا بأس به ولكن تخفيه القذارة والإهمال والفقر. الحق أنى لم أتماد فى نقد مظاهر البؤس فى هذا البلد الوثنى الذى قد يكون له من وثنيته عذر، ولكن أى عذر أعتذر به عن أمثال هذه المظاهر فى بلدى الإسلامى؟ وقلت لنفسى:

ـ أنظر وسجل واعترف بالحقيقة المرة.

وفيما عيناى تدوران فى حيرة ودهشة استحوذ علىَّ شعور بالهيمان استخرج من أعماقى العاشق الكامن. تذكرت حليمة بقوة مهيمنة وغشيت صورتها الأرجاء مع الحرارة وأشعة الشمس. وحرت من أمرى وقتا ولكنى لمحت فتاه تعدو، قادمة من ناحية الفندق متجهة كالسهم نحو بقعة مزدحمة وغاصت فى عبابها فتوارت عن عينى. لعلى لمحتها وهى ذاهبة أيضا. لعلى لمحتها وأنا مشغول بالمشاهد فأحدثت أثرها وأنا شبه نائم أو ذاهل. إنها وراء ما اجتاحنى من انفعال وجدانى عميق. حقا إنها مشرقية نحاسية عارية ولكن تكوين وجهها صورة قريبة جدا من صورة حليمة حبيبتى المفقودة، بل قررت أن أقتنع بأنها حلمية المشرق، وأننى سأراها مرة أخرى. وانتقلت من مكان إلى مكان، لا أرى جديدا، أكابد فتورا يتزايد، وقلبى ينسحق تحت الأسى والشجن، وخيالى يبحث عن حليمة المشرق. فى الغربة أتخلق من جديد فى صورة جديدة. تتكون فى أعماقى اندفاعات جريئة لإشباع الرغبات وممارسة المغامرات. إنى أتخلى عن حضارة وأسلم لحضارة جديدة. أتوق إلى الحياة بعيدا عن الرقباء. الرقباء الذين يتجسدون فى الخارج والذين ينبضون فى الداخل. ووجدتنى عند العصر على حافة خلاء جديد لا أدرى كيف ساقتنى إليه قدماى المتعبتان. خلاء نظيف خال من الماشية ومن الرعاة تحف به من الجانبين أشجار عالية ضخمة لم أر مثلها من قبل، ويقوم فى أعماقه قصر ذو سور محيط. يحرس مداخله طابور من الفرسان المدججين بالسلاح. ولم يكن بالساحة إلا نفر من الغرباء أمثالى يقلبون أعينهم فى دهشة وإعجاب. كيف قام هذا القصر بين الخيام؟. إنه

ولاشك قصر ملك المشرق، وطبعا غير مسموح بزيارته، وكنت ظننت أن رئيس المشرق ما هو إلا شيخ قبيلة يقيم فى خيمة تناسبه حجما وأناقة. وسألت أحد الغرباء:

ـ أهو قصر الملك.

فأجاب باهتمام:

ـ هذا ما يبدو.

الحق أنه لا يقل فخامة عن قصر الوالى فى وطنى ولكنه يبدو غريبا مقطوع الصلة بما حوله. وأخذ الجو يلطف، ويسفر عن وجهه الربيعى، ولكن شعورى بالتعب والجوع انفجر كالغول فرجعت ألتمس سبيلى إلى الفندق. ووجدت فام صاحب الفندق جالسا على أريكة من سعف النخل عند المدخل فلقانى بابتسامة وقال:

ـ هل تناولت غداءك فى السوق؟

فقلت بعجلة:

ـ لم أعرف موقع السوق بعد والجوع ينهشنى أيها الرجل الكريم..

وجلست أمام الطبلية أمام حجرتى فجاءنى فام بخبز الشعير وشريحة من لحم البقر مقلية فى الدهن مخففة بالخل وطبق ملىء تمرا وسفرجلا وعنبا، وسألنى:

ـ هل آتيك بخمر البلح..؟

فقلت وأنا أقبل على الطعام بنهم:

ـ أعوذ بالله.

فتمتم الرجل:

ـ الخمر موسيقى الرحلات!

أكلت حتى شبعت، واستأذنته فى الجلوس معه على الأريكة فرحب بى جدا، فجلسنا والمساء يتيه بقمر يوشك أن يصير بدرا. تلقيت نسائم عذبة غريبة كل الغرابة عن قيظ النهار، وسرعان ما زحف على الهدوء والاسترخاء. قال فام:

ـ توجد خيام للضرب والرقص وما يتمناه الغريب..

فقلت:

ـ فلنؤجل ذلك إلى وقت..

ـ هل أعجبك ما رأيت؟

فقلت بفتور:

ـ لاشىء يستحق المشاهدة سوى القصر ولكنى فى حاجة إلى معلومات لايعثر عليها عادة فى الطريق..

- صدقت فيما قلت . .

- قصر الملك آية من الآيات!

فقال باسما :

- لا يوجد ملك فى دار المشرق!

لعله قرأ الدهشة فى وجهى فواصل :

- دار المشرق عبارة عن عاصمة وأربع مدن، لكل مدينة «سيد» هو مالكها، يملك المراعى والماشية والرعاة، الناس عبيده، يخضعون لمشيئته نظير الكفاف من الرزق والأمن، فالقصر الذى شاهدت هو قصر سيد العاصمة، هو أكبر السادة وأغناهم ولكن لا هيمنة له على أحد منهم، ولكل سيد قوة مسلحة من المرتزقة يجلبهم عادة من الصحراء . .

يا له من نظام غريب! إنه يذكرنى بالقبائل الجاهلية ولكنه مختلف، كما يذكرنى بملاك الأرض فى وطنى ولكنه مختلف أيضا . جميعها تمثل درجات متفاوتة من الظلم، وعلى أى فإثمنا - نحن دار الوحى - أفظع من سائر الخلق . أخذت حذرى فاكتفيت بالإصغاء حابسا ملاحظاتى النقدية كما يجدر بالغريب . وسألته :

- كيف شيد هذا القصر الباهر وجميع رعيته من الرعاة البسطاء؟ فأجاب فام فى مباهاة :

- جاء بالمهندسين والعمال من دار الحيرة، وزوده بأجمل الأثاث والتحف التى تفخر بصنعها دار الحلبة . .

وصمت قليلا ثم قلت :

- حدثنى يا سيد فام عن دينكم . .

- أهل المشرق جميعا يعبدون القمر، فى ليلة البدر يتجلى الإله فى تمامه فيهرعون إلى الخلاء ويحيطون بالكاهن للصلاة، ثم يمارسون طقوسه رقصا وغناء وسكرا وغراما . .

فذهلت كثيرا ثم تساءلت :

- وبذلك يضمنون الخلود فى الجنة؟

- لا نعرف خلودا ولا جنة، وليس لنا إلا ليلة البدر!

فترددت قليلا ثم سألت :

- ألا يوجد طب وتعليم؟

فقال باستهانة :

ـ أبناء السيد يتعلمون الفروسية ومعلومات عن الإله القمر، وفى كل قصر طبيب وارد من الحيرة أو الحلبة، أما الناس فيتركون للطبيعة، ومن يصبه مرض يعزل حتى يبرأ أو يموت فتأكله الجوارح . .

فنظرت إليه كالمتسائل فاستدرك:

ـ إنها سنة القمر وتعاليمه وهى تتوافق مع الحياة تماما، لذلك فنحن شعب يغلب عليه المرح والرضى، نحن أسعد الشعوب يا سيد قنديل!

قلت لنفسى إنه فقدان الوعى بلا زيادة ولا نقصان ولكنى قلت له:

ـ هنيئا لكم يا سيد فام!

وقضيت شطرا من الليل وأنا أدون فى دفترى تاريخ الرحلة ومشاهدها، وقطعت شطرا آخر مسهداً أفكر فيما صادفنى من أحوال وأفكار، وأتأمل عذابات الإنسان فى هذه الحياة، وأتساءل هل حقا يوجد فى دار الجبل الدواء الشافى لكل داء؟!

ومرت أيام بلا جديد سوى أننى وجدت الشجاعة على التخفف من ملابسى مكتفيا بسروال قصير وطاقية. وذات صباح دهمتنى حركة غير عادية منبثة فى الأرجاء وتهامس حميم بين النزلاء حتى هرعت إلى فام أسأله عما هنالك فهتف:

ـ هذه ليلة البدر . . ليلة حضور الإله والعبادة!

فهزنى الخبر ووعدنى بمشهد سعيد حقا من يراه. وذهبت من فورى إلى السوق فالتقيت برفاقى التجار المعسكرين عند مدخله. كانوا ينفقون نهارهم فى العمل وليلهم فى الملاهى. وسرعان ما انهمكوا فى المقايضة بهمة وخبرة. ولاحظت أنهم لا يتعاملون مع الأهالى، ولكن مع مندوبى السيد صاحب العاصمة فهو البائع والشارى وحده. أما بقية السوق فعبارة عن ممر أقيمت على جانبيه خيام لبيع الأغذية والأدوات البسيطة كالأمشاط والمرايا الصغيرة والحلى الرخيصة من الخرز.

وتناولت غذائى فى الفندق ثم ذهبت إلى ساحة العبادة والشمس تميل نحو الغروب. وكان الناس من الرجال والنساء يزدحمون فى كثافة هائلة فى شكل دائرة ترك وسطها خاليا. كانوا ينتظرون عرايا وأجسادهم النحاسية تنضح بالعراق وتنفث فى الجو رائحة آدمية مثيرة. وقبل المغيب ركضت سحب فحجبت القبة الزرقاء وتساقط رذاذ مقدار خمس دقائق فتلاقى المطر بهتافات الفرح الصاعدة من الأفواه المترعة بالإيمان والتحفز للمغامرة. وما إن غابت الشمس فى ناحية حتى تهادى البدر صاعدا من الناحية المقابلة عظيما جليلا عذبا واعدا فهلل الناس حتى ذعرت الطيور فى الجو. مضى يصعد مرسلا ضوءه الذهبى على الأجساد العارية الباسطة أذرعها كأنما لتقبض على الضوء السابح. ومر وقت غير قصير فى صمت خاشع حتى استقر القمر فى كبد السماء. عند ذلك ند

صوت منذر طويل عن بوق فى مكان ما فانشق طريق فى شمال الدائرة موسعا لقادم وقور، طويل القامة، مرسل اللحية منفوش الشعر، عارى الجسد، تقدم متوكئا على عصا طويلة حتى وقف فى مركز الدائرة. تركزت الأعين على كاهن القمر، وازداد الصمت صمتا. ولبث الرجل فترة جامدا، ثم ترك عصاه تسقط عند قدميه، ورفع رأسه وذراعيه نحو القمر فتبعته الآلاف المؤلفة من الأذرع. وصفق بيديه فانطلق من الحناجر نشيد واحد فى لحظة واحدة. انطلق بقوة وشمول فكأن الأرض والسماء وما بينهما شاركت فيه منتشية بسكر الغناء ووجد العاشقين. وانسربت إلى أعماقى نغمة مفعمة بالحرارة، مميزة الوحشية والخشونة، مجللة بدوى وأصداء، فجاش صدرى بانفعالات ترتعش باللذة والرهبة. وتصاعدت لذروة الانفجار، ثم أخذت فى الهبوط الوئيد، خطوة فى إثر خطوة، حتى استنامت للهدوء وغاصت فى الصمت. وأنزل الكاهن ذراعيه ونظر فيما أمامه فتبعته الأذرع وتحولت إليه الأعين. والتقط بوقار عصاه فقبض عليها بيسراه وأنشأ يقول: ـ ها هو الإله يتجلى بجماله وجلاله، يحضر فى ميعاد، لايتخلى عن عباده، فنعم الإله وهنيئا للعباد.

ندت عن البحر المحيط همهمة شكر، فواصل الكاهن حديثه:

ـ إنه يقول لنا فى دورته إن الحياة لا تعرف الدوام، وأنها نحو المحاق تسير، ولكنها طيبة للطيب، وبسمة للباسم، فلا تبددوا ثروتها فى الحماقة..

انطلقت من الحناجر زغاريد كالشهب وصفقت الأيدى على إيقاع راقص. واستمر الكاهن يقول:

ـ حذار من الخصام، حذار من الشر، الحقد يفرى الكبد، النهم يتخم البطن ويجلب الداء، الطمع هم وبيل، امرحوا، والعبوا، وانتصروا على الوساوس بالرضى..

وفى الحال ترامت دقات طبول، فاهتزت الخواصر راقصة، لبت نداءها الأثداء والأرداف، وتمادت الحركة منتشرة مترامية تحت ضوء القمر. رقصت الأرض وباركها البدر، واختلط العناق بالرقص، واندمج الجميع فى غرام شامل تحت ضوء القمر. جعلت أنظر بعينين ذاهلتين، كأننى فى حلم شباب، دمى يشتعل فى عروقى، ورغباتى تتلاطم فى جنون، وقلبى يتوق إلى الجنون. ورجعت أنا أترنح من شدة الانفعال، وقبضة الشهوة تشد بعنف على أعصابى الملتهبة. ولبثت فى غرفتى بالفندق ساهرا على ضوء شمعة، أدون كلمات فى دفترى، أفكر فى المحن التى تتربص بإيمانى وتقواى، وأتذكر عهد تربيتى الدينية والعقلية على يد الشيخ مغاغة الجبيلى. واستسلمت لأفكارى فى استرخاء بائس حتى اخترقت أذنى بغتة صرخة استغاثة. وثبت قائما متحفزا فوجدتنى فى ظلام دامس، وسرعان ما انتبهت إلى أننى كنت نائمًا، بل إن النوم كان يغشى الكون كله. واستيقظت مبكرا، وقلت وأنا أهم بمغادرة الفندق:

ـ هل أستطيع كغريب أن أقابل حكيم العاصمة؟

فقال فام :

ـ هو كاهن القمر، يرحب دائما بلقاء الغرباء، سأعد لك لقاء معه . .

وذهبت إلى السوق فلم أجد أحدا من التجار . وأخبرني القاني بن حمديس أنهم ذهبوا إلى القصر لإنهاء بعض الإجراءات مع حاجب السيد . وسألني :

ـ هل قررت أن ترحل مع قافلتي؟

فأجبت بتلقائية :

ـ أجل، لا شيء يستحق المشاهدة بعد . .

ـ صدقت فهو بلد فقير ولكن الرحلات القادمة تعد بمشاهد ثرية . .

فقلت بصدق :

ـ ما يهمني حقا هو دار الجبل!

فابتسم قائلا :

ـ متعك الله بأجمل ما خلق . .

واشتدت وطأة الملل والحر، فرحت أسلي نفسي بالمشي في السوق . ورغما عني توقفت مذهولا أمام خيمة رجل عجوز يعرض التمر في أوعية من الخوص . لمحت وراءه في عمق الخيمة الفتاة الفاتنة، حليمة المشرق النحاسية العارية، وهي تزق حمامة، منطلقة بقامتها الرشيقة ونضجها الذي لم ينل منه السوء بعد . وقفت محملقا ناسيا ذاتي، أرى الماثلة أمام عيني، وأتذكر من خلالها حليمة بوجهها البدري وعينيها السوداوين عنقها الطويل . أرى تاريخ قلبي كله متجمعا في لحظة ومثال، وقد التقى في بؤرته يقظة الماضي وسحر الحاضر وحلم المستقبل . أي هيام ينسكب في روحي من هذا التكوين الفريد! أي نداء وأي أسر! رنوت إليها غارقا فيها، متجاهلا أباها العجوز، وحيائي العتيق، وما ألزم به نفسي من قيود الأدب . ونسيت تماما الملل والحر والخطط وأحلام الرحلة وحلم الجبل، وحتى الآمال المدخرة من أجل الوطن . نسيت كل شيء لأني ملكت كل شيء وطواني في صدره الرضى والقناعة والغنى . وتراجعت الفتاة حتى توارت عن ناظري فوجدت نفسي منفردا بنظرات العجوز الثابتة . باخ جنوني السعيد فسقطت في قبضة الحياة اليومية ذات الوساوس والعرق، ومضيت أبتعد . وأدركني صوت هرم ينادي :

ـ يا غريب!

فقلت لنفسي في المحذور وقعت . وتلفت متوقفا . قال برقة :

ـ تعال . .

فدنوت منه فى حياء فسألنى :

ـ ألم تعجبك ابنتى عروسة؟ !

فانعقد لسانى دهشة ولم أجب فعاد يسأل :

ـ ألم تعجبك العروسة؟ . . لا مثيل لها فى المشرق!

تمتمت بارتباك :

ـ معـــذرة . .

فقال بفخار :

ـ ما رآها شاب إلا أحبها . .

فقلت معتذرا وأنا أظنه يسخر منى :

ـ ما قصدت سوءا قط . .

فقال العجوز بحدة :

ـ لا أفهم لغة الغرباء، أجبنى هل أعجبتك؟

فترددت مليا ثم قلت :

ـ إنها تستحق الإعجاب كله .

ـ أجبنى بصراحة هل أعجبتك؟

فحنيت رأسى معترفا فقال :

ـ ادخـــل . .

ترددت فتناول يدى وجذبنى إلى الداخل . ونادى عروسه فجاءت بجسمها العارى وجعلت ترنو إلى، حتى سألها :

ـ ما رأيك فى هذا الغريب المغرم بك؟

فأجابت بلا حياء أو تلعثم :

ـ إنه مطلوب يا أبى . .

فضحك العجوز قائلا :

ـ أخيرا نورك القمر!

ومضى بنا إلى ركن الخيمة وأسدل علينا ستارا . وجدتنى منفردا بها فى أمان كما بدا ولكن فى حيرة أفسدت على السعادة المتاحة الشاملة . أيعنى هذا الزواج فى هذه الدار؟ أيعنى إباحية كالتى شهدتها تمارس تحت ضوء القمر؟ وراحت تنظر إلى وتنتظر، وحبى يهفو إليها من تحت غشاء القلق . وسألتها :

ـ ما معنى هذا يا عروسة؟

سألتنى :

ـ ما اسمك ومن أى البلاد أنت؟

ـ اسمى قنديل، ومن دار الإسلام . .

ـ عم تسأل؟

فسألتها وأنا أشير إلى الخارج :

ـ أهو أبوك؟

ـ نعـــم .

ـ أى علاقة بيننا الآن؟

ـ عرف أبى أنك تعجبنى فدفعك إلى؟

ـ هذا هو المتبع هنا؟

ـ طبعا .

وماذا بعد ذلك؟

ـ لا أدرى، لكن لماذا تغطى وسطك بهذه الوزرة؟

وراحـت تنزعها بازدراء، ووقفنا نترامق، وفجأة ركعت طارحا على عاتقى كل هم، وضممت ساقيها إلى صدرى. وعند الظهيرة قال لى الأب :

ـ أدعنى إلى الغداء . .

فذهبت وجئت بلحم وفاكهة وتناولنا طعامنا كأسرة واحدة .

وعقب استراحة قصيرة قال العجوز :

ـ اذهب مصحوبا بالسلامة . .

فسألته بقلق :

هل آتى غدا؟

فقال دون مبالاة :

ـ هذا شأنها وشأنك . . رجعت إلى الفندق فاقد القلب والعقل. تلخصت الحياة كلها فى عروسة. والتمست عند فام مزيد من الضوء فقال :

ـ هذه العلاقـة تمارس هنا بلا قيود، مـا إن تعجب فتـاة بفتى حتى تدعـوه على مرأى ومسـمع من أهلهـا، وتنبـذه إذا انصرفت عنه نفسـهـا مـحتـفظة بالذرية التى تنسب إليها . .

وكرهت ذلك من صميم قلبى غير أن فام قطع على أفكارى قائلا :

سنذهب عصراً إلى كاهن القمر وهو يرحب بك . .

كان حماسى للقاء قد فتر شيئا ما ولكنى استعنت عليه بالعزيمة حتى أنجز كتاب رحلتى على أكمل وجه . واصطحبنى فام عصرا إلى خيمة الكاهن التى قامت فى بقعة خالية ، وكان يجلس متربعا على فروة أمام مدخلها فرمقنى متمعنا وقال :

ـ اجلس . . أهلا بك . .

وفارقنا فام فقال الكاهن :

ـ أخبرنى فام أنك تدعى قنديل محمد العنابى وأنك من دار الإسلام؟

فقلت متوددا :

ـ هـذا حـق . .

فقال وهو ينفذ بعينه فى صدرى :

ـ واضح أنك تجرى وراء المعلومات شأن الرحالة الغريب!

فقلت برقة :

ـ عند الحكيم توجد المعانى التى تخفى على المشاهد العابر . .

فقال بهدوء :

ـ كن صريحا ولا خوف عليك فلن تخرج المعانى إلا لمن يطرق الباب بصدق . .

تفكرت مليا ثم قلت بادئا بالموضوع الذى يستغرقنى :

ـ أعجب ما صادقنى فى المشرق علاقة الرجل بالمرأة . .

فابتسم قائلا :

ـ نصف المصائب فى البلدان إن لم يكن كلها تجىء من القيود المكبلة للشهوة ، فإذا شبعت أمكن أن تصير الحياة لهوا ورضى ! فقلت بحذر :

ـ فى دارنا يأمرنا الله بغير ذلك!

ـ عرفت أشياء عن داركم ، عندكم الزواج وكثيرا ما يتمخض عن مآس مؤسفة ، والناجح منه يستمر بفضل الصبر ، كلا يا صاحبى ، حياتنا أبسط وأسعد .

فتساءلت بقلق :

ـ قد تزهد المرأة عندكم فى رجلها وهو ما زال مقيما على حبها؟

ـ النساء كثيرات ، والسلو يسير ، كل متاعبكم تجىء من الحرمان . .

ـ حتى الحيوان يغار على شريكته!

فابتسم قائلا :

ـ يجب أن نكون أفضل من الحيوان . .

فتمتمت وأنا أخفى تقززى :

ـ لا سبيل إلى التلاقى . .

ـ إنى مسلم بهذا ، ولكن عليك أن تفهمنا جيدا ، إننا ننشد البساطة واللعب ، إلهنا لا يتدخل فى شئوننا ، إنه يقول لنا كلمة واحدة وهى أنه لا شىء يدوم فى الحياة وأنها إلى محاق تسير ، بذلك أشار إلى الطريق فى صمت ، أن نجعل من حياتنا لعبا ورضى . .

فقلت متشجعا بحرارة الحديث :

ـ لقد سمعت موعظتك ، ووجدتها لا تنطبق على السيد المالك لكل شىء . .

فهز رأسه فى أسى وقال :

ـ كثيرا ما يحوم الغرباء حول ذلك ، ولكن السيد هو الذى يدفع عن الدار هجمات البدو . وهو ـ وبقية السادة ـ أملنا فى التصدى لأطماع دار مثل دار الحيرة ، أجل الحرب تتهددنا ، والسادة هم الذين يعدون أنفسهم للدفاع ، وهم أيضا الذين يتصدون لأى عدوان فى الداخل فيهيئون للعبيد حياة آمنة ، هل تستكثر عليهم بعد ذلك أن يملكوا كل شئ لينفقوا على السلاح والجنود المرتزقة؟!

فقلت متحديا :

ـ يوجد نظام أفضل يوفر للناس كافة حقوقهم ويعدهم للدفاع عن دارهم عند الحاجة!

فمط الرجل شفتيه مضمومتين وقال بحسم :

الكائنات فى دارنا أنواع : نبات ، وحيوان ، وعبيد ، وسادة ، ولكل نوع أصل يرجع إليه غير أصول الأنواع الأخرى . .

فقلت وأنا فى غاية الاستياء :

ـ الناس عندنا إخوة من أب واحد وأم واحدة لا فرق فى ذلك بين الحاكم وأقل الخلق شأنا . .

فلوح بيده استهانة وقال :

ـ لست أول مسلم أحادثه ، إنى أعرف عنكم أشياء وأشياء ، ما قلت حقا شعاركم ولكن هل يوجد لتلك الأخوة المزعومة أثر فى المعاملة بين الناس؟

فقلت بحرارة وقد تلقيت طعنة نجلاء :

ـ إنه ليس شعارا ولكنه دين . .

فقال ساخرا :

ـ ديننا لايدعى ما لا يستطيع تطبيقه . .

فقلت وقد شدتنى الصراحة إلى أعماقها :

ـ إنك رجل حكيم ، إنى أعجب كيف تعبد القمر وتتصور أنه إله؟ !

فقال بجدية وحدة لأول مرة :

ـ إننا نراه ونفهم لغته . هل ترون إلهكم؟

ـ إنه فوق العقل والحواس . .

فقال باسما :

ـ إذن فهو لا شىء !

كدت ألطمه ولكنى كظمت حنقى واستغفرت ربى ، وقلت :

ـ إنى أسأل الله لك الهداية .

فقال باسما :

ـ وإنى أسأل إلهى لك الهداية .

وصافحته مودعا ، ورجعت إلى الفندق ثائر الأعصاب موجع القلب . وعاهدت نفسى أن أسمع ـ فى رحلتى ـ كثيرا وأن أناقش قليلا أو لا أناقش على الإطلاق . وقلت لنفسى متحسرا :

ـ ديننا عظيم وحياتنا وثنية !

ومع اليوم التالى ذهبت مبكرا إلى السوق ، إلى خيمة عروسة ، رحب بى العجوز باسما وقالت عروسة بدلال :

ـ تأخرت حتى قلت إنه هرب . .

ولثمت ثغرها فهمت بالذهاب إلى ركننا المستور ولكنى أوقفتها وقلت لأبيها :

ـ يا والدى أريد أن أتزوج من عروسة .

فقهقه العجوز فاضحا فاه المثرم قال :

ـ كما تفعلون فى بلادكم؟

ـ أجل ، وفى تلك الحال سأصطحبها معى فى رحلتى حتى نرجع معا إلى وطنى . .

فنظر الرجل إلى ابنته وسأل :

ـ ماذا ترين يا عروسة .

فقالت عروسة بسرور :

ـ تحت شرط أن يتعهد بإرجاعى إلى المشرق إذا راق لى ذلك . .

فقلت بلا تردد :

ـ لك هذا يا عروسة!

ـ ولكنى لا أملك حق الموافقة النهائية ، فنحن جميعا عبيد السيد وهو مالكنا الشرعى ، فاذهب إلى القصر واعرض على الحاجب شراء عروسة . .

اعترضتنى هذه العقبة التى لم ترد لى بحسبان ولكننى لم أجد بدا من تذليلها . وأمضيت نصف النهار مع عروسة فى سعادة وراحة عميقتين . ولما رجعت إلى الفندق أفضيت إلى فام بما يشغلنى فوعد باصطحابى إلى الحاجب . هكذا قدر لى أن أعبر باب القصر ، وأن أشهد جانبا من حديقته الضاحكة بأزهارها ونخيلها وأنا فى طريقى إلى ركن الحاجب . .

كان يجلس فى صدر حجرة واسعة على أريكة كبيرة من خشب الورد ، مفروشة بالوسائد والمساند الناعمة . كان فوق الستين ، بدينا ، ثقيل النظرة ، مغلفا بالعزلة والكبرياء . لثم فام يده وعرض مطلبى ولكن الحاجب لوح بيده رافضا ، وقال :

ـ منعنا البيع لحاجتنا إلى زيادة العبيد .

ونظر إلى وقال :

ـ انضم إلينا إذا شئت كما فعل فام فتندرج فى جملة العبيد وتتمتع بالأمن والرضى والجارية معا . .

فشكرت له كرمه وغادرنا القصر بقلب ينوء بالخيبة والشجن . وقال لى فام ونحن ماضون نحو الفندق :

ـ استمتع بفتاتك حتى تشبع ، وسرعان ما تشبع!

فضاعف من أحزانى وهو لا يدرى . وواصل حديثه قائلا :

ـ لم يكن الوقت مناسبا لإنجاح مسعاك فثمة أنباء عن تحفز الحيرة لإعلان الحرب علينا . .

فسألته بقلق :

ـ وما الأسباب وراء ذلك؟

فضحك بمرارة قائلا :

ـ الطمع فى كنوز السادة والمراعى الغنية ، ولن تعوزهم علة يعتلون بها . .

وساورنى القلق فزاد من متاعب قلبى . وأفترقنا عند أقرب نقطة إلى السوق فذهبت إلى خيمة عروسة من فورى . واستقبلنى العجوز متفحصا وجهى فقال :

ـ خاب مسعاك والقمر . .

وضحكت عروسة ضحكة لا معنى لها فرددت بأسف :

ـ خاب مساعى .

فقال العجوز ضاحكا وهو يومئ إلى عروسة :

ـ إنها تنتظرك !

فقلت بأسى :

ـ يعز على أن تكون علاقتى بها عابرة .

فقال العجوز ساخرا :

ـ كل علاقة عابرة يا غريب .

فقلت بحرارة :

ـ تمنيت أن تكون دائمة .

فقال مقهقها :

ـ يا لك من رحالة أنانى . .

ثم وهو يواصل القهقهة :

ـ حذار من التعقيدات فنحن قوم بسطاء ونحب البساطة !

ـ كأنكم لا تعرفون الحب !

ـ نعرف أنه متعة ليلة أو أسبوع أو شهر أو عام فى الأحوال الجنونية . فماذا تريد أكثر من ذلك ؟

سألته جادا :

ـ ماذا تقترح لمجنون مثلى ؟

ـ استأجرها لمدة تتجدد حتى تنتهى !

ـ هل أرجع فى ذلك إلى الحاجب أيضا ؟

ـ كلا ، هذا حقى بصفتى والدها ، أى مدة تريد ؟

ـ أطول مدة ممكنة .

ـ استأجرها شهرا بشهر .

ـ ليكـــن .

ـ ولكن الاتفاق ينتهى حال ترغب هى فى ذلك .

فحنيت رأسى موافقا فقال :

- الشهر بثلاثة دنانير . .

تم الاتفاق ومضيت بعروسة إلى حجرتى بالفندق. صممت على ألا أفسد سعادتى، وأن أعتبر الساعة الراهنة هى العمر كله. ولكنى قلت لها برجاء:

- دعينى أستر جمال جسدك.

فقالت بانزعاج:

- لا تجعل منى أضحوكة.

فتراجعت مسلما بكل شىء. وتراءت لى وهما سعيدا ينذر بالزوال فلذت بها بقلب يطارده شبح الفراق والحزن. ولكن الحياة طابت مع الفاتنة الرائعة، ووعدت بالاستقرار والأمان للقلب والأعصاب. وكانت تحب الانطلاق فى المراعى والتجول فى السوق فسرنا معا فى حبور، ورآنى القانى بن حمديس فأقبل نحوى قائلا:

- نحن راحلون مع الفجر.

فقلت فى حياء:

- ولكننى باق.

فقال ضاحكا:

- ستجد قافلة كل عشرة أيام . .

إنى مستغرق بالحب ولا شأن لى بالزمن. لا أهمية الآن للرحلة ولا للمهمة، ولو بقيت لآخر العمر. وها هى بشائر الأمومة تهل بأفراحها القلبية وأسقامها الجسدية فأستعيذ بها من تقلبات القلوب وجوامح الأهواء، وأطمح إلى مستقرة ولو ربطتنى فى النهاية بالمشرق، وغيرت بشرتى وأحلامى. وقلت ساخرا من نفسى:

- يبدو أننى خلقت للحب لا للرحلات!

ودار الزمان فجاءت ليلة البدر وهرع العباد إلى ساحة العبادة. ذهبنا إلى الساحة زوجين حتى انحشرنا فى الزحام. هناك قالت لى بجدية:

- هذه ليلة الإله ينفصل فيها القرين عن قرينه . .

وفرت من بين يدى فذابت فى الجموع. لبثت وحيدا مضطربا غاضبا مسلوب الإرادة والسرور. وتتابعت الطقوس وأنا أتساءل عما تفعله مع آخر غريب. ولما جاءت ساعة العناق تعرضت لى امرأة فى الأربعين على شىء من الجمال وفتحت لى ذراعيها، رأيت فيما يقع لى ما يقع مع عروسة فى مكان ما. ودار السقاة بخمر البلح فشربت قدحا، فغبت عن وعيى واندمجت فى صلاة المشرق. وعند الفجر تكومت مقرفصا عند مدخل الفندق حتى وافتنى عروسة وهى تترنح. نهضت إليها واجما فتأبطت ذراعى إلى حجرتنا وهى تسألنى:

ـ أعجبتك المرأة؟

فقلت بمرارة:

ـ لقد نجسنا علاقة مقدسة يا عروسة..

فقالت بانزعاج:

ـ إنك غير مؤمن يا قنديل ولا حيلة لى فى ذلك.

ثم أقبلت على باسمة وهى تقول:

ـ ما زلت أحبك، ما زلت رجلى الوحيد..

أعترف بأن حبى لم يضعف، وبأن الخوف من الفراق كان يلهبه. باتت سعادتى وشقائى. وحرقنى الصيف فهو جحيم، وفيه تنمحق الخضرة وتقتات الماشية على المخزون المجفف من الأعشاب، ويجىء الخريف فتهدأ النيران قليلا ويسقط الرذاذ من حين لحين، ثم يقبل الشتاء بجوه اللطيف المعتدل وأمطاره الغزيرة فتحيا الأرض وتطرب الماشية ويظل العراة عراة. وتنجب عروسة وليدها الأول فيسمى «رام ابن عروسة» كأنما أنجبته وحدها ولا شأن لى به. ويقول لى أبوها:

ـ ها أنت تدخل فى عامك الثانى وهى مازالت تحبك، أأنت ساحر يا غريب!!

وبزغت بشائر أمومة جديدة فجاء عام ابن عروسة، وتبعه بعد عام لام ابن عروسة وحملت للمرة الرابعة حتى اشتهرت علاقتنا بين القوم بالشذوذ، وقيل إنى أشدها إلى بقوة السحر الذى لقنته فى دار الإسلام. وانسقت وأنا لا أدرى إلى تربية رام على مبادئ الإسلام. وكان ينمو أقوى وأسرع من أقرانه لما أوفره له من عناية غذاء وقد أعطى مثالا لما كان ينبغى أن يكون عليه أطفال المشرق لولا الظلم والعبودية. كفرت بتلقينه مبادئ الإسلام عن أهمالى الاضطرارى لعقيدتى احتراما للبلد الذى يؤوينى، غير أن عروسة لم تخف استياءها وقالت لى بجدية:

ـ إنك تنشئه على الكفر وتعده لحياة تعيسة فى بلده..

فقلت برقة:

ـ إنى أنقذ روحه كما تمنيت أن أنقذ روحك ذات يوم..

فقالت بصرامة:

ـ لن أسمح لك بهذا أبدا..

تبدت صارمة عنيدة حتى جزعت خوفا على حبى. وأفضت إلى أبيها بهمومها ونحن فى زيارة له فهاله الأمر وصاح بى:

ـ ابعد عن ابننا يا غريب..

وخيل إلىّ أن النبأ تسرب إلى الخارج، رغم تكتمنا له، وأن نظرات الغضب تحرقنى فى الطريق. وطاردنى القلق حتى قلت لنفسى:

ـ البناء مهدد بالانهيار..

وصدق حدسى فجاءنى فام صاحب الفندق فأخذنى من حجرتى إلى حجرته حيث وجدت ضابط شرطة فى انتظارى. سألنى:

فأجبت بريق جاف:

ـ نعـــم.

فقال بجفاء:

ـ ثبت أنك تحاول تنشئة ابنك الأكبر على الكفر..

فسألته بجزع:

ـ كيف ثبت هذا؟

ـ نحن أدرى بواجبنا، اسمع فلن أحضر للمناقشة، صدر أمر السيد بالتفرقة بينك وبين رفيقتك وأبنائها، وأن ترحل عن المشرق مع أول قافلة..

هممت بالكلام ولكنه قال بغلظة:

ـ لم أحضر للكلام، أنت محجوز معى حتى يذهبوا بالمرأة والأولاد إلى أبيها، وستظل تحت الحراسة حتى تلحق بالقافلة..

فقلت بضراعة:

ـ دعنى أودعهم..

فقال بخشونة:

ـ لقد وقع عليك أخف جزاء فكن شكورا..

ورجعت إلى حجرتى بعد ساعة ـ التى تحولت إلى السجن ـ فوجدتها خالية من الأم والأولاد والحب والأمل. لحظة كئيبة تنداح فى أعماق النفس فتنكشف الحياة عن حلم أو وهم. ولحق بى فام فرمقنى بعطف وقال:

ـ تحمل كما يجدر برجل رحالة!

فقلت بصوت متهدج:

ـ حزنى شديد جدا يا فام..

تفرس فى وجهى قليلا ثم قال:

ـ أطلق دموعك، الرجال يبكون أحيانا..

فقلت وأنا أشد على محابس دموعى:

- تبخرت مسرات الحياة . .

- إنها تتجدد وتجىء أيضا بالعزاء . .

وربت منكبى ثم قال :

- تعلم أن الرحالة لا يجوز أن يسعى وراء علاقة دائمة . .

دار الحيـــــرة

تحركت القافلة فى ظلمة الفجر المبشرة . شد قلبى إلى الوراء وغص حلقى بالحزن والدموع ، وتجمعت النجوم فوقنا تنظر إلينا وننظر إليها وانعدم العزاء . كما فارقت وطنى منذ حوالى خمسة أعوام محبطا بخيانة الأم والحبيبة والولاة . انقلبت رحالة مرة أخرى أفكر بالبلدان والدفاتر ولكن أين القلب وأين العقل أين؟ وقلت إن هذه النجوم أقرب إلى من عروسة والأبناء . وستظل القوافل تسير حاملة الأموال والآمال فمن يحمل الأحزان؟ .

ويتلاشى الظلام ويشرق النور وتتبدى الصحراء بلا حدود كأنها الفناء . ترى ماذا يقولون عنى فى الوطن ولم أصادف مرة أخرى القانى بن حمديس . وقلت لنفسى إن خير ما تفعل يا رحالة أن ترى وتسمع وتسجل وأن تتحاشى التجارب . وأن تعاود أحلامك عن دار الجبل . وأن تحمل الدواء الشافى لجراح الوطن . وقطعنا المسافة ما بين المشرق والحيرة فى شهر ثم عسكرنا على كثب من واحة الزمام لندخل دار الحيرة عند منتصف الليل . . وواصلنا السير مع الليل حتى تبدى لنا سور الدار تحت ضوء النجوم ومضينا نقترب من بابها الكبير .

أمام المدخل ، على ضوء المشاعل ، وقف مدير الجمرك ، وكان على ما بدا من العسكريين بخوذته ودرعه وسيفه ووزرته القصيرة . قال بصوت قوى أسمع القافلة كلها :

- أهلا بكم فى الحيرة عاصمة دار الحيرة ، ستجدون رجال الشرطة فى كل مكان فتسألونهم عما تريدون ، وتتبعون إرشاداتهم بدقة تجعل من رحلتكم ذكرى طيبة لا يشوبها ما ينغص .

فقلت فى نفسى «إنه ترحيب وإنذار» . واخترقنا الباب ثم انقسمنا فذهب التجار إلى فندق السوق ، ومضى بى دليل إلى فندق الغرباء . اخترقنا ظلاما شديدا ، تسبح فيه مشاعل رجال الشرطة هنا وهناك كالنجوم . واقتربنا من الفندق فرأينا مدخله الكبير على

ضوء المشاعل، وشع نور من بعض النوافذ. إنه بناء كبير مشيد بالأحجار ولكنه مكون من دور واحد. وسرعان ما ذهبت وراء حقائبى المحمولة إلى حجرتى. حجرة متوسطة، بها فراش يعلو عن الأرض ذراعا، ذو غطاء أرجوانى يناسب جو الخريف المعتدل، وبه صوان ملابس، وأريكة صغيرة، وثمة شمعدان فى كوة فى الوسط تشتعل به شمعة غليظة متوسطة الطول، أما الأرض فمغطاة بحصيرة مزركشة. توجد حضارة ولاشك، وشتان ما بينها وبين المشرق. وما كدت أخلع ملابس السفر وألبس قميص النوم حتى جاءنى رجل متوسط القامة أسمر فى الخمسين يرفل فى عباءة خفيفة. قال:

- هام.. صاحب الفندق..

فصافحته قائلا:

- قنديل محمد العنابى، رحالة..

- أتريد عشاء؟

- تناولت فى الطريق.

فابتسم وقال:

- الليلة بياتا وطعاما بدينار والدفع مقدما..

قدرت أن إقامتى ستمتد عشرة أيام فأديت إليه عشرة دنانير فسألنى:

- من أى البلاد؟

- دار الإسلام.

فقال محذرا:

- لايمارس فى الحيرة إلا دين الحيرة.

فذكرنى بمأساتى ولكنى سألته:

- ومادين الحيرة يا سيد هام؟

- إلهنا هو الملك.

وحيانى وانصرف. نفخت الشمعة فأطفأتها وآويت إلى الفراش وأنا أقول لنفسى، الملك بعد القمر، يا له من ضلال. ولكن رويدك، ألا يتصرف الوالى فى وطنك كأنه إله؟! استمتع بالرقاد بعد متاعب السفر، ولذ بالنوم من متاعب الحياة كلها. استيقظت مبكرا بخلاف ظنى وفى الحال أدركت أن جلبة شديدة تهب من الطريق هى التى انتزعتنى من نومى. وفتحت نافذة فرأيت فى ضوء البكور جيشا لجبا، فرسانا ورجالة، يتقدم على دقات طبل نحو باب المدينة. جعلت أشاهد وأتساءل. ولما خلا الطريق طلبت الفطور فجاءتنى صينية من نحاس عليها طعام مكون من حليب وزبد وجبن وعيش وعنقود من

العنب. هممت أن أسأل الخادم عن مسيرة الجيش ولكن الحذر أمسكنى. وارتديت ملابسى للخروج فوجدت مدخل الفندق مكتظا بالناس وهم يتحاورون:

- إنها الحرب كما توقع كثيرون.

- ضد المشرق ولا شك..

- لتحرير شعب من خمسة من الطغاة..

- سيكون تاريخا جديدا للمشرق تحت حكم إله عادل..

انقبض صدرى وطارت أفكارى لتحوم حول عروسة وأبنائها. كيف يكون مصيرهم؟ ليست الرغبة فى تحرير أهل المشرق هى ما دفعت إلى الحرب ولكنه الطمع فى المراعى وكنوز السادة الخمسة. وسوف يقع قهر شديد لتحويل الناس من عبادة القمر لعبادة الملك. سوف تزهق أرواح وتهتك أعراض وتتشرد الألوف. ألا يحدث ذلك فى حروب تنشب بين أناس على دين واحد يدعو للتوحيد والأخوة؟! وجاءنى هام صاحب الفندق قبل أن أغادره وقال لى:

- تقرر رفع الأجرة نصف دينار لمواجهة أعباء الحرب.

فأديتها صاغرا فقال باسما:

- ليس كثيرا فى سبيل تحرير العبيد!

فلعنته فى سرى كما لعنت الشعارات الكاذبة جميعا. ومن شدة قلقى ذهبت إلى فندق السوق فوجدت رفاقى التجار مجتمعين فى البهو. جالستهم متابعا أحاديثهم:

- أيام الحرب غير مأمونة..

- قد تضيع أموالنا لآخر درهم.

- ولكن الأسعار سترتفع أيضا.

- والمكوس الإضافية:

وقال صاحب القافلة:

- الحروب لا تزول أبدا، ونفعها للتجارة أكثر من ضررها، ولا أظن أن هذه الحرب ستطول فالحيرة أقوى من المشرق بما لا يقاس، فى أقل من أسبوع سينتهى كل شىء.. تركزت أفكارى على أسرتى المفقودة. قررت البقاء فى الحيرة قريبا من المشرق. وراودنى أمل جديد أنه بعد ضم المشرق إلى الحيرة أستطيع أن أسافر إلى المشرق لعل الله يجمعنى بأسرتى رحمة منه وكرما. ولعلى أستطيع أن أتزوج منها وأمضى بها معى فى رحلتى إلى وطن جديد ودين جديد. طابت حياتى بهذا الأمل الجديد فانشرح صدرى للتجول والرحلة، واكتشاف الحيرة عاصمة دار الحيرة.

سرت بلا توقف وبلا كلل. أنظر وأسمع وأسجل فى الذاكرة. إنها مدينة كإحدى مدن بلادى. فيها ميادين وحدائق، وشوارع وحوارى، وعمائر وبيوت ومدارس ومستشفيات، عامرة بالخلق، وفى كل موقع شرطى، وملاهى الرقص والغناء موفورة. وسوقها كبير مترامية متعددة الحوانيت، وبها سلع من الحيرة ومن جميع البلدان. وبعث فى جو الخريف المعتدل نشاطا غير محدود فتواصلت أيام الاكتشاف والمشاهدة والتسجيل. ومن آن لآن أزور فندق السوق فألقى الرفاق أو أجالس صاحب القافلة، وقد قال لى مرة:

ـ جو الحيرة معتدل بصفة عامة، صيفه محتمل، وشتاؤه مقبول..

ولما حدثته عن كثرة رجال الشرطة قال لى:

ـ الأمن مستتب ولكنهم يحمون الدولة..

الحق أنى طفت بأحياء الأغنياء وهى جميلة هادئة، قصورها متاحف، وسكانها يتحركون فى هوادج، كما زرت أحياء الفقراء بأكواخها وخرائبها ومناخها الكئيب وأناسها التعساء وقلت فى ذلك لصاحب القافلة:

يزعمون أن الحرب قامت من أجل تحرير العبيد فى المشرق، هلا حرروا عبيد الحيرة؟

فتساءل الرجل هامسا:

ـ وماذا تقول فى بلادنا، بلاد الوحى؟!

فقلت بحزن:

ـ ما من سيئة عثرت بها فى رحلتى إلا وذكرتنى ببلادى الحزينة. فقال لى الرجل وهو يمضى عنى:

ـ عليك أن تشاهد قصر الملك الإله..

ولم يغب عنى ذلك، وقد وجدته قائما منيفا شامخا فى عزلة وسط فراغ مسور بالنخيل والحراس. إنه مثل قصر الوالى فى وطنى أو أفخم وثكنات الحرس تقوم فى جانب، ومعبد الملك الإله يقوم فى جانب آخر. وشد بصرى حقل من الأعمدة مسور بسياج من حديد فاقتربت منه حتى رأيت أن رءوسا آدمية منفصلة عن أجسادها تتدلى من هامات الأعمدة. ارتعدت لهول المنظر. لا أنكر أننى رأيت صورة مصغرة منه فى صباى فى وطنى. إنهم يعرضون الرءوس للزجر والتأديب والعظة. واقتربت من حارس وسألته:

ـ هل يستطيع غريب أن يعرف جريمة هؤلاء القتلى؟

فأجابنى بجفاء:

- التمرد على الملك الإله!

فذهبت مسديا إليه شكرى، وأنا على يقين من أنهم شهداء للعدل والحرية قياسا على ما يقع عادة فى بلاد الوحى. إنه عالم غريب حافل بالجنون، وستكون معجزة حقا إذا وجدت الدواء الشافى فى دار الجبل. وسألت هام صاحب الفندق مساء:

- ماذا فى دار الحيرة من مواقع تستحق المشاهدة خارج العاصمة؟

فقال الرجل بثقة:

- عدا العاصمة لا يوجد إلا الريف وليس به ما يسر الرحالة..

وعكفت على تدوين المشاهد فأراحنى ذلك من التفكير فى عروسة وأبنائها. وسهرت ليلة فى ملهى فهالتنى عربدة السكارى وفسق الفاسقين مما يعف قلمى عن الخوض فيه. وعند مرورى بفندق السوق قال لى صاحب القافلة:

- نحن سائرون فجر الغد فهل تجىء معنا؟

فأجبته واجما:

- كلا، إنى باق بعض الوقت..

جذبتنى عروسة للبقاء ولكن آلمنى ما ينتظرنى من وحدة مخيفة. واستيقظت عند الفجر فتخيلت القافلة وهى تتحرك على صوت الحادى. نداء كالقدر يدعونى للبقاء وأمل فى السعادة لا يريد أن يخبو. ولم أشأ أن أبدد وقتى سدى فنشطت لتحصيل المعلومات التى لا تجود بها المشاهدة. ولم أجد عند صاحب الفندق فراغا للحديث كالذى وجدته فى المشرق، فسألته أن يدلنى على حكيم هذه الدار إن سمح لى بلقاء. قال هام:

- فى وسعى أن أعد لك لقاء كما حدث مع غيرك..

وذهبت فى الميعاد عصرا إلى بيت الحكيم ديزنج. بيت جميل تكتفنه حديقة ملأى بالأزهار وأشجار الفاكهة. استقبلنى بابتسامة لطيفة وأجلسنى على أريكة إلى جانبه. كان فى الخمسين قوى الجسم واضح القسمات تتواءم قلنسوته البيضاء مع عباءته البيضاء. طلب منى أن أقدم نفسى ففعلت ذاكرا اسمى ومهمتى ووطنى. قال:

- بلادكم عظيمة أيضا، خبرنى عما أعجبك فى دارنا؟

فقلت مداريا ذاتى:

- أشياء لا تعد ولا تحصى.. حضارة وجمال. قوة ونظام..

فسأل فى مباهاة:

- وما رأيك فى حرب نعلنها مضحين بأبنائنا من أجل تحرير دار غريبة؟

- هذا ما لم نسمع بمثله من قبل..

فقال بيقين:

- نحن نقدم للناس مثالا للوطن السعيد الشريف..

فأحنيت رأسي موافقا فقال:

- لعلك تسأل عن سر ذلك كله؟ لقد دلوك عليّ باعتباري حكيم هذا البلد، والحق أنني ما أنا إلا تلميذ، مولانا هو الحكيم وهو الإله وهو مصدر كل حكمة وخير، إنه يجلس على العرش، ثم ينعزل في جناح صائما حتى يشع منه النور فيعرف أن الإله قد حل فيه، وأنه صار الإله المعبود، عند ذاك يمارس عمله، يرى كل شيء بعين الإله، فنتلقى منه الحكمة الأبدية في كل شيء، ولا نطالب بعد ذلك إلا بالإيمان والطاعة..

تابعته باهتمام وأنا أستغفر ربي في سري، أما هو فواصل حديثه قائلا:

- فهو ينشئ الجيش ويختار له قواده فيكون جيش النصر، ويعين من أسرته المقدسة الحكام، وينتخب من الصفوة قادة للعمل في الأرض والمصانع، أما بقية الناس فلا قداسة بهم، ولا مواهب، يعملون في الأشغال اليدوية، ونوفر لهم اللقمة، يلي هؤلاء الحيوانات، ويلي الحيوانات النبات والجماد، نظام محكم كامل يضع كل فرد في موضعه محققا بذلك العدل الأكمل..

وسكت مليا وهو ينظر إليّ ثم قال:

- لذلك فنحن لنا أكثر من فلسفة، نخاطب الصفوة بما يقوي في نفوسهم القوة والهيمنة والنمو، ونستعين على ذلك بتوفير التعليم لهم والطب، أما الآخرون فنقوي بهم مواهب الطاعة والانقياد والقناعة، ونهديهم إلى الكنز الروحي المدفون في أعماق كل منهم، والذي يهيئ لهم بالصبر والاجتهاد السلام، بهذه الفلسفة المزدوجة تتحقق السعادة للجميع، كل بحسب استعداده وما أعد له، فنحن أسعد أهل الأرض طرا..

تفكرت فيما يقال وفيما لا يقال ثم سألته:

- من يملك الأرض والمصانع؟

- الإله، هو الخالق وهو المالك..

- وعلاقة الصفوة بها؟

- هم ملاكها بالنيابة، والريع يقسم مناصفة بينهم وبين الإله.

فوثبت خطوة جديدة متسائلا:

- كيف تنفق أموال الإله؟

فضحك لأول مرة وقال :

ـ وهل يسأل إله عما يفعل؟ !

ـ إذن من ينفق على المدارس والمستشفيات؟

ـ الصفوة باعتبارها وقفا عليهم وعلى أبنائهم .

ثم متسائلا فى زهو :

ـ أليس هذا هو الكمال نفسه؟ !

فقلت مداريا ما فى نفسى :

ـ هو ما يقال عادة عن دار الجبل .

فهتف بقوة :

ـ دار الحيرة هى دار الجبل .

فقلت بوضوح :

ـ صدقت أيها الحكيم ديزنج !

فقال بثقة ويقين :

ـ أن تعيش بإرشاد الإله وتوجيهه هو أقصى ما يطمح إليه الإنسان من عدل وسعادة .

فقلت متسائلا :

ـ لذلك يشتد عجبى من أولئك المتمردين الذين رأيت رءوسهم المعلقة !

فهتف بغضب :

ـ لا تخلو طبيعة البشر من انحراف وسوء ولكنهم قلة على أى حال .

وفى نهاية المقابلة قدم لى تفاحة وقدحا من حليب فرجعت إلى وحدتى فى الفندق متفكرا مغتما . وتذكرت أستاذى الشيخ مغاغة الجبيلى فسألته على البعد :

ـ أيهما أسوأ يا مولاى ، من يدعى الألوهية عن جهل أم من يطوع القرآن لخدمة أغراضه الشخصية؟ !

وكابدت الملالة أياما ثم بلغتنى أنباء انتشرت مع نسائم الخريف تؤكد أن جيش الحيرة قد انتصر وحقق أهدافه ، وأن دار المشرق أصبحت الإقليم الجنوبى لدار الحيرة . وتدفق الفقراء إلى الطرقات يعلنون فرحتهم بالنصر كأنهم هم الذين سيجنون ثمرته . وتساءلت فى قلق بالغ :

ـ ترى كيف أنت يا عروسة؟ . . وكيف أنتم يا أبنائى؟ !

وبكرت يوم عودة الجيش المنتصر فاتخذت موقفى غير بعيد من الفندق ، فى الطريق الملكى الممتد من مدخل الحيرة حتى سراى الملك . كان الزحام شديدا على الجانبين حتى

خيل إلى أنه لم يبق من الأهالى أحد فى بيته أو مكان عمله. وعند الضحا ترامت إلينا دقات الطبول، وتقدم الموكب فرسان يحملون فى سنان رماحهم خمسة رءوس هى رءوس السادة الذين كانوا يملكون مدن المشرق. هكذا رأيت لأول مرة السيد الذى ذهبت يوما إلى حاجبه لمساومته على شراء عروسة. وتبع ذلك طابور طويل من أسرى الحرب يسيرون عرايا مكبلين الأيدى بين صفين من الحراس. وتتابعت فرق الجيش من فرسان ورجالة فى جو عاصف بالهتاف الحار. يوم نصر وأفراح. أما المآسى الدامية التى خلفها وراءه فلا يعلمها إلا الله. حياة بشرية غريبة يمكن تلخيصها فى كلمتين، دماء وزغاريد. وفى ذيل الجيش سارت السبايا من النساء بين ذراعين من الحراس. خفق قلبى خفقة شديدة وتمثلت عروسة لعينى كما رأيتها أول مرة، بل كما رأيتها وهى تقود أباها فى الحارة التى شهدت مولدى!

وزاغ بصرى بين الوجوه المنكسرة والأجساد العارية. وصدقت لهفتى فاستقرت عيناى على وجه عروسة! هى عروسة بجسدها الممشوق ووجهها المليح التعيس تتقدم ذاهلة يائسة ضائعة. اشتعل بى نشاط مقتحم. التصق بصرى بها. اندفعت تابعا لطابور السبايا غير مبال بمن أرتطم بهم من الواقفين ولا باحتجاجاتهم ولا باتهاماتهم الباطلة بأننى أجرى وراء أجساد النساء العارية. ناديتها مرارا فتلاشى صوتى فى هدير الأصوات المتصاعدة. لم أفلح فى لفت نظرها أوتنبيهها. حتى حجزنى عنها الحراس الذين منعوا الجماهير من دخول ميدان القصر المخصص للصفوة من أهل الحيرة. هكذا تجلت واختفت كالشهاب تاركة إياى للجنون والقنوط. وأين الأبناء؟ هل يعيشون الآن فى كنف جدهم؟ وفضفضت ضيقى بالإفضاء بسرى إلى هام صاحب الفندق فقال لى:

- قد تعرض للبيع فى سوق الجوارى!

فقلت فى ارتياب:

- ولكنها حرب تحرير؟!

فقال:

- إلا السبايا فلهن معاملة خاصة!

باركت هذا النفاق باعتباره ثقبا للأمل فى سماء سوداء. وتشبثت أكثر بالبقاء، وجعلت أطوف بسوق الجوارى كل يوم، وحلمى بجمع الشمل يتحدى اليأس، وذات مساء تلقانى صاحب الفندق بابتسامة مشجعة وقال:

- غدا ستعرض السبايا للبيع..

نمت ليلتها نوما متقطعا. وذهبت إلى السوق فكنت أول الذاهبين. ولما عرضت عروسة اقتحمت المزاد بإصرار. تبدت فى ثوب أخضر لأول مرة فى حياتها، وتجلى

جمالها، رغم الحزن الشديد. وكانت تنظر فى داخل ذاتها المهيضة فلم ترنى ولم تتابع ما يجرى. ولم يبق معى فى المزايدة إلا شخص سمعت من يهمس بأنه مندوب الحكيم ديزنج. ورسا المزاد على بثلاثين دينارا، فلما دفعت إلىّ عرفتنى فارتمت بين يدى وهى تنشج حتى أثارت دهشة جميع من بالسوق. ولم تكن ثمة فرصة لتبادل حديث فمضيت بها خارجه، وفى الطريق ما ملكت أن سألتها:

- كيف الأبناء يا عروسة؟

ولكنى كففت عن ملاحقتها لشدة انفعالها حتى خلوت إليها فى حجرتى بالفندق. هناك عانقتها بحرارة، وتركتها على الأريكة حتى تثوب لنفسها، ثم قلت:

- إنى حزين لما قاسيت من عناء.

فقالت بصوت غريب:

- لكنك لم تر شيئا..

- حدثينى يا عروسة فإننى أوشك أن أجن..

فقالت ودموعها تسيل:

- عن أى شىء؟ إنه الهول، اقتحموا الخيمة، قتلوا أبى بلا سبب، قبضوا علىّ، أين الأولاد؟.. لا أدرى، قتلوا؟.. تاهوا؟!.. دع الجنون لى أنا..

فقلت مكابرا مخاوفى:

- لماذا يقتلون الصغار؟.. إنهم فى مكان ما.. سنعثر عليهم..

- إنهم وحوش، لماذا يمثلون بنا بعد الانتصار على جيشنا؟!.. لكنهم وحوش. كانت ليلة بدر والإله حاضرا يرى ويسمع ولا يفعل شيئا!

فقلت مواسيا:

- على أى حال اجتمع شملنا، وقلبى يحدثنى بأن الرحمة آتية..

فهتفت:

- لا توجد رحمة، ولن أرى أبنائى..

فقلت برجاء:

- عروسة، الحياة شرها كثير، ولكن خيرها وفير أيضا..

- لا أصدق..

- سترين.. سنرحل مع أول قافلة إلى المشرق للبحث عن الأبناء..

- متى تقوم؟

- مداها عشرة أيام..

رنت إلى لا شيء فى حزن عميق ففاض قلبى بالحنين كعين متفجرة. وتسلينا فى فراغنا الطويل بالتجول فى المدينة والمشاهدة واجترار الأمانى والاستعداد للسفر. غير أن هام صاحب الفندق كان يدخر لى مفاجأة فدعانى إلى حجرته ونظر إلى بشىء من الحرج وقال:

ـ لدى أخبار غير سارة..

فتساءلت ساخرا..

ـ أكثر مما لدى؟

فقال بهدوء:

ـ الحكيم ديزنج يرغب فى حوز فتاتك.

فدهشت وقلت بحدة:

ـ أرجو أن تعتبرها زوجتى..

ـ سيؤدى إليك ثمنها..

ـ إنها ليست سلعة..

فقال لى بنبرة ناصحة:

ـ ديزنج رجل قوى وهو من المقربين إلى الإله..

فقلت وأنا أدارى انزعاجى:

ـ الغرباء فى بلادكم آمنون.

فقال بحرارة:

ـ رأيى فى هذه المسألة واحد، لا يتغير..

وحرت فى أمرى، هل أنقل الحديث إلى عروسة؟ هل أضيف إلى أحزانها حزنا جديدا؟ الحق أنى أشفقت من تكدير صفو الحلم الباقى لها. وتساءلت هل يستطيع ديزنج أن ينتزع عروسة منى بقوة نفوذه؟ وتذكرت حاجب الوالى الذى سرق منى حليمة فى وطنى، ولكننى لم أطمئن إلى رأى مستقر. وطوال الوقت شعرت بخطر يطاردنى، وبأن سعادتى لا تقف على قدمين، ولا أجنحة لها. وفى صباح اليوم السابق ليوم الرحيل بأربعة أيام استدعانى خادم لمقابلة هام فى حجرته. وهناك وجدت ضابط شرطة فقدمنى هام إليه، وإذا به يقول:

ـ ستذهب معى لمقابلة رئيس شرطة العاصمة.

سألته عن السبب فادعى الجهل به. طلبت أن أخبر فتاتى فقال الضابط:

ـ سينيب عنك هام فى ذلك..

وذهبنا إلى إدارة الشرطة العامة بالشارع الملكى فمثلت أمام المدير الذى جلس على أريكة بين بعض معاونيه. نظر إلى نظرة لم أرتح لها وسألنى:

ـ أنت قنديل محمد العنابى الرحالة؟

فأجبت بالإيجاب، فقال:

ـ إنك متهم بالسخرية من دين هذه الدار التى تستضيفك!

فقلت بقوة ووضوح:

ـ تهمة لا أساس لها من الصحة..

فقال ببرود:

ـ يوجد شهود.

فهتفت:

ـ لا يمكن أن يشهد بذلك ذو ضمير.

فقال باستياء:

ـ لا تطعن الأبرياء ولتدع ذلك لتقدير القاضى.

وألقى القبض على. وفى صباح اليوم التالى قدمت إلى المحكمة. أعلنت التهمة فرفضتها. وجاء شهود خمسة على رأسهم هام صاحب الفندق فأدلوا بشهادة واحدة ـ كأنها قطعة محفوظات ـ بعد أن أدوا اليمين. وأصدرت المحكمة حكمها بسجنى مدى الحياة، مع مصادرة أموالى وما أملك، وبذلك دخلت عروسة فى المصادرة. حدث ذلك كله ما بين يوم وليلة. ذقت طعم اليأس المرير وعرفت أنه حقيقة تقع لا حكاية تروى. ضاعت عروسة، تلاشت الرحلة، تبدد حلم دار الجبل، اختفى وجودى نفسه من هذه الدنيا. وكان السجن عند مشارف المدينة فى منطقة صحراوية. وهو عبارة عن مكان متسع تحت الأرض، ذى منافذ ضيقة فى السقف، جدرانه من الأحجار الكبيرة، وأرضه رملية. ولكل سجين سروال لا غير وفروة، يكتنفه جو خانق ذو رائحة كدرة، نصف مظلم كأنه فجر لا تشرق فيه شمس. نظرت حولى وقلت فى ذهول: «سأبقى هنا حتى آخر يوم فى حياتى!». وتطلع إلىّ الرفاق وسألونى عن جريمتى. سألونى وسألت. أدركت أن ما يجمعنا هى جرائم العقائد والسياسة، وأنى واجد فى ذلك شيئا من العزاء إن أمكن لمثلى أن يتعزى. إنهم مجموعة نادرة من الأحرار الذين تضيق بهم الأجواء الفاسدة. سمعوا حكايتى فعلق أحدهم عليها قائلا:

ـ حتى الغرباء.

ولم يكن أحد منهم قد كفر بالإله فهذه جريمة عقوبتها ضرب العنق، ولكن نقلت

عنهم تساؤلات ناقدة لبعض التصرفات الشاذة التى تمس العدالة أو حرية الإنسان. ورأيت بينهم عجوزا نيف على الثمانين، قضى منها فى السجن خمسين عاما بدأها على عهد الملك السابق سلف الملك الحالى. رأيته قد فقد حواسه وذاكرته فهو لا يدرى أين هو، ولا ماذا جاء به، وينطرح على فروته جسدا ضئيلا بلا روح. قال صوت:

- إنه أجدرنا بالتهنئة.

فصدقت على قوله بلا تردد. وحامت أفكارنا حول وضع الإنسان فى هذا العالم.

- لا يوجد بلد سعيد.

- الشكوى هى لغة الإنسان المشتركة.

- نحن الحائرون بين الواقع القبيح والحلم الذى لا يتحقق.

- لكن ثمة بلدان أفضل.

- هى نفسها لم تعرف الرضى بعد.

- ودار الجبل؟

وثب قلبى فى صدرى حال استقبال الاسم الساحر. تذكرت بحسرة هدفى الضائع. وسألت:

- ماذا تعرف عنها؟

- ليس أكثر مما يقال عادة من أنها وطن الكمال.

فسألت باهتمام:

- ألم تقرأ عنها كتابا أو قابلت من زوارها أحدا؟

- كلا.. ليس إلا ما يقال.

- ومنذا يحقق الحلم؟

- الإنسان، لا شىء سوى الإنسان.

ومللت الكلام. مللت مكابدة الحسرات. مللت أكاذيب الأمل. وقلت لنفسى:

- لا دنيا لى إلا هذا السجن الأبدى.

لم أجد فى عقلانية أستاذى الشيخ مغاغة أى جدوى فى سجنى الدائم ولكنى وجدت فى قدرية أمى الساذجة راحة اليأس، كأنها فلسفة خلقت خاصة للسجن الأبدى. قلت مستسلما: «لتكن مشيئة الله.. فكل ما جاءنى من عنده». سلمت نفسى لقدرى. دفنت آمالى. شيعت للفناء ماضى وحاضرى ومستقبلى. الأمل الوحيد الباقى لسجين مثلى هو قتل الأمل، والتكيف مع القبر الذى ازدردنى، والزواج من اليأس المهيمن المترامى الراسخ. أطرد أشباح الوطن والأم وعروسة والأبناء ودار الجبل. وآلف الرائحة الكدرة

فلا رائحة فى الوجود غيرها، والضوء الخابى نصف المظلم فلا ضوء فى الكون غيره، والهوام المنتشرة فهى مالكة المكان وصاحبة الحق الأول فيه، والألم والملل فهما الرفيقان الدائمان. ورحت أغرق فى أعماق لا نهائية. ويسود الصمت ويتحول العذاب إلى عادة وأنهل من اليأس قوة عجيبة على الاحتمال والصبر. ويخترق جدار الصمت صوت يقول:

- يحكى عن سجين قديم أنه أنشأ فى ذاته قوة خارقة حتى استطاع أن يخترق جدار السجن كأنه صوت وطار فى الهواء إلى ما وراء الحدود!

فيتلقى صبرى هذا الهذيان بطيبة. وبعد يوم أو عام قال صوت آخر:

- قد تقوم الحرب بين الحيرة والحلبة فنصعد مرة أخرى إلى سطح الأرض.

فأعفو عمن ذكرنى بسطح الأرض وأتساءل متى أفقد الحواس مثل العجوز السعيد!.. وهبطت فى الأعماق درجات فى إثر درجات فضاع الزمن فيما ضاع من أسباب الحياة، واختفى التاريخ. وجهلت الساعة واليوم والشهر والعام، توارت المعالم، وبات عمرى لغزا، وجعلت أكبر بلا تحديد ولا حساب، ولا مرآة أرى فيها نفسى إلا الرفاق فأتخيل ما صرت إليه من بشاعة وقذارة، فلم ينعم بالسعادة فى دنيانا المظلمة إلا الهوام والحشرات. لا شك أن الأجيال والعصور والدهور تتعاقب وأننا نتذوق طعم الفناء بجلاله الأبدى. هكذا.. هكذا.. هكذا.. حتى زج إلينا بقادم جديد التففنا حوله كالهوام، ننظر باستغراب إلى القادم من العالم الآخر. رغم كبره وتعاسته خيل إلى أننى لا أراه لأول مرة. وكان العجوز قد مات منذ زمن لا ندريه فحل محله. وراح ينظر فى وجوهنا ويبكى. وقال قائل:

- لا تبك يا رجل فالدموع تؤذى الهوام.

وسأله سائل:

- من أنت؟

فأجاب برثاء:

- أنا الحكيم ذيزنج.

فخرجت من غيبوبتى الأبدية وصحت بصوت غريب:

- ديزنج.. ديزنج.. هيهات أن أنساك.

فسألنى:

- من أنت؟!

فهتفت وقد وقعت فى الزمن:

- إنى ضحيتك!

فقال بضراعة:

- أصبحنا فى البلوى سواء.

فصرخت:

- كلا لسنا سواء.

فهتـف:

- انقلبت الدنيا، ثار قائد الجيش على الملك وقتله وأحل نفسه محله.

فدبت الحياة فى الرفاق وانبعثت منهم انتفاضة حماسة، وتساءل أحدهم:

- ماذا يحدث فوق سطح الأرض؟

فقال ذيزنج:

- قتل رجال الملك، أما أنا فقضى علىّ بالسجن مدى الحياة.

امتلأت العيدان الخاوية بأمل جديد وتعالى الهتاف للإله الجديد أما أنا فسألته بوحشية:

- ألا تتذكرنى؟

فسألنى بخوف:

- من أنت؟

فهتفت:

- أنا صاحب عروسة، تذكرتنى الآن؟!

فتراجع فى حذر ونكس رأسه. سألته:

- ماذا حصل لها يا وغد؟!

قال بذل وانكسار:

- حاولنا الهرب فى القافلة الذاهبة إلى دار الحلبة ولكنهم قبضوا علىّ أما هى فرحلت إلى الحلبة.

- ماذا عن أبنائها؟

- سافرنا معا إلى المشرق للبحث عنهم ولكننا لم نعثر لهم على أثر، حدث ذلك منذ عهد طويل.

لكنى نسيت أحزانى فيما نسيت أما غضبى فكان يتصاعد.

وصرخت فيه:

- ما أنت بحكيم ولكنك وغد لئيم، لم تتورع عن تلفيق تهمة لى لتسرق امرأتى، والقتل دون ما تستحق من عقاب.

وهبط على صوت الحارس من منفذ فى السقف يأمرنى بالابتعاد عنه فرجعت إلى موضعى وجسمى الضعيف ينوء بدفقة الحياة المباغتة التى اكتسحته. جلست على فروتى مسند الظهر إلى الجدار مادا ساقى، متلقيا من جديد تيار الحياة والتاريخ. وددت أن أسأله عن المدة التى قضيتها فى السجن ولكنى كرهت أن أواصله بحديث. غير أنه نظر نحوى وقال بحزن:

- إنى آسف ونادم.

فقلت بحنق:

- مثلك غير جدير بالندم.

فقال بنفس النبرة:

- نلت جزائى بمعاشرة امرأة لم تكف عن كراهتى قط.

ثم وكأنه يحدث نفسه:

- عشرون عاما لم تغير من قلبها!

عشرون عاما!.. يا لضياع العمر. جاءنى الجواب قاسيا قاطعا كنصل الخنجر. ها هو الرحالة ينحدر إلى منتصف الحلقة الخامسة. وسيموت ذات يوم فى هذا القبر وما حقق هدفا ولا حظى بمتعة ولا أدى واجبا. وضاعف من وكسى تواجد هذا الوغد معى فى قبرى ليذكرنى بعثراتى وسوء حظى وحيدى عن هدفى. أما الرفاق فاشتعلت أنفسهم بأمل جديد، وتوقعوا جميعا أن يصدر عفو شامل عنهم بين ساعة وأخرى، ولم يخب أملهم فجاءنا ذات يوم مدير السجن وقال:

- اقتضت إرادة الإله الجديد إصدار عفو شامل عن ضحايا الملك المخلوع الغادر.

ووقفنا جميعا نهتف بالدعاء والتأييد. وغادرنا السجن فلم يبق إلا ديزنج. وآذانا ضوء النهار فى الخارج لاعتيادنا الظلام فحجبنا أعيننا بأكفنا. ومضى بى ضابط إلى مركز الغرباء. وقال لى المدير:

- نحن آسفون لما حل بك من ظلم يتنافى مع مبادئ وقوانين دار الحيرة، وقد تقرر أن يرد إليك مالك ومتاعك عدا الجارية التى غادرت البلاد.

وذهبت من فورى إلى حمام عمومى فحلقوا لى شعر رأسى وجسدى، واغتسلت بالماء الدافئ، ودهنت رأسى وجسمى بزيت الباشام لاستئصال الهوام والحشرات. وقصدت فندق الغرباء وأنا أتوقع لقاء مثيرا بينى وبين هام غير أنه تبين لى أن الرجل مات وحل محله آخر يدعى تاد هو ابن أخيه وزوج ابنته. وكان اللقاء المثير حقا لا بينى وبين

هام ولكن بيني وبين نفسى فى المرآة. رأيت قنديل الكهل المبعوث من قبره بعد دفن استمر عشرين عاما. كهل حليق الرأس والذقن. ناحل ذابل غائر العينين ذو لون كئيب ونظرة ميتة ووجنتين بارزتين. وفى الحال قررت أن أبقى فى الحيرة حتى أسترد شيئا من الصحة والعافية والتوازن الداخلى. ورحت أمشى لا لأرى جديدا ولكن لأدرب قدمى على المشى. وجعلت أتساءل عما يجدر بى عمله، هل أرجع إلى وطنى قانعا من الغنيمة بالإياب، أو أواصل الرحلة والاستطلاع ودق أبواب المصير؟ وكرهت العودة إلى الوطن على هذه الحال من الجدب والخيبة. وحدثنى قلبى بأننى فى وطنى معدود من الأموات لا أحد ينتظرنى أو يهمه مرجعى، هذا إذا لم يكن الموت قد أدركهم فاستأصل الجذور وبذر فى أصولها الغربة والوحشة. كلا لن أرجع. لن ألتفت إلى الوراء. بدأت رحالة، سأظل رحالة، وفى طريق الرحلة أسير. إنه قرار وقدر، خيال وفعل، بداية ونهاية. فإلى دار الحلبة وما بعدها حتى دار الجبل. ترى كيف تتبدين اليوم يا عروسة وأنت بنت أربعين؟!

دار الحلبة

كالأيام الخالية تحركت القافلة فى تؤدة وجلال. انغمسنا فى ظلمة الفجر الرفيقة لا لأنهل من الشعر هذه المرة ولكن لأتلقى لطمات من ذكريات السجن، وحسرات من العمر الضائع. ورأيت أشباح الرفاق فرأيت جيلا جديدا من التجار، فما زال النشاط يتمادى والمال يتكاثر والجاه يصيد المغامرين، أما الحالمون فالحيرة لهم. وتتابعت علىّ إحباطاتى الماضية، ساعة غادرت الوطن ناعيا حليمة، ساعة طردت من المشرق باكيا عروسة، وساعة أودع الحيرة نادبا السعادة والشباب. وانتبهت إلى الشرق فرأيته يموج بماء الورد الأحمر وانداح وجه الشمس كدأبه طيلة عشرين عاما. وتجلت الصحراء لا نهائية وتفشى الصيف. وتواصل السير ما يقارب الشهر، وفى إحدى محطات الراحة سألت صاحب القافلة عن القانى بن حمديس فقال لى:

ـ البقية فى حياتك.

وسألت عن الشيخ مغاغة الجبيلى ولكنه لم يسمع به، لا هو ولا أحد من تجار القافلة. وعسكرنا فى الشامة استعدادا لدخول الحلبة. كانت لحيتى قد نبتت وكذلك شعر رأسى وأخذ دم الصحة يجرى من جديد. وواصلنا السير حتى رأينا السور العظيم تحت ضوء تربيع القمر. وتقدم إلينا مدير الجمرك بسترته الخفيفة المناسبة لجو الصيف المعتدل وقال بصوت مرح:

- أهلا بكم فى الحلبة عاصمة دار الحلبة، دار الحرية . .

دهشت لسماع الكلمة الملعونة فى كل مكان، ودهشت أيضا لخلو كلامه من التحذير المعلن أو الخفى .

وقلت لصاحب القافلة :

- أول دار ترحب بالقادم بلا نذير .

فضحك قائلا :

- إنها دار الحرية ولكن الحرص أمان الغريب . .

ومضوا بى وحدى إلى فندق الضيوف . وفى الطريق - تحت ضوء القمر - تناثرت معالم من المدينة فى عظمة موحية بمنظر جديد، إلى كثرة من الهوادج الذاهبة والآئبة على ضوء المشاعل رغم اقترابنا من الهزيع الأخير من الليل . أما مدخل الفندق فقد استوى فى اتساع وعمق تحت سقيفة تتدلى منها القناديل على هيئة تبهر الأبصار . وبدا بناء الفندق ضخما مرتفعا ينطق بجمال الهندسة ونعمة الثراء . أما حجرتى فادخرت لى مفاجأة أخرى بألوان جدرانها الزرقاء وسجادتها الوثيرة وفراشها النحاسى المرتفع بأغطيته المزركشة، وغير ذلك مما لا يوجد عادة إلا فى البيوت الكريمة بوطنى . تطالعنى هنا حضارة بلسان بليغ متفوقة ولاشك على حضارة الحيرة بدرجات ودرجات . ووجدتنى أتساءل ترى أين وكيف تعيش عروسة؟ وقبل أن أنغمس فى الذكريات زارنى رجل متوسط العمر يرتدى سترة زرقاء وسروالا أبيض قصيرا،

قال باسما :

- قلشم . . مدير الفندق . .

فقدمت له نفسى فسألنى برقة :

- أى خدمة؟

فقلت بصراحة :

- لاشىء مقدما على النوم الآن إلا أن تخبرنى بأجرة الإقامة .

فقال باسما :

- ثلاثة دنانير لليلة!

هالنى الرقم وقلت لنفسى إنه يبدو أن كل شىء يتمتع بالحرية فى الحلبة حتى الأسعار، وكالعادة دفعت أجرة عشرة أيام بلياليها .

وأسلمت نفسى إلى فراش لم أحظ بمثل حنانه منذ غادرت وطنى . واستيقظت مبكرا فجاءنى الفطور إلى حجرتى من الخبز واللبن والجبن والزبد والعسل والبيض . أدهشنى

الطعام بكميته وكيفيته فاقتنعت أكثر بأننى أزور عالما جديدا مثيرا. وغادرت الحجرة تحركنى لهفة وأشواق، وأمل بأننى سأعثر على عروسة أيضا لكى تتم لعبة القدر.

وقابلنى قلشم عند مدخل الفندق فقال لى:

ـ توجد هوادج تحت تصرف الرحالة لمشاهدة المعالم الهامة..

فتفكرت قليلا وقلت:

ـ أود أن أبدأ بمفردى وكيفما اتفق..

ومنذ اللحظة الأولى شملنى شعور بأننى فى مدينة كبيرة يذوب فيها الفرد فلا يدرى به أحد. ترامى أمام الفندق ميدان واسع مستدير تقوم على محيطه العمائر والحوانيت، تتوسط نهايته قنطرة تعلو نهرا وتفضى إلى ميدان صغير تتفرع منه شوارع كبيرة لا ترى لها نهاية، تحف بجوانبها العمائر والأشجار، أين أتجه؟.. وأين توجد عروسة؟.. وكيف أسير بلا مرشد؟! تركت قدمى تقوداننى بحرية فى مدينة الحرية، فانبهرت بكل ما وقعت عليه عيناى بين خطوة وأخرى. شبكة من الشوارع لا تعرف لها أول من آخر، صفوف من العمائر والبيوت والقصور، حوانيت بعدد رمل الصحراء تعرض من ألوان السلع ما لا يحيط به حصر، مصانع متاجر ودور لهو، حدائق كثيرة متعددة الأشكال والألوان، تيارات لا تنقطع من النساء والرجال والهوادج، أغنياء وكبراء، وفقراء أيضا وإن كانوا أحسن درجات من فقراء الحيرة والمشرق، ولا يخلو طريق من فارس من فرسان الشرطة. ملابس الرجال والنساء متنوعة، وللجمال حظ موفور وكذلك الأناقة، ويصادفك الاحتشام كما يصادفك التحرر القريب من العرى، والجد والرزانة يؤاخيان المرح والبساطة، كأننى ألقى لأول مرة بشرا لهم وجودهم ووزنهم وإدلالهم بأنفسهم، ولكن كيف يأمل آدمى فى العثور على عروسة فى هذا البحر الهادر بلا شطآن؟! سرت وتعبت واسترحت فى الحدائق وأنا أشعر طيلة الوقت بأننى لم أبدأ بعد. وندمت على أننى لم آخذ هودجا من هوادج الرحالة كما أشار قلشم، غير أنه صادفنى حادثان مثيران. أولهما حادث فردى ألممت به فى حديقة عامة إذ رأيت رجالا من الشرطة يستجوبون بعض الأفراد، ثم علمت أن البستانى عثر على جثة امرأة قتيلة فى ركن من الحديقة. وأمثال هذا الحادث تقع كثيرا فى كل مكان، أما الذى أثار دهشتى وانزعاجى فكان مرور مظاهرة من نساء ورجال وهم يهتفون بمطالبهم ورجال الشرطة يتبعونهم دون أن يتعرضوا لهم بخير أو شر. تذكرت مظاهرة شبيهة شهدتها فى وطنى قصدت الوالى لتشكو إليه رفع المكوس وضيق الحال. أما هذه المظاهرة فكانت تطالب بالاعتراف بشرعية العلاقات الجنسية الشاذة! لم أصدق عينى ولا أذنى، وأيقنت بأننى أطوف بعالم غريب، وأن هوة سحيقة تفصل ما بينى وبينه، وخالطنى خوف من المجهول. واقترب الظهر وارتفعت الحرارة إلى

أقصى حد غير أن صيف الحلبة صيف محتمل، ومضيت أتساءل عن كيفية الرجوع إلى الفندق عندما تهادى صوت فى الجو يصيح :

ـ الله أكبر . .

وثب قلبى فى صدرى وثبة عنيفة أشعلت النار فى حواسى . رباه إنه أذان . هذا مؤذن يدعو إلى الصلاة فهل الحلبة دار إسلامية؟!

وأندفعت على هدى الصوت حتى وجدت جامعا عند مدخل شارع . لم أسمع هذا الصوت ولا رأيت هذا المنظر منذ ربع قرن . إنى أولد من جديد وكأنما أكتشف الله لأول مرة . ودخلت المسجد، توضأت، ووقفت فى صف ورحت أصلى الظهر فى فرحة متوهجة، بعين دامعة، وصدر منشرح . وتمت الصلاة ومضى الناس ينصرفون ولكنى تسمرت فى مكانى حتى لم يبق فى الجامع إلا الإمام وأنا . هرولت نحوه، حويته بين ذراعى، وانهلت عليه تقبيلا . واستسلم لانفعالى هادئا مدركا باسما، ثم تمتم :

ـ أهلا بالغريب . .

وجلسنا غير بعيد من المحراب . قدمت له نفسى فقدم لى نفسه، الشيخ حمادة السبكى، من أهل الحلبة الصميمين . قلت بأنفاس مضطربة وصوت متهدج :

ـ ما تصورت الحلبة داراً إسلامية . .

فقال بهدوء :

ـ الحلبة ليست من ديار الإسلام . .

ولما قرأ دهشتى قال :

ـ الحلبة دار الحرية، تمثل فيها جميع الديانات، فيها مسلمون ويهود ومسيحيون وبوذيون، بل فيها ملحدون ووثنيون . .

فازددت دهشة وسألته :

ـ كيف تأتى لها ذلك يا مولاى؟

فقال ببساطة :

ـ كانت فى الأصل وثنية، وأتاحت حريتها الفرصة لكل من شاء أن يدعو إلى دينه، وتوزعت الديانات على أهلها فلم تبق اليوم إلا قلة من الوثنيين فى بعض الواحات!

فسألته واهتمامى يتصاعد :

ـ وبأى دين تلتزم الدولة؟

ـ الدولة لا شأن لها بالأديان . .

ـ وكيف توفق بين أهل الملل والنحل؟

فقال بوضوح :

ـ تعامل الجميع على قدم المساواة الكاملة .

فسألته كالمحتج :

ـ وهل يرضون بذلك؟

ـ كل طائفة تحتفظ فى داخلها بتقاليدها الذاتية ، واحترام يسود العلاقات العامة لا امتياز لطائفة ولو جاء رئيس الدولة منها ، وبالمناسبة أخبرك بأن رئيسنا الحالى وثنى !

دار مذهلة ومزلزلة للدماغ . وقلت متفكرا :

ـ حريه لم أسمع عنها من قبل ، هل أتاك يا مولاى حديث المظاهرة التى تطالب بالاعتراف بشرعية العلاقات الشاذة؟

فقال الإمام باسما :

ـ فيها مسلمون أيضا !

ـ لا شك أنهم يتعرضون للجزاء داخل طائفتهم . .

نزع الشيخ عمامته فمسح على رأسه ثم أعادها وهو يقول :

ـ الحرية هى القيمة المقدسة المسلم بها عند الجميع !

فقلت محتجا :

ـ هذه حرية جاوزت الحدود الإسلامية . .

ـ ولكنها مقدسة أيضا فى إسلام الحلبة . .

فقلت وأنا أكابد خيبة أمل :

ـ لو بعث نبينا اليوم لأنكر هذا الجانب فى إسلامكم . .

فتساءل بدوره :

ـ ولو بعث عليه الصلاة والسلام أما كان ينكر إسلامكم كله؟!

آه . . صدق الرجل وأذلنى بتساؤله . وقال الإمام :

ـ طوفت بديار الإسلام كثيرا !

فقلت بأسى :

ـ من أجل ذلك قمت برحلتى يا شيخ حمادة ، أردت أن أرى وطنى من بعيد ، وأن أراه على ضوء بقية الديار ، لعلى أستطيع أن أقول له كلمة نافعة . .

فقال الشيخ باستحسان :

ـ أحسنت ، وفقك الله ، وستأخذ من دارنا أكثر من عبرة !

قلت وقد عاودنى حب استطلاع الرحالة :

ـ أمامنا إذا سمحت فرص لتبادل الآراء، ولكن هل تستطيع الآن أن تمدنى بمعلومات عن نظام الحكم فى هذه الدار العجيبة؟

فقال الشيخ حمادة :

ـ إنه نظام فريد، لم يصادفك فيما رأيت ولن يصادفك فيما سترى . .

ـ ولا دار الجبل؟

ـ لا أعرف شيئا عن دار الجبل حتى أدخلها فى المقارنة، ما يصح أن تعرفه هو أن رئيس دولتنا ينتخب تبعا لمواصفات علمية وأخلاقية وسياسية، فيحكم مقدار عشر سنوات، ثم يعتزل ليحل محله قاضى القضاة، وتجرى انتخابات جديدة بين الرئيس المعتزل والمرشحين الجدد . .

فهتفت بحماس :

ـ نظام حسن . .

ـ كان الأجدر بالمسلمين أن يبشروا به قبل غيرهم، هذا وللرئيس مجلس من أهل الخبرة فى جميع الأنشطة، يعاونه بالرأى . .

ـ وهل رأيه ملزم؟

ـ عند الاختلاف يعتزلون جميعا ويجرى الانتخاب من جديد . .

فهتفت :

ـ نعم النظام . .

فواصل الشيخ حماده السبكى حديثه :

ـ أما الزراعة والصناعة والتجارة فيقوم بها القادرون من الأهالى ! . .

فقلت وأنا أتذكر بعض ما رأيت من مشاهد :

ـ لذلك يوجد أغنياء وفقراء . .

فقال الشيخ :

ـ كما يوجد عاطلون ولصوص وقتلة !

فابتسمت قائلا بنبرة ذات مغزى :

ـ الكمال لله وحده .

فقال بجدية :

ـ ولكننا قطعنا شوطا لا يستهان به فى هذا السبيل !

ـ لو أنكم تطبقون الشريعة؟!

ـ لكنكم تطبقونها!

فقلت بإصرار:

ـ الحق أنها لا تطبق.

ـ الالتزام هنا بالمرجع، وهو يطبق نصا وروحا..

ـ ولكن الدولة ملتزمة بالأمن والدفاع فقط فيما يخيل إلى..

ـ وبالمشروعات العامة التى يعجز عنها الأفراد كالحدائق والجسور والمتاحف، ولها مدارس بالمجان للنابغين من الفقراء، ومستشفيات بالمجان كذلك ولكن جل الأنشطة فردية..

فتفكرت مليا ثم سألته:

ـ لعلكم تعتبرون أنفسكم أسعد البشر؟

فهز رأسه جادا وقال:

ـ إنه حكم نسبى يا شيخ قنديل، ولا يمكن أن يطلق بثقة كاملة ما دام يوجد أغنياء وفقراء ومجرمون، فضلا عن ذلك فحياتنا لا تخلو من قلق بسبب من الأطماع المتبادلة بيننا وبين الحيرة فى الجنوب، وبيننا وبين دار الأمان فى الشمال، فهذه الحضارة الفريدة مهددة وقد تندثر فى موقعة، وقد تتدهور حتى مع النصر إذا اجتاحتنا الخسائر، ثم إن الاختلافات الدينية لا تمر دائما بسلام..

وسألنى عن برنامج رحلتى فلخصت له ما صادفنى مذ تركت الوطن، فحزن الرجل لى وتمنى لى التوفيق. قال:

ـ أنصحك باكتراء هودج سياحة فمعالم العاصمة أكثر من أن تحيط بها بنفسك وعندنا مدن أخرى كثيرة تستحق المشاهدة، أما العثور على عروسة فى دارنا فأيسر منه الوصول إلى دار الجبل..

فقلت بأسى:

ـ إنى أدرك ذلك تماما ولكن لى مطلبا آخر هو أن أزور حكيم الحلبة..

فقال بدهشة:

ـ ماذا تعنى؟.. للمشرق حكيمها، وللحيرة حكيمها. أما هنا فمراكز العلم تموج بالحكماء، وستجد عند أى منهم ما ترغب فى معرفته وأكثر..

شكرت له حديثه ومودته وقمت وأنا أقول:

ـ آن لى أن أذهب.

فأمسك بى قائلا :

ـ بل سنتغدى معا فى بيتى . .

رحبت بالدعوة لأنغمس فى حياة الحلبة . سرنا معا حوالى ربع ساعة إلى شارع هادئ تحف به أشجار الأكاسيا على الجانبين، واتجهنا إلى عمارة أنيقة يقيم الإمام فى دورها الثانى . لم أشك أن الإمام من الطبقة الوسطى ولكن جمال حجرة الاستقبال دلنى على ارتفاع مستوى المعيشة فى الحلبة . وصادفتنى تقاليد غريبة تعتبر فى وطنى بعيدة عن الإسلام، فقد رحبت بى زوجة الإمام وكريمتها بالإضافة إلى ابنيه . وتناولت الغداء على مائدة واحدة، بل قدمت إلينا أقداح نبيذ . إنه عالم جديد وإسلام جديد . وارتبكت لوجود المرأة وكريمتها، فمنذ بلغت مشارف الشباب لم تجمعنى مائدة طعام مع امرأة لا أستثنى من ذلك أمى نفسها . ارتبكت وغلبنى الحياء ولم أمس قدح النبيذ . قال الإمام باسما :

ـ دعوه لما يريحه . .

فقلت :

ـ أراك تأخذ برأى أبى حنيفة؟

فقال :

ـ لا حاجة بنا إلى ذلك فالاجتهاد عندنا لم يتوقف، ونحن نشرب مجاراة للجو والتقاليد ولكننا لا نسكر . .

كانت زوجه ست بيت، أما سامية كريمته فكانت طبيبة أطفال بمستشفى كبير، وأما الابنان فكان يعدان نفسيهما ليكونا مدرسين . وأذهلتنى انطلاقة الأم وكريمتها فى الحديث أكثر مما أذهلنى العرى فى المشرق . تحدثتا بتلقائية وشجاعة وصراحة كالرجال سواء بسواء . وسألتنى سامية عن الحياة فى دار الإسلام وعن دور المرأة فيها . . ولما وقفت على واقعها انتقدته بشدة، وراحت تعقد المقارنات بينه وبين المرأة فى عهد الرسول والدور الذى لعبته، حتى قالت :

ـ الإسلام يذوى على أيدكم وأنتم تنظرون . .

وتأثرت أيضا بجمالها وشبابها، وضاعف من تأثرى طول حرمانى وتقدمى فى السن . وحكى لهم الإمام جانبا من حياتى ورحلتى وهدفى منها . قال :

ـ على أى حال فليس هو من المستسلمين . .

فقالت سامية لى :

ـ إنك تستحق الإعجاب . .

فبلغ بى التأثر مداه. وجاء العصر فأدينا صلاته جميعا وراء الإمام مما دعانى إلى التفكير والتأمل أكثر. وغادرتهم بجسدى وهم يحتلون بعمق صميم روحى. وفى الطريق ثار بى الحنين إلى الاستقرار والدفء والحب. أين عروسة؟ أين دار الجبل؟ ضاع الشباب تحت الأرض، فمتى أستقر وأكون أسرة وأنجب ذرية؟ حتى متى أظل ممزقا بين نداءين؟!

وفى اليوم التالى اكتريت هودجا، طاف بى بمعالم العاصمة الهامة، مراكز التعليم، القلاع، المصانع الكبرى، المتاحف، الأحياء القديمة. وأخبرنى المرشد أن أهل الديانات المختلفة يمثلون سير أنبيائهم فى الجوامع والكنائس والمعابد فأعلنت عن رغبتى فى مشاهدة سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام، فمضى بى إلى أكبر جامع فى العاصمة، وجلست بين المشاهدين، وراح قوم يمثلون السيرة فى باحة الجامع من بدايتها إلى نهايتها. رأيت فيما خيل إلى النبى والصحابة والكفار، وهو ما اعتبرته جرأة تقارب الكفر، ولكن كان على أن أرى كل ما يستحق التسجيل. وأثر فىّ الشخص الذى يقوم بدور الرسول للحد الذى صدقته، فانفعلت به انفعالا فاق كل تصور حتى رأيته فى المنام. وقلت لنفسى:

ـ إن ما يدهشنى حقا هو أن إيمان هؤلاء الناس صادق وأمين.. ودعوت الإمام وأسرته للغداء فى الفندق فتوثقت علاقتى بهم أكثر. وقال لى الشيخ:

سأعد لك لقاء مع حكيم ذى مكانة يدعى مرهم الحلبى..

فشكرت له اهتمامه بى، وقضينا وقتا طيبا، وخفق قلبى بالسرور والانشراح طوال الوقت. وفى صباح اليوم التالى غادرت حجرتى بالفندق لزيارة الحكيم. غير أننى وجدت كثيرين من النزلاء مجتمعين فى مدخل الفندق وهم يخوضون فى حديث اهتمامهم فيما بدا إلى أقصى حد.

ـ الخبر يقول إن قائدا من قواد الحيرة ثار على الملك ولكنه فشل فهرب إلى دار الحلبة..

ـ أتعنى أنه يقيم الآن فى الحلبة؟

ـ يقال إنه يقيم فى واحة من واحات الحلبة.

ـ المهم أن ملك الحيرة يطالب بالقبض عليه وتسليمه له.

ـ لكن ذلك مخالف لمبادئ «المرجع».

ـ وقد رفض طلبه..

ـ هل تنتهى المسألة عند هذا الحد؟

ـ إنهم يتهامسون عن حرب..

ـ وإذا انتهزت دار الأمان الفرصة وهاجمت دار الحلبة؟!

هذه هى المشكلة الحقيقية . .

تسلل القلق إلى أعماقى أنا الذى تطاردنى الحروب من دار إلى دار . وأردت الذهاب إلى الحكيم ولكن هالنى أن أرى الميدان وهو يتلقى مظاهرات عديدة كأنما كانت على ميعاد . اضطررت للبقاء فى مدخل الفندق ، أنظر وأسمع وأنا من الدهشة فى غاية . مظاهرة تطالب بتسليم القائد الهارب . مظاهرة تنذر من يسلمه بالويل . مظاهرة تطالب بإعلان الحرب على الحيرة . مظاهرة تطالب بالمحافظة على السلام بأى ثمن . ملكتنى الحيرة وتساءلت عما يمكن أن يفعله حاكم بإزاء هذه الأراء المتضاربة . وانتظرت حتى خلا الميدان فذهبت مسرعا إلى دار الحكيم مرهم فبلغتها متأخرا ساعة عن الميعاد . استقبلنى فى حجرة أنيقة حوت الكنب والمقاعد والشلت معا . وجدته طويلا نحيلا فى الستين من عمره ، أبيض الشعر واللحية ، يرفل فى عباءة زرقاء خفيفة . قبل اعتذارى عن التأخير ، ورحب بى ، ثم سألنى :

أيهما تفضل ، الجلوس على المقاعد أم الشلت؟!

فقلت باسما :

ـ الشلتة أحب إلى . .

فقال ضاحكا :

ـ هكذا العرب ، إنى أعرفكم ، زرت بلادكم ودرست معارفكم . فقلت بحياء :

ـ لست من علماء وطنى ولا فلاسفته ولكنى محب للمعرفة ، ومن أجل ذلك قمت بهذه الرحلة . .

فقال بهدوء مشجع :

ـ فى هذا ما يكفى ، وما هدفك من الرحلة؟

فتفكرت مليا وقلت :

ـ زيارة دار الجبل .

ـ لم أعرف أحدا زارها أو كتب عنها .

ـ ألم تفكر يوما فى زيارتها؟

فقال باسما :

ـ من آمن بعقله أغناه عن كل شىء .

فقلت مستدركا :

ـ دار الجبل ليست بغايتى الأخيرة ولكنى أرجو أن أرجع منها إلى وطنى بشىء يفيده . .

ـ أرجو لك التوفيق . .

فقلت كالمعتذر :

ـ الحق أنى جئت لأسمع لا لأتكلم . .

ـ هل لديك سؤال يشغلك؟

فقلت باهتمام :

ـ حياة كل قوم تتكشف عادة عن فكرة أساسية؟

فاعتدل فى جلسته وقال :

ـ لذلك يسألنا محبو المعرفة من أمثالك كيف صنعتم حياتكم .

ـ وحياتكم جديرة بإثارة هذا السؤال . .

ـ الجواب بكل بساطة ، لقد صنعناها بأنفسنا .

فتابعته فى تركيز وصمت ، فقال :

ـ لافضل فى ذلك لإله ، آمن مفكرنا الأول بأن هدف الحياة هو الحرية ، ومنه صدر أول دعوة للحرية ، وراحت تتسلسل جيلا بعد جيل . .

وابتسم ، وصمت حتى تستقر كلماته فى مستقرها من نفسى وقال :

ـ بذلك اعتبر كل تحرر خيرا وكل قيد شرا ، أنشأنا نظاما للحكم حررنا من الاستبداد ، وقدسنا العمل ليحررنا من الفقر ، وأبدعنا العلم ليحررنا من الجهل ، وهكذا . . وهكذا . . فإنه طريق طويلة بلا نهاية . .

حفظت كل كلمة بدرت منه باهتمام بالغ أما هو فقد واصل حديثه قائلا :

ـ لم يكن طريق الحرية سهلا ، ودفعنا ثمنه عرقا ودما ، كنا أسرى الخرافة والاستبداد ، وتقدم الرواد ، وضربت الأعناق ، واشتعلت الثورات ، ونشبت حروب أهلية ، حتى انتصرت الحرية وانتصر العلم . .

حنيت رأسى مظهرا إعجابى فراح ينقد أنظمة دار المشرق ودار الحيرة ويسخر منهما ، بل سخر أيضا من نظام دار الأمان التى لم أزرها بعد ، وحتى دار الإسلام لم تسلم من حدة لسانه . والظاهر أنه قرأ تغيرا فى صفحة وجهى فسكت ، ثم قال بنبرة المعتذر :

ـ إنكم لا تألفون الرأى الحر؟

فقلت بهدوء :

ـ فى حدود معينة . .

فقال متراجعا :

ـ معذرة ، ولكن عليك أن تعيد النظر فى كل شىء .

فقلت مدافعا :

ـ داركم لا تخلو من فقراء ومنحرفين . .

فقال بحماس :

ـ الحرية مسئولية لا يستطيع الاضطلاع بها إلا القادرون، وليس كل من ينتمى إلى الحلبة أهلا لهذا الانتماء، لا مكان للعجزة بيننا . .

فتساءلت بحرارة :

ـ أليست للرحمة قيمة مثل الحرية؟!

ـ هذا ما يردده أهل الديانات المختلفة، وهم الذين يشجعون العجزة على البقاء، أما أنا فلا أجد معنى لكلمات مثل الرحمة أو العدالة، يجب أولا أن نتفق على من يستحق الرحمة ومن يستحق العدالة!

ـ إنى أخالفك فى ذلك حتى النهاية .

ـ أعرف ذلك!

ـ لعلك ترحب بالحرب؟

فقال بوضوح :

ـ إذا وعدت بمزيد من الحرية، ولست أشك مطلقا فى أن انتصارنا على الحيرة والأمان خير ضمان لسعادة شعبيهما!

وبهذاه المناسبة إننى على مبدأ الجهاد فى الإسلام .

وراح يفسره تفسيرا عدوانيا فتصديت لتصحيح نظريته ولكنه لوح بيده باستهانة وقال :

ـ لديكم مبدأ عظيم ولكنكم لا تملكون الشجاعة الكافية للاعتراف به!

فسألته :

ـ إلى أى دين تنتمى أيها الحكيم مرهم؟

فأجاب باسما :

ـ دين إلهه العقل ورسوله الحرية!

ـ وجميع الحكماء مثلك؟

فقال ضاحكا :

ـ ليتنى أستطيع أن أزعم ذلك . .

وجاءنى بكتابين، الأول هو «المرجع» أو القانون الأول فى الحلبة، والثانى من تأليفه وعنوانه «اقتحام المستحيل» . وقال :

ـ اقرأ هذين الكتابين تعرف الحلبة على حقيقتها . .

فشكرت له كرمه كما شكرت له حسن ضيافته ثم ودعته وانصرفت . وتناولت الغداء فى الفندق وكانت الألسنة جميعا تلهج بالحرب . وذهبت عصرا إلى الجامع فصليت وراء الشيخ حامد السبكى ، ودعانى إلى مجالسته فلبيت مسرورا . وإذا به يسألنى باسما :

ـ هل عثرت على عروسة؟

فقلت بجدية :

ـ التعلق بعروسة وهم لا معنى له!

فصدق على قولى قائلا :

هذه هى الحقيقة .

ثم سألنى بعد صمت قصير :

ـ هل تمضى فى رحلتك مع أول قافلة؟

فقلت وأنا أشعر بشىء من الحرج :

ـ كلا ، أريد البقاء فترة أخرى . .

ـ قرار حسن ، ويتوافق مع الأحداث المتلاحقة ، فقد منع ملك الحيرة سير القوافل بين الحيرة والحلبة كرد على رفضنا تسليم القائد الهارب .

فدهشت وقلقت فقال الشيخ :

ـ وقد غضب كبار ملاك الأراضى ورجال الصناعة والتجارة وعقدوا مع الحاكم اجتماعا خطيرا يطالبون فيه بإعلان الحرب!

فتساءلت بقلق :

ـ وكيف يكون موقف دار الأمان؟!

فقال الشيخ باسما :

ـ كأنك صرت من أهل الحلبة! الخلاف بين الحلبة والأمان يدور حول ملكية بعض عيون الماء فى الصحراء الممتدة بيننا وبينهم ، سيسوى النزاع لصالح الأمان فورا كيلا تفكر فى الغدر . .

فقلت بقلق :

ـ إنى غريب . ونذر الحرب تتطاير من حولى . .

ـ أفضل ما تفعل أن تبقى فى الحلبة ، وإن طال المقام فلديك من المال ما ييسر لك عملا مثمرا . .

تخليت عن القافلة رغم إشفاقى من أن تكون آخر قافلة تقوم نحو دار الأمان . شدتنى

الحلبة إليها بقوة بما وجدت فى جوها من نقاء، وما آنست فى بعض أهلها من أمل. وقسمت وقتى بين السياحة وأسرة الشيخ حامد السبكى، أما عروسة فكانت تحلق مع نجوم الليل. وتشبعت الحياة اليومية بخواطر الحرب، واستاء كثيرون للتنازلات التى نالتها دار الأمان دون أن تسفك لها نقطة دم. وقال لى مدير الفندق متجهما:

- رغم تضحيتنا بعيون المياه فقد تغدر بنا دار الأمان..

وتوترت الأعصاب لأقصى حد وانتقلت إلىّ عدواها فأصابنى ما أصاب الناس من حولى، وأفزعتنى الساعات المحدودة التى أمضيها فى وحدة بالفندق ما بين السياحة وأسرة آل السبكى. وثارت أعصابى، وطالبتنى بالإشباع والاستقرار. ولما أعلنت الحلبة الحرب، وأرسلت جيشها إلى الحيرة، ثارت أعصابى أكثر، ورحت أنقب فى العاصفة الحمراء عن كهف آمن ألوذ به. وتحدث الناس عن الحرب، ووازنوا بين القوات والإمكانيات، وانحصرت أنا بعنف فى التماس أسباب الإشباع والاستقرار. نسيت كل شىء إلا هذا الهدف القريب. كأننى فى سباق أو مطاردة. وشجعنى على ذلك جو الأسرة وصداقة سامية الصادقة لى، وإعجابها بالرحالة، وعطفها على أحزانه الطويلة. قلت لنفسى «إنها فتاة كاملة، ولا حياة لى بدونها». وقلت للشيخ الإمام:

- توكلت على الله وقررت أن أتزوج..

فتساءل الشيخ:

- هل عثرت على عروسة؟

فقلت فى حياء:

- انتهت عروسة على أى حال..

- هل وقع اختيارك على أحد؟

فقلت بهدوء:

- مطلبى عندكم!

فابتسم ابتسامة متشجعة وتساءل:

- أتتزوج كرحالة أم مقيم؟

فقلت بصدق:

- لا أظن أن الحلم سيتلاشى..

- كل شئ يتوقف على إرادتها، لم لا تكلمها بنفسك؟

فارتبكت وقلت:

- يستحسن أن تنوب عنى.

فقال بعطف :

ـ ليكن ، إنى أدرك موقفك . .

ـ وتلقيت الموافقة فى اليوم التالى . وكنت متلهفا فاستجابوا لى . إستأجرت شقة فى نفس الشارع . تعاونا على تأثيثها . وتم العقد فى هدوء يناسب ظروف الحرب . وجمعنا بيت الزوجية فسعد قلبى واستعدت توازنى . وجاءت أنباء القتال مشجعة ولكن الحزن شق طريقه إلى قلوب كثيرة وارتفعت أسعار سلع لا حصر لها . واقترح على الشيخ حامد السبكى المشاركة فى محل لبيع التحف والحلى فوافقته بحماس . وكان شريكاى شقيقين مسيحيين ، وكان محلهما يوجد بميدان الفندق . واقتضى العمل أن أبقى فى المحل معهما سحابة النهار فأقبلت على ـ العمل ـ لأول مرة فى حياتى ـ بنشاط محمود . وكانت سامية تمضى نفس الوقت فى المستشفى . وقد قالت لى :

ـ يجب أن تجعل من الحلبة مقامك الدائم ، أتمم رحلتك إذا شئت ولكن لتكن العودة إلى هنا . .

فقلت بصراحة أيضا :

ـ قد أرى أن أرجع إلى وطنى كما رسمت لأنسخ كتابى ولا بأس من الإقامة هنا . .

فقالت بسرور :

ـ فى هذه الحال سأصحبك إلى وطنك فى الذهاب والإياب ، أما الإقامة الدائمة فلن نجد مثل الحلبة فى حضارتها . .

فترددت قليلا ثم قلت :

ـ يخيل إلى أن عملى الجديد سيدر علينا رزقا وفيرا ، ألا يدعوك ذلك إلى التفكير فى الاستقالة من عملك فى المستشفى؟!

فضحكت ضحكة عذبة وقالت :

ـ العمل فى دارنا مقدس للمرأة والرجل على السواء ، عليك أن تفكر من الآن فصاعدا كرجل من رجال الحلبة!

فرنوت إلى بطنها بحنان وقلت :

ـ إنك فى حكم الأم يا سامية . .

فقالت بمرح :

هذا شأنى أنا .

وتجلت الأمومة للعين والصيف يطوى آخر صفحاته ووردت نسائم الخريف مترعة

بالرطوبة وظلال السحب . وكل يوم أكتشف من عالم زوجتى المحبوبة جديدا . إنها معتزة بنفسها فى غير غرور ، مغرمة بالمناقشة ، مؤمنة صادقة وبقوة انشرح لها صدرى . لعل أعجب ما صادفته فى رحلتى هو إسلام الحلبة الذى يستعر التناقض بين ظاهره وباطنه . قالت لى :

ـ الفرق بين إسلامنا وإسلامكم أن إسلامنا لم يقفل باب الاجتهاد ، وإسلام بلا اجتهاد يعنى إسلاما بلا عقل . .

ذكرنى قولها بدروس أستاذى القديم . غير أنى كنت مغرما بالأنثى الكائنة فيها وملاحتها المشبعة لغريزتى المحرومة . طاردت تلك الملاحة بنهم غير مبال بما عداها غير أن شخصيتها كانت أصدق وأقوى من أن تذوب فى ملاحة الأنثى الناضجة . وجدت نفسى وجها لوجه مع ذكاء لماع ، ورأى مستنير ، وطيبة ممتازة . واقتنعت بتفوقها علىّ فى أمور كثيرة فساءنى ذلك ، أنا الذى لم أر فى المرأة إلا متعة للرجل . وخالط ولعى بها حذر وخوف ، ولكن الواقع طالبنى بالتكيف مع الجديد ، وملاقاته فى منتصف الطريق ، حرصا عليه ، وعلى سعادتى المتاحة . وقلت لنفسى :

ـ إنه لسر أن تهبنى نفسها بهذا السخاء ، وإننى لسعيد الحظ حقا !

ومداراة لمخاوفى الدفينة قلت لها مرة :

ـ إنك يا سامية كنز لا يقدر بثمن . .

فقالت لى بصراحة :

ـ وفكرة الرحالة الذى يضحى بالأمان فى سبيل الحقيقة والخير تفتننى كثيرا يا قنديل . .

وذكرتنى بمشروعى النائم . أيقظتنى من سبات الراحة والعسل . من الحب والأبوة والحضارة . وقلت كأنما لأستحث المستنيمة للواقع :

ـ سأكون أول من يكتب عن دار الجبل .

فقالت ضاحكة :

ـ لعلك تجدها أبعد ما يكون عن الحلم .

فقلت بإصرار :

ـ إذن أكون أول من يبدد الحلم . .

وانطوى الخريف وهل الشتاء . ليس برده أقسى من برد وطنى ولكنه غزير الأمطار ولا ترى شمسه إلا فى أوقات نادرة . وتشتد به الرياح وتزمجر ويقصف الرعد هائلا فيحفر أثره فى أعماق النفس . وتحدث الناس عن الحرب التى لا تريد أن تنتهى وشاركتهم فى عواطفهم بصدق فتمنيت أن تنتصر الحرية على الملك الإله وأن يولد وليدى المنتظر فى

أحضان الحرية والأمان. ولحقت سامية بى فى بيتنا ذات مساء عائدة من عملها، متألقة بفرحة أحيت نضارتها التى أضناها الحمل وهتفت:

- أبشر، إنه النصر!

وراحت تخلع معطفها وتقول:

- سلم جيش الحيرة، انتحر الملك الإله، أمست الحيرة والمشرق امتدادا للحلبة، وكتبت الحرية والحضارة لشعوبهما..

انتقلت الفرحة إلى قلبى، غير أن بعض المخاوف المتولدة من تجارب الماضى جعلتنى أتساءل:

- ألا يؤدون ثمن الهزيمة بطريقة ما؟

فقالت بحماس:

- مبادئ المرجع واضحة..، ولم يبق من عقبة قائمة فى طريق الحرية إلا دار الأمان..

فقلت ببراءة:

- إنها على أى حال لم تغدر بكم وأنتم تكابدون حربا طويلة..

فقالت بحدة:

- هذا حق، ولكنها عقبة فى طريق الحرية..

وكان يوم عودة الجيش الظافر يوما مشهودا، خرجت الحلبة رجالا ونساء لاستقباله ورشقه بالزهور رغم برودة الجو وإنهلال المطر. وتواصلت الاحتفالات على جميع المستويات أسبوعا كاملا. وسرعان ما لاحظت - ما بين الطريق ومحل عملى فى ميدان الفندق - أن حالا غريبة، مناقضة للأفراح، تسرى بقوة، وبلا تردد، ولا حذر. تطايرت إشاعات عن عدد القتلى والجرحى مصحوبة بالضيق والأسى. ووزعت منشورات تتهم الدولة بأنها ضحت بأبناء الشعب لا لتحرير شعوب المشرق والحيرة ولكن من أجل مصالح ملاك الأراضى والمصانع والمتاجر، وأنها كانت حرب «قوافل» لا مبادئ. وتلقيت منشورا آخر يتهم أصحاب المنشورات السابقة بأنهم أعداء الحرية وعملاء دار الأمان. ونتيجة لذلك قامت مظاهرات صاخبة تهاجم دار الأمان، وتطعن فى اتفاقية التنازل لها عن عيون الماء. واجتمع الحاكم بمجلس أهل الخبرة وصدر قرار بالإجماع بإلغاء اتفاقية عيون المياه، واعتبار العيون ملكية مشتركة بين الحلبة والأمان كما كان الحال قديما. ومضى الناس من جديد يتحدثون عن حرب جديدة محتملة بين دارى الحلبة والأمان!

وجاء الشيخ السبكى وأسرته للغداء على مائدتى، وجلسنا نتحادث ونتبادل الآراء، وقلت للشيخ كالمحتج:

ـ إذا كان هذا الاضطراب نتيجة لنصر حاسم فكيف كان يكون الحال لو جاء نتيجة لهزيمة؟!

فأجابنى باسما:

ـ هذه هى طبيعة الحرية..

فقلت بصراحة:

ـ إنها تذكرنى بالفوضى!

فقال ضاحكا:

ـ هى كذلك لمن لم يتعامل مع الحرية.

فقلت بمرارة:

ـ ظننتكم شعبا سعيدا ولكنكم شعوب تمزقها الخلافات الخفية..

ـ لا دواء إلا المزيد من الحرية..

ـ وكيف تحكم أخلاقيا على إلغاء اتفاقية عيون المياه؟

فقال بجدية:

ـ كنت أمس فى زيارة للحكيم مرهم الحلبى فقال لى إن تحرير البشر أهم من هذه القشور..

فهتفت:

ـ القشور!.. لابد من الاعتراف بأساس أخلاقى.. وإلا انقلب العالم إلى غابة!

فقالت سامية ضاحكة:

ـ لكنه كان وما زال غابة!

وقال الإمام:

ـ انظر يا قنديل وطنك دار الإسلام فماذا تجد به؟.. حاكم مستبد يحكم بهواه فأين الأساس الأخلاقى؟ ورجال دين يطوعون الدين لخدمته فأين الأساس الأخلاقى؟، وشعب لا يفكر إلا فى لقمته فأين الأساس الأخلاقى؟!

اعترضت حلقى غصة فسكت. وعاودتنى ذكرى الرحلة فسألت:

ـ هل تقوم الحرب قريبا؟

فقالت سامية:

ـ لن تقوم إلا إذا شعر أحد الطرفين بأنه أقوى أو إذا غلبه اليأس.

وتساءلت حماتى:

ـ لعلك تفكر فى الرحلة؟

فقلت باسما :

ـ يجب أن أطمئن أولا على سامية . .

وأنجبت سامية وليدها الأول فى أواخر الشتاء . وبدلا من أن أتأهب للرحيل استسلمت للحياة الناعمة ما بين البيت والمحل . انغمست فى الحلبة ، فى الحب ووفرة الرزق والأبوة والصداقة وكنوز السماء والحدائق التى لا نهاية لحسنها . ما حلمت بشىء أجمل من أن يدوم الحال . وتوالت الأيام حتى صرت أبا لمصطفى وحامد وهشام . على أننى رفضت الاعتراف بالهزيمة ، وكنت أقول لنفسى فى حياء :

ـ آه يا وطنى . . آه يا دار الجبل !

وكنت أسجل بعض الأرقام فى دفتر الحسابات بمحل التحف عندما وجدت أمامى عروسة ! . ليس حلما ما أرى ولا وهما ! . هى عروسة ترفل فى وزرة قصيرة ومطرف مطرز بالآلىء مما ترتديه نساء الطبقة المحترمة فى فصل الصيف . لم تعد شابة ، ولا منطلقة عارية ، ولكنها ما زالت متوجة بجمال وقور محتشم . كأنها معجزة انبثقت من المستحيل . كانت تقلب بين يديها عقدا من المرجان وأنا أتطلع إليها فى ذهول . وحانت منها التفاتة إلىّ فالتصقت عيناها بوجهى وهما يتسعان ونسيت نفسها كما نسيت نفسى . ناديت مبتهلا :

ـ عروســة !

فرددت بذهول :

ـ قنــديل !

وترامقنا حتى قررنا فى وقت واحد أن نفيق من ذهولنا وأن نرجع إلى الواقع . قمت إليها فتصافحنا متناسين ما حل بشريكى من دهشة . وسألتها :

ـ كيف حالك؟

ـ لا بأس ، كل شىء طيب . .

ـ مقيمة هنا فى الحلبة؟

ـ منذ تركت الحيرة!

وبعد تردد سألت :

ـ وحــدك؟

ـ متزوجة من رجل بوذى ، وأنت؟

ـ متزوج وأب .

ـ لم أنجب أطفالا . .

ـ أرجو أن تكونى سعيدة . .

ـ زوجى رجل فاضل وتقى وقد اعتنقت دينه . .

ـ متى تزوجت؟

ـ منذ عامين . .

ـ يئست من العثور عليك . .

ـ إنها مدينة كبيرة .

ـ وكيف كانت حياتك قبل الزواج؟

فلوحت بيدها بامتعاض وقالت :

ـ كان عام معاناة وعذاب !

فتمتمت :

ـ يا لسوء الحظ . .

فقالت باسمة :

ـ الختام حسن . . سنقوم برحلة إلى دار الأمان ، ومنها إلى دار الجبل ، ثم نسافر إلى الهند . .

فقلت بحرارة :

ـ لتحل بك بركة الله فى كل مكان !

ومدت لى يدها فتصافحنا ، وتناولت مشتراها ، ثم ذهبت بسلام . وجدت نفسى مطالبا بإلقاء ضوء على الموقف أمام شريكى ، وواصلت عملى كاتما انفعالاتى ، مع اعتقاد راسخ بأن كل شىء قد انتهى . واعترفت لسامية بما كان ، وببساطة ولا مبالاة . ولم أخل من شعور بالإثم إزاء ما أضطرم به صدرى من اهتمام زائد . اهتز اهتزازة عنيفة وتفجرت من جدرانه ينابيع أسى وحنين ، وغمرته دفقات حارة من الماضى حتى أغرقته . ولا أستبعد أن الحب القديم رفع رأسه ليبعث من جديد ولكن الواقع الجديد كان أثقل وأقوى من أن تعبث به الرياح ، غير أن الرغبة الكامنة فى الرحلة استيقظت فى روعة ووثبت إلى المقدمة متطلعة إلى الغد بإرادة صلبة لا تلين . وخشيت أن أندفع إلى تنفيذها فأجلب على نفسى الظنون ، فاتخذت قرارا بتأجيلها عاما ، على أن أمهد لها فى أثناء العام بما يهيىء الأنفس لتقبلها .

وقد كان .

وأذنت لى زوجتى المحبوبة بلا حماس وبلا فتور . ووكلت عنى الشيخ الإمام ليحل

محلى فى التجارة لحين عودتى ، وخصصت للرحلة من الدنانير ما يوفر لى حياة كريمة .
ووعدت بالعودة إلى الحلبة عقب الرحلة ، على أن أصطحب زوجتى وأبنائى إلى دار الإسلام فأنسخ كتاب الرحلة وألقى الباقين على قيد الحياة من أهلى ، ثم نرجع إلى الحلبة .

وأشبعت أشواقى من سامية ومصطفى وحامد وهاشم ، وتركت زوجتى وهى تستقبل فى جوفها حياة جديدة . .

دار الأمـــان

تحركت القافلة تشق ظلمات الفجر ، مستقبلة طلائع الصيف . الشيخ السبكى قال لى عن جو دار الأمان :

ـ شتاؤها قاتل ، خريفها قاس ، ربيعها لا يحتمل ، فعليك بالصيف .

وكالعادة ذكرتنى القافلة بالأيام الماضية ولكنى أمسيت كهلا يتأثر بقدر . وشعشع ضوء النهار فكشف صحراء جديدة ، كثيرة التلال ، تحد جوانبها وديان منخفضة وتنتشر بأرجائها نباتات شوكية كالقنافذ تتميز بخضرتها اليانعة ووحشيتها المثيرة . . وبعد أسابيع من السير بلغنا منطقة مياه العيون ، وهى كثيرة ، ولكنها لا تبرر نذر الحرب التى تهدد بها سلام دارين كبيرتين كالحلبة والأمان . وتواصل السير فى أرض آخذة فى الارتفاع التدريجى حتى عسكرنا فى هضبة النسر ، وقال قائد القافلة :

ـ سوف نتحرك عند منتصف الليل لنصل فجرا إلى سور دار الأمان .

وواصلنا السير فى جو لطيف حتى تراءى لنا السور العظيم على ضوء المشاعل .
ووقفنا أمام البوابة . تقدم منا رجل بين حاملى المشاعل وصاح بصوت غليظ :

ـ أهلا بكم فى الأمان عاصمة دار الأمان ، أهلا بكم فى دار العدالة الشاملة !

وصمت الرجل دقيقة ثم قال :

ـ سيذهب التجار مع مرشد إلى المركز التجارى أما الرحالة فيذهبون إلى مركز السياحة .

لم أذهب إلى فندق مباشرة كما فعلت فى المشرق والحيرة والحلبة ولكنى تبعت المرشد إلى دار رسمية صغيرة متينة البنيان ، نظيفة ، تقوم فى رعاية حراس مسلحين ، واقتدت إلى حجرة مضاءة بالمشاعل يتصدرها موظف وراء مكتب ، وعلى جانبيها حارسان كأنهما تمثالان . مثلت أمامه فسألنى عن اسمى ، وعمرى ، وما أحمل من دنانير ، وعن تاريخ رحلتى والهدف منها . ولذت بالصدق المطلق فقال الرجل :

ـ سأعتبرك من أهل الحلبة بعد أن تقبلتها داراً للعمل والاقامة الزوجية .

فلم اعترض ، فقال :

ـ سنسمح لك بإقامة عشرة أيام وهى كافية لما يريده السائح .

فسألت :

ـ وإذا طابت لى الاقامة ورغبت فى مدها؟

فى تلك الحال تقدم طلبا برغبتك لننظر فيه ، ونقرر قبوله أو رفضه .

فأحنيت رأسى راضيا مخفيا فى الوقت نفسه دهشتى ، فرجع يقول :

ـ وسنعين لك مرافقا ملازما . .

فسألته :

ـ هل يعرض علىَّ لأقبله أو أرفضه؟

ـ بل هو نظام متبع لا مفر منه لخير الغرباء!

وصفق بيديه فدخل الحجرة رجل قصير فى الستين يرتدى نفس الملابس المكونة من سترة كأنها جبة قصيرة ووزرة تصل إلى الركبتين وصندل وطاقية كأنها خوذة من قطن أو كتان . قال الموظف وهو يردد رأسه بيننا :

ـ قنديل محمد العنابى سائح . . فلوكة مرشدك ومندوب مركز السياحة .

وغادرنا المركز وفلوكة يتبعنى صامتا كأنه ظلى وقد سلبنى روح المغامرة والحرية . وخطا خطوة واسعة فصار إلى جانبى فخضنا الظلام معا مستأنسين بأضواء النجوم ومشاعل حراس الأمن . قال باقتضاب :

ـ نحن فى الطريق إلى الفندق . .

ومن خلال ميدان مربع اقتربنا من الفندق الذى لاح على ضوء المشاعل فخما عظيما لا يقل روعة عن فندق الحلبة . أما الحجرة فكانت أقل فى المساحة وأكثر بساطة ولكن لا ينقصها شىء من أسباب الراحة ، كما كانت بالغة النظافة . ولاحظت وجود سريرين بها جنبا إلى جنب فتساءلت بقلق :

ـ ما معنى وجود السرير الآخر؟

فأجاب فلوكة بهدوء :

ـ إنـه لى . .

فسألته باحتجاج لم أعن بإخفائه :

ـ أتنام معى فى حجرة واحدة؟

ـ طبعا ، ما معنى أن نشغل حجرتين إذا كان يكفى أن نشغل حجرة واحدة؟

فقلت باستياء :

ـ قد يطيب لى أن أنفرد بحجرة!

فقال دون أن يخرج عن هدوئه :

ـ ولكن هذا هو النظام المتبع فى دارنا!

فتساءلت متذمرا :

ـ إذن لن أحظى بالحرية هنا إلا فى دورة المياه .

فقال ببرود :

ـ ولا هذه أيضا!

ـ أتعنى ما تقول حقا؟

ـ لا وقت لدينا للهذر .

فقطبت هاتفا :

ـ الأفضل أن ألغى الرحلة .

ـ لن تجد قافلة قبل مرور عشرة أيام .

وراح يغير ملابسه ويرتدى جلباب النوم ومضى نحو سريره وهو يقول :

ـ كل شيء هنا جديد فهو غير مألوف فتحرر من أسر العادات السيئة . .

وانهزمت أمام الواقع فغيرت ملابسى وركنت إلى فراشى ، وهرب منى النوم طويلا من شدة الانفعال حتى غلبنى التعب .

ومع الصباح بدأ الحرج ، غير أنى أمر على الأشياء مر الكرام ثم قادنى فلوكة إلى بهو الطعام فجلسنا إلى مائدة صغيرة وتناولنا فطورا من اللبن والفطائر والبيض والفاكهة المسكرة ، وهو يمتاز بالجودة والكفاية فالتهمته تاركا قدحا صغيرا من الخمر لم أمسه . قال لى فلوكة :

ـ ستقدم الخمر مع كل وجبة وهى ضرورية .

فقلت بإصرار :

ـ لا حاجة بى إليها .

فقال بهدوئه الملازم :

ـ عرفت كثيرين من المسلمين يدمنونها .

فابتسمت ولم أعلق فقال متسائلا :

ـ أتصدق حقا أن إلهك يهمه أن تشرب خمرا أو لا تشربها؟

ولما رأى تغير وجهى قال برقة:

- معــذرة!

وغادرنا الفندق معا للقيام بجولتنا السياحية الأولى. ألقيت نظرة شاملة ثم ارتد إلىّ طرفى فيما يشبه الخوف. هالنى الخلاء. الميدان وما يتفرع عنه من شوارع، كلها خالية، لا أثر فيها لإنسان. مدينة خالية، مهجورة، ميتة. إنها بالغة فى نظافتها وأناقتها وحسن هندامها، فى عمائرها الضخمة، وأشجارها الباسقة، ولكن لا أثر للحياة بها. نظرت إليه منزعجا وسألته:

- أين الناس؟

فأجاب بهدوئه المثير:

- إنهم فى أعمالهم، نساء ورجالا..

فسألته بدهشة:

- ألا توجد امرأة غير عاملة؟.. ألا يوجد عاطل؟

- الجميع يعملون، ولا يوجد عاطل، لا توجد امرأة غير عاملة، أما العجائز والأطفال فسوف تراهم فى حدائقهم.

فقلت غير مصدق:

- الحلبة تموج بالنشاط ولكن شوارعها تكتظ دائما بالناس.

فتفكر مليا وقال:

- نظامنا لا شبيه له بين النظم، كل فرد يعد لعمل ثم يعمل، وكل فرد ينال أجره المناسب، الدار الوحيدة التى لا تعرف الأغنياء والفقراء، هنا العدل الذى لم تستطع دار أخرى أن تحقق جزءا منه.

وأشار إلى العمائر ونحن ننتقل من شارع خالى إلى آخر:

- انظر، كلها عمائر عظيمة ومتشابهة، لا توجد سرايات ولا دور منفردة، ولا عمائر عظيمة وأخرى متوسطة، الفروق فى الأجور يسيرة، الجميع متساوون إلا من يميزه عمله، وأقل أجر يكفى لإشباع ما يحتاجه الإنسان المحترم من مأوى وغذاء وكساء وتعليم وثقافة وتسلية أيضا.

عز علىّ التصديق، وقلت ما هو إلا كلام يحفظه عن ظهر قلب، غير أن منظر الشوارع والعمائر راعنى، إنها لا تقل فى هندستها عن الحلبة نفسها. ومضى بى فلوكة إلى حديقة مترامية، يبلغها القاصد فوق جسر كبير مقام على نهر عريض. لم أشهد حديقة فى اتساعها وتنوع أشجارها وأزهارها. قال فلوكة:

ـ إنها حديقة من طعن بهم السن فيما وراء مرحلة النشاط والعمل .

رأيت الطاعنين فى السن من الجنسين، يجدون فى الحديقة مرتادا للنزهة، وملاعب رياضية خفيفة، ومجالس للسمر والغناء.

ـ فى كل مدينة حديقة مماثلة . .

قال ذلك فى ارتياح ومباهاة فقلت لنفسى إنه نظام حسن ورعاية إنسانية لم أجد لها مثيلا فى الدور السابقة. ولفت نظرى كثرة المعمرين ممن جاوزوا الثمانين على أقل تقدير، ولم أخف هذه الملاحظة عن فلوكة فقال من فوره :

ـ يمتاز الغذاء عندنا بوفرة عناصره الغذائية الأصلية مع تجنب الترف، وممارسة الألعاب الرياضية فى أوقات معينة خلال ساعات العمل .

ومن طرائف ما شاهدت فى الحديقة عروسين يقضيان شهر العسل، أرمل وأرملة فى الحلقة الثامنة، وكانا يجلسان على شاطئ بحيرة صناعية مدليين ساقيهما فى مائها المكتسى بلون أخضر بما ينعكس على سطحه من أوراق الشجر التى تحنو فوقه. واستأنست بالبشر فمكثت فى الحديقة مدة طويلة حتى قال لى فلوكة :

ـ آن لنا أن نزور حديقة الأطفال .

وكان يفصل بينها وبين حديقة العجائز ميدان متسع يكفى لأن تنشأ فيه مدينة صغيرة وترامت إلينا أصوات الصغار ونحن نقترب منها، وكانت مترامية الأطراف كأنها دار مستقلة، مكتظة بسكانها ما بين الطفولة والصبا، وبها ملاعب لا حصر لها، وأركان للدراسة والتربية، ومربون ومربيات، فسألت صاحبى :

ـ أهى للهو أم للتربية؟

فأجاب :

ـ للاثنين معا، وهنا نكتشف المواهب المختلفة، ويتوجه كل بحسب استعداده، وكما يرسم له، وينوب المربون والمربيات عن الآباء والأمهات المنهمكين فى أعمالهم .

فقلت ببراءة :

ـ ولكن لا شىء يعوض عن حنان الوالدين . .

فقال فلوكة بهدوء :

ـ حكم وأمثال لم يعد لها معنى فى دار الأمان .

لم يتسع النهار لزيارات جديدة فتناولنا الغداء فى الفندق وكان مكونا من شواء وقرنبيط وخبز وتفاح، ومضى بى إلى الميدان الكبير قبيل الغروب، وقفنا تحت شجرة حور وهو يقول :

ـ آن لك أن ترى أهل الأمان . .

كان ثمة أربعة شوارع كبيرة تصب فى الميدان ، ومع الغروب تجلت بشائر البشر كأنها ساعة البعث ، وسرعان ما راح كل شارع يقذف بجموع لا يحيط بها الحصر من النساء والرجال ، لكل طائفة زى بسيط واحد كأنها فرقة جيش ، ورغم أمواجهم المتتابعة الهادرة تقدموا فى نظام ، لا يند عنهم أكثر من همس ، بوجوه جادة ومرهقة ، وخطى مسرعة ، كل إلى هدفه يسير ، للقادمين جانب وللذاهبين جانب ، لا اضطراب ولا مرح أيضا ، صورة مجسدة للمساواة والنظام والجدية أثارت إعجابى بقدر ما بعثت فى القلق والحيرة . وبلغ الزحام ذروته ثم مضى يخف وئيدا ولكن دون توقف حتى استعاد الخلاء مملكته الشاملة مع هبوط الظلام .

سألت فلوكة :

ـ إلى أين؟

ـ المساكن!

ـ ثم يرجعون كرة أخرى للسهر ؟

ـ بل يبقون حتى الصباح ، أما الملاهى فتبعث فيها الحياة ليلة العطلة الأسبوعية . .

فسألت بقلق :

ـ أيعنى هذا أن ليالينا ستقضى فى الفندق؟

فقال دون مبالاة :

ـ فى فندق الغرباء ملهى تجد فيه ما تشاء من شراب ورقص وغناء .

وقد سهرنا به ليلتنا ، فشهدت رقصا غريبا وسمعت غناء جديدا ، وبعض الألعاب السحرية ، ولكنها لم تكن مختلفة اختلافا جذريا عما شهدت وسمعت فى الحلبة .

وفى اليوم التالى زرنا مصانع ومتاجر ومراكز للتعليم والطب . الحق أنها لم تكن تقل عن أمثالها فى الحلبة عظمة ونظاما وانضباطا ، واستحقت دائما إعجابى وتقديرى وهزت عقيدتى الراسخة فى تفوق دار الإسلام فى الحضارة والانتاج ، غير أنى لم أرتح لتجهم الوجوه وصلابتها وبرودها المخيم ، هذه السجايا التى جعلت من مرافقى فلوكة شخصا لا غنى عنه ولا مسرة فيه .

وزرنا قلعة تاريخية جليلة الشأن حليت جدرانها بالنقوش والصور .

قال فلوكة :

ـ فى هذه القلعة دارت آخر معركة انتهت بهزيمة الملك المستبد وانتصار الشعب .

ومضى بى إلى بناء ضخم كالمعبد وهو يقول :

- إليك محكمة التاريخ، هنا حوكم أعداء الشعب وقضى عليهم بالموت.

فسألته عمن يعنى بأعداء الشعب. فقال:

- ملاك الأرض وأصحاب المصانع والحكام المستبدون!.. لقد انتصرت الدولة بعد حرب أهلية طويلة ومريرة.

وتذكرت ما أخبرنى به أستاذى الشيخ مغاغة الجبيلى من أنه لم يستطع أن يواصل رحلته بسبب نشوب حرب أهلية فى دار الأمان. وتذكرت أيضا تاريخ الحلبة الدامى فى سبيل الحرية. وهل كان تاريخ الإسلام فى دارنا دون ذلك دموية وآلاما؟.. فماذا يريد الإنسان؟.. وهل هو حلم واحد أو أحلام بعدد الدور والأوطان؟.. وهل حقا وجد الكمال بدار الجبل؟!

وسألنى فلوكة:

- هل تمضى الليلة فى الملهى كأمس؟

فأعلنت عن فتورى بالصمت فقال مشجعا:

- غدا تحتفل الدار بعيد النصر، وهو يوم مشهود!

وتناولنا العشاء ثم جلسنا فى بهو المدخل بالفندق نتلقى نسائم الصيف اللطيفة. وقلت لفلوكة:

- إنى رحالة كما ترى، وقد جرت العادة فى بلادى أن يسجل الرحالة أنباء رحلته، وعلى ذلك تلزمنى معلومات كثيرة لا تكفى المشاهدة الإلمام بها:

فأصغى إلى بهدوء دون أن ينبس فقلت:

- يهمنى أن أجتمع بحكيم من حكماء داركم فهل تستطيع أن تحقق لى رغبتى؟

فأجاب:

- حكماء دار الأمان مستغرقون بواجباتهم ولكننى أستطيع أن أمدك بما تشاء من معلومات!

فهضمت خيبتى بسرعة مصمما على خوض التجربة. قلت.

- أريد أن أعرف نظامكم السياسى، كيف تحكمون؟

فأجاب دون تردد:

- لنا رئيس منتخب، تنتخبه الصفوة التى قامت بالثورة، وهى تمثل صفوة البلدان جميعا من علماء وحكماء ورجال الصناعة والزراعة والحرب والأمن، ويتولى منصبه بعد ذلك مدى الحياة، ولكنهم يعزلونه إذا انحرف!

ذكرنى ذلك بنظام الخلافة فى دار الإسلام ولكنه ذكرنى أيضا بمآسى تاريخنا الدامى فسألته:

- ما هى صلاحياته؟

- إنه المهيمن على الجيش والأمن والزراعة والصناعة والعلم والفن، إذ أن الدولة عندنا هى صاحبة كل شىء، والرعايا موظفون كل يعمل فى حقله لا فرق فى ذلك بين الكناس والرئيس . .

ألا يعاونه أحد؟

- مستشاروه، والصفوة التى انتخبته، ولكنه صاحب الرأى الأخير، ولذلك فنحن فى مأمن من الفوضى والتردد .

فترددت قليلا ثم قلت :

- ولكنه أقوى من أن يحاسب إذا انحرف؟

فخرج من بروده لأول مرة وقال بحدة :

- القانون هنا مقدس!

ثم مواصلا قبل أن أنبس :

- انظر إلى الطبيعة، أساسها القانون والنظام لا الحرية!

- ولكن الإنسان من دون الكائنات يتطلع دائما إلى الحرية . .

- إنه صوت الشهوة والوهم، لقد وجدنا أن الإنسان لا يطمئن قلبه إلا بالعدل فجعلنا من العدل أساس النظام، ووضعنا الحرية تحت المراقبة .

- أهذا ما يأمر به دينكم؟

- نحن نعبد الأرض باعتبارها خالق الإنسان ومدخر احتياجاته .

- الأرض؟!

- وهى لم تفعل لنا شيئا ولكنها خلقت لنا العقل وفيه الغنى عن أى شىء آخر .

ثم واصل بكبرياء :

- دارنا هى الدار الوحيدة التى لن تصادفك فيها أوهام أو خرافات!

استغفرت الله فى سرى طويلا . قد يجد الإنسان لوثنية دار المشرق عذرا، ومثلها دار الحيرة، ولكن دار الأمان بحضارتها الباهرة كيف تعبد الأرض؟ . . وكيف تبوئ عرشها رجلا منها فتنزله منزلة الملك الإله؟ . . إنها دار عجيبة . أثارت إعجابى لأقصى حد، كما أثارت اشمئزازى لأقصى حد . ولكن ساءنى أكثر ما آل إليه حال الإسلام فى بلادى، فالخليفة لا يقل استبدادا عن حاكم الأمان، وهو يمارس انحرافاته علانية، والدين نفسه تهرأ بالخرافات والأباطيل، أما الأمة فقد افترسها الجهل والفقر والمرض، فسبحان الذى لا يحمد على مكروه سواه . ونمت ليلتها مرهقا ورأيت أحلاما مزعجة . وأشرق يوم

العيد. ولما كان يوم عطلة عامة فقد تبدت العاصمة حية دافئة طيلة النهار. وقادنى فلوكة إلى ميدان القصر. رأيت القصر قلعة منيفة، وتحفة معمارية لا نظير لها، يمتد أمامه ميدان هائل يتسع لألوف الألوف من البشر. اتخذنا موقعا وسطا وأخذ الناس يتوافدون ويقفون فى نظام صفوفا صفوفا فوق محيط الدائرة. تفرس فى الوجوه بحب استطلاع شديد. يا لهم من صور مكررة فى الملابس واللون والوزن. بشرة لم تلفحها شمس محرقة، وقامات قوية ونحيلة معا، ووجوه أشرقت بالابتسام تحية للعيد رغم تجهمها الدائم فيما عدا ذلك من أيام. جمال الوجوه فى الحلبة أرفع درجة بلا شك ولكن المساواة هنا تدعو للعجب، ولذلك تقرأ فى الأعين طمأنينة راسخة وشيئا غامضا ينذر بالخمول.

ونفخ فى بوق إيذانا ببدء الاحتفال.

ومن أقصى نقطة فى محيط الدائرة المواجهة للقصر تقدم موكب حاملات الورود، من فتيات متألقات بالشباب، يسرن فى أربعة صفوف نحو القصر، ثم وقفن فى طابورين متقابلين أمام مدخله الكبير. واندفعت الجموع تردد نشيدا واحدا، فى قوة مؤثرة وجمال أيضا. تصاعد الصوت فى انسجام جامعا الحشود فى لحظة وجدانية واحدة، مستوحاة من ذكريات حميمة مشتركة. وانتهى بتصفيق حاد استمر دقيقتين. ومسنى فلوكة بكوعه وهمس فى أذنى:

ـ الرئيس قادم.

نظرت نحو القصر فرأيت جماعة تتقدم من أعماق باهتة، وكلما تقدمت وضحت معالمها. الرئيس يتقدم تتبعه جماعة من الصفوة الحاكمة. وراح يمشى بحذاء محيط الدائرة ليتبادل التحيات مع الجموع عن كثب. ولما مر أمامى لم يكن يفصله عن موقفى أكثر من أشبار. رأيته متوسط الطول مفرطا فى البدانة غليظ القسمات واضحها. ولم تكن حاشيته دونه فى البدانة فلفت ذلك انتباهى بشدة، وأيقنت أن الرئيس ورجاله يحظون بنظام غذائى خاص يشذ عما تخضع له جموع الشعب. وتخيلت ما يمكن أن يدور بينى وبين فلوكة من حوار عن ذلك. سيقول لى إن نظام الأمان لا يخلو من امتيازات يخصون بها الأفراد تبعا لتفوقهم فى العلم والعمل، وأنه من الطبيعى أن يكون على رأس هؤلاء الرئيس المنتخب ومعاونوه. وأن هذه الامتيازات تمنح فى حدود ضيقة لا تسمح بوجود فوارق طبقية ولأسباب معقولة لا صلة لها بامتيازات الأسر والقبائل والطبقات فى المجتمعات الأخرى التى يسودها الظلم والفساد. والحق أنى لم أجد فى ذلك ما يخرق القانون العادل السائد فى دار الأمان، ولم أجد به وجه شبه بما يجرى فى الدور الأخرى وعلى رأسها دار الإسلام نفسها من تفاوت فاحش ظالم فى معاملة الناس. وخطر لى أنى أرى الأمور بوضوح أكثر من ذى قبل. أجل، إن لدار الحلبة هدفا

وقد حققته بدقة، وإن كذلك لدار الأمان هدفا وقد حققته بدقة، أما دار الإسلام فهى تعلن هدفا وتحقق آخر باستهتار وبلا حياء وبلا محاسب، فهل يوجد الكمال حقا فى دار الجبل؟!

رجع الرئيس إلى منصة أمام القصر فصعد إليها. ومضى يخطب شعبه، عارضا عليه تاريخ ثورته، وموقعة نصره، وما أنجز له فى مجالات حياته المختلفة. ركزت على متابعة العواطف المتبادلة بين الرجل والناس، فلم أشك فى حماسهم، وتلاقيهم فى آمال واحدة، ورؤية متماثلة. ليسوا بالأمة المقهورة المغلوبة على أمرها، ولا الفاقدة الوعى والتربية، لعل ما ينقصها شىء هام، لعل سعادتها تشوبها شائبة، رأيتها أمة متماسكة وذات رسالة لا تخلو من إيمان من نوع ما.

عندما انتهى الرئيس من خطابه اخترقت الميدان ثلة من الفرسان شاهرة رماحها، وقد غرست فى أسنة الرماح رءوس آدمية منفصلة عن أجسادها. غاص قلبى من فظاعة المنظر، ونظرت نحو فلوكة، فقال باقتضاب:

- خونة متمردون!

لم يتسع الوقت للحوار. وعاد الشعب يردد النشيد، وانتهى الاحتفال بهتاف شامل.

وعدنا إلى الفندق لتناول الغداء. وفى أثناء ذلك قال فلوكة:

- أزعجك منظر الرءوس المقطوعة؟.. ضرورة لا مفر منها، نظامنا يطالبنا بألا يتدخل إنسان فيما لا يعنيه وأن يركز كل فرد على شئونه، فالمهندس لا يجوز أن يثرثر فى الطب، والعامل لا يجوز أن يخوض فى شئون الفلاح، والجميع لا شأن لهم بالسياسة الداخلية أو الخارجية، ومن تمرد على ذلك فجزاؤه ما رأيت!

أدركت أن الحرية الفردية عقوبتها الإعدام فى هذه الدار، واعترتنى لذلك كآبة شديدة، وحنقت على فلوكة لإيمانه المتعصب بما يقول.

وسهرنا ليلا فى سيرك كبير اكتظ بالناس، وشهدنا من أفانين الألعاب والغناء والرقص ما يسلى ويسر، وتناولنا عشاء من الشواء والفواكه، وشرب فلوكة، ودعانى للشرب، ولما لم أستجب اضطر إلى الاعتدال وهو كظيم. وغادرنا السيرك عند منتصف الليل، وسرنا على مهل تحت ضوء القمر فى شوارع معمورة بالمترنحين. وطاب لى الحديث فقلت:

- ما أجمل لهوكم!

فقال باسما لأول مرة إما لمناسبة العيد أو الخمر.

- وما أجمل جدنا!

ورآنى أبتسم فلم يرتح لابتسامتى وقال:

- أترى الحياة فى وطنك الأول أو وطنك الثانى خيرا من حياة الأمان؟

فقلت بمرارة:

- دع وطنى الأول فأهله خانوا دينهم.

فقال بخشونة:

- إذا لم يتضمن النظام الوسيلة لضمان تطبيقه فلا بقاء له.

- إننا لم نفقد الأمل بعد.

- إذن لم كانت الرحلة إلى دار الجبل؟

فقلت بفتور:

- العلم نور..

فقال ساخرا:

- ما هى إلا رحلة إلى لا شىء..

وتتابعت الأيام مضجرة. وأخذ الناس فى الفندق يتحدثون عن العلاقة بين الحلبة والأمان بنبرة إشفاق وتشاؤم. وسألت فلوكة عما يكمن وراء ذلك فقال:

- فى حربهم مع الحيرة تظاهروا بالاعتراف بحقنا فى عيون المياه، ولما انتصروا سحبوا اعترافهم بكل خسة ودناءة، واليوم يقال إنهم يجندون جيشا من البلدين اللتين استولوا عليهما، المشرق والحيرة، وهذا يعنى الحرب.

واستحوذ علىَّ القلق فسألته:

- وهل تقوم الحرب حقا؟

فأجاب ببرود:

- نحن على أتم استعداد..

فحام فكرى حول سامية والأبناء، وتذكرت مأساة عروسة وأبنائها. وانتظرت على لهف انتهاء الأيام العشرة. ومر يوم ويوم دون حدث فاطمأن قلبى وأخذت أستعد للرحيل. وفى تلك الآونة خطر لى أن أسأل فلوكة عن الرحالة البوذى وزوجته عروسة اللذين زارا الأمان منذ عام فأكد لى أنه يمكن أن يمدنى بمعلومات عنهما عندما نذهب إلى المركز السياحى فى آخر أيام الاقامة. وأنجز الرجل وعده، وراجع الدفاتر بنفسه، وقال لى:

- مكث الزوجان فى دار الأمان عشرة أيام ثم سافرا فى القافلة الذاهبة إلى دار الغروب، غير أن الزوج مات فى الطريق ودفن بالصحراء أما الزوجة فواصلت رحلتها إلى دار الغروب.

هزنى الخبر، وتساءلت عن مكان عروسة وحالها، وهل أجدها فى دار الغروب أو تكون رحلت إلى دار الجبل أو رجعت إلى المشرق؟!

وعند الفجر كنت ومتاعى فى محط القافلة. صافحت فلوكة وقلت له:

ـ أشكر لك مرافقتك لى الطيبة وما أسديته إلى من فوائد.

فشد على يدى صامتا. ثم همس فى أذنى:

ـ قامت الحرب بين الحلبة والأمان.

اضطربت لدرجة منعتنى من الاستمرار فى الكلام. حتى البادئ بالحرب لم أسأل عنه.

وهيمنت على ذكريات سامية والأبناء، وحتى الوليد المنتظر.

دار الغـــروب

انغمست القافلة فى ظلمات الفجر وأنا أنظر إلى لا شىء بقلب مشحون بالقلق. لم يكتب لى أن أرحل مرة بقلب مطمئن ونفس صافية ولكن تغشانى دائما المخاوف. خيالى المحموم يحوم حول الحلبة داعيا بالسلامة لسامية ومصطفى وحامد وهشام، متسائلا فى حيرة عن نتيجة ذلك الصراع الدامى بين أقوى دارين. ورفعت بصرى إلى حديقة السماء المزهرة وغمغمت «كن معنا يا إله السماوات والأرض». وأشرقت الأرض بنور ربها فرأيت صحراء مترامية مستوية وجوا صيفيا حنونا، كما رأيت الغزلان تثب هنا وهناك حتى أطلقت عليها صحراء الغزلان. وامتد السفر شهرا فعانينا عناء غير ذى عنف يبشر بالحسنى. وفى هزيع من الليل بشرنا صوت بأننا بلغنا حدود دار الغروب. وكان القمر نصفا، والجو مفضضا ولكنى لم أر سورا، ولا مندوب الجمرك. وقال صاحب القافلة ضاحكا:

ـ هذه دار بلا حراس فادخلوها بسلام آمنين..

فسألته:

ـ وكيف أعرف السبيل إلى فندق الغرباء؟

فقال وهو يواصل الضحك:

ـ سينبئك نور النهار بما تسأل عنه..

وانتظرت مشوقا حتى أشرقت الشمس. لعلها أجمل شمس عرفتها فى حياتى، فهى

نور بلا حرارة أو أذى، يزفها نسيم عليل ورائحة طيبة. وترامت أمامى غابة غير محدودة. ولكن لم يقع بصرى على بناء، كوخ أو بيت أو قصر، كما لم أشاهد أحدا من الناس. لغز جديد علىّ أن أكتشفه ولكن ماذا أصنع بمتاعى؟ ورجعت إلى صاحب القافلة فقال:

- ضعه فى مكانه ولا تخف، اذهب آمنا وعد آمنا.

واخترت موضعا قريبا من عين الماء فجعلتها علامة، ووضعت الحقائب، وأودعت الدنانير حزاما تمنطقت به تحت الجلباب. ورحت أتجول مستكشفا. أسير فوق أرض معشوشبة، نثرت على أديمها أشجار النخيل والفاكهة، تتخللها عيون مياه وبحيرات. وخيل إلى فى أول الأمر أنها خالية من البشر، حتى رأيت أول آدمى متربعا تحت نخلة، كهلا أبيض الشعر مرسل اللحية، صامتا وناعسا أو غائبا، متوحدا بلا قرين أو قرينة، فدنوت منه كأنى عثرت على كنز وقلت له:

- السلام عليك يا أخى..

ولكن لم يبد عليه أنه سمعنى فكررت السلام وقلت:

- إنى رحالة وفى حاجة إلى كلمة تضىء لى الطريق.

فلم تند عنه نأمة وظل غائبا فى ملكوته فسألته:

- ألا تريد أن تتحدث معى؟

فلم يظهر عليه أى رد فعل وكأنما لا وجود لى فآيسنى منه، فتحولت عنه مرغما وواصلت السير. وكلما أوغلت صادفنى آخر على مثل حاله، رجل أو امرأة، فأبذل المحاولة من جديد ولا ألقى إلا الرفض أو التجاهل، حتى خيل إلىّ أنها غابة من الصم البكم العمى. ألقيت نظرة شاملة مفتونة على الجمال من حولى وغمغمت «إنها جنة بلا ناس». تناولت من الفواكه الساقطة على الأرض حبات حتى شبعت، ثم رجعت إلى متاعى فرأيت التجار وهم يملئون أجولتهم بالفاكهة بلا حساب ولا رقيب. ولما رآنى صاحب القافلة ضحك وقال:

- هل استطعت أن تستنطق أحدا منهم؟

فحركت رأسى بالنفى فقال:

- إنها جنة الغائبين، لكن خيراتها مبذولة بلا حساب.

فسألته باهتمام:

- ماذا تعرف عنهم؟

فقال دون مبالاة:

- يوجد فى الغابة شيخ يقصده القاصدون فلعله يمدك بما تسأل عنه . .

فأحيا أمل الرحالة من جديد فقلت له وأنا ثمل بنشوة فوز :

- ما أجمل جو الصيف ها هنا .

فقال الرجل :

- هكذا جميع الفصول!

ونهضت مع الشمس نشيطا متفائلا فسمعت أحد التجار يقول :

- سنظل نذهب ونجىء ما بين الأمان والغروب حتى تنتهى الحرب وتفتح الطرق للقوافل من جديد .

وانطلقت إلى عمق الغابة أتقدم ساعات بلا توقف حتى ترامى إلىَّ صوت غناء جماعى . اتجهت نحو الصوت حتى تراءى لعينى منظر جماعة من نساء ورجال تجلس فوق الأرض على هيئة هلال ، بين يدى شيخ هرم يتخذ مجلسه تحت شجرة وارفة ، وكأنه يعلمهم الغناء وهم يرددون الصوت فى حنان بالغ . جعلت أقترب حتى قبعت وراءهم ، ونظرت إلى الرجل فرأيت شيخا عاريا إلا مما يستر العورة كأن هالة من نور تحدق بوجهه الوضىء وعينيه الجذابتين . وختم الغناء ، أو الدرس ، فقام الرجال والنساء وتفرقوا فى هدوء . لم تكن عروسة بين النساء ، ولم أعثر عليها أمس ولكن رائحتها كانت تخالط فى الجو روائح الفاكهة والأعشاب الخضراء . لم يبق فى المكان إلا الشيخ وأنا . وقفت فى خشوع بين يديه فنظر إلىّ بعينيه الصافيتين فشعرت بأننى موجود . تلاشت الغربة التى خنقتنى فى الغابة أمس فانتميت إلى دار الغروب ولم تضع الرحلة سدى . رفعت راحتى إلى جبينى تحية وقلت :

- إنك ضالتى يا مولاى .

فسألنى وهو يتفرس فى وجهى :

- قادم جديد؟

- أجـــل . .

- ماذا تريد؟

- رحالة يمضى من دار إلى دار وراء المعرفة .

فأغمض عينيه دقيقة ثم فتحهما وقال :

- غادرت دارك للمعرفة ، ولكنك حدت عن الهدف مرات ، وبددت وقتا ثمينا فى الظلام ، وقلبك موزع بين امرأة خلفتها وراءك وامرأة تجد فى البحث عنها!

ذهلت حقا ورمقته بخوف ثم قلت :

ـ كيف تأتَّى لك أن تقرأ الغيب؟

فقال ببساطة :

ـ هنا يفعلون ذلك وأكثر .

ـ أأنت حاكم هذه الدار؟

ـ لا حاكم لهذه الدار، وأنا مدرب الحائرين .

فقلت بحرارة :

ـ زدنى فهما!

ـ كل شىء مرهون بوقته .

فأومأت إلى ما حولى وقلت :

ـ لماذا لا يرددون تحية أو يسمعون كلمة؟

فقال بهدوء :

ـ حياتهم هنا موافقة للحق ومفارقة للخلق .

ـ يبدون كالغائبين؟

ـ باب الصبر على مرارة البلوى لإدراك حلاوة النجوى .

فتفكرت فيما سمعت ثم سألته :

ـ وما غايتهم من وراء ذلك؟

ـ جميعهم مهاجرون، من شتى الأنحاء يجيئون إعراضا عن الهواء الفاسد، وليعدوا أنفسهم للرحلة إلى دار الجبل .

فطربت للاسم وقلت بحبور :

ـ إذن سأجد رفاقا فى رحلتى الأخيرة . .

فلاحت ابتسامة فى عينيه وقال :

ـ عليك أن تعد نفسك مثلهم .

ـ كم يتطلب ذلك من وقت؟

ـ كل بحسب قدرته، وقد تخور الهمة فينصح بالبقاء فى الغروب .

فانقبض صدرى وسألته :

ـ وإذا أصر على الذهاب؟

ـ يخشى أن يعامل هناك كالحيوان الأعجم!

فدهمتنى حيرة شديدة وسألته :

ـ وكيف تعدهم للرحلة؟

فقال بوضوح :

ـ كل شيء يتوقف عليهم ، إنى أدربهم بالغناء لتمهيد الطريق ، ولكن عليهم أن يستخرجوا من ذواتهم القوى الكامنة فيها .

فقلت بحيرة :

ـ لم أسمع مثل هذا الكلام من قبل .

ـ هذا شأن كل جديد .

فسألته بضراعة :

ـ ما معنى أن أستخرج من ذاتى القوى الكامنة فيها؟

ـ معناه أن فى كل إنسان كنوزا مطمورة عليه أن يكتشفها . خاصة إذا أراد أن يزور دار الجبل .

ـ وما العلاقة بين هذا ودار الجبل؟

فصمت مليا ثم قال :

ـ إنهم هناك يعتمدون فى حياتهم على هذه الكنوز فلا يستعملون الحواس ولا الأطراف !

فقلت برجاء :

ـ هلا وهبتنى فكرة عن هذه الكنوز؟!

ـ لا تتعجل .

ـ ومتى أعرف أننى وفقت؟

فقال بهدوء :

ـ عندما يتأتى لك أن تطير بلا أجنحة !

فأمعنت النظر فيه بذهول ، ثم قلت متأثرا بجده وصدقه :

ـ لعلك تحدثنى على سبيل المجاز .

ـ بل هى الحقيقة دون زيادة . . الدار هناك تقوم على هذه القوى ، وبها شارفت الكمال .

فقلت بتصميم :

ـ ستجدنى من المخلصين . .

ـ سيكون جزاؤك المكوث فى دار الجبل .

فقلت بعجلة:

ـ ما هى إلا زيارة أرجع بعدها إلى دارى.

فقال بيقين:

ـ سوف تنسى بها الدنيا وما فيها.

ـ لكن وطنى فى حاجة إلى..

فسألنى متعجبا:

ـ وكيف تركته؟

ـ قمت بالرحلة بأمل أن أرجع إليه بخبرة يكون فيها خلاصه.

فقال الشيخ بامتعاض:

ـ إنك من الهاربين، تعللت بالرحلة فرارا من الواجب، لم يهاجر أحد إلى هنا إلا بعد أن أدى واجبه، ومنهم من خسر زهرة عمره فى السجن فى سبيل الجهاد لا بسبب امرأة.

فهتفت جزعا:

ـ كنت فردا حيال طغيان شامل..

ـ هذا عذر الخائر!

فتوسلت إليه قائلا:

ـ ليكن من أمر الماضى ما يكون فلا تثبط همتى ولا تبدد حياتى هباء.

فلاذ بالصمت حتى اعتبرت الصمت رضى، وتشجعت قائلا:

ـ ستجدنى من أهل العزم والاخلاص..

وقمت حانيا رأسى فى خشوع. وخطر لى خاطر فترددت جافلا من إعلانه، وإذ به يقول:

ـ تريد أن تعرف ماذا فعل الدهر بعروسة!

فذهلت كما ذهلت حين انتزع ماضىّ من الظلمات. وساءلت نفسى ترى أهكذا يتفاهمون فى دار الجبل؟.. أما هو فقال:

ـ لقد سبقت إلى دار الجبل!

فسألته بدهشة

ـ وفقت فى خوض التجربة؟

فقال باسما:

- بفضل ما عانت فى حياتها من آلام . .

ولما هممت بالذهاب تساءل :

- ما فائدة الدنانير تكنزها حول وسطك؟

رجعت إلى محط القافلة فأودعت الدنانير إحدى الحقائب . وقال لى صاحب القافلة :

- نحن ذاهبون فجر الغد .

فقلت دون مبالاة :

- إنى باق .

وفى أعقاب الفجر كنت أول من قصد مجلس مولاى . ولحق بى نفر من القادمين الجدد فجلسنا على هيئة هلال ، عرايا إلا مما يستر العورة ، وقال الشيخ :

- أحبوا العمل ولا تكترثوا للثمرة والجزاء .

وصمت قليلا ثم واصل حديثه :

- أول درجة فى السلم هى القدرة على التركيز الكامل .

وصفق بيديه ثم قال :

- بالتركيز الكامل يغوص الإنسان فى ذاته .

وراح يغنى ونحن نردد غناءه . وقد رفعنى الغناء إلى عالم آخر . وعند كل مقطع تدفق من وجدانى ينبوع قوة .

وعدت إلى مجلسى تحت نخلة وشرعت فى التجربة . صارعت التركيز وصارعنى . والتحمت فى معركة حامية مع صور حياتى الماضية . تغزونى بالحب والوفاء وأطاردها بمر العناء وتمر الأيام مليئة بالعذاب والعزم والأمل . وعند بداية كل درس ، قبل الغناء والترديد ، يوصينا بحب العمل وإهمال الثمرة والجزاء ويقول :

- بذلك توثق المودة بينكم وبين روح الوجود .

كما يوصينا بالتركيز قائلا :

- إنه مفتح أبواب الكنوز الخفية .

ويقول بيقين :

- هناك (دار الجبل) بالعقل والقوى الخفية يكتشفون الحقائق ويزرعون الأرض وينشئون المصانع ويحققون العدل والحرية والنقاء الشامل .

وأرجع إلى عزلتى وأنا أتخيل اليوم الذى أسلط فيه قواى الكامنة على كل معوج فى وطنى لأنشئه من جديد مقاما صالحا لقوم صالحين . وتمر الأيام وأنسى الزمن فلا أدرى كم

مضى علىَّ من أيام وشهور، ويمتلئ وعائى بالثقة، وتبرق فى ظلماته بوارق الإلهام. واستيقظت ذات يوم قبل الفجر مبكرا عن ميعادى المعتاد. وذهبت من فورى إلى الشيخ فوجدته جالسا تحت ضوء النجوم فاتخذت مجلسى وأنا أقول:

- ها أنذا يا مولاى.

فسألنى:

- ماذا جاء بك؟

فقلت بثبات:

- نداء صدر منك إلى.

فقال راضيا:

- هذه خطوة أولى للنجاح وأول الغيث قطر.

وصمتنا فى انتظار قدوم الرفاق حتى اكتمل هلالنا. وبدا وجه الشيخ فى ضوء الشروق واجما. وشرع فى الغناء كالعادة فرددنا الغناء ولكنا لم نثمل بالسرور. وقبل أن نصرف عنه قال:

- الشر قادم فتلقوه بالشجاعة الجديرة بكم.

ولم يضف إلى ذلك كلمة متجاهلا أعيننا المتسائلة.. واستيقظنا غداة اليوم التالى على جلبة وصهيل خيل. ونظرنا فرأينا المشاعل منتشرة فوق الأرض كالنجوم، رأينا جيشا من فرسان ورجالة يطوق دار الغروب دون سابق إنذار. وهرع الجميع إلى موقع الشيخ وجلسوا حوله صامتين هادئين. وراحوا يغنون حتى أشرقت الشمس وعند ذاك قدم قائد يتبعه حراس حتى وقف أمامنا. من النظرة الأولى اكتشفت أنهم من جيش دار الأمان، وتساءلت فى قلق ترى هل انتصروا على الحلبة؟. وقال القائد:

- بالنظر إلى الحرب الدائرة بيننا وبين الحلبة، وبناء على ما بلغنا من أن الحلبة تفكر فى احتلال دار الغروب لتطوق دار الأمان، فقد اقتضت دواعى الأمن أن نحتل أرضكم.

ساد الصمت ولم يعلق أحد من جانبنا بكلمة فقال القائد:

- إذا أردتم البقاء فعليكم أن تزرعوا الأرض وأن تنضموا إلى البشر العاملين وإلا فسوف نعد لكم قافلة تحملكم إلى دار الجبل.

ساد الصمت مرة أخرى حتى خرقه الشيخ موجها خطابه لنا:

- اختاروا لأنفسكم ما تحبون..

فاستبقت الأصوات هاتفة:

ـ دار الجبل . . دار الجبل . .

فقال الشيخ محذرا :

ـ ستلقون عناء لنقص تدريبكم .

فأصروا هاتفين :

ـ دار الجبل . . دار الجبل . .

فقال القائد بحزم :

ـ من يعثر عليه منكم ها هنا بعد قيام القافلة سيعتبر أسير حرب !

البـــداية

عند الفجر غادرت القافلة دار الغروب . لأول مرة يستأثر بها الرحالة والمهاجرون ولا يرى بها تاجر واحد . ولفنا قلق وحزن وإشفاق ، لما حل بدار الغروب ، ولانقطاعنا الإجبارى عن التدريب ، وتمنيت أن تسنح فى الطريق فرص لمعاودة التركيز والاجتهاد تخفيفا من العناء المنتظر . وكشف الشروق عن صحراء مستوية ، تكثر فى أرجائها عيون المياه . وسرنا شهرا حتى اعترض سبيلنا الجبل الأخضر ممتدا من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار . وكان علينا أن نعبر الجبل صعودا وهبوطا ، وترامى أمامنا فج واسع يتدرج فى صعوده تدرجا هينا رفيقا فاتجهت إليه القافلة . وتساقط الرذاذ فى أوقات متقطعة فآنس من وحشتنا . وجعلنا نسير بالنهار ونعسكر فى الليل حتى بلغنا السطح بعد انقضاء ثلاثة أسابيع . كان سطحا عريضا غزير الأعشاب ، وعند حافته قال الشيخ وهو يشير بيده :

ـ هاكم دار الجبل .

كان يشير إلى جبل آخر يفصل بينه وبين الجبل الأخضر صحراء ، وعلى سطحه قامت الدار عالية مترامية هائلة القباب والمبانى تنطق بالعظمة والسمو . نظرت صوبها بذهول وافتتان . لم تعد حلما ولكنها حقيقة ، وحقيقة قريبة ، فليس بيننا وبينها إلا أن نهبط السفح ونقطع الصحراء القصيرة ثم نصعد الجبل الآخر فنجد أنفسنا أمام مدخلها ، ومدير الجمرك يقول لنا :

ـ أهلا بكم فى دار الجبل ، دار الكمال .

وقل صبرنا وتعجلنا الرحيل فهبطت القافلة سفح الجبل فى أسبوعين حتى بلغنا الصحراء . ودهمتنا دهشة إذ ترامت الصحراء أمامنا كأنها بلا نهاية ولم نكد نرى الجبل الآخر من شدة إيغاله فى البعد . عجبت لخداع البصر ، وأيقنت من أنه ستمضى أيام

وأسابيع قبل أن نصل إلى الجبل الآخر الذى تقوم على سطحه دار الجبل . وسرنا أسابيع وأسابيع ، وضاعف من طول المسافة اعتراض التلال والهضاب مما اضطرنا إلى الانعطاف إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة أخرى ، حتى خيل إلىّ أنه انقضى عمر قبل بلوغنا سفح الجبل الآخر . ووقفنا أسفله ننظر إلى أعلاه فوجدناه يعلو على السحب ويتحدى الأشواق . وإذا بصاحب القافلة يقول :

- هنا ينتهى سير القافلة يا سادة!

فلم أصدق أذنى وقلت :

- بل تصعد بنا حتى دار الجبل .

فقال الرجل :

- الممر الجبلى ضيق كما سترون لا يتسع لناقة أو جمل .

وهرعنا إلى شيخنا فقال بهدوء :

- صدق الرجل .

- وكيف نواصل رحلتنا؟

فقال بلا مبالاة :

- على الأقدام كما واصلها السابقون .

وقال صاحب القافلة :

- من يشق عليه السير فليرجع مع القافلة .

ولكن لم تهن عزيمة أحد وصممنا على المغامرة . وفكرت فى ذاتى وفيمن خلفت وفيما قد يصادفنى من أسباب تحول دون عودتى ، فكرت فى ذلك فخطر لى خاطر وهو أن أعد بدفتر رحلتى إلى صاحب القافلة ليسلمه إلى أمى أو إلى أمين دار الحكمة ، ففيه من المشاهد ما يستحق أن يعرف ، بل به لمحات عن دار الجبل نفسها تبدد ما يخيم عليها من ظلمات وتحرك الخيال لتصور ما لم يعرف منها بعد . ولا بأس بعد ذلك أن أفرد دفترا خاصا لدار الجبل إذا قيض لى زيارتها والرجوع منها إلى الوطن . وقبل الرجل القيام بالمهمة ، فنفحته بمائة دينار ، وقرأنا الفاتحة . تخففت بعد ذلك من وساوسى ، وتأهبت للمغامرة الأخيرة بعزيمة لا تقهر .

* * *

بهذه الكلمات ختم مخطوط رحلة قنديل محمد العنابى الشهير بابن فطوطة .

ولم يرد فى أى كتاب من كتب التاريخ ذكر لصاحب الرحلة بعد ذلك .

هل واصل رحلته أو هلك فى الطريق؟

هل دخل دار الجبل وأى حظ صادفه فيها؟
وهل أقام بها لآخر عمره أو عاد إلى وطنه كما نوى؟
وهل يعثر ذات يوم على مخطوط جديد لرحلته الأخيرة؟
علم ذلك كله عند عالم الغيب والشهادة.

التنظيم السرّى

مجموعة قصصية

المحتويــات

التنظيم السرّى

فى ركن النادى الذى يجمعنا للسمر تنطلق الآراء كالمفرقعات. لا تترك كبيرة ولا صغيرة حتى تمزقها جدلا. وتتصارع المشروعات ووسائل تنفيذها حتى تبح منا الأصوات إلا ذلك الصديق القديم. لا يشترك فى همومنا الجدية برأى أو بلا أو بنعم. قد يثرثر فى الأمور العابرة ولكنه عند الجد يلوذ بالصمت. يغيب عنا بنظرة شاردة. يتخذ من هامش الحياة وطنا. على ذلك لم يخرج من قلوبنا لمودته الدافئة وجذوره المتأصلة فى منابتنا. ويوما اتصل بى تليفونيا فى الديوان وقال لى:

ـ أود مقابلتك غدا صباحا فى محل توت عنخ آمون.

فوافقت من فورى، وفى الموعد جلست أنتظره. وهلَّ علىَّ دون تأخير، فرحنا نشرب القهوة ونتبادل نظرات التمهيد، وهو يرنو إلىَّ جادا حتى خيل إلىَّ أنه استعار شخصية جديدة تماما. وقرب رأسه منى وقال:

ـ فكر قبل أن تتكلم، فالكلمة هنا ارتباط أبدى .

فأثار اهتمامى لدرجة لم أتوقعها، وحدجته بنظرة داعية للمزيد من الإفصاح . قال :

ـ لم يكن مفر من هذا التحذير، ثم ادخل فى الموضوع رأسا!

فقلت واهتمامى يتصاعد :

ـ أدخــــل .

فكور قبضته الضخمة وتساءل :

ـ آنست منك رغبة فى العمل؟

فلمحت أول بصيص نور، وسألته فى دهشة :

ـ كيف عرفت ذلك؟!

ـ من متابعتى للمناقشات!

فقلت بدهشة أكثر :

ـ حسبتك لا تنتبه إلى أقوالنا!

فابتسم ولم ينبس فقلت :

ـ هات ما عندك .

فاعتمد على المائدة بمرفقيه وسألنى :

ـ أتعنى ما تقول حقا؟

فقلت بصدق :

ـ كل كلمة، كل كلمة!

ـ إذن فأنت ترغب فى العمل؟

أدركت مغزى تحذيره، ولكن وعائى كان طافحا بما فيه، فقلت مندفعا إلى مصيرى :

ـ أجــل .

ـ العمل ـ بخلاف الكلام ـ باهظ التكاليف .

فقلت بتحد :

ـ أدرك ذلك تماما .

فقال ببطء :

ـ الندم فيما بعد غير مجد .

ـ أعتقد ذلك .

ـ والتراجع يعنى الموت .

- طبعا . . طبعا .

فقال بارتياح :

- صدقنى حدسى .

فقلت وأنا أغالب انفعالاتى الداخلية :

- يا لك من داهية !

فقال كالمعتذر :

- هى الحياة .

فقلت بشىء من الحدة :

- أو هو الموت ، ليفعل الله ما يشاء .

- بداية طيبة .

فقلت بشوق :

- هات ما عندك .

فقال بسرعة :

- ما لدى قليل ، أقل مما نتصور ، أسرة مكونة منى وأربعة آخرين ستعرفها مساء ، عدا ذلك لا أعرف إلا شخصا أتلقى منه الأوامر .

- ولكن الأسرة وحدة فى كل ، وعلى رأس الكل رئيس ، ماذا تعرف عن ذلك؟

فقال ببساطة :

- لا شىء . .

فتساءلت فى حيرة :

- ونظل نعمل فى الأسرة يحيط بنا الظلام؟

- ربما ، وربما انتقلت إلى أسرة من مرتبة أعلى .

- ومتى أصل إلى مركز الرئيس الأعلى؟

- علمى علمك ، المهم العمل والهدف؟

وتفحصنى بنظرة ثاقبة وقال :

- إنهم أدرى بما يحقق الأمان والنجاح .

ومر بى نهار لم يمر بى مثله فى حياتى . كمن يبدل لحمه ودمه وخلاياه وروحه . كمن يولد فى دنيا جديدة ذات قوانين جديدة . كمن يودع الطمأنينة واللامبالاة ليستقبل المغامرة والموت . لم يبق لى من الماضى إلا الاسم وحتى هذا سرعان ما يتغير . وفى المساء انعقد

أول اجتماع للأسرة فى بيت صغير بمصر القديمة. كنا خمسة، على رأسنا الصديق القديم المرموز إليه بـ «ا». لم لا؟ لقد أصبحنا رموزا لتحقيق أهداف. وجلس على رأس المائدة ينقل عينيه بيننا، مكتسيا مهابة جديدة وتأثيرا نافذا. قال:

- أرحب بكم فى أسرتنا التى جمعتنا على الخير، هى التى أخرجتنا من العبودية وطهرتنا من عبادة الأصنام، فلنجعل من الكمال زينتنا ومن الحب رابطتنا ومن الطاعة شعارنا ولنعمل فى نطاق ما نعرف - ولا نسأل عما لا نعرف - واحذروا الخطأ فلا خطأ يمر بلا عقاب.

وتتابعت الاجتماعات لمذاكرة الأهداف والوسائل، أو لمعرفة الأجوبة عن بعض أسئلة عاجلة، ومناقشة الاقتراحات. وطيلة الوقت استحوذ رئيسنا المباشر «ا» على إعجابى بعقله الراجح وحدسه الصادق وخلقه المتين مع قوته الجسدية الخارقة كأنما هو بطل من أبطال المصارعة الحرة، وإن ساءتنى جديته الصارمة التى تضن بالابتسامة فضلا عن الدعابة. وعزيت نفسى قائلا إنه لولا ضرورة هذه السجايا لعمله ما اختاره الرئيس الأعلى للجماعة الذى يضع ولا شك الرجل المناسب فى المكان المناسب، والذى تتسلل إلينا أوامره من مثواه المجهول عبر مندوبين مجهولين كذلك، حتى إن «ا» نفسه لا يعرف من ذاك الجهاز المعقد إلا فردا واحدا. وقد رأيته يلوذ بالصمت فى أعقاب مناقشة ثقيلة جرت فى أحد الاجتماعات فقلت بعفوية:

- ألا يحسن أن يجتمع رؤساء الأسر بالرئيس الأعلى فى اجتماعات دورية لنطمئن على سير الأمور؟

فاستيقظ من صمته راميا إياى بنظرة صلبة ثم قال:

- ارتكبت عدة أخطاء دفعة واحدة!

وراح يعدد على أصابعه قائلا:

- قطعت علىّ تفكيرى، تدخلت فيما لا يعنيك، خالفت وصية من الوصايا!

فهالنى الأمر وقلت معتذرا:

- إنى آسف يا سيدى.

- لابد من العقاب، وإنى أحكم عليك بالامتناع عن التدخين شهرا كاملا ابتداء من هذه الساعة!

وصدمنى الحكم ولكنى لم أنكص عن تنفيذه - رغم ثقله - بوازع من ضميرى. على أننا كنا نشعر فى الوقت نفسه بأننا موضوعون تحت مراقبة خفية يمارسها جهازنا الغامض، بالإضافة إلى مطاردة الشرطة المستمرة. هذا ما تطوعنا للخدمة فيه بدافع تلك الرغبة الجنونية المقدسة فى تغيير الكون. حسبنا أن نؤمن بأننا ضمن الصفوة المختارة بدقة رسم

خطوطها ذلك الرئيس الأعلى الذى صار ـ هو وجهازه ـ أسطورة يتحدث عنها الناس فى كل مكان، وتنشط دوائر الأمن العام إلى اكتشافها بكل سبيل انطلاقا من حوادثها المتكررة ومنشوراتها السرية المثيرة. وما أدرى يوما ونحن مجتمعون حول المائدة إلا و«ا» ينظر ويسأل:

ـ أين القلم الرصاص الذى وجدته أمامك فى الجلسة السابقة؟

فقلت ببراءة:

ـ لعلى أخذته معى.

فسأل ببرود:

ـ من أين علمت أنه وزع للامتلاك؟

فقلت فى استياء:

ـ سأرده فى المرة القادمة أو أبتاع بديلا عنه.

فقال ببرود أشد:

ـ نحن نعتبر ذلك نوعا من السرقة!

فقلت بغضب:

ـ لقد بعنا الحياة نفسها دون مقابل فكيف نتهم بسرقة قلم رصاص؟

فقال بهدوء هو أشد من الحدة:

ـ لا تمن علينا بالتضحية، فإنك لا تضحى من أجلنا ولكننا نضحى جميعا من أجل الهدف وقد حكمت عليك بألا تستعمل يدك اليسرى لمدة شهر!

ركبنى هم ثقيل فذهبت إلى مطعم «فلسطين» بالسكة الجديدة لتناول العشاء. وجلست إلى أقرب مائدة إلى فتاة وحيدة. لاحظت رغم همى أنها لم تطلب شيئا ولم يقترب منها الجرسون. ولاحظت أيضا أنها تنظر نحوى بجرأة وثبات لا يصدران إلا عن امرأة هوى. على جمال كانت ولكن منظرها أوحى بالفقر، بل والجوع أيضا. قالت لى عيناها: «ادعونى للعشاء من فضلك». ورق قلبى لها فابتسمت وسرعان ما ردت الابتسامة بأخرى مبتذلة. قلت إنها مازالت تشق طريقها الوعرة، وأشرت إلى المقعد الخالى أمامى فانتقلت إليه دون تردد. تناولنا عشاء من المكرونة والخبز الجاف فالتهمت طعامها بنهم وبلا حياء. حل الارتياح مكان التوتر فى وجهها، وتبادلنا الابتسام دون تعارف، ثم سألتها لأبدد الصمت:

ـ من هنا؟

فقالت بنبرة ذات معنى:

ـ مسكنى فوق المطعم.

لم تكن فى رأسى خطة نهائية فنظرت فى الساعة فسألتنى:

ـ نقوم؟

فاستسلمت بلا حماس وبلا فتور فتأبطت ذراعى ومضت بى نحو مدخل المبنى فى عطفة خلفية. لست من مدمنى ذلك ولا من الهواة ولكنها تعرض لعازب. وكانت رقيقة وثرثارة وغير محنكة فدار حديثها حول ضجيج العاصمة. وسألتنى:

ـ ما ليدك اليسرى؟

فقلت بامتعاض:

ـ روماتيزم خفيف.

فقالت مجاملة:

ـ ولكنك فى عز الشباب.

فقلت بضيق:

ـ أمراض عصرنا لا تفرق بين شيخ وشاب.

وغادرتها وهى تقول:

ـ لتكن أولى الزيارات لا آخرها.

وصادفتنى متاعب متلاحقة فى البيت والديوان لعدم استعمال يدى اليسرى بالإضافة إلى سوء المزاج الناتج عن الامتناع عن التدخين. وتمخض اجتماع الأسرة التالى عن مكدرات جديدة لم تكن فى الحسبان، إذ التفت «ا» نحوى قائلا:

ـ ما زلت ماضيا فى طريق الضلال!

فنظرت إليه مبهوتا فقال:

ـ الزنى بعد السرقة.

فالتهبت وجنتاى وغضضت بصرى، فقال:

ـ كأنك لا تدرك خطورة زلتك؟!

فقلت باستماتة:

ـ هفوة شخصية لا تمس سلوكى العام.

ـ هراء، المرأة أشد خطورة من الشرطة.

فقلت مدافعا:

ـ الزواج عسير جدا فى هذه الأيام.

فقال ببرود:

- فى الهدف ما يغنى ويسلى عن سواه.

وواصل عقب صمت قصير:

- إنك كثير الجدل فمتى تتعلم الطاعة؟

وفكر قليلا ثم قال:

- مراعاة لظروفك سأكتفى بتغريمك مائة جنيه تؤديها على أقساط!

وجدتنى فى مأزق. كدت أندم على فكرة التطوع نفسها ولكن لم يغب عنى أن التراجع الآن يعنى الموت. وتعزيت بما أحرز من نجاح حين عرض الآراء وتنفيذ ما أكلف به من أعمال. وتخيلت رئيسنا الأعلى - قياسا على «ا» - فى صورة عملاقة جبارة جديرة حقا بالإجلال والخوف. ومازج شوقى إلى معرفته رغبة فى البقاء بعيدا عن بابه. ولم أخطئ بعد ذلك، وتقدمت فى الدرس والتدريب تقدما محمودا سمعت من أجله الثناء تلو الثناء، فتلاشى الحرج وذكرى العقوبات. وفى ختام اجتماع هام للأسرة، استبقانى «ا»، ووضع أمامى مظروفا مغلقا وقال:

- تسافر إلى (. . .) وتقابل (. . .) الكاتب بالمحكمة وتسلمه الرسالة خفية وتعمل بما يشير به عليك.

كنت تدربت تماما على وسائل معرفة المكان ومواعيد القطارات والاتصالات الخفية. وشرعت فى العمل خطوة فخطوة حتى سلمت الرسالة للرجل. وأشار على بالنزول فى فندق بالبلدة والانتظار. وفى الصباح جاءتنى سيارة فورد قديمة، ودعانى السائق إلى الجلوس إلى جانبه وانطلق بها بلا تعارف أو كلام. وفى وسط الطريق قال:

- فى الصندوق الخلفى حقيبة جلدية.

ووقف على مبعدة من البيت الذى تجتمع فيه الأسرة بمصر القديمة. حملت الحقيبة رغم ثقلها وسرت بها نحو البيت. غالبت توترى لدقة الموقف وخطورته، ثم وضعتها على المائدة أمام «ا»، وجلست مزهوا وأنا أشعر بأننى هجرت دنيا الناس إلى الأبد. وفتح «ا» الحقيبة فحال غطاؤها بينى وبين رؤية ما بداخلها. ودام فحصه ربع ساعة ثم أغلق الحقيبة وقال:

- أمضيت وقتا فى المقهى ناسيا أن الغريب يلفت الأنظار فى البلدان الصغيرة.

فخفق قلبى متوقعا عقوبة جديدة ولكنه قال:

- ولكنك عبرت البحر بسلام!

فشاع فى نفسى الرضا وامتلأت ثقة وإحساسا بالنصر، وقمت بأعمال قيمة على مدى

غير قصير، فى وثبات متلاحقة حققت لى مركزا لا بأس به. واستدعانى «ا» ذات يوم فوجدته وحده بحجرة الاجتماع. أجلسنى فى أقرب مقعد إليه وقال لى:

- تقرر أن تفارقنا إلى أسرة جديدة.

نظرت إليه مليا وأنا أغالب انفعالاتى ثم سألته فى حذر:

- أتسمح لى بسؤال أو أكثر؟

فحنى رأسه بالإيجاب فسألته:

- ماذا يعنى أسرة جديدة؟

- أسرة الزميل الوحيد الذى أعرفه خارج أسرتنا ويدعى «ب»، وهى وحدة ضمن وحدات متصاعدة لا فكرة لى عن عددها تنتهى بالجهاز الأعلى.

فداخلنى ارتياح وسألت:

- وما نوع العمل فى الأسرة الجديدة؟

- لا أدرى!

- من الذى رشحنى للأسرة الجديدة؟

فأجاب ببساطة:

- عملك.

وقام آخذا بيدى إلى حجرة صغيرة داخلية وهو يقول:

- دعنى أقدمك إلى رئيسك الجديد.

وجدناه جالسا ينتظر. ومن عجب أن طالعنى بصورة مناقضة تماما لتخيلى له. تصورته يفوق «ا» فى القوة والعملقة فإذا بى حيال شاب يكبرنى بأعوام، جميل المحيا، رقيق الحاشية، يأسر الناظر إليه بلطفه وعذوبته. كيف يرأس هذا الشاب أسرة هى أقرب فى موقعها من الرئيس الأعلى وعليها مهام - ولا شك - تجاوزها فى الشدة والعنف؟! وكيف يضع رئيسنا الأعلى ثقته فى شخصين تقطع الدلائل بتناقضهما الكامل؟ ترى متى يتاح لى مقابلة ذلك الرئيس العجيب الذى أقض مضاجع الشرطة وأثار الرأى العام لدرجة الهوس؟ وتبادلت مع «ب» كلمات رقيقة فاستحوذ على حبى من اللحظات الأولى. ومضى بى فى سيارته الصغيرة ١٢٨ إلى حديقة «الوردة البيضاء» بطريق سقارة. سألته قبل أن ندخل:

- أعندك فكرة عن هذه الحديقة؟

فدخل مبتسما وهو يتأبط ذراعى. وسرعان ما احتوتنا مقصورة تكتنفها الخضرة والأزهار وتحبو فوقها أشعة الشمس فى مطلع شتاء لطيف. وجدت الأسرة الجديدة

بكامل عددها وهى مكونة مثل أسرتى الأولى من خمس ولكنى عجبت لاختياره مكان الاجتماع فى حديقة سيئة السمعة لا يردها عادة إلا طلاب الحب المحرم. وقلت لعله داهية ذات قشرة ذهبية أو ماء تحت تبن. وشربنا الشاى بسرور وارتياح وهو يقول:

ـ أهلا بكم فى أسرتنا الجديدة.

وتفكر قليلا ثم واصل:

ـ لكل منكم سابقته المحمودة المتسمة بالشدة والخطورة، ونحن الآن بصدد عمل جديد ذى أسلوب آخر، لا تنكر للماضى ولكننا نستكمله بأسلوب جديد كل الجدة، وإلا ما دعت الضرورة إلى إنشاء أسرة جديدة، مستهدفين فى النهاية غاية واحدة، وإياكم والاستهانة بعملكم الجديد ذى المظهر الخادع، فمثلكم مثل زارع يرمى فى الأرض ببذرة لا تكاد ترى، ولكنها ستنمو ذات يوم شجرة باسقة يلوذ بظلها المعذبون فى الأرض.

وصمت قليلا ثم قال:

ـ كانت مهمتكم السابقة التصدى للوجه القبيح والانهيال على قبحه بالكلمات الصادقة، أما مهمتكم الجديدة فهى التغنى بالوجه الجميل المنشود، حلم اليوم وحقيقة الغد، ولكن أى أغان وأى ألحان؟!.. أغان جديدة وألحان جديدة.

التمع فى الأعين حب استطلاع وهاج فقال:

ـ سأكون المؤلف والملحن وستكونون المغنين وسأضع فى كل حنجرة اللحن الذى يناسبها!

وضح فى الوجوه ما يشبه الذهول فقال:

ـ المهمة ظاهرها الترفيه ولكنها تنطوى على جدية فائقة ويحف بها الخطر من كل جانب.. فليوطن كل نفسه على التضحية.

وقلب عينيه فى وجوهنا متسائلا:

ـ هل من أسئلة؟

وفى الحال سألته:

ـ أنعتبر حديثك من المجاز والرمز؟

فأجاب ببساطة:

ـ بل إنه واقع وحقيقة...

ـ هل حقا تحفظنا ألحانا لننشدها؟

ـ بكل تأكيد.

ـ لكننا لسنا مغنين .

ـ كل فرد يستطيع أن يغنى فى حديقة عامة فيسمعه من يشاء أن يسمع .

ـ من ناحيتى لا أملك أى موهبة غنائية .

ـ لا يهم . العبرة باللحن أما الأغنية فأغنية حب من لون جديد!

ـ قد يعتبر الجمهور غناءنا تكديرا لصفوه؟

ـ ربمــا .

ـ وقد يسخر منا؟

ـ ربمــا .

ـ وقد يعتدى علينا؟

ـ ربما ، ولذلك لابد من توطين النفس على التضحية .

فقال زميل منفعلا :

ـ عملنا السابق أخف رغم عنفه .

فأجاب باسما :

ـ محتمل جدا .

وترددت قليلا ثم قلت :

ـ لدى سؤال وأخاف العقاب .

فقال «ب» بسرعة :

ـ لا موضع للعقاب فى قاموسنا .

فســألته :

ـ وما جدوى الأغانى والألحان والغناء؟

فقال بهدوء :

ـ أكبر مما تتخيل .

فسألت مندفعا بشجاعة جديدة :

ـ وهل وافق رئيسنا الأعلى على عمل أسرتنا؟

فقال باسما :

ـ لسنا إلا أدوات تنفيذ .

ثم بنبرة حماسية :

ـ اسمحوا لى أن أدعوكم إلى عشاء من الشواء والنبيذ لنتعاهد على الحب والعمل ونحن فى أطيب حال .

وشرعنا فى الحال فى الحفظ والتدريب، ثم فى العمل. وتعرضت لحرج ومتاعب لا نهاية لها. آمنت بأن عملى الجديد أشق من القديم رغم إحساسى بأننى أعمل فى جوقة موسيقية تحت إشراف شاعر وملحن فى آن. وعجبت لشأنه، وعجبت أكثر لشأن رئيسنا الأعلى الذى يستعمل كل هذه الحيل المتناقضة والأساليب المتضاربة لتحقيق أهدافه. واستقرت فى وجدانى عبارة «ب»: «لا موضع للعقاب فى قاموسنا»، فشجعنى ذلك على التخفيف من توتر أعصابى بزيارة جديدة لفتاة مطعم فلسطين بعد انقطاع، رغم ما سمعت من إدانة لذلك، وتحذير من المرأة التى هى أشد خطرا من الشرطة، ورغم علمى المسبق بأن سلوكى لن يخفى عن رئيسى كما لا يخفى سلوك أحد من أفراد الجهاز بعامة. وسرت الفتاة بزيارتى سرورا أنسانى قلقى ووساوسى، وهدانى إلى اكتشاف جانب رقيق فى قلبها لا يوجد عادة فى حومة الاحتراف. وقال لى «ب» فى أول اجتماع تلا مغامرتى:

ـ لا اعتراض لى على الحب.

فاشتعل وجهى بالحياء فقال:

ـ ولكنه دون ما رباط عبء على نقاء القلب.

ففطنت إلى ما يشير إليه وقلت باستنكار:

ـ ولكـــن. . .

فقاطعنى:

ـ لا تستشهد بمأثورات حياة قد أعلنت الحرب عليها!

ثم تحول إلى موضوع الاجتماع كأنما قال قولته الأخيرة فى المسألة. وجاء زواجى من الفتاة مغامرة لا تقل فى خطورتها عن كبرى مغامراتى التى قمت بها وأنا عضو فى أسرة «ا». وفى ليلة الزفاف أتى «ب» دون دعوة وأهدانى قارورة من أفخر أنواع النبيذ الأحمر. وهمس فى أذنى وأنا معه آخر الليل:

ـ صن سرك فى أعماق قلبك وحده.

وواصلت حياتى ما بين الديوان والحدائق العامة وعش الزوجية فوق مطعم فلسطين. وكان الاجتماع لم يسبق بمثله إذ تخلف عنه لأول مرة أحد الزملاء. وأشار «ب» إلى المقعد الخالى وقال بأسى:

ـ ألقى القبض عليه.

فذهلت أنفسنا وتغيرت ألواننا، فقال:

ـ لعله تهاون فى الكتمان.

فقال زميل:

ـ قد يدفعه التعذيب إلى الاعتراف بما يهدد أمن الأسرة .

فقــال :

ـ من أجل ذلك سنؤجل اجتماعاتنا إلى أجل غير مسمى ، وسنختار مكانا آخر . على أنى متيقن أنه سيتحدى الموت قبل أن يعترف !

رجعت إلى وحدتى الأولى . وانسربت إلى نفسى سموم الهواجس والمخاوف فتوقعت أن تصل إلى عنقى القبضة الحديدية فى أى وقت من ليل أو نهار . أجل كانت حياة كل زميل مجهولة تماما من بقية الزملاء خارج نطاق العمل المشترك ، ولكن أى ضمان ثمة لذلك؟! كانت أيام خوف وضياع . وصادفنى يوما أحد الزملاء فى ميدان العتبة . صافحنى خارقا تقاليدنا الثابتة وقال :

ـ معذرة ، ثمة أخبار غاية فى الخطورة .

تولانى رعب من قبل أن يفصح واستوضحته بعينى دون لسانى فقــال :

ـ قبضوا على رئيسنا «ب» نفسه !

فهتفت بفزع :

ـ من أين لك هذا؟

قال بغموض :

ـ شائعات تطايرت من مكان عملى ، والشائعة فى مكان عملى تُعتبر خبرا !

تجهم وجهه حتى الظلمة وقال :

ـ ويقال إنه قُتل وهو يُستجوب !

هتفــت :

ـ يا للفظاعة !

فقــال :

ـ وثمة همس عن أن زميلنا المقبوض عليه أولا قد باع نفسه ودل على الرجل .

فقلت باضطراب :

ـ يجب أن نهرب .

فقال بحنق :

ـ لا خوف من ناحيته بعد ، فقد وُجد فى السجن ميتا بالسم والتحقيق جار مع الجميع .

وتابعت الصحف ولكنها لم تشر من قريب أو بعيد إلى جماعتنا . تركنا فى الظلام ، وانقطعت الصلة بيننا وبين الجهاز ، وانطويت على سرى دون شريك أحاوره أو ألتمس عنده العزاء . واحتوتنى غربة وسط عالم معاد ، لا أدرى متى ينتشلنى اليأس من العذاب . واستدعانى رئيسى المباشر فى الديوان وسألنى :

ـ مالك؟ لست كعادتك، أهو الزواج؟

فادعيت المرض، فقال:

ـ قم فى إجازة تجنبا لمزيد من الأخطاء.

هربت من الديوان لأسقط بكليتى فى قبضة نفسى. أما زوجتى فأرادت أن تخفف عنى بعض ما لمست من اضطرابى فقالت:

ـ ستكون أبا يا حبيبى.

فتظاهرت بسرور لم أعد أتذكر طعمه أو رائحته. واتجه فكرى إلى رئيس الجهاز الأعلى، فتساءلت عما يدبر لرتق الفتق الذى مزق جهازه، كيف يصل ما انقطع؟ وهل يعلم بما نعانى فى ضياعنا، أو يفكر فى التخلص منا حفظا لأمن جماعته كما تخلص من زميلنا الخائن؟! وانطوت الإجازة، ورجعت إلى عملى، وكلما مر يوم دون مفاجأة أخلدت إلى شىء من الطمأنينة، حتى بت أعتقد أنى راجع حتما إلى تفاهة الحياة ومرارتها اليومية كفرد من ملايينها الذين يتعذبون ويتشكون ويتصبرون وينتظرون دون جدوى. وقلت لنفسى على سبيل التعزى: لعل التفاهة فى النهاية أرحم من الخوف والضياع. وتعاقبت الأشهر حتى خرج وليدى الأول إلى الوجود، ومضيت أنهمك فى مجريات الحياة اليومية. وذات صباح وعقب أبوتى بشهر. دق جرس الباب فذهبت زوجتى لترى الطارق، ثم عادت لتقول بدهشة:

ـ يقول إنه مندوب شركة الشرق للتأمين!

فذهبت بنفسى إلى الباب وسألته عما يريد فقال بصوت عريض ملىء:

ـ اسمح لى بخمس دقائق، إنى قادم من أجل ابنك ربنا يحفظه بعين رعايته.

وجلسنا فى حجرة الاستقبال متواجهين. كان متوسط الطول، متين البنيان، أنيق المظهر، بشوش الوجه كما يجدر بتاجر، قوى النظرات، بيده حقيبة وجاءت زوجتى مدفوعة بحب الاستطلاع فانتظر حتى جلست وقال:

ـ جئت يوم الجمعة لأضمن لقاءك، ومهمتى هى صميم عملى فنحن نتابع المواليد ونزور الأسر لإقناع الآباء بالتأمين على الأبناء، ويا بخت من يرى غده فى يومه.

فسألته زوجتى:

ـ أيكلفنا ذلك ما لا نطيق؟

فأجاب بنبرة مشجعة:

ـ التأمين أصلا للذين لا يملكون، وهو درجات ولكل درجته، وإن بعد العسر يسرا.

وفتح حقيبته فتناول كراسة أعطانيها وهو يقول:

- إنها حاوية لكافة الأنواع وستجد فيها ما يناسبك إن شاء الله .

ونهض قائما فاصطحبته إلى الباب مودعا . ودس فى يدى ورقة ، وصافحنى وهو يهمس :

- لا علاقة لى بشركة التأمين ، اقرأ ما فى الورقة بعيدا عن عينى زوجتك ، ستجد فيها المكان والوقت فلا تتأخر .

قال ذاك وذهب . وددت لو بقى دقيقة أخرى ليبل ريقى الجاف . هكذا بعثت فجأة واشتعلت روحى بالنار المقدسة من جديد . رجعت إلى الحياة ومعاناة الإحساس المضنى بحمل الأمانة .

وفى الموعد كنت فى بيت عتيق بالقلعة ، يقع فى بقعة فاصلة بين العمران من ناحية وبين مدينة الأموات من ناحية أخرى . وكالعادة كانت الأسرة الجديدة مكونة من خمسة يرأسها «ج» (مندوب شركة الشرق) ، أما الأربعة الآخرون فكان اثنان منهم - أنا أحدهما - من أسرة المرحوم «ب» ، وواحد زاملته فى أسرة «ا» والرابع جديد لم تقع عليه عيناى من قبل . قال «ج» :

- مضى ما يقارب العام دون اتصال .

فقلت من فورى :

- عام محنة وعذاب .

أما زميلى من أسرة «ب» فتساءل :

- هل عادت أسرتنا القديمة ، أسرة «ب» ، برياسة جديدة؟

فقال «ج» :

- أسرة «ب» موجودة برياسة جديدة ، أما هذه الأسرة فهى أسرة جديدة بالنسبة لكم .

وتنحنح ثم واصل حديثه :

- لم يمض العام هدرا ، كلا ، ولكنه مضى فى التحرى والمتابعة والمراقبة ، كان على رئيسنا الأعلى - وهذا محض ظن منى - أن يطمئن إليكم وأن يسبر غور الشرطة وعيونها الشرهة ، وأعتقد أنى تلقيت أوامره فى الوقت المناسب .

وقلت لنفسى : إن هذا الرجل يعنى ما يقول وإنه قادر على ملء الفراغ بالثقة ، وسرعان ما أحببته . أما هو فقال :

- أهلا بكم فى أسرتكم الجديدة ، هى الأخيرة أيضا ، يليها مباشرة الجهاز الأعلى ، ولا أخفى عنكم أنى أتلقى التوجيهات من السكرتير العام نقلا عن الرئيس الأعلى حفظه الله ورعاه .

وأشعل سيجارة، آذنا بإشارة لنا بالتدخين لمن شاء، ثم قال:

- ولعلكم تتساءلون عن أسلوب العمل، أول ما أقول إنه يقوم بصفة مبدئية على القواعد المرعية فى الأسرتين السابقتين، فلا يجوز أن تهمل تجربة ناجحة أثبتت جدواها، فلا تنسوا ما تمرستم به فى أسرتكم الأولى وما تمرستم به فى أسرتكم الثانية، بالإضافة إلى ما سيجد، ولا تنسوا أن جميع الأسر وحدات فى أسرة كبيرة واحدة ذات هدف واحد ورئيس واحد.

وقلب عينيه فى وجوهنا ثم واصل حديثه:

- وفى كل أسرة طالبوكم بحب زملائكم فيها، وهو أول مطلب أطالبكم به فى نطاق أسرتكم، ولكنكم مطالبون إلى ذلك بحب الجميع بلا تفرقة وفاء بحق المنبع الذى منه نهلتم، ولو لم يبادلوا حبكم بحب مثله لجهلهم بوجود أسرتكم!

وتمهل قليلا ثم قال:

- وعملنا عجيب، ومحير إلا لمن يعقل. يحتاج إلى الصبر كما يحتاج إلى التهور، إلى التضحية بالمال والروح والحرص على المال والروح، إلى الاعتماد على النفس والتوكل على الله، إلى الزهد فى كل شىء، والشكر على كل طيب، إلى حب الحياة وحب الموت!

وانتظر حتى نفذت كلماته إلى أعماقنا وراح يقول:

- وقد ألفتم الطاعة فيما مضى، ومازلتم مطالبين بها هنا فيما أنقل إليكم من أوامر. ولكنكم مطالبون بالإبداع فيما عدا ذلك، لا راحة ولا كسل ولا رجوع إلىّ إلا فيما أبلغت من أوامر صريحة، وقد تمرستم بكافة الأساليب، ولكم أن تضيفوا إليها ما تقتنعون بصوابه، ومصيركم رهن بفطنتكم.

ولأول مرة أشعر بأن المهمة أشق مما تصورت. فإذا به يقول:

- وما العاقبة؟.. قد تكون الشرطة والعياذ بالله، أو ميتة بطولية، أو الترقى إلى مكتب الرياسة!

ولم أتمالك أن رفعت إصبعى فأذن لى بالكلام فقلت:

- تصورت أننى كلما اقتربت من الرياسة أن تجب الطاعة أكثر ويقل الاعتماد على النفس.

فقال بثقة:

- تصور خاطئ فرئيسنا حر، وما كانت ثورته إلا من أجل الحرية.

فتماديت فى السؤال قائلا:

- لم لا يسمح لنا القائد لنستمد منه الشجاعة والقوة؟

فأجـاب :

ـ لا سـبيل إلى ذلك إلا بالعمــل . إلى ذلك فهــو يتابــع العمل بكل يقظة .

فتماديت أكثر قائلا :

ـ رغم ذلك فقد ترك «ب» لجلاديه يقتلونه!

فرنا إلىّ طويلا حتى عصرنى الندم، ثم قال بصوت مهموس :

ـ لا أحد يملك أن يقطع برأى فى مصير زميلنا العزيز .

وتبادلنا نظرات هاتفة جياشة ، ولكنه قال بعجلة وحزم :

ـ آن لنا أن نرفع الجلسة التى ما قصدت بها إلا التعارف ، وإلى اللقاء .

وتعاقبت الاجتماعات ، وتتابعت الأوامر ، وكثرت الاجتهادات ، وأنجزنا أعمالا كبارا ، حتى لاح النصر فى الأفق مثل إشراقة الفجر . . وسقط كثيرون متلفعين بالبطولة فزادنا ذلك استبسالا وإصرارا ، وجعل رئيسنا «ج» يقول لنا كلما اجتمعنا :

ـ حقا إنكم لرجال!

أو يقــول :

ـ سيرحل الشر عما قليل فقد يئس من الأرض .

وكان ذا حلم يشجع على المناقشة . فقلت له ذات مرة :

ـ أما آن لى أن ألقى الرئيس؟

فقطب فى غير غضب وسألنى فى عتاب :

ـ أيداخلك شك فى عدالة تقديرى؟

فقلت بسرعة وصدق :

ـ معـاذ الله يا سيدى .

ـ ألا يكفيك ما أنت فى شغل به؟

فقلت بتوسل :

ـ أصبحت يا سيدى وكأننى من مجانين العشق .

فضحك ضحكة خفيفة وقال :

ـ من يدرى؟ لعلك رأيته وأنت لا تدرى .

فرمقته بذهول غير مصدق ، فقال :

ـ إنه ـ على مدى علمى ـ لا يعيش فى برج عـاجى ، ولكنه يمارس حيـاته بين الناس ، وربما غشى الأماكن التى تجوبها للعمل أو الراحة .

فقلت منكرا :

ـ لو لمحته للفت نظرى بقوة شخصيته .

فقال باسما :

ـ ما أكثر الأشياء الجديرة بجذب الأنظار لولا انغماسنا فى الأمور العابرة!

رددت قوله على مسمع قلبى طويلا ، وكدت أشغل به عن كل شىء ، لولا نداء العمل الذى لا يكف عن الصراخ .

* * *

وتواصل النجاح واقترب الشروق حتى انفجر رأى لم يقنع بكافة الإنجازات التى تمت وتلهف على النصر النهائى . من أى أسرة انبثق ذلك الرأى؟ . . أم هل انبثق فى الأسر الثلاث فى وقت واحد؟ . . بدأ بدعوة إلى عقد مؤتمر عام تحت الإشراف المباشر للرئيس الأعلى لإعادة النظر فى الخطة من أولها إلى آخرها . ولما لم تلق الدعوة القبول وقع ما يمكن اعتباره التمرد الأول فى الجماعة . فقد اجتمع ممثلون عن الأسر ، وتسابقوا فى عرض تصوراتهم الجديدة . واحتدم النقاش حتى انتهى بكل فريق إلى التحيز إلى أسرته وإيثار أسلوبها على جميع الأساليب والمناداة العامة بالانضواء تحت لوائها . وزلت القدم زلة أخرى فراح كل فريق يسخر من أساليب الفرق الأخرى . وارتفعت موجة الغضب إلى تبادل السباب والشتائم ، ثم انزلقوا إلى الاشتباك بالأيدى والأرجل ، وتمزقت الوحدة ، وانعزل الناس الطيبون وهم يذرفون الدمع ، متوقعين أن تنقض الشرطة فى الوقت المناسب فتقوض البناء من أساسه . ولم أصدق ما أرى وما أسمع ، وقطع الأسى قلبى ، وهرعت إلى رب أسرتى وقلت له :

ـ ما حدث لا يصدق .

فقال بحزن :

ـ هذه الأمور تحدث .

فتساءلت بحسرة :

ـ أبعد مشارفة النصر نقع فى اليأس؟

فهتف بحدة :

ـ لا تلمس اليأس بلسانك!

ـ أما يزال لديك أمل؟

فقال بنبرة قوية واضحة :

ـ انتظر ، كلا ، لا تنتظر . اندفع بلا تردد لصنع ما هو صادق وطيب ، ما هو إلا امتحان وككل امتحان فالأجوبة الصحيحة معروفة من قبل .

وتلقيت كلماته كما يتلقى الظمآن قطرة من الماء العذب .

ممرّ البُسْتان

بعد تردد طويل أجمعت على الذهاب.

نشدت الستر فى الليل، وغصت فى عطفة السنبلة المستكنة تحت أمواج الظلام. عرفت طريقى بضوء الذاكرة الخفى، هاتك الظلمة ومرشد القدم. وتسللت من الباب الحديدى الموارب ففغمتنى رائحة بخور أليفة. ومن حسن الحظ أننى لم أجد فى الدار أحدا من الزوار فطالعتنى وحدها متربعة على أريكتها الفارسية، فى ثوب مزخرف بألوان شتى هادئة على هيئة أهلة وزهور، مرسوم بحنايا جسم مدمج فصيح، وجفنين شبه مسدلتين، على أنامل تعبث بأوراق اللعب، لا تمل فى وحدتها من استطلاع الغيب. لم ترفع عينيها نحوى كأنما عرفت القادم من وقع خطاه، وكأنما تعمدت تجاهله. ولفرط شعورى بالإثم لم أجرؤ على مبادءتها بالتحية فجلست على أقرب كرسى إليها لائذا بالصمت. واصلت قراءة الورق، ومضيت أفكر فى طريقة لفتح الحديث بعد أن تبخر من رأسى ما كنت أعددته تأثرا بجو الحجرة المفعم بالذكريات، وبفتنة الإغراء الماثلة فى تراخ. وتظاهرت بالاهتمام كأنما كاشفها الورق بحقيقة غير عادية، فهمست:

- فعل آخر يناطح عناده!

وندت عنها آهة مليحة وتمتمت تكمل الرؤيا:

- سيلهب ظهره سوط محملة أطرافه بالرصاص!

فقلت فى تسليم مجيبا على تعريضها بى:

- ما مضى قد مضى وعلى أن أنظر إلى الغد.

وكأنها بوغتت بوجودى فنظرت نحوى بدهشة وهتفت ساخرة:

- دستور يا أسيادى!

فوضعت مظروفا متوسطا بين يديها وقلت:

- جئت لأسدد ديونى وأنظر إلى الغد..

فقالت تخاطب الورق:

- جاء ليسدد ديونه وينظر إلى الغد.

فقلت برجاء:

- يجمعنا العيش والملح، وأنت سيدة العارفين!

فقالت بجدية لأول مرة :

ـ هذه أمور تقع كل يوم .

فقلت بحرارة :

ـ لم يعد الزمن يأذن إلا بمطلب واحد .

فأجابت بهدوء :

ـ الأمـــان .

فقلت متشجعا :

ـ الأمان ، وكلما شاورت فى الأمر صاحبا أشار إلى رجل واحد !

فقالت باسمة :

ـ إنه من يشار إليه فى هذه الأيام .

فقلت بأسى :

ـ ولم أجد من أستشفع به إليه لما عرف عنه من كراهية للوساطة ولكنهم قالوا لى إن كلمتك أنت لا يمكن أن تخيب عند أى عظيم .

فقالت فى مباهاة :

ـ هذا حق لو أنه كان من أصحابى .

فتنهدت ولم أدر ما أقول فقالت فى ملاطفة :

ـ اعرف طريقك بنفسك .

فندت عنى ضحكة ساخرة وقلت :

ـ ها أنت تهزلين .

ـ لو يجىء مرة واحدة لملكته كالآخرين ، ولكن أغلب رواد حانة القمر من أصحابى إلا هو .

فقلت فى حسرة :

ـ آه لو تقع هذه المعجزة !

وتبادلنا النظر مليا . وفاضت عيناها بحيوية طارئة ، وضحكت ، ثم سألتنى :

ـ ما رأيك؟

فرمقتها بنظرة متسائلة فقالت :

ـ أن تقوم أنت بالمهمة . .

ـ أى مهمة؟

ـ المجىء به إلى هنا .

ـ ولكن كيف؟

فقالت بجدية :

ـ إنه يغادر حانة القمر عند منتصف الليل ، ثم يخترق ممر البستان إلى الميدان حيث تنتظره سيارته ، فالممر هو أنسب مكان للقائه .

ـ ولكنه أبعد ما يكون عن معرفتى !

فأغرقت فى الضحك وقالت :

ـ تقترب منه بأدب أولاد الناس الطيبين وتقول هامسا : «أتريد كأسًا جميلة؟ وبيتًا نظيفًا مكنونًا؟!» .

فقطبت غاضبا من سخريتها وأشحت عنها بوجهى ، فسألتنى :

ـ ألا يعجبك اقتراحى؟

فقلت بحدة :

ـ اسخرى ما شئت من ورطتى !

فقالت بجدية :

ـ إنى جادة إن كان الأمان يهمك حقا .

فصحت متسخطا :

ـ كيف تتصورين أن أفعل بنفسى ذلك !

ـ ما هى إلا مغامرة عابرة يعقبها تحقيق المراد .

فتساءلت بازدراء :

ـ أليس لديك الكثيرون ممن يحترفون ذلك؟

فقالت بإباء :

ـ لست فى حاجة إلى أحد منهم .

ـ وهل أكون أنا أول من تختارين؟!

ـ ما هى إلا مغامرة عابرة ، ألا تفهم؟

ـ كلا لا أفهم .

ـ بل عليك أن تفهم ، ولا بأس أن تختار موضعا فى الممر بعيدا عن نور المصباح لتتشجع بالظلام .

ـ وكرامتى؟

- إنى لا أدعوك إلى الاحتراف، ما هى إلا حيلة لمرة واحدة، ولك أن ترفضها إن يكن لديك سبيل آخر.

لدى عودتى لم أر ما أمامى من شدة انفعالى. لم يداخلنى شك فى قوة سيطرة المرأة على الرجال ولكنى رفضت السقوط بتصميم غاضب شرس حتى خيل إلىّ أنى لم أعد أكترث للأمان، مرفأ الإنسان الأخير وهو على الحافة. وكأنما هان علىَّ أن ألقى غول الغلاء وشظف العيش والمهانة والفترة الحرجة من العمر. واشتعلت فى رأسى حرب بلا هوادة ولا توقف. ورحت أجوب المقاهى والحانات فى ليل لا يريد أن يتزحزح. وقبيل منتصف الليل بقليل وجدتنى واقفا فى ممر البستان عند أقصى موقع عن نور المصباح. ماذا جاء بى؟ لعلى أردت أن ألقى نظرة من قرب على ذلك الرجل الذى لم أر إلا صورته فى الصحف فى بعض المناسبات. وكأنه كان يتحرك بانضباط فلكى، فعند منتصف الليل تماما أهل من ناحية حانة القمر بقامته المديدة يمزق السكون بوقع خطاه الثقيلة. خفق قلبى وتهاويت من عليائى. ولما حاذانى فى مسيره تقدمت منه خطوة، وسرعان ما تشتت عقلى فى مخاوف شتى فكدت أرى الأصابع تشير إلىّ. عند ذلك امّحت ذاكرتى وشل لسانى. وانتبه هو إلىَّ فضرب بشبا عصاه الأرض محتجا على اقترابى المفاجئ، فتراجعت ومضى فى سبيله.

ولم يدم ذلك طويلا ففى أثناء النهار لم أعف نفسى من اتهام. لماذا ذهبت إلى ممر البستان؟ لم اقتربت من الرجل خطوة؟ وهل منعنى حقا من الكلام إلا تشتت عقلى ووقوعه فريسة للمخاوف؟ الحقيقة أننى أخاف الناس. هم الأشباح التى تطاردنى. ترى هل ينفعونى غدا لو قاسيت شظف العيش والهوان؟! وانسقت بقوة إلى مطاردة الأشياء الغريبة عن ذاتى، ولم أبال أن أتخذ موقفى فى ممر البستان قبيل منتصف الليل. وانتظرت فى تصميم وحيرة معا حتى أقبل الرجل نحوى فى طريقه إلى الميدان. واقتربت منه وأنا أهمس:

- لدى كأس ونديم جميل وبيت آمن!

والتفت نحوى التفاتة سريعة. كان الظلام يفصل بيننا ولكنه أحاط ولا شك بهيئتى.

وسرعان ما أشاح عنى بوجهه وقال وهو يمضى بنبرة غاضبة:

- عليك اللعنة.

احترقت حياء وخزيا فلم يغمض لى جفن. لقد بعت أعز ما أملك بلا ثمن. رضيت بالهوان ولكنه أعرض عنى بكل ازدراء. ومع الليل ذهبت إلى عطفة السنبلة، وما إن رأتنى مقبلا على مجلسها حتى هتفت:

- الخيبة مسطورة على وجهك!

فقلت وأنا أنحط فوق الكرسى يائسا :

ـ لنبحث عن وسيلة أخرى .

وحكيت لها ما حصل ، فقهقهت ساخرة وقالت :

ـ يا لك من بغل ، تتعرض لجنابه بهذا المظهر الوقور الأنيق؟ !

فسألتها حانقا :

ـ وماذا كان بوسعى أن أفعل؟

فاسترسلت فى الضحك ثم قالت :

ـ لعله ظنك شخصا من خصومه يروم الإيقاع به .

ـ على أى حال فإن ذلك يؤكد وجوب البحث عن سبيل آخر .

فقالت بجدية :

ـ لا سبيل لك غير ذلك فلتصحح التجربة .

فتفرست فى وجهها الجميل غير مصدق فقالت :

ـ البس الرداء المناسب لغايتك .

رجعت غاضبا عليها ، غاضبا على نفسى ، غاضبا على رغبتى الملحة فى الأمان . ومضت أيام وأنا مستغرق فى حوار مجنون مع ذاتى ، حتى وجدتنى مرتديا جلبابا وطاقية وحذاء باليا ، أنتظر فى ذات الموقع بممر البستان قبيل منتصف الليل . ومن شدة إحساسى بالهوان هان على فلم أعد أبالى به . ولما أزفت الساعة أقبل بقامته المديدة فتوثبت للعمل حتى حاذانى فدنوت منه وأنا أقول :

ـ عندى ما يسر العين وتشتهيه النفس .

فلوح بعصاه حتى تقهقرت مذعورا وقال بامتعاض وسخرية :

ـ ماذا قلت يا صاحب السمو؟ !

ورجعت إلى دارى وأنا ألملم نفسى المبعثرة وأغوص فى أعماق خيبة جامعة . وتضاعف سخطى ولكن تضاعف تصميمى أيضا . وذهبت إلى السيدة وقصصت عليها قصتى متحديا . غير أنها هزت رأسها فى أسف وقالت :

ـ حقا إنك لبغل ، وفى حاجة إلى من يسندك لدى كل خطوة تخطوها .

فقلت ثائرا :

ـ اقتربت منه لا فرق بينى وبين أحقر صعلوك .

فتساءلت ساخرة :

ـ وصـوتك؟ !

ـ صـــوتى؟

ـ خاطبته يا حضرة بالصوت الذى اعتدت أن تخاطب به مرءوسيك!

فقلت بارتياب :

ـ لا أظـــن . . .

فقاطعتنى :

ـ لا تبدد الوقت ، إنى خبيرة بهذه الشئون!

وغبت أياما قضيتها فى التفكير والحزن والتدريب دون أدنى تفكير فى التراجع . وكيف أتراجع بعد أن بعت كل شىء بلا ثمن؟ ولما رجعت إلى موقعى بممر البستان كان الصبر قد أنهكنى وكذلك القلق والأسى . ولما حانت اللحظة المرتقبة تقدمت بخفة وحنيت رأسى بذل وقلت بانكسار ولكن بمرارة لم أستطع التخلص منها :

ـ عندى شىء طيب ، فى مكان محترم وآمن .

فمضى دون اكتراث بى ، ولما هممت بإسماعه صوتى من جديد نهرنى قائلا :

ـ الأجدر أن تدعو الناس إلى المآتم!

وسرعان ما فطنت إلى زلتى ، بل الحق أننى حنقت على نفسى لغلبة المرارة على صوتى . واعترفت بكل شىء للسيدة لأتقى سخريتها . وقلت بتسليم :

ـ لن أعود إلى المحاولة .

فتساءلت فى استنكار :

ـ أتيأس بعد أن لم يبق إلا قيراط من الصبر؟

فنفخت قائلا :

ـ لا نهاية للأخطاء ، وقد مللت .

فقالت لى بنبرة مشجعة متجنبة أى إثارة من السخرية :

ـ فكر قليلا يا صاحبى القديم ، كيف يمكن أن تستسلم لليأس وأنت على قيد خطوة من النجاح؟ إنك متوهم أنك صبرت بما فيه الكفاية ولكن ما قيمة الصبر بغير الرضا؟ وقد أبديت إصرارا لا بأس به إذ من كان يتصور أنك تقدم على ما أقدمت عليه؟ ولا تنس فى النهاية أنك تسعى إلى اصطياد رجل ولا كل الرجال .

فقلت بريبة :

ـ يخيل إلى أنه ليس من أهل ذلك؟

فقالت ضاحكة :

ـ بل هو ذلك نفسه!

ثم مواصلة بجدية :

ـ ولولا ثقتى من ذلك ما عرضتك للتجربة ، وأنا لست ممن يخونون العيش والملح .

وتركتها بروح منتعشة ، وتفتح الورد فى صدرى من جديد ، فصبرت أياما ولا هم لى فى الحياة إلا ممر البستان ، حتى وجدتنى فى الموقع أنتظر . ورأيته مقبلا بقامته المديدة فالتزمت موقفى حتى مر . ثم تبعته بخشوع وأنا أهمس :

ـ لا تدع فرصة العمر تفوتك!

فلم يلتفت نحوى ومضى . فتبعته بعناد وأنا أهمس :

ـ بيت آمن ويليق بجنابك . .

وإذا به يسألنى فجأة :

ـ أيـــن؟

فقلت بسرور لم أجربه من قبل فى حياتى كلها :

ـ عطفة السنبلة ، البيت الثالث إلى يمين الداخل .

وكنا اقتربنا من الميدان فنادى سائق سيارته ، ولما جاء مهرولا ، صاح به آمرا :

ـ اقبض على هذا الرجل وناد الشرطى!

فوضعت راحتى على فم السائق باستماتة وقلت وأنا أنتفض كالمصعوق :

ـ كلا . . انتظر . . لست منهم . . أنا رجل محترم . .

فأمره بإشارة أن يدعنى وشأنى وتساءل متهكما :

ـ محتـــرم؟

فقلت وما زلت أنتفض كالمصعوق :

ـ إليك بطاقتى . .

وتناولها وراح ينظر فيها ثم تساءل :

ـ كأنك محتال .

فاندفعت أقص عليه قصتى بصراحة كاملة مذ اجتاحنى نشدان الأمان فأزاح بقية مطالب الحياة عن كاهلى . وصمت مليا وهو يتفحصنى على ضوء الشعاع الهابط من مصباح فى الميدان ، ثم قال ببرود :

ـ إياك أن ترينى وجهك مرة أخرى!

* * *

وعقب أيام لم أحصها جررت قدمى إلى عطفة السنبلة وكأنما قد طعنت فى العمر

أعواما مديدة. ولما شارفت مدخل الدار برزت من تلافيف الظلام عجوز واعترضت سبيلى قائلة بصوتها الهرم:

- السيدة معتكفة.

فعرفت صاحبة الصوت وتساءلت:

- ماذا وراءك يا أم بركة؟

فعرفت بدورها صوتى وقالت:

- السيدة تطالبك بتجنب الزيارة حتى ترسل فى طلبك.

فخفق قلبى وتساءلت:

- هل تنتظر السيدة زائرا مهما؟

فقالت أم بركة:

- لا علم لى بشىء، اذهب مصحوبا بالسلامة.

ولم أجد مفرا من الرجوع. وتكشفت لى سحب الغموض عن أمل. ما كانت تتخذ هذا القرار لو لم تكن تنتظر زيارة هامة. وما معنى قولها «حتى ترسل فى طلبك» لو لم يكن للأمر علاقة بمشكلتى؟ أسفر الظلام عن أمل. وخفق قلبى بالرؤى. ولاح لى الأمان بوجهه المشرق وراء غبش الظلام. لم يبق إلا التحلى بالصبر. وها هو التلهف يحيل الصبر عذابا حقيقيا. ومرت الأيام. وعذاب الصبر يتفجر ويزداد افتراسا. همى الوحيد هو الانتظار. وتساؤلى المتردد هو:

- متى يجىء الرسول؟!

البُسْتَانِىُّ

كان وما زال حلمى الوردى أن أستقر بعد المعاش فى بيت ذى حديقة صغيرة. وأن أكرس بقية العمر لفلاحة الأزهار والبساتين. ومن أجل تحقيق هذا الحلم رسمت لنفسى خطة طويلة الأمد، أن أبذل فى عملى أقصى ما أملك من جهد كى أرقى فى سلمه إلى درجة تضمن لى معاشا محترما، وأن أسيطر على سلوكى ونظام معيشتى كى أدخر من مرتبى ما ييسر لى بناء البيت المنشود بعد انضمامى إلى إحدى الجمعيات التعاونية، وأن أدرس دراسة متأنية فلاحة الأزهار والبساتين. ولو أن الخطة نفذت فى كتمان وحكمة ما تعرضت لقيل أو قال، ولكننى كنت وما زلت من الآدميين الذين لا يخفون أسرار أحلامهم، فعرف جميع الصحاب حلمى الوردى وما أعد له، وعلم به آخرون، حتى

عرفت على مر الأيام، وعلى سبيل المزاح، بالبستانى. وجرت المقادير فى مجاريها غير عابئة بحلمى الأثير، فتعرض العالم لويلات من الحروب والأزمات، فمضت الأسعار فى ارتفاع وقيم النقود فى الهبوط، ولم تتحقق وفرة بلا حساب إلا فيما أنتجت من بنين وبنات. والأدهى من ذلك كله أنى لم أحظ برئيس ينتفع بمواهبى فيرشحنى لدى حلول الفرصة للترقية. وكنت أقول بصوت باتت الشكوى سمة غالبة على نبرته:

- يا سادة - ألا يلقى عملى المتواصل عندكم شيئا من الجزاء؟

ولما لا أجد أذنا صاغية أقول:

- وإذا عز العدل أفلا يوجد شىء من الرحمة؟

فيقول لى رئيسى:

- انتبه لواقعك يا بستانى، أين الإنتاج الذى تحدث عنه؟ ما أنت إلا مستخدم عادى دون المستوى المطلوب..

فأقول مستميتا فى الدفاع:

- ولكنى مجتهد، ولكل مجتهد نصيب.

فيضحك قائلا:

- لم يعد العصر يحفل بالأمثال القديمة، اليوم نحن نربط الحوافز بالإنتاج..

وجعلت أغوص فى الحيرة والظلام. أقلعت عن ذكر حلمى الوردى ولكنه ظل فرجتى وحلم يقظتى. وكلما لمحت لونا أخضر تراءت لخيالى الحديقة: فتنقلت بين ورودها وأزهارها. ملقيا خبرتى فى خدمتها. متلقيا منها مسرات الأريج والألوان. غير أن زوجتى لم يكن يشغلها إلا مستحقات البقال والجزار والدروس الخصوصية، ولا تكف عن تذكيرى. وعانيت أمر تحمل الأعباء ومرارة الإخفاق حتى رق لى رفقاء الطريق من زملائى الخائبين فهمس فى أذنى أحدهم:

- كيف تحتمل الحياة بلا ابتسامة؟

فسألته:

- خبرنى كيف يروق لك الابتسام؟

فهمس بإغراء:

- عليك بخمارة «خذ واشكر».

كان فى غاية الوقار والتعاسة فعجبت لشأنه وقلت بفتور:

- كيف تدعوننى إلى مزيد من الإنفاق؟!

فضحك قائلا:

ـ معاذ الله، هل يعز عليك ادخار قرش واحد ولو بالرجوع مشيا على الأقدام مرة؟

تكلم بثقة ويقين فقلت أجرب، وهكذا اهتديت إلى خمارة «خذ واشكر» فى عطفتها الأثرية «زاوية العابدين» بالباب الأخضر. وهى أشبه بمغارة فى جوف جبل، تعيش فى ليل دائم يغوص فى عمق المبنى الضيق المهلهل التى تقع فى أسفله، يفضى إليها باب مقوس الهامة ولا نافذة فيها، ذات شكل بيضاوى، وفى نهاية عمقها يقوم برميل ضخم ذو صنبور سفلى يجلس إلى جانبه على أريكة عجوز يدعى عبدالبر، وتصطف على جناحيها أخونة خشبية ومقاعد من القش المجدول. ويقدم الشراب فى كوب صغير مضلع لا يملأ عين الظامئ، وهو شراب مجهول الهوية لا يعرف كنهه حتى الراسخون فى السكر والعربدة. وسرعان ما تبين لى أن قلة من رواد الخمارة من يستطيعون تجرع الكوب حتى ثمالته، وكثرة تقنع بنصفه لشدة مفعوله وبقاء أثره حتى الفجر. وما كدت أرشف منه رشفات حتى أكرمنى غاية الكرم فاغتال بنفثاته الزاحفة وحوش الهموم التى تطاردنى ليل نهار، وأحل محلها الأنس والرضا والبشاشة. ووجدتنى وسط الحديقة أغرس جذورا جديدة وأقطف أزهارا يانعة. ومال صاحبى نحوى قائلا:

ـ هلم نناقش همومنا الملحة..

فقلت محتجا:

ـ أريد الحديث عن الورود وأنواعها..

فقال ضاحكا:

ـ ها قد وصلت إلى الحديقة.

فسألته:

ـ ألا تسمع تغريد البلابل؟

واندفعنا نغنى معا:

الزهر فى الروض ابتسم

وكانت تقاليد الخمارة ترحب بالغناء. ومن كل ركن ترامت أغنية مشرقة، وجلس عبد البر، بلا حراك وهو يبتسم.

* * *

وحرصت على كتمان السر ما وسعنى ذلك غير أن الخمر ذات رائحة ناطقة من المتعذر إخفاؤها إلى الأبد، من أجل ذلك افتضح أمرى، وتلقيت فيضا من اللوم والتعنيف وكانت زوجتى أول البادئين فقالت لى:

ـ أكان ينقصنا هذا الداء؟

فقلت لها بصدق :

ـ إنى أؤدى ثمنه مشيا على الأقدام ولم يمس الميزانية بسوء .

فتساءلت :

ـ والأولاد الذين يكبرون يوما بعد يوم؟

فقلت بضيق :

ـ ربنا يستر .

ولكن السر انتشر فى أماكن كثيرة، تعدى من لسان إلى لسان، فدعانى بالكاساتى من سبق أن أطلقوا علىّ البستانى . وتجلى أثر ذلك فى موسم الترقيات، فقال لى رئيسى متهكما :

ـ كنت ذا هم واحد فأصبحت ذا همين . .

فقلت محتدا :

ـ يا أهل العدل والإنصاف، احكموا على عملى، ولا شأن لكم بسلوكى خارج الديوان .

فقال الرجل بامتعاض :

ـ ولكن الثقة لا تفرق بين هذا وذاك .

فقلت محتدا أكثر :

ـ المسألة أننى بلا شفيع !

* * *

واستجاب القدر لشكايتى الخفية فجاد على بالشفيع المنشود . كنت فى خمارة «خذ واشكر» على أحسن حال . وحكيت لصاحبى حالى بينى وبين رئيسى وأنا مغمض العينين فقال لى :

ـ سيكون لك الشفيع الذى تريد .

فالتفت إليه متسائلا ولكنه كان قد اختفى تماما . وحل محله آخر لم أره من قبل . كان يرتدى عباءة من كتان أبيض ذات ذيل من جلد النمر وعلى رأسه عمامة خضراء . عجبت بهيئة وجهه التى تذكر بوجه الأسد رغم ميل جسده إلى القصر . وسألته بدهشة :

ـ من أنت؟ . . وأين جليسى؟ !

فأجاب بهدوء مفعم بالثقة :

ـ إنى شفيعك .

ولم يداخلنى شك فى صدقه أو قدرته، وتلقيت ذلك فيما يشبه الإلهام الذى لا يناقش. من أجل ذلك قمت وأنا أقول:

ـ خير البر عاجله.

واصطحبته إلى بيت رئيسى فى الزيتون، فى تلك الساعة المتأخرة من الليل. وطرقت الباب بشجاعة لا أدرى من أين مأتاها ففتح الباب بنفسه، ونظر إلى بذهول واستياء لم يحاول إخفاءه. وجلس قبالتنا فى حجرة الاستقبال متجهم الوجه، فقلت:

ـ معذرة عن زيارة فى وقت غير مناسب.

فقال دون مجاملة:

ـ هذه الساعة من الليل!

فأومأت إلى رفيقى وقلت:

ـ أقدم لسيادتك شفيعى..

فلم يحول بصره عنى، وقرأت فى ناظريه توجسا وقلقا، فالتفت إلى صاحبى وقلت برجاء:

ـ تكلم يا سيدى..

فقال الشفيع بهدوئه المكين:

ـ إنه يستحق الترقية لدرجة جديدة فى طريقه الطويل!

فنظرت إلى رئيسى وهو غائص فى روبه البنى القاتم فإذا به يتمادى فى القلق والخوف. وأشفقت من إحراجه فنهضت قائما وأنا أقول:

ـ موعدنا الغد يا سيادة الرئيس..

* * *

وجاءت ثمرة الشفاعة بعكس ما قدرت فقد تقرر إحالتى على المعاش قبل بلوغى السن القانونية بخمسة أعوام. ولم تجد الشكاوى المتلاحقة التى رفعتها إلى الجهات المختصة. وساء مركزى فى أسرتى وفى الأماكن الأخرى. وكاد بناء أسرتى أن ينهار لولا سعى أهل الخير لإلحاقى بأعمال إضافية، فعملت مصححا بمطبعة السعادة، وكاتبا على الآلة الكاتبة بالقطعة فى مكتب توكيل. وبات حلم امتلاك البيت والحديقة خرافة ولكنى لم أكف عن ممارسة أحلام اليقظة فى خمارة «خذ واشكر». وجعلت أقول لصاحبى:

ـ كأنما جاء الشفيع ليخرب بيتى..

فقال الرجل:

ـ ولكن حالتك اليوم أحسن مما كانت وأنت فى الخدمة..

فقلت متشكيا :

ـ ولكنى أعمل كالثور فى الساقية .

فقال باسما :

ـ الصبر مفتاح الفرج .

فقلت بحنق :

ـ وددت لو يجىء مرة أخرى لأسأله .

فقال ساخرا :

ـ خليها على الله بلا مناقشة ولا وجع دماغ .

* * *

وبلغت دراستى لفلاحة الأزهار والبساتين غاية يعتد بها ، فسنحت لى فكرة مثيرة ، وهى أن أستثمر معلوماتى متطوعا بلا أجر . ألا يجعل ذلك من الحلم حقيقة؟ ومن المستحيل ممكنا؟ إن الحدائق الخاصة فى حينا متوفرة بكثرة تفوق الحصر ، وإذا عرضت على أصحابها خدماتى فلن يرفضوها ولو على سبيل مجاملة الجار . بذلك لا يهدر عنائى الطويل المتواصل ولا يتلاشى سرورى فى الحياة . وها أنا أمضى البقية الباقية من حياتى فى الخضرة بين الأزهار دون حاجة إلى تدبير أو شراء أو بناء ، وكأنى أملك بدل الحديقة الواحدة عشرا .

هكذا حققت حلمى متجاوزا كافة عقبات الطريق . .

النِّسْيَانُ

اشتعل خيالى فانفجرت موجاته فى جميع الأرجاء ولكنه لم يلم بالمدينة اللانهائية . إنها تربض فى أى مجال من مجالات البصر ، كائنا عملاقا بلا حدود ولا تناسق ، ملوحة بآلاف الأذرع والسواعد والأصابع ، تستوى فوقها آلاف مؤلفة من الأبنية الشاهقة المجللة بطابع العصر المتعجرف التياه ، وأخرى متهرئة حال لونها فى قبضة الزمن الجارف وثالثة آيلة للسقوط يلتصق بها سكانها فى استسلام وإصرار ، وفى فجاجها يتلاطم الناس فى صخب ويتلاقون فى غفلة وضوضاء ، وتتابع الباصات والسيارات والكارو والجمال وعربات اليد عازفة أصواتها المتضاربة ، والحوادث كثيرة والأفراح صارخة والجنازات زاعقة والمشاجرات دامية والعناق حار وحناجر تنادى على سلع من الشرق والغرب والجنوب والشمال ، ويختلط الأنين الشاكى بشهقة الحمد والرضا .

مأوى المهاجرين من الكفر مثل طوق نجاة فى البحر العاصف . يستقبلنى شيخ القبيلة المهاجرة قائلا :

ـ ابن جديد ، أهلا بك فى أسرتك .

فألثم يده وأقول :

ـ شكرا لك يا عمى .

ووجدت مقعدى فى المعهد ينتظر أيضا . وكنت عند حسن الظن فتُوّجت الرحلة بالنجاح . وألحقت بالعمل فى مصلحة المساحة وأنا أقول «مَن جَدّ وَجَدَ» . ومن العمل تسللت إلى المقاهى والأصحاب ولكن بحذر المتقشفين . وراودتنى أحلام القلوب الصائمة . وفى مأوانا ورود متفتحة . ودارت العجلة بالإصباح والأصائل والأماسى . وحدث شىء مألوف ، حلم عابر يذكر أو يغفل . ولكن يبدو أنه ومض فى عينى ومضة لم تغب عن بصر شيخنا الثاقب . فقال لى وهو متربع على أريكته يناجى حبات مسبحته :

ـ فى نفسك شىء يدور .

فقلت باسما :

ـ جاءنى فى المنام شخص وحذرنى من النسيان . .

فتفكر مليا ثم قال باسما أيضا :

ـ إنه يذكرك بالشباب !

وفطنت إلى ما يلمح إليه . وفى مهجرنا لا تحول الصعاب بين المرء وبين ما يشتهى قلبه . قبيلة متآخية متراحمة . والحجرة تتسع لزوجين بمثل ما تتسع لفرد . والعروس جاهزة منتظرة وثمة تسهيلات جمة ومساعدات ميسرة ويقول الشيخ :

ـ لنلتزم بالسنة الشريفة ، وعلى بركة الله .

وتطلى الحجرة ، وتؤثث بالجديد المناسب ، وتستقبل عروسين فى تلك المدينة الهائلة التى لا تبالى بأحد . والحياة فى مهجرنا تقوم على التضامن ، وتتفتق عن حيل كثيرة للتغلب على عسرة الأيام . وأقول لنفسى وأنا فى غاية السعادة :

ـ طريقنا عبدته أقدام أسلاف كرام .

وانهمكت فى الحب والزواج والأبوة والعمل . وجعلت أقول للشيخ :

ـ الفضل لله ولك .

فيقول بامتنان :

ـ بيتنا مثل سفينة نوح فى هذا الطوفان الذى يحدق بنا .

فقلت له :

ـ عمى، الناس تحسدنا وتغبطنا . .

ـ ويزداد ذلك كلما أمعنا فى الزمن .

وانتبهت ذات ليلة على الحلم يعود من جديد . ويحذرنى ذلك الرجل من النسيان . رأيته كما رأيته فى المرة الأولى أو هكذا خيل إلىّ . الرجل هو الرجل والكلام هو الكلام . واستمع الشيخ إلىّ باهتمام ثم قال :

ـ عودتنا أن تحلم بهواجسك .

فقلت :

ـ قلبى مطمئن وخال من الهواجس .

ـ حقا؟! ألا تفكر فى مستقبل أسرتك؟

فقلت كالمحتج :

ـ سعيد فى هذا الزمان من يستعد ليومه .

ـ وماذا تفعل غدا إذا ألحت عليك المطالب؟

فلذت بالصمت فى كآبة، فقال :

ـ افعل كما يفعل كثيرون، استعن بعمل إضافى . .

ويسر لى بنفوذه التدريب فى مركز سباكة . وبرعت فى ذلك براعة محمودة . ورحت أستثمر خبرتى الجديدة مساء بعد فراغى من عملى الرسمى . وتوفرت أرباحى فتراكمت مدخراتى . وتابع الشيخ نجاحى بارتياح وهو يقول :

ـ هذا خير من الانحراف، وزماننا يطالبنا بأن نكون كالقطط بسبعة أرواح .

ودب فى أوصالى نشاط باهر، وانتشيت بحب الحياة وتغافلت عن فوضاها الضاربة فى كل موضع . وأغرانى ذلك باكتراء شقة غرمت فيها خلوا لا يستهان به . وودعنى عمى فى شىء من الفتور وهو يقول :

ـ هكذا تجرى الأمور .

وآمنت بأنه لا طمأنينة لحى بغير العمل والمال، وبأن أسعد ما نناله فى دنيانا مستقبل مأمون . وحافظت على اعتدالى بقدر الإمكان فلم يجد جديد فى حياتى سوى التدخين واللحوم الدسمة والحلوى الشرقية . وتخرج أبنائى وبناتى فى مدارس اللغات . وأقبل مع الأيام كل شىء حسن . وفى غمرة حياتى العذبة انتبهت ذات ليلة على الحلم يعود للمرة الثالثة، ويحذرنى الرجل من النسيان كعادته . رأيته كما رأيته فى المرتين السابقتين أو هكذا خيل إلى . الرجل هو الرجل والكلام هو الكلام . وعجبت ولم أفلح فى الاستخفاف به . ولم يكن الشيخ قريبا لأحاوره . وكنت قد انقطعت عنه فترة غير قصيرة

لانهماكى فى العمل فكرهت أن أزوره زيارة غير بريئة لمنفعة. وساورنى قلق تسلل لسلوكى فعانت منه زوجتى، وقالت لى:

- خير من ربنا وشر من أنفسنا!

فقلت باستهانة:

- ما هو إلا حلم على أى حال..

فقالت مصدقة:

- ولا أراك تنسى شيئا..

ولكنى لم أستطع التملص من قبضة الحلم العجيب. ظل يطاردنى ويشغل بالى. وتحت تأثيره اندفعت من الطوار إلى الطريق لأعبره دون انتباه لحركة المرور. فجأة وبلا انتباه. وانقضت على سيارة من قريب فلم تستطع أن تتحامانى أو تفرمل قبل أن تصدمنى وتطيح بى كالكرة. فقدت الوعى تماما حتى استيقظت فى المستشفى على حال لا يرجى معها أمل.

* * *

ومن منطلق العبرة والأسى يحدثنا الشيخ فيقول:

- نقل إلى المستشفى تظله سحابة الموت السوداء. فأجريت له جراحة خطيرة، وثبت من التحقيق وشهادة الشهود بأنه اندفع إلى الطريق فجأة وكأنما يقصد الانتحار، وبأن لا مؤاخذة ألبتة على السائق، وجلست جنب فراشه وقد علمت بأنه لا أمل فى نجاته، وزارنا صاحب السيارة مواسيا ومتطوعا لمد يد المساعدة، فمكث قليلا ثم ذهب. وتحرك جفنا ابن أخى وتجلت ومضة ضعيفة فى عينيه فأدنيت أذنى من فيه. وسمعته يهمس:

- إنه الرجل، هو هو صاحب الحلم...

وكانت آخر كلمات ندت عن شفتيه...

صاحبة العصمة

يوم جاءت كان يوم. بياض نهاره توارى فى عتمة غاشية تحت السحب المتراكمة، ونسائمه جالت مثقلة بالبرودة تسفع الوجوه وترعد الأطراف، ونذر المطر تهيم فى الفضاء. وتوجس الناس فحملوا السلع إلى أعماق الحوانيت ولاذت عربات اليد بالأفنية. لم يبق فى الحارة إلا الصغار يتحدون عبوس الجو بمرحهم المستهتر. جاءت فى

حنطور يتأود فوق أديم مبلط، يشده حصان مهزول، ويسوقه حوذى عجوز نعسان، مسبوقة فى اليوم السابق بأثاث فخيم بهر الأعين المتفحصة. وقف الحنطور أمام آخر بيت من ناحية القبو، فمرقت منه إلى الداخل امرأة رشيقة محجبة لم يكشف نقابها المحكم عن ملمح من ملامحها، وتبعتها عجوز سافرة مقوسة الظهر من الهرم. أذاعت صاحبة البيت بأن الدور الثانى والأخير اكترته أسرة ذات شأن ووزن ولكن لم يتصور أحد أن تتكون من امرأة وحيدة وخادم عجوز. ولما دارت العربة بصعوبة لضيق المكان لترجع من حيث أتت وثب رجل نحو الحوذى وسأله:

- من أين جئت بحمولتك؟

فأجاب العجوز وهو يهز اللجام مستحثا حصانه على السير:

- من زين العابدين.

ولم يشبع الجواب نهم أحد وأخذ الرذاذ يرش الأرض.

وقال صوت:

- الخير على قدوم الواردين.

فتعجب آخر:

- أى خير فى هذا الجو العاصف!

ورغم انهماك الخلق فى غيابات الحياة اليومية وانغماسهم فى الحساب نفثوا مع أبخرة أفواههم الظنون وجاشت صدورهم بالأخيلة المحرمة، واستفحل الخطب بتسلل أنباء عن ترملها المبكر ووحدتها المثيرة وترفعها المتحدى وما خلفته وراءها من احتدام الأهواء الجامحة. تقول مالكة البيت بفخار:

- أرمل الشيخ النقيب صاحب الوقف المعروف باسمه وشرطه الأول أن يبقى استحقاقها ساريا ما بقيت أرمل فإذا تزوجت سقط حقها فى الريع..

ويطالبها صاحب الوكالة بوصفها فتقول:

- لمحة عابرة ولكنها ثمرة ناضجة قبيل منتصف العمر، ليس كمثل جمالها شىء..

ويتجهم وجه المرأة الغامق مثل قشرة الدوم وتقول محتجة:

- لا ترحب بلقاء أحد، ولا أنا صاحبة البيت، أصبح على وجه خادمتها الكركوبة أم طاهر، أما كوثر هانم...

ويقاطعها أكثر من رجل:

- اسمها كوثر؟

- كوثر البدرى كما هو مرقوم فى عقد الإيجار..

وأم طاهر تجول فى الحارة مع تعاقب الأيام. تطوف بالجزار والبقال والفاكهى والعطار والبنان وتعرض عن المتطفلين. وسيدتها قابعة فى أعماق ذاتها، لا تغادر البيت، لا تلوح فى نافذة، ولكنها غزت الأخيلة بسحرها الخبىء، وأشعلت الوجوه والأطراف بوقع نظرتها المتسللة الخفية من وراء النوافذ المغلقة، تَرى ولا تُرى، تقيم وتزن وتحكم من جانب واحد، وهم تحت رحمة مجهولها لا علم لهم بما يروق أو يسخط، بما يفتح الأبواب أو يغلقها، بما يقرب أو يبعد. وهى وفدت إلى الحارة فى وقت استقر فيه زحل فى برج الحظ المائل، فأرسل نحسه ليغمر القاصى والدانى. ثقلت الأرواح ففقدت خفة مرحها، وصمت الآذان عن سماع الغناء، وجفت القلوب فتلاشت خفقة الحب والحنان، ومضت الشمس تشرق وتغرب والقمر يسطع ويأفل فلا يظفر بمن يدهش أو يفرح أو يتذكر، ولكن احتدم البيع والشراء وتناطح الربح والخسران، وتوالى الملء والتفريغ، وكثر الغش والحلف بالطلاق، والحج لعقد الصفقات، والزواج لتأمين الدعارة، واندلاع الخصومات لأتفه الأسباب، حتى حار من أمره ينسون، الشاب مجهول الأب نحيل الجسم ذو قلب الطفل ووجه العذراء، ما بال أحد لا يداعبه أو يعطف عليه كالأيام الماضية؟ ما زال سقاء الحارة يطوف على البيوت بالقرَب ولا يجد عند المساء من يلهو معه أو يطرب لصوته إذا غنى. وفدت إلى الحارة وهى علَى تلك الحال فما فعل مجيئها إلا أن أرث الطمع وهيج الجشع وقدح زناد الهدم والتخريب. وقال مدَّعو الحكمة إن امرأة هذا حالها لا تفرط فى الوقف من أجل الشرع ولكنها فى النهاية تمهد فراشها للزنا لصاحب القسمة والنصيب فيفوز بالحب والمال معا. وفى الليالى الساهرة التى يحتفلون فيها بالصفقات الرابحة تنهزم جحافل الليل أمام أضواء الكلوبات، وتغص الأرض بالجماهير، وتزدحم الأبواب والنوافذ بالنساء. وترتسم هامتها وراء خصاص النافذة فتنبض العروق بالحماس، ويثمل بالنشوة السكارى والمفيقون، فيتبارون فى الرقص والمصارعة والمزاح يقدمونها قرابين تحت النافذة، استثارة للرغبات الكامنة وتمهيدا للاقتحام. ويراقب شيخ الحارة ما يجرى بعين تطفح بالكآبة فيحدس قلبه المتاعب المقبلة فى طيات السحب، ولم يجد من يحاوره إلا ينسون المستقر فى رحاب الطيبة والأسى فيقول له:

- لا يتذكرون قتلى أسلافهم يا ينسون.

فيسأله الفتى الذى سعد بإقباله:

- كيف قتلوا يا شيخنا؟

فيقول ماضغا مرارة الذكرى:

- لأتفه الأسباب يا ينسون..

ومضت أيام ذاك الشتاء العاتى دون أن تصيب شهوة مرماها فانفجر غضب الكبرياء فى القلوب المحتدمة بالضجر، وتمخضت ليالى الغرز عن مكيدة، فاختفت أم طاهر هاجرة خدمة السيدة الوحيدة، وتعهدت مالكة البيت بالامتناع عن تقديم أى مساعدة للجميلة المتوارية. دبروا ذلك ليجبروا المرأة على الظهور والمشى فى السوق ثم يكون بعد ذلك ما يكون. ولم تكن المكيدة مما يتفق مع تقاليد الحارة وشهامتها الموروثة، ولكنها لم تنب عن ذوقها الذى اكتسبته أخيرا فى دوامة الأعاصير الجارية، ووعدت الجميع بإشباع نهمهم ودغدغة غرائزهم وتحقيق أخيلتهم المحمومة. ولم تشغلهم أعمالهم عن التربص بالمسكن المغلق. عما قليل ستهل عليهم بقامتها المشوقة، كاشفة عن ذاتها، ويتهادى إلى الآذان صوتها الناعم. وباقتراب اللحظة المترقبة اضطرمت المنافسة فى الأعماق، وتوترت العلاقات واندلع الاستفزاز فى المحاجر فأنذر بأوخم العواقب. منى كل نفسه بها ورأى ذاته فى مرآة الوجود الأجدر والأحق بملكيتها شرعا أو سفاحا. وتوثب شيخ الحارة للعمل ولكن الأحداث لم تمهله، فنشبت معارك وحشية، كلما سد ثغرة انفتقت ثغرة، وتعرت الأنفس بلا حياء. وجمع الشيخ عزيمته ومضى إلى البيت، وطرق باب الست. ومن وراء شراعة الباب المواربة قال:

- أنا شيخ الحارة.

فجاءه صوت غاية فى العذوبة وهو يقول:

- انتظرتك من أول يوم!

- عظيم، ماذا ترين حلا لهذه الوحلة؟

فقالت بعتاب:

- ظننتك قادما بالحل!

- الوحش انطلق بلا رادع، ولن يرجعه إلى قفصه إلا أن تذهبى بسلام..

فقالت بأسى:

- جئت هربا من هذا الوحش!

فتفكر قليلا ثم قال:

- اختارى أحدهم.

فقالت بازدراء:

- لا خيار بين هؤلاء الحقراء.

- منهم من يعد من أغنى الأغنياء.

- ليس المال ما ينقصنى.

ـ ستخرجين اليوم أو غدا إلى حارتهم .

ـ لم أعتد الجولان فى الطرقات .

ـ لن يسعى إليك الطعام على قدمين؟

فصمتت مليا ثم قالت :

ـ يا شيخ الحارة، أرسل إلى الفتى ينسون!

فهتف الرجل ذاهلا :

ـ ينســون؟!

فقالت بهدوء :

ـ نعم . إنه يصلح للخدمة .

ـ سيغرونه بهجرك كما فعلوا مع أم طاهر وصاحبة البيت؟

ـ قلبى يحدثنى بخلاف ذلك .

ـ أخاف عليه سوء العاقبة .

ـ أرسله، ودع الأمر لى . .

وانتبه الرجال فإذا ينسون يعمل فى خدمة السيدة الجميلة . يذهب ويجىء فى طمأنينة الغافل عن النذر المحدقة به . وتغير منظره . خطر فى جلباب صوفى وطاقية بيضاء ومركوب أحمر . وفى حمام السلطان تجلى لونه الحقيقى لأول مرة . وثبت لكل ذى عين أن له شبابا ورونقا . وتفاقمت الشائعات المغرضة عن العلاقة بينه وبين كوثر هانم . ولم تنهزم المرأة ولكنها تحدت الجميع بإرادة لم تجر لأحد فى بال . استدعت المأذون فى رابعة النهار، وأتت ـ من بين معارف أسرتها ـ بشاهدين خطيرين، حمل حضورهما معها فصل الخطاب، هما شيخ الأزهر ومدير الأمن العام، وقالت المرأة لشيخ الحارة :

ـ ضحيت بنصيبى فى وقف النقيب قانعة بالحب والأمان ومدخر من المال يكفى لبدء حياة جديدة .

* * *

وحتى اليوم أتذكر هذه الحكاية كأسطورة من أساطير الصبا، ولكنى أتذكر أيضا أن أبى أقسم لى مرة أنها حكاية حقيقية، وأنه عاصرها على عهد شبابه المولى .

فى أثر السيدة الجميلة

ذات صباح مبكر دافئ صادفتها عند منعطف البرج وليس فى الطريق غيرنا سوى الكناس. كنت قادما نحو المنعطف من ناحية وهى قادمة من الناحية المقابلة وبيننا أشعة الشمس المشرقة تحبو فوق الأرض الخضراء.

ألقيت نظرة عابرة فشدت بقوة باهرة لتستقر فوق صفحة وجه ذات مواصفات خاصة لا جدوى من وصفها. الجميلات كثيرات ولكن إحداهن تخص بميزة سرية يتسلل منها إلى قلب ما نداء مبهم لا يقاوم. قوته الحقيقية فى الأمر الصادر منه، وقوته الحقيقية أيضا فى الاستجابة الحارة إليه التى لا تفسير لها. من أجل ذلك وقعت أسيرا بلا معركة أو من خلال معركة لم أشعر بها قط. انشرح صدرى بقوة عجيبة، واستسلم قلبى بلا قيد أو شرط، كأنها غاية الدنيا وثمرتها النهائية، هى ما أريد، وما تعلو على جميع ما تعد به الدنيا من جاه ومال وسعادة. ونسيت شواغلى جملة، وهموم اليوم والغد. وما كنت ماضيا لأؤديه مما يمت بصلة لأسرتى أو عملى. تلاشى كل شىء، ولم يبق إلا هذه الصورة العذبة المتوجة لجسم رشيق يمضى بها فى مشية معتدلة هادفة على مبعدة أمتار وأنا فى أثرها مركز الوعى فى حركتها اللدنة المتتابعة. وهالنى وأثقل مهمتى هالة الجدية التى تكسوها، ورصانة الخطو التى تحملها بعيدا عن ألفة المرح وأمل القرب. ترى ماذا أبغى؟

ولكننى أبغى شيئا محددا ولا أملك خطة واضحة. والمسألة بكل بساطة أننى عاجز عن الانفصال عنها مهما تكن العواقب.

إنه أمر خطير فى الواقع. ليس لهوا أو عبثا ولكنه فقدان كامل للذات، واندفاع أهوج فى سبيل جديد لم يلج من قبل فى جدول أعمالى، ضعت بالطول والعرض وأصبح الماضى كله فى خبر كان. وبعد مسيرة دقائق مالت الفتاة - أو المرأة - إلى المستشفى ودخلت فواصلت سيرى أمتارا ثم توقفت تحت شجرة، أتعمل فى المستشفى أم تعود مريضا؟

لم أفكر فى الذهاب على أى حال ولا فى التخلى عن أن أكون ظلاً لها.

وتذكرت فى فترة الانتظار حريتى وبأنه لا يمكن إرجاع الزمن خطوة والإفاقة من هذه السكرة الغامرة؟!

ومن شدة شعورى بالأسر دعوت إرادتى أن تمدنى بالرعاية الواجبة، ووردت على ذاكرتى تجربة سابقة متشابهة ولكنها بعيدة عن التطابق.

ثمة سحر كان، نفثته نظرة ساجية تحت ظلال حاجبين مقرونين وفترة جنون طال

وفعل بى ما لا يقال، ولكن التجربة الجديدة، رغم ذلك، جديدة تماما وغير مسبوقة بنوعها، ولا تبدو القديمة بالقياس إليها إلا «بروفة» باهتة. ومر وقت ثقيل قبل أن تغادر المستشفى مقبلة نحو موقفى ماضية فى طريقها. ولدى مرورها بى تلقيت نظرة عابرة فلم أدر إن كانت تذكرتنى أم لا، وذهبت مجللة بجديتها ومناعتها وفتنتها الغامضة، ساحبة إياى وراءها.

وانقضت حوالى نصف ساعة قبل أن يتراءى لنا ميدان التحرير. وصاحبنى تساؤل دائم عن جدوى إصرارى أو معناه أو الهدف منه، ولكنه لم يقلل من حدة نشاطى المندفع. وساورتنى احتمالات ممكنة كأن تستقل سيارة فتغيب عن أفقى ولكننى لم أنثن عن السير. وأظنها على وعى ما بمتابعتها ولكنها لم تبد عن أى ردة فعل، فضلا عن أنها لا يعتريها تعب أو ضجر. وقلت لنفسى إن محاولة التعارف خطوة لا بأس بها، وربما تمخضت عن جديد، وهى على أى حال خير من السير الأخرس. وأسرعت لألحق بها، وهممت بالكلام عندما أقبل نحوها رجل قوى البنيان فخم المنظر وهو يهتف متهللا:

ـ أشرقت الأنوار.

تصافحا بحرارة فواصلت السير حتى وجدت مأوى قريبا وراء حجرة تفتيش كهربائية. وراقبت انهماكهما فى حديث غير مسموع. وأشار الرجل إلى محل «باباز» فمضت برفقته إليه ثم اختفيا داخله.

أنتظر أم أدخل؟

لبثت فترة تمزق وحيرة، ثم اقتحمت المحل كأنما أبحث عن شخص ما. وجعلت أجول فى الأركان ببصرى، فرأيتهما جالسين حول مائدة، أمامها زجاجة بيبسى وأمامه فنجان قهوة وهو باسط أمامه صفحة يتلوها بعناية وتبادلا حديثا حول التلاوة، فى الغالب، فدون الرجل بعض الملاحظات، ثم صفق داعيا الجرسون فأسرعت إلى الانتظار فى الخارج وخرجا فى أعقابى، فتصافحا أمام المحل، أما الرجل فرجع إلى الداخل وأما المرأة فسارت نحو شارع خيرى، وفى الحال تحركت فى خطى المرسوم.

وبعد مسيرة دقائق انحرفت نحو دكان ساعاتى فوقفت تحت شجرة مستقبلا حرارة متصاعدة وأصواتا متضاربة وزحمة تنقض ما بين مركبات وآدميين وكأنما الدنيا تقذف بأناسها وآلامها من كافة الأنواع والأشكال.

وغادرت المحل بعد ربع ساعة فتواصلت المطاردة المحمومة الخفية.

كيف يتأتى لى أن أهمس فى أذنها بما أريد وسط هذا الانفجار الآدمى الآلى الذى يتعاظم بين دقيقة وأخرى تلهبه أشعة الشمس والأنفاس الحارة؟ رأيتها تتجه نحو «البنك

الأهلى» وتغوص داخله فتوقفت فى ضيق شديد ثم دخلت وراءها متعللا بفك ورقة مالية. لمحتها تقف أمام شباك لعله لصرف الشيكات ثم تقف جنب أريكة مكتظة تنتظر. ولبثت واقفا، ولكننى خفت أن أثير ريبة فذهبت خارجا وانتظرت أمام بياع جرائد ومطبوعات رحت أتفحصها وأراقب باب البنك فى الوقت ذاته. حتى متى أستطيع اتقاء الشعور بالتعب؟

ها هو الوقت يمضى فى توتر أعصاب وتصلب عضلات. ثم تلوح فى باب البنك بشموخها الفطرى فيخفق فؤادى بارتياح عابر عميق. أتبعها متجدد النشاط متحين الفرصة للالتحام بها ومهما كلفنى ذلك من مخاطرة. ولكنها مالت إلى السنترال. هذا مكان لا يثير الوجود فيه تساؤلا أو ريبة. دخلت بجرأة وانتظرت قريبا من المدخل أتابع سعيها لطلب رقم ما. وسمعت العاملة وهى تقول لها «رقم ١١» رأيتها وهى تدخل المقصورة وتسحب الباب خلفها. ترى ألم يفتن بها سواى؟ أى قضاء قضى به على هذا الصباح؟ ثمة تعب خفيف بدأ دبيبه فى ساقى وهناك شبح الإحباط أيضا. وظل الشك المؤرق. ويوجد أيضا شعور قاتم بتفاهة كل شيء خارج نطاق المغامرة المجنونة. ها هى خارجة من المقصورة بوجه مورد بالرضا. تحرك.. تحرك.. لا يجوز التراجع بعد ما كان.

لعلها نسيتنى تماما ولكن لا محيد عن السير. بلغ ركابنا شارع طلعت حرب فبلغ الزحام والحر أشده. لا فرصة ألبتة للمناورة. أسبقها مرة وأتأخر عنها أكثر الوقت لعلها تتذكر رجل البرج. لم أتمكن من قراءة أصابعها أهى متزوجة؟ مخطوبة؟ حرة؟ وصادفتها امرأة من معارفها فانتحيتا جانبا، وتوقفت مائلا نحو باب عمارة. ما أجمل ابتسامتها وأرشق إشارتها. وانتهى اللقاء فواصلت سيرها مارة أمامى لمحتنى ما فى ذلك شك. وكرد على ذلك زادت من سرعتها ومن جديتها. وأعود للتساؤل عن معنى ذلك. لكن لا حيلة للعقل فى الموضوع كله. أو لعله يقرنى على سلوكى طالما أجد فيه أملا أو سعادة. يقول لى استمر إذا شئت ولكن لا تتورط فى خطأ. وأصبح الشعور بالتعب واضحا. وعرجت إلى شارع البورصة المكتظ بالسيارات الواقفة على جانبيه. ويقل الزحام هنا لدرجة تغرى بالجرأة. ودون تردد أحث الخطى حتى أحاذيها فوق الطوار.

أنظر نحوها فتتلقى نظرتى بعين متحفزة. أقول:

ـ هل...

ولكنها تقاطعنى بصرامة:

ـ احترم نفسك..

ـ أود أن أتشرف..

ولكنها لم تسمعنى غالبا لاندفاعها إلى الأمام. إنه رفض صادق. تكاثف الإحباط والشعور بالتعب.

يجب أن أعدل عن مطاردة عقيمة. لكننى لم أستطع. إنه حكم مؤبد فيما بدا. ورأيتها تدخل مكتبة الفجر الجديد. دخلت وراءها مطمئنا كما دخلت السنترال. ورحت أقلب عينى فى الكتب وأسترق النظر.

امتدت يدها البضة القمحية إلى كتاب «القوى الخفية». ابتسمت رغم القهر، وتناولت نسخة تحية لها. ثم تبعتها إلى الخارج كالمنوم. ودخلنا أيضا صيدلية واضطررت إلى ابتياع حق أسبرين. و بدأت قدماى تشكوان. توسطت الشمس السماء. عجبت لطول ما انقضى من النهار. ولم أجد أمامى إلا الحظ فلعنته وتساءلت على وجه من أصبحت اليوم؟ وعبرتنى عتمة الهواجس فلم أدر كيف وصلنا إلى شارع التحرير. ورأيتها ماضية نحو مطعم «الشامى» فسرعان ما نهشنى الجوع. وبجرأة اخترت مائدة مقابلة لها. ودون مبالاة غادرت مائدتها إلى أخرى فى أعماق المحل. صفعة متوقعة على أى حال. وأمرت بطبق شاورمة مع السلطة الخضراء. وختمت بفنجان قهوة وأنا أرقب مدخل المحل بعناية وغمرتنى رغبة فى الاستلقاء وعلى عكس ما قدرت استفحل إحساسى بالتعب. ولما رأيتها تتهادى خارجة قمت من فورى فتبعتها. وتريثت أمام محل أثاث لترى فى مرآة معروضة الطريق وراءها. ورأتنى بلا شك، وواصلت سيرها فى هالة تنطق بالغضب والاحتجاج. وصدرت إليها إشارات من سيارات عابرة تدعوها للركوب فتجاهلتها ومضت فى شموخ منيع. المصيبة أنها لا تكل ولا تمل ولا توحى بقصد هدف محدد. على الأقل هى تعلم أما أنا فلا أعلم وحتى اليأس القاطع تمنيته. وعثرت بشىء فوق الطوار أفقد توازنى وارتطمت برجل قذفنى بجملة كالطعنة «فتح عينك». وانضاف إلى الإرهاق العام إحساس بالظمأ ورغبة فى إفراغ المثانة وبألم نصفى فى الرأس. وثمة تساؤل مقلق هبها استجابت فماذا عندى لأقدمه؟ لماذا يتمادى بى الجنون بلا طائل؟ ورأيتها تتجه نحو حديقة «لبتون» فتجدد أمل مبهم. ووجدتها تمضى إلى مائدة عامرة بالرجال والنساء، وتستقبل بمناورة بالغة. آثرت فى الحال أن أنتظر فى الخارج لشدة الزحام، ولكن حتى متى أنتظر؟ ما بى قوة والصبر يتلاشى بسرعة. وتذكرت العمل الذى كان علىّ أداؤه والمواعيد التى أخلفتها، والرسائل التى كان على تحريرها. ولكن ما جدوى الندم؟ واشتد ضغط المثانة. جلت بنظرة زائغة. اقتربت من سيارة واقفة. انهارت قوى المقاومة. استسلمت وأنا أتلفت. وعندما أخذت أزرر البنطلون غمرنى ظل رجل طويل، مكفهر الوجه، صاح:

ـ على السيارة يا وقح!

رمقته بعين خجول معتذرة ولكنه دفعنى بغضب فترنحت فاقدا صوابى، وبغير تقدير للأمر لطمته، فما كان منه إلا أن انهال على ضربا حتى تركنى على أسوأ حال. جعلت أمسح وجهى بمنديل وأجفف به دما سال من أنفى ثم أسوى رباط الرقبة والسترة. أصبح منظرى زريا، وتضاعف تعبى وضعفى. على الآن أن أذهب بلا تردد. غير أننى لم أتحرك. حملت تعاستى ووقفت على ساقين تئنان من التوجع. ما زلت أنتظر وأناجى جنونى البين. وتهادت إلى سمعى أغنية «الزهر فى الروض ابتسم» فتابعتها بأسى لا يناسب معانيها بحال. وخطر ببالى بيت أبى العلاء:

فســـلم إلى الله ربك　　　فكل ما جاءك من عنده

غير أننى فكرت فى اغتيال الرجل الذى انهال علىّ ضربا، ولعلها أنسب نهاية لرحلة سخيفة عقيمة لا معنى لها. وانتبهت منزعجا إلى ما حولى وأنا أرى نذر المغيب تحدث بالوجود وتطوق جسدى الذى أنهكه السير وهاضته اللكمات. ولأول مرة أفكر جادا فى الإقلاع عن جنونى والرجوع من خيبتى القوية.

وهممت بالتحرك عندما رأيتها تغادر مدخل الحديقة وحدها وتتجه بخطوات ثابتة نحو شارع الشيخ ريحان. توهج الأمل من جديد فى قلبى الذابل وتناسيت هواجسى وتبعتها وأنا أجر نفسى جرا، وأحد من بصرى المنجذب إلى ظهرها لتكاثف العتمة. وقبيل نهاية الشارع بقليل فقدت ذاتى بغتة. لم أدرك قبل مرور ثوان أننى سقطت فى حفرة. زلزلت مفاصلى وفغمت خياشيمى رائحة ترابية عميقة لم أعهدها من قبل. ولم يبق منى على السطح إلا عنقى ورأسى. حاولت الخروج ولكن خذلتنى قواى الخائرة.

وأرسل عينى صوب المرأة بآخر ما أملك من طاقة على اللهفة فلا أعثر لها على أثر. أفلتت إرادتى وأشواقى، وهيهات أن ألحق بها. الأمر يقتضى معجزة إن يكن ثمة مجال للمعجزات.

وانتظرت أن يقترب منى عابر سبيل لأستنجد به. وبلغ منى الإعياء غايته فأسندت رأسى إلى حافة الحفرة مستسلما إلى قدرى.

السيد «س»

عبثا أحاول تذكر حياتى فى مجراها المفعم بالوجود قبل ساعة الميلاد. تلك النبضة المنبثقة من تلاقى جرثومة متوترة ببويضة متلهفة فى أول مأوى آمن يتاح لى. فى أى غيب كنت أهيم قبل ذلك منطلقا مع تيار متصل غير محدود من الذكور والإناث، تشارك فى

مهرجانه قوى عديدة من النبات والحيوان وعناصر الطبيعة من ماء وتراب وحرارة وبرودة، فى تناغم مع دورة الأرض والقمر والشمس فى حضن درب التبانة العظيم الماضى فى حوار دائم مع دروب لا نهاية لها. لعل إشارات من ذلك الغيب تتجلى فى أحلامى فى صور أفراح غامضة وكوابيس ثقيلة سرعان ما تتلاشى فى كون النسيان العنيد مخلفة فى النفس قلقا يتلاطم مع الواقع الصلد ناشرا تساؤلات عديدة ودعوات مغرية للرقص والتنقيب. أما كهنة آمون فقد أخفوا أسرارهم. وأما كهنة الهند فقد أعلنوا سيطرتهم على مسيرة الماء البشرى منذ أقدم العصور ولكن لا سبيل إلى اليقين فى هذه المسألة، ولو سلمت برأيهم لتعذر على معرفة الخطيئة التى ارتكبتها فى زمن سحيق، والتى يكفر عنها شخصى الراهن بمعاناته المستمرة التى لا يجد لها تفسيرا. فلنؤجل القول فى ذلك إلى حينه ولنلق نظرة على يوم الميلاد. إنه يوم تخفق له أفئدة البشر وتحوطه بالبركات من خلال طقوس أبدية. يجيء المخاض على أنغام أهازيج شجية، تنطرح المرأة على الفراش فى جو مضمخ بأنفاس الخلق، ترعاها يد الخبرة، وتحدق بها القلوب المترعة بالأشواق، هامسة بالإشفاق داعية بالسلامة، مترقبة إذن يد العناية بالفرج، مسبحة للخالق، منتظرة بين آونة وأخرى أن تنجاب الدماء الحارة والأنفاس المتلاحقة عن صرخة حياة جديدة، مكللة بالظفر، فى لحظة صراع محتدم مع الموت المقدس. ومن حسن الطالع أن الأشهر التسعة المنقضية فى الظلمات لم تتلاش فى العدم، حفظتها من الضياع ذاكرة خاصة غير الذاكرة المرصودة للحياة اليومية. سجلت حياة النطفة المزهوة بتوحدها كما سجلت تحولها إلى علقة. وعليه فلم يندثر تقلبها بين السرور والألم، وما تلقت من انبساط وانقباض. من راحة وتوتر، من رضا وسخط، وما واكب نشأة العظام من اضطراب، واستقبال اللحم بنشوة سانحة، أما المخ والوعى فقد أضفيا جدية جاوزت حدود المقام. أصبح الغذاء من هموم الحياة اليومية، والفضاء غير المحدود مدعاة للتأمل، والزمن عبئا لا يستهان به، حتى متى يستمر ذلك؟ وما معنى هذه الحياة؟ ولكن تغير الأمر عند اقتراب الفترة من نهايتها، وما زامل ذلك من إحساس بالشيخوخة، فلن يهون أبدا الرحيل إلى المجهول، أهو العدم؟ أثمة حياة أخرى؟ ويأبى العقل أن يصدق ذلك أو يتعلق بأمل مخادع، وما هى إلا خدعة سخيفة لا معنى لها. وما إن تلقفتنى يد الدنيا حتى محى الماضى محوا تاما فكأنه لم يكن. هنا ينقض الضوء والطقس والأنفاس والأصوات ويعلو البكاء لأول مرة. وتمر فترة لا أمان فيها وكأننى أهوى فى فراغ، ويمر دهر حتى ألف فى الأقمطة وكأنما رجعت إلى موطنى المنسى. وينسكب الدفء فى فىّ، ويحتوينى حضن ستبقى ذكراه معى طويلا. وتمر فترة يتذكرها الحالمون جنة وارفة متناسين متاعبها وأشجانها، من افتقاد الأمان والشبع أحيانا، واقتحام صوت مزعج أو مداعبة قاسية، ورضع الحزن مع لبن أم لا تصفو لها الحياة دائما، وغزو أمراض عدة تفسد مذاق الحياة.

ثم تتطفل الحضارة بثقلها لتصب الوافد الجديد فى قالب مهذب، يسيطر فيه على أجهزته المختلفة، ويتعلم المشى والكلام، ويستعان على ذلك بالحوافز والردع، ولا بأس بالزجر بل والضرب، وتلوح السعادة كخيال لا يتحقق أبدا. وما إن يقوم على رجلين، وربما قبل ذلك، حتى يلحق به آخر فيشعر شعورا خفيا بأنه أصبح موضة قديمة، وأنه يدفع دفعا إلى دخول عالم جديد هو عالم التربية الواعية الهادفة. ويتناسى الجاحدون عهده، ويفكرون فى طريقة مهذبة للتخلص منه، فيعرفونه بالله، بجحيمه قبل جنته، وشياطينه قبل ملائكته، فلم أدرك مزايا الجنة ولكنى ارتعدت أمام رعب الجحيم، ولم أتذوق حلاوة الملائكة ولكنى تجرعت غصص الشياطين، وأحدق بى عالم منذر بالويلات. وألفت النهر والصفع واللعن والعصا، وبذلت قصارى جهدى لأنعم بأبسط المطالب وأتفادى من العدوان. وأحمل ذات يوم إلى المدرسة فأضيف إلى عذاب الأهل عذاب الأغراب، وأتساءل أى حياة هذه؟ وهل لو كنت خيرت كنت اخترتها؟ وإنه لما يبعث على الضحك أن أتذكر تلك الفترة فى زمن قادم باعتبارها الفردوس المفقود. ولكن مهلا فلعل هذا الحكم لا يخلو من صدق، فما خلا يوم من ضحكة صافية أو لعبة جديدة أو هيام عذب بأصحاب ومواسم وحلوى وسينما وغناء بالإضافة إلى ساعات صفو وهناء فى رحاب الأسرة. وحتى فى أشد حالات الضيق هناك الخيال ألوذ به فيرحل بى إلى عوالم غريبة، ويخلق الحياة فى الجماد، ويبدع الحكايات. ويتلقى من الوجود صورا للأشياء والنساء والرجال والعلاقات سينضجها الزمن ويحولها إلى معان ما كانت تخطر بالبال. وبفضل ذلك كله أتدرب على تمثيل أدوار لم يأن زمانها بعد، فأقوم برحلات إلى بلاد الواق الواق، وأخوض معارك ضارية، وأتزوج، وأتاجر وأربح أموالا طائلة. وأصلى وأصوم فأضمن الجنة. ولكن أيضا أتشاجر فيشج رأسى، وأعشق قريبة تكبرنى بعشرة أعوام، وأتحايل لأغويها فآكل علقة مناسبة. من علمك هذا الكلام يا ولد؟ خبر أسود، وأنت فى البيضة، وأتوسل إليها دامع العين بألا تشكونى إلى أمى. ولكن من علمك ذلك؟ فى السينما رأيت أشياء ومن شباك بدروم جارتنا الفقيرة رأيت أيضا، ألا تعرف جزاء من يتلصص على الناس؟ توبة.. توبة.. ولا تتاح النجاة حتى أوافق على حمل رسالة سرية منها إلى أخى!! ويجد جديد فتحصل أمور، وتلوح أغراض، ويتكلم مدعو الحكمة من الأصحاب، إنه البلوغ. الشعر لا ينبت لغير ما سبب، والصوت لا يخشوشن لمجرد التغيير، وتمتلئ النظرات البريئة بدماء الغرض والهوى، وتحل بالبدن قوة مجهولة ماكرة غادرة، تضغطه بدغدغة حادة، وتسكب فى الشرايين نارا، يستهين بزواجر الجحيم ونواهيه، يحول بينى وبين الله والطاعة والعهود، ولم تعد الأشياء هى الأشياء ولكنها تنقلب موضوعات للرغبة والحلم والسطو ومرتعا للخيال النهم. وربما تحصل أمور من نوع آخر وفى نفس الوقت، كردة فعل، وتكفير حاد يروى ظمأه من ندى السحاب

الأبيض المشغوف بالتعالى، فيخفق القلب خفقة لم يخفق مثلها مذ كان فكرة هائمة فى عالم الغيب، ويستوى الحب أمامه كنجمة متألقة فى سماء مكفهرة تحوطه العناية الملائكية وتسبح فى السماوات السبع، تمطر وابلا من الأفراح والآلام، فتنبت فى الأرض أزهارا وأنغاما، وتستجيب للغة خفية. فتثب هنا وهناك وراء المستحيل، فى عالم مسحور فيه كل شىء إلا الأمل. مجدة وراء موسيقى الكلمات وحمرة أوراق الورد وفضية شعاع القمر وحكمة صمت الموت. وبعد عناء طويل يجىء الشك على غير ميعاد، ملوحا بسياط محملة أطرافها بالرصاص، كلما ألهبته تحدى العرف والأب والأم وأركان المعبد، وبشىء من التردد يرمى بنفسه فى بئر الجنون الأحمر، وينهل من شراب مزاجه الشهد والسم، ليمحق المكر والخداع، بإشباعه حتى الموت، وتركه جثة من الخمود والأسى. هكذا. هكذا. . هكذا. . وبوحى من حظ حسن تتراءى مرآة عاكسة للزمن بلا حلم أو خيال. كان من الممكن أن يحدث غير ذلك فما هى إلا احتمالات تطاول احتمالات، ولكل قصته. من أجل ذلك تمتلئ المدارس والمعاهد وتمتلئ السجون. وأمضى فى سبيلى طاويا ذكرياتى فى زاوية أرجو لها النسيان. أصبحت كائنا جادا، أحيى الأهل صباحا والأصحاب مساء، وأتلقى فى اهتمام بالغ حظى من تراث البشر وخبرتهم. وتهل علينا متاعب من نوع جديد. ما رأيك هذا الدرس يتطلب عمراً لإتقانه؟ أجل. . وهناك أيضا الأزمة الجديدة، صدقت ونحن مدعوون غدا لاجتماع هام، صدقنى لا مناص من أن يذهب هذا الجيل كله إلى الجحيم. وماذا عن مستقبلنا نحن؟ لا شىء يعادل ما نبذل من جهد. ورغم كل شىء تبدأ الحياة العملية متعثرة محدودة الأمل، محفوفة بحياة سياسية غاية فى القلق والاضطراب، وحياة جنسية لا تقل عنها قلقا واضطرابا. وتتعدد الطرق هنا أيضا. كان يمكن بشىء من الانتهازية أن يقبل وجه أكثر إشراقا وأقل جدارة. وكان يمكن التمادى فى التجارب المرة حيث يفضى الطريق إلى السجن أو الصعلكة. ولكن قادتنا الرغبة الحميمة فى البقاء إلى الرشد المتواضع فاستقررنا فوق كرسى الروتين تحت مظلة من نسيج العنكبوت، ورضينا بلون تقليدى من الحب أفضى بنا إلى نوع تقليدى من الزواج، ورحنا نعبر الجسر الذى عبره قبلنا الملايين، نعمل بلا حماس، ونشهد بعين الأسى تبلد عواطفنا ونقار الأسر النامية وصراع الجنسين المعروف، وتطوف بنا مسرات لا يستهان بها، مثل الأبوة الدافئة، وانتصارات صغيرة تتحقق برضا المدير أو نجاح نكتة مكشوفة أو كسب عشرة طاولة وإحراز فوز سياسى مؤقت، وهكذا. . وهكذا. . وهكذا. . ونصحو ذات عيد ميلاد فإذا بالشباب قد ولى وصمتت أهازيجه، وجاء عصر العقل مصحوبا بالعناء الاقتصادى، والدروس الخصوصية، وجزية الطب والدواء، والشجار لأتفه الأسباب، والبكاء على الأطلال، وارتفاع ضغط الدم لأول مرة، وأكثر من جراحة إجهاض تحت شعار تنظيم الأسرة، وإقبال شركة التأمينات مشكورة

للمشاركة فى الرزق المحدود. ويحفل سيرك الأبناء بألعابه المتنوعة، فهذا ابن يهيم فى ملعب الكرة، ويرتكب الثانى حماقة كادت تغرق السفينة كلها، أما الثالث فقد استبدل بإله الآباء والأجداد خواجة غير مفهوم اللغة، وأخيرا فقد أطلق الرابع لحيته وقذف الجميع بتهمة الكفر. وانهالت على التهم من كل جانب، رجعى.. جاهل.. تقليدى.. كافر. ونفست شريكتى عن بلواها بتحميلى مسئولية كل شىء، نتيجة التدليل والدلع، ربنا يعاقبك على أنانيتك وزيغان عينك وسوء معاملتك لى. ولم أصدق أذنى، ورحت أذكر بأغانى عبد الوهاب فى ضوء القمر على شاطئ النيل، والسعى المرهق لاختيار هدية إحياء لذكرى الزواج، وسهر الليالى إلى جنب فراش المرض. رغم ذلك كله سارت القافلة بسلام على قدر الإمكان. ارتفعت درجة بعد درجة وكبر المرتب وتغير المكتب والحجرة، ولولا الغلاء المتصاعد وهزائم الحروب المتعاقبة لمضيت برأس مرفوع مكلل بهالة روتينية وشمخة بيروقراطية. ولكن ذل الحاجة والتورط فى الأعمال الإضافية خرقا للائحة ومعاناة الأبناء ومرارة شكواهم من قلة المصروف، كل أولئك أطفأ مشاعل المجد وأحل روح التسول مكان زهو العظمة. حتى الخادمة اضطررنا للاستغناء عنها أو أنها بالحرى استغنت هى عنا، ولم أجد إلا المواعظ ألقيها يمنة ويسرة، لا خيار فإما النجاح وإما الموت، الترف من سوء الخلق، أعرضوا عن الدنيا تقبل عليكم، سيدنا محمد عاش على التمر واللبن، وسيدنا عمر تغير لونه من أكل الزيت، والدولة الرومانية سقطت لانغماسها فى مطالب الجسد، كذلك الدولة الإسلامية. ويردون علىّ ومعهم أمهم. ألق مواعيظك على الحكام، على أصحاب الملايين، على اللصوص والخطافين والطفيليين، نحن نريد لقمة وبدلة وأقل مصروف معقول، أى مدير أنت؟ ما جدوى خدمتك الطويلة فى حكومة لا ترعى حقها لموظفيها، تنفق على الحفلات بغير حساب وتضن عليكم بالمليم. وأتساءل ما العمل؟ يجب ألا تتوقف حياتنا وإلا ضعنا. الأسهل أن ندبر حياتنا فى حدودنا المتاحة من أن نحاسب الحكام والمسئولين، ونعرض أنفسنا لمخالبهم الحادة المفترسة، ألا ترونهم يرمون أعداءهم بالإلحاد دفاعا عن غنائمهم، فإذا قامت ثورة إسلامية تنمروا لها وللإسلام دفاعا عن غنائمهم؟! فلا الإسلام يهمهم ولا الإلحاد ولا يعبدون إلا المال والجاه، وأنا رجل ضعيف، بدأ الشيب زحفه إلى شعرى قبيل الأوان، ولا غاية لى فى دنياى إلا أن أبلغ بكم بر الأمان، فساعدونى يرحمكم الله كى ننجو من الغرق. وفى زحمة الغياهب تعترض سبيلى تلك المرأة اللعوب وتغمز لى بعينها. يا للهول! هل بقى فىّ شىء ما زال يلفت نظر الحسان؟ فى وقدة الاشتعال داعبتنى نسمة متألقة بالزهو، وفرحة واردة من الغيب، حتى اختلت فى مشيتى وأصررت على حلق ذقنى كل صباح. وعند حساب التكاليف المطلوبة بحدها الأدنى حضرنى ملاك الرحمة، ألا يلزمنى تقديم هدية، أو اكتراء مكان ولو ليوم واحد، وإعداد عشاء وشراب كالأيام

الخالية؟ وكبحت أهوائى بقوة لا تتاح إلا للمفلسين، وهربت معتللاً بمختلف الأعذار، وخرجت من التجربة مرسوما بنظرة احتقار لا تزول مثل الوشم، وأشاعت الغندورة فى كل مكان بأننى مصاب بداء خفى كريه الرائحة وكلما صادفتنى فى طريق هتفت بى كيف حالك يا أقرع؟ فأحمد الله على أننى رأيت برهان ربى فى الوقت المناسب. وهكذا.. وهكذا.. وهكذا.. وأصحو ذات يوم لأجد أن الكهولة أيضا قد ولت، وأننى أتخذ الإجراءات المعهودة تمهيداً للإحالة على المعاش وأننى أودع بصفة نهائية التعاليم المالية ولائحة المخازن والمشتريات. وبقدرة الرحمن الرحيم انحلت عقدة الأزمة فتخرج الأبناء ومضى كل فى سبيله. ووجدت وشريكتى أنفسنا بين يدى الشيخوخة بلا دفاع، فبالإضافة إلى الضغط أصبحت ذا كلى عليلة وعانيت من أرق مستمر، أما الشريكة فقد خلعت ثوب الأنوثة وباتت بين بين، وخانها عضوان هامان هما القلب والجهاز الهضمى، واصطبغت بصفرة ضاربة إلى الزرقة، ونبتت لها شعيرات عند طرف أنفها واستغرقتها الصلاة والصوم. ومهما يكن من أمر فحالنا خير من حال كثيرين، ألم أتم رسالتى على خير وجه ورغم الظروف الشرسة المتحدية؟! ولكن للأسف جدت أمور لم تكن فى الحسبان فاثنان من الأبناء وجدا عملا مجزيا فى الخارج فودعناهما بقلب حزين، وأصبح أحد الاثنين الباقيين زبونا مزمنا للشرطة والنيابة، أما الأخير فقد تورط فيما لم يجر لى فى بال وحكم عليه بعشرين سنة. وربما استطعت أن تتصور حالى ولكنك ستعجز تماما عن تصور حال شريكتى. إنها لا تكف عن الدعاء على الدولة برمتها. ونابت عن ابنها السجين فى تكفير المجتمع كله، وأرادت أن تحج لتدعو على الدولة فى بيت الله الحرام ولكن من أين لى المال الذى أحقق به رغبتها؟! وجعلت أهرب من البيت إلى الصحاب فى المقهى، ونازعتنى نفسى إلى زيارة الأماكن التى شهدت طفولتى وصباى وأحلامى السعيدة، وتتابع أمام عينى شريط حياتى بجميع ما حفل به من متناقضات وعبر، وكلما شيعت صديقا أو زميلا إلى مثواه الأخير لاح لى يومى وهو يقترب، وقلت لامرأتى إن خير ما نفوز به فى هذه الحياة هى الحكمة، فإذا عرفناها عرفنا الرضا وسلمنا بأنه لا شىء فى الحياة يستحق الحزن أو الأسف، فلنسلم أمرنا لله فكل ما جاءنا من عنده. ولم يمهلنى المرض لمعاشرة الحكمة طويلا، فانطرحت على الفراش بلا حول وقال لى كل شىء إنها النهاية. وتساءلت: ترى ما مذاقك أيها الموت؟ وكيف تحل إذا حللت؟ وعلى أى حال نترك هذه الدنيا المليئة بالإغراء والخداع. وذات صباح دهمتنى هذه اللحظة الفريدة المقدسة، فقدت الوزن والتوازن وانغمست فى شعور كامل الجدة لم ينبض به الوجدان من قبل، قلت إننى سأسبح أو أطير وإننى أستقبل عالما لم يطرق من قبل، وإن الضوء هادئ لدرجة السحر وأنه بلا نهاية، وإننى مستسلم بلا اكتراث أو ألم أو ضيق وإن أهازيج البشر تعزف من حولى. وانفلت من الجسد إلى الحقيقة المطلقة، وتجلى

لى ما قبل الميلاد وعبورى بالدنيا والمستقر الأخير منظر واحد جامع متكامل كالوردة الكاملة لا يخفى لها أريج ولا سر فثملت بالاستنارة والسعادة الحقيقية، ولم يبق معى من ذكريات الدنيا إلا المثل الشعبى الذى يقول:

«اللى تحمل همه ما يجيش أحسن منه».

شارع ألف صنف

شارع ألف صنف، للأحلام والحقائق، مطهى الرغبة فى سخائها وتنوعاتها، وتلخيص مركز معجز لشهوة الحياة. تقوم على جانبيه ذوى الطوارين العريضين المسقوفين أشياء ناطقة بألف لسان. حوانيت متلاصقة ومتراصة مبهرة بأناقتها، ثمينة بمعادنها؛ تخطف الأبصار بشتى الألوان، فيجد كل عضو فى الجسم البشرى وكل نزعة فى الجهاز العصبى ما يشتهيه. من أغذية متعددة الجنسية ومرطبات وخمور وملابس وأدوات منزلية، وروائح عطرية، وأدوية ومقويات ولعب أطفال، وسيارات وأجهزة طبية وكهربائية ووسائط للاستهلاك والإنتاج، يضطرب بينها تيار من الخلق لا ينقطع من الجنسين وكافة الأعمار، سوقا لمن يشترى، ومرتادا لمن يتفرج. وفى وسط جناحه الأيمن يقع مقهى «عكاظ»، مقهى وخمارة ومطعم ولكنه يختص برجال الأعمال وعقد الصفقات، وندر أن يطوف به زبون عادى، بالإضافة إلى القوادين والنصابين وبنات الهوى ممن لا تتم صورة الوجود إلا بهم. وفى الأدوار العليا من العمائر توجد فنادق وبنسيونات، يأوى إليها عادة رجال الأعمال غير القاهريين، وفى رحاب حصانتهم ينعم أهل الهوى بمنازل للدعارة شبه آمنة. من أجل ذلك جرى تاريخه منذ قديم فى سلام نسبى، فلم ترد أخباره فى صفحات الحوادث شأن غيره من الأماكن التى تلاحقها عين الشرطة الساهرة. ومن أجل ذلك أيضا لفت مجىء ذلك الزبون الطارئ الأنظار، وبخاصة وأنه لم يزر مقهى عكاظ زيارة عابرة لتناول فنجان قهوة أو كأس كونياك أو طبق مكرونة، كلا لقد اختار مجلسا فى عمق المقهى غير بعيد من البوفيه. يحتله من الضحا حتى منتصف النهار، ثم يعود إليه من الخامسة حتى وقت التشطيب. ذو مظهر متواضع، ببدلة اقتصادية، ووجه أربعينى ناطق بأصله الشعبى، فلا هو من رجال الأعمال، ولا من أصحاب الصفقات، ولا من رواد الفرجة والشراء، ولا من طلاب اللهو. يأمر بفنجان قهوة، ويجلس هادئا مبرأ من سمات الانتظار والتململ، لا يسعى لمعرفة أحد ولا يشجع أحدا على معرفته، كأنه غائب تماما عما يدور حوله. وتلك واقعة تمر فلا تستحق الذكر فى أى مقهى إلا مقهى عكاظ الذى لم يألف إلا أعضاءه المعروفين. لذلك اكتسب شهرة

منذ الأسبوع الأول لظهوره. لفت الأنظار وأثار جملة من التساؤلات. وتطوع قواد لاستخراجه من قوقعته فجلس فيما يليه وسأله عن الساعة ولكن الرجل أشار صامتا إلى ساعة المقهى المثبتة فى الجدار فوق الميزان ولم ينبس بكلمة. وضاق به الجميع واعتبروا حضوره غزوا لحصنهم الحصين. ومر وقت قبل أن يعرف اسمه بمحض الصدفة إذ رن جرس التليفون فرفع نادل السماعة ثم نادى:

ـ السيد منصور زيان.

فقام الرجل إلى التليفون تحدق به الآذان.

ـ آلــــو.

ـ . . . . . .

ـ هات ما عندك.

ـ . . . . . .

وطالت مكالمة المتحدث، وأخيرا قال السيد منصور:

ـ طـــظ.

وأرجع السماعة إلى موضعها وعاد إلى مجلسه دون أن يشفى غليل أحد، فازداد غموضا وازدادوا ضجرا. ولم يجدوا بدا فى النهاية من إهماله. وشغلوا عنه بحادث يعتبر غاية فى الاستثناء فى هذا الشارع، وهو كبس الشرطة لبنسيون وسوق من وجد فيه من نساء ورجال إلى القسم. تبودلت نظرات حائرة، ونوقش الموضوع على أوسع نطاق، كيف حدث ما حدث مما يعد خرقا للتقاليد المرعية؟! ونظر قواد ناحية منصور وهمس:

ـ جاء النحس مع النحس.

ولم يكترث أحد لقوله. ولكن لم يكد يمر شهر على الحادث حتى استدعى كبير من رجال الأعمال بتهمة التهرب من ضرائبه المستحقة، فاهتزت الأفئدة وانتشر الذعر مثل صرخة بليل. ماذا يحدث فى الدنيا؟ ليس اليوم كالأمس. ثمة نذير شر يزحف. ولغير ما سبب منطقى تضاعف الضيق بالسيد منصور باعتباره شؤما كما قال القواد ذات يوم. وعندما ضبطت سلع مهربة من الجمرك وقبض على أصحابها انفجر الذعر وعقد الرجل اجتماعا للتشاور. شعروا بأنهم مطاردون وبأن دورهم آت لا ريب فيه. وقال أحدهم:

ـ عنت لى فكرة، إنه ليس نحسا فحسب!

ـ تعنى سى منصور؟

ـ أجـــل.

- إنه مرشد ذو دور مرسوم.

- ولكنه لا يبارح مجلسه؟

- لا علم لنا بما يفعل قبل ذلك أو بعد ذلك.

وتراكم الشك حتى صار يقينا بلا دليل. لم يجئ لتزجية الفراغ. ماذا يحمله على المجيء يوما بعد يوم؟ ما عمله؟ كيف يعيش؟ وأجمعوا على أنه مرشد لحساب جهة معادية وأن عمله لن يتم إلا بالقضاء عليهم أجمعين. واقترح بعضهم التخلص منه. ولكن ألا يعد ذلك حمقا غير مجد، واستفزازا لقوة مجهولة لا يستهان بها؟ واقترح البعض احتواءه وشراءه بأى ثمن، ولديهم المال والنساء. ولعل مناسبة الاحتفال برأس السنة الجديدة أن تتيح فرصة فريدة لاصطياده. وتزين المقهى فى الليلة السعيدة بالورد وتشكيلات المصابيح الكهربائية الملونة، وتوسطته طاولة طويلة صفت فوقها قوارير الويسكى بغير حساب، وجلس إليها فى الوقت المناسب الرجال من أكبر رجل أعمال إلى أصغر قواد، وبقى الرجل وحده بمجلسه المختار. وانضمت إلى الموجودين مجموعة مختارة من الحسان فى أحسن صورة وعلى أتم استعداد. وانطلقت الأنخاب كالشهب حتى تغلغل المرح فى أعماق الكآبة. والتفت أحدهم نحو الرجل وقال:

- هلا شرفتنا يا سيد منصور؟

فبسط راحته على صدره شاكرا صامتا مصرا على توحده. ولكن الآخر لم ييأس فملأ له كأسا ورجا أقرب الجلوس إليه - امرأة - أن تقدمها له ففعلت برشاقة وقال رجل الأعمال:

- من أجل خاطرنا.

ولكنه أعاد الكأس إلى الطاولة معلنا عن شكره بإحناءة من رأسه لائذا بصمته. وتساءل رجل الأعمال مداريا وقدة غضبه:

- كيف تمر بك هذه الليلة كغيرها من الليالى؟

فخرج منصور من صمته قائلا فى غير ما اكتراث:

- الواقع أنها كغيرها من الليالى.

فقالت المرأة محتجة:

- لا.. لا.. وأستطيع أن أثبت ذلك.

وقال رجل أعمال آخر:

- أذكر رجلا يشبهك تماما إلا أنه يرتدى جبة وقفطانا.

فقال منصور:

ـ لعله أنا دون سواى!

ـ ولكنه بجبة وقفطان؟

ـ هذا هو ردائى فى غير فصل الشتاء!

ـ بدلة فى الشتاء وجبة وقفطان فى الصيف؟

ـ بالتمام والكمال!

وتبادلوا نظرات ساخرة، غير أنهم تقدموا خطوة جديدة مع تماديهم فى الشراب فراحوا يقدمون أشخاصهم واحدا فى إثر واحد ليحملوه على تقديم نفسه، ولكنه تابعهم فى غير اكتراث وتحدى عربدتهم بالإصرار على الصمت. أى إهانة! وقالت المرأة: إن هذا يعادل أن تتعرى امرأة أمام رجل فيتخذ من جسدها مسندا لرسالة يروم كتابتها. وسأله الرجل واجما:

ـ ألا ترغب فى تقديم نفسك؟

فأجاب فى برود:

ـ كــلا.

أيقنوا من أنه يتكلم من موقع قوة وثقة وأن وقاحته لن تقف عند حد. وانقلب الرجل غاضبا فهتف:

ـ اغرب عنا قبل أن تفسد علينا ليلتنا!

فقــال بتحــد:

ـ الواقع أنكم تفسدون علىّ ليلتى.

ـ لا خير فيمن لا يحب الناس.

فكرر ساخرا:

ـ لا خير فيمن لا يحب الناس.

وخافوا إن استسلموا للطعام والشراب أن تنحل عقدة ألسنتهم فتبوح له بأسرار ينفذ بها إلى مصارعهم، ففسدت السهرة بالفعل ومضت فى توتر وتعاسة. وأقسموا ليهتكن سره. وعهدوا إلى قواد معروف بالنشاط أن يتجسس عليه ليوافيهم بخبره. وانطلق الرجل فى إثره وانتظروا.

ومرت أيام وكل شىء يجرى على حاله ولكن الرجل لم يرجع من رحلته ولم يظهر له أثر. وانتظروا أكثر وسحابة سوداء تمطرهم بالقلق ولم يسفر الانتظار عن شىء. فقد المرشد لا ريب فى ذلك، وفى أثناء ذلك سقط متهرب آخر ومهرب مخدرات ذو وزن فى الهيئة الاجتماعية. وأظل الذعر الشارع العتيد فانطفأت أنواره. وتطوع قواد جديد

بالعمل مدعما بحذر أشد ولكن ظلمة المجهول ابتلعته كما ابتلعت صاحبه. وتمطى كابوس الخوف فاختفى القوادون، وتعطلت الدعارة، وانكمش الانحراف. ولبث الرجل الغامض بمجلسه، أفنديا فى الشتاء وبلديا بقية العام. وتتابع السقوط وهرب من هرب. وقال له أحدهم وهو يتأهب للذهاب:

- عرفتك، ما أنت إلا عميل لدولة أجنبية، اختارتك لتحطيم القوى الوطنية.

فهز الرجل رأسه فى دهشة وتساءل:

- عم تتكلم أيها السيد الفاضل؟!

وتحير صاحب المقهى العجوز الذى رأى كثيرا وسمع كثيرا. رأى الحادثات وهى تقع ولكنه لم يعرف لها تفسيرا. دالت دولة الرجال الأقوياء فتساقطوا مثل أوراق الشجر الجافة. انقلب الشارع من حال إلى حال، ذهب أناس وجاء أناس، تراجع زبائن وقدم زبائن، ألغيت وظائف ونشطت وظائف جديدة، واستقبل المقهى روادا عاديين لا علم لهم بسابقيهم، ولم يبرح الرجل الغامض مكانه، ولا بدا عليه أنه يدرك من حقائق الأمور أكثر مما يدرك هو. ويجىء قوم من هواة المعرفة فيحدقون بصاحب المقهى ويقولون:

- كل شىء حدث تحت سمعك وبصرك فخبرنا عما حصل يرحمك الله.

فيقول الرجل ببراءة:

- علمى علمكم يا سادة، وها هو الرجل الذى جعلوا منه أسطورة، مثلى ومثلكم، ما سمعت منه كلمة غريبة ولا شهدت منه فعلا غير مألوف، فلست أملك علما أضن به عليكم، وما أعرف أكثر مما تعرفون من أن دنيا برمتها اختفت كما تختفى مدينة فى أعقاب زلزال مدمر، ونشأت مكانها دنيا جديدة، فسبحان علام الغيوب.

المسخ والوحش

أعجبتنى حكاية الشاطر حسن فى بلاد الواق الواق. غادر ذات يوم أسرته كما يغادر الفرخ بيضته وراء حلم غامض فأسعده حظه الميمون بلقاء سيدنا الخضر. وقرأ سيدنا فى وجهه براءة الفطرة ونقاء الحلم فحدثه عن مأساة مسوخ تعساء مسخهم وحش آدمى أحجارا غير كريمة فأشعل فى قلبه رحمة وهمة. ووهبه فرصة فريدة لتحرير المسوخ وإرجاعها إلى إنسانيتها المهدرة وذلك بقتل الوحش. ودله على المكان الملقاة فيه الأحجار الممسوخة، والوسيلة التى يقتل بها الوحش، فمضى إلى بلاد الواق الواق ورأى بعينيه الحزينتين الأحجار الأدمية، وتربص بالوحش حتى جاء فى وقته المعلوم فأكل وشرب

ونام، فوثب عليه وقتله، وفى الحال تلاشت الصفة الحجرية واستوت الأحجار بشرا يهللون فرحا ببركة الحياة المستردة. ورحت أتذكر الحكاية وأنا بمجلسى المعهود فى خمارة نجمة الصبح ورأسى مشعشع بالنشوة. وكالعادة غبت فى أعطاف حلم وردى، ثم انتبهت على رجل يجلس إلى جانبى يمزج النبيذ بعصير الليمون، ملتف بعباءة أرجوانية، معتم بعمامة خضراء، يبهر الناظر بلحية بيضاء مسترسلة حتى ثغرة صدره. ولم يكن التطفل من شيم أهل خمارتنا ولكن الأنس حل بى فحدس قلبى أنه صديق يشع الخير من ومضات عينيه. قلت مرحبا:

ـ أهـــلا.

فقال بنبرة باسمة:

ـ صحتــك.

واستسلمت للنشوة إلى مراقيها حتى هتفت:

ـ هذه ليلة ولا كل الليالى.

فسألنى بعذوبة:

ـ كيف اهتديت إلى هذه الخمارة التى بالكاد لا يعرفها إلا روادها؟

فقلت جذلا:

ـ بحسن الحظ وحده، ومن يومها لم يعد يؤرقنى شىء.

فتساءل بصوت يمتزج فيه الحنان بالسخرية كما يمتزج فى قدحه النبيذ بالليمون:

ـ ولا المسوخ؟!

دقت كلمة المسوخ ناقوس اليقظة فى قلبى فتساءلت:

ـ أى مسوخ تعنى؟

ـ هم مسوخ ذوو مسوخ من ضحاياهم، ولا نجاة لهؤلاء أو أولئك إلا بقتل الوحش!

فتهدج صوتى وأنا أقول:

ـ لعمرى إنك لسيدنا الخضر دون غيره!

ـ لا أهمية لذلك، المهم من يكون الشاطر حسن؟

وهم بالقيام فأمسكت براحته وسألته بشغف:

ـ متى أراك ثانية؟

فقال واقفا معلنا عن قامته الطويلة النحيلة:

ـ لا أهمية لذلك.

وذهب مشيعا بمودتى الخالصة. وبقوة آسرة، ودون مقدمات، آمنت بأننى صاحب

رسالة وأنه آن لى أن أودع أحلام اليقظة . ولكن من يكون المسوخ؟ ومن يكون مسوخ المسوخ؟ ومن يكون الوحش؟ وكيف فاتنى أن أستجوبه؟ ولم يغب عنى السر ، فالحقيقة أن محضره يشتت الإرادة . وجدتنى فى محضره طوع خواطره ، مسلوب المنطق ، لا أزيد عما يريد حرفا . هذه هى الحقيقة . ولذلك لم يداخلنى شك فى أنه ولى من الأولياء . وأدركت بعد فوات الوقت أننى لم أنتبه لقيمة الوقت ، وأننى عبرت معه لحظة من اللحظات التى تسترجع فيما بعد بشق الأنفس فيعتدها الخيال إحدى الفرص التى لا تتكرر ولا يجدى معها الندم . واستدعيت بإشارة النادل عم زياد البرلسى ثم سألته :

ـ هل تعرف الشيخ الذى كان يجلس إلى جانبى؟

فقطب متذكرا وقال :

ـ شغلنى العمل عن ذلك .

ـ ولكنك قمت بخدمته وقدمت إليه طلبه؟

ـ لعله كان يجلس فى مكان ما ثم انتقل إليك بقدحه .

وكان من الممكن أن أعتبر المسألة حالا من أحوال السكر تذهب بذهابه ، ولكن لا جدوى من مخادعة النفس فالأمر أخطر مما يتصور . نفذ السهم إلى مركز اليقين . وما كان فى وسعى أن أتحلل من مهمة ألقتها الأقدار على عاتقى فأرضى هانئا بالعودة إلى آفة اللاشىء . وألقيت نظرة على من حولى من السكارى فإذا بهم يسبحون فوق تيار من الهموم المتضاربة ويناقشونها بندا بندا بغير ملل . الأسعار ، التهريب ، الاستيلاء على أراضى الدولة . الثروات غير المشروعة ، سوء المعاملة ، الطوابير ، الديون ، النفوذ الأجنبى ، القذارة ، المجارى ، المذابح ، وغيره مما لا يحيط به حصر ، ولكن لا أحد يتحدث عن مسوخ أو مسوخ المسوخ أو الوحش . ومتشجعا بحنان الليالى المتتابعة سألت :

ـ هل رأى أحد منكم الشيخ ذا العباءة الأرجوانية؟

فانطرحت لحظة صمت ثم اندفعت أصوات ضاحكة تغنى :

يـــا بـــو العبــــاية

لم يبل أحد ريقى وغرقوا فى الضحك والهناء ، فعدت أسأل :

ـ من المسوخ؟ هل جرى لكم علم بذلك؟

فماجوا بحركات الضحك الراقصة غير أننى سألت بإصرار :

ـ ومن يكون الوحش؟

فصاح أحدهم :

ـ أخوكم وصل، فلتحفظنا بركة دعاء الوالدين!

أقلعت عن السؤال. وغادرت الخمارة وأنا أعد نفسى من مواليد تلك الليلة العجيبة. وكلما أقبلت على الخمارة أقبلت على أمل فى أن أرى الشيخ من جديد ولكن دون جدوى. وطيلة نهارى أتساءل: عمن يكون المسوخ؟ وعمن يكون الوحش؟ وكلما مررت بحيوان أو شجرة أو حجر استحوذ على خيالى ولمحت فى صميم جوهره مسخا من بنى آدم يئن ويتعذب. وساءتنى التفرقة فى المعاملة بينى وبين الشاطر حسن، فبقدر ما أعانه الخضر على أداء مهمته بقدر ما أعرض عنى، تاركا إياى للكدح والعذاب. وانتهت بى الحيرة إلى اتخاذ قرار جرىء، وهو أن أسأل أهل الرأى والخبرة، مستشهدا بقول القائل «لا خاب من استرشد». واتجه ذهنى أول ما اتجه نحو السيد «م» وهو من البارزين فى الحزب الوطنى الديمقراطى. توسلت إلى مقابلته بصديق، ثم عرضت عليه حيرتى، وسألته:

ـ من هم المسوخ؟ ومن هم مسوخ المسوخ؟ ومن هو الوحش؟

ولم يأخذ من التفكير إلا أقصر وقت، ثم قال بثقة:

ـ عندنا نوعان منهم: مسوخ من العملاء الملاحدة، ومسوخ المسوخ هم المخدوعون من أتباعهم، والوحش فى هذه الحال هو الشيوعية أو إن شئت الاتحاد السوفييتى. ومسوخ من التيار الدينى المنحرف، ومسوخ المسوخ هم أتباعهم من المخدوعين. والوحش فى هذه الحال بعض الدول مثل إيران وليبيا.

وتركته شاكرا وبى غصة من خيبة الأمل إذ مهما تكن ثقتى فى نفسى ورسالتى فمن أين لى بالقوة التى أقتل بها الاتحاد السوفييتى وإيران وليبيا؟ ولكن همتى لم تفتر فاتجه تفكيرى فى الحال نحو الأستاذ «ا» المعترف بحكمته فى حزب التجمع، واستقبلنى سيادته بلا أدنى صعوبة، فعرضت عليه حيرتى ثم سألته:

ـ من هم فى رأيك المسوخ ومسوخ المسوخ؟ ومن هو الوحش؟

فاعتدل فى جلسته وابتسم ابتسامة العالم بكل شىء وقال:

ـ يستوى عندى أن تكون سائلا بريئا أو أن تكون قادما من طرف السيد وزير الداخلية، ولكن ذلك لن يمنعنى من إجابتك طالما أننا نعمل فى وضح النهار، فاعلم أن المسوخ هم عملاء الغرب، ولا يوجد مسوخ المسوخ لأنه لا أتباع لهم، وما الملتفون حولهم إلا مجموعة من الانتهازيين تجدهم بأشخاصهم فى رحاب كل حكومة، أما الوحش فهو الإمبريالية العالمية أو إن شئت الولايات المتحدة الأمريكية.

فأكدت لسيادته أن حيرتى نابعة من ذاتى ولا علاقة لها بالسيد وزير الداخلية، وشكرت له بيانه، ثم غادرته موقنا بأن الصعود إلى القمر بلا تكنولوجيا أيسر علىّ من

قتل ذلك الوحش الجديد. ومع ذلك صممت على السير فى طريقى حتى نهايته. تذكرت صديقا انخرط منذ أعوام فى تيار دينى متطرف فقصدته دون تردد. استقبلنى مداريا فتوره إكراما للعهد القديم ولكنه امتنع فى الوقت نفسه عن مصافحتى متمتما:

- معذرة، لا أصافح كافرا!

وكنت موطنا نفسى على تحمل أى سلوك يجيئنى منه فقبلت عذره. وعرضت عليه حيرتى، ثم سألته:

- من هم المسوخ؟ ومن مسوخ المسوخ؟ ومن يكون الوحش؟!

فقال من فوره:

- المسوخ هم حكام البلاد الإسلامية ورجال الدين بها، ومسوخ المسوخ هم جمهرة المسلمين، وأما الوحش فهو نظام الحكم فى كل مكان.

وغادرت موضعه مغموسا فى المرارة. خيل إلىّ أن القضاء على الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة معا أيسر من القضاء على الوحش الجديد، ولكنى لم أنثن عن مسيرتى. وتذكرت الأستاذ «ن» الذى يمثل فكر الوفد كخير ما يكون التمثيل. واستقبلنى سيادته بحرارة لا توهب عادة إلا للأصدقاء. وعرضت عليه حيرتى ثم سألته:

- من هم المسوخ؟ ومن هم مسوخ المسوخ؟ ومن هو الوحش؟

فقال باسما فى ثقة تامة:

- المسوخ هم جميع السياسيين غير الوفديين، ولا أتباع لهم فى الحقيقة فالبلد وفدى مائة فى المائة، أما الوحش فهو النظام الدكتاتورى الذى لم يوفق بعد إلى قناع يخفى به وجهه.

وتركته شاكرا وأنا أقول لنفسى حقا إن هذا الوحش يبدو أقرب إلى اليد من الوحوش الأخرى ولكن بالقياس إلى قوتى الذاتية يمكن القول إن «سى أحمد أخو الحاج أحمد». ولم يبق فى جدولى إلا المثقفون فاخترت الأستاذ «ا» لمنزلته المعترف بها من الجميع. واستقبلنى بحياد فعرضت عليه حيرتى ثم سألته:

- من هم يا أستاذ المسوخ؟ ومن هم مسوخ المسوخ؟ ومن هو الوحش؟

فأجابنى بجفاء:

- المسوخ هم الجهلة وتجدهم فى كل موقع لا بقاء لهم إلا بالقوة، ومسوخ المسوخ أتباعهم وهم أجهل منهم ولكنهم أكبر دهاء وانتهازية، أما الوحش فهو الجهل.

وتركته وأنا أتساءل: وكيف يمكننى قتل الجهل؟ أجل إنى أعتبر الأستاذ «و» خير من يجسد الجهل ولكن هل يزول الجهل بقتله؟ ووجدتنى أغوص أكثر وأكثر فى دوامة لا

فكاك منها، حتى ورد على خيالى مولاى العارف بالله الشيخ «ص» فقصدته من فورى، واستقبلنى ـ كالعادة ـ باسما مرحبا، ولكنه بادرنى قائلا :

ـ أعرف ما ساقك إلىّ اليوم!

فلم أدهش لسابق علمى بقدرته على النفاذ إلى أعماق القلوب. وقال متعنى الله بعمره ونورانيته :

ـ ما المسوخ إلا عشاق هذه الدنيا الفانية، ومسوخ المسوخ هم المبهورون بما يملك سادتهم من زخارف زائلة، أما الوحش فهو النفس الضالة.

وعدت إلى بيتى وأنا أقول لنفسى حقا إن هذا الوحش لا يستهان بأمره، ولكن قتله ممكن، ولن يعرضنى لقبضة القانون. وأعلنت الحرب، وأقسمت على الصمود والتصدى مهما طال بى الزمن. ولم أهجر بطبيعة الحال خمارة نجمة الصبح التى عرفت أستاذى العارف بالله فى ركن من أركانها. وفى ذات ليلة وأنا ثمل بنشوتى فى مجلسى المختار انتبهت على وجود صاحب العباءة الأرجوانية إلى جانبى وهو يمزج النبيذ بالليمون! وهتفت :

ـ يا للسعادة! لقد جئت أخيرا . .

ولكنه لم يعرنى أدنى اهتمام فقلت :

ـ لقد عملت بمشورتك، وها أنا أقاتل الوحش حتى أقتله . .

وأصر على تجاهلى تماما، ولم يلق علىّ نظرة واحدة ولم تهب علىّ من ناحيته نسمة أنس أو مودة.

وأفرغ قدحه فى فيه ثم نهض متجهما وذهب.

تركنى لحيرة لم تخطر لى فى بال.

البقاء للأصلح

المنة لله، لا أحمل فى الدنيا هما. مترجم محترم، ومالك بيت مكون من ثلاثة أدوار وبدروم، متزوج وموفق وأب لشاب وشابة متزوجين، وإلى هذا كله فإننى حسن الهضم لهموم الدنيا الصغيرة. فى العصارى ـ عدا أيام الشتاء ـ أجلس فى شرفة الدور الأوسط برفقة زوجى والقهوة والفول السودانى واللب الأبيض، يترامى أمام أعيننا شارع البطريق بحوانيته وجراجه العمومى، نتفرج على كل من هب ودب. من مجلسنا نرى سكان بيتنا فى الذهاب والإياب، على كمال ساكن الدور الأعلى وهو محام ونطلق عليه

«الأستاذ»، وصاحب الدور الأول مدكور البقلى ونطلق عليه «الشيخ» رغم أنه أفندى وذلك لإرساله لحيته، أما البدروم فتقيم فيه ست محسنة رضوان وندعوها «المحمل» لسمانتها. وعلى صغر البيت فكل أسرة مستقلة بذاتها لا تعرف من أصل الجيرة إلا التحية العابرة عند اللقاء النادر. من أجل ذلك انطوت كل أسرة على أسرارها فلا أعرف عن أى منها شيئا يستحق الذكر. غير أننى لاحظت دون جهد كثرة زوار الأستاذ والشيخ، أما ست محسنة فكانت تعيش فى عزلة شبه مطلقة. وذات يوم طلب الأستاذ مقابلتى فاستقبلته مرحبا ومداريا قلقى حيال قسماته الحادة ونظرته الثاقبة. اعتذر عن تطفله بأسلوب لبق، ثم قال:

ـ حرصا على وقتك سأدخل فى الموضوع مباشرة.

فشجعته بابتسامة فقال:

ـ أنا فى حاجة إلى البدروم والدور الأول وسيعود عليك ذلك بخير وفير!

فقلت وأنا فى غاية الدهشة:

ـ ولكن لكل ساكنه وأنت أدرى بقوانين المساكن!

فقال بثقة:

ـ سيضطرون إلى إخلاء مسكنيهما ولكن يجب أن نتفق قبل ذلك.

فتساءلت فى حيرة:

ـ كيف؟

فكور قبضته السمراء تحت ذقنه وقال:

ـ ثبت لدى أن مدكور البقلى من الخطرين وأنه جعل من شقته ملتقى لنفر من التيار المتطرف.

فتولانى خوف وقلق وقلت:

ـ لا علم لى بذلك ولا شأن لى به.

ـ طبعا، سأتكفل بالواجب، ولكنا علينا أن نتفق أولا.

ـ وست محسنة رضوان؟

فضحك ضحكة مقتضبة وقال:

ـ اصح يا نائم، إنها تنتظر حتى يجثم النوم ثم تستقبل أهل الدعارة!

ففزعت هاتفا:

ـ لا!

ـ هى الحقيقة، وسوف تلمسها بنفسك.

ـ إنك مقدم على مغامرة خطيرة!

ـ إنى واثق من نفسى تماما .

وشملنا صمت غير قصير ، ولما استرددت أنفاسى سألته :

ـ وماذا تفعل بالشقتين؟

ـ سأجعل من البدروم مطبعة ومن الدور الأول دارا للنشر ، وسيكون لك عقد مناسب .

وقلت وأنا أنفخ :

ـ تلزمنى مهلة للتفكير والتشاور مع الهانم .

فقام وهو يقول :

ـ طبعا ، ولكن ليكن الموضوع سرا بيننا .

وأفضيت بهمى كله إلى زوجى فقلبت الأمر على وجوهه ثم انتهت إلى أنه إذا صح ما يدعيه الأستاذ ونجح تدبيره فسوف يتطهر البيت ويضاعف الدخل ، وما علينا من بأس طالما أنه لن يورطنا فيما لا نحب . ولكن قبل أن يتم اللقاء مع الأستاذ طلب الشيخ مذكور البقلى مقابلتى . توقعت من فورى مزيدا من الارتباك والهواجس ، وخيل إلى أنه شعر بطريقة ما بما يدور حوله فبادر للعمل . وتقابلنا فاعتذر عن إزعاجى وقال :

ـ يقتضينى دينى أن أصارحك بالحق الذى علمته ، فقد ثبت عندى أن الدور الأعلى ما هو إلا خلية هدامة ، وأن البدروم بؤرة فسق ، وسأقوم بما يفرضه على دينى وضميرى .

انهالت على كلماته كطلقات الرصاص فغرقت فى دوامة صاخبة وتمتمت :

ـ أى فظاعة لم تجر لى فى بال!

ـ إنك رجل طيب وحسن الظن بالناس ، وسيكون خلاص بيتك على يدى إن شاء الله ، وفى مقابل ذلك أرجو أن توافق على تأجير الشقتين لى!

فتساءلت بذهول :

ـ ما حاجتك إليهما؟

ـ سأجعل من البدروم مطبعة ومن الشقة دار نشر وعلى أن يتم الاتفاق بيننا على ذلك .

فقلت وأنا أغوص أكثر وأكثر فى الدهشة والارتباك :

ـ أعطنى مهلة للتفكير .

فقام وهو يقول :

ـ لك هذا يا أخى فى الإسلام ، وليكن الأمر سرا بيننا ، ولكن تذكر أن خير البر عاجله .

ولما علمت زوجى بما دار بيننا برد حماسها الأول، وبدا لها الأمر أشد تعقدا وخطورة فخافت التورط فيما لا تحمد عقباه، وتفكرت مليا ثم انتهت إلى رأى فقالت :

ـ علينا أن نمتنع عن أى اتفاق ثم ننتظر .

فارتحت إلى رأيها، وعزمت على مصارحة الرجلين بأنه لا شأن لنا بالموضوع . ولا اتفاق نرتبط به قبل أن ينجلى الموقف . ولم تكد تمضى ساعات على ذهاب الشيخ حتى رن جرس الشقة، وإذا بست محسنة رضوان تطالعنى بجسمها المترامى، فى فستان بنى محتشم، معتمرة بخمار أبيض . تمتمت :

ـ دستوركم .

ثم مضت نحو حجرة الاستقبال تتبختر كالتختروان وجلست وهى تقول :

ـ أود الاجتماع بك والست حرمك .

وقد كان . وفى أثناء الجلسة استرقت النظر مستطلعا فبدت لى غير ما تبدو من بعيد، لا لحسنها ونضجها الأنثوى فحسب، ولكن لتلك النظرة التى لا يخفيها التصنع، نظرة مليئة بالخبرة والمجون فقلت لنفسى إنها ولا شك كما يقال عنها . وقالت المرأة بنبرة جريئة وناعمة :

ـ كان يجب أن نتعارف من قبل كما يليق بامرأة وحيدة مثلى . ولكنى شعرت بأنكما تؤثران العزلة .

ثم مغيرة درجة صوتها إلى مقام أدنى مشحون باهتمام أكثر :

ـ ما علينا، ها هى الضرورة تسوقنى إليكم، وتدعونا جميعا للدفاع عن النفس!

فأقبلت زوجى نحوها بتركيز أكثر قائلة :

ـ خيرا؟

ـ يصدق على بيتنا المثل القائل ياما تحت السواهى دواهى، وبفضل من سهرى المعتاد وراء الشيش المغلق عرفت أشياء وأشياء .

وتساءلت أعيننا دون أن تنبس شفاهنا فواصلت المرأة :

ـ تبين لى أن الدور الأعلى وكر هدامين وأن الدور الأول وكر منحرفين، رأيت بعينى وسمعت بأذنى، وأخوف ما أخاف أن يكون المسكنان قد تحولا إلى مخزنين للذخيرة، وأن نكون عرضة للهلاك ونحن لا ندرى!

فاستعاذت زوجى بالله بصوت متهدج فقالت ست محسنة :

ـ اطمئنى فإنى أعرف كيف أدافع عن نفسى، وعن الناس الطيبين، غير أنه لى رجاء هو أن أستأجر شقتيهما بعد خلوهما!

فتسرعت زوجى قائلة :

ـ لك هذا يا ست محسنة .

أما أنا فسألتها :

ـ وما حاجتك إليهما؟

فقالت باسمة كاشفة عن سنتين ذهبيتين لأول مرة :

ـ بصراحة سأجعل الدور الأول كافتيريا والآخر مطعما على أحدث طراز، وسيدر العقد الجديد عليكم أكثر مما تدر عمارة، ولذلك يجب أن يتم بيننا اتفاق مبدئى!

ومن منطلق تجربتى السابقة بالموقف نفسه قلت :

ـ تلزمنا مهلة للتفكير .

ـ صدقنى لا ضرورة لذلك، سيتم كل شىء بأسرع مما تتصور!

فتمتمت :

ـ مهلة قصيرة . .

ـ أمرك، ولا تنس صاحبة الفضل فى تخليصك من شر مؤكد .

ثم وهى تمضى فى سبيلها :

ـ يكفينى كلمة شرف!

فقالت زوجى بحرارة :

ـ كلمة شرف لا رجوع عنها!

وحقا تتابعت الأحداث بأسرع مما تصورنا . فى تلك الليلة اقتحم رجال الأمن الشقتين، وسمعنا أنهم عثروا على أدلة بينة، وختمت الشقتان بالشمع الأحمر . ولما زايلنا الذهول والانفعال قلت لزوجى :

ـ ستطالبنا بإتمام الاتفاق .

فقالت بثقة :

ـ إنها صفقة رابحة ولعله من الأوفق أن ننتقل نحن إلى الدور الأعلى بعيدا عن الضجة .

فقلت بقلق :

ـ ولكنى أرجح أن ما قيل عنها حق وصدق .

ـ لو صح ذلك لقبض عليها أيضا!

ـ لها عينان فاجرتان .

ـ إنها بالنسبة إلىّ صاحبة فضل ولسنا المسئولين عن الأخلاق فى البلد .

وكان للمرأة ما أرادت . وتحول بيتنا إلى كافتيريا ومطعم على أحدث طراز . فى بادئ الأمر ساورنى شك فى نجاح المشروع لبعد مكانه عن وسط المدينة ، ولكن سرعان ما أذهلنى نجاحه ، وإقبال السيارات الفارهة عليه حاملة أناسا ما كان يخطر ببال أنهم سيشرفون بيتى المتواضع بحال من الأحوال .

المنة لله ، لا أحمل فى الدنيا هما .

الفأر النرويجى

من حسن الحظ ألا نكون وحدنا فى هذه المحنة . وقد دعانا السيد (ا. م) بوصفه أقدم ملاك الشقق فى العمارة إلى اجتماع فى شقته لتبادل الرأى . لم يزد عدد الحاضرين على عشرة بما فيهم الداعى السيد (ا. م) وهو فضلا عن أقدميته أوسعنا ثراء وأرفعنا مركزا . ولم يتخلف أحد ، كيف يتخلف والمسألة تتعلق بالفئران وغزوها المحتمل لبيوتنا وتهديدها لأمننا وسلامتنا . ويبدأ الداعى بصوت ملؤه الجدية «تعلمون . . . » ثم يسرد ما تردده الصحف عن زحف الفئران وأعدادها الهائلة وتخريبها البشع . وترتفع أصوات من أركان الحجرة :

ـ ما يقال يفوق الخيال .

ـ هل رأيتم الريبورتاج التليفزيونى؟

ـ ليست فئرانا عادية ولكنها تهاجم القطط والآدميين .

ـ ألا يحتمل أن يوجد شىء من المبالغة فى الموضوع؟

ـ لا . . لا ، الواقع أكبر من أى مبالغة .

ثم يقول السيد (ا. م) بهدوء واعتزاز برياسته :

ـ على أى حال ثبت أننا لسنا وحدنا ، هذا ما أكده لى السيد المحافظ .

ـ جميل أن نسمع ذلك .

ـ فما علينا إلا أن ننفذ التعليمات بدقة ، ما يجىء منها عنى مباشرة أو ما يجىء عن طريق السلطة .

وخطر لأحدنا أن يسأل :

ـ هل يكبدنا ذلك تكاليف باهظة؟

فلجأ إلى الدين قائلا :

ـ الله لا يكلف نفسا إلا وسعها .

ـ المهم ألا تكون مرهقة .

فلجأ إلى الحكمة قائلا :

ـ لا يدفع الشر بما هو شر منه!

وعند ذاك قال أكثر من صوت :

ـ ستجدنا إن شاء الله من المتعاونين .

فقال السيد (ا. م) :

ـ نحن معكم ولكن لا تعتمدوا علينا كل الاعتماد، اعتمدوا أيضا على أنفسكم ابدءوا على الأقل بالبديهيات .

ـ عين العقل والصواب ولكن ما البديهيات؟

ـ اقتناء المصايد والسموم التقليدية .

ـ عظيـــم .

ـ الإكثار ما أمكن من القطط فى بئر السلم وفوق السطح وفى الشقق أيضا إذا سمحت الظروف .

ـ لكى يقال إن الفأر النرويجى يهاجم القطط؟

ـ لن يخلو القط من فائدة .

ورجعنا إلى مساكننا بروح عالية وعزيمة صادقة . وسرعان ما غلب التفكير فى الفئران على سائر همومنا . فكثر ورودها علينا فى أحلامنا وشغلت أوسع مساحة فى حوارنا ، وتصدت لنا باعتبارها المشكلة الأولى فى وجودنا . ومضينا ننفذ ما تعهدنا به ، ولبثنا ننتظر مجىء العدو . يقول بعضنا إنه لم يبق من الزمن إلا أقله ، ويقول آخرون سنلمح ذات يوم فأرا يمرق فيكون النذير بأن الخطر قد دهم . وتضاربت التفسيرات حول تكاثر الفئران . هو فى رأى نتيجة لخلو مدن القنال حين الهجرة ، وفى رأى يرجع إلى سلبيات السد العالى ، ورأى يحيله إلى نظام الحكم ، وكثرة ترى فيه غضبا من الله على عباده لتنكرهم لهداه . وبذلنا جهدا مشكورا للاستعداد الرشيد لم يتهاون فيه أحد . وفى اجتماع تال بمسكن السيد الفاضل (ا. م) قال حفظه الله :

ـ سرنى ما اتخذتم من أسباب الوقاية ، وأسعدنى أن أرى مدخل عمارتنا وهو يموج بالقطط ، أجل إن البعض شكا إلى تكاليف تغذيتها ولكن كل شىء يهون فى سبيل الأمن والأمان .

وقلب عينيه فى وجوهنا بارتياح ثم تساءل :

ـ ترى ما أخبار المصايد؟

فأجاب أحدنا وهو مرب فاضل :

ـ سقط عندى فأر هزيل من فئراننا الوطنية .

ـ أيا تكن هوية الفأر فهو مؤذ ، أما اليوم فيهمنى أن أبلغكم بوجوب المزيد من الحيطة بعد أن أصبح العدو على الأبواب ، وسوف توزع علينا كميات من السم الجديد المطحون فى الذرة ، يوضع فى الأماكن الحساسة مثل المطبخ مع الحذر الشديد لحماية الأطفال والدواجن والحيوانات المستأنسة .

وحصل فعلا ما وعد به الرجل ، وقلنا حقا لسنا وحدنا فى المعركة ، وتدفق منا الثناء على جارنا الهمام ، ومحافظنا الجليل . أجل حملنا ذلك الكثير من الانتباه يضاف إلى همومنا اليومية . كذلك وقعت أخطاء لا مفر منها ، فقتلت قطة فى إحدى الشقق ، وعدد من الدجاج فى شقة أخرى . ولكن لم تحدث خسائر فى أرواح البشر . وكلما مضى وقت اشتد توتر أعصابنا ويقظتنا وثقل على قلوبنا هم الانتظار فقلنا وقوع البلاء ولا انتظاره .
ويقابلنى جار ذات يوم فى محطة الباص فيقول لى :

ـ سمعت من ثقة أن الفئران أهلكت قرية وزمامها كله .

ـ لا أثر لهذا الخبر فى الجرائد!

فحدجنى بنظرة ساخرة ولم ينبس . وتخيلت الأرض سائلة بحشود من الفئران لا أول لها ولا آخر ، وجموعا من المهاجرين تهيم على وجهها فى الصحراء ، أيمكن أن يقع هذا يا ربى؟! ولكن ما وجه الاستحالة فى ذلك؟ ألم يرسل الله من قبل الطوفان والطير الأبابيل؟ هل يكف الناس غدا عن كفاحهم اليومى ليرموا بما يملكون فى أتون المعركة؟ وهل ينتصرون أو تكون النهاية؟

وفى الاجتماع الثالث بدا السيد (ا. م) منشرحا وراح يقول :

ـ تهانى يا سادة ، النشاط متقد على أكمل وجه والخسائر ضئيلة لا تذكر ولن تتكرر بإذن الله ، وسوف نصبح من أهل الخبرة فى مقاومة الفئران ، وربما استعانوا بنا فى المستقبل فى أماكن أخرى ، والسيد المحافظ فى غاية من السعادة .

وأراد أحدنا أن يشكو قائلا :

ـ الحق أن أعصابنا . . .

ولكن السيد (ا. م) قاطعه :

ـ أعصابنا؟! . . لا تفسد نجاحنا بكلمة طائشة!

- متى يبدأ الهجوم الفأرى؟
- لا أحد يستطيع أن يقطع برأى، ولا أهمية لذلك طالما أننا مستعدون للمعركة.
ثم واصل بعد فينة صمت:
- التعليمات الجديدة ذات خطورة خاصة وهى تتعلق بالنوافذ والأبواب وأى ثقب فى جدار أو غيره. أغلقوا النوافذ والأبواب، افحصوا حافة الباب السفلية بصفة خاصة، فإن وجد زيق تنفذ منه قشة أقيموا وراءه عوارض خشبية لتسده بالكامل، وعند التنظيف صباحا يبدأ بحجرة فتفتح نوافذها، يكنس فرد ويقف آخر مسلحا بعصا للمراقبة ثم تغلق النوافذ وينتقل إلى حجرة تالية بنفس الأسلوب، وبانتهاء التنظيف تكون الشقة علبة محكمة الإغلاق أيا كان المناخ.
وتبادلنا النظرات فى وجوم وقال صوت:
- من المتعذر الاستمرار فى ذلك.
فقال الرجل بوضوح:
- بل عليكم أن تلتزموا بالدقة البالغة فى التنفيذ.
- حتى فى الزنزانة توجد. . .
وسرعان ما قاطعه بحدة:
- نحن فى حرب، أى فى حال طوارئ، وليس الخراب فقط ما يهددنا ولكن الأوبئة أيضا والعياذ بالله يجب أن نحسب حسابها!

ومضينا ننفذ ما أمرنا به صاغرين. وغصنا أكثر فى مستنقع الترقب والحذر وما يصحبه من ضيق وملل. واشتد توتر الأعصاب فترجم إلى منازعات حادة يومية بين رب البيت وربتها والأبناء. ورحنا نتابع الأنباء فصار الفأر النرويجى بجسمه الضخم وشاربه الطويل ونظرته المنذرة الزجاجية نجما من نجوم الشر يجول فى أخيلتنا وأحلامنا، ويستقطب جُل أحاديثنا. وفى آخر اجتماع قال السيد (ا. م):
- بشرى، خصصت فرقة من أهل الخبرة لتفقد العمائر والشقق والمحال المعرضة للخطر، وذلك دون المطالبة بأية رسوم إضافية.

وكان خبرا سارا استقبلناه بارتياح عام، وأملنا أن نزيح عن صدورنا بعض العناء الذى نعانيه. وذات يوم أخبرنا البواب أن المندوب تفقد مدخل العمارة وبئر السلم والسطح والجراج فبارك جماعات القطط المنتشرة هنا وهناك، ونبه عليه بالمزيد من اليقظة والإبلاغ عن أى فأر يظهر، نرويجيا كان أو مصريا. وعقب انقضاء أسبوع واحد على الاجتماع دق جرس الشقة وإذا بالبواب يبشرنا بقدوم المندوب مستأذنا فى التفتيش. لم يكن الوقت مناسبا إذ كانت زوجى قد فرغت لتوها من إعداد الغداء غير أننى هرعت إلى الخارج

لأرحب بالقادم. وجدتنى أمام رجل متوسط العمر مكتنز الجسم ذى شارب غليظ يذكر وجهه المربع بوجه قط بأنفه القصير المطموس ونظرته الزجاجية. رحبت به مداريا ابتسامة كادت تنقلب إلى ضحكة، وقلت لنفسى: حقا إنهم يحسنون الاختيار. وسرت بين يديه ومضى يتفقد المصائد والسموم والنوافذ والأبواب ويهز رأسه بارتياح. غير أنه رأى فى المطبخ نافذة صغيرة مصفحة بغشاء سلكى ذى ثقوب بالغة الصغر، فقال بحزم:

ـ أغلقوا النافذة.

وهمت زوجى بالاحتجاج ولكنه بادرها قائلا:

ـ الفأر النرويجى يقرض السلك!

ولما اطمأن إلى نفاذ أمره راح يتشمم رائحة الطعام معلنا استحسانه فقلت له:

ـ تفضــل.

فقال ببساطة:

ـ لا يأبى الكرامة إلا لئيم!

وفى الحال أعددنا له مائدة وحده زاعمين له أننا سبقناه. وجلس إلى المائدة وكأنما يجلس فى بيته، وجعل يلتهم الطعام بلا حرج ولا حياء وبنهم عجيب. ومن باب الذوق غادرناه وحده. غير أننى رأيت بعد حين أن أطوف به لعله فى حاجة إلى شىء. وفعلا جددت له طبقا، وفى أثناء ذلك لاحظت تغيرا مثيرا فى منظره شد إليه عينى بقوة وذهول. خيل إلى أن هيئة وجهه لم تعد تذكر بالقط، ولكنها تذكر بالفأر، بل الفأر النرويجى نفســه. ورجعت إلى زوجى رأسى يدور، لم أصرح لها بما رأيت ولكننى طالبتها بأن تشجعه وترحب به، فغابت دقيقة أو دقيقتين ثم رجعت شاحبة اللون وحملقت فى وجهى ذاهلة، ثم تمتمت:

ـ أرأيت شكله وهو يأكل؟

فأحنيت رأسى بالإيجاب فهمست:

ـ إنه لأمر مذهل يعز على التصديق.

فوافقتها على رأيها بهزة من رأسى الدائر. ويبدو أن إغراقنا فى الذهــول أنسانا مرور الوقت فانتهينا مع صوته آتيا من الصالة وهو يقول بمرح:

ـ عــامرا!

فاندفعنا نحوه ولكنه كان قد سبقنا إلى الباب الخارجى وذهب. لم نلمح منه إلا ظهره المترجرج، ثم التفاتة سريعة ودعتنا بابتسامة نرويجية خاطفة. ووقفنا وراء الباب المغلق نتبادل نظرات حائرة.

قاتـــل قـديــــم

صدرت «يوميات علاء الدين القاهرى» فاقتحمت عزلة شيخوختى، عاصفة بهدوئها وانقطاعها عن الحياة العامة. عاد اسمه يطاردنى وينكأ جرحا فى كبريائى. ويذكرنى بفترة الاحترام والتقدير، وعهدالنفور والرفض، وأخيرا الفشل. وأقتنى الكتاب، وأنهمك فى قراءته، بدءا من مقدمة ابن أخيه، فأقف على سر تأخير النشر ربع قرن عقب مصرع الرجل احتراما لوصيته، وأغوص بين السطور لعلى أعثر على حل اللغز الذى حيرنى، وينبثق من إحدى اليوميات بصيص نور فأمتلئ بالاستنارة وأنتفض من الذهول، وأهتف فى حجرتى المغلقة:

- كان القاتل بين يدى طوال الوقت!

واخترقت الضباب إلى حجرتى فى نقطة الشرطة فرأيت رجلا يندفع داخلا مضطربا شاحب الوجه بجسمه الطويل المفتول ويقول لاهثا:

- الأستاذ قتيل فى فراشه.

وتفحصته بعين محترفة متسائلا عمن يعنى فقال:

- الأستاذ علاء الدين القاهرى.

فأشغل اهتمامى، وأدركت فى الحال أن الروتين سينجرف عن مجراه المألوف.

- أنا خادمه، ذهبت إلى بيته صباحا كالعادة، رأيت باب حجرة نومه مفتوحا فألقيت نظرة فرأيته فى فراشه غارقا فى دمه.

واستجابة لاستفسار قال:

- أغادر بيته ليلا وأعود إليه فى الصباح فأفتح الباب بمفتاح، أما المفتاح الآخر ففى حوزة الأستاذ..

لم أضيع وقتا أكثر من ذلك فأبلغت المأمور وذهبت إلى بيت الأستاذ بصحبة قوة من الجنود والمخبرين. وفى الطريق غمرتنى ذكريات. ذكرت حماسى لفكره أيام الدراسة الذى زحف عليه الفتور فيما بعد وختم بالرفض. كان أستاذا جامعيا مرموقا، ومؤلف كتب تعتبر المرجع الأول فى الدعوة للحضارة الغربية والنقد المر للتراث، فحظيت بقلة من المعجبين وكثرة من الناقمين. وجرى الزمن وتغير، فبلغ سن المعاش، واعتزل فى بيته. واقتصر اتصاله بالناس على استقبال بعض الزملاء ممن على شاكلته فى الرأى، وبعض الشباب من المعجبين. وعانى الجو العام من اختناق فى الفكر على المستويين

الرسمى والشعبى فلم يعد طبع كتبه، ولم يتيسر الاطلاع عليها إلا فى دار الكتب وخاصة لأصحاب الرسائل الجامعية. رغم ذلك كله بقى اسمه حقيقة ثقافية ذات وزن ثقيل فى الجيل المخضرم وقلة من الشباب، فلم تغب عنى خطورة الجريمة وأثرها المنتظر. درست موقع البيت من الخارج وسط صف من بيوت مماثلة شيدتها جمعية تعاونية. بيت صغير أنيق أبيض من دور واحد وحديقة صغيرة تعبق برائحة الياسمين. ورأيت الجثة منكفئة على وجهها، والغطاء منحسراً عن نصفها الأعلى، والدم يغطى مؤخر الرأس والقفا وينداح فوق الحشية والوسادة. غلفه وجه الموت الأخرس المغترب. بهتت صلعته، وتمدد أنفه الكبير الأقنى فى صفحة ضاربة للزرقة غائصة فى اللامبالاة. لا أثر للمقاومة ثمة، وكل قطعة أثاث مستقرة فى موضعها فى طمأنينة تامة، وفى الحال لحق بى المأمور ومدير الأمن والنائب العمومى، وجرى فحص شامل للمسكن ومحتوياته. وبهرنا نظامه الدقيق وترتيبه الحسن فلا يشذ شىء عن موضعه. عدا صينية على خوان فى حجرة الاستقبال تحوى عددا من أقداح الشاى فى قراراتها شىء من السائل، ووعاء معدنى مفضض به بقايا من البسكوت المطعم بالشيكولاتة، ونافضة مليئة بأعقاب السجائر. وصوان الملابس لم يمس، والساعة والولاعة، كما عثرنا على مظروف به مائة جنيه. وتبودل حديث أولى بين المسئولين:

- الجريمة لم ترتكب من أجل السرقة.
- احتمال راجح ولكن يقتضى مزيدا من التحرى.
- هناك باب الخصومة والانتقام.
- هل تدخل فى هذا الباب الخصومة الفكرية؟
- لكن الأجيال الجديدة لا تكاد تعرفه - وإن وجب أن يمتد البحث لكل شىء..
- والعلاقات الخاصة المجهولة أيضا.

وعرفت القنوات التى ستتدفق منها التحريات، ثم بدأ التحقيق باستجواب الخادم عم عبده مواهب. رجل فى الخمسين، يعمل طاهيا وشغالا عند الأستاذ منذ عشرين عاما، وهو محور البيت كما يخلق ببيت أعزب يعيش وحده. ينتهى عمله عقب تقديم العشاء فى الثامنة ثم يغادر البيت حوالى التاسعة يمضى إلى مسكنه بمصر القديمة ثم يرجع فى الصباح قبل استيقاظ الأستاذ عادة. ويخالف هذا النظام فى الليالى التى يستقبل فيها الأستاذ جماعة من أقرانه أو مريديه من الشبان. فربما تأخر ميعاد ذهابه إلى منتصف الليل. وبالنسبة لليوم الذى قتل الأستاذ فى ليلته عقد - الأستاذ - جلسة مع أربعة من الشبان ممن يترددون كثيرا عليه، وهم طلبة دراسات عليا، معروفون جيدا بالاسم والصورة لدى عم عبده مواهب. غير أن عم عبده شعر بصداع فاستأذن فى الانصراف حوالى العاشرة، ولما رجع صباحا كالعادة اكتشف الجريمة.

ـ هل تشك فى أحد الزوار الأربعة؟

ـ أبدا . . (ثم بتوكيد) أبدا . . أبدا . .

ـ لمــاذا؟

ـ كانوا يحبونه وكان يعاملهم بعطف الوالد ورعاية الأستاذ، والعلم عند الله، والكلمة الأخيرة لك . .

وقلت لنفسى، أمامنا جريمة قتل، القاتل كان داخل البيت، وجدنا مفتاح البيت الخاص بالأستاذ فى درج المكتب. وجدنا باب البيت ونوافذه سليمة وكانت النوافذ مغلقة من الداخل. كخطوة أولى حجزت عم عبده والطلبة الأربعة وانطلقنا فى قنوات التحريات.

بحثنا مصادر الثروة فوضح لنا أنه لا يملك إلا معاشه وحسابه فى المصرف المتحصل من فوائد شهادات الاستثمار، وليس فى ميزانه الصرفى ما يدل على أنه سحب مبلغا أكثر من المعتاد صرفه كل شهر لتغطية نفقاته. ولم تدلنا التحريات عن الطلبة وعم عبده مواهب على أى علاقة مريبة أو شبهة من الشبهات، وفتشت البيوت تفتيشا دقيقا، وكان عم عبده يعيش فى مسكن صغير هو وزوجه أما أبناؤه الثلاثة فيعملون فى السعودية، ولما سئلت زوجته عن ميعاد عودته ليلة الحادث أجابت بأنها تنام مبكرة ووضح أنه لا فكرة لها دقيقة عن الوقت. وكان بعطفة السد القائم بها مسكنه مقهى عند المنعطف شهد صاحبه بأن عم عبده غشى المقهى ليلتها كعادته فلم يتناقض ذلك مع أقوال الرجل الذى قال إنه قصد المقهى ليعالج صداعه بالقهوة والأينسون وخلافه، أما عن الوقت فلم يستطع الرجل أن يحدده لانشغاله المتواصل بعمله. وضحت لنا براءة الطلبة فلم يبق فى يدى إلا عم عبده مواهب. هو الذى يمكنه دخول البيت فى أى وقت ودون عائق ثم يغادره بسلام، ولكن لماذا يقتل الأستـاذ؟ والحق ـ وأقرر ذلك من واقع خبرة ودراسة ـ أنه رجل ورع طيب مستقيم، وبعيد أن يكون حزنه على الأستاذ تمثيلا أو زائفا، وبعيد أيضا أن يوحى وجهه بالجريمة أو الشر، وغضبت حيال الغموض الجاثم. وتعلق الأمل بالعلاقات الخاصة الخفية. وقلت لعم عبده مواهب:

ـ حدثنى عن سلوك المرحوم كرجل لم يتزوج قط؟

فأجاب متجهما:

ـ لا أعرف شيئا.

ـ تكلم. ألا تريد أن تبرئ نفسك؟

ـ لى الله، لن يأخذنى بجريمة غيرى.

ـ لكل منا هفواته وعيوبه فحذار أن تدافع عن القاتل بحسن نية!

ولكنه أصر على موقفه. وجاءنى مرشد باللبَّان الذى شهد بأنه رأى فى بيت الأستاذ فى أثناء تردده عليه امرأة متوسطة العمر على جمال ملحوظ. وبعد مواجهة بين اللبان وعم عبده قلت للأخير بحزم:

- هات ما عندك عن هذه المرأة.

فقال بقلق:

- ربنا أمر بالستر.

فقلت بحزم أشد:

- وأمر بعقاب القاتل فتكلم لتخلص نفسك من الشبهة المحيقة بك.

فاعترف قائلا:

- هى أرملة على علاقة قديمة بالأستاذ، تعيش فى أسرة فقيرة ولكنها لا تتسامح فيما يمس العرض، ولو انكشف سرها لتعرضت للهلاك..

ووعدته بأن نستدرجها إلى التحقيق فى تكتم. وعرفت ما يلزمنى عن المرأة، مسكنها، أولادها، أخيها الميكانيكى المعروف بفظاظته، وعرفت أيضا أن عم عبده كان يسفر أحيانا بين الأستاذ والمرأة على كره شديد منه.

داخلنى شعور بأن الحقيقة ستقذف إلى بعد تمنعها العسير. ولما رأيت المرأة فتر حماسى. وجدت امرأة تكاد من سذاجتها أن تشارف البلاهة. وصارحتنى بأنها استسلمت للرجل لشدة حاجتها ولعطفه وكرم أخلاقه، وأن موته سد فى وجهها باب الرجاء. وقالت: إنها كانت تزوره نهارا تجنبا لإثارة الشبهة عند أحد وخاصة أخيها، وإنها لم تدخل بيته طوال الأسبوعين السابقين للحادث مستشهدة فى ذلك بعم عبده مواهب. ورجع الغموض إلى ما كان وربما أشد. ونشط خيالى فى طرح الفروض، فحام حول أخيها الميكانيكى ولكن قطع الشك باليقين عندما أثبتت التحريات بأن الشاب كان محبوسًا فى قسم الخليفة يوم الجريمة لتورطه فى مشاجرة. انتهى. لم يسفر التحقيق ولا التحريات عن شىء، وقيدت الجريمة ضد مجهول. وقلت لنفسى وأنا من القهر فى نهاية:

- هذه الأمور تحدث أيضا!

- ها أنا أعود إلى الجريمة بعد انقضاء خمسة وعشرين عاما على ارتكابها، وبعد أن تركت الخدمة منذ خمسة أعوام أو يزيد. أعادنى إليها نشر «يوميات علاء الدين القاهرى». ورحت أقرأ بشغف مدركا الأسباب التى جعلت الأستاذ يوصى بتأخير النشر ربع قرن لتعرضها لأشخاص رأى من المستحسن ألا يهتك الستر عن أفكارهم إلا بعد وفاتهم أو فى الأقل بعد انتهاء خدمتهم الرسمية. وفى إحدى اليوميات قرأت:

«عم عبده مواهب صارحنى برغبته فى ترك خدمتى فانزعجت جدا لشدة حاجتى إليه خاصة فى هذه المرحلة الحرجة من العمر والوحدة، ولأمانته واستقامته وطيبة قلبه وتقواه». وقلت له:

ـ إنى أعاملك كصديق يا عم عبده.

فتمتم:

ـ لا ينكر النعمة إلا لئيم.

ـ إذن لا تتركنى، والعمل على أى حال أفضل من الفراغ.

فغمغم:

ـ لا حيلة لى يا سيدى.

ـ بل يوجد سبب، لا تخف عنى شيئا..

فصمت مليا ثم قال:

ـ قلبى يقشعر مما أسمع أحيانا فى مجالس الزوار!

فقلت بدهشة:

ـ لن يأخذك الله بذنوب غيرك، لك على أن أسكت الحوار إذا دخلت الحجرة لخدمة..

وما زلت به حتى عدل عن رأيه. ولكن يبدو أنه لم يكف عن التصنت وقد ضبطته مرة لصق الباب وأنا ذاهب لبعض شأنى فعاتبته عتابا مرا، وذات يوم وهو يقوم على خدمة إفطارى حانت منى التفاتة إلى مرآة فلمحت صورته المعكوسة تنطق بالحنق والغضب، فاعترضتنى كآبة وتساءلت: «كيف أحتفظ برجل يضمر لى هذا الشعور الأسود؟!».

وفى مكان آخر من اليوميات وكظرف مشابه قرأت هذه العبارة عن عم عبده مواهب: «يجب التخلص منه فى أقرب فرصة، وقد ناقشت مشكلته فى إحدى الجلسات الثقافية فأثنى الزوار عليه وقالوا إنه مثل للاستقامة والطيبة ولكنى على خبرة بما يمكن أن يصدر عن هذه الأنماط إذا جرحت ضمائرها، يجب التخلص منه فى أقرب فرصة مهما صادفنى من صعوبات فى إحلال آخر محله».

امتلأت بالاستنارة متأخرا جدا وهتفت:

ـ كان القاتل بين يدى طوال الوقت!

الآن قد سقطت العقوبة، واندثر التحقيق، وتوفى الكبار الذين باشروا التحقيق أو أشرفوا عليه، ولعل القاتل قد لحق بهم أو سبقهم إلى جوار ربه. وأمكننى أخيرا أن أقف على الباعث على الجريمة الذى ضللته وقتها، ترى هل مات الرجل أو ما زال حيا؟ ولم

أستطع مقاومة الرغبة فى السعى وراءه رغم إفلاته القانونى من العقوبة . تمنيت أن أعثر عليه ولو لأعلن انتصارى العقيم . ولن يتضح عقمه ـ لجهله غالبا بالقانون ـ حتى أكاشفه بذلك .

وانتقلت من مصر الجديدة إلى مصر القديمة مدفوعا بحب استطلاع ورغبة متوارية فى الانتقام . وجدت عطفة السد كما كانت ببيوتها العتيقة والمقهى القائم عند المنعطف لم يكد يتغير إلا وجه صاحبه ، وكان عم عبده انقطع عن زيارة المقهى منذ سنوات فطرقت بابه واقتحمت مسكنه . . واستقبلنى بدهشة ، ببصر ضعيف ، ولم يتذكرنى ، وطالعنى بوجه كثير الغضون وسوالف ناصعة البياض كالزغب تبرز من حافة طاقية ببضاء .

قلت له :

ـ إنك لا تتذكرنى .

فبسط راحته متسائلا فقلت :

ـ ولكنك لم تنس ولا شك مصرع الأستاذ علاء الدين القاهرى !

فومضت فى سحابة عينه نقطة لامعة وقطب فى حذر .

ـ أنا ضابط التحقيق ، كلانا تقدم به العمر .

فتحركت شفتاه من همس لم أتبينه ولكنى قرأت فى صفحته أمارات الانسحاق .

وقلت بثقة :

ـ أخيرا انكشفت الحقيقة وثبت أنك قاتله !

واتسعت عيناه فى ذهول ولكنه خرس فلم ينبس . وقام بجهد وصعوبة ولكنه ما لبث أن انحط فوق الكنبة . أسند رأسه إلى الجدار ومد ساقيه وتقلصت عضلات وجهه نافثة زرقة ترابية ، وفتح فاه ، ربما ليقول شيئا لم يقله أبدا ، ثم استسلم أمام قوة مجهولة فمال رأسه على كتفه .

وجزعت فهتفت به :

ـ لا تخف . انقضى زمان الجريمة ، اعتبر حديثى مزاحا . .

ولكنه كان قد أسلم الروح .

* * *

أقدمت على مغامرة لأحقق نصرا عقيما فبؤت بهزيمة جديدة أفقدتنى ما كنت أحظى به من راحة البال . ومن حين لآخر أتساءل فى ضيق :

ـ ألا أعتبر أنا أيضا قاتلا ؟ !

الخنـــــدق

رغم عنايتى الملحوظة بنظافة جسدى وصحتى العامة فإن الإحساس بالقذارة والمرض يلح على كفكرة ثابتة أو جو ثقيل جاثم. لست أقيم فى جسد وأطراف فحسب ولكن أيضا فى شقة عتيقة بالية وعطفة هرمة تغوص فى النفايات. تعرى السقف من الطلاء وتكشف فى مواضع عن عروق لا لون لها، وتشققت الجدران فى خطوط متوازية ومتقاطعة، وانفجرت الأرضية عن نتوءات وثغرات تلاطم باطن القدم تحت الأكلمة المتهرئة. والسقف والجدران تنضح صيفا بالحرارة المحرقة وترشح شتاء بالرطوبة أو برشاش المطر. والسلم آخذ فى التآكل، ودرجة منه تصدعت فتهاوى نصفها وأصبحت عثرة فى طريق الصاعد والهابط وخطرا لا يستهان به فى ظلمة الليل. هذا بالإضافة إلى الشق الطولى الذى يسوخ فى جناح البيت الخارجى الملاصق لدورات المياه، وهو جناح تقشر ملطه وكلسه وبرزت أحجاره. وعطفة الحسنى اختفى طوارها تماما، ولا أحد يذكر أنه كان لها طواران سواى بوصفى من مواليد هذا البيت، بخلاف أسرتى إبراهيم أفندى ساكن الدور الأوسط والشيخ محرم ساكن الدور الأرضى اللتين وفدتا إلى البيت منذ عشرين عاما على أكثر تقدير. على أيام صباى كان البيت كهلا لا بأس به، والعطفة ذات أديم مبلط بالأحجار وطوارين، لا تقل فى رونقها عن شارع الشرفا الذى تنحدر إليه. اختفى الطواران تحت الأتربة والنفايات، وهذه تتراكم يوما بعد يوم زاحفة من الجانبين نحو وسط الطريق الضيق، وعما قليل لن يبقى للسكان إلا ممر كالخندق يذهبون منه ويجيئون، وربما ضاقت حافتاه عن أن تسع جسم ست فوزية حرم إبراهيم أفندى. يطبق على وجدانى شبح القدم وتوقع الانهيار وتفشى القذارة فيطاردنى الإحساس بالمرض. والخوف أيضا. وحيد فى شقة تفرق ساكنوها بين البيوت الجديدة والمقابر، وموظف بالإضافة. . موظف وحيد فى بيت آيل للسقوط، يئن فى قبضة الغلاء، يتساءل عن مصيره لو وقع زلزال أو غارة جوية فى هذه الأيام المنذرة بالحروب، أو ماذا يحدث لو استوفى البيت عمره المتهالك فمات حتف أنفه وبلا سبب خارجى. وأعقد العزم على مطاردة الهواجس بنفس القوة التى تطاردنى بها، أن أسلم أمرى لله، ألا أتعجل الهم قبل وقوعه، أتناسى همومى فى المقهى بين الصحاب من الموظفين الكادحين أو بين يدى التليفزيون، تليفزيون المقهى. غير أن الهم يرجع كأكثف ما يكون فى اليوم الأول من كل شهر. يوم يحسب حسابه الشيخ محرم وست فوزية التى تنوب عن زوجها فى المعاملات لقوة شخصيتها، كما أحسب حسابه ألف مرة. فى هذا اليوم يهل علينا عبد الفتاح أفندى

ساعى البريد ومالك البيت القديم. رجل فى الخمسين، ما زال متمسكا بطربوشه، ثقيل الظل، ربما لا لعيب فيه. أنتبه إلى حضوره عندما يترامى إلىّ صوت ست فوزية وهى تنهره بخشونة وتلقمه الحجر تلو الحجر. أما أنا فأعالجه بالكياسة ما استطعت. أستقبله وأجالسه على كنبة وحيدة وأقدم له الشاى. ويطيب له أن يرد التحية فيسألنى:

ـ بودى أن أجىء مرة فأجدك مكملا نصف دينك!

فأسأله وأنا أدارى غصة:

ـ عندك عروس وزيجة بالمجان؟

فينفخ بخار الشاى ويحسو حسوة ذات فحيح ويهز رأسه دون أن ينبس. وأقدم له الإيجار، ثلاثة جنيهات، فيتناولها باسما فى سخرية، يفندها بين أصابعه، يقول:

ـ أقل من ثمن كيلو لحمة، والاسم مالك بيت..

ثم يواصل متشجعا بصمتى:

ـ أموال أيتام يعلم الله.

فأقـــول:

ـ مظلومان يتناطحان، ولكن ما الحيلة؟!

ـ لولا احتلالكم للبيت لبعته بالشىء الفلانى.

ثم بنبرة وعظية:

ـ وهو آيل للسقوط، ألم تنذركم اللجنة؟

فأتساءل:

ـ وهل نلقى بأنفسنا إلى الشارع؟!

أفتقد دائما الشعور بالاستقرار والأمان كما أفتقد الإحساس بالنظافة والصحة. على ذاك فحالى خير من الآخرين فإنى على الأقل وحيد. عن عجز لا عن رغبة ولكنى وحيد. حبيس كبت ووحدة وبيت آيل للسقوط وعطفة تدفن تحت النفايات. أقوم بالمعجزات لأفوز بلقمة هنية ولو على فترات من الزمن، وكسوة تستر ماء وجه مدير إدارة فرعية. أحلم بمسكن مما أرى فى إعلانات الجمعيات التعاونية، وعروس مما أشاهد فى صفحة العرائس الأسبوعية، أو حتى مثل ست فوزية. أتعزى بقراءة «حلية الأولياء» بحياة الأولياء الصالحين الزاهدين المتوكلين الطارحين لهموم الدنيا تحت أقدامهم واللائذين بطمأنينة خالدة. غير أن خبرا عارضا عن سقوط منزل أو عن إخلاء عمارة بقوة الشرطة عقب تصدع جانب منها، يهزنى من الأعماق، يستردنى من فردوس الأولياء، يملؤنى بالرعب، أين يذهبون؟ ماذا يبقى لهم من المتاع؟ كيف يتصرفون؟!

ويتضاعف إحساسى بالوحدة رغم انتمائى إلى أسرة كالقبيلة متناثرة فى أنحاء المدينة الكبيرة: إخوة وأخوات وأقارب ووحدة خانقة! العواطف طيبة ولكن لا بيت يرحب بجديد. كل بيت بالكاد يسع سكانه. وكل فرع ينوء بهمومه. قد أجد ملاذا ليوم أو أسبوع أما الإقامة الدائمة فهى ورم سرطانى لا يحتمل. وأهرع إلى المقهى فهو جنة المأوى. أجتمع بالزملاء فأستروح العزاء فى تبادل الشكوى. ومن عجب أننى معدود بينهم من المحظوظين لتوحدى وخفة حمولتى. وحدتى المرعبة قيمة محسودة. يا بختك لا زوجة ولا بنت ولا ولد. لا مشكلة أجيال ولا زواج بنات ولا دروس خصوصية. بوسعك أن تأكل لحمة مرة فى الأسبوع وربما مرتين. مسكنك الوحيد الذى لا يشهد شجارا ولا نقاشا. وأهز رأسى فى رضا ولكنى أتساءل فى باطنى: هل نسوا آلام الكبت والوحدة؟ غير أنى أجد فى أنينهم المتواصل سلوى مثل دفقة ضوء تلقى على قبر. ويقول لى أحدهم مرة:

ـ عندى حل لكافة مشكلاتك.

فأنظر إليه باهتمام وأنتظر فيقول:

ـ زيجة، توفر المسكن واليسر ولا تكلفك مليما واحدا.

ثم فيما يشبه الهمس:

ـ امرأة تناسب المقام.

وأتخيل فى الحال امرأة لا تملك من الأنوثة إلا شهادة السجل المدنى. وسيلة شاذة من وسائل الإنقاذ مثل الانحراف والجرائم الخفية، طوق نجاة مثل جثة طافية. الحق أننى فقدت الأمل ولكنى مازلت محتفظا بالكبرياء. من أجل ذلك يصفوننى بالطيبة كمرادف للبلاهة. أتصبر وأقاوم. أعود إلى كتاب حلية الأولياء وأقرأ جرائد المعارضة. ربما ألجأ أحيانا إلى حيل الطفيليين ولكنها زلة تغتفر. أزور بيوت الأهل فى غير أوقات الغداء إمعانا فى إظهار البراءة على أمل أن أدعى إلى وليمة، ولكن روح العصر لم تعد تؤمن بهذه التقاليد العريقة. ويختلف الأمر بالنسبة للمواسم والأعياد فيسعدنى الحظ بوليمة أو وليمتين فى العام. وما إن يتهادى إلىّ صوت ربة البيت وهى تقول:

ـ ما أنت بالغريب ولا بالضيف، اعتبر نفسك فى بيتك..

ما إن تلوح هذه الإشارة الخضراء حتى أنقض على المائدة مثل نسر جائع وكأنما أشهد العشاء الأخير. الأدهى من ذلك كله أننى مواطن عادى، لا طموح عنده ولا خيال. نلت من التعليم ما يكفى وألحقتنى القوى العاملة بإدارة ما. ما تمنيت بعد ذلك إلا بنتا طيبة وشقة صغيرة. انقلبت الدنيا لا أدرى كيف وماجت بالعجائب. وتحددت إقامتى فى البيت المتهالك. وكلما ارتفع مرتبى انخفض كأنه فزورة من فوازير رمضان. ذاب شبابى فى التضخم وكل يوم أغالب أمواجا هادرة تهددنى بالغرق.

ويقـــال لى :

ـ هاجر ففى الأسفار مليون فائدة . .

ولكنى بطىء الحركة ومشدود للأرض ولم أستسلم لقبضة اليأس . من حين لآخر تومض فى سمائى المظلمة بارقة . تنعشنى تصريحات الوزراء وطلقات المعارضة ونوادر الأولياء . ألم يكن ابن حنبل يتصدق بالجوائز السنية وهو يتضور جوعا؟ وأتسلى أحيانا فى نافذتى وأنا أرقب ست فوزية وهى تتبختر فى الخندق بين حافتيه المطبقتين . وذات يوم قررت أن أزور مدفن الأسرة بعد انقطاع طويل باعتباره الملجأ الأخير إذا وقعت الواقعة . هناك توجد حجرة الرحمة كما توجد دورة للمياه فهى مأوى من لا مأوى له .

رأيت القبرين القديمين تحت السماء وشجيرات الصبار فى الأركان ، أما حجرة الرحمة إلى يمين القادم فقد انقلبت خلية نحل تموج بالنساء والأطفال والأثاث البالى المكوم ومواقد الغاز والحلل وتعبق بروائح التقلية والفول والباذنجان والزيت المقلى . رمقتنى أعين المستوطنين بتوجس وقرأت فى أعماقها نذر التحدى . ابتسمت فى استسلام ووقفت قبالتهم متحررا من القوة والمجد . وقلت لامرأة ذكرنى حجمها بست فوزية :

ـ لا بأس ، ولكن ما العمل لو احتجت إلى الحجرة كمأوى؟

فقالت ضاحكة :

ـ أنت صاحب حق ونحن ضيوفك ، ننزل لك عن ركن ، والناس للناس . .

فقلت ممتنا فى الظاهر :

ـ جوزيت خيرا . .

ومرقت إلى القبرين لأتلو الفاتحة . تخيلت الأجيال التى لم يبق منها إلا هياكل عظمية . رعيل من أهل الحرف والتجار والموظفين وستات البيوت وخال لم أدرك عصره ولكنى سمعت الرواة يحكون أسطورة استشهاده فى ثورة ١٩١٩ .

وقفت مليا وأنا أناجيهم بصوت غير مسموع :

ـ أمدونى يرحمكم الله بإيمانكم ، وهبنى يا خالى شيئا من شجاعتك!

عندما يأتى الرخاء

مات الأب ففقد الابن عرشه . ذلك أنه كان وحيد أبويه ، ولى العهد المدلل ، المغموس فى نعيم الحنان . ما إن بلغ الحلم حتى زوجه أبوه ليفرح به فأنجب بدوره ابنا وحيدا ، وزوجه فى حياة أبيه ليفرح به أيضا . أما الأب المدلل فأفسده الدلع فقعد عن التعليم دون

أن يحصل على الابتدائية، وأما الحفيد فقد نال التجارة الثانوية بطلوع الروح. وعقب وفاة الأب ـ الجد ـ وجد الخليفة الأول نفسه وحيدا عاطلا، والخليفة الثانى كاتبا على الآلة الكاتبة.

ـ كان أبى سمسارا رزقه موفور ولكن ينفق عن سعة، عشنا فى حياته كالملوك غير أنه لم يخلف شيئا.

أورَّثه بيتا من ثلاثة أدوار ودكانًا بالسيدة، يقيم هو فى دور وابنه فى دور ويقبض إيجار الدور الثالث والدكان ستة جنيهات كل شهر، مثل مرتب ابنه. أجل كان المبلغ كافيا لمعيشة أسرة فى مطلع القرن ولكنه لا يهيئ لها أى لون من ألوان الترفيه المشروع.

ـ كيف أطيق هذه الحياة أنا ربيب النعيم، طعامى طعام ولائم، وملبسى أنموذج للأناقة، مجلسى فى قهوة الشيشة، ونزهتى عند كشكش بك ومنيرة المهدية، كيف أطيق هذه الحياة؟

ويقول له ابنه معاتبا:

ـ لم عجلت بتزويجى؟.. ها أنا أب وأنا دون العشرين..

فيجيبه متنهدا:

ـ إنما الأعمال بالنيات يا بنى! أنا أيضا وجدتنى زوجا لبنت تكبرنى بأعوام قبل أن أفرق بين الألف والباء!

وكان المستحق الوحيد لوقف جده للمرحومة أمه فزار لأول مرة إدارة الأوقاف الأهلية مسوقا بنبضة أمل رغم ما سبق له علمه عن طريق أبيه. وقال له الموظف المختص:

ـ ثروتك على الورق ضخمة، أربع قطع أراضى فضاء بالمنشية، ومال بدل ناتج عن دخول قطعة خامسة فى التنظيم مقداره أربعون ألفا من الجنيهات..

فتساءل بصوت متهدج: كيف يمكنه الانتفاع بثروته؟ فقال الموظف:

ـ لا شىء للأسف، الأرض وقف لا تمس، والمال وقف لا يمس، وهو مودع فى البنك بلا فوائد لأن الفوائد ربا والربا حرام وكل حرام فى النار.

وهذه النار التى تندلع فى قلبه وآماله؟! لم يعد له من حديث إلا الوقف والحرمان. ويطوف بالأراضى الفضاء المطروحة كخرائب، ويسأل عن أجر المثل فيحسب ثمنها بما لا يقل عن ثمانين ألفا من الجنيهات بالإضافة إلى مال البدل، وراح يهذى بالثروة والحرمان والفقر والحظ.

وقال له عمه:

ـ بع بيتك واستثمر ثمنه فى عمل نافع.

ولكنه يقول معترفا بالحقيقة الصخرية :

ـ لا أصلح لشىء يا عمى .

ويستطرد باسما فى حياء :

ـ الله يغفر لك يا أبى .

والزمن يسترق الخطى ، لا يبالى ولا يمهل ، فيتوغل الرجل فى الشباب حتى يرقى ذروته ويطل على الرجولة دون أدنى رغبة فيها . تتبلور شخصيته بين الأصحاب والأقارب نمطا للإنسان الشاكى الباكى ، مجنون الوقف ومال البدل وأجر المثل . يضحك منه فى الخفاء من يشفق من الجهر ، ويعالنه بالسخرية من يضيق به ، ومن وراء يقولون عنه :

ـ سيجن ذات يوم .

ـ بل جن فعلا وما كان كان . .

وتغزو مظاهر الحضارة حتى الأحياء الوطنية . وجاوزت السيارات حدود الندرة . وكذلك المطاعم والملاهى . وانطلق الرعيل الأول من الحسان سافرات الوجوه بأعين مكحولة وشفاه مصبوغة . هذا وامرأته منهمكة بين الطهى والغسيل والمكنسة فبرزت الست العاملة وتوارت الأنثى المغرية . وهو خلقه الله جميلا يحب الجمال فتنمر وتوثب للنزاع والنكد . تقول امرأته :

ـ ما حيلتى ! ابتليت به أفظع مما ابتلى هو بالحياة . .

ويقول هو :

ـ أنا غنى محكوم عليه بالفقر ، والدنيا حلوة . .

ويقول له عمه :

ـ الدنيا حظوظ ، ولله فى خلقه شئون ، والسعيد من يمتثل لإرادة الله .

فيقول :

ـ أنا مظلوم . . . مظلوم . . مظلوم . .

ـ وما الحيلة يا بن أخى ؟

ـ أحرام أيضا أن أشكو الظلم ؟ !

فيقول الرجل مداريا ضيقه بابتسامة لا لون لها :

ـ أليس لكل إنسان همومه ؟ !

وتتوثق العلاقة بينه وبين إدارة الأوقاف . يصبح نجما فى سمائها المنسوجة من خيوط العنكبوت . ويمدون له فى حبل الأمل .

ـ ألا تتابع حملات الجرائد على جمود الوقف؟

ـ انتظر خيرا قريبا .

وتنشب الحرب العالمية الثانية ، يتسنم ذروة الرجولة فينحدر نحو الكهولة ، ويتلقى من الغيب نذرا فى صورة شعيرات بيضاء لمعت فى سوالفه وشاربه الذى يعتز به أيما اعتزاز . وتشرئب الأسعار برءوسها فى بطء واستمرار فيهتز الباقى من أمنه . على حين تنتشر مظاهر الحضارة واللهو ، وتتلألأ الشوارع بالسيقان والأذرع والنحور ، ويتدفق المنهل العذب يدعو الشاربين للورود ، وتسرع زوجته إلى الكهولة والخراب .

ـ كان فى البيت رجل واحد فأمسى فيه اثنان!

وتقول امرأته لجارة لها :

ـ لو تحققت أمنيته فى الصباح لتزوج على قبل مجىء المساء ، لا حقق الله أمنيته!

ويقول له ابنه :

ـ لم تعد الحياة كما كانت ، القروش مثل العصافير سرعان ما تطير . . ويقول له موظف الوقف الأهلى :

ـ لا يمكن مواجهة أعباء الحياة بريع بيتك ، انزل عن كبريائك وحرر عريضة بطلب شىء من الخيرات . .

وبعد تردد راقت له الفكرة . ولما لم يكن يحسن الكتابة فقد تولاها عنه الرجل . وقال له برجاء :

ـ ربنا أمر بالستر .

فقال له الموظف :

ـ سرك فى بئر . .

وتزوره مندوبة الوزارة لإجراء التحريات التقليدية . تتفقد البيت وأثاثه القديم وهو يتابعها بكآبة . ثم يقول لها بدافع من كبريائه :

ـ سلى يا ابنتى عن أصلى فى إدارة الأوقاف .

فتقول له بعذوبة :

ـ أعرف كل شىء . .

وانتبه إلى نضارة وجهها وهندسة جسمها لأول مرة .

سألها فى دعابة :

ـ ألا تمنح الوزارة بدلا من المرتب أشياء عينية؟

فتساءلت فى براءة :

- مثل ماذا؟

فقال ضاحكا:

- مثلك يا ابنتى!

فودعته ضاحكة. وصرخت زوجته:

- تحت سمعى وبصرى ولا تتورع عن المغازلة..

فقال بجدية مصطنعة:

- غازلتها بالأصالة عن نفسى ونيابة عنك أيضا..

فصاحت:

- ما يؤدبك إلا الفقر.

وتقرر له مرتب من الخيرات مقداره ثلاثة جنيهات شهريا. وسأل الموظف ممتعضا:

- ثلاثة جنيهات؟!

فقال الرجل:

- مناسب جدا بالقياس إلى أمثاله.

- لا يساوى ما بذلت من كرامتى..

- الأسر التى أناخ عليها الدهر أكثر مما تتصور.

على أى حال زار المفتشة فى إدارة التحريات، فى الظاهر ليشكرها، وفى الحقيقة ليتملى شبابها ونضارتها. ورجع إلى بيته وفى قلبه حلم. وأنجب الحلم أحلاما أخرى عن فيللا وسيارة ومائدة. أما الواقع فلم يتمخض إلا عن غلاء يرتفع، ومغريات تنتشر، وشيب يتفشى، وضغط دم - ذلك الداء المتوارث فى أسرته - يستقر. وتمزقت روابط الزوجية حتى حل الكره محل الرحمة. تقول له:

- لا أرى فى وجهك إلا العبوس.

فيقول:

- حب الحياة ليس جريمة.

- اشكر ربك على الابن والصحة.

- ابنى يتأوه وصحتى تلفت.

- إنى رفيقة عمرك.

- هذه هى المصيبة.

- تأخذنى برتقالة وتعرض عنى قشرة.

ـ بل قشرة من أول يوم .

ورق الابن لأمه فاقترح عليها أن تقيم معه بعض الوقت ولكنها قالت له معتذرة :

ـ سيبحث عن خادمة ولا أستبعد أن يتزوجها .

وتتقدم الأيام فيكثر كل شىء سيئ ويقل كل شىء حسن . ويتلقى الرجل أنباء قيام ثورة يوليو وهو يعانى من أوجاعه فلا يثير اهتمامه أى حدث عام .

ويتلقى بعد ذلك أنباء حل الوقف وتوزيعه على أصحابه وهو طريح الفراش بصفة نهائية . ويسرح بصره فى الغيب طويلا ، طويلا . طويلا ، ثم يتمتم :

ـ حكمتك يا رب . .

عندما يأتى المساء

تنفجر عواصف الخماسين الغبراء الساخنة فى عز أيام الربيع . توفيت الست الكبيرة عن ثمانين عاما مخلفة لابنتها فيللا بالهرم وبضعة آلاف من الأموال السائلة . وكانت الابنة الستينية تقضى مع زوجها السبعينى الفترة المتبقية من العمر يظلهما الوفاق والهدوء واليسر . وحركت الثروة الطارئة الطموح إلى حياة جديدة ، فقالت الزوجة :

ـ نستطيع الآن أن نعيش فى فيللا جميلة بالهرم ، وأن نغادر هذا الشارع الكئيب .

فتجلت فى عينى الزوج نظرة فاترة وغمغم :

ـ الهــرم؟

ثم واصــل :

ـ شقتنا مريحة ، عشرة عمر طويل ، بدأ بشهر العسل ، وجميع المعارف والأحباب حولنا . .

فقالت بازدراء :

ـ لو تكن جنة لحق لنا أن نملها . .

ولم تأخذ معارضته مأخذ الجد وراحت تفكر بصوت مرتفع :

ـ الفيللا تحتاج لتجديدات بسيطة ، وشىء من الديكورات ، وبها أثاث يمكن الاحتفاظ به وبيع ما يماثله من أثاثنا مثل حجرة السفرة والمطبخ ، ويلزمنا شىء من التنجيد أيضا ، النقود متوفرة والحمد لله ، ومما يزيد من مزاياها أنها تقع فى شارع داخلى مسفلت ومشجر وهادئ بالقياس إلى الشارع العمومى . .

واعترت الزوج كآبة فراح يفكر بصوت مرتفع أيضا :

ـ بين الجناين موقع عتيق حقا ولكن العمارة جديدة نسبيا ، شيدت منذ خمسين عاما ومؤكد أنها تستطيع أن تحافظ على صلاحيتها خمسين عاما جديدة ، الشقة لا ينقصها شيء ، شمسها متوفرة وهواؤها طيب ، وأهم من ذلك كله يوجد حولنا جيران العمر ، أنا رجل عجوز ، فراغى طويل ، ولولا بقية من أصدقاء ما تحملت الحياة ، بنتى الوحيدة وزوجها فى السعودية ، والأقارب لا يتلاقون فى هذا الزمان إلا فى الجنازات الهامة !

وحدجته بنظرة أطل منها العناد والتجهم وتساءلت :

ـ أنضحى بما أتاح الله لنا من عيشة راضية من أجل مزاجك الشخصى ؟ !

اشتعلت أعصابه سريعة الاشتعال وقال بمرارة :

ـ عنادك يفترس إنسانيتك ، قدرى حال رجل لم يعد له حظ من الدنيا إلا نفر من الأصدقاء . .

ـ حسبت أن لك زوجة أيضا !

ـ طبعا . . طبعا . . ولكن الرجل لا يستغنى عن أصدقاء العمر !

ـ التليفزيون فيه الكفاية ولكنك مدمن سهر .

ـ كفى عن العناد وفكرى بإنسانية .

ـ فكر أنت بشيء من العقل .

فى البدء كان الحب . فى الشباب الباكر كان الزواج . هو مهندس رى وهى ست بيت وحاملة للابتدائية أيضا . أنجبا ابنة وحيدة ، طبيبة متزوجة من طبيب ويعملان فى السعودية . عبرا سنوات التعارف والتوافق وعثرات الاختلاف فى الذوق والعادات بنجاح حتى استقرا فى سكينة الشيخوخة . رغم ذلك قال لنفسه بقلق : «إنها عنيدة وإذا تسلطت عليها فكرة انقلبت حجرا صلدا لا سبيل إلى التفاهم معه» وقالت لنفسها : «إنه طفل مدلل عصبى ويبيع بالدنيا مزاجه» وشرعت فى تجديد الفيللا فانقبض صدره وغشيته سحب المخاوف . وقال لها :

ـ أجريها مفروشة تدر عليك الشيء الفلانى .

ولكنها قالت بإصرار :

ـ ما حاجتنا إلى النقود فى هذه السن؟ ولا ابنتنا فى حاجة إليها ، ولكن من حقنا أن نتعم بشيء من الراحة والجمال وحسن الختام .

ـ وأصحابى ؟ ! تذكرى أزمة المواصلات ، الانتقال معناه العزلة ، وفى العزلة قضاء علىّ !

- ربنا يكملك بالعقل وسداد الرأى .

لم يعشق هواية مما تثرى الفراغ . ترك لتيار الزمن بلا طوق نجاة . يستيقظ من نومه حوالى الظهر وينتظر المساء . تدينه صادق وبسيط ولا يشغل له بالا . يهرع مع الليل إلى منظرة صديق على المعاش كان معلم لغة عربية ، يملك بيتا صغيرا ذا حديقة صغيرة ، ويوافيهما ضابط جيش عجوز على المعاش أيضا وصيدلى قبطى اعتزل العمل . يتسامرون ، يلعبون النرد ، يحتسون الشاى أو المرطبات تبعا للفصول ، يدخنون ، ثم يفترقون عند اقتراب الفجر إلى مساكنهم المتقاربة فى بين الجناين . فى الزمان الأول كانت البيوت تطل على الحقول والحدائق وتعبق بشذا الحناء وتغوص فى الهدوء . اليوم اكتظت بالبيوت والسكان ، والخرائب الموقوفة التى انقلبت أسواقا لتجارة الخردة وقطع الغيار القديمة ، وازدحم الطريق بالصبية وصار ناديا أهليا للعب الكرة ، ولكن القلب ما زال يجد سلواه فى المناجاة والسمر . ماذا يتبقى له فى الحياة إذا حرم من هذه السلوى الباقية؟!
وقال لها أخيرا بنبرة حاسمة :

- لن أغادر هذه الشقة إلا إلى القبر .

فقالت بحنق :

- إذا تم إعداد الفيللا فلن أبقى هنا لحظة واحدة .

فارتفع صوته وهو يقول :

- أنت امرأة عنيدة بلا قلب .

فهتفت :

- أنت أنانى لا يهمك إلا مزاجك .

- لى عليك حق الطاعة .

- الطاعة من حق العاقل .

- قلة أدب .

- أنا بنت ناس علموا الناس الأدب .

- لى الجنة على احتمال عشرتك .

- الحق أنى أنا الشهيدة ، لولا صبرى لعشت طيلة عمرك وحيدا . .

- أنا؟!

- نعم . . آه لو أفرغ قلبى ما فيه!

- جنس جاحد حقيقة .

- أجرى عند الله وحده ، هل نسيت افتضاح سلوكك عام ١٩٢٦؟!

ـ ١٩٢٦ ! يا ألطاف الله! إنى لا أتذكر ما يقع بالأمس . .

ـ ولكننى لا أنسى ، ولا أنسى فجورك وأنت مفتش رى بكفر الشيخ فى ١٩٣٠ !

ـ حقا إنك ذاكرة مذهلة لحفظ أنباء السوء وتنسين ما عدا ذلك ، نسيت على سبيل المثال أننى ضحيت بأجمل عروس من أجلك . .

ـ بل سال لعابك دائما طمعا فى مساعدات بابا الله يرحمه . . . أنانى ونفعى !

ـ قذارة وقلة أدب .

ـ اخـرس !

وانتفض واقفا ووجهه يموج بالغضب فانتصب عنقها فى تحد رغم توقعها عدوانا قياسا على مرات متباعدة لا تستطيع أن تنساها أبدا . غير أنه كظم غيظه وقال وهو يغادر الحجرة :

ـ ليكن فى علمك أن مغادرة الشقة تعنى الطلاق .

فصرخت :

ـ إنى أرحب به وإن جاء متأخرا .

وعلى أثر رسالتين تلقتهما من الأم والأب حضرت الابنة من السعودية دون إبطاء . انفردت بالأم محاولة إقناعها ففشلت . ولم تكن أكثر توفيقا مع أبيها . وجمعت بينهما وقالت :

ـ من المبكى والمضحك معا أن يجرى للطلاق ذكر بينكما فى هذه المرحلة من العمر ، فليغفر الله لكما هذه السقطة اللسانية الشنيعة . .

ونقلت بينهما عينا حزينة وواصلت :

ـ انتقلى يا ماما إلى الفيللا وابق يا بابا فى الشقة ، وأجلا قراركما الأخير للزمن والوحدة . .

وشملهم صمت ثقيل خففته بدعابات متكلفة صدرت عن نفس مليئة بالشجن ثم ودعتهما راجعة إلى مقر عملها وقد اقتنع كل طرف بأنها منحازة إليه فى أعماقها وإن أبت أن تعلن رأيها مجاملة للطرف الآخر .

ووقع الانفصال ممزقا لأول مرة وحدة حياة مشتركة طويلة العمر . انتقلت الزوجة لتستقبل حياة أنيقة ثرية مترعة بالوحشة . ولبث الزوج فى شقة مقفرة عارية الحجرات إلا حجرة نومه المكونة من فراش مفرد وصوان قديم وكليم صغير ، واقتصر المطبخ على الأوعية والأوانى الضرورية وموقد بوتاجاز صغير ومائدة ذات مقعد وحيد وفريجدير لحفظ الطعام . وتم الاتفاق على أن تجهز له طعامه الأسبوعى طاهية الأسرة فى يوم معين

على أن يقوم هو بإعداد الوجبات وغسل الأوانى. وكان ينام نهاره كله هربا من وحدته وينتظر على لهف ميعاد السهرة التى يمارس فيها حياته الحقيقية. وحاول الأصدقاء أن يجدوا للمشكلة حلا آخر ولكنه قال:

- لا تشغلوا بالكم يا جماعة، المهم أن تسعفنى الصحة حتى النهاية..

واعتبرت الزوجة أن كل يوم يفوت من غير أن يقر بخطئه إهانة متجددة لكرامتها وجرحا يغوص فى كبريائها. ويشتد حقدها وغضبها. وتعالج الوقت الطويل الملقى عليها بزيارة الأقارب لتشريحه بلا رحمة وفضح ما خفى من مساوئه. ويبلغه ذلك فيرد اللطمة بعشر أمثالها حتى تجسدت حياتهما المشتركة فى صورة سوداء تثير الفزع. وجرى الزمن والخصام يزداد سوءا وفظاعة. وانعقدت السهرة ذات ليلة وهو غائب على غير عادة، ولكنه جاء متأخرا عن موعده وهم يتجاذبون القلق والظنون. وقال كالمعتذر:

- شعرت بوعكة مما يطرأ فى تغير الفصول.

وكانت الوحدة التى يعيش مهملا فى طياتها تحزنهم فأقبلوا يناقشونها بجدية:

- لا تأمن للحاضر وعليك أن تفكر فى المستقبل.

فقال بهدوء وهو يدارى ضيقه:

- فعلت ذلك كثيرا!

- وكيف انتهيت؟

- قررت أن أكف عن التفكير..

وضحك ثم واصل:

- أعرف ما يقلقكم، ماذا أفعل لو أقعدنى المرض أو حضرنى الموت؟! سأكون سعيدا إذا قدر لى موت خاطف، وإن تكن الأخرى فما جدوى التفكير إلا مكابدة الهم قبل وقوعه..

- ولكن لكل مشكلة حل.

فهتـــف:

- فات أوان الوفاق، ثم إنها عنيدة، والاستسلام يعنى بالنسبة لى انتحارا بطيئا..

وضحك عاليا وقال:

- إذا حمّ القضاء وجدنى الموت وحيدا لا مفر، وما عليكم إذا تخلفت ليلة ولم يفتح بابى إلا أن تتخذوا الإجراءات المألوفة، وآسف مقدما على إزعاجكم..

تحت السمع والبصر

حقا إن الشارع خال أو شبه خال فيما يبدو ولكن لا يخلو شارع من آدميين. إنه شارع جانبى يوصل بين طريقين عموميين. وهو سكنى لا توجد به إلا دكان كواء. مع هبوط المساء من فوق رءوس الأشجار على الجانبين أغلقه صاحبه وذهب. سبحت أضواء مصباحين فى أول الطريق وآخره فى العتمة المتزايدة فأضفت على الجو لونا غامضا بين النور والظلام. واستقرت سيارتان متباعدتان فى موقفيهما بحذاء الطوار مسربلتين بغطاءين من المشمع الرمادى، وانتظرت بقية الفراغات السيارات القادمة. وخيم على الشارع هدوء خامل جدير بمعبر نادر الرواد وأضاءت نوافذ المساكن بالأنوار وهى مفتوحة لتلقى نسائم الربيع. . من أجل ذلك انتشرت أصوات تلك المشاجرة الزوجية من إحدى النوافذ فبلغت النوافذ القريبة وتمادت فى ذيوعها حتى كدرت هدوء الشارع. أنت وحش. أنت مجنونة. لن أبقى فى هذا البيت ساعة أخرى. مجنونة. فى يدى الدليل، مصيرك المحتوم مستشفى الأمراض العقلية. مصير أمك وأخواتك. تحطمين تحفة ثمنها مائة وخمسون جنيها! سأشعل النار فى هذا البيت العفن. ويعلو الصراخ مختلطا بصوت هادر ومزيد من طقطقة التحطيم مصحوبة بعويل أطفال. ومر عابر بالشارع فتوقف قليلا تحت النافذة ثم ضحك طويلا وواصل سيره. وتجلت أشباح آدميين فى النوافذ القريبة. ولما استمرت المعركة نوقشت على نطاق واسع. خناقة حامية. ليست الأولى. لكنها الأعنف. ألا يمكن عمل شيء؟ مثل ماذا؟ أنتدخل مثلا؟ لكننا لا نعرفهم، نتقابل أحيانا فى مدخل العمارة فلا نتبادل تحية. الواجب. قد يسوءهم ذلك. لن تنتهى الليلة على خير. ربنا موجود. الرجل مجنون وبريق عينيه المخيف لا ينسى. لا تبالغى هى أيضا لها حركات عصبية مريبة. هو السبب هذا واضح. أو العكس تماما وهو ما أعتقد. لكل رجل شيطانه. ولكل امرأة. الرجال ظالمون بالفطرة. ما هم إلا ضحايا. ضحايا؟! الله شهيد. معركة غير متكافئة وسيقع أذى لا شك فيه. حطمت فى غضبها تحفة ثمنها مائة وخمسون جنيها. من عذابها أو جنونها. من أدراك أنت؟ أهذه حنجرة امرأة عاقلة؟! أفقدها وعيها. المعركة تشتد ولا أحد يبالى بالأطفال. أمه وأخواته وراء ذلك كله. لا، المسألة أخطر من ذلك، فتشى عن الميزانية. يرى كثيرا وهو يشترى الخمور. هى أيضا متبرجة أكثر من اللازم. ألا ترى أن المعركة لا تقف عند حد؟ أجل اشتد النزاع وارتفعت الأصوات أكثر وتوكد أن الليلة لن تمر بسلام. اترك ذراعى يا مجرم. مجنونة لا تحسب حسابًا للفضيحة. دعنى أطلب

النجدة. إذن أطلب مستشفى الأمراض العقلية. تضربنى! ستدفع ثمن اللطمة غاليا. وينفجر صوات مخيف ثم ينكتم الصوت تحت ضغط راحة يد فيما بدا. ولأول مرة تجىء فترة سكون عدا عويل الأطفال تمتد دقائق وإذا بالصوت يهبط إلى الشارع. شبح المرأة يغادر باب العمارة مهرولا نحو الطوار الآخر. تتبعها الأعين على ضوء المصباح البعيد. هربت من البيت. لعله الحل الوحيد. بملابس البيت وغالبا لا تملك مليما. ترى أين يقيم أهلها؟ هل نتركها فى الطريق؟ لو آويناها لوجدنا أنفسنا طرفا فى المعركة. كيف تتصرف المسكينة؟ تستقل تاكسى وهناك ستجد من يؤدى عنها الأجرة، لم يتحرك أحد لنجدتها. مرة رجل تدخل بحسن نية فاتهمه الزوج ووقع فى مصيبة. يا لها من دنيا مخيفة. ما باليد حيلة. وقبل أن تبلغ المرأة منتصف الشارع اندفع شبح الزوج من باب العمارة فاشتعل الاهتمام لأقصى حد. جرى نحو المرأة حتى أمسك بها. تراءت وهى تقاومه وتراءى وهو يجذبها بشدة. صرخت مستغيثة بالناس فاشتد فى جذبها، وبلغ الصراع أعنف أحواله. ويمر عابر جديد للشارع فيقف على مبعدة ويهتف:

ـ كفى هذا لا يليق.

فصاح به الزوج:

ـ ابعد وإلا حطمت رأسك.

يبتعد الرجل خطوات، يتردد قليلا ثم يمضى فى طريقه.

وتنطلق من حنجرة الزوج صرخة كالعواء:

ـ تعضيننى يا كلبة.. سأقتلك.

ويركلها ركلة حانقة غاضبة متأججة بالرغبة فى الانتقام فتقع المرأة متلوية صارخة. ولم يقنع الرجل بذلك فما زال ألمه الحاد يستفزه إلى المزيد فعدا نحو العمارة صائحا:

ـ سأذبحك عليك اللعنة، وعلى الدنيا ألف لعنة.

وسرى الرعب فى المطلين من النوافذ. ركلها ركلة قاتلة. ولكنه جن وسيرجع بسكين يجهز بها عليها. لا، مجرد كلام. نطلب النجدة. سنصبح أسرى إجراءات معقدة حتى يصدر الحكم. لا بد من طلب النجدة. سيصدق علينا المثل القائل خيرا تفعل شرا تلقى. هل نتركها ملقاة حتى تذبح؟ لن يحدث شىء، هى عضته وهو ركلها وانتهى الأمر. نذهب إليها فقد تكون فى حاجة إلى إسعاف. ليس الآن فقد يرجع المجنون! وأصر رجل فى العمارة المقابلة على الطوار الآخر على طلب النجدة. وطلبها بالفعل وحثها على الإسراع وسئل عن اسمه ورقم تليفونه، وهمس لزوجه بذلك فحذرته العواقب فأغلق السكة. أما الزوجة فمضت تزحف على أربع وتئن وتستغيث وقد بح صوتها. وهرع نحوها عابر جديد فانحنى فوقها وحاول مساعدتها على القيام وهو يتساءل عما حل بها.

وعند ذاك ظهر الزوج مرة أخرى وانقض نحو المرأة رافعا يده بالسكين. رآه الرجل الذى خف لمساعدة الزوجة ففزع من منظره وفزع أكثر لما رأى السكين فى يده. تراجع مهرولا وهو يهتف:

- اعقل.. ستلقى بنفسك إلى الهلاك.

ولكن الجنون كان قد تسلط تماما على وعى الزوج وأصدر قراره بالخراب الشامل. هوت يده بالسكين فى الرقبة فغاصت فيها حتى مقبضها منتزعة صرخة غليظة يائسة ذات نبرة عدمية، مصحوبة بحركة عنيفة نهائية لا أمل بعدها. ورغم أنه كان يلهث إلا أنه وقف فى غاية من الهدوء والاستسلام والبلادة والزهد ملقيا بكل شىء وراء ظهره. صوتت امرأة فى النافذة. سقطت أخرى مغمى عليها. اشتد توتر الأعصاب. لا بد من الاتصال بالنجدة. ما الفائدة؟ ستجىء عاجلا أو آجلا. لعله ما زال يوجد أمل فى إنقاذها. هيهات! إنهم يحققون مع الشهود كما لو كانوا متهمين. وربما وجدت نفسك متورطا فى خطأ لا يفطن إليه إلا رجال القانون مهما يكن من أمر فعلينا أن نعترف بأن موقفنا شاذ وأنه لا يصدق. عندى أمثلة بالعشرات تشهد بحماقة من يحشرون أنفسهم فى مثل هذا الأمر. الحق أننا أخطأنا ولا عذر لنا. ما جدوى الكلام، ضاعت الست. وضاع الرجل. وضاع الأطفال. وربما لم نعف بعد ذلك كله من الاستجواب. وقد حصل فتحققت مخاوفهم. وأدلى كل بشهادته منتحلا لنفسه شتى المعاذير، فمن كان يظن أن خلافا زوجيا يفضى إلى تلك النهاية؟ ومن يجرؤ على التعرض لقاتل تلبسته حال جنونية؟ وكلهم أنكر واقعة الاتصال بالنجدة، وأكثر من واحد قال إنه القدر وإن الحذر لا ينجى من القدر.

ويحكى الضابط الحادثة فى مجالسه ويقول بمرارة:

- كان من الممكن إنقاذ المرأة والرجل ولكن ذلك ما حدث دون زيادة!

آخر الليل

غادر الجحيم عند منتصف الليل. جميع أنوار الشارع المستقيم والشوارع المتقاطعة تنصهر فى باطنه، تنفجر فى نافورة من الأضواء المتضاربة، وأعلى العمائر يتراقص. لا ملمح هداية يستدل به فى خط سيره، ولا علامة يسترشد بها، فر الجميع وتلاشوا. السيارات تقل بعض الشىء، الآدميون لا ينتهون. يترك نفسه لقدميه، كما اعتاد أن يعتمد عليهما فى الملمات، ومن تقده قدماه فلا يضل. ثمة قصة عن حمار مرموق ولكن

ما هى؟ ها هو رجل قادم من الناحية الأخرى، سيرتطم به إذا سار فى خط مستقيم. لكن القادم ينتبه إليه، ينحرف، لا شبرا أو شبرين، ولكن إلى وسط الشارع كأنما يهرب. الجبان. تضاعف شعوره بقوته الكامنة ودار رأسه تيها. ولم يعد يقلق لنسيان قصة الحمار المرموق. واصل سيره يخوض الليل والأنوار، يعرض عن أبواب المحال المغلقة، ويتجاهل المارة. ووجد نفسه أمام مطعم «الرائد» فانطلق داخله حتى وقف أمام طاولة صاحبه الذى رمقه بنظرة حذرة:

ـ الدنيا صغيرة رغم ما يقال عنها، أنا قادم إليك من آخر الدنيا.

فهز الرجل رأسه متعجبا:

ـ لن أوصيك فلست فى حاجة إلى توصية، وأنت العليم بالزبائن، وعارف طلبى، تشكيلة محترمة من الكباب والكفتة والطرب مع كافة السلطات والمخللات، سخن العيش، ولا تنس الحلوى. هل يطول الانتظار؟

فقال المعلم:

ـ بل نرسلها إلى البيت كالعادة.

ـ تشكر.

ودس يده فى جيبه ولكن الآخر عاجله قائلا:

ـ سنرسل الفاتورة مع الطعام.

فرفع يده تحية ثم ذهب. رجع إلى خوض الليل والأنوار وتجاهل المارة. وعاد يحاول تذكر قصة الحمار المرموق. حتى وجد نفسه أمام محل «الكبير» الحلوانى المعروف، فاندفع حتى وقف أمام صاحبه:

ـ الدنيا صغيرة رغم ما يقال عنها.

فقال الرجل باسما:

ـ وأنت قادم من آخر الدنيا.

ـ عمرك أطول من عمرى.

ـ أعرف المطلوب، تشكيلة من البسبوسة والكنافة والبقلاوة بأنواعها المختلفة.

ـ كبير ابن كبير.

ـ وستسبقك إلى البيت مع الفاتورة.

فرفع يديه شاكرا ومضى إلى العالم الآخذ فى النعاس. واقتحمته ذكرى عزيزة جدا. ذكرى ذلك الرجل الذى صاحبه يوما مثل ظله. شد ما يستحق الرثاء بحكايته الغريبة. وخليق به أن يقول له شد حيلك واضرب الدنيا بالمركوب فهى دنيا لا تستأهل إلا ضرب

النعال. هو ثالث ثلاثة أشقاء وأصغرهم. نعم أصغرهم يا عزيزى فاشترك الآخران فى تدليلك فترة من الزمن ولو على سبيل المجاراة ومداراة الغيرة المتأصلة. وشاء الحظ وهو كل شىء فى الدنيا أن يوفقا فى المدارس فيصير الأكبر وكيل وزارة للمالية والأوسط كبير مفتشى الرى، على حين أبى الحظ أن تحظى بأى قدر من التوفيق، فحتى الخط لم تفكه. ولكن ما قيمة ذلك لشخص قدر له أن يملك بالوراثة مائة فدان؟! وملكتها يا عزيزى، ورحت تستمتع بها، وتغدق فى الوقت نفسه على مساكين الأصدقاء وما أكثرهم، فانهالت عليك الاتهامات لا أول لها ولا آخر، ورميت فيما رميت به بالسفه، واستصدروا عليك حكما بالحجر. سرقوك الشياطين. وقتروا عليك الرزق حتى انسدت فى وجهك الطرق، ولم يكن عجيبا بعد ذلك أن تقسم لتجلبن عليهم الفضيحة والعار.

ووجد نفسه أمام حانة إيديال.

هش وبش واقتحم ستارها المسدل ذا الخيوط الخرزية البيضاء. رأى الفرسان فى الركن الأيمن حول الكئوس. وجموا لحظة وهم ينظرون. فقال ليذهب عنهم الروعة:

- لا ترتاعوا.. أخوكم من طين مثلكم!

فغلبهم الضحك وقال أحدهم:

- نقدم لك كأسا؟

فقال باستعلاء:

- لا أسمح لقذارة بالدخول فى معدتى، ولكنى سأهنئك قريبا بوكالة الوزارة!

- ربنا يسمع منك!

وسأله آخر:

- أصحيح ما يقال؟

- وما هو؟

- إنه عرضت عليك وزارة الصناعة فرفضتها؟

فقال بإباء:

- لست ممن يبيعون أنفسهم عند أول طلب!

- حتما ستقبلها فى ظروف أفضل؟

- وعند ذاك تهنأ البلد قبل أن أهنأ أنا.

- رجل ولا كل الرجال..

- أنتم مدعوون عندى لقضاء سهرة رأس السنة.

- وستكون ليلة ولا كل الليالى.

وغادر الحانة إلى عالم التيه. ومرة أخرى ذكر الرجل الذى صاحبه يوما مثل ظله. من الجحود ألا يزوره ليعزيه بكلمتين. إن موقفك يوم عزمت على أن تلطخ غرورهم بالعار موقف لا ينسى. خلعت البدلة يا بطل واستبدلت بها جلبابا أزرق. واقتنيت عربة يد وسرحت ببطيخ فى مجالهم الحيوى وعلى مرأى من الذاهب والجائى. وارتعدت منهم المفاصل وساقوا عليك الأهل والأصدقاء ولكنك صمدت صمود الأبطال. واضطروا فى النهاية أن يتجاهلوك متظاهرين باللامبالاة فتماديت فى التحدى، وقضيت لياليك فى غرز عرب المحمدى. يا فارس الفرسان وضارب الدنيا بنعلك. وحتى يتاح لى لقاؤك تقبل على البعد إعجابى وتقديرى. أما أنت يا نوسة، يا سليلة الشرف، وكنز الجمال والفتنة فحسبنا تعذيبا لأنفسنا. الدلال له حد أو هذا ما ينبغى له. اخترتك من بين آلاف من كريمات الأسر العريقة. ولم أخترك للأسباب التى يجرى وراءها الجشعون، لا لأصلك الطيب، أو أخلاقك الكريمة، أو تعليمك الراقى، ولكنى اخترتك من أجل الحقيقة السافرة، عينيك اللوزيتين السوداوين بكحلهما الربانى، وصدرك الملهم، وخلفيتك التى تجل عن الوصف. ما يجوز أن نفترق بعد اليوم دقيقة واحدة يا زينة نساء الأرض. ضاع منا وقت طويل بلا طائل، وضياعه كفر بالنعمة، إنى قادم يا نوسة، فارجعى إلى قسمتك ونصيبك فإن جميع طلباتك مستجابة. سر المأساة كلها فى كلمة أننى ولدت فى عصر يتشرد فيه الملوك فى بلاد الغربة، كالمتسولين بعد أن خلفوا عروشهم وراءهم بيد السوقة، ثم إنهم بعد ذلك لا يأمنون الغدر ولا ينجون من المؤامرات. بذلك تنبأ قارئ الكف ولكننى لم آخذه مأخذ الجد فى وقته، وتركت الزمن يجرى كيف شاء حتى استحكم الحصار.

وقادته قدماه فى تجواله إلى البنك الأهلى الغارق فى نومه مسدل الأجفان. لعله من الحكمة أن يسحب من حسابه بعض المال ليواجه نفقاته الكثيرة ولكنه لا يستطيع أن ينتظر حتى الصباح. وخيل إليه أنه أصبح على حال تمكنه من الاهتداء إلى منزله العامر، وأن هيئة الأشياء آخذة فى التغير رويدا رويدا، وأن رأسه يتغير أيضا. حتى المشى لم يعد مستساغا إلى غير ما نهاية وأن جسمه يطالب بحظه من الراحة. ألعن الساعات ساعة تعرف فيها من تكون وكم يتبقى من الزمن، وتعرف أيضا أن الوقت ضيق وأن الجوع عدو الإنسان، وأنه يرغم على التسليم دون شرط. ها هو النيل يجرى فى حال من الكآبة والاستسلام بعد أن كبل بالأغلال وأذعن لمشيئة البشر. وتحت الكوبرى توجد أريكة من الصوان خالية لم يشغلها صعلوك من صعاليك الليل بعد. تحسسها براحته، ومضى إلى شاطئ النيل فعبر الحاجز الحجرى ثم انحدر نحو الماء. خلع جلبابه مبهم اللون وعلقه بفرع شجرة فبدا عاريا كما ولدته أمه. وراح يغوص فى الماء حتى غمر صدره ليزيل عن جسده الحرارة والعرق فى تلك الساعة من الليل. وغنى بصوت كالخوار «البحر بيضحك

ليه» وغسل وجهه ورأسه الأصلع ثم صعد راجعا إلى الطوار آخذا جلبابه بيده. وانتظر حتى جف جلده وارتدى الجلباب، واستلقى فوق الأريكة. وما لبث أن تلاشى فى الغيب فتصاعد شخيره مثل نقيق الضفدع.

القتل والضحك

ما أكثر الراحلين! أدهش وأتحير كلما طافت أشباحهم بذاكرتى. أسباب متنوعة. متضاربة. وأحيانا متناقضة، ولكنها تفضى إلى نهاية واحدة. ويطاردنى حلم ثابت. يلح على فى أوقات الفراغ وما أطولها. حلم خليق بصاحب ثأر تخلى عن إنجاز مهمته. وهو لا يفارقنى حتى فى ذلك البيت الخلوى الذى صادفته ذات يوم ناشدا النسيان ساعة أو بعض ساعة. أجلس إلى جانب المعلمة المتربعة فوق كنبة تركية مثل قاعدة تمثال - ضمن زوار - وأتفحص بعناية المكان ومعروضاته. أتصفح الوجوه البيضاء والسمراء والسوداء، البدينة والملفوفة والنحيلة، وهن جميعا على أتم الاستعداد. على مألوف التقاليد بتقديم الشراب فتهش المعلمة وتثنى على الأصل الطيب قائلة إن جل زبائنها يجيئون عادة من بين الصفوة. والشهادة لله أن المكان أنيق والأثاث كريم والنظافة متألقة ورائحة البخور مخدرة مقدسة. أما السيدة اللحيمة فتباهى قبل كل شىء بالأمن والأمان. وأظلنى الحلم القديم بجناح يقطر دما، وبهمسات داعية للخير والفلاح. ووقع الاختيار على بيضاء نحيلة لا حول لها فقلت للمعلمة «الحمراء»، أى ذات الفستان الأحمر: سرعان ما صرنا وحدنا فى الحجرة الصغيرة الكاملة فراحت تتجرد من فستانها وقميصها وتستلقى فى تسليم وسلامة. اقتربت من الفراش بكامل ملابسى يقودنى الحلم القديم. أعابث الخد والعنق وأغوص فى اللحظة الحاسمة. وبسرعة أطوق العنق الرقيق الطويل بقبضتى وأشد عليه بكل ما أوتيت من قوة. غير متأثر بمقاومة يديها وعنف ركلات قدميها فى الهواء واستغاثة عينيها الجاحظتين اليائسة الملهوفة على النجاة. ولم أفك قبضتى حتى سكن كل شىء سكون الموت. وأقف وأنظر وقلبى يلهث فى دقات متتابعة. وأرى الموت وهو يضع قناعه فوق الوجود المتهالك ويرسم على صفحته النائية آى البعد واللامبالاة. وأفكر فى النجاة مؤجلا ما عداه. دون عجلة كيلا أثير التساؤل. ونظرت إلى نفسى فى مرآة صغيرة فى موضع عاكس للفراش والجثة. وأجهضت قشعريرة اقتحمتنى بقوة غير حميدة. وقلت لنفسى معزيا ومشجعا «أديت ما كان على أن أؤديه». ها أنا أمضى نحو الباب. أفتحه، أتركه مواربا زيادة فى إبعاد الشبهات، وأسير متمهلا نحو الباب الخارجى متجاهلا المكان والحاضرين. وعندما أنتهى إلى الطريق النائم فى ليل الصيف أحث الخطى مدفوعا برغبة

طارئة فى الهرب نحو الشارع الرئيسى. وأبلغ بنسيون ليدا وسط المدينة فى الهزيع الأخير من الليل. أتناول حبة منوم لا أتعامل معه عادة إلا عند الشدائد. صحوت من نومى قبيل الظهر مشتعل الرأس بالكسل والذكريات. طلبت الإفطار ولكنى حسوت الشاى وحده وأنا أقول لنفسى أنت من الآن فصاعدا قاتل جارى البحث عنه. ترى هل أحل مشكلتى بقوة الإرادة أو أننى أسير من سيئ إلى أسوأ؟ وماذا عن حياتى الجديرة بالتأمل فى هذه الساعة الفاصلة الدامية؟ فرد أعد للخيال ولكنه يتعيش من السمسرة، معارفه بلا حصر ولا صديق له، يمقت فكرة الزواج والإنجاب. وذهبت إلى البلفدير بالهرم لأنفرد بنفسى وأفكر. جو لطيف فى أواخر الربيع والجلوس يحلو فى حديقة النخيل وأصص القرنفل. غالبا لم يعرفنى أحد من الزبائن المعدودين. هناك لا يسأل أحد عن هويته ولكن حتما ستحصر التهمة فى جريمة يود الجميع أن تندثر وتختفى. أرفع قدح البيرة وأتخيل ما حدث. المعلمة تتساءل عما أخر البنت عن الرجوع إلى الصالة. ترسل فى طلبها إما تفضح صرخة فزع الجريمة وإما يحبس الفزع فى الصدور ويدفن السر فى بئر. فى الحال الأولى ينفض السامر فى عجلة ولهوجة ويفر كل إلى حال سبيله. فى الحال الثانية يتواصل العمل فى أمان. وفي الحالين تفكر المعلمة كيف تخفى الجثة وتحمى نفسها وعملها من قبضة القانون. الجميع الآن يعملون على طمس أى أثر يمكن أن يؤدى إلى، يتمنون لى السلامة ضمانا لسلامتهم وسمعتهم. أستطيع أن أهددهم وهم لا يستطيعون. لكن هل تنجح المعلمة فى إخفاء معالم الجريمة؟ ألا ينسرب إليها الخطر من منفذ لم يجر لحذرها فى خاطر؟ تناولت غداءى فى البلفدير مع مزيد من البيرة والنشوة. وعند هبوط العتمة مضيت فى تاكسى إلى الشارع. وتفحصت البيت وأنا أمر به. وجدته مسربلا فى هدوئه ورأيت النور يشع فى نافذتين، وكأنما يواصل تقديم خدماته اليومية. ولم يكدر صفوى فى الليلة التالية إلا أننى رأيت فى نومى استغاثة الفتاة البائسة وهى تغوص فى الانكسار بين قبضتى. ولكن ذلك كان أهون ما توقعت. وتساءلت عن مستقرها الأخير، أيكون قعر النيل أم مفازة فى الصحراء، أم مدفنا فى باطن حديقة البيت الخلفية؟ سيشترك الجميع فى جريمة الإخفاء بدافع الرغبة فى النجاة والدفاع عن لقمة العيش، وأفظع من ذلك ينسى فى وقت أقصر من ذلك. وأتصفح الجرائد بعناية دون العثور على ما يكدر الطمأنينة. رغم ذلك لم يغب عن وجدانى ما حصل دقيقة واحدة. إنه حى بكل تفاصيله هناك. وهو يزعجنى أيما إزعاج. ولذلك تخطر لى أفكار جنونية لا بهدف التنفيذ ولكن حبا فى استعراضها ليس إلا، كأن أبعث برسالة من مجهول إلى قسم الشرطة. ولكنى وجدت وسيلة للترويح عن النفس مأمونة العواقب فى مقهى «العائلات» حيث تجمعنى الأماسى ببعض الصحاب. رويت لهم تفاصيل الجريمة باعتبارها من بنات الخيال واستطلعت تصوراتهم عما يمكن أن يحدث. أجمعوا على أن مصلحة الجميع تقتضى إخفاء آثارها، غير أن أحدهم قال:

ـ ويعثر على الجثة ولو بعد حين، وربما بمصادفة لا تجرى على بال، ثم ينترع القاتل من مكمنه الآمن.

ضايقنى ذلك بطبيعة الحال. وخفت أن يتلاشى الأمل ـ بارتكاب الجريمة ـ فى حياة أشد معاناة. وما الحيلة وكلما نظر نحوى رجل توهمت أنه كان هنالك تلك الليلة؟ أو كلما سمعت وقع قدم ورائى تصورت أن أحدهم يتبعنى؟! وضاعف صاحبى من كربى عندما قال لى:

ـ أتذكر جريمتك الخيالية؟.. حكيتها لصديق مخرج تليفزيونى فأثارت خياله وقرر أن يجعل منها نواة فيلمه القادم.

ضايقنى ذلك، وآيسنى بصفة قاطعة من النسيان.

وضايقنى أكثر أن جاء المخرج مع صاحبى ذات مساء للمناقشة. قال:

ـ أنت صاحب الفكرة وتستحق مكافأة رمزية، هل تستطيع أن تصيغها فى قصة؟

فحركت رأسى نفيا فقال:

ـ طبعا هى بصورتها الراهنة مستحيلة.

ـ مستحيلة؟!

ـ لابد من باعث على الجريمة، الحب والخيانة مثلا، أو يكون القاتل مهزوز العقل فيتصور أنه بقتل امرأة من هذا النوع فهو يحارب الرذيلة مثلا.

فندت عن منكبى حركة استهانة فقال:

ـ لا جريمة بلا باعث، ولابد أن ينال القاتل جزاءه أيضا.

فقلت وأنا أدارى غيظى:

ـ هذا قانون الجرائم الخيالية، أعنى الروائية.

ـ العمل يجب أن يكون معقولا وأخلاقيا.

فندت عن منكبى حركة الاستهانة فقال ضاحكا:

ـ يبدو أنك لا تصلح أن تكون مؤلفا.

فقلت ساخرا:

ـ ولكننى أصلح أن أكون قاتلا..

فقهقه ضاحكا، وتفرس فى وجهى بمودة وقال:

ـ على كل حال فالفكرة تعد بقصة جيدة إذا اهتدينا إلى باعث مثير ومقنع واقترحنا خطة محكمة للكشف عن الجثة والقبض على القاتل.

فتساءلت بكآبة باطنة:

ـ مثـل مـاذا؟

ـ الخطة المحكمة لا ترتجل ولكنها تسبق بتأمل وتفكير ومراجعة الأفلام المشابهة، غير أنه على سبيل المثال يمكن أن نتصور للضحية عاشقا مخلصا يحفزه اختفاؤها للعمل، أو أن تكتشف الجثة بالمصادفة عن طريق بستانى الحديقة أو صياد فى النيل، الفروض هنا لا حصر لها.

انتهت المناقشة وانتهى اللقاء فسقطت فى دوامة الظنون. وغلبنى ميل جامح لملاحظة الناس والأشياء. أسير متمهلا رغم الزحام أو أجلس قريبا من الطريق لأتصفح الوجوه والحركات ووسائل المواصلات والسلع وواجهات المحال والمبانى. أتصفحها بعناية عالم مكلف بوصفها وتحليلها.

ووجدتنى وجها لوجه مع المعلمة فى بقالة السعادة بشارع البستان. رغم السيادة والخبرة والدهاء شحب لونها وانهزمت أمام خوف جاثم. تجاهلتنى فخانها الاضطراب غير أنه لم يلمس هزيمتها سواى. ولما انتهينا من التسويق وقفنا أمام الدكان متقاربين فقالت همسا:

ـ ها أنت حقيقة لا خيال.

نظرت نحوها كالمنكر فتساءلت:

ـ لم فعلت فعلتك المنكرة؟

تساءلت كالداهش:

ـ حضرتك تكلميننى؟

فمضت عنى وهى تقول:

ـ منـك لله!

كدت أضحك، وغمرنى إحساس بالأمان، بل فكرت فى تكرار التجربة فى بيت جديد. غير أنه كان إحساسا عابرا. وارتددت إلى الملاحظة والغوص فى صميم الأشياء. وفى أوقات الفراغ أتذكر قول المخرج «الفروض لا حصر لها». هذه هى الحقيقة الغائبة عن ملاحظتى، ولكنها تتضارب فى عقل أو أكثر ليل نهار. يوجد فاعل أصلى هو أنا، وشركاءٌ هم المعلمة ومن ساعدها على إخفاء الجريمة وتوجد الضحية أيضا. لا يمكن أن تبقى هذه الأشلاء مبعثرة إلى الأبد. وغير محتمل أن أظل منفردا بنفسى بلا نهاية. وقمت بزيارة غير متوقعة للمخرج فى مكتبه. استقبلنى بابتسامة عريضة قائلا:

ـ حلت المشكلات كلها تقريبا..

فأعلنت رضاى متمتما:

ـ مبـــــارك!

ـ وجدنا الخطة المحكمة، اكتشفت الجثة وقبض على المعلمة، وقرأ القاتل قصته خبرا في الجرائد فقرر الانتحار، ترى ما رأيك في أفضل وسيلة للانتحار؟

فاقشعر بدنى وتساءلت:

ـ ماذا تقصد؟

ـ نحن أمام عدة اختيارات، ضع نفسك في مكانه فماذا كنت تختار؟

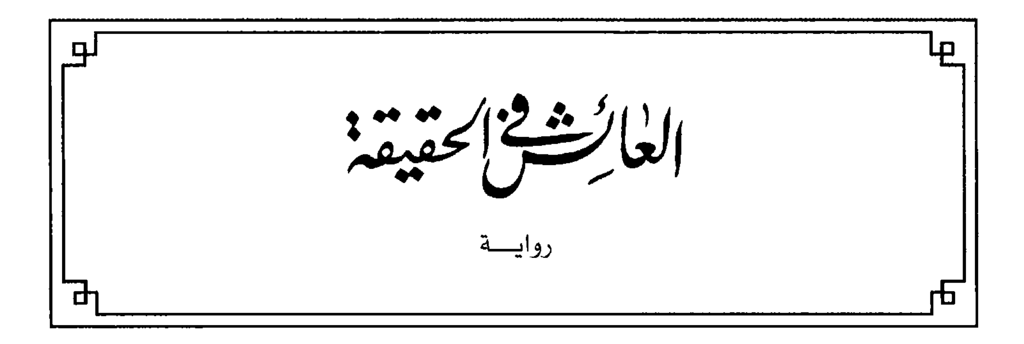
فازدردت ريقى وقلت:

ـ أخفها ألما!

فقال ضاحكا:

ـ أنت تفكر في نفسك ولكننى أفكر في أمرين، أولا أشدهما تأثيرا في الجمهور، وثانيا أصلحهما من الناحية الجمالية للكاميرا!

وقلت لنفسى: يا له من رجل سعيد!



أصل الحكاية

وُلدت الرغبة فى أعقاب نظرة مفعمة بالإثارة، والسفينة تشق طريقها ضد التيار الهادئ القوى فى أواخر فصل الفيضان. بدأت الرحلة من مدينتنا سايس ماضية جنوبا إلى بانو بوليس لزيارة أختى التى استقر بها الزواج هناك. وذات أصيل مررنا بمدينة غريبة. مدينة تطل من أركانها عظمة غابرة، ويزحف الفناء بنهم على جنباتها وأشيائها. مترامية بين النيل غربا ومحراب الجبل شرقا، متعرية الأشجار، خالية الطرقات، مغلقة الأبواب والنوافذ كالجفون المسدلة، لا تنبض بها حياة ولا تند عنها حركة، يجثم فوقها الصمت وتخيم عليها الكآبة وتلوح فى قسماتها أمارات الموت. أجلت فيها البصر فانقبض صدرى، وهرعت إلى أبى حيث يسترخى على أريكة فوق المنصة مجللا بشيخوخته وسألته:

ـ ما شأن هذه المدينة يا أبى؟

فأجاب دون تأثر:

ـ مدينة المارق، المدينة الكافرة الملعونة، يا مرى مون..

فرجع البصر إليها بانفعال مضاعف وذكريات منثالة، ثم سألت:

ـ ألا يوجد بها حى؟

فأجاب أبى باقتضاب:

ـ ما زالت المرأة المارقة تتنفس فى قصرها أو سجنها وهو الأصح، كما يوجد بعض الحراس بلا ريب..

فغمغمت متذكرا:

ـ نفرتيتى!

ترى كيف تعانى وحدتها وذكرياتها؟! وسرعان ما استعدت ذكريات صباى فى قصر أبى بسايس، وحوار الكبار المحموم حول الإعصار الذى أطاح بأرض مصر،

والإمبراطورية، وما سموه بحرب الآلهة، وفرعون الشاب الذى مزق التراث والتقاليد وتحدى الكهنة والقدر. أجل، تذكرت تلك الأيام المنسية، وما قيل عن دين جديد، وتمزق الناس بين الإيمان والولاء، والجدل حول الحقائق الغامضة، والهزائم المريرة، والنصر المقترن بالحزن. ها هى ذى مدينة العجائب مستسلمة للموت، ها هى ذى سيدتها سجينة تتجرع الألم فى وحدة، ها هو ذا قلبى الشاب يدق بعنف طامحا لمعرفة كل شىء.

وقلت لأبى: ـ لن ترمينى بحب الدعة بعد اليوم يا أبى، إن رغبة مقدسة تغزوني مثل ريح الشمال كى أعرف الحقيقة وأسجلها كما كنت تفعل فى صدر شبابك يا أبى. .

فرمقنى أبى بعينيه الكليلتين وتساءل:

ـ ماذا تريد يا مرى مون؟

ـ أريد أن أعرف كل شىء عن هذه المدينة وصاحبها، عن المأساة التى مزقت الوطن وضيعت الإمبراطورية. .

فقال بجدية:

ـ ولكنك سمعت كل شىء فى المعبد.

فقلت بحماس:

ـ قال الحكيم قاقمنا: «لا تحكم فى قضية حتى تسمع الطرفين»!

ـ الحقيقة هنا واضحة فضلا عن أن الطرف الآخر، المارق، قد مات. .

فقلت بحماس متصاعد:

ـ أكثر الذين عاصروه ما زالوا أحياء يا أبى، وجميعهم أقران لك وأصدقاء. فأى توصية منك لهم خليقة بأن تفتح لى مغاليق الأبواب ومكنون الأسرار، بذلك أحيط بجوانب الحقيقة قبل أن يأتى عليها الزمن كما أتى على المدينة. .

وواصلت إلحاحى عليه حتى استجاب لرغبتى، بل لعله تحمس لها فى باطنه لسابق ولعه بتسجيل الحقائق، ولرسوخه فى العلم الذى جعل من قصرنا منتدى لرجال الدين والدنيا حتى عُرف بين صحبه «بصاحب الأرض الطيبة والحكمة النادرة»، كما عُرف قصره بالندوات تروى بها الحكايات وتردد الأشعار وتمتد بها موائد البط والنبيذ.

وحرر لى رسائل توصية للكبار الذين عاصروا الأحداث، من شارك فيها من قريب أو بعيد، من ذاق حلوها ثم مرها، ومن ذاق مرها ثم حلوها. وقال لى:

ـ اخترت سبيلك بنفسك يا مرى مون فاذهب فى رعاية الآلهة، أجدادك ذهبوا للحرب أو السياسة أو التجارة، أما أنت فتريد الحقيقة، وكل على قدر همته، ولكن

احذر أن تستفز صاحب سلطان أو تشمت بساقط فى النسيان، كن كالتاريخ يفتح أذنيه لكل قائل ولا ينحاز لأحد ثم يسلم الحقيقة ناصعة هبة للمتأملين . .

وسعدت جدًا بالخلاص من الخمول والتوجه إلى تيار التاريخ الذى لا تعرف له بداية ولن يتوقف عند نهاية، ويضيف كل ذى شأن إلى مجراه موجة مستمدة من حب الحقيقة الأبدية . .

كاهن آمون

رجعت طيبة إلى عهدها الزاهر بعد أن ذاقت مرارة الهجران والانطواء على عهد «المارق». أصبحت العاصمة ـ من جديد، يزين عرشها فرعون الشاب توت عنخ آمون، وعاد إليها رجال السلم والحرب، واستقر الكهنة فى معابدهم. وعمرت القصور وغنت الحدائق وشمخ معبد آمون بأعمدته العملاقة وحديقته الزهراء، وماجت الأسواق بالباعة والناس والسلع. كل شىء يتألق بالعزة والاستقرار، وتيار السابلة لا ينقطع. وكنت أزورها لأول مرة فى حياتى فبهرنى جلالها وأبنيتها وناسها الذين لا يحيط بهم حصر، واقتحمتنى أصواتها ونداءاتها وعجلاتها ومحفاتها فتبدت لى بلدتى سايس بالمقارنة قرية خاملة خرساء. وقصدت فى الموعد المضروب معبد آمون، فاخترقت بهو الأعمدة فى إثر خادم ثم ملت إلى دهليز جانبى أوصلنى إلى الحجرة التى انتظرنى بها الكاهن الأكبر. رأيته يجلس فى الصدر على كرسى من الآبنوس ذى مقبضين من الذهب، شيخا هرما حليق الرأس، داخل نقبة طويلة واسعة، يلف أعلاه بوشاح أبيض. وضح لى أنه رغم شيخوخته يتمتع بحيوية فائقة وقلب مطمئن. حيّا أبى ونوّه بإخلاصه قائلا:

ـ عرفتنا المحنة بالمخلصين من الرجال.

وأثنى على مشروعى متمتما:

ـ لقد حطمنا الجدران بما سجلت من أكاذيب، ولكن الحقيقة يجب أن تسجل.

وحنى رأسه كالممتن وهو يقول:

ـ اليوم يتربع آمون على عرشه، ويقف فى سفينته المقدسة بقدس الأقداس سيدا للآلهة، حاميا لمصر، رادعا لأعدائها، ويسترد كهنته سيادتهم الشاملة، هو الإله الذى حرر وادينا بيد أحمس، ومد حدودنا شمالا وجنوبا وشرقا وغربا بيد تحتمس الثالث، هو الإله الذى ينصر ويذل من يخونه.

فركعت إجلالا حتى أذن لى فجلست على مقعد منخفض بين يديه، واستجمعت حواسى للإصغاء على حين راح الكاهن الأكبر يقول:

- إنها قصة حزينة يا مرى مون بدأت فيما يشبه الهمس البرىء، وجاءت البداية على يد الملكة العظمى أم المارق وزوجة فرعون العظيم أمنحتب الثالث. امرأة من الشعب لا يجرى فى عروقها دم ملكى، من أسرة نوبية، وكانت قوية وداهية كأن فى رأسها أربع أعين ترى الجهات جميعا فى وقت واحد. وكانت فى الظاهر تحرص على إرضائنا ومودتنا، ولن أنسى قولها لى يوم الاحتفال بعيد النيل:

- أنتم الخير والبركة يا كهنة آمون!

وكان من عادتها أن تحدق فى الرجال الأقوياء بعينيها النجلاوين حتى يحنوا الرءوس متعثرين فى ارتباكهم. ولم نتوجس منها خيفة ولا ننسى حب فراعين الأسرة المجيدة لكهنة آمون، حتى وجدنا الملكة تهتم بتوسيع مجال الدراسات الدينية؛ لتشمل ديانات الآلهة الأخرى وبخاصة الإله آتون. ولم يعد الأمر فى ظاهره أن يكون زيادة فى المعرفة بديانات نحترمها جميعا ونقدسها، فلم نجد ثمة وجه للاعتراض ولكن ساءنا أن تحظى الآلهة بذلك الامتياز فى طيبة موطن آمون. ولم يلطف من مشاعرنا ما رددته تيى من أن آمون سيظل سيد الآلهة إلى الأبد كما أن كهنته سيظلون على رأس كهنة مصر بلا استثناء. وقال لى توتو الكاهن المرتل:

- إنى أستشف وراء القرار سياسة جديدة لا شأن لها بالدين فى ذاته!

فطالبته بمزيد من الإيضاح، فقال:

- الملكة العظمى تخطب ود كهنة الأقاليم لتقيم توازنا بيننا وبينهم فتحد من سلطان الكهنة، وتقوى سلطة العرش.

فقلت له ولم أكن أخلو من الهواجس:

- نحن خدام الإله والشعب، نحن المعلمون والأطباء، والمرشدون فى الدنيا والعالم الآخر، والملكة العظمى سيدة حكيمة وهى لا شك فى أنها تقر لنا بالفضل.

فقال توتو بامتعاض:

- النزاع على السلطة، والملكة قوية طموح، وهى فى رأيى أقوى من الملك نفسه!

فقلت وكأنما أناقش مخاوفى:

- نحن أبناء الإله الأعظم ووراءنا تراث أقوى من الدهر.

ولعله من المفيد الآن أن أحدثك عن الملك أمنحتب الثالث. لقد شيد له جده تحتمس الثالث إمبراطورية لم تسبق بمثيل فى اتساعها وتعدد أجناسها. وكان ملكا قويا، يثب للدفاع عن أملاكه عند أول نذير يخطر، وحقق انتصارات حاسمة حتى دانت له

الإمبراطورية بالطاعة الكاملة. غير أن عهده الطويل غلب عليه السلام والرخاء. جنى هو ثمار ما تعب أسلافه فى زرعه فانهمرت عليه المحاصيل والثياب والمعادن والنساء، وبنى القصور والمعابد والتماثيل، وغرق حتى أذنيه فى الطعام والشراب والنساء. وعرفت المرأة الداهية نقاط القوة والضعف فى زوجها فاستثمرتها على خير ما يكون الاستثمار، شجعته على الحرب حين الحرب، وتسامحت معه فى شهواته مضحية بقلبها كامرأة لتشاركه سلطانه بكل جدارة، ولتمارس طموحها غير المحدود، ولا أنكر أنها كانت ملمة بكل صغيرة وكبيرة من شئون مصر أو الإمبراطورية، ولا أنكر إخلاصها وبُعد نظرها وحرصها على المجد والعظمة، ولكنى آخذ عليها نهمها للسلطة، ذلك النهم الذى سول لها أن تستغل الدين بنعومة ودهاء لتستأثر بالقوة للعرش دون الكهنة أجمعين. ثم تبين لى أن ثمة أفكارا أخرى تدور برأسها، فقد زارت المعبد يوما لتقديم القرابين، وتقدمتنى بعد ذلك إلى مثوى الراحة بقامتها القوية المتوسطة، فلما استقر بنا المجلس سألتنى:

ـ ماذا يحزنك؟

وجعلت أفكر فى اختيار رد مناسب، ولكنها عاجلتنى قائلة:

ـ إنى أقرأ أسرار القلوب مثل الكهنة، إنك تظن أنى أرفع من شأن الكهنة الآخرين على حساب كهنة آمون؟

فقلت مسلما:

ـ كهنة آمون هم أمناء أسرتكم المجيدة..

فقالت وعيناها تبرقان:

ـ إليك ما أفكر فيه أيها الكاهن الأكبر. آمون سيد آلهة مصر، وهو يقوم أمام رعايانا فى الإمبراطورية رمزا للسلطة وربما للهزيمة، أما آتون إله الشمس فإنه يشرق فى كل مكان وبوسع أى مخلوق أن ينتمى إليه دون غضاضة!

ترى أهذا حقّا ما تفكر فيه أم أنه حجة جديدة تدارى بها رغبتها الحقيقية فى تقليم أظافرنا؟ على أن الفكرة نفسها لم تفز بإقناعى وقلت:

ـ مولاتى، أولئك المتوحشون يحكمون بالقوة لا بالمودة!

فقالت باسمة:

ـ وبالمودة أيضا، ما يصلح لمعاملة الوحوش لا يصلح لمعاملة الحيوان المستأنس..

وآمنت بأنها رؤية أنثوية عقيمة وقد تثمر عواقب وخيمة، وهذا ما أثبتته الأحداث الأليمة فيما بعد.

وسكت الكاهن الأكبر كأنما يتأمل أو ليتذكر، ثم واصل حديثه:

ـ ومما يذكر أنها صادفتها فى مطلع حياتها الزوجية متاعب فلبثت مدة غير قصيرة لا تنجب، تعانى المخاوف من شبح العقم ويضاعف من مخاوفها أصلها الشعبى، وبفضل آمون وكهنته، وبفضل الدعوات الصالحات والسحر القوى حملت الملكة، ولكنها أنجبت بنتا! وكلما التقينا فى القصر أو المعبد رمقتنى بنظرة حذرة مترعة بسوء الظن كأننى المسئول عن سوء حظها. وما كنا نفكر فى تعكير صفو العرش قط، ولكنها كانت قليلة الثقة فى الناس لفساد طويتها.

وسكت مرة أخرى كالمتردد، ثم قال:

ـ وبطريقة غامضة أنجبت ذكرين!

وتريث الرجل حتى اشتعلت تساؤلاتى الخفية، ثم قال:

ـ مات أكبرهما وأصلحهما وبقى الآخر ليمارس شذوذه فى تخريب مصر.

وقرأ الكاهن تساؤلاتى المحرقة، فقال:

ـ نحن نعرف كيف نصيد الحقيقة وإن امتنعت عن الكثيرين، لنا من السحر قوة، ولنا من العيون قوة.. فالمارق مجهول الأب، فاقد الرجولة، مؤنث الصورة، متنافر القسمات. وعلى مثال أبيه تزوج من فتاة من الشعب، جمعت فى شخصها مثل أمه بين الأصل الشعبى والطموح الجنونى والفسق. جميلة عنيدة متحدية فاندفعت معه فى سياسته المدمرة. وأنجبت له ست بنات من رجال آخرين. ورغم حبه الظاهر لها فلعله لم يحب فى الواقع إلا أمه، أعطته الحياة والأفكار، ولشدة التصاقه بها شعر بوحدتها وآلامها فحنق على أبيه حنقا دعاه إلى الانتقام منه بعد موته فمحا اسمه من الآثار بحجة اقترانه باسم آمون، أما الحقيقة فهى أنه أعدمه بعد موته بعد أن عجز عن قتله فى حياته. وقد لقنته أمه دين آتون التى آمنت به لأهداف سياسية، ولكنه آمن به إيمانا حقيقيا نابذا السياسة التى لم توافق طبيعته الأنثوية، ومنه مرق إلى الكفر وهو ما لم تتوقعه أمه نفسها. مازلت للأسف أتذكر صورته الكريهة.. ما كان رجلا وما كان امرأة، وكان ضعيفا لحد الحقد على الأقوياء جميعا من رجال وكهنة وآلهة. وقد اخترع إلها على مثاله فى الضعف والأنوثة، تصوره أبا وأما فى وقت واحد، وتصور له وظيفة وحيدة هى الحب! فكانت عبادته رقصا وغناء وشرابا، وغرق فى مستنقع الحماقة معرضا عن واجباته الملكية على حين كان رجالنا المخلصون فى الإمبراطورية وأحلافنا الأوفياء يتساقطون تحت ضربات العدو، يستغيثون ولا يغاثون، حتى ضاعت الإمبراطورية وخربت مصر وخوت المعابد وجاع الناس. هذا هو المارق الذى سمى نفسه إخناتون!

وصمت الكاهن الأكبر تحت وطأة الانفعال وحدة الذكريات، ثم شبك أصابع يديه فى قبضة واحدة وراح يقول:

ـ ومنذ نشأته الأولى جاءتنى الأخبار عنه بلسان رجال لى فى القصر ممن نذروا أنفسهم لآمون والوطن. وعنهم عرفت أن ولى العهد ينجذب نحو آتون ويهمل آمون، وأنه رغم حداثة سنه يلوذ بخلوة على شاطئ النيل يستقبل فيها الشروق بالأغانى. أدركت لتوى أنه صبى غريب ينذر بالمتاعب. وسعيت إلى مقابلة العرش وأفضيت هناك للملك والملكة بمخاوفى. وابتسم أمنحتب الثالث وقال:

ـ ما زال ابنى طفلا.

فقلت:

ـ ولكن الطفل يكبر ويحتفظ فى أعماقه بأفكار طفولته.

فقالت تيى:

ـ إنه ينشد الحكمة فى كافة مظانها بقلب برىء.

قال فرعون:

ـ عما قريب يبدأ تدريباته العسكرية ويعرف أهدافه الحقيقية.

فقالت تيى:

ـ لا حاجة بنا إلى المزيد من البلدان، ولكننا فى حاجة إلى الحكمة للمحافظة عليها..

فقلت بوضوح:

ـ لا سبيل إلى المحافظة عليها إلا بالاعتماد على آمون وممارسة القوة.

فقالت المرأة الداهية:

ـ ما رأيت حكيما يستهين بالحكمة مثلك يا كاهن آمون!

فقلت بإصرار:

ـ إنى لا أستهين بالحكمة، ولكنى أراها لغوا بغير سند من القوة.

فقال أمنحتب:

ـ لا خلاف فى هذا القصر على أن آمون هو سيد الآلهة. فقلت بقلق:

ـ إنه انقطع عن زيارة المعبد.

فقال الملك:

ـ صبرا، عما قليل سيؤدى واجباته كافة كولى للعهد..

لم أرجع من اللقاء بما يسكن الخواطر، بل لعل مخاوفنا ـ نحن الكهنة ـ وجدت ما يسوغها ويقويها. وجاءتنا أنباء جديدة عن حوار دار بينه وبين والديه أدركنا منه أن ذلك الجسد المهزول ينطوى على سراديب قوة وعناد شريرة تنذر بأوخم العواقب. وذات يوم قابلنى أحد أتباعى وقال لى:

- الشمس نفسها لم تعد إلها!

فسألته عما يعنى، فقال:

- إنهم يتهامسون هناك عن إله جديد لم يُعرف من قبل تجلى لروح ولى العهد وطالبه بأن يعبده بوصفه الإله الوحيد الحقيقى فى الوجود، هو وحده لا شريك له، وكل معبود سواه باطل.

صعقنى الخبر صعقا، وأيقنت أن الموت الذى خطف الأخ الأكبر أهون وأرحم من الجنون الذى حل بالأصغر، وتجسدت أمام عينى الكارثة فى أبشع صورة.

- أأنت واثق بما تقول؟

- إنما أنقل إليكم ما يتهامس به الجميع.

- وكيف تجسد له ذلك الإله المزعوم؟

- سمع صوته فقط..

- لا شمس ولا نجم ولا تمثال؟

- لا شىء ألبتة.

- وكيف يعبد ما لا يرى؟

- إنه يؤمن بأنه القوة الوحيدة الخالقة.

- لقد أذاب المجنون ذاته فى اللاشىء!

وقال الكاهن المرتل توتو:

- لقد جن وفقد الأهلية لتولى العرش.

فقلت برجاء:

- اهدأ يا توتو، فمهما كفر فستظل الآلهة باقية معبودة للملايين..

فتساءل بحدة:

- ولكن كيف يتولى العرش كافر مارق؟

فقلت بكآبة:

- فلننتظر حتى تعلن الحقيقة ثم نقدم على طرح الموضوع للمناقشة مع الملك، وسوف تكون المناقشة الأولى من نوعها فى تاريخنا الطويل..

وحدث أن تزوج ولى العهد من نفرتيتى الابنة الكبرى للحكيم الصديق آى. كانت أيضا مثل الملكة العظمى تيى من أصل شعبى، ولكنى تعلقت بأمل واحد واه وهو أن يرده الزواج إلى شىء من التوازن. ودعوت آى إلى مقابلتى فوجدته حذرا فى حديثه فقدرت حرج مركزه ولم أشر من جانبى إلى أنباء الكفر، ولكنى اتفقت معه على أن يرتب لتدبير

زيارة سرية تتم بينى وبين ابنته . وتأملتها بعين فراستى المستمدة من روح آمون فتكشف لى جمالها عن قوة ذكّرتنى بالملكة العظمى تيى فرجوت أن تكون هذه القوة لنا لا علينا . وقلت لها :

ـ تقبّلى بركاتى يا بنتى وابنة صديقى آى .

فشكرتنى بعذوبة ، فقلت :

ـ أرى من واجبى أن أذكرك ، ولست فى حاجة إلى تذكير ، بأن العرش يقوم على ثلاثة ، آمون سيد الآلهة ، وفرعون ، والملكة .

فقالت :

ـ سعيد من يصغى إلى حكمتك .

فقلت :

ـ والملكة الحكيمة تشارك الملك فى المحافظة على الوطن والإمبراطورية .

فقالت بثبات :

ـ أيها الكاهن المقدس ، قلبى ملىء بالحب والإخلاص .

فقلت بوضوح :

ـ مصر مثوى التقاليد الخالدة ، والمرأة هى الوعاء المقدس للتقاليد .

فقالت بالثبات نفسه :

ـ وقلبى ملىء بالواجب أيضا .

يا لها من حذرة متحفظة كتمثال بلا نقوش تفسره! لقد تكلمت ولم تقل شيئا ولم يكن بوسعى أن أكاشفها بأكثر من ذلك . غير أنها فى الحقيقة قد قالت أكثر من المتوقع . إن تحفظها يعنى أنها تعرف كل شىء . وأنها لن تكون معنا . إنها مرشحة للعرش بضربة حظ خليقة بأن تدير أكبر رأس ، وسيكون همها الأول فى الحياة المحافظة على العرش ، لا آمون ولا الآلهة . وأقمت مع الكهنة صلاة للحزن فى قدس الأقداس ، ثم وافيتهم بفحوى الحوار بينى وبين نفرتيتى ، فقال توتو معلقا :

ـ سينكشف الغد عن ليل طويل .

ثم خلا إلىّ متسائلا :

ـ ألا تستطيع أن تناقش المستقبل مع القائد ماى؟

فلمحت ما يرمى إليه وقلت بصراحة :

ـ لا نستطيع أن نتحدى أمنحتب الثالث والملكة العظمى تيى .

بدا أن الأمور لا تسير يسيرة فى القصر بين المجنون ووالديه ، من أجل ذلك صدر أمر

ملكى لولى العهد ليقوم برحلة تعارف فى أرجاء الإمبراطورية . ولم أشك فى أن الملك أراد أن يعرف ابنه رعاياه وأن يعيش الواقع لعله يفيق من ضلاله . وحمدت له ذلك فى نفسى ، غير أن كآبتى ظلت راسخة . وفى أثناء الرحلة حدثت أمور على جانب كبير من الأهمية ، فقد أنجبت تيى توءمين هما : سمنخ رع وتوت عنخ آمون ، بعد فترة تدهورت صحة الملك العجوز ومات . ورحل مبعوثون إلى ولى العهد بالأخبار ليرجع فيتولى سلطته . وتشاورنا نحن الكهنة حول مستقبل البلاد فاتفقنا على رأى . وسعيت إلى مقابلة الملكة تيى رغم الحداد وانشغالها بتحنيط زوجها . وجدتها فى حزنها قوية ثابتة واعية بأهدافها . وكان علىّ أن أصارحها بما جئت من أجله مهما كلفنى ذلك . قلت :

ـ جئت يا مولاتى لأفضى برأيى إلى الأم الشرعية للإمبراطورية .

وأصغت إلىّ ومنظرها يوحى بأنها تحدس بفطنة ما سيقال .

ـ مولاتى ، أصبح معروفا أن ولى العهد قد كفر بجميع الآلهة .

فتجهم وجهها وقالت :

ـ لا تصدق كل ما تسمع .

فقلت بلهفة :

ـ إنى على استعداد لتصديق ما تقولين يا مولاتى .

فقالت باقتضاب :

ـ إنه شاعر أيها الكاهن الأكبر .

ولذت بالصمت بغير اقتناع ، فقالت بثقة :

ـ سوف يعرف واجبه تماما .

فقلت مستجمعا شجاعتى :

ـ مولاتى تعرف عواقب الكفر بالآلهة على العرش !

فقالت بضيق :

ـ لا خوف على عبادة الآلهة !

فقلت مستزيدا من شجاعتى :

ـ أمامنا حل إذا مست الضرورة إليه وهو أن نولى أحد ابنيك الصغيرين وتكونين الوصية على العرش !

فقالت بحزم :

ـ سيحكم أمنحتب الرابع لأنه ولى العهد .

هكذا غلبت الأم العاشقة الملكة الحكيمة وضيعت فرصة النجاة وأتاحت للقدر أن يضرب ضربته القاتلة .

ورجع ولى العهد المؤنث المجنون . ودُفن الملك الأب فى موعده ، وسرعان ما طلبت لمقابلته بصفته الرسمية . لأول مرة أراه عن قرب وأمعن فيه النظر . كان ذا سمرة غامقة ، وجسم طويل نحيل ، وعينين حالمتين ، وتكوين أنثوى لا يخفى على أحد ، أما ملامحه فمتنافرة مثيرة للقلق . إنه كائن هزيل حقير لا يليق بعرش ولا يتصور أن يتحدى بعوضة لا آمون سيد الآلهة . وداريت تقززى وعزيته مقتبسا من حكم الحكماء وشعر الشعراء ، وهو يرمقنى بنظرات محيرة . لا كراهية فيها ولا تحد ولا ود . وشتت منظره فكرى لدرجة أن غلبنى الصمت فبادرنى هو قائلا :

ـ طالما تسببت لى فى مناقشات مرهقة مع والدى !

فاستردت قدرتى على الكلام ، فقلت :

ـ لا هم لى فى الحياة إلا آمون والعرش ومصر والإمبراطورية . .

فقال بهدوء :

ـ لديك ما تقوله ولا شك .

فقلت وأنا أتأهب لخوض المعركة :

ـ سمعت أنباء مقلقة ، ولكنى لم أصدقها .

فقال بلا مبالاة :

ـ إنها حقيقية !

فذهلت وانعقد لسانى ، فواصل حديثه :

ـ إنى المؤمن الوحيد فى بلد من الضالين .

ـ لا أصدق أذنى .

ـ بل صدقهما ، لا إله إلا الإله الواحد .

واقتحمنى الغضب لعقيدتى فلم أعد أبالى بالعواقب دفاعا عن آمون وسائر الآلهة .

وقلت بصراحة مخيفة :

ـ هذا تجديف لن يغفره آمون لبشر . .

فقال بهدوء باسم :

ـ لا يملك منح المغفرة إلا الإله الواحد .

فقلت وأنا أنتفض من شدة الانفعال :

ـ إنه لا شىء .

فبسط ذراعيه بحنان وقال :

ـ هو كل شيء ، الخالق . . القوة . . الحب . . السلام . . السرور .

ثم ثقبني بنظرة نافذة تتناقض تماما مع هيكله الواهن :

ـ إني أدعوك للإيمان به .

فقلت محذرا محتدا :

ـ احذر غضب آمون ، إنه قادر على المنع قدرته على العطاء ، قادر على العون قدرته على الخذلان ، قادر على التأمين قدرته على التدمير . خف على رزقك وذريتك وعرشك وإمبراطوريتك .

فقال متماديا في الهدوء :

ـ إني طفل يحبو في رحاب الواحد ، وبرعمة تتفتح في حديقته ، إني راض بقدره خادم لأمره ، وقد تعطف فتجلى لروحي حتى أترعت بالأنوار وسالت بالأنغام . ولن أبالي بعد ذلك بشيء !

فقلت بغضب :

ـ إن ولي العهد لا يصير فرعون حتى يتوج بين يدي آمون !

فقال باستهانة :

ـ بل يتوج تحت نور الشمس في رعاية الخالق الوحيد . .

وافترقنا على أسوإ حال . معي آمون والمؤمنون ومعه تراث أسرته المجيدة ومنزلته المقدسة عند رعاياه وجنونه الذي لا يبالي بشيء . وتوثبت للحرب المقدسة موطنا نفسي على التضحية فداء لإلهي ووطني . ولم أتوان عن العمل لحظة ، وقلت لأبنائي الكهنة :

ـ فرعون الجديد كافر ، عليكم أن تعلموا بذلك وأن تُعلموا الناس به . .

ورغم حماسي وجدتني مسوقا إلى كبح جماح توتو الكاهن المرتل فاقترحت عليه الانضمام في الظاهر إلى المارق ليكون عينا لنا عليه . ومن ناحية أخرى فلم يتوان الملك أيضا عن العمل فتم التتويج في رحاب الإله المزعوم وأصر بتشييد معبد له في طيبة مدينة آمون المقدسة ، وراح يعرض دينه على الرجال ليختار معاونيه فأعلن صفوة مصر إيمانهم بدوافع شتى ولهدف واحد وهو تحقيق طموحهم على حساب عقيدتهم . ولو جاهر الرجال بالعصيان لتغير المصير ، ولكنهم سقطوا كالنساء الداعرات . هذا الحكيم آي اعتبر نفسه ضمن الأسرة فأسكره الجاه وأعماه ، وحور محب الجندي الشجاع لم يكن صاحب عقيدة صادقة فكان الأمر بالنسبة إليه مجرد تغيير اسم لا معنى له ، أما الآخرون فلم يكونوا سوى منافقين لا همّ لهم إلا الجاه والمال . ولولا ارتدادهم عن غيهم في اللحظة

الحرجة لاستحقوا القتل، وقد فازوا بالحياة، ولكننى لا أكن احتراما لأى منهم. واشتد التوتر فى طيبة وانقسم الناس بين الولاء لآمون والولاء للمجنون سليل أعظم أسرة فى تاريخنا المجيد. وجزعت الملكة الوالدة تيي وهى ترى غرس يديها وهو يتحول إلى نبات سام، وهو ينحدر نحو الهاوية جارا معه أسرته إلى الفناء. وواظبتْ على زيارة معبد آمون وتقديم القرابين محاولة تلطيف موجة التمرد العارمة التى تهدد باقتلاع العرش. وجعلت تقول لى:

ـ بالولاء تكسبون وبالتمرد تخسرون..

وكنت أقول لها:

ـ كيف تطالبيننا بالولاء لكافر؟! ليتكم آمنتم بنصائحى!

فتقول لى:

ـ علينا أن نطرد اليأس من أفقنا!

لقد ثبت عجزها أمام ابنها المؤنث المدلل، وانهارت قوتها التقليدية حيال قوة جنونه الخفية، ولم يكن مفر من أن نواصل القتال حتى النهاية. من أجل ذلك ضاق المجنون بطيبة، وترامت إلى مسمعه هتافات عدائية فى عيد آمون، فادعى أن إلهه أمره بالهجرة إلى مدينة جديدة تشيد من أجله. هكذا أجبرناه على الهجرة مصحوبا بثمانين ألفا من المارقين؛ ليقيموا لأنفسهم سجنا تحل به اللعنة. وخلا لنا الجو لإدارة معركتنا المقدسة، وخلا له الجو للإمعان فى الكفر والضلال حتى انقلبت العاصمة الجديدة مدينة للملاهى والسكر والعربدة والفسق التى يبشر بها إله مجهول الهوية شعاره الحب والسرور! وكلما ألح على المجنون ضعفه الطبيعى غالى فى إظهار قوته فأمر بإغلاق المعابد ومصادرة الآلهة وأوقافها وتشريد الكهنة. وقلت لأبنائى الكهنة:

ـ لا قيمة للحياة بعد إغلاق المعابد فأحبوا الموت.

وقد وجدنا فى بيوت المؤمنين مأوى وفى قلوبهم جيوشا فواصلنا الجهاد بهمة متصاعدة وأمل يقترب من الشروق يوما بعد يوم. وتمادى المارق فقام بزيارات إلى الأقاليم داعيا شعبه إلى الكفر، وشد ما عانى الشعب فى تلك الأيام السود من تمزق بين ولائه لآلهته و ولائه لملكه الذى أذهلهم بجسمه المتهافت وطابعه الأنثوى ووجهه المنفر وزوجته الجميلة الفاسقة.

تلك كانت أيام الأحزان والعذاب والنفاق والندم والدموع المنهمرة والرعب من غضب الآلهة. وأحدثت رسالة الحب المؤنث آثارها فاستهتر الموظفون بواجباتهم واستغلوا الناس أبشع استغلال، وسرى التمرد فى أنحاء الإمبراطورية، واستهان بحدودها الأعداء، واستغاث بنا الأمراء المخلصون فأرسلت إليهم الأشعار بدلا من

الجيوش فقتلوا دفاعا عن إمبراطوريتنا وهم يلعنون الخائن المارق المجنون. وتوقف الخير المتدفق على أرض مصر من جميع البلدان حتى خلت الأسواق وأفلس التجار وجاع العباد. وصحْت بأعلى صوتى:

ـ ها هى ذى لعنة آمون الغاضب تحل بنا فإما القضاء على المارق، وإما الحرب الأهلية.

ولم أدع فرصة للخير لم أجربها لتجنيب البلاد ويلات الحرب، فقابلت الملكة الأم تيى، وقالت لى بحرارة:

ـ إنى حزينة أيها الكاهن الأكبر.

فقلت بمرارة:

ـ لم أعد كاهنا أكبر، لست إلا شريدا مطاردا..

فقالت ملعثمة:

ـ إنى أسأل الآلهة أن تمدنا برحمتها.

فقلت لها:

ـ لابد من العمل، إنه ابنك، وهو يحبك، وإنك تتحملين تبعة لا يستهان بها فيما انتهت إليه الأمور فبادريه بنصحك قبل أن تنشب حرب أهلية لن تبقى على شىء..

فقالت بامتعاض لتذكيرى لها بمسئولياتها فيما حدث:

ـ لقد قررت السفر إلى العاصمة الجديدة أخت آتون..

ولا أنكر أنها بذلت جهدا، ولكنها لم تستطع أن تصلح ما أفسدت، ولم أستسلم لليأس فسافرت بنفسى مجازفا إلى أخت آتون واجتمعت بالرجال وقلت لهم:

ـ إنى الآن أتكلم من موقع القوة، وورائى رجال ينتظرون إشارة للانقضاض عليكم، ولكنى آثرت أن أحاول محاولة أخيرة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه دون سفك دماء أو خراب، وسأترك لكم مهلة لتؤدوا واجبكم وترجعوا إلى ضمائركم..

وقرأت فى وجوههم الاقتناع بما قلت، وبصرف النظر عن دوافعهم الحقيقية فقد أدوا ما طالبتهم به وجنبوا البلاد شر ويلات كثيرة. قابلوا المارق المجنون وطالبوه بأمرين عاجلين: إعلان الحرية الدينية، وإرسال جيش للدفاع عن الإمبراطورية. ولكنه رفض معلنا بذلك جنونه على الملأ. وعند ذاك طالبوه بالتنازل عن العرش وله أن يحتفظ بعقيدته بل وأن يدعو إليها كيفما شاء ولكنه رفض أيضا. غير أنه عين أخاه سمنخ رع شريكا له فى العرش، فتجاهلنا أمره واخترنا توت عنخ آمون ليجلس على العرش مختارا منا. وبإزاء عناد المجنون قرر الرجال هجره وهجر مدينته وإعلان ولائهم لفرعون

الجديد، بذلك تغيرت الدولة بلا حرب ولا خراب، وفى نظير ذلك عدلنا عن الانتقام من المجنون وزوجته ومن أبقى على الوفاء له من رجاله.

وفتحت المعابد أبوابها وهرع إليها المؤمنون بعد حرمان طويل، وانقشع الكابوس ومضى كل شيء يعود إلى أصله على قدر الإمكان. أما المارق فبعد أن شبع جنونا أدركه المرض وما لبث أن مات خائب المسعى فى الدنيا وفاقد الأمل فى العالم الآخر، مخلفا وراءه زوجته الشريرة تعانى الوحدة والهجر والندم.

وصمت الرجل طويلا وهو يرنو إلىّ، ثم قال:

ـ نحن نضمد جراحنا، يلزمنا عمل كبير وشاق، خسارتنا فى الداخل والخارج أكبر من أن يحيط بها حصر، كيف حدث هذا؟! كيف أتيح لمجنون مشوه أن يفعل بنا ذلك كله تحت سمع العقلاء وبصرهم؟!

وتريث قليلا، ثم خاطبنى قائلا:

ـ لقد كشفت لك عن الحقيقة خالصة بلا تزويق ولا تشويه فسجلها فى دفترك بأمانة، وأبلغ تحياتى والدك.

آى

هو الحكيم، أبو نفرتيتى وموت نجمت، ومستشار المارق. حفر الكبر أخاديد فى وجهه وسكن فيها، استقبلنى فى قصره المطل على النيل فى جنوبى طيبة. جرى حديثه فى هدوء وبصوت منخفض ودون أن ينبض وجهه بأى انفعال. وقد أثر فى وقاره وعمره المديد وما يطوى فى صدره من تاريخ حافل. بدأ حديثه بقوله:

ـ ما أعجب الحياة، إنها سماء تمطر تجارب متناقضة!

وتفكر مستغرقا بفيض من الذكريات، ثم قال:

ـ التحمت بالأحداث فى يوم من أيام الصيف، دُعيت إلى مقابلة الملك أمنحتب الثالث والملكة العظمى تيى، ولما مثلت بين يديهما قالت لى الملكة:

ـ يا آى، أنت رجل حكيم، تعرف أجمل ما فى الدنيا والدين، قررنا أن نعهد إليك بتربية ابنينا تحتمس وأمنحتب..

فحنيت رأسى الحليق وقلت:

ـ سعيد من يحظى بخدمة مولاه ومولاته.

وكان تحتمس فى السابعة وأمنحتب فى السادسة. وكانا جد مختلفين لحد التضاد، فتحتمس قوى، وسيم، قصير القامة، وأمنحتب ضعيف البنية، غامق السمرة، طويل القامة، أنثوى القسمات، وذو نظرة رقيقة وغازية معا تلتصق بالنفس بعمق. وما لبث أن مات الصبى الجميل وبقى الضعيف الغريب. وهز الموت الصبى الحى هزة عنيفة جداً. بكى طويلا، وكلما خطرت ذكرى بكى من جديد. وقال لى:

ـ كان يزور معبد آمون، ويتلقى الرقى والتعاويذ، ولكنه مات. .

وقال لى أيضا:

ـ وأنت الحكيم المعلم فلم لا ترد إليه الحياة؟

وقلت له:

ـ إن الروح تقول للميت: «ألق عنك هذا الحزن أيها الأخ، إننى باقية».

وجرّنا ذلك إلى حديث عن الحياة والموت، وشد ما أدهشنى بإدراكه ووجدانه. كان يفوق سنه بأجيال. وساءلت نفسى: أى صبى هذا؟! أجاء معه من المجهول بأقباس من حكمة الغيب؟ وقد أتقن مبادئ القراءة والكتابة والحساب بسرعة مذهلة، حتى قلت مرة للملكة تيى:

ـ إن تفوقه ليخيف معلمه.

وكنت أهرع إلى درسه بشغف وشوق وسرور وأتخيل ما يصدر عن عقله من عجائب إذا ما اعتلى يوما عرش أجداده. سوف يتفوق على والديه على رغم عظمتهما.

أجل. كان أمنحتب الثالث ملكا عظيما، بدّارا لتأديب العصاة، مقبلا وقت السلم على الطعام والشراب والنساء فى عصر عرف بالرخاء، وقد أنهكه ذلك قبل الأوان فوقع فى أسر العلل وفسدت أسنانه فكدرت صفو أيامه الأخيرة. أما تيى فكانت من أسرة نوبية كريمة، وشهدت لها الأيام بالقوة والحكمة حتى بزّت حتشبسوت نفسها. وبسبب من غرام زوجها بالنساء ولموت بكريها تحتمس ولعت بالصبى الضعيف المعجزة ولعا خرق المألوف فكانت له الأم والحبيبة والأستاذ. وكانت تحب الحكم أكثر من الحب فضحّت بقلبها فى سبيل السلطة، وقد اتهمها الكهنة ظلما بأنها المسئول الأول عن انحراف ابنها الدينى، ولكن الحق أنها أرادت أن يلم ابنها بديانات آلهة بلاده جميعا، وكانت تحلم بأن يحل آتون محل آلهة الإمبراطورية بوصفه الشمس التى تنفث الحياة فى كل مكان، فتؤلف بين رعاياها برابطة الدين القوية لا بدافع القوة وحدها. كانت ترمى إلى وضع الدين فى خدمة السياسة من أجل مصر، ولكن ابنها آمن بالدين دون السياسة بخلاف ما قصدت، وأبت طبيعته أن يجعل الدين فى خدمة أى شىء وأن يجعل كل شىء فى خدمة الدين. الأم طرحت سياستها عن وعى وتدبير، ولكن الابن صدق وآمن وكرس حياته لرسالته حتى ضحى بوطنه وإمبراطوريته وعرشه.

وسكت آى قليلا فحبك وشاحه الأزرق حول صدره وقد بدا وجهه صغيرا مضغوطا تحت شعره المستعار، ثم واصل حديثه :

ـ كان فذا منذ صباه كأنما ولد بعقل كاهن ناضج، كان معجزة حتى وجدتنى فى كثير من الأحايين أناقشه مناقشة الند للند وهو فى العاشرة. وكان الحماس يتدفق من منطقه كأنه ينابيع ساخنة، وبرزت فى الهيكل الضعيف إرادة قوية لا تتوافق بحال مع ضعفه، فأقنعنى ذلك بأن روح الإنسان أقوى من عضلاته المشدودة المدربة آلاف المرات. وهام بالدروس الدينية هياما فاق كل توقع وأضر بالإعداد اللازم له للجلوس على العرش. ولم يكن يسلم بفكرة دون مناقشة قوية، ولم يخف ارتيابه فى كثير من الحقائق والتعاليم الموروثة. و إذا به يقول لى ذات يوم :

ـ طيبة! تقولون إنها المدينة المقدسة! إنها وكر التجار الجشعين والفسق والعهر، ومن هم هؤلاء الكهنة الكبار يا معلمى؟ ألا إنهم من يضلون البسطاء بالخرافات، ويشاركون الفقراء فى أرزاقهم المحدودة، ويغوون الفتيات باسم البركة، فجعلوا من معبدهم مرتادا للدعارة والعربدة، عليك اللعنة يا طيبة!

وأقلقنى قوله، وتخايلت لعينى أصابع الاتهام وهى تشير إلىّ بوصفى معلمه، فقلت له :

ـ إنهم الأساس المتين الذى يقوم عليه العرش.

فهتف غاضبا :

ـ لا كرامة لعرش يقوم على الكذب والفجور.

فقلت كالمحذر :

ـ إنهم قوة لا يستهان بها مثل الجيش. .

فهتف ساخرا :

ـ وقطاع الطرق أيضا قوة لا يستهان بها.

من بادئ الأمر لم ينشرح صدره لآمون الثاوى فى قدس الأقداس، فتطلع إلى آتون الذى يضىء نوره العالمين، وقال فى ذلك :

ـ آمون إله الكهنة، آتون إله السماء والأرض.

فقلت بحرارة :

ـ إنك مطالب بالإخلاص لجميع الآلهة.

فتساءل مقطبا :

ـ أليس لنا قلوب نميز بها بين الحق والباطل؟

فقلت بإغراء :

ـ سوف تتوج ذات يوم بين أحضان آمون .

فبسط ذراعيه النحيلتين متسائلا :

ـ ولم لا أتوج تحت نور الشمس فى الهواء الطلق؟!

ـ آمون هو الذى ساند جدك حتى قيض له النصر .

فتفكر مليا ، ثم تساءل :

ـ لا أدرى كيف يعين إله على ذبح مخلوقاته؟

فقلت بقلق :

ـ له حكمته المضنون بها على البشر .

ـ الشمس لا يفرّق نورها بين مخلوق وآخر .

فقلت بإصرار :

ـ الحياة ميدان صراع ، لا تنس ذلك .

فقال بأسى :

ـ يا معلمى لا تحدثنى عن الصراع ، ألم تشهد الشمس عند شروقها فوق الحقول والنيل؟! ألم تر الشفق عند المغيب؟ ألم تسمع تغريد البلابل وهديل الحمام؟ ألم تقتنص قط الفرحة المقدسة الغائبة فى أعماق حياتنا؟!

شعرت بأن الزمام يفلت من يدى ، وأن الشجرة تنمو على هواها ، وأننى أُجَرّ إلى مأزق ، فأفضيت بمخاوفى إلى الملكة تيى ، ولكنها لم تشاركنى قلقى وقالت لى :

ـ يا آى ، ما زال طفلا بريئا ، سوف يخبر الدنيا ، وعما قليل سيتلقى تدريبه العسكرى .

ودعى الكاهن الصغير إلى الجندية الخاصة ضمن أبناء السادة النبلاء مثل حور محب ، ولكنه لم يتناغم معها ، أو لم يجد القوة اللازمة لها ، فكرهها ، وسجل على نفسه فشلا لا يليق بأبناء الملوك . وقال بمرارة :

ـ لا أود أن أتعلم مبادئ القتل .

وحزن لذلك أبوه حزنا شديدا ، وقال لى :

ـ إن الملك الذى لا يحسن القتال يقع تحت رحمة قواده .

وحدثنى الفتى عن مشاحنات نشبت بينه وبين أبيه ، ولعله منذ ذلك الوقت ترسبت فى أعماقه مشاعر غير طيبة عن أبيه العظيم ، وهى التى غالى الكهنة فيما بعد فى تفسيرها متهمين إياه بقتل أبيه بعد موته بمحو اسمه من الآثار ، والحق أنه لم يمح اسم أبيه إلا

لاقترانه بآمون، وآى ذلك أنه أعدم اسمه القديم واتخذ اسما جديدا هو «إخناتون». ثم بلغ ذروة غربته مقتلعا نفسه من كافة جذوره فى ليلة غريبة لم يطلع عليها سواه. تم ذلك فى الخلوة التى كان ينتظر فيها الشروق بحديقة القصر المطلة على النيل. وعلمت بما كان عندما لقيته فى الحديقة فى الصباح. أغلب الظن أننا كنا فى الربيع فى يوم برىء من الرطوبة والخماسين.

رنا إلىّ بوجه شاحب وعينين مسحورتين، وقال لى دون أن يرد تحيتى:

ـ يا معلمى، قد تجلى الحق!

عجبت لمنظره وسألته عما يعنى، فقال:

ـ كنت فى الخلوة قبيل الشروق، رفيق الليل يودعنى والصمت يباركنى، وخف وزنى فخيل إلىّ أننى سأمضى مع ذيول الليل، وتجسدت الظلمة كائنا حيا يومئ بالتحية، وأشرق فى داخلى نور طيب الرائحة، فرأيت الكائنات كلها مجتمعة فى مجال تحيط به العين، تتهامس متبادلة التهانى تهزها سعادة الترحيب، وتستقبل الحقيقة المقبلة، وقلت لنفسى: أخيرا انتصرت على الموت والألم، وانهلّت فوقى فيوضات السرور، وتسلل الوجود إلى صدرى فملأه برحيقه العذب، وسمعت بكل وضوح صوته وهو يقول لى: «أنا الإله الواحد، لا إله غيرى، أنا الحق، اقذف بروحك فى رحابى، اعبدنى وحدى، وهبنى ذاتك فقد وهبتك حبى».

تبادلنا النظر طويلا. غلبنى الصمت، واليأس. قال:

ـ ألا تصدقنى يا معلمى؟

فقلت صادقا:

ـ إنك لا تكذب أبدا.

فقال بنشوة عجيبة:

ـ إذن فعليك أن تصدقنى.

فسألته بلهفة:

ـ وماذا رأيت؟

ـ سمعت الصوت فى مهرجان الفجر..

فقلت بعد تردد:

ـ هذا يعنى أنه لا شىء

فقال بيقين:

ـ هكذا يتراءى الكل إذا تجلى!

ـ لعله آتون؟

ـ كلا، لا آتون ولا الشمس، إنه ما وراء ذلك وما فوق ذلك، إنه الإله الواحد.

فتساءلت في حيرة:

ـ وأين تعبده؟

ـ في أي مكان، في أي زمان، وسوف يمدني بالقوة والحب..

ولاذ آي بالصمت. وددت أن أسأله إن كان آمن بإله إخناتون. ولكني تذكرت وصية أبي فأمسكت. لقد ارتد في اللحظة الحرجة مع المرتدين وربما ظل إيمانه سرا إلى الأبد. واستأنف آي حديثه قائلا:

ـ لم أجد بدّاً من إبلاغ الملك والملكة بما كان. وبعد أيام وجدت الأمير ينتظرني في الحديقة التي يفضل البقاء فيها ما أمكنه ذلك، فقال لي معاتبا وباسما:

ـ وشيت بي كعادتك يا معلمي.

فقلت بهدوء:

ـ إنه واجبي أيها الأمير.

وضحك قائلا:

ـ استدعاني أبي لمقابلة مثيرة، فرويت له تجربتي، فعبس قائلا:

ـ لا مفر من عرضك على الطبيب بنتو.

فقلت له بأدب:

ـ إني في تمام الصحة والعافية.

فقال بخشونة:

ـ لا أعرف مجنونا اعترف بجنونه أبدا.

ثم بنبرة وعيد:

ـ مصر بلد الآلهة، وعلى صاحب العرش أن يعبد جميع آلهة شعبه. وهذا الإله الذي تحدثني عنه لا شيء؛ فهو لا يستحق أن ينضم إلى مجمع الآلهة.

فقلت بهدوء:

ـ إنه الإله الوحيد ولا إله غيره.

فصاح بي:

ـ هذا كفر وجنون.

فكررت قولي حتى قال بنبرة غاضبة منذرة بالشر:

ـ إنى آمرك بأن تتخلى عن أفكارك وأن ترجع إلى تراث أجدادك .

وانقطعت عن المناقشة احتراما لأمره، وقالت الملكة بنبرة لطيفة :

ـ إنك مطالب باحترام واجب مقدس، ولينبض قلبك بما يشاء حتى تثوب إلى الهداية . .

وغادرت مجلسهما حزينا يا معلمى ولكن أشد إصرارا . .

فقلت له بإخلاص :

ـ فرعون نسيج محكم من التقاليد المقدسة، لا تنس هذا أبدا .

وحدثنى قلبى بأن مصر ستشهد متاعب لم تخطر ببال، وأن هذه الأسرة المجيدة التى حررت الوطن وأنشأت له إمبراطورية إنما تقف على حافة هاوية . وفى ذلك الوقت، وربما قبل ذلك فلست متأكدا من ترتيب التواريخ . استدعانى كاهن آمون إلى مقابلة خاصة . قال لى :

ـ بيننا عهد قديم يا آى، ما هذا الذى يقال؟

ـ قلت لك إننى لا أذكر اليوم إن كانت تلك المقابلة قد تمت عقب ما ذاع عن ميل الأمير لآتون أم عقب إيمانه بالإله الواحد . على أى حال قلت له :

ـ الأمير يمر بالفترة الحرجة من العمر، إنه إنسان ممتاز، ومثله قد يدفعه الخيال شرقا وغربا، ولكن سرعان ما يرجعه النضج إلى الحق . .

فتساءل بمرارة :

ـ وكيف تمرد على حكمتك وأنت خير المعلمين؟

فقلت مدافعا عن نفسى :

ـ ما أصعب ترويض النهر فى إبان الفيضان!

فقال بصوت قوى :

ـ على أى رجل من صفوة هذه الأرض ألا يغفل لحظة عن مصير العقيدة والوطن والإمبراطورية!

وجعلت أناجى حيرتى ليل نهار منفردا ومع أسرتى المكونة من تى زوجتى ونفرتيتى وموت نجمت ابنتى . وعلى حين اتهمت تى وموت نجمت الأمير بالضلال إذا بنفرتيتى تنجذب إلى آرائه بتلقائية مثيرة، وتهمس فى أذنى :

ـ إنه الحق يا أبى!

ولا بد من كلمة هنا عن نفرتيتى . كانت تقارب إخناتون فى سنه، ومثله حازت عقلا يفوق سنها . وقد تلقت البنتان تربية عامة ومنزلية ممتازة، ولكن موت نجمت قنعت

بتجويد القراءة والكتابة والحساب وشيء من اللاهوت إلى الحياكة والتطريز والطهى والرسم والرياضة والرقص الدينى، أما نفرتيتى فمع إتقانها ذلك كله تبحرت بدافع شخصى فى الدين والأفكار. ثم كان ميلها إلى آتون، والأعجب من ذلك كله أنها آمنت بإله إخناتون، وقالت بصراحة:

ـ هذا هو الإله الذى انتشلنى من حيرتى المعذبة.

وأثارت بذلك سخط تى مربيتها وأختها غير الشقيقة موت نجمت التى اتهمتها بالضلال.

وحدث فى ذلك الوقت أن احتفل الملك بمرور ثلاثين عاما على جلوسه على العرش فذهبنا إلى القصر واصطحبنا البنتين معنا لأول مرة. وشاء القدر أن تستحوذ نفرتيتى على قلب الأمير، وهكذا تزوجت من إخناتون ونحن نتابع الأحداث بذهول ولا نصدق ما يقع. واستدعانى كاهن آمون مرة أخرى وقال لى بنبرة ذات مغزى:

ـ أصبحت عضوا فى الأسرة المالكة يا آى.

وشعرت بأنه يوشك أن يعدنى من الخصوم فدافعت عن الأمير ما وسعنى ذلك، وقلت له:

ـ إنى رجل لم يحد طيلة عمره عن الواجب.

فقال بهدوء:

ـ لندع الأيام تكشف لنا عن معدن الرجال!

وطلب منى أن أعد مقابلة بينه وبين نفرتيتى ففعلت بعد أن زودت ابنتى بالوصايا. ولكنها والحق يقال لم تكن فى حاجة إلى وصاياى فأسمعته كلاما جميلا دون أن تكشف عن سر أو تلتزم بعهد. وأعتقد أن عداء الكهنة لابنتى بدأ مع تلك المقابلة.

وقالت لى نفرتيتى:

ـ لم تكن مقابلة يا أبى، ولكنها كانت مبارزة غير معلنة. الداهية يدافع عن الإمبراطورية على حين أنه يدافع فى الواقع عن نصيب معبده من الأغذية والكساء والخمور.

وتراكمت فى الأفق سحب الكآبة، واشتد النزاع بين الملك وولى العهد، ، وأخيرا استدعانى الملك وقال:

ـ أرى أن يقوم الأمير برحلة فى أرجاء الإمبراطورية ليخبر بنفسه الحياة والناس. .

فقلت باقتناع:

ـ فكرة طيبة يا مولاى!

كان الملك يقضى فى ذلك الوقت أسعد أيامه الأخيرة مع عروس فى سن أحفاده هى تادوخيبا بنت توشراتا ملك ميتانى، وإن كانت وبالا على صحته! أما إخناتون فقد غادر طيبة مصحوبا ببعثة من صفوة الرجال. كانت رحلة عجيبة حافلة بالإثارة. سعى إلى عبيده فى الميادين والحقول ملقيا عليهم مودة وبشاشة أذهلتهم، وكانوا ولا شك يتوقعون أن يمثلوا بين يدى إله جبار ينظر إليهم من عل أو لا ينظر إليهم على الإطلاق. ودعا إلى لقائه رجال الدين فى الولايات المختلفة ولم ين عن تسفيه عقائدهم وإدانة الطقوس التى تبيح تقديم قرابين من البشر. وبشر بإلهه الواحد، القوة الكائنة فى قلب الوجود، الخالقة للجميع على السواء والتى لا تفرق بين رعاتهم ونبلاء مصر. كما دعا إلى الحب والسلام والسرور مؤكدا أن الحب هو قانون الحياة، وأن السلام هو الهدف، وأن السرور هو شكر المخلوق لخالقه.

فى كل مكان أثار الذهول والانفعالات الجنونية. وبلغ منى الذعر مداه، فقلت له:

- أيها الأمير، إنك تقتلع الإمبراطورية من جذورها، وتنثرها فى الهواء.

فتساءل ضاحكا:

- متى يدخل الإيمان قلبك يا معلمى؟

فقلت بمرارة:

- لقد هاجمت الديانات التى جرى أجدادى على احترامها، وأعلنت المساواة والحب والسلام، ولن يعنى هذا بالنسبة للرعايا إلا فتح باب التمرد وشق عصا الطاعة..

وتفكر مليا، ثم تساءل:

- لماذا يؤمن العقلاء بالشر بكل هذه القوة؟!

فقلت بتسليم:

- نحن نؤمن بالواقع.

فقال باسما:

- يا معلمى، سأعيش فى الحق إلى الأبد..

وإذا برسول يلحق بنا وينعى إلينا الملك العظيم أمنحتب الثالث.

* * *

وهنا سرد علىّ أنباء العودة، والجنازة، وجلوس الأمير على عرش أجداده باسم أمنحتب الرابع، ونفرتيتى شريكته بوصفها الملكة العظمى، وكيف دعاهم الملك الجديد فعرض عليهم دينه وكيف أعلنوا إيمانهم به، وكيف عين نتيجة لذلك ماى قائدا لجيش الحدود، وحور محب قائدا للحرس، وهو - آى - مستشارا للعرش. وقد ورث الملك

حريم أبيه كالمتبع فأحاطه بالرعاية والزهد! كما أمر بتخفيف الضرائب وبإحلال الحب محل العقاب. وكيف توتر الجو بينه وبين كهنة آمون حتى أمره إلهه ببناء عاصمة جديدة له. وقد وقف آى عند إعلان الرجال إيمانهم بالإله الجديد وقفة تأمل، فقال لى:

- ستسمع عن ذلك أقوالا متضاربة، ولكن لا علم لأحد بأسرار القلوب!

وبدا أنه شعر بأنه مطالب بالكشف عن سر قلبه هو، فقال:

- عن نفسى آمنت بالإله الجديد بوصفه إلها يمكن ضمه إلى بقية الآلهة، وكنت أرى أنه لا يجوز التعرض إلى حرية العقيدة!

وقال معلقا على سياسة الحب إنه قال لمولاه:

- عندما يأمن الموظف من العقاب سيقع فى الفساد ويسوم الفقراء سوء العذاب.

ولكن الملك قال له بيقين:

- ما زلت ضعيف الإيمان وسوف ترى بنفسك ما يفعله الحب، ولن يخذلنى إلهى أبدا.

* * *

وقال آى مواصلا حديثه:

- انتقلنا إلى أخت آتون العاصمة الجديدة، لم ولن ترى العين أجمل منها، وأقيمت أول صلاة بالمعبد القائم فى وسط المدينة، وأمسكت نفرتيتى بالطنبور متألقة الشباب والجمال وراحت تغنى بصوت رخيم:

يا حى يا مبدئ الحياة

ملأت الأرض كلها بجمالك

وقد قيدتنا بحظبك!

واستقبلنا أياما أعذب من الأحلام، حافلة بالهناء والسرور والحب والرخاء. وتفتحت القلوب حقّا للإيمان الجديد. ولكن الملك لم ينس رسالته. وباسم الحب والسلام والسرور خاض أشرس حرب ابتليت بها مصر. فما لبث أن أمر بإغلاق المعابد ومصادرة الآلهة ومحو أسمائها من الآثار، حتى اسمه غيّره، وقام برحلاته المشهورة فى أنحاء البلاد داعيا إلى دينه، دين الواحد والحب والسلام والسرور. وعجبت لاستقبال الناس له فى كل مكان بالحماس والحب. وانطبعت صورته وصورة نفرتيتى فى القلوب كما لم تنطبع صورة فرعون آخر من الفراعين الذين سمع الناس عنهم ولم يروهم.

ثم أخذت الأحزان تزحف، مترددة أول الأمر ثم انهلّت كالشلال. مدت قبضتها أول ما مدت إلى أحب بناته إلى قلبه، ابنته الثانية، ميكيتاتون الجميلة، فجزع لموتها جزعا

شديدا، وبكاها بدموع غزيرة أشد مما بكى أخاه تحتمس فى صباه، وجعل يصرخ من قلب مكلوم:

ـ لماذا يا إلهى ؟! لماذا يا إلهى؟!

حتى توهمت أنه على وشك الكفر به. ثم ذاعت أنباء الفساد فى دواوين الحكومة والأسواق، وترامى إلى الأسماع أنين الفقراء. ثم جاءتنا أخبار الإمبراطورية بتمرد الولايات وتحرش الأعداء بالحدود حتى قتل صديقنا توشراتا ملك ميتانى.. والد تادوخيبا. وقدمت نصيحتى قائلا بإلحاح:

ـ لا بد من التطهير فى الداخل وإرسال جيش الحدود للدفاع عن الإمبراطورية..

ولكنى وجدته صامدا ثابتا لا يتغير ولاييأس. قال لى:

ـ سلاحى الحب يا آى، اصبر وانتظر..

كيف أفسر هذه الظاهرة الغريبة؟

الكهنة يتهمونه بالجنون، وبعض رجاله شاركوهم فى هذا الاتهام فى الأيام الأخيرة من الأزمة. ولقد حرت فى أمره، ولكننى رفضت وما زلت أرفض ذلك الاتهام. لم يكن مجنونا، ولكنه لم يكن أيضا مثل سائر العقلاء، كان شيئا بين هذا وذاك لم أعرف كنهه. وزارتنا الملكة الوالدة تيى وسُرَّ الملك بالزيارة سرورا فاق كل تصور، واستقبلها استقبالا لم تشهد أخت آتون له مثيلا. ونزلت الملكة فى قصر شيد لها خصيصا فى جنوبى أخت آتون وظل خاليا فى انتظارها. واستدعتنى فاجتمعت بها وقد ساءنى أن ألاحظ تدهور صحتها وغلبة الكبر عليها أضعاف ما تقتضيه سنها الحقيقية. قالت:

ـ جئت لحديث طويل معه، ولكنى رأيت أن أمهد لذلك بحديث مع رجاله.

فقلت:

ـ لم أقصر فى واجبى كمستشار أمين.

فقالت:

ـ أصدقك يا آى، ولكن تراثنا لا يمكن أن يضيع هدرا، ولكنى أريد أن تصارحنى بأمانة، هل تظل وفيا لابنى مهما حدث؟

فقلت بصدق:

ـ لا يداخلك شك فى ذلك.

ـ هل يمكن أن تفترق عنه عند نقطة معينة ترى أنها تعفيك من الولاء؟

فقلت بإخلاص:

ـ إنى عضو فى أسرته فلا أتخلى عنه أبدا.

فقالت متنهدة :

ـ شكرا لك يا آى ، الحال خطيرة جدّا ، هل تثق بإخلاص الآخرين بنفس القوة؟ !

فتفكرت قليلا ، ثم قلت :

ـ بعضهم على الأقل لا يرتقى إليهم شك .

فقالت بتوجس :

ـ يهمنى أن أسمع رأيك فى حور محب خاصة؟

فقلت دون تردد :

ـ قائد مخلص وزميل صبا الملك . .

فقالت بكآبة :

ـ هو من يقلقنى يا آى . .

ـ ربما لأنه صاحب القوة ، ولكنه لا يقل إخلاصا للملك عن مرى رع .

وحصل اللقاء بين تيى وبين الملك ، ولكنها فشلت مثلنا ، ورجعت إلى طيبة خائبة الرجاء ، ثم ساءت حالتها الصحية وماتت تاركة وراءها تاريخا ملكيا بالغ الروعة .

ومضت الأحوال من سيئ إلى أسوأ حتى نفضت جميع الأقاليم عنها الولاء للملك ، وبتنا محاصرين فى سجن اسمه أخت آتون نحن وإلهنا الواحد! وشعر كل واحد بدنو الكارثة إلا إخناتون الذى جعل يقول بكل ثقة :

ـ لن يخذلنى إلهى !

وإذا بكاهن آمون الأكبر يقتحم المدينة معتمدا على قوة لا قبل لنا بها . وكنت أنا أول من تسلل إلى قصر الكاهن . ودهشت وأنا أتفرس فى وجهه وهو متنكر فى زى تاجر . وقلت له :

ـ لماذا تتخفى وأنت تعلم أن الملك لا يؤذى أحدا؟

فتجاهل قولى وقال لى بلهجة حازمة :

ـ دبر لى لقاء مع رءوس الرجال . .

واجتمع بنا فى حديقة قصر الملكة الراحلة تيى ، ولم يخف عنا أنه يتكلم من موقع القوة ، وأنه يطالبنا بأن نتعاون معه على حقن الدماء ، وتركنا بعد أن ألقى إنذاره الأخير كأنه حية تسعى تحت أرجلنا . وقد حرت فى تفسير سلوك الرجل ؛ لأننى لم أكن أحسن به الظن . واستشففت وراءه حقيقة لم يبح بها وهى أنه لم يكن واثقا بولاء كل جيوش الأقاليم ومشفقا من مغبة فوضى عسكرية ضارية تنتهى بهزيمة له أو بنصر فادح الثمن . غير أننى اقتنعت بأن الخطر الذى يتهدده لا يقل عن الخطر الذى يتهددنا ، وأن مصر

هى الخاسرة فى الحالين . ولم يتقـوض الاجتمـاع بذهابه . شعرنا جميعا بأننا مطالبون باتخاذ قرار .

ورغما عنى وجدتنى أسأله مقاطعا لأول مرة :

ـ من شهد ذلك الاجتماع من رجال الملك؟

فضيق عينيه الباهتتين ، ثم قال :

ـ لم أعـد أتذكـر ، مضت أعـوام وأعـوام ، ولك كـان بينهـم حـور مـحب وناخت وربما توتو وزير الرسائل أيضا ، على أى حال ان حور محب أول المتكلمين فقال :

ـ إنى صدقه وقائد حرسه !

ـ لم أعـد أتذكـر ، مـضت أعـوام وأعـوام ، ولكـن كـان بينهـم حـور مـحب وناخت وربما توتو وزير الرسائل أيضا ، على أى حال كان حور محب أول المتكلمين فقال :

ـ إنى صديقه وقائد حرسه !

وقلب عينيه البنيتين فى وجوهنا ، وقال بهدوء وتصميم :

ـ لا مفر من حسم الموقف لإنقاذ البلاد .

ولم ينبس أحد باعتراض . وطلبنـا مقابلـة رسـمية . وأدينـا فـروض التحية التقليدية أمام العرش . وكان إخناتون يبتسم ، أما نفرتيتى فتبدت جامدة عاطلة من تألقها المألوف . وابتدرنا إخناتون :

ـ ليس وراءكم خير !

فقال حور محب :

ـ جئنا من أجل خير مصر يا مولاى .

فقال بهدوء ويقين :

ـ إنى أعمل لخير مصر ولخير العالم كله .

فقال حور محب :

ـ إنى أعمل لخير مصر ولخير العالم كله .

فقال حور محب :

ـ البلاد على شفا حرب مهلكة ، ولابد من قرار حازم لتجنيبها ويلات الخراب .

فسأله الملك :

ـ هل لديكم اقتراح؟

فقال :

ـ لا مفر من إعلان الحرية للأديان، وإصدار أمر لجيش الحدود بالدفاع عن الإمبراطورية . .

فهز الملك رأسه المتوج بتاج القطرين وقال :

ـ هذا يعنى الارتداد إلى الكفر وما يحق لى أن أصدر قرارا إلا تنفيذا لإرادة إلهى الخالق الواحد .

فقال حور محب بجرأة :

ـ من حقك يا مولاى أن تحتفظ بعقيدتك، ولكن عليك فى تلك الحال أن تتنازل عن العرش . .

فقال بإصرار وعيناه تتوهجان كضوء الشمس :

ـ هيهات أن أرتكب خيانة فى حق إلهى المعبود بالتخلى عن عرشه !

وحوّل إخناتون عينيه إلىّ فشعرت بأننى أغوص فى أعماق الجحيم، ولكننى قلت :

ـ إنه السبيل الوحيد للدفاع عنك وعن عقيدتك .

فقال الملك بأسى :

ـ اذهبوا بسلام .

ولكن حور محب قال :

ـ بل نترك لك مهلة للتأمل .

وغادرت قاعة العرش مع من غادرها وأنا أعانى من وخز قلق لعله لم يفارقنى حتى اليوم . وفى أيام متقاربة تلاحقت أحداث خطيرة . هجرت نفرتيتى القصر الفرعونى واعتزلت فى قصرها شمالى أخت آتون . وقابلتها مستطلعا، ولكنها قالت لى بإيجاز غامض :

ـ لن أغادر قصرى حتى الموت .

وأبت أن تضيف كلمة إلى ذلك . أما إخناتون فقد أعلن جلوس أخيه سمنخ رع شريكا له على عرشه، غير أن كهنة طيبة بايعوا توت عنخ آمون الأخ الثانى ملكا معلنين بذلك عزلهم لسمنخ رع وإخناتون نفسه، وبدا أنه لا خيار فإما التسليم بالأمر الواقع وإما الحرب . وقابل حور محب الملك فوجده مصرّا على موقفه، وقال له :

ـ لن أخون إلهى، وهو لن يخذلنى، سأصمد فى مكانى ولو وحدى . .

فقال له حور محب :

ـ نستأذنك يا مولاى فى هجر أخت آتون والرجوع إلى طيبة، بذلك تعود الوحدة للبلاد ويختفى شبح الخراب، وأتعهد لك بأنه لن يمسك الأذى حيا أو ميتا، وما دفعنا إلى ذلك إلا الرغبة فى إنقاذ البلاد وإنقاذك .

فقال إخناتون وهو يشتعل بالإصرار والحماس :

ـ افعلوا ما بدا لكم ، لن ألومكم على ضعف إيمانكم ، ولست فى حاجة إلى حماية أحد فإلهى معى ، وهو لن يخذلنى . .

ونفذنا قرارنا فى وجوم وحزن ، وسرعان ما اقتدى بنا أهل المدينة حتى خلت من الأحياء ، إلا إخناتون فى قصره ، ونفرتيتى فى قصرها ، ونفر من الحراس والعبيد . وما لبث أن غزا المرض الجسد الذى لم يعرف الراحة مذ شب على قدميه ، فمات وحيدا ، وكان يغمغم وهو يحتضر :

يا خالق الجرثومة فى المرأة
وصانع النطفة فى الرجل
ومعطى الحياة للوليد فى بطن أمه
لا يعرف الوحدة من يذكرك
وإذا غاب عنك الوعى
صارت الأرض فى ظلمة
كأنها موات

وسكت آى ليسترد ذاته من تيار الذكريات ، ثم نظر نحوى بعطف وقال :

ـ هذه هى قصة إخناتون الذى يدعى اليوم إذا ذُكر بالمارق وتصب عليه اللعنات . ولا أستطيع أن أهون من الخسائر التى حاقت بالبلاد بسببه فقد خسرت إمبراطوريتها ومزقتها الخلافات ، ولكنى أعترف لك بأننى لا أستطيع أيضا أن أنزع من قلبى حبى له وإعجابي به ، فلندع الحكم النهائى عليه للميزان أمام عرش أوزوريس حاكم العالم الأبدى .

* * *

وغادرت قصر الحكيم آى وأنا أعتقد أن الحكم النهائى عليه هو أيضا لن يعرف إلا حين يوضع قلبه فوق كفة الميزان أمام عرش أوزوريس .

حور محب

متوسط القامة ، متين البنيان ، ذو مظهر يوحى بالقوة وصدق العزيمة ، سليل أسرة كهنوتية متوسطة بمنف غنية بمن عرف من رجالها من أطباء وكهنة وضباط ، وكان أبوه أول

من ارتفع من الأسرة إلى مستوى السادة لشغله وظيفة «رئيس الجياد» فى بلاط أمنحتب الثالث. وهو الرجل الوحيد من رجال إخناتون الذى احتفظ بوظيفته كقائد للحرس فى العهد الجديد، ووكل إليه بمهمة القضاء على الفساد فى داخل البلاد وإعادة الأمن إلى ربوعها فأحرز فى ذلك نجاحا مرموقا. وقد شهد له كاهن آمون الأكبر، وصدق على ذلك الحكيم آى، بأنه كان بطل اللحظة الحرجة فى مأساة العهد البائد. استقبلنى فى قاعة استقباله المتصلة بحديقة القصر، وأنشأ يحدثنى عن «المارق» قائلا:

ـ كان رفيق صباى، وصديقى، قبل أن يصير مليكى، ومذ عرفته وحتى الساعة التى ودعته فيها إلى الأبد لم يكن له ما يشغله فى هذه الدنيا سوى الدين.

وراح يستجمع أفكاره مليا، ثم استمر قائلا:

ـ أوليته الاحترام الذى يستحقه مذ عرفته، ذلك أنى ربيت على تقديس الواجب، وعلى وضع الشىء فى موضعه بصرف النظر عن عواطفى الشخصية، وكان هو ولى العهد وكنت أنا أحد رعاياه، فلزمنى احترامه، أما باطنى فقد احتقره، احتقرته لضعفه والأنوثة الضاربة فى وجهه وجسده، ولم أتصور أن أكون له صديقا حقيقيا، غير أن الواقع أننى صرت صديقه بكل معنى الكلمة. وإنى لأتساءل كيف كان ما كان؟ ربما لأننى عجزت عن مقاومة عواطفه الرقيقة المهذبة ذات السحر النافذ. كان ذا مقدرة عجيبة على اصطياد القلوب وأسر النفوس، ألم يهتف له الشعب وهو يدعوه إلى الكفر بآلهة الآباء والأجداد؟ وكنا ـ هو وأنا ـ على طرفى نقيض، فلم يمنع ذلك عواطفنا من أن تتجسد فى صورة صداقة متينة، صمدت للأعاصير حتى ارتطمت آخر الأمر بصخرة لا تقهر. إنى أسمعه وهو يقول لى باسما:

ـ حور محب، أيها الوحش المتعطش للدماء، إنى أحبك.

وعبثا حاولت أن أعثر على شىء مشترك بيننا. دعوته كثيرا إلى الصيد وهو رياضتى المفضلة فكان يقول لى:

ـ لا تدنس الحب الذى ينبض به قلب الوجود.

لم يكن يعجب بالزى العسكرى فكان يرمق سروالى القصير وقلنسوتى وسيفى ويتساءل متهكما:

ـ أليس عجيبا أن يدرب أناس مهذبون على القتل ليحترفوه بعد ذلك؟

حتى قلت له مرة:

ـ ترى ما رأى جدك العظيم تحتمس الثالث فيما تقول؟

فهتف:

ـ جدى العظيم! أقام عظمته على هرم من جثث المساكين، انظر إلى صورته المنقوشة

على جدار المعبد وهو يقدم القرابين من الأسرى إلى آمون، فأى جد عظيم وأى إله دموى . .

وقلت لنفسى : إنه يقبل كصديق رغم شذوذ آرائه ولكن كيف يجلس بها على العرش؟! لم أستطع قط أن أهضمه كفرعون من فراعين مصر، ولم أتحول عن رأيى هذا فى أى وقت من الأوقات، ولا أستثنى من ذلك أهنأ الأوقات، وأحفلها بالسرور، بل لعله تبدى لعينى فى تلك الأيام السعيدة أوغل فى البعد عن هيبة الفراعنة ومجدهم الخالد. وحدث أن انتدبت لتأديب بعض العصاة فى طرف من أطراف الإمبراطورية قائدا لأول مرة لحملة عسكرية. وهناك أحرزت نصرا حاسما فرجعت بالغنائم والأسرى. ونلت الجزاء تكريما نبيلا من مولاى أمنحتب الثالث. وهنأنى الأمير بسلامة العودة فدعوته لمشاهدة الأسرى. واستعرضهم وهم وقوف شبه عرايا يرسفون فى الأغلال. رنا إليهم طويلا فنظروا نحوه مستعطفين كأنما لمسوا الضعف فى أعماق نظرته. وأظلت وجهه غمامة كآبة، وقال لهم برقة :

ـ اطمئنوا فلن يمسكم أذى!

وهاج خاطرى؛ لأننى كنت على يقين من أنهم سيلقون ألوانا من التأديب حتى يتعودوا على النظام والعمل. ولما رجعنا معا سألنى باسما :

ـ أأنت فخور بما صنعت يا حور محب؟

فقلت بصراحة :

ـ إنى أستحق ذلك أيها الأمير.

فتمتم فى غموض :

ـ يا لها من مشكلة!

ثم ضحك قائلا فى دعابة :

ـ ما أنت إلا قاطع طريق يا حور محب!

ذلك كان ولى العهد المرشح للجلوس على العرش. على ذلك فقد شدنى إلى صداقته وحبه، وأغرانى دائما بمتابعة أفكاره التى لم أتأثر بها قط، كمن يتابع صوتا غريبا لا ينتمى للبشر. ومازلت حتى الساعة أتساءل فى حيرة : كيف صادقته وكيف أحببته؟! وبهذه المناسبة أذكر مناقشة دينية جرت بيننا أمام خلوته بحديقة القصر الملكى. سألنى :

ـ لماذا تصلى يا حور محب فى معبد آمون؟

فأُخذت للسؤال، خاصة وأننى لم أملك إجابة ترضيه أو ترضينى. ولما وجدنى صامتا سألنى :

ـ هل تؤمن حقًّا بآمون وما يقال عنه؟

فتفكرت قليلا، ثم قلت:

ـ لا كما يؤمن الناس به!

فقال بجدية:

ـ إيمان أو لا إيمان، ولا ثالث بينهما.

فقلت بصراحة:

ـ لا أهتم بالدين إلا باعتباره من تقاليد مصر الراسخة.

فقال بثقة مثيرة:

ـ إنك تعبد ذاتك يا حور محب.

فقلت بتحد:

ـ قل إنى أعبد مصر.

ـ ألم يساورك إغراء لمعرفة سر الوجود؟

فقلت بمرارة:

ـ إنى أعرف كيف أمحق هذا الإغراء.

ـ يا للخسارة! وماذا فعلت من أجل روحك؟

فقلت متبرما بالمطاردة:

ـ إنى أقدس الواجب، وقد شيدت لى مقبرة!

فقال متنهدا:

ـ أتمنى يوما أن تذوق سرور القرب.

فتساءلت فى دهشة:

ـ القرب؟!

ـ القرب من خالق الوجود الواحد.

فتساءلت فى شيء من الاستهانة:

ـ ولم يكون واحدا؟

فقال بهدوء:

ـ إنه أقوى وأجل من أن يوجد شريك له.

ذلك الشاب المهزول، الذى يتجنب القصر ويهيم بالحديقة. المولع بالأزهار والغناء والطيور مثل فتاة مهذبة. لم لم يخلق أنثى؟ لقد همت الطبيعة بأن تفعل ذلك، ولكنها عدلت عنه فى اللحظة الأخيرة لسوء حظ مصر.

وسكت حور محب وقتا، ثم واصل الحديث:

ـ وتوكد مصيره بزواجه من نفرتيتى. ظهرت لأول مرة فى القصر الفرعونى فى الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على جلوس الملك على العرش فبهرت الأعين بجمالها وشخصيتها، واشتركت فى الرقص مع بنات السادة، وغنت بصوت رخيم:

أخى ما أحلى الذهاب إلى البحيرة

والاغتسال على مرأى منك

لترى جمالى فى ثوبى الكتانى الرقيق

حينما يبتل ويلتصق بجسدى

تعال وانظر إلىّ

ولا أشك فى أن آى وتى زوجته أحسنا تقديم كريمتهما، ومهدا لها الطريق إلى العرش. ولا تنس أن آى كان معلم الأمير ومرشده فلاحت له ولا شك الفرص للتأثير فى شخصية ضعيفة متهالكة وإيقاعها فى الشرك. على أى حال فازت نفرتيتى فى الحفل بإعجاب الأمير وأمه الملكة تيى معا. وسرعان ما زفت نفرتيتى إلى الأمير. وأذكر أن كاهن آمون قال لى فى حفل الزفاف:

ـ لعل الزواج يصلح ما أفسده تهور الشباب.

فقلت له ببرود:

ـ إنها كما ترى من أصل شعبى، وما كانت تحلم بالعرش، ولن تجازف أبدا بإغضاب زوجها الملك!

وقد ساءلت نفسى: ترى أكانت نفرتيتى ترضى بالأمير زوجا لو لم يكن وليا للعهد؟! الحق أنه لا يمكن أن يكون فارس أحلام أى فتاة ولو كانت فلاحة ساذجة. وقد ازداد الأمير بعد الزواج تحديا للتقاليد. وعلمت متأخرا بعض الوقت بادعاءاته الغريبة عن تجلى إلهه له وسماع صوته، ورأيت المستقبل يتسربل بليل بهيم. وبازدياد التوتر غضب الملك أمنحتب الثالث وأمر بإرساله لزيارة الإمبراطورية.

* * *

هنا حدثنى بإسهاب عن مناقشاته الدينية، واتصاله بالرعايا وتبشيره بالمساواة والحب والدين الجديد دون إضافة جديدة إلى ما حدثنى به الحكيم آى.

* * *

وقال معلقا على الأحداث:

ـ ولأول مرة، ورغم الصداقة والولاء، تمنيت أن أقتله بسيفى قبل أن يجلب علينا

الخراب . والحق أنى تمنيت قتله دون أن أضمر له أى شعور بالكراهية . ومات أمنحتب الثالث واستدعى الأمير للجلوس على عرش تحتمس الثالث . وتولى العرش ودعا الرجال واحدا فى إثر واحد ليعرض عليهم دينه . ولما جاء دورى قال لى :

ـ لا بد من إعلان الإيمان بالإله الواحد لمن شاء أن يتعاون معى يا حور محب .

وبصراحتى المعهودة قلت له :

ـ مولاى ، موقفى من الآلهة معروف لديكم ، ولكنى رجل الواجب وخادم العرش ، وإنى أعلن إيمانى بالإله الواحد؛ إخلاصا لعرشك ، وخدمة لوطنى . .

قال باسما :

ـ حسبى ذلك الآن ، لا أحب أن يخلو قصرى منك يا حور محب ، وسوف تتلقى رحمة الإيمان ذات يوم .

وبدأت حياة جديدة فى خدمة ملك جديد وإله جديد ، وبإخلاص كامل غريب لأنه استند إلى الإيمان بالواجب وحده دون غيره . ولكن لا مفر من الاعتراف بأن الملك تكشف عن قوى خفية لم أعرفها فيه من قبل . رغم الضعف الجسدى والأنوثة الخلقية انطلقت منه عزيمة متحدية مثل ألسنة اللهب لا تدرى من أى مجهول استعارها ، ناضل بها أقوى الرجال وهم الكهنة ، وحطم بها التقاليد العريقة الراسخة والسحر والتعاويذ . وتكشفت نفرتيتى عن ملكة كأنما لم تخلق إلا كى تكون ملكة عظمى مثل : تيى وحتشبسوت ، فكانت هى المدبرة لشئون الملك على حين تفرغ هو لرسالته . بيد أنها بدت لى ـ وللجميع ـ مؤمنة بالدين الجديد إيمانا فاق للأسف كل تصور . والحق لقد قيل عن هذه المرأة كل ما يمكن أن يقال ، وأنا أكره شخصيا ترديد ما يقال عن الأمور الشخصية ، ومع ذلك فإن إيمانها يبقى لغزا يطلب حلا . أحيانا لم أشك فى صدقها ، وأحيانا أخرى ساورتنى شكوك . هل تتظاهر بالإيمان محافظة على مركزها الرفيع؟هل تشجعه عليه لتستأثر وحدها بشئون الأرض والرعايا؟ أكان لأبيها فى ذلك دور خفى لعبه بيد ابنته؟ وقد حاول الكهنة أن يبصروها بالعواقب ، ولكنها خيبت رجاءهم فصبوا عليها مقتهم حتى هذه الساعة . إنهم آمنوا بضعف إخناتون ولم يتصوروا به قدرة على التحدى أو النضال أو الابتكار . من أجل ذلك اتهموا أمه تيى بأنها خالقة أفكاره كما اتهموا نفرتيتى بأنها سر عناده وصلابته . وهى صورة خاطئة . لك أن تدين الجميع ولكن لا شك فى أن جميع الخزعبلات قد خرجت من رأس إخناتون نفسه . وبالانتقال إلى العاصمة الجديدة أخت آتون أعلن الملك حربه على جميع الآلهة . وانغمس فى التبشير لدينه فى جميع الأقاليم . وهادنتنا أيام نصر وسعادة ورخاء حتى خيل إلىّ أن هذا الشاب المتهافت قد

قيض له أن يقوض بنيان الدنيا وأنه يعيد بناءه من جديد على مثال من صنعه وتخطيطه. تابعت غزواته للأقاليم واستقبال الجموع له بانبهار. آنست فى الجو قوة من نوع جديد تمارس بجدارة مذهلة. ولكننى لم أخل قط من شك فى العالم الجديد الذى يتخلق فيما يشبه الاكتساح. أيصمد هذا العالم للزمن؟! هل يمكن أن تتوازن الأمور على سنة الحب والسلام والسرور؟! وأين تذهب حقائق الحياة وتجاربها؟ وقالت لى نفرتيتى مرة وهى قارئة للأفكار:

ـ إنه ملهم، ولن يخذله إلهه الذى أغدق عليه حبه، وسيكون النصر لنا..

وانفردت يوما بالوزير ناخت فى مجلس صفو وشراب، وكنت ومازلت مؤمنا بمقدرته السياسية، فسألته:

ـ أتؤمن حقّا بالإله الواحد، إله الحب والسلام؟

فقال بهدوء:

ـ نعم، ولكنى لست مع مصادرة الآلهة الأخرى.

فقلت بارتياح:

ـ حل وسط، ألم تشر عليه به؟

ـ بلى، ولكنه يعتبره كفرا.

ـ ونفرتيتى؟

فقال بأسف:

ـ إنها تتكلم بلغته!

* * *

ومضى يحكى لى فى إسهاب كيف انقلبت الأمور فى الداخل والخارج دون إضافة جديدة لما قاله الكاهن الأكبر لآمون أو الحكيم آى.

* * *

ثم قال:

ـ وعند ذلك نصحته قائلا: «علينا أن نغير من سياستنا»، ولكنه كان يتصدى لأى خطوة توحى بالتراجع، وينتشى بالحماس، فقال لى:

ـ يجب المضى فى المعركة الإلهية حتى نهايتها. ولن يكون لها إلا نهاية واحدة هى النصر!

وربّت منكبى بعطف، ثم واصل:

ـ لا تشارك التعساء إصرارهم على حب التعاسة!

ولما ازدادت الحال سوءا تمنيت مرة أخرى أن أقتله بسيفى وأنقذ البلاد من جنونه. تمنيت أن أقتله باسم الحب والولاء. وتبين لى أن ما حسبته قوة جبارة تنطلق من أعماق هيكله الضعيف ما هى إلا جنون أهوج يجب حصره وشكمه. وعند ذروة الأزمة زارتنا الملكة الوالدة تيى، واستدعتنى إلى لقاء بقصرها جنوب أخت آتون. وقالت لى:

ـ سيكون لى حديث طويل مع الملك.

فقلت لها بكل إخلاص:

ـ لعلك توفقين فيما فشلنا فيه.

فرمقتنى بنظرة كنت خبيرا بعمقها، وسألتنى:

ـ هل دفعتك الأحداث إلى مصارحته برأى جديد فى الموقف؟

فأجبتها من فورى لسابق علمى بتأويلاتها للتردد الذى قد يسبق الإجابة:

ـ اقترحت يا مولاتى تغيير السياسة فى الداخل والخارج.

فقال بارتياح:

ـ هذا ما ينتظر من المخلصين أمثالك.

ـ إنه مليكى وصديقى كما تعلمين يا مولاتى..

فواجهتنى بنظرة صريحة وسألتنى:

ـ هل تعدنى يا حور محب بالمحافظة على الولاء له فى جميع الظروف والأحوال؟

فقلت وعقلى يعمل بسرعة فائقة:

ـ أعدك بالولاء له مهما تكن الظروف والأحوال.

فقالت بارتياح غير خاف:

ـ إنهم يطالبون برأسه، وإنك رجل القوة التى تحافظ عليه، وربما سعوا إلى استقطابك عاجلا أو آجلا.

فكررت وعدى بالصدق والإخلاص. وقد حافظت على عهدى عندما اقتنعت بأن خير وسيلة للدفاع عنه هى التخلى عنه. وفشلت تيى فى مسعاها رغم ما عرف عنها من سيطرة كاملة عليه. وغادرت أخت آتون لتموت فى حسرة أبدية. وضُيّق الخناق علينا فى مدينة الإله الجديد، وتوكد لدى أن الإله الجديد عاجز عن الدفاع عن نفسه فضلا عن محبوبه المختار. وذقنا الحرمان وتهددنا الموت من الشمال والجنوب. ولم يضعف ذلك من مقاومته بل لعله زاده إصرارا وعنادا، ولم تنطفئ نشوته الدينية فكان يقول لمحدثه:

ـ لن يخذلنى إلهى يا ضعيف الإيمان.

وكلما رأيت وجهه المتألق بالنشوة والثقة أيقنت أكثر وأكثر من جنونه. لم تكن معركة

دينية كما تجرى فى الظاهر، ولكنها كانت فوضى جنونية تحتدم فى رأس رجل ولد فى هالة من الشذوذ. ثم كانت زيارة كاهن آمون لنا وتوجيه إنذاره الأخير إلينا، وقد قبض على يدى بقوة وقال لى:

ـ إنك رجل الواجب والقوة يا حور محب فأنقذ ضميرك بفعل ما يرجى منك.

والحق أنى أكبرت فى الرجل ارتفاعه عن التشفى والانتقام وسعيه إلى تجنيب البلاد ويلات المزيد من الخراب. وطلبنا المقابلة. كانت عسيرة وأليمة وحزينة. كنا ننفض عنا الولاء نحو الرجل الذى لم يكن لشىء سوى الحب. الذى صور له جنونه حلما عجيبا أراد لنا أن نشاركه فى سعادته الوهمية. واقترحت عليه إعلان حرية الأديان والدفاع الفورى عن الإمبراطورية. ولما رفض اقترحت عليه أن يتخلى عن العرش ويتفرغ لنشر دينه. وغادرناه ليعيد النظر فى الموقف كله. وقد أشرك سمنخ رع فى عرشه على حين هجرته نفرتيتى، ولكنه لم يتراجع خطوة عن إصراره. وقررنا التخلى عنه والانضمام إلى الجانب الآخر لتعود الوحدة للوطن، بعد الاتفاق على ألا يتعرض له أحد ـ ولا لزوجه ـ بأذى. وأقسمت يمين الولاء للملك الجديد توت عنخ آمون فأسدل الظلام على أكبر مأساة تقطع لها قلب مصر، فانظر إلى ما صنع الجنون بمجد أرض مجيدة عريقة!

وشملنا صمت الختام فأخذت أنسق أوراقى تأهبا للذهاب. غير أننى سألته:

ـ وكيف تفسر هجر نفرتيتى له؟

فأجاب دون تردد:

ـ لقد أدركت ولا شك أن جنونه جاوز خط الأمان فهجرت قصره محافظة على حياتها!

ـ ولم لَمْ تهجر المدينة معكم؟

فقال بازدراء:

ـ كانت على يقين من أن الكهنة يعتبرونها الفاعل الأصلى فى الجريمة الكبرى!

فسألته وأنا أحييه مودعا:

ـ وكيف مات؟

ـ عجز ضعفه عن احتمال الهزيمة، واهتز إيمانه ولا شك بتخلى إلهه عنه، فمرض أياما قليلة ثم مات.

فسألته بعد شىء من التردد:

ـ كيف تلقيت خبر موته يا سيدى القائد؟

فأجابنى متجهما:

ـ لقد قلت كل شىء!

بــــــك

يعيش المثال بك فى جزيرة نيلية على مبعدة ميلين جنوبى طيبة . فى بيت أنيق صغير يقع فى وسط مزرعته الصغيرة ، وفى شبه عزلة . ورغم ما يشهد له به من تفوق فى فنه إلا أنه لم يدع للمشاركة فى بناء الدولة الجديدة لما عُرف عنه من ولاء لسيده السابق ، بل ولما يتهم به أحيانا من الكفر بالآلهة القديمة . وهو اليوم يشارف الأربعين من عمره ، طويل القامة نحيلها مع قوة ونشاط ، ذو سمرة داكنة ونظرة ساخنة تغشاها كآبة . تبسم وهو يقرأ رسالة أبى ، ثم نظر إلىّ قائلا :

ـ انطفأت روح الجمال بذهابه وغاض السرور من الألوان والنغم !

وقد عرفته وأنا صبى أتلقى أصول الصنعة فى مدرسة أبى «من» المثال الأكبر للملك أمنحتب الثالث . فذات يوم زارنا صبى محمولا على محفة ، فهمس أبى فى أذنى :

ـ ولى العهد !

رأيت صبيا يماثلنى فى العمر ، نحيلا ضعيفا ، ذا نظرة شديدة التأثير ، بسيطا بشوشا ، مغرما بلغة الأحجار المعجزة . جاء ليشاهد ويتعلم ، ويحاور فى ألفة محببة سرعان ما تنسيك أنك تحادث ابنا من سلالة الآلهة . واظب على زيارتنا فى أيام معينة فنشأت بينه وبينى صداقة ، باركها أبى فخورا وسعدت بها أنا غاية السعادة . وجعل أبى يقول لى عنه :

ـ إنه رجل ناضج ذو سن صغيرة يا بك !

أجل كان كذلك . حتى كاهن آمون الأكبر اعترف له بنضجه المبكر وإن فسره على هواه بأنه قوة شريرة حلت فيه . كلا يا سيدى . القوة الشريرة معششة فى قلوب الكهنة . أما سيدى ومولاى فلم يعرف الشرقلبه وربما كان ذلك سر مأساته . ولما تقدم به العمر سنوات أخذ يناقش أبى وهو مكب على صنع تمثال لأمنحتب الثالث . قال له وهو يتابع العمل بين أبى ومعاونيه :

ـ لكم تقاليد يا معلم تخنق الأنفاس . .

فقال أبى بفخار :

ـ بالتقاليد نقهر الزمن أيها الأمير .

فهتف مولاى بنشوة :

ـ مع مولد كل شمس يولد جمال جديد . .

واقترب منى وهمس :

ـ يا بك ، لن يكون هذا تمثالا أمينا لأبى ، أين الحقيقة؟!

الحقيقة التى عاش من أجلها ومات فى سبيلها . منذ وقت مبكر انثالت على روحه إلهامات الغيب ، كأنما خرجت معه إلى الوجود ساعة وجد دفقة من أنوارها .

ويوما ما قال لى :

ـ إنى أحبك يا بك ، أتقن درسك لتكون رجلى فى حقل الإبداع .

الحق يا سيدى أننى مدين لمولاى وسيدى بكل شىء ، بالدين والفن معا . إنه الذى وجه مداركى لدين آتون ، وفتح قلبى بعد ذلك للإله الخالق الواحد الذى تجلى له صوته بالإيمان والحب :

تضىء الأرض بنورك

فتنجلى عنها الظلمات

يا خالق الأرض والسماء

والإنسان والأنعام

وغمرنى السلام فقلت له ونحن وحيدان بين المحجر والمدرسة :

ـ أشهد يا أميرى ، أننى مؤمن بإلهك . .

فقال بحبور :

ـ إنك ثانى المؤمنين بعد مرى رع ، ولكن ما أكثر الأعداء يا بك!

وعلمت فيما بعد أن نفرتيتى آمنت معنا فى وقت واحد وهى فى قصر أبيها آى . وكان يحدثنى فى أوقات متباعدة عما يلقى من عناء بسبب رسالته فكنت ألم بشذرات من الأحداث رغم عزلتى فى المحجر خارج طيبة . وهدانى إلى الفن الحقيقى أيضا . فإن كان أبى هو الذى علمنى الأصول فمولاى هو الذى وهبنى الروح . لقد وهب ذاته للحقيقة فى الوجود والفن . من أجل ذلك أنكره الرجال الذين يعيشون للدنيا ولا يحسنون إلا لغتها المتبذلة ، ويقبلون معها ويدبرون معها ، ويهرعون إلى أى مائدة مثل الصقور والغربان . مولاى نوع آخر ، اسمع إليه وهو يناجى إلهه قائلا :

ـ يا خالق الحى والجماد ، خص بصرى بنورك ، وصدرى بسرورك ، وقلبى بنبضك الكونى العذب .

وأصغ إليه وهو يقول لى :

ـ احذر تعاليم الفن التى يريد أن يكبلنا بها الأموات ، اجعل حجرك مثوى للحقيقة!

ويقول لى أيضا :

ـ لقد خلق الإله الأشياء فلا تعبث بها، انقلها بأمانة، أبرزها بتقوى، لا تسلط عليها الخوف أو الشهوة أو الأمانى الكاذبة، اعكس كل ما بى من نقص فى الوجه والجسد ليتجلى جمالك فى الحقيقة!

ذلك هو مولاى وأستاذى الذى لا يعيد نغمة قديمة، الذى يبهر بالجديد الحى، محطم الأوثان، مقتلع التقاليد البالية من جذورها، السابح فى بحر المجهول، المنغمس فى نشوة الحقيقة. ويوم اعتلى العرش أعلنت إيمانى مرة أخرى بين يديه وتقلدت وظيفة «المثال الأكبر للملك». ويوم أمره الإله بالهجرة إلى المدينة الجديدة، ذهبت على رأس ثمانين ألفا من العمال وأهل الصنعة لنشيد أجمل مدينة عرفتها الأرض، مدينة النور والإيمان، أخت آتون. ذات الشوارع العريضة والقصور السامقة والحدائق الغناء والبحيرات المترعة، آية آيات الفن والجمال التى انقض الحقد عليها فوقعت فريسة الكهنة والزمن.

وسكت مرغما ليجتر حزنه المقيم على رائعة حياته التى تتهاوى ساعة بعد أخرى، وتتفتت لتضيع فى زحمة تراب الأرض. واحترمت سكوته حتى خرج منه قائلا:

ـ وكان لمولاى إنجازه فى الفن أيضا فأبدع شعرا ورسما، وجرب أصابعه الطويلة الرشيقة فى مناجاة الحجر، وإليك سرا لا يعرفه إلا الأقلون، فقد نحت لنفرتيتى تمثالا نصفيا آية فى الحقيقة والجمال، لعله يوجد الآن فى القصر المهجور أو فى قصر نفرتيتى، إن لم تكن انتقمت منه يد التخريب، وعندما هجرته الملكة بغتة مخلفة فى قلبه طعنة لا تندمل طمس عين التمثال اليسرى، معربا بذلك عن خيبة أمله مع الإبقاء على بقية التمثال رمزا لحب خالد، وإيمان راسخ لم يتزعزع إلا فى لحظة يأس أخيرة. لقد كانا معا الرمز الحى للإله الذى هو أب وأم معا، وكان اتحادهما عن حب جليل ثبت أمام عواصف الزمن والأحداث، فكيف دهمتنا بهجر الرجل فى اللحظة الأخيرة؟! لم لَمْ تبق إلى جانبه حتى النهاية؟ لقد اتهمها أعداؤها بأنها هربت من السفينة الغارقة لتجد مكانا مناسبا فى الدولة الجديدة، ولكنها لم تخطب مودة أحد، ولزمت قصرها بمحض مشيئتها قبل أن يتحول إلى سجن. كلا، لا تنتمى مولاتى إلى الانتهازيين، ولكنى أعتقد أن إيمانها اهتز لموقف الإله اللا مبالى من الأحداث، فهجرت العرش والعقيدة فى ساعة يأس سوداء. أما مولاى فلم يتزحزح عن إصراره قيد حبة رمل. كيف لا وهو الذى تجلى الإله لروحه وأسمعه صوته ودعاه بابنه الحبيب؟! لم يعد وجدانه يتسع لسماع صوت آخر، ولم يعد يكترث لرأى أو نصيحة كما ينبغى لمنغمس فى الحقيقة. وهو لم ينهزم، ولكننا نحن الذين انهزمنا، فحتى أنا خامرتنى شكوك، خاصة بعد مطالبته بالتنازل عن العرش، وأكثر عندما قرر الجميع التخلى عنه. وجدته واقفا فى خلوته يرقب ما يحدث بعينين طافحتين بالهدوء والصمت. ولما رآنى قال:

ـ سوف تذهب معهم يا بك .

فقلت بغضب :

ـ لم يجرؤ أحد على مخاطبتى فى ذلك يا مولاى .

فقال باسما :

ـ ولكنك ستذهب يا بك .

فقلت بحماس :

ـ سأبقى إلى جانب مولاى إلى الأبد .

فقال برقة :

ـ ستذهب مختارا أو مكرها . .

ولذت بالصمت فخامرنى الشك من جديد ، فسألته :

ـ مولاى ، أيمكن أن ينتصر الشر ؟

فرأيته يغيب ثم يرجع ليقول لى :

ـ الخير لا ينهزم ، والشر لا ينتصر ، ولكننا لا نشهد من الزمان إلا اللحظة العابرة ، والعجز والموت يحولان بيننا وبين رؤية الحقيقة . وراح يترنم بصوت عذب :

إنـــك فـــى قـــلـــبـــى

وليس هناك من يعــرفـك غـــيــر ابنك

فـــأنـت الـذى عـلـمــتـــه

والأرض فى قـــبـــضـــة يـدك

وكما أنه لم يتخل عن إيمانه لحظة فلم يفرط قط فى ناموسه الأسمى وهو الحب . فحتى فى تلك الساعة التى رأى فيها الهرم الذى شيده يتهاوى حجرا فى إثر حجر ، ورجاله ينضمون إلى أعدائه ، وزوجته المحبوبة تهجره دون كلمة وداع ، حتى فى تلك الساعة المنحوسة لم يعرف قلبه الكراهية أو الحقد ، ذلك الرجل الذى ترفع حتى عن العقاب المشروع ، الذى هام بالإنسان والحيوان والجماد . انظر يا سيدى ، لقد تولى الملك فى عصر الرخاء ، دانت له إمبراطورية مترامية وشعب محب مطيع ، ولو شاء أن ينعم بالسعادة والجلال والنساء والراحة لما عزت عليه ، ولكنه أعرض عن ذلك كله ، واهبا ذاته للحقيقة ، متحديا قوى الشر والأنانية والطمع ، فضحى بكل شىء وهو يبتسم . وقد سألته يوما بعد أن ذرّت قرون الشر والهمجية :

ـ مولاى ، لِمَ لا تلجأ إلى القوة دفاعا عن الحب والسلام ؟

فقال لى باسما :

لا يتردد المجرمون عن انتحال الأعذار لإشباع الرغبة الآثمة فى البطش وسفك الدماء، ولست منهم يا بك.

ولن أنسى عطفه على شخصى حينما آنس منى ميلا إلى «موت نجمت» أخت زوجته فسعى إلى تزويجى منها، وكيف واسانى عندما أبت الزواج منى قائلا:

- إنها مثل الحدأة تنتظر فرصتها!

واستفسرت عما يعنيه قوله ولكنه لم يزد. وقد صممت على البقاء بجانبه رغم فزع المدينة كلها للهجرة، ووجدت رفيقا مصمما فى كاهن الإله الواحد مرى رع، ولكن الحكيم آى قابلنى وقال لى:

- إننا نهاجر لصد هجوم لا قبل لنا به دفاعا عن حياته، ولو جاز لإنسان أن يبقى إلى جانبه لكنت ذلك الإنسان، فإنى حموه ومعلمه!

فقلت:

- أيها الحكيم، إن بقائى لن يغير من الأمر شيئا.

فقال:

- ينص الاتفاق بيننا وبين الكهنة على ألا يمس الملك بأذى تحت شرط ألا يبقى أحد من أتباعه فى المدينة سوى نفر من الخدم.

هكذا اضطررت إلى الانضمام إلى القافلة وقلبى يتمزق، وما زال يتمزق حتى الساعة. وما زال الشك ينخر فى إيمانى رغم قول مولاى الحكيم، فأحيانا أصلى للإله وأحيانا أضرب عن الصلاة. ولما بلغنى نبأ وفاته تجددت أحزانى وبكيت حتى صفيت ماء عينى. وقد حدثنى قلبى بأنه لم يمت، ولكنهم قتلوه بالسحر أو بوسيلة غادرة. وهأنذا أعيش بلا هدف أو سرور فى انتظار الموت مثل مدينتى الرائعة الواقعة تحت رحمة الكهنة والزمن.

تادوخيبا

هى فى الأصل ابنة توشراتا ملك ميتانى أصدق صديق للعرش المصرى. تزوج منها أمنحتب الثالث فى أيامه الأخيرة، وهو فى الستين وهى فى الخامسة عشرة، ثم ورثها إخناتون ضمن حريم أبيه عند اعتلائه العرش. وهى تعيش اليوم فى قصر بشمال طيبة مع ثلاثمائة من العبيد. وقد استقبلتنى بناء على توصية من حور محب. فى الحلقة الرابعة ذات جمال مثير وكبرياء وعظمة. ولقيتها فى حجرة فاخرة وهى تجلس على كرسى من الأبنوس المطعم بالذهب. شجعتنى بابتسامة وراحت تروى قصتها قائلة:

ـ عاشرت الملك أمنحتب الثالث فترة قصيرة، فى جو مشحون بالغيرة والحقد. وعجبت للملكة العظمى تيى، كيف تبوأت مركزها الرفيع، على حين يوجد عشرات مثلها ممن يقمن بالخدمة فى حريم أبى الملك العظيم توشراتا. وعجبت أكثر لمنظر ولى العهد الذى كنت أراه فى الحديقة، أى مخلوق هزيل قبيح يثير الاحتقار أكثر مما يثير العطف. وساءت صحة الملك الأب فاتهمنى الحاقدون بأننى المسئولة عن ذلك، والحق أنى قرأت النهاية القريبة فى صفحة وجهه المتغضن منذ الليلة الأولى. ورحت أفكر هل يرثنى قريبا ذاك الصبى الحقير؟! وقلت لنفسى: إن الحياة مع أبيه العجوز أفضل، فهو عظيم ومرح وذوحيوية تناقض سنه وصحته. وكثيرا ما كان الحديث يدور حول ولى العهد فى الحريم، فنتندر بولعه بالفنون النسائية كالرسم والغناء وعدم لياقته الواضحة للعرش، وزهده المريب فى النساء. ووافتنا أخباره عن هوسه الدينى وما يحدثه ذلك من متاعب لوالديه وما أثاره بين الكهنة من قلق ومخاوف. وكانت الأخبار تطوف بنا دون أن تنغرز فى وجداننا، فهموم النساء اليومية تغطى على شئون الدولة، إلا موت الملك الذى هز الأعماق وفرض علينا طقوسا لا طاقة لنا بها. واعتلى المخلوق الحقير العرش هو ونفرتيتى التى تزوجها فى حياة أبيه، وآل إليه حريم أبيه. وأسبغ علينا رعايته كأننا حيوانات مستأنسة، ولكنه لم يقترب منا حتى شاع بين النساء الآتيات من شتى الأمم الانحلال والشذوذ. وتساءلت امرأة:

ـ لماذا لا يهتم بنا ويكف عن معاركه الدينية الوبيلة؟

فأجابتها أخرى:

ـ لو كان يستطيع ما شغل نفسه بذاك الهراء..

ومع ذلك فقد دبت الغيرة فى قلب نفرتيتى، فقررت أن تزور الحريم للتحية والتعارف. وخمنت كل امرأة الباعث الحقيقى وراء الزيارة وهو أن ترانى أنا عن قرب، وذلك لما ذاع فى القصر عن جمالى وشبابى. كنت الوحيدة التى تماثلها فى العمر، وتنافسها فى الجمال، وتتفوق عليها فى الأصل إذ إننى كريمة ملك على حين أنها ابنة رجل من الشعب يدعى آى، كان أول من أعلن إيمانه بالدين الجديد أمام الملك، وأول من بادر إلى الانضمام إلى أعدائه عندما آذنت شمسه بالغروب. جاءتنا الملكة الجديدة بين صفين من الجوارى، وحيتنا امرأة امرأة تبعا لأقدميتنا فى الحريم، وعندما جاء دورى ـ وكان الأخير ـ ثقبتنى بنظرة مستطلعة فمثلت أمامها فى أدب وتحد معا، حتى يتجلى الركود فى ماء وجهها. من أجل ذلك حنقت على الملكة الوالدة تيى عندما نبهت ابنها الملك الهزيل إلى «واجبه» نحو حريمه، وخاصة تادوخيبا ابنة الملك الصديق توشراتا.

لم تغفر لها تدخلها، واشتعلت غضبا حينما أذعن الملك لإرادة أمه المحبوبة فقرر زيارتى. وكما تقضى التقاليد انتظرته فى حجرتى فوق سريرى المطعم بالذهب، عارية تماما، غير مخفية حسنا من محاسنى. وأقبل شبه عار إلا من وزرة قصيرة تطوق وسطه، فجلس على طرف السرير باسما فى رقة مجللا بهدوء غير طبيعى. وهمس متسائلا:

ـ أيسعدك أن تنجبى لى وليدا؟

فقلت وأنا أغالب تقززى:

ـ إنه الواجب يا مولاى!

فحارت فى عينيه نظرة بائسة وهمس:

ـ إنى أبحث عن الحب فهو واجبى الأول والأخير.

فسألته بجرأة:

ـ وهل ترغب فىّ عن حب يا مولاى؟

فربّت ظهر يدى بعطف وقال:

ـ لا عليك!

ولثم جبينى ثم غادر الغرفة كما جاء. ولم أبح بسر الليلة لأحد فظن النساء أن نفرتيتى قد خسرت نصف قلب الملك على الأقل. وكرت الأيام فلفحتنا نيران الأفئدة المضطرمة فى الخارج حتى صدر القرار ببناء مدينة جديدة. وبعد سنوات انتقلنا إلى أخت آتون، وسعد جميع من حولنا، ونبذنا فى جناح لممارسة حياة غير محتملة مهينة، دافعة للشذوذ، ولما عُرف أن الملك الأبله يعالج الخطايا بالحب لا العقاب، انتشر الفسق بين الجنود والنساء، وأهدرت جميع القيم. وراح الملك ينشر دينه الجديد فى الأقاليم، واستبقت النساء إلى الصلاة للإله الواحد بغير إيمان حقيقى، حتى خُيِّل إلىّ أنه دين بلا مؤمنين، وأنه كوَّن أمة من المنافقين والطموحين إلى المناصب والجاه والمال. ولم أتصور أن يكون لهذا الكون الكبير إله واحد! إن كل مدينة فى حاجة إلى إله يعنى بشئونها، وكل نشاط إنسانى فى حاجة إلى إله متمرس فيه. وكيف تقوم المعاملة بين الناس على الحب؟ إنه هذيان طفل لم تحسن تربيته وأفسده ولع أمه به. وكان يلقى على الجموع شعره ثم تترنم زوجته بإنشادها، فحل محل العرش المعبود فرقة جوالة من الشعراء والمطربين، وتلاشت هيبة الفراعنة. وكان لا بد أن يقع ما وقع، فجاءت الأحزان مثل ليل طويل لا يؤذن بفجر، وتتابعت المصائب فى داخل البلاد كما فى الإمبراطورية، وصمد أبى الشجاع المخلص وحده وهو يبعث الرسل فى طلب النجدة حتى سقط مدرجا بدمه فى الميدان دفاعا عن ملك أبله. وأحسن أناس الظن به فحسبوه شاعرا نبيلا أخطأ القدر بإجلاسه فوق العرش. أما الحقيقة فهى أنه كان مخلوقا غريبا، لا هو ذكر ولا هو

أنثى، يؤرقه الشعور بالنقص والهوان، فجر الناس إلى الهوان، وأعلن شعار الحب، ولكنه أشعل في القلوب البغضاء والحقد والفساد، فمزق وطنه وضيع إمبراطوريته. وجارته في جنونه المرأة الداهية نفرتيتي لتستأثر بالسلطة، ولتشبع غريزتها الفاجرة بين أحضان الرجال. وقد أقنعت الجميع بأنها وزوجها يشكلان أجمل صورة للحب والوفاء، كانا يتبادلان القبل أمام الجموع في شوارع أخت آتون وفي لقاءات الأقاليم. والحق الذي يؤمن به نساء القصر كافة أنه لم تقم بينهما علاقة زوجية على الإطلاق، وما كان بوسعه أن يقيمها، ومارست حبها متعدد النزوات مع المثال بك والقائد حور محب والقائد ماي وغيرهم، ومنهم أنجبت بناتها الست. بل قد تهامس بعض الجواري بأنه لم يمارس علاقة جنسية إلا مع أمه الملكة تيي!

ولاذت بالصمت وهي تلاحظ ما ارتسم في وجهي من آي الذهول، ثم واصلت:

ـ وعرف بيننا ذلك كحقيقة لا شك فيها، وعرف أيضا أنه أنجب منها بنتا، إنه لم يستطع الجنس مع غيرها، وشهدت أكثر من جارية بأنها رأت الفعل رؤية العين، ولم يغب ذلك عن نفرتيتي، وبسببه تبادلت المرأتان كراهية مريرة على مدى العمر. المشكلة أن كثيرين لا يتصورون أن الرجل الذي زلزل الدنيا يمكن أن يتمخض عن كائن هزيل تافه لا وزن له. لكنها الحقيقة التي يجب أن تعرف وأن تسجل. ولولا أنه كان الوريث لأعظم أسرة في التاريخ لمضى فردا حقيرا في أزقة طيبة يتدفق ريق العته من فيه وتعبث به الصبيان، ولا غرابة أن يستطيع معتوه ـ إذا جلس على العرش ـ أن يخرب إمبراطورية! ولولا أن نفرتيتي راقت في عينيه لما كانت إلا عاهرة من عاهرات طيبة المحترفات.

وقبيل النهاية بقليل زارت الملكة الأم أخت آتون لإنقاذ السفينة الموشكة على الغرق، ولكن النقاش احتد بينها وبين نفرتيتي، ولم تتورع الملكة الشابة عن اتهام العجوز بأنها متواطئة مع أعداء العرش، ولكن إخناتون حزن لذلك الاتهام ودافع عن أمه وعشيقته دفاعا حارا، فغضبت نفرتيتي وأصرتها له في أعماقها، وانتقمت في اللحظة الحرجة فهجرته فجأة قبل أن يقرر رجاله التخلي عنه، وحاولت استرضاء الكهنة لتجد لها موضعا في الدولة الجديدة، وربما طمحت أن تكون زوجة لتوت عنخ آمون، ولكنهم وطئوا مسعاها بالنعال، ولولا نفوذ عشيقها القديم حور محب لمزقوها إربا.

صمتت تادوخيبا وهي تبتسم بازدراء، ثم ختمت حديثها قائلة:

ـ هذه هي قصة المعتوه وديانته الخرقاء!

تـوتـــو

ـ لم أكـفـر بإلـهى آمـون قط ، ولـم أنضم إلى قـافلة المنافـقين والانتـهـازيين ، ولكننى خدمت المارق بالاتفاق مع كاهن آمون الأكبر لأكون عينه اليقظة فى القصر ، ويده الضاربة عند الضرورة .

هكذا بادرنى توتو وزير الرسائل فى عهد إخناتون دافعا عن نفسه تهمة النفاق التى تحلّق فوق رجال إخناتون . وقد قابلته فى مقصورته بالمعبد حيث يشغل وظيفة الكاهن المرتل فى عهد توت عنخ آمون كما شغلها فى عهد أمنحتب الثالث . وهو رجل دين ريان الوجـه ، جـاحظ العـينين ، عنيف الأعـصـاب . ودون تردد راح يعطينى تصـوره عن المأساة . قال :

ـ امتازت هذه الأسرة العريقة بملوكها العظام ، فلم يتسلل إليها الخور إلا حين اختار أمنحتب الثالث شريكته فى العرش من أسرة شعبية فاستعارت له ذلك الوريث الأرعن المخبول . وقد اتبع الملوك العظام معنا ـ نحن كهنة آمون ـ سياسة جديدة . عرفوا لآمون قدره وفضله وآمنوا به كبيرا لجميع الآلهة ، وفى الوقت نفسه أولوا كهنة الآلهة الأخرى رعاياتهم ؛ ليضمنوا إخلاص الجميع ، وليقيموا بيننا وبين بقية الكهنة توازنا يضاعف من قوة العرش واستقلاله . ولم تصادف تلك السياسة هوى فى نفوسنا ، ولكنها لم تبلغ بنا حد الاستياء أو الاعتراض ولم تنل من سمو مركزنا . ولما ولى العرش المارق وجد الطريق أمامه واضحا ، وكان من الممكن أن يسير فيه بسلام ملتزما بمنهج آبائه وأجداده ، ولكن الخنفساء توهمت أنها أسد فكانت الكارثة . لم يكن كأحد من سابقيه فى القوة أو الحكمة . وكان واعيا بضعفه وقبحه وأنوثته ، ولكنه أوتى من المكر والخبث ما لا يتاح إلا لمن أذله الضعف وأحرقه الحقد ، فقرر أن يتخلص من جميع الكهنة ليخلو له وجه الملك وحده ثم ينصب نفسه إلها يستأثر بالعبادة دون شريك إلا إلها وهميا يتخذه قناعا لطموحه . ومضت تبلغنا أنباء معجزات الصبى الذى تفوق قواه سنه الصغيرة ، حتى عرفنا حكاية الإله الجديد الذى تجلى له ودعاه إلى الكفر بجميع الآلهة . وقلت يومها للكاهن الأكبر :

ـ إنها مؤامرة ويجب أن تقتل فى مهدها .

وبدا أنه لا يسلم بأنها مؤامرة ، فقلت :

ـ إنى أتهم الملكة تيى والحكيم آى ، أما الغلام فلا مسئولية عليه .

فقال الكاهن الأكبر :

ـ لا أعفى الملكة من جانب من المسئولية ، ولكنها مسئولية الخطأ فى التقدير ، أما آى فقد توكد لى أنه لا يقل عنا انزعاجا . .

ولم يسعنى إلا تصديقه فهو معصوم من الخطأ ، فقلت :

ـ إذن فنحن حيال كائن قد حلت فيه روح ست إله الشر فيجب اغتياله فورا .

فقال الكاهن :

ـ الأمر لم يفلت بعد من يدى الملك والملكة . .

وآمنت بأننا سندفع ثمن ترددنا غاليا . وجعلت أدعو إلهى مرددا :

يا آمون أنت سيد الصامتين

الذى يأتى على صوت الفقير

عندما ناديتك فى محنتى

جئت لتخلصنى

يا آمون يا سيد طيبة إنك أنت

الذى تخلص من فى العالم السفلى

إذا ناداك إنسان

فإنك أنت الذى تحضر من بعيد

* * *

ومضى يسرد لى الحوادث التاريخية كما سمعتها من قبل ، رحلة الأمير فى الإمبراطورية ، عودته ، اعتلاؤه العرش .

* * *

وهنا قال معلقا :

ـ أعلن الرجال إيمانهم بدينه بين يديه ليتبوءوا مراكزهم فى الدولة الجديدة . لقد سقط الجميع بلا كرامة ، فأتاحوا للمكر الخبيث أن ينفث سمه ويهلك الأرض ، ولا عذر لهم عن خيانتهم ، فهم مسئولون جميعا عما حل بنا من خراب . قلت للكاهن الأكبر :

ـ لا جريمة بلا عقاب ، يجب اجتياح أخت آتون وقتل المارق والمارقة وآى وحور محب وناخت وبك . .

فقال :

ـ الوطن لا يحتمل مزيدا من الخراب .

فقلت بإصرار :

ـ لا بد من دم لنحظى برضا آمون .

فقال :

ـ إنى أدرى بما يرضى إلهى .

فصمت وباطنى يغلى بالحنق ، فإنى أومن بأن الجريمة التى تفلت من العقاب تكرس الإثم بين الناس وتزعزع الثقة فى العدالة الإلهية وتمهد لارتكاب المزيد من الجرائم . وشد ما يسوءنى أن أرى أحدهم وهو ينعم بعزلة آمنة أو يعمل بين الشرفاء كأنه أحدهم ، كيف نوفر الأمان لمن شارك فى إلحاق الخراب بنا؟!

* * *

وواصل سرده للأحداث ، بناء أخت آتون ، الانتقال إلى المدينة الجديدة ، الانغماس فى نشر الدعوة .

* * *

قال :

ـ بت قريبا منه ، أعمل فى رحابه ، وأتلقى كالآخرين هذيانه ، فعرفته على حقيقته أكثر من ذى قبل . كان يمكن أن يكون شاعرا أو مطربا ، ولكنه جلس على عرش الفراعنة ، فكانت الكارثة . قرر منذ البدء أن يتجاوز ضعفه المهين بمكر ودهاء وأن يستأثر بالسيادة . أراد أن يقول لتحتمس الثالث : «رغم قوتك ومهارتك العسكرية فإننى الأقوى» . لم يكن ملهما كما اعتقد البعض ولا مجنونا كما ظن البعض الآخر ، ولكنه حظى بأكبر قدر من مكر الضعفاء الخبثاء فأجاد تمثيل دوره . تخيل أنه يستطيع أن يخلق الدنيا على هواه ، فعاش فى دنيا من خلقه وصنعه لا رابطة تربطها بالواقع ، دنيا خلق لها قوانينها وتقاليدها وأناسها ونصّب نفسه إلها عليها معتمدا على سحر العرش وسيطرته على النفوس . من أجل ذلك تلاشى سحره لدى أول صدام حقيقى مع الواقع واجتاحه الفساد والتمرد والعدو وفر عنه الجبناء . وكثر الحديث عن ساعات وحيه وما تثمر من خوارق الأفعال والأقوال . وقد شهدت بعضها وأنا أعرض عليه الرسائل فى خلوته . كانت تتلبسه حال من الانفعال المفتعل . فيخرج من حافة الوعى غائصا فى المجهول ، ويتبادل كلمات غامضة مع أطراف غير مرئية ، ثم يعود رويدا إلى وعيه فيحدثنا عن إلهه الذى لن يخذله أبدا . وكنت أختلس نظرات من وجوه الدهاة من أمثال : آى وحور محب وناخت وأتساءل : هل حقّا يصدقون المهزلة؟ هل حقّا جاز عليهم خبثه الأنثوى؟! كلا ، لقد

تظاهروا بتصديقه لينال كل مأربه، وما كشفوا عن أنفسهم إلا حين تهددهم الموت من الشمال والجنوب.

* * *

وحدثنى عن انقلاب الأحداث، فساد الموظفين، عذاب الناس، تمرد الإمبراطورية، تحرش الحيثيين بالحدود، مصرع توشراتا.

* * *

قال:

ـ أغرقنى فيضان من الخوف على البلاد ففكرت جادا فى اغتياله لأنقذ الدنيا والدين من شره. وعثرت بلا كبير عناء على من تطوع لقتله فى خلوته قبل الشروق، ويسرت له مخبأ فى الحديقة، وكاد الرجل ينجح فى مهمته لولا أن أدركه فى اللحظة الأخيرة محو رئيس الشرطة فعاجله بضربة قاتلة واستحق بذلك لعنة الآلهة إلى الأبد. واستعنت كثيرا بالسحر، ولكنه لم يصب الهدف من سوء حظ البلاد، ولعل الخبيث كان يلجأ إلى السحر المضاد.

* * *

وروى ما تلا ذلك من انتشار التمرد فى الأقاليم، زيارة الملكة تيى لأخت آتون، اللقاء التاريخى بين كاهن آمون ورجال إخناتون.

* * *

قال:

ـ ولما يئس الخبيث الماكر من رجاله وعلم بتفكير الكهنة فى اختيار توت عنخ آمون للعرش أشرك سمنخ رع معه فى عرشه، ولكنى نجحت فى اغتيال الشاب بوسائلى الخاصة، وإذا بالبناء يتصدع باختفاء نفرتيتى نفسها فمات الشر، ولكن بعد أن نفث سمه فى جميع الأوصال. وقد كان من سوء حظنا جميعا أن ساقه قدره إلى اختيار نفرتيتى زوجة له. حقّا إنها امرأة قوية الشخصية، راجحة العقل، فائقة الجمال، ولكنها مثله مريضة بالطموح، فآمنت فى الظاهر بدينه، وشاركته فى الواقع مكره وخبثه. وعلى اليقين لم تكن تحبه وما كان فى وسعها ذلك، ولكنها هامت بالقوة والسيادة المطلقة. ولعلها دليل آخر على الدور الخفى الذى قام به الداهية آى الذى كان يتلقى فى المناسبات هدايا الذهب تنثر عليه وعلى زوجته تى من الشرفة الملكية فيحملها العبيد فى القدور إلى قصره. ولكن كيف تعامت المرأة الذكية عن عواقب سياسة زوجها على البلاد والإمبراطورية؟ وهل آمنت حقّا برسالة الحب والسلام؟! الحق أنى لا أتصور ذلك ولا أسيغه، ولكن لعلها غالت فى تقدير سحر العرش

الفرعونى وتوهمت أنه السحر الذى يغنى عن العقاب والسيف وجيش الدفاع. ولعلها أدركت الخطأ فى وقت مبكر، ولكنها خافت أن تعلن وساوسها فتفقد ثقة زوجها فاستسلمت للمقادر. ولما تخلت الحاشية عن الملك تخلت عنه متعلقة بأمل أخير ألا يغدر بها عشاقها. وأعتقد أن حور محب حاول إقناع الكاهن الأكبر بقبولها فى طيبة، ولكنه رفض ذلك وأصر على الرفض. وقد مات المارق وما زالت هى تتنفس فى سجنها متجرعة الأحزان والحسرات.

لو أن الذى خلف أمنحتب الثالث على عرشه عدو من الحيثيين لما استطاع أن يفعل بنا أكثر مما فعل المارق اللعين..

تـــــى

هى زوجة الحكيم آى، فى السبعين من عمرها، صغيرة الجسم، ممتازة فى صحتها بالقياس إلى عمرها، حلوة المحضر. وقد تزوج منها آى عقب موت زوجته الأولى أم نفرتيتى فتلقتها تى وهى بنت عام أو عامين، ثم أنجبت له موت نجمت. ولما رفع الحظ نفرتيتى إلى العرش اختارت تى ضمن حاشيتها ووهبتها لقب «مربية الملكة». ولولا أنها كانت تحبها ما فعلت ذلك، وهو ما يدل على أن تى أحاطت نفرتيتى برعايتها وحبها وأنها لم تكن «امرأة أب» بالمعنى المألوف.

وقد سردتُ لها المعلومات التى حصلتُها عن الأحداث التاريخية، ثم قلت:

ـ لا داعى للتكرار إن لم يكن لديك إضافة أو تعديل حفظا على وقتك وراحتك.

فقالت تى:

ـ لم أخالط الملك رغم قربى من زوجته، ولعله لم يخاطبنى إلا مرات معدودة، ولكن عذوبته لا تبرح القَلب أبدا. وقد عرفنا عنه الكثير من بعيد عن لسان زوجى آى الذى اختير لتعليمه. وأذهلنا ما سمعنا عن موقفه من آمون وميله مع آتون، ثم أذهلنا أضعافا ما قيل عن اكتشافه للإله الجديد. الحق أنه أذهلنى أنا وابنتى موت نجمت، أما حبيبتى نفرتيتى فكان لها موقف آخر. ولكن علىّ قبل ذلك أن أعرفك بها، إنها بنت ذكية، وذات روح متوثبة تعشق الجمال وتهيم بالأسرار الدينية، ونضجها يفوق سنها بكثير، حتى قلت يوما لزوجى آى:

ـ يُخيّل إلىّ أن ابنتك ستكون كاهنة!

وكان ينشب بينها وبين موت نجمت ما ينشب بين الأخوات الصغيرات من نزاع

وخصومات عابرة، ولكن الحق كان دائما معها، ولا أذكر أنها تورطت فى خطإ مرة، وكانت تصالح أختها كما يصالح الكبير الصغير. وكانت تتفوق فى تعليمها لدرجة خشيت معها على ابنتى من ردة فعل يتعذر إصلاحها. وجعلت تتلقى كلمات ولى العهد بإعجاب فتميل معه إلى آتون، ثم تباغتنا بإعلان إيمانها بالإله الواحد. وقالت لها موت نجمت:

ـ إنه كافر.

فقالت بيقين:

ـ لقد سمع صوت الإله.

فصاحت بها:

ـ وأنت أيضا كافرة!

كانت ذات صوت عذب، وشد ما كان يسرنا أن نسمعها وهى تغنى:

ماذا عساى أقول لأمى؟
فكل يوم أرجع إليها بالطيور
أما اليوم فلم أنصب شباكى
لأن حبك قد ملكنى

وبعد إيمانها راحت تغنى للإله الجديد وحدها فى الحديقة ولا أحد منا يريد أن يطرب لها، ولكنى أذكر صوتها الذى اقتحم علىّ حجرتى ذات صباح وأنا أمشط شعرى:

يا حى
يا جميل يا عظيم
بك عم الفرح
وأترع الكون بالنور

هكذا كان قصرنا أول بيت يتردد فيه نشيد الإله الجديد. ودعينا لحضور الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على جلوس أمنحتب الثالث على العرش. وسمح لنا باصطحاب بنتينا لأول مرة لشهود احتفال بالقصر الفرعونى. وزينت البنتين لعلهما يروقان فى أعين صفوة الشباب، فارتدت كل منهما ثوبا طويلا فضفاضا، وطوقت منكبيها بمعطف مزركش قصير، منتعلة صندلا ذا سيور ذهبية. دخلنا قاعة لا تقل مساحتها عن مساحة قصرنا كله، مطوقة بالمشاعل ومقاعد المدعوين على حين تصدرها العرش بين جناحين من الأمراء والأميرات. وبين هذا وذاك ترامى فراغ للعازفين والراقصات العاريات، وتنقل العبيد بين المدعوين والمدعوات يحملون المباخر والأشربة والأطعمة الفاخرة. وقلبت عينى بين

صفوة الشباب فتمنيت لابنتى حور محب الضابط الواعد وبك المثّال الموهوب. ورأيت الأعين تسترق النظرات إلى نفرتيتى آتية من نخبة الحاشية، حور محب وبك وناخت وماى، خاصة عندما أتيحت الفرصة لبنات الأشراف ليرقصن ويغنين فى رحاب الملكين. وقد رقصت حبيبتى برشاقة آسرة، وغنت بصوت عذب فاقت به المطربات المحترفات. لعلّى فى تلك الليلة شاركت ابنتى موت نجمت غيرتها الصامتة، غير أننى عزيت نفسى قائلة: «إذا تزوجت نفرتيتى خلا الجو لموت نجمت وتجلى نورها دون منافس». وبدافع من حب الاستطلاع اختلست نظرات من نفرتيتى لأكتشف أين تتجه نظراتها فأدهشنى أن أراها منجذبة من أعماقها إلى معلمها الروحى.. ولى العهد! ونظرت نحوه فهالتنى غرابة صورته ورقته الأنثوية المثيرة للدهشة. ولما التقت عيناى بعينيها همست لى:

ـ حسبته عملاقا!

ولكن انبهارها غطى على دهشتها، ولم تكن تحلم بما يدخره لها القدر. ورجعنا إلى قصرنا، فقلت لزوجى آى:

ـ سيطرق بابنا الخطاب يا آى فدبر أمرك..

فقال بهدوئه المألوف:

ـ الآلهة ترسم لكل مصيره.

وبعد مرور يوم أو يومين فاجأنى آى بقوله:

ـ الملكة تيى ترغب فى مقابلة نفرتيتى..

فأذهلنا الخبر، وسألته:

ـ ماذا يعنى ذلك؟

فتفكر مليا، ثم قال:

ـ لعلها سترشحها لوظيفة فى القصر!

ـ ولكنك تعرف أشياء ولا شك!

فقال:

ـ كيف بمعرفة ما يدور فى رأس الملكة العظمى؟

وأخذ يلقنها أصول الآداب المتبعة فى لقاء الملوك، وقلت لها:

ـ فليباركك آمون برعايته..

فقالت بثبات:

ـ إنى أسأل الإله الواحد رعايته..

فهتف بها آى بحزم :

ـ حذار أن تتفوهى بحماقة فى حضرة الملكة .

وذهبت نفرتيتى . ورجعت شديدة الانفعال فطوقتنى بذراعها وأجهشت فى البكاء، أما آى فقال :

ـ اختارتها الملكة زوجة لولى العهد!

عصف الخبر بأفئدتنا عصفا . سمت به حبيبتى نفرتيتى فوق الغيرة والمنافسة . ها هى ذى تفتح لنا باب الحظ السعيد لننفذ منه إلى الأسرة المالكة . لقد أظلنا حظها بجناحيه العريضين وحلق بنا فوق الجميع . من أجل ذلك هنأتها من أعماق قلبى ،وكذلك فعلت موت نجمت . وراحت تحدثنا عما دار بينها وبين الملكة العظمى، ومن شدة تأثرى لم أتابعها بالدقة المتوقعة، وليس فى ذاكرتى اليوم إثارة منه، وما أهمية الحديث إذا قيس بالنتيجة التى انتهى إليها؟ وتم الزواج فى حفل رائع أعاد إلى ذاكرة المخضرمين ذكرى زفاف الملك أمنحتب الثالث . وصرنا جميعا ضمن الأسرة المالكة، واختارتنى حبيبتى لوظيفة المربية الخاصة لها، وهو مركز فى القصر يلى مركز الأميرات مباشرة! وبالزواج صارت نفرتيتى والأمير وحدة لا تتجزأ، ولا يفرق بين نصفيها إلا الموت . وقد شاركته الأفراح والأحزان إلى ما قبل النهاية بساعات، ودبرت له شئون ملكه بمهارة امرأة خلقت للعرش، وشاركته حمل رسالته الدينية كأنها كاهنة مختارة حقّا بعناية الإله الواحد . صدقنى لقد كانت ملكة عظيمة بكل معنى الكلمة . لذلك صعقت عندما علمت بهجرها المفاجئ لزوجها فى ذروة محنته . ولعله أول قرار اتخذته دون علمى فهرعت إليها فى قصرها، وجلست عند قدميها مستسلمة لنوبة من البكاء . ولم يبد عليها أنها تأثرت لحالى، وقالت لى بهدوء :

ـ اذهبى بسلام . .

فقلت برجاء :

ـ إنهم يذهبون وقاية للملك من أى شر .

فكررت ببرود :

ـ اذهبى بسلام .

فتساءلت فى حيرة :

ـ وأنت يامولاتى؟

فقالت ببساطة :

ـ لن أغادر هذا القصر .

فهممت بالكلام، ولكنها قاطعتنى بنبرة آمرة :

ـ اذهبى بسلام .

وغادرتها كأتعس امرأة على وجه الأرض . وفكرت طويلا فيما دفعها إلى الاختفاء، فلم أهتد إلا إلى فرض واحد، هو أنها كرهت أن تشهد هزيمة الملك وإلهه فلاذت بالهرب خلال لحظة يأس طارئة، على أن ترجع إليه بعد ذهاب الجميع . ولا أشك فى أنها سعت إلى ذلك، ولكنها منعت بالقوة . ولا تصدق أى تفسير آخر لهجرها القصر . سوف تسمع أقوالا متضاربة، وسيدلى كل رجل بما يؤكد أنه الحق، بينا ينطق عن هواه . لقد علمتنى حياتى بألا أثق بأحد ولا أصدق أحدا . وها هو ذا الزمن يمضى وأنا أتساءل دائما : أكان مولاى إخناتون يستحق تلك النهاية المحزنة؟ كان النبل والصدق والحب والرحمة فلم لَمْ يبادله الناس نبلا بنبل، وصدقا بصدق، وحبا بحب، ورحمة برحمة؟ لماذا انقضوا عليه كالوحوش يمزقونه، ويمزقون ملكه كأنه عدو أثيم؟! ولقد رأيته فى المنام منذ أعوام مطروحا على الأرض والدم ينزف من جرح غائر فى عنقه، فاستحوذ علىّ شعور قوى بأنهم قتلوه قتلا مدعين كذبا أنه مات ميتة طبيعية .

وسكتت وهى تنظر فيما أمامها بأسى، ثم تمتمت :

ـ لقد عاشرنا رجلا لا يتكرر .

مــوت نجمــت

فى بدء الحلقة الرابعة، جميلة رشيقة، يشع من عينيها العسليتين ذكاء، شعرت فى محضرها بوجود مسافة بينى وبينها لا يمكن أن تُعبر . وهى ابنة آى وتى وأخت نفرتيتى، وتقيم فى جناح خاص بها فى قصر آى . وثمة لغز رابض فى حياتها وهو أنها لم تتزوج رغم كثرة خطابها . وما كدت أجلس بين يديها وأبسط أوراقى حتى أنشأت تقول :

ـ قدر لنا أن نشارك فى مأساة إخناتون المارق فقد اختير أبى الحكيم آى معلما له، فحمل أبى إلينا أخباره وأفكاره، ومن أول الأمر أسأت به الظن، واتهمت عقله، ثم أثبتت الأيام صدق شعورى وتفكيرى . وكان لنفرتيتى موقف آخر دهشت له الأسرة، أما أنا فلم أدهش له . كانت تحب دائما أن تلفت الأنظار بتحديات مفتعلة، وتود أن تثير من حولها عواصف المناقشات . أجل، كانت ذكية، ولكنها لم تكن صادقة ولا مخلصة، هذا ما أغراها بعبادة آتون وتفضيله على آمون، وما دعاها أخيرا للكفر بجميع الآلهة والإيمان بإله لم نسمع عنه من قبل . وقد سمعتها مرة وهى تقول لأبى :

ـ أبلغ يا أبى ولى العهد أننى مؤمنة بإلهه .

فقال لها أبى متجهما :

ـ إنك حمقاء يا نفرتيتى ولا تقدرين العواقب !

وكنت بسبب تجديفها أخاف أن تحل اللعنة بنا جميعا . لقد بقى إيمانى بآلهتى حيا فى قلبى لا يتزعزع . أجل . أعلنت إيمانى بالإله الجديد لانتمائى للأسرة الملكية ، وبقصد أن أبذل ما أستطيعه فى موقعى الجديد دفاعا عن آلهتى المقدسة ، ولكن إيمانى بآلهتى لم يهن قط . وأتيح لى أن أرى المارق لأول مرة فى حفل العيد الثلاثينى للجلوس على العرش ، فعجبت للشبه الخارق بين أفكاره المنحرفة وبين صورته المتنافرة الجامعة بين الهزال والقبح . لذلك فلا تأخذ مأخذ الجد ما قد تسمع عن الحب النبيل الذى جمع بين قلبى المارق وملكته العظمى نفرتيتى ، فإنى أعرفها حق المعرفة ، وأعرف المثّال الذى حلمت به كفتى لأشواقها ، إنه لا يمت بصلة للفتى الهزيل القبيح العاجز الذى خلق نصف أنثى ونصف ذكر . وكانا يزعمان أنهما يعيشان فى الحقيقة ، أما هو فكان يعيش فى الجنون ، وأما هى فعاشت فى الكذب والخديعة ، ولم تحب سوى العرش والسلطان . وفى الحفل غلبتها طبيعتها الدفينة فأعلنت عن جمالها بلا حياء كأنها امرأة محترفة ، ورمت شباكها حول حور محب ، ولكنه لم يكن يكترث لذلك النوع من النساء المبتذلات . ولما دعينا نحن بنات الأشراف للرقص والغناء ، قمت أنا فرقصت فى احتشام ، واخترت أغنية موجهة لفرعون :

أنت تجىء كالشبع فينتهى الجوع
أنت تجىء كالثياب فينتهى العرى
أنت كالسماء الهادئة بعد عاصفة هوجاء
تعطى الدفء لمن أصابه البرد

أما نفرتيتى فقد أذهلت الجميع برقصتها الداعرة ، ولكنها سرقت استحسان الفاسقين وما أكثرهم ، ثم اختارت أغنية خليعة فغنت :

فى صحتك
اشربى حتى تثملى
ولا تضيقى ذرعا بالسرور
لقد حضرت ونصبت الفخ
لنفتح الفخ سويا
أنا وأنت معا بمفردنا
ما أجمل أن تكون معى هناك

ونكس أبى ذقنه وتلعثمت أمى. وتهامست المغنيات المحترفات: «ما أجدر هذه البنت بأن تغنى معنا!». ورجعنا إلى قصرنا آخر الليل وهى تحلم بأن يطرق بابنا فى الصباح حور محب. ولكن الأقدار كانت تعد لنا مفاجأة أخرى إذ كانت تعدها لمصر والإمبراطورية. دُعيت الماكرة إلى مقابلة تيى الملكة العظمى ورَجعت زوجة لولى العهد. وقلت لأمى: ألا يدعم فرعون شرعيته عادة بالزواج من أميرة ذات دم ملكى؟ فقالت لى أمى:

ـ لا أهمية لذلك إذا كان فرعون صاحب قوة مسيطرة، وقد وافق على اختيار عروس من بنات الشعب لابنه كما سبق أن اختار لنفسه.

وقبّلتنى هامسة فى أذنى:

ـ كونى عاقلة يا موت نجمت، لا شك فى أنك أفضل منها، ولكن لا حيلة لنا مع الحظ، فاقنعى بأنك ستصيرين من الأميرات، وبأن الدنيا سُتقبل عليك بقدر ما تبدين من إخلاص لأختك!

فقلت لها بصراحة ووضوح:

ـ سأتبع الحكمة مع المحافظة على الكرامة والإخلاص.

وهو ما حرصت عليه دائما ولم أنحرف عن خطه المستقيم. ولما خلوت إلى نفرتيتى سألتها:

ـ هل راق لعينيك حقّا؟

ومع أنها أدركت من أعنى فإنها تساءلت متغابية:

ـ من تعنين يا موت نجمت؟

ـ زوجك المقبل!

فقالت بحماس:

ـ إنه معجزة بين الرجال!

فسألتها بعناد:

ـ أهو كذلك كزوج؟

فأجابت بغموض:

ـ لا يمكن الفصل بين الكاهن والزوج!

وقرأت أفكارها كما أقرؤها عادة. سوف تقاسمه العرش ملكة وكاهنة. ولن يعجزها أن تظفر بمن يشبع عواطفها المتعطشة للحب والحياة. وقد مارست ذلك بكل طمأنينة، معتذرة أمام ضميرها بعجزه، لائذة بسياسته المعلنة فى الاعتماد على الحب ورفض

العقاب والعنف، فلم تخش من جانبه انتقاما كسائر الفاسدين من معاونيه. وقد توكد لى عجزه وشذوذه من خلال اتصالاتى اليومية بحريمه. هناك يعرفون الحقائق التى تخفى عن أقرب المقربين من رجال الدولة. هناك تندروا بعجزه. وهنا فضحوا سر العلاقة الآثمة بينه وبين أمه، المرأة الوحيدة التى عبر عجزه فى حضنها، والمرأة الوحيدة التى أنجبت له ابنة. وذاك شذوذ لم تعرفه بلادنا على مدى تاريخها. من أجل ذلك ثبت لدى أن بلادى تمضى نحو مصير أسود. وعاهدت ضميرى أن أقف مع الحق حيث يكون. ومات أمنحتب الثالث، وتبوأت نفرتيتى العرش ملكة عظمى مكان تيى. وعشنا أياما كئيبة فى طيبة، ثم انتقلنا إلى أخت آتون أجمل مدينة عرفها الإنسان. واستقبلنا من الزمان أيام سرور ونصر ورخاء، وأمهلت الآلهة للمارق، فتركته يلغى وجودها ويصادر أوقافها، ومهدت له أسباب النجاح والسرور، حتى ظن الجاهل أن الفوز المبين قد تقرر للإله الجديد ولرسالته الخيالية فى الحب والسلام. وقلت لأمى وليس معنا ثالث:

- أين الآلهة؟ ما لها لا تغضب لما حاق بها؟!

وإذا بأمى تقول:

- ذلك شاهد على صدق الإله الجديد يا موت نجمت!

فرمقتها بذهول، وخُيِّل إلىّ أن دنيا تغرب وأن دنيا أخرى تشرق لا سبيل إلى الشك فيها. ولكن ليل الحلم أخذ ينقشع ويتلاشى، وزمجرت عواصف الأحزان مكتسحة الداخل والخارج معا. وكلما عضنا الدهر قلت لأبى:

- ها هو ذا آمون يكشر عن أنيابه.

فيقول لى:

- لا ترددى أقوال الكهنة الحاقدين!

فأقول له:

- حدثنى يا أبى عن واجبك فى هذه الظروف.

فيقول باستياء:

- لست فى حاجة إلى من يذكرنى بواجبى يا موت نجمت!

ومرة سألت نفرتيتى:

- ألا تفعلين شيئا للدفاع عن عرشك؟

فقالت لى بحماس لم يجزْ علىّ:

- نحن نفنى فى خدمة عرش الإله الواحد.

لم تكن مخلصة. ولم تعرف الإخلاص الحقيقى فى حياتها. كانت تخشى إذا حذرت

زوجها من مغبة عناده أن ينزع الثقة منها فيختار امرأة أخرى ملكة وكاهنة. ومن خلال محاولاتى الحذرة مع الرجال اكتشفت إخلاص توتو وزير الرسائل فاستمر الحوار بيننا حتى تكاشفنا تماما، ثم كان الوسيط بينى وبين كاهن آمون الأكبر. وكانت تجربة أليمة خضتها بعذاب شديد. كان علىَّ أن أختار بين إخلاصى لأسرتى الجديدة وبين الولاء للبلاد والآلهة. واخترت بعد أن دفعت ثمن اختيارى ألما وعذابا، هكذا انضممت إلى المعسكر الآخر، معرضة عن مصلحتى الشخصية وسعادتى الأسرية. وقال لى توتو يوما:

ـ الكاهن الأكبر يطالبك بالسعى لضم الملكة إلينا!

فقلت له:

ـ لقد سعيت إلى ذلك من قبل أن أكلف به، ولكنى وجدتها لا تقل جنونا عن المارق.

وبناء على ذلك أرسل الكاهن الملكة تيى إلى أخت آتون، ثم جاء بنفسه ليلقى على الرجال إنذاره الأخير. وشد ما عارض توتو ذلك. كان يقترح الانقضاض عليهم دون إنذار، ووضعهم جميعا فى الأغلال، وإشعال النار فى المدينة المارقة. وكنت أود أن أضم حور محب قائد الحرس إلينا، فهو صاحب القوة الحقيقية فى المدينة، وعرف دائما بالصلابة والاستقامة. ومن خلال الأحاديث التى دارت بينى وبينه آنست منه اتفاقا فى الرأى يخفيه الحذر وافتقاد الثقة المتبادلة. ولما لاحت فى الأفق نذر الحرب الأهلية قلت له:

ـ علينا أن نعيد النظر فى مواقفنا.

فرمقنى بنظرة متسائلة، فقلت بصراحة:

ـ لا يمكن أن نترك مصر تحترق وتصير رمادا.

فسألنى بدهاء:

ـ ألم تفاتحى أختك الملكة فى ذلك؟

فقلت بصراحة أذهلته:

ـ إنها لا تقل جنونا عن الملك!

فسألنى باهتمام:

ـ ماذا تقترحين؟

فقلت بحدة:

ـ كل شىء مباح لإنقاذ البلاد..

ثم كانت النهاية التى عرفتها. نهاية مأساة فاقت مأساة غزو الهكسوس لبلادنا فى

الماضى . مأساة خلقها جلوس مجنون على العرش مستغلا قدسية العرش التقليدية فى ممارسة نزواته . لا شك فى أن ذنب نفرتيتى أثقل من ذنبه لما خصت به من ذكاء ودهاء، ولكنها لم تهتم إلا بذاتها وطموحها، فلما تولى عنه المجد هجرته فى الحال، منضمة فى الظاهر إلى أعدائه، مرشحة نفسها ملكة تدعم العرش الجديد، ولكن حيلتها لم تنطل على أحد، فانقبرت فى وحدة مظلمة لتجتر العذاب والندم .

مـــرى رع

فى الحلقة الرابعة، أسمر خمرى ، نحيل، ذو نظرة حزينة تصلح عنوانا لمأساة، يعيش فى بيت صغير، بلا رفيق أ و خادم، ذلك الذى كان يوما الكاهن الأكبر للإله الواحد، فى مدينة النور أخت آتون . وقد زرته فى بلدته دشاشة على مبعدة من طيبة بمسيرة يومين إلى الشمال . ولما قرأ رسالة أبى سألنى باسما :

ـ ولم تتجشم هذا التعب؟

فقلت ببساطة :

ـ لأعرف الحقيقة .

فقال وهو يهز رأسه فى أسى :

ـ حسن أن يوجد ولو فرد واحد من طلاب الحقيقة .

ثم مضى يقول :

ـ لعلّى الشخص الوحيد الذى حُمل بالقوة من أخت آتون بعد أن رفض التخلى عن مولاه، وقد سكت الصوت الإلهى وتهدم المعبد، ولكن الدهر لم ينطق بالكلمة الأخيرة بعد .

ورنا إلىّ طويلا بعينيه البنيتين ومضى يقول :

ـ أسعدنى حظى فى صباى بأن أكون ضمن حاشية الأمير، فملت مثله إلى الأمور الروحية، ودرسنا معا ديانة آمون وديانة آتون . ومثل كثيرين فتنت به وأخذت بحديثه الساحر، ورُوعت بنضجه السريع الخارق للمألوف . وقد باركنى بقوله الذى غزا به قلوب أتباعه، فقال لى :

ـ إنى أحبك يا مرى رع فلا تضن علىّ بحبك .

فتغلغل حبه فى قلبى حيث لم تبلغ عاطفة من قبل، حتى أباح لى خلوته على شاطئ النيل، فى أى وقت أشاء . وهى خلوة فى الطرف الغربى من القصر، تطل على النيل،

فى هيئة مظلة تقوم على أربعة أعمدة تحدق بها أشجار النبق والنخيل، أرضها من العشب النضير، تتوسطها حصيرة خضراء ووسادة. كان يستيقظ عند الفجر فيمضى إلى الخلوة ينتظر شروق الشمس، ويتغنى لقرصها البازغ من وراء الحقول. وما زال صوته العذب يجيش فى صدرى، وينتشر فى حواسى مثل رائحة البخور المقدس وهو يترنم:

إنك تسطع جميلا فى جبل النور فى السماء

يا آتون الحى يا من عاش أولا

إنك إذا أشرقت فى جبل النور الشرقى

ملأت كل بلد بجمالك

إنك جميل، إنك عظيم

إنك تتلألأ عاليا فوق كل بلد

وأشعتك تضم البلاد

وكل شىء خلقته

إنك بعيد ولكن أشعتك على الأرض

وكان يذوب من الوجد، وتنبثق من وجهه الصبيح الأنوار. ثم نتجول فى الحديقة وهو يقول:

- لا يوجد سرور خالص إلا فى العبادة.

ذلك أن حياته لم تخل من منغصات. وذات مرة تشكى لى قائلا:

- يأبى أبى إلا أن يجعل منى مقاتلا يا مرى رع!

لم يمر تدريبه العسكرى الفاشل دون أن يترك فى نفسه ألما يحز. أو ينظر فى المرآة المؤطرة بالذهب الخالص، ويقول باسما:

- لا قوة ولا جمال!

أما موت أخيه الأكبر تحتمس فقد حفر فى وجدانه جرحا غائرا لعله لم يبرأ منه إلا حينما أصيب بجرح أشد بموت ابنته المحبوبة ميكيتاتون. شد ما بكى أخاه الذى نصبه موته وجها لوجه مع حقيقة الموت الصلبة الغامضة. وسألنى:

- ما الموت يا مرى رع؟

فلذت بالصمت متحاشيا الإجابات التقليدية التى يضيق بها. فعاد يقول:

- ولا آى نفسه يعرف، قرص الشمس وحده يشرق بعد الغروب، أما تحتمس فلن

يرجع إلى هذا الوجود مرة أخرى! وهكذا أعلن حربا أبدية على الضعف والقبح والحزن. ومضى فى طريقه المجهول مثل شعاع الشمس، تنذر بوادره كل يوم بجديد، حتى لقيته ذات صباح مشرق شاحب اللون فى خلوته، مستقر النظرة، ثابت الجنان، فقال لى دون أن يرد تحيتى:

ـ ليست الشمس شيئا يا مرى رع.

فلم أدرك مقصده فجذبنى إلى مجلسه فوق الحصيرة، وقال:

ـ استمع إلى الحقيقة يا مرى رع. ليلة أمس أسكرنى الشوق بلا خمر، وتجسد لى الظلام جليسا أنيسا كالعروس المتجلية، وحلقت بى نشوة آسرة فى الفضاء، وهناك عبر ألف خيال وخيال بزغت الحقيقة للفؤاد أقوى من أى منظر تراه العين، وترامى إلىّ صوت أجمل من عبير الأزهار فقال لى: «املأ وعاء قلبك بأنفاسى، واطرد عنه ما ليس منى، أنا القوة التى تتسلل منها قوى الوجود، أنا النبع الذى تتدفق منه الحياة، أنا الحب والسلام والسرور، املأ وعاء قلبك منى ويسره مشربا للمعذبين فى الكون».

ومن شدة تألقه تراجع رأسى فى انبهار، فقال لى:

ـ لا تخف يا مرى رع، ولا تبتعد عن السعادة!

فغمغمت وأنا ألهث:

ـ يا له من نور!

فقال بعذوبة صافية:

ـ تعال لتعيش معى فى الحقيقة..

فاعتدلت فى جلستى وقلت:

ـ إنى معك إلى الأبد.

ومنذ تلك الساعة السعيدة صار أول كاهن للإله الواحد الذى لا إله غيره، وغدا معلمى وأستاذى، ورائد من لبوا النداء. وقلت له:

ـ آمنت بإلهك.

فقال بحبور:

ـ أحسنت، ولتكن أول كاهن فى معبده.

وأعلن إيمانه لخاصته، ولكنه لم يتعرض للآلهة إلا فيما بعد، وبالتدرج أيضا، فأعلن كفره بالآلهة الزائفة أولا، ثم ألغاها ووزع أوقافها على الفقراء فى خطوة تالية. أما على عهد إمارته فلم يكن بوسعه فى حكم والده أن يكون صاحب قرار. وقد تزوج من

نفرتيتى وهو ولى للعهد، فوهبه الزواج سعادة كبرى، غير أن أسعده ما أسعده حظى به فى إيمانها الصادق بإلهه. وفى أخت آتون تبوأت مركز الكاهن الأكبر للإله الواحد، ولما عزم مولاى على مصادرة المعابد قلت له:

- إنك تتحدى قوة ذات نفوذ قديم على الناس من النوبة حتى البحر.

فقال لى بثقة:

- ما الكهنة إلا دجالون، يستعبدون الضعفاء، وينشرون الخرافات، وينهبون الأرزاق، معابدهم مواخير، وقلوبهم ثملة بحب الدنيا..

فاكتشفت فيه قوة حقيقية أخفاها عن الأعين تهافت بنيانه، وشجاعة لا يحظى بجزء منها حور محب قائد الحرس أو ماى قائد الحدود. وقد حسبه أناس لغزا لا يحل، لكنه وضح بالنسبة لى مثل نور الشمس. لقد فنى فى حب إلهه وأحبه الإله فكرس حياته لخدمته ملقيا بالعواقب جانبا، فلم يلتبس على قرار من قراراته ولا موقف من مواقفه. لم أدهش لسلوكه فى رحلته المشهورة حول عالم إمبراطوريته، ولم أدهش لتمسكه برسالة الحب والسلام حتى فى أحرج الظروف، ولم أدهش لموقفه الأخير عندما تخلى عنه أقرب المقربين إليه. كان يعيش فى رحاب الإله ويصدع بأمره، ولا يبالى بعد ذلك بما يحيق به، إذ كيف يمكن من ينغمس فى الحقيقة أن يكترث لمكر الساسة ودهاء العسكريين؟! وقد رموه بالخيال والحلم والجنون، فكان هو العائش فى الحقيقة، وكانوا هم الخياليين الحالمين المجانين الغارقين فى أوهام الدنيا الفاسدة. ولم يكن العرش يهمه كما يهم الملوك العاديين. بل إننى أذكر أنه عندما دُعى من رحلته لتولى العرش بعد وفاة أبيه، تجهم وجهه وتساءل:

- ترى هل تشغلنى الشواغل عن إلهى؟

فقلت له بحماس صادق:

- بل إنك مدعو يا مولاى لوضع قوة العرش فى خدمة الإله، كما التزم أجدادك بخدمة آلهتهم الزائفة.

فسرى عنه وتمتم:

- نطقت بالحق يا مرى رع، فكما قدموا لآلهتهم قرابين من البشر المساكين، سأقدم قوى الشر قرابين لإلهى، محطما الأغلال التى يرسف فيها من لا حول لهم.

واعتلى العرش ليخوض أشرس معركة خاضها ملك، ولكن فى سبيل الحقيقة والحب والسلام وسعادة البشر، وأثبت فى غمارها أنه أقوى عشرات المرات من تحتمس الثالث نفسه، وكان رجاله يمثلون أمام عرشه فتصرف نفرتيتى أمورهم اليومية، أما هو فلا ينى عن إعادة خلقهم من جديد ليكونوا جديرين حقًا بالنعمة الإلهية والنبل البشرى. وتجلى

سحره كأقوى ما يكون فى نشر دعوته بالأقاليم، وقد فتن الناس به وسكروا بخمر رسالته وألقوا عليه محبتهم مع الأزهار والرياحين. وسكت مرى رع ليتنهد طويلا، ثم واصل حديثه:

ـ ثم جاءت سحب الأحزان يتبع بعضها بعضا مسوقة بأنفاس الحقد فى داخل البلاد وخارجها. وتلقاها كل رجل بحسب قوة إيمانه، ولم يعبأ بها مولاى وراح يردد:

ـ لن يخذلنى إلهى.

وقال لى يوما فى المعبد:

ـ الرجال ينصحوننى بالاعتدال وإلهى يأمرنى بالإيمان فأيهما أتبع يا مرى رع؟

ولم يكن سؤاله الساخر فى حاجة إلى إجابة. ولما مضت الأزمة فى الاشتداد جاء حور محب لمقابلتى فى المعبد وقال لى:

ـ أيها الكاهن الأكبر، إنك أقرب الرجال إلى الملك.

فأجبته وأنا أحدس ما سيقول:

ـ تلك نعمة الإله علىّ.

فقال بصراحة:

ـ الأمور تقتضى تغيير السياسة.

فقلت له بثبات:

ـ أستمع لصوت الحقيقة وحدها.

فقطب فيما يشبه الضجر وقال:

ـ أتوقع أن أسمع كلاما معقولا.

فقلت بحدة:

ـ لا تفاهم إلا بين المؤمنين.

ولما علمت بقرارهم فى التخلى عن الملك بحجة الدفاع عن حياته قلت لآى:

ـ من ناحيتى لا أقر العودة إلى الكفر.

ورفض مولاى التراجع خطوة واحدة، ولكن كانت له خطته أيضا فى تجنب الحرب الأهلية فكان عازما على مواجهة الشعب وحده والجنود المتمردين، وكان كامل الثقة بقدرته على إعادتهم إلى حظيرة الإيمان، ولكن الحاشية آمنت بأنه سيقتل حتما وأنهم سيلحقون به جزاء بقائهم على الولاء له. وتخلى عنه الجميع، وقد ضمونى إلى قافلتهم المرتدة بقوة الجند، وأمروا الحرس بمنعه بالقوة إذا صمم على مواجهة الشعب. وحيل بينه وبين ما يريد بالفعل، ووجد نفسه وحيدا حبيسا فى قصره، حتى نفرتيتى ذهبت مع

الذاهبين، وعند ذاك غزا الحزن قلبه أمام ضعف الإيمان الذى بذل حياته الغالية فى بثه وتثبيته. وقيل لنا عقب ذلك إن المرض تمكن منه وقضى عليه. والحق أنى أشك فى ذلك، وأرجح أن الأيدى الآثمة امتدت إليه فى عزلته وانتزعت منه روحه الطاهرة الخالدة. وقد مات دون أن يعلم بأننى ما تخليت عنه إلا بالقوة، وفى اعتقادى أن نفرتيتى أبعدت عنه بالقوة أيضا، ولا أتصور غير ذلك أبدا.

وصمت مرة أخرى ليتنهد، ثم رنا إلىّ طويلا وقال:

ـ ولكنه لم يمت، ولا يمكن أن يموت، إنه الحقيقة الباقية والأمل المتجدد، ولينتصرن عاجلا أو آجلا، ألم يعد الإله بأنه لن يخذله؟!

ومال إلى خزانة فاستخرج منها لفافة من البردى فأعطاها لى وهو يقول:

ـ إنها تحوى رسالته وأناشيده، اقرأها يا فتى، وليستجيبن لها قلبك المحب للحقيقة، فإنك لم تقم برحلتك لغير ما سبب..

مـــاى

سعيت إلى لقائه فى رنو كولبورا على الحدود حيث يقيم فى خيمة بين جنوده من جيش الحدود. كان على عهد إخناتون قائدا لجيش الحدود، وما زال يشغل مركزه بكل جدارة فى العهد الجديد. وقد وجدته كهلا عملاقا جاد الملامح معتزا بنفسه لحد كبير. وبعد اطلاعه على خطاب والدى قال بانفعال مرحبا بالفرصة التى دعته للتنفيس عن صدره:

ـ ذلك المارق، مجهول الأب، الذى أذل بشذوذه أعناق الرجال! لقد سكتت طبول القتال، ونكست رايات المجد، ليرتفع صوت الغناء والطرب من فوق عرش الفراعين من حنجرة امرأة قبيحة الوجه متنكرة فى إهاب الرجال. وقد أرغمت ـ أنا قائد الدفاع عن الإمبراطورية ـ على التجمد وأوصال الولايات تتمزق وتقع فى قبضة المتمردين والأعداء، واستغاثات المخلصين من أصدقائنا تتلاشى فى الهواء. أفقدنا ذلك المخبول شرفنا العسكرى، وجعلنا هزأة للمعتدين وفريسة سهلة لقطاع الطرق. ومن حسن حظى أننى لم أكن ضمن حاشيته وإن اقتضى واجبى التردد على أخت آتون بين الحين والحين. وفى كل مرة كانت تتملكنى الحيرة لخدع رجال مثل: آى وحور محب وناخت لغر مشوَّه، وولائهم المذهل له ما بين القصر والمعبد. وكنت وما زلت مخلصا لآلهة بلادى وتقاليدها المتوارثة، يوم بلغنى كفره غضبت

غضبا شديدا، وعقدت العزم على الانضمام إلى المؤمنين إذا شقوا عصا طاعته.

ويوم صدر الأمر بإغلاق المعابد وتشريد الكهنة أيقنت من أن اللعنة الكبرى ستحيق بنا، وستوجه ضربتها إلى الجميع غير مفرقة بين الخبيث والطيب. ولدى زيارة لى لطيبة، جاءنى بليل الكاهن الأكبر لآمون، وسألنى:

ـ هل تجد حرجا فى هذا اللقاء؟

فأجبته بصراحة أدهشته:

ـ لى الشرف، وقصرى رهن إشارتك.

فشكرنى وقال:

ـ إنك من جيل الأبرار يا ماى. انظر إلى الناس كيف فقدوا السلوى والعزاء، كان أهل الإقليم يلوذون بآلهة ويقدمون القرابين، ويفزعون إلى كاهنهم فى الملمات فيرشدهم فى الحياة وحين الموت، ضاع المساكين كالأغنام الضالة..

فقلت بامتعاض شديد:

ـ وما جدوى التشكى؟! ألا ترى أن الواجب يطالبنا بالتخلص منه؟

فتفكر قليلا، ثم قال:

ـ ولكن ذلك سيجر علينا حربا طاحنة!

ـ ألا يوجد حل؟

فقال بيقين:

ـ إقناع رجاله المقربين!

ـ يا له من أمل بعيد!

فقال الرجل بحذر:

ـ لن نعمد إلى وسيلة يائسة قبل أن نستنفد جميع الحيل..

فعاهدته قائلا:

ـ ستجدون جيش الدفاع وراءكم فى اللحظة المناسبة.

ولكن نجاح حملة التحريض عليه اقتضت وقتا طويلا، حلت فيه الكارثة بالبلاد، فلم يبق إلاّ أن ننقذ ما يمكن إنقاذه من تحت الأنقاض. ولقد تساءل كثيرون عن سر المأساة. أقول لك إن سرها يكمن فى ضعف المارق، ضعف جسده وعقله معا. لقد أفرطت أمه فى تدليله فنشأ شديد الحساسية لحد المرض، داعيا بانحطاطه لدى المقارنة بأقرانه المميزين مثل: حور محب وناخت وبك، فأخفى شعوره بالهوان وراء ستار رقيق من التواضع الأنثوى والعذوبة المخنثة، على حين بيَّت الغدر لكل قوى، إلها كان أو كاهنا، ليخطر

وحده فى الساحة، محتكرا لصوت الإله الذى اخترعه، ولقوته غير المحدودة. من ناحية أخرى تصدى ضعفه لكل طامع كإغراء لا يقاوم. أجل، لقد هرع إليه الرجال لا خوفا من قوته، ولكن طمعا فى ضعفه. من أجل ذلك أعلن رجال الإمبراطورية إيمانهم برسالته، فبعث إليهم برسائل الحب حين تمردهم بديلا عن جيش الدفاع. ومن أجل ذلك أعلن الإيمان به رجال لا يرتقى الشك إلى عقولهم مثل: آى وحور محب وناخت، وامرأة داهية مثل نفرتيتى. كان ضعفه الطعم الذى جُذبَ إليه المنافقون والطماعون واللصوص والفاسقون. ولبثوا يتابعون أناشيده فى المعبدَ ثم ينهبون الأموال ويستغلون العباد، حتى تهددهم الموت فتخلوا عنه وانضموا إلى أعدائه محملين بغنائمهم. لذلك أعلنت رأيى للكاهن الأكبر عند اشتداد الأزمة. قلت له:

ـ لا تقم بزيارتك لأخت آتون، لا تنذرهم، دعنى أزحف عليهم وأبيدهم ليستقر قلب العدالة..

وأيدنى توتو بحماس أشد، ولكن الكاهن الأكبر مال مع الحلم وحقن الدماء، فقال لى:

ـ حسبنا ما أصابنا.

وأدركت ما يجول بخاطره. إنه رجل داهية وينظر إلى بعيد. فقدر ولا شك أنه إن أذن لى فى القتال فقضيت على المارق ورجاله، أحرزت بحق الصدارة والبطولة، وحزت بذلك أقوى الأسباب لاعتلاء العرش. وعند ذاك سيجد على العرش ملكا قويا لا يمكن أن يتجاوز حجمه الطبيعى فى رحابه. لذلك جنح إلى السلم واختار للعرش غلاما لا حول له ليكبر ويتضخم على حسابه. وها هم أولاء اليوم يحومون حول العرش، الكاهن وآى وحور محب، ويتربصون بصاحبه. هكذا تجرى الأمور فى مصر التى نضب فيها معين الإخلاص.

على أى حال فنحن اليوم خير مما كنا أمس. لقد هُجر المارق مع ضعفه فمات غما، وها هى ذى الداعرة تنتظر النهاية وحيدة بين أطلال المدينة الكافرة.

وسكت ماى مضفيا على نبرته نغمة الختام، بيد أنى سألته:

ـ ونفرتيتى يا سيدى القائد؟!

فقال بلا مبالاة:

ـ امرأة جميلة خلقت لاحتراف الدعارة فشاء حظها أن تمارس هوايتها فى عشق الرجال من فوق العرش، ولا تصدق ما يحتمل أن تسمعه عن كفاءتها كملكة، فلو كان بعضه حقّا لا كله ما سقطت البلاد فى عهدها فى هوة الفساد والخراب، وقد تخلت عنه فى اللحظة التى فقد فيها نفوذه، ولكنها خابت فى ركوب السفينة الجديدة!

محـــو

زرته فى قريته جنوبى طيبة يعيش من الزراعة بعد أن كان رئيسا لشرطة إخناتون فى أخت آتون. وهو فى الأربعين من عمره، غليظ القسمات واضحها، قوى البنيان، تطل من عينيه الصغيرتين نظرة حزينة.

و لما قرأ رسالتى شبك أصابعه فوق رأسه داعيا بحسرة ذكريات تولت، وأنشأ يقول:

ـ جفت ينابيع السرور من بعده، سامحتك الآلهة يا مصر!

بدأت علاقتى به بطريقة لا تتكرر ولا يحلم بمثلها أمثالى. كنت جنديا من حرس القصر الفرعونى، وكنت ألمحه فى الحديقة من بعيد. وذات صباح رأيته مقبلا نحوى كأنما اكتشفنى لأول مرة فتحولت إلى تمثال بين يديه. نظر إلىّ طويلا حتى شعرت بنظرته تجرى مع دمى وتتردد مع أنفاسى. وإذا به يسألنى:

ـ ما اسمك؟

ـ محو.

ـ من أى مكان أنت؟

ـ من قرية فينا.

ـ صناعة أهلك؟

ـ فلاحون.

ـ لماذا اختارك حور محب فى الحرس؟

ـ لا أدرى.

ـ إنه يختار الشجعان.

فانتفض قلبى سرورا ولم أنبس، فقال بثقة:

ـ إنك شاب صادق يا محو.

فطرت من الفرح ولزمت الصمت، وإذا به يسألنى:

ـ أتقبل صداقتى؟

فتلاشى عقلى من الذهول وتمتمت:

ـ ما أرفع هذا الشرف عن متناولى!

فمضى باسما وهو يقول:

ـ سنلتقي كثيرا أيها الصديق .

تلك واقعة حقيقية ، فهكذا كان يختار رجاله . وترامت إلينا أنباء عن عبادته لآتون ، وتجلى إله جديد له ، كما عزفت على كثب منا أناشيده . وتفتح قلبى لكل ما يجىء منه . جذبنى إليه سحره النفاث وحبى العميق له . لعلّى لم أفهم مما سمعت إلا القليل ، ولعلّى تحيرت طويلا أمام إلهه الغامض الذى لا يتجسد فى تمثال ، ويعامل الناس بالحب دون العقاب ، ولعلّى لم أكفر بآمون ، ولكنى آمنت حبا فى مولاى ، خير البشر وأعذبهم وأرحمهم . عاش فى الحب للحب ، لم يصدر عنه أذى لإنسان أو حيوان ، لم يلوث يده بدم ، ولم يعاقب مذنبا . ولما اعتلى العرش استدعانى وقال لى :

ـ لا ألزمك بشىء تكرهه يا محو ، وسيجرى رزقك هنا أو هناك ، فهل ترغب فى إعلان إيمانك بالإله الواحد الذى لا إله غيره؟

فأجبت دون تردد :

ـ أعلن إيمانى بالإله الواحد يا مولاى ، وأعلن استعدادى للموت فى سبيله .

فقال بهدوء :

ـ ستكون رئيسا للشرطة ، ولكن لن يطالبك أحد بالتضحية بحياتك الغالية . .

كنت على استعداد كامل لمقاتلة الكهنة أنفسهم الذين ترعرعت فى أحضان كلماتهم ورضعت حبهم وتقديسهم . ومع ذلك فلم تصدر عن يدى ضربة واحدة نحو أحد مذ عملت رئيسا لشرطته عدا ضربة واحدة انطلقت من يدى بلا إذن منه . ويوم تسلمت الرياسة قال لى :

ـ ليكن سلاحك منذ اليوم زينة ، أدِّب الناس بالحب كما علمتك ، ومن لم يؤدبه الحب يؤدبه المزيد من الحب . .

وكنا نقبض على اللصوص فنسترد ما سلبوا ، ونهيئ لهم عملا فى المزارع ، ونلقنهم رسالة الحب والسلام . أما القتلة فيرسلون إلى المناجم ، وتوفر لهم أسباب الراحة والرزق ، ويتلقون في أوقات الفراغ دروسا فى الدين الجديد . وكثيرا ما لقينا من ذلك ضروبا من الجحود والغدر ، ولكن حرارته لم تفتر قط ، وكان يقول :

ـ سترون قريبا شجرة الأمل مثقلة بالثمار .

كان إيمانه قويا راسخا متحديا لا يتزعزع ولا يهن ، ذلك الملك العجيب الذى شبَّع الهواء بالسرور فى مدينة النور ، وأثملت أناشيده قلوب الرجال والنساء والطير . كان يومه يمضى على غير ما عهد الملوك من آبائه وأجداده ، فهو يتعبد فى الخلوة ، يخطب من شرفة قصره ، ويلقى أناشيده فى المعبد ، ويتجول فى عربته الملكية فى شوارع أخت آتون ، بصحبة الملكة ، بلا حرس ، مخالطا جموع شعبه ، محطما الحواجز التقليدية بين العرش

والناس ، داعيا فى كل مكان إلى العبادة والحب ، والجميع من الوزراء حتى عمال النظافة يترنمون بنشيد الولاء للإله الواحد .

وذات صباح جاءنى أحد معاونى وقال لى :

ـ ثمة همس بين الصفوة عن أنباء سوء!

باحت الأسرار بما أضمرت من فساد الموظفين ومعاناة الفلاحين وتفشى العصيان فى الإمبراطورية . خرجت الحشرات من جحورها زاحفة وجرى الغدر مع مياه النيل . وأشفق قلبى مما عسى أن يتسلل إلى مولاى من الكدر ، غير أن الأحداث لم تزده إلا صلابة وإيمانا وثقة فى النصر . ولم يهن تمسكه بالحب ، بل لعله قوى واشتد ، وكأن الظلام لم يدلهم إلا ليعده بالنور القريب . وفى تلك الأيام الكالحة تسلل مجرم من صنائع الكهنة إلى خلوته ليغتاله فى غبش الظلام ، وكاد ينجح لولا أن عاجلته بسهم فى صدره . وانتبه مولاى إلى ما أريد به فجعل يتفرس فى وجه المجرم وهو يلفظ أنفاسه ، ووجم طويلا ثم نظر نحوى قائلا فى فتور :

ـ قمت بواجبك يا محو .

فهتفت منفعلا :

ـ إنى فداء لمولاى .

فسألنى بنفس النبرة الفاترة :

ـ أما كان فى مقدورك أن تقبض عليه حيا؟

فقلت صادقا :

ـ كلا يا مولاى . .

فقال بأسى :

ـ دبر الأشرار مؤامرة لارتكاب جريمة يبغضها واهب الحياة فحيل بينهم وبينها ووقعنا نحن فى الشرك .

فقلت بحرارة :

ـ بعض الشر لا يصلحه إلا السيف!

فقال ساخرا :

ـ هكذا يؤكدون ، ويكررون من قبل أن يوحد مينا القطرين ، فهل محقوا الشر؟!

فأخذته نشوة مباغتة فهتف :

ـ متى يرى البشر المشرق والمغرب فى دفقة نور واحدة؟!

انحدرنا من سيئ إلى أسوأ ، وتكشف الرجال عن أشباح خاوية ، وجرفتهم رياح

الخريف أوراقا صفراء جافة لا إيمان لها ولا وفاء، واعتصموا بالكذب لآخر لحظة فقرروا التخلى عنه باسم الدفاع عن حياته. وما أدرى إلا وحور محب يصدر لى أمرا بمغادرة المدينة على رأس جنودى. ولم يكن فى مقدورى مناقشته، وحتى توديع مولاى لم يسمح لى به. وذهبت إلى طيبة وبى غصة ندم لم تفارقنى حتى اليوم. وسُرّحتُ فيمن سُرّح من جنوده المخلصين فرجعت إلى قريتى كاسف البال إلى الأبد. وترامت إلينا نتف من أنباء مولاى السجين فى قصره، ثم أعلن خبر وفاته مريضا فلم يداخلنى شك فى اغتياله. كيف تلاشى الحلم الجميل بهذه السرعة؟! كيف تخلى عنه الإله بعد أن سكب فى أذنيه صوته المقدس الواعد؟ كيف وكيف أيتها الدنيا التى لا معنى لك؟!

وسكت وهو من الحزن فى غاية فاحترمت سكوته هنيهة، ثم سألته:

ـ ترى ما تصورك العام عنه؟

فأجاب فى حيرة:

ـ إنه روح العذوبة والصفاء، ولكنى لا أستطيع أن أقول عنه أكثر مما تقول الوقائع التى سردت..

ـ ونفرتيتى؟

ـ إنها الجمال والجلال.

فقلت بعد تردد:

ـ ما أكثر ما يقال عنها!

فقال بوضوح:

ـ أقول لك كرئيس للشرطة إننى لم أسجل عنها حركة سوء واحدة، على الرغم من أننى قرأت فى أعين حور محب وناخت وماى نظرات جشعة مضمخة بأخبث الشهوات، وعلى مدى علمى أنها لم تشجع أحدا على تجاوز حدوده..

ـ لم انفصلت عنه فى رأيك؟

فأجاب فى حيرة:

ـ إنه لغز لم أستطع حله إلى الآن!

ـ يُخيّل إلىّ أنك كفرت بإله مولاك؟

فأجاب بعبوس:

ـ لم أعد أومن بإله!

ناخــت

سليل أسرة عريقة، ربعة، ذو وجه أبيض مشرب بحمرة، رزين أكثر من أى إنسان، فى الأربعين أو نحوها، كان وزير إخناتون، وهو يعيش اليوم فى مقاطعته بإقليم دكما فى وسط الدلتا. لم يشغل وظيفة فى الدولة الجديدة، ولكنه يدعى من حين لآخر لاستطلاع رأيه فى المشكلات الكبرى. رحب بى منوها بالعلاقات القديمة التى تربط بين أسرتينا ثم مضى يدلى برأيه ـ متجاوزا الأحداث التى باتت معروفة لدى وهو يقول:

ـ دعنى أخبرك بأننى رجل غير سعيد، لم أستطع أن أضطلع بمسئوليتى كما يجب، فأفلت منى الملك، وتمزقت تحت بصرى الإمبراطورية. لقد اعتزلت الحياة العامة، ولكن الهموم لم تعتزل قلبى. وكلما ألح علىّ الكدر ساءلت نفسى: أى رجل كان مولاى إخناتون الذى وُصف اليوم بالمارق؟

كنت من رفقاء صباه مثل: حور محب وبك، وعلى رغم كل ما يمكن أن يقال عن ضعفه وأنوثته وغرابة منظره فقد نجح فى حملنا على حبه، والإعجاب بقوة إدراكه ونضجه المبكر. ولكن ثمة نقطة ضعف اكتشفتها فيه قبل الآخرين وهى أن شئون الدنيا الواقعية لم تكن تهمه، وكانت تبعث فى نفسه الملالة والسقم. كان يرمق بعين ساخرة حياة أبيه اليومية التى تكون النواة الصلبة التى ترتكز عليها تقاليد العرش المقدسة مثل: الاستيقاظ فى ساعة محددة، والاستحمام، والإفطار، والصلاة، واستقبال المسئولين، وزيارة المعبد، وكان يغمغم:

ـ أى عبودية!

كان يعبث بالتقاليد عبث طفل مدلل لذته فى التحدى وتحطيم الآنية الثمينة، ومن ناحية أخرى كان يطمح إلى معرفة سر الكون، والسيطرة على الحياة والموت. وتضاعف إصراره على ذلك بعد وفاة أخيه الأكبر تحتمس. لقد انكسر قلبه أمام الموت، ولكنه صمم على أن يرد الضربة بلا هوادة. وكان ذا خيال وثاب، وكان خياله من القوة بحيث وقع فى النهاية أسيرا له وهو لا يدرى. ونحن أيضا كان لنا خيال، ولكننا كنا على وعى بأنه خيال. أما هو فكان خياله يتجسد له حقيقة واقعة. من أجل ذلك ظن به الجنون أو العته. كلا، لم يكن مجنونا ولا معتوها، ولكنه لم يكن طبيعيا أيضا. كان على حداثته مبعث قلق لوالديه وللكهنة، ومصدر حيرة لنا نحن أصدقاءه المقربين. يشك فى آمون سيد الآلهة، ويعبد آتون ثم يسر إلينا باهتدائه إلى الإله الواحد الذى لا إله غيره. لم أشك فى

صدقه، كما لم أشك فى خطئه. كان صادقا لأنه لم يكذب قط، ولكنه لم يسمع صوت إله، وكان المتكلم قلبه هو. وما من بأس فى أن يزعم ذلك كاهن من الكهنة، أما أن يكون الزاعم وليا لعهد أمنحتب الثالث فالأمر يختلف. ولم يصمت ذلك الصوت الخفى، ولكنه راح يبدع للناس رسالة فى الحب والسلام والسرور، ويضمر للآلهة والمعابد وإمبراطوريتنا الفناء. وإذا بالشاعر يصير ملكا، وإذا بالحلم يتجاهل الحقيقة ويحل محلها فتختل الموازين وتقع المأساة. ودعانا عقب جلوسه على العرش وعرض علينا دينه الجديد! كان من رأيى الرفض، وقلت لحور محب:

ـ قد يعدل عن غيه إذا وجد نفسه وحيدا.

فقال لى:

ـ سيجد غيرنا ممن لا خلاق لهم ولا خبرة فيجرون البلاد إلى الخراب.

فسألته:

ـ أليس من المحتمل أن يقع ذلك بأيدينا؟

فابتسم ساخرا وقال:

ـ إنه أضعف من أن يستهين برأينا!

وهز منكبيه وتمتم:

ـ إنه يملك الكلمات ونحن نملك القوة..

من أجل ذلك أعلنت إيمانى بدينه بين يديه. واختارنى وزيرا فتلاشت مخاوفى أو كادت. وكنت ألقاه كل يوم سواء فى طيبة أو فى أخت آتون، فأعرض أمور الإدارة والمال والمياه والأمن فيلوذ بالصمت تاركا الرأى والتوجيه للملكة التى أثبتت جدارة فاقت كل تصور، أما هو فلم يتحدث إلا عن إلهه ورسالته، وما يتعلق بذلك من توجيهات وقرارات. وواجهت أول تحد عندما أراد أن يعلن موقفه من الآلهة، وحذرته من العواقب وإذا به يقول لى كالمعاتب:

ـ يا ضعيف الإيمان!

ومضى بى إلى الشرفة فأطل على الجموع المحتشدة، وكانت له قوة السحر فى نفوسهم، فأعلن قراره بقوة مخيفة وارتفع هتاف الجماهير إلى السماء، وشعرت بأننى أصبحت لا شىء، وأن ذاك البناء المتهافت يتفجر عن قوة مجهولة لا قبل لنا بها. وعلى رغم حكمة نفرتيتى كانت تسلم له فى رسالته وتتحمس لها كأنها هى صاحبة الرسالة. والحق أن ذلك أدهشنى حتى قلت لنفسى:

ـ هذه المرأة: إما أن تكون شريكته الروحية، أو تكون أكبر ماكرة عرفتها البشرية! وفى

تقديرى أنه مما أكد له النجاح أنه لم يتصد لمعارضته سواى. فحور محب لم يتكلم إلا عندما بلغت الأزمة ذروتها، وأما آى المستشار فقد شجعه طيلة الوقت متظاهرا بالحماس والورع والتفانى فى حب الإله الجديد. ودعنى أصارحك بأننى أتهم ذلك الرجل بالمكر وسوء الطوية، إنه رسم خطة ليثب إلى عرش مصر، وإليك تصورى كاملا. لقد اختير معلما لولى العهد فوقف على نقاط ضعفه جميعا. هو الذى وجهه إلى ديانة آتون، وهو الذى بث فى روحه فكرة الإله الواحد وأنه صاحب رسالته. وهو الذى دبر زواجه من ابنته رغم علمه بعجزه، وأقنعها بالتظاهر بالإيمان الجديد. بذلك صار حما الملك ومستشاره المعروف فى مصر بالحكيم. وزين له مصادرة الآلهة ليوقع بينه وبين الكهنة والشعب فينتهى الصراع بعزله أو قتله إن لم يمت قبل ذلك لضعفه الطبيعى. ولم تكن تخفى عنه الأسباب التى ترشحه للعرش، فهو حمو الملك وهو الحكيم، وهو أيضا طاعن فى السن لا ييأس الطامعون فى العرش من انتظار أجله ليحلوا محله. ولعله رسم أيضا أن يتزوج من ابنته نفرتيتى فيدعم شرعيته وتستمر هى ملكة لمصر. ورأيى هذا لا يستند إلى تصورى وحده، ولكن لما وافانى به بعض العيون، ولكن أفشل خطته ولاء الشعب للملك أولا، ثم تولية الكهنة لتوت عنخ آمون عند ذروة الأزمة، ولكنى أعتقد أنه ما زال يجتر حلمه القديم.

ولم أستطع أن أبوح برأيى لأحد، ولكننى ثابرت على تقديم نصحى للملك، قلت له:

ـ لا شك فى أن إلهك هو الإله الحق، ولكن دع الناس إلى آلهتهم، شيد له فى كل إقليم معبدا وسيكون له النصر الأخير، ولكن جنب البلاد شر الفتن!

ولكن كان أسهل علىّ أن أزحزح الهرم عن موقعه عن أن أزحزح إخناتون عن قراره، وما زاد عن أن قال لى:

ـ يا ضعيف الإيمان!

وقمت بالمحاولة نفسها لإنقاذ البلاد من الفساد، والإمبراطورية من الضياع، قلت له:

ـ الدفاع عن النفس حق ولا يتناقض مع الحب والسلام.

فقال لى بحماسه العجيب:

ـ حتى الحيثيون أنفسهم سيخشعون لسحر الحب، الحب أقوى من السيف والكبرياء!

ولما تراكمت سحب الظلام اجتمعت سرا بكاهن آمون وقائد الدفاع ماى، وقلت لهما:

ـ لا بد من الإقدام على عمل وإلا فقدنا الجدارة والشرف.

فنظرا إلىّ مستطلعين فقلت :

ـ فليكف الكهنة عن إثارة القلاقل فى الداخل ، وليزحف ماى بجيش الدفاع لإنقاذ الإمبراطورية .

فتساءل ماى :

ـ أزحف بلا أمر من فرعون؟

فقلت بهدوء :

ـ نعم . .

فتساءل الكاهن وكان أقوى ثلاثتنا :

ـ وبعد؟

فقلت :

ـ حينما يتم النصر لماى يطالب الملك بإطلاق حرية الأديان .

وإذا بالكاهن يقول لى :

ـ خطة غير حكيمة فقد يتمرد قواد الجيش على ماى إذا أمرهم بالزحف دون أمر فرعونى . .

ثم قطب حتى احتقن الدم بوجهه ، وقال لى :

ـ إنك تعمل لحساب مولاك يا نخت لا لحسابنا ، فلا شك فى أنه بلغك نجاحنا فى بث دعوتنا فى الأقاليم فقررت أن تحرمنا من جنودنا الموالين لنا . .

تلقيت الطعنة فى غضب وغادرتهما موقنا بأن أحدا لا يشغل باله إلا بمصلحته الذاتية ، وأن مصر ضائعة بين أوغاد ، وأن تبعة خرابها تقع على الجميع ما بين موالين للملك والمعارضين له لا على إخناتون وحده ، بل لعله أنقى المذنبين ضميرا وأصفاهم نية . لقد لعب به الدهاة ، ورسموا له خطة ماكرة ليحققوا فى رحابه جشعهم ، ثم ليرثوا ملكه عقب السقوط الحتمى ، ولكنه صدق كذبتهم وآمن بها ، وتفجرت من إيمانه قوة لم يعمل أحد حسابها ، فاجتاحتهم فترة من الزمن ، وغزت القلوب بسحر عجيب ، حتى ارتطمت بصخرة الواقع الحادة القاسية ، فانجلت عن مأساة وخراب ودموع ، ثم لاذ الانتهازيون الجشعون بقارب النجاة فى آخر لحظة ، تاركين ضحيتهم الأعجوبة يغرق وحده وهو لا يصدق أن إلهه المزعوم قد تخلى عنه حقّا . ومزق الجميع أقنعتهم ، وعلى رأسهم آى ونفرتيتى ، واختلفت مصائرهم ، ولكن لم ينل أحدهم جزاءه الحق ، باستثناء المارق المسكين ، ولدرجة ما نفرتيتى التى لم يقبل الكهنة توبتها الزائفة ، أما مصر فقد تحملت أخطاء الجميع وتعددت فى جسدها الجراح . .

وصمت الوزير طويلا ، ثم تمتم فى أسى عميق :

ـ هذه هى قصة الخداع والبراءة والحزن الأبدى . .

بنتـــو

كان طبيب إخناتون الخاص ، وما زال يشغل نفس الوظيفة فى قصر توت عنخ آمون ، فى الستين من عمره ، نبيل المظهر ، وينبض به عرق نوبى ، وقد زرته فى قصره الأنيق فى وسط طيبة . وجدته هادئ الطبع ، خافت الصوت ، جم النشاط متأنقا فى ملبسه . مضى يتكلم فى استسلام لتيار الذكريات ، قائلا :

ـ مهما قيل عن إخناتون الذى يعرف اليوم بالمارق فإن ذكراه تدفئ القلب بالحب ، وتتحدى الذاكرة بعجائبها ، هل حقّا عاش ذلك الرجل بيننا؟ هل حقّا كرس حياته للحب؟ وهل حقّا خلف وراءه هذه العواصف من الحقد والكراهية؟ وكلما تذكرته تذكرت معه القلق الذى أثاره فى قلوب القريبين منه والبعيدين منذ صباه المبكر . كانت الملكة العظمى تيى تسألنى :

ـ ما سر ضعفه يا بنتو؟

شد ما حيرنى ذلك السؤال . لم يكن به مرض ، ولكنه كان نحيلا هزيلا شاحب اللون ، لا يمكن أن يصمد لمرض أو حادث ، بخلاف شقيقه تحتمس القوى الجميل ، ولم يحب الألعاب الرياضية ولا الطعام الجيد . وكنت أصلى إلى تحوت إله العلم وأقول له : «تعال إلىّ وأرشدنى فإنى خادم فى دارك» . ولم ينفع معه عصير الأعشاب المباركة برقية إيزيس ولا تمائم تحت كاتب رسائل الآلهة . وبلغ الخوف غايته عندما مسه المرض فى الخماسين ، وجر معه أخاه تحتمس فرقدا فى حجرة واحدة . وقالت لى الملكة تيى :

ـ بهما إمساك ، وانظر إلى صفرة وجهيهما . .

ففحصتهما وقلت :

ـ بالقلب حرارة وفى البطن انتفاخ ، لا بد من شراب يفرغ الأمعاء ، ثم انقعوا جعة حلوة مع دقيق جاف لمدة ليلة واحدة ليأكلا منه أربعة أيام .

قبل أن تنتهى الأيام مات تحتمس القوى ، ونجا الضعيف من كل سوء . ودار الصبى فى جميع أنحاء القصر يبحث عن شقيقه وقلبه يتقطع من الحزن . وكلما رآنى رمانى بنظرة احتجاج ويقول :

ـ تركت أخى للموت!

ونظر إلى أبيه وقال معاتبا:

ـ عندما أصير فرعون سأقتل الموت!

وسألنى يوما بحرارة:

ـ ألا يمكن أن يرجع تحتمس يوما واحدا؟!

فقلت له:

ـ صل للآلهة التى أنقذت روحك، أما الموت فلا رجعة منه. وكلنا سنموت . .

فسألنى بحدة:

ـ لماذا؟

فقلت له ملاطفا:

ـ ردد الأغنية التى كنت تترنم بها مع أخيك الراحل:

أولئك الذين يتحدث الناس بكلامهم

أين ديارهم الآن؟

كأنها لم تكن

افرح حتى تنسى قلبك

فإن أوزوريس لا يسمع العويل

ولا ينقذ الصراخ إنسانا من عالم الأموات.

وصاحبه الحزن زمنا طويلا حتى خُيِّل إلىّ أنه فاق أمه فى حزنه على أخيه. ومرة وأنا أتعهده بالرعاية الطبية سألنى:

ـ لم هذا الجهد كله طالما أننا كلنا سنموت؟

فابتسمت وواصلت عملى، فرجع يسأل:

ـ لم تبتسم كأنك لن تموت؟

فقلت له متهربا من مطاردته:

ـ سل معلمك آى.

فقال باستهانة:

ـ إنه لا يعرف أكثر مما تعرف.

وكان نضج حديثه مع هزاله وحداثته مما يهز النفس من أعماقها. وقد تابعت مغامراته الروحية بنظر ثاقب مسربل بالإعجاب الذى لا حد له، وقلت لنفسى: إن هذا الغلام ذو

موهبة غامضة خارقة تستعصى على الإدراك، مثير للقلاقل، متحدية للقوى المتربصة به، فماذا يخبئ له الغيب إذا جلس يوما على عرش أجداده؟ وكان نشاطه ـ مع ضعفه ـ مما يبعث على الذهول. كان ينام قليلا، يتعبد كثيرا كأنه كاهن، ويقرأ كثيرا كأنه حكيم، ولا يمل من طرح الأسئلة والنقاش. وضاق به الملك أبوه، فقال بمرارة:

ـ أثبت أنه جدير بأى كرسى إلا كرسى العرش!

ويوما لاحظت أنه يسترق من أبيه نظرة لم أرتح لها، فقلت له:

ـ إنك تدرك كثيرا من الأشياء، ولكنك لم تدرك عظمة أبيك بعد.

فقال بعصبية:

ـ ساءنى منظره وهو يلتهم الطعام.

كان ينفر من أصحاب الشهوات المسيطرة. وكنت أتصور أن سلامة الجسم هى أساس لسلامة الروح، فأثبت لى أن العكس صحيح أيضا، وأن قوة الروح قد تمد الجسم الضعيف بقوة تفوق إمكاناته. ولا أنسى قوله لى مداعبا:

ـ إنك تهتم بالجسم كأنه كل شىء بينا القوة الحقيقية تكمن فى الروح، هى الخالدة، أما الجسم فهو بناء مهلهل قذر سيئ الأخلاق سرعان ما يتقوض عقب قرصة حشرة!

وهتف وكأنه نسى وجودى تماما:

ـ لا أدرى ماذا أريد، ولكنى ملىء بالرغبة، ألا ما أحزن الليل الطويل!

وكان يقبع فى الظلمة منتظراً الشروق ثم يتلقى النور فيتألق بالفرح، حتى تلقى يومًا مع دفقة النور صوت الإله الواحد، وعصف الرعب بقلب طيبة المطمئن. وقلت لنفسى:

ـ إنه ليس نسمة من نسائم الربيع، ولكنه عاصفة من عواصف الشتاء!

واستدعانى الملك والملكة، وسألتنى تيى:

ـ ما معنى هذا الصوت يا بنتو؟

فقلت بحيرة:

ـ لعل آى الحكيم أقدر على الإجابة منى يا مولاتى.

فقال الملك بضجر:

ـ إنها تسألك كطبيب.

فقلت بإخلاص:

ـ لا أعرف عقلا أنضج من عقله يا مولاى.

فسألنى بحدة:

ـ أهو يعبث بنا؟

فقلت بإخلاص :

ـ إنه صادق وأمين .

ـ يبدو أنك لا تملك تفسيرا لذلك .

ـ هذا حق يا مولاى .

فسألنى مقطبا :

ـ أأنت مؤمن بسلامة عقله؟

ـ أجل يا مولاى .

ـ ألا يحتمل أن يصدر صوت عن قوة شريرة؟

فقلت بصدق :

ـ العبرة بما يدعو إليه .

فهتف غاضبا :

ـ العبرة بما سيرسل علينا من زوابع .

وجاء زواجه من نفرتيتى مبشرا بآمال كثيرة فأمل والداه كما أملنا نحن أن الزواج سيعقل من اندفاعه ويرده إلى الاتزان والرؤية العملية . ولكن الزوجة كانت كاهنة فانطلقا فى طريقهما حتى نهايته لا توقفهما قوة فوق الأرض . ومات أمنحتب الثالث وخلفه صاحب الرسالة ، وشعر الجميع بدنو المعركة وتوترت الأعصاب لأقصى حد . ودعانى الملك فيمن دعا من رجاله وخيرنى بين الإيمان بدينه وبين ممارستى لحياتى كيفما أشاء بعيدا عن بلاطه ، ولم أتردد فى الاختيار فأعلنت بين يديه إيمانى بالإله الواحد . لم يكن فى وسعى الانفصال عنه أو الاستهانة بجاذبيته الفائقة ، كما أننى أحببت إلهه واعتبرته فيما بينى وبين نفسى كبير الآلهة مع حفاظى على إيمانى القديم بسائر الآلهة ، وبخاصة تحوت إله العلم الذى أداوى المرض بتمائمه وتعاويذه . وتعاقبت الأحداث كما عرفت ، ومضى الرجال يشيدون للإله الجديد مدينته ، وانتقلنا إليها فى جمع زاخر ونحن نردد الأناشيد ، واستخف الفرح الملك فهتف ووجهه يطفح بالبشر :

ـ ها نحن أولاء ضيوفك يا إلهى فى مدينتك الطاهرة التى لم تلوث بعبادة إله زائف . .

واستقبلنا عهدا سعيدا تمنينا معه الخلود على الأرض ، وجعلت أقارن كل صباح بين ما يلقى علينا فى المعبد وبين طقوس الآلهة القديمة وأشعار كتاب الموتى فلم يخامرنى شك فى أن دفقات من نور صاف تملأ أرواحنا بخمر إلهية صافية .

وعرض لنا أول عارض من كدر بوفاة الأميرة المحبوبة ميكيتاتون . وقد توسل إلىّ قائلا :

ـ بنتو، أنقذ محبوبة قلبى.

ولما لفظت الجميلة أنفاسها أجهش فى البكاء كما نفرتيتى وأكثر، وعاتب إلهه عتابا تجاوز حد الصبر، حتى قال له مرى رع الكاهن الأكبر:

ـ لا تغضب الإله بدموعك يا مولاى.

فانفجر مولولا، من الحزن أو الندم أو كليهما معا. وهتفت نفرتيتى:

ـ ما هو إلا سحر كهنة آمون!

وكانت تردد ذلك القول كلما أنجبت بنتا وضاعت فرصة جديدة لإنجاب ولى العهد. وكان هو يشاركها الألم، ويحزن لحزنها، فسألنى مرة:

ـ أليس لديك من نصيحة تجدى لإنجاب ذكر؟

فقلت له:

ـ أبذل جهدى يا مولاى.

فسألنى:

ـ أتؤمن بسحر الكهنة؟

فقلت كارها:

ـ لا يجوز الاستهانة به.

فتفكر مليا، ثم قال لى واجما:

ـ لينتصرن الإله الواحد، ويملأن الكون بأفراحه، ولكننا نحن البشر لن نخلو من أحزاننا الصغيرة.

لذلك كان سرعان ما يعبر جسر الحزن لينغمس فى نور الحقيقة. ولما تتابعت كربات الأزمات فى الداخل والخارج، أرسل إلىّ كاهن آمون الأكبر رسولا سريا، ذكرنى بعرض طلبى العلم فى معبد آمون، ثم طرح علىّ هذا السؤال:

ـ أيمكن الركون إليك لإنقاذ الوطن من الخراب الذى يتهدده؟

فأدركت من توى أنه يطالبنى كطبيب باغتيال الملك، ولذلك قلت له بنبرة حاسمة:

ـ مهنتى تأبى الخيانة.

اجتمعت بمحو رئيس الشرطة وطلبت منه مزيدا من مراقبة الطهاة، هذا والأمور تمضى من سيئ إلى أسوأ.

وسكت الطبيب بنتو وقتا ينشد شيئا من الراحة فى خضم الذكريات المرهقة فتذكرت ما سمعت من أقوال متضاربة عن حياة إخناتون الجنسية، ورجحت ألا يعرض الرجل لها، فسألته عنها مدفوعا بحب استطلاع لا يقاوم. وعند ذاك قال:

ـ كان جسمه يجمع بين خواص الذكر والأنثى، كذلك قسمات وجهه، ولكنه كان رجلا قادرا على الحب والإنجاب.

ارتعشت شفتاى بسؤال مضطرم، وترددت طويلا، ثم استجمعت شجاعتى وسألته:

ـ هل ترامى إليك ما قيل عن علاقته بأمه؟

فتجهم وجهه وأجاب:

ـ وسمعت مثلما سمعت أنت، ولكنى أعتقد أنه محض افتراء!

وتريث ووجهه يزداد تجهما، ثم قال:

ـ المسألة أنه كان إنسانا فاق سموه أى إنسان، يبشر بمملكة إلـهية لا تتوافق مع طبيعة البشر، فأشعر كل فرد بتفاهته، وتحداه باستفزاز لا قبل له به، فانهالوا عليه بالغضب البائس والحقد الحيوانى..

فسألته متشجعا بسماحته:

ـ وما رأيك فى نفرتيتى؟

ـ ملكة عظمى بكل جدارة.

ـ وكيف تفسر انفصالها عنه؟

ـ لدى تفسير واحد، هى أنها لم تصمد للضربات المنهالة فأصيبت بانهيار، فهربت بمرضها مغلوبة على أمرها.

ثم واصل حديثه قائلا:

ـ وبلغت المأساة ختامها الأسود بصدور قرار التخلى عنه، وقد استأذنت حور محب فى السماح لى بالبقاء إلى جانبه بوصفى طبيبه الخاص فأخبرنى بأن الكهنة قرروا إرسال طبيب من لدنهم! ولكنه سمح لى بفحصه إذا شئت قبل الرحيل. وذهبت من فورى إلى القصر الذى لم يبق به إلا نفر من العبيد، ومجموعة للحراسة اختارها أعداؤه. وجدته فى خلوته وحيدا وكان يصلى، مغردا بصوته الحنون:

إنك جميل.. إنك عظيم
بك يفرح قلب الإنسان
وتخضر الأشجار والأعشاب
وترفرف الطيور
وتقفز الحملان
خلقت ملايين الأشبال

إنـــــك فــــى قـــلــــبـــــى

ولـيــس هـنـاك مــن يـعــــــــرفـك

غـــــــيــــــــر ابـنـك إخـنـاتـون.

ولما فرغ من صلاته نظر نحوى باسما فغضضت بصرى دامع العينين. سألنى:

ـ كيف تيسر لك أن تجىء يا بنتو؟

فقلت بصوت متهدج:

ـ سمح لى بأن أفحص مولاى قبل الرحيل.

فقال فى هدوء:

ـ إنى فى خير حال يا بنتو.

فقلت بأسى:

ـ جميع الأوفياء أكرهوا على الذهاب.

فقال باسما:

ـ أعرف من ذهب باختياره ومن ذهب على رغمه.

فانحنيت حتى لثمت يده وأنا أقول:

ـ يعز علىّ أن تبقى وحدك.

فقال بهدوء:

ـ لست وحدى يا ضعيف الإيمان.

ثم بقوة منعشة:

ـ يتصورون أن الهزيمة حلت بى وبإلهى، ولكن إلهى لا يخون ولا يقبل الهزيمة.

وغادرته متورم العينين من البكاء وأنا على يقين من أن الطبيب المنتدب ليحل محلى سيزهق باغتياله أنبل روح حلت بجسد بشرى.

وغصت فى وحدة لم أخرج من وحشتها حتى الساعة..

نفـــرتيتـى

سُمح لى بدخول أخت آتون بإذن خاص من القائد حور محب. مراكز الحراسة المتقاربة تمتد بطول شاطئها على النيل. اخترقت نصف المدينة الشمالى ما بين المرسى وحتى قصر الملكة السجينة، يتقدمنى جندى من جنود الحراسة. وطيلة مسيرتى تلقيت

من الذكريات تيارا مفعما بالزبد واللآلئ، متلاطما بين العبر والدهشة، تحلق فوقه غربان الفناء. اختفت أرض الشوارع العملاقة تحت ركام الأتربة ونثار أوراق الأشجار الجافة. وخليط من الأخشاب التى نزعتها العواصف من النوافذ والأبواب. البوابات الكبيرة مغلقة كالجفون المسدلة على أعين باكية، وجفت الحدائق فتلاشت خضرتها وألوانها، ولم يبق منها إلا جذوع خشنة ضامرة كالجثث المحنطة وجواسق متداعية وأسوار منهارة، يخيم فوقها صمت ثقيل مكتوم الزفرات، وفى الوسط مجموعة هائلة من الأنقاض هى ما تخلف عن معبد الإله الواحد المتهدم الذى تجاوبت فى أركانه أعذب الألحان المقدسة. اخترقت الكآبة والوحشة والخوف تطل من أعينها نظرات الحقد والانتقام، ويطبعها بطابعه الموت بملامحه الرهيبة الأبدية. كان الوقت عصرا ونحن نقبل على قصر الملكة فى أقصى الشمال، وقد تبدى شامخا بأبعاده، مضيئا بحديقته الغناء، حزينا بنوافذه المغلقة عدا نافذة واحدة خفق لمرآها قلبى. وكان الخريف يتوسط عمره، والفيضان محتفظا بفيض من فتوته، والماء ضاربا إلى الاحمرار الداكن، فامتلأت منه بحيرة القصر الصناعية. خفق قلبى وأنا أقترب من ختام رحلتى، وكأننى لم أقم بمغامرتى المثيرة إلا من أجل لقاء هذه السيدة الوحيدة.

ووجدتنى فى حجرة صغيرة أنيقة، زخرفت جدرانها بالكلمات المقدسة، فى صدرها كرسى من الآبنوس يقوم على أربعة أسود من الذهب، وبين يديه يقع كرسى من الآبنوس ذو مقبضين من الذهب الخالص. وجاد الزمان بالرؤية فرأيت السيدة العجيبة مقبلة فى ثوب أبيض فضفاض، رشيقة جميلة عظيمة، لا ينحنى ظهرها تحت وطأة أربعين عاما مثقلة بالمحن وسوء المآل. جلست وأشارت إلىّ بالجلوس وطالعتنى بعينين ساجيتين تنداح فى جمالهما الملالة. بدأت بالثناء على أبى، ثم سألتنى بمرارة:

- كيف وجدت مدينة النور؟

فغضضت بصرى المفتون بجمالها ولذت بالصمت، فأنشأت تقول:

- لقد سمعت الكثير عنه وعنى فاستمع الآن إلى صوت الحقيقة.. شببت وترعرعت مليئة بحب الحقيقة والدنيا منتفعة بحكمة أبى آى. لم أشعر بفقد أمى فى عامى الأول لما وجدته عند تى من حنان قلب كبير فكانت لى أما لا زوجة أب، ووهبتنى طفولة سعيدة. ولم تتبدل عواطفها بمولد أختى موت نجمت بفضل حكمتها، ونشأنا أختين متحابتين، وإن جنى على تفوقى بعد ذلك ما يجنى من إثارة للغيرة والحسد، وإن لم يستفحل ذلك بيننا إلا فيما بعد. وظلت تى على حنانها لا تفرق بيننا، على الأقل فى الظاهر، فشكرت لها ذلك، وكافأتها عليه فى حينه فاخترتها مربية للملكة وأنزلتها بمنزلة الأميرات، وذات يوم جاءنا أبى برجل مبارك ممن يقرءون الغيب، فنظر فى طالع الأختين، وقال:

ـ هاتان البنتان ستجلسان على عرش مصر .

فدهش أبى وسأله :

ـ الاثنتان؟!

فأجابه بيقين على مسمع منا :

ـ الاثنتان .

وتحيرنا طويلا بين الإيمان بالرجل وغرابة نبوءته ، حتى قلت ضاحكة :

ـ قد تجلس إحدانا ثم تخلفها الأخرى .

ولم ترتح تى إلى ما يشير إليه قولى من معنى ، فقالت بحزم :

ـ لننس هذه النبوءة وندع المصير للآلهة!

وصممنا على نسيانها ، ولكنها كانت تلوح فى أفق الخيال بين الحين والحين ، حتى جاءت الحوادث ففجرتها تفجيرا . وسمعت عن إخناتون أول ما سمعت عن طريق أبى بعد أن اختير معلما له . كان ينوه فى مجالسنا العائلية بعقله ونضجه المبكر . ومرة قال عنه :

ـ يا له من شخص مثير! إنه ينتقد الآلهة والكهنة ، ولم يعد يؤمن إلا بآتون! وبخلاف أمى وأختى وجدت صدى لما يقول فى نفسى ، إذ كنت أعشق آتون أيضا ، أعجب بمجاله الشامل للسماء والأرض ، على حين تقبع الآلهة فى ظلام المعابد . لذلك قلت ببراءة :

ـ معه الحق كل الحق يا أبى .

فأسخط قولى أمى وأختى ، أما أبى فقال باسما :

ـ نحن نعدك لتكونى زوجة لا كاهنة .

لكننى خلقت لأكون كاهنة مع حبى للأمومة والمجد الدنيوى! ولما نقل إلينا أبى أول نبأ عن الإله الجديد ، الواحد الذى لا إله غيره ، زلزلنا بعنف ، وثارت العواطف لأقصى حد ، وتعرض ولى العهد لقارص الكلمات . وسألته أمى :

ـ ما رأى الملك والملكة؟

فقال آى واجما :

ـ ثمة أزمة فى القصر لم يشهد لها مثيلا من قبل .

وقالت أمى بإشفاق :

ـ أخشى أن يوجه إليك لوم بوصفك معلمه .

فقال بأسى :

ـ لكنهما أدرى بابنهما، وبأنه لا ينساق وراء أحد مهما جل شأنه.

فقالت موت نجمت :

ـ إنه مجنون، وسيفقد عرشه، أليس للعرش وريث آخر؟

فقال أبى :

ـ ليس له سوى أخت كبرى عليلة . .

وفى أثناء الحوار كنت أموج بعواطف عنيفة حتى خفت أن يغمى علىّ. تمثل لى ولى العهد أسطورة ذات جاذبية لا تقاوم. لكننى ترددت عن اتخاذ قرار ووقعت فى العذاب. وذات مساء سمعت خفية أبى وهو يتلو وحده نشيدا من أناشيد الأمير :

إنك جميل.. إنك عظيم
بك يفرح قلب الإنسان
وتخضر الأشجار والأعشاب
وترف الطيور
وتقفز الحملان

فحفظته وأنا فى نشوة مسكرة، ورحت أردده وقلبى يتفتح له ويمتلئ برحيقه. انجذبت إليه انجذاب الفراشة إلى النور. وتقرر مصيرى بأن أكون الفراشة التى تنجذب إلى النور حتى يهلكها. وغزانى الإيمان بقوة ولطف فى موكب مغرد بالأهازيج، واهبا الطمأنينة والسلام. وهمست :

ـ يا إلهى الواحد، إنى مؤمنة بك، إلى الأبد.

وأظهرت نفسى لأبى وأخذت أردد النشيد فرمقنى مقطبا وهو يتساءل :

ـ تسترقين السمع؟

فتجاوزت عتابه وسألته :

ـ ما رأيك يا أبى فى الصوت الذى سمعه؟

فأجاب ببرود :

ـ لا أدرى.

فسألته بجرأة :

ـ أيحتمل أن يكون كاذبا؟

فصمت مليا، ثم قال :

ـ إنه لا يكذب أبدا.

ـ إذن فهو صوت حقيقى !

فبدا مترددا ومشفقا ، ولكنه قال :

ـ ربما كان حلما ما سمع !

فقلت بنبرة تسليم واعتراف :

ـ أبى ، إنى مؤمنة بالإله الواحد!

فتغير لونه وهتف :

ـ حذار يا نفرتيتى ، احتفظى بسرك فى قلبك حتى أقتلعه منه!

ودُعينا كما تعلم للمشاركة فى حفل عيد الجلوس . وقالت لنا تى :

ـ يجب أن يراكما أنبل شباب مصر وأنتما فى أجمل زينة .

غير أننى كنت متلهفة على رؤية شخص واحد ، ذلك الذى هدانى إلى نور الحقيقة . وفى البهو العظيم رأيت أفرادا قدر لى أن أخوض معهم بحر الحياة بحلوه ومره مثل : حور محب وناخت وبك وماى وغيرهم ، ولكن قلبى لم ير فى الواقع إلا مولاى . وأعترف لك بأن منظره صدمنى صدمة غير متوقعة . تصورته تمثالا من نور ، ولكنى وجدته نحيلا متهافتا مخيبا للأحلام . وأفقت من هزيمتي العابرة بسرعة ، تجاوزت المنظر المثير للرثاء إلى الروح الكامنة فيه ، التى اختصها الإله بحبه ورسالته ، وأعلنت لها فيما بينى وبين نفسى الولاء إلى الأبد . كان يجلس إلى يمين أبيه يتابع الرقص والغناء بعين فاترة . ولم تتحول عنه عيناى ، ولعل كثيرين لاحظوا ذلك وفسروه بحسب أهوائهم ، ثم أعادوا تفسيره على ضوء الحوادث التالية . ولن أنسى ما قالته لى موت نجمت فيما بعد وهى تعانى لدغة الغيرة :

ـ لقد حددت لك هدفا ونلته!

وتمنيت أن ينظر نحوى . وقد فعل . ألقى إلينا نظرة عابرة فالتقت عينانا لأول مرة . وهمّ بأن يمضى بنظرته الملولة ، ولكنه توقف فيما يشبه الدهشة . وكأنه بهر ، أو تساءل : عمن تكون تلك الفتاة التى تحدق فيه بنهم . وحانت منى التفاتة إلى الملكة العظمى تيى فوجدتها تنظر نحوى كذلك فاضطرب فؤادى أيما اضطراب . وحلقت أحلامى فى آفاق بعيدة ، ولكنها لم تقترب فى هيمانها من الواقع الذى جاءت به الأحداث . ورجعنا إلى قصرنا وصدورنا تجيش بآمال غامضة ، وموت نجمت غارقة فى كآبتها . ولما خلت إلىّ فى غرفتى قالت بانفعال :

ـ توكد ظنى !

فسألتها عما تعنى ، فقالت :

ـ إنه مريض ومجنون!

فعرفت بالبداهة من تعنى، فقلت:

ـ لقد رأيت مظهره، ولكنك لم تخبرى قلبه. وقال لنا أبى فى اليوم التالى:

ـ الملكة تيى دعت نفرتيتى لمقابلتها.

وهز الخبر الأسرة هزة عنيفة، وتبادلنا نظرات متسائلة. أما أبى فقال:

ـ لا شك فى أن وراء ذلك شيئا من الرضا أو الإعجاب..

وقالت تى بمباهاة:

ـ أتنبأ بأنها ستضمك إلى حاشيتها الخاصة.

وذهبت برفقة أبى. وقادونى إلى استراحة الملكة المطلة على الحديقة الداخلية. سجدت بين يديها، ثم أذنت لى بالجلوس على أريكة إلى يمين مجلسها. وجعلت تتفحصنى غير عابئة بحساسيتى، ثم سألتنى:

ـ اسمك نفرتيتى؟

فأجبت بإحناءة من رأسى، فقالت بلطف:

ـ اسم على مسمى!

فشعرت بالفرح يشتعل فى وجنتى.

ـ ما عمرك؟

ـ ستة عشر عاما.

ـ تبدين أنضج من ذلك!

ثم فيما يشبه الدعابة:

ـ لماذا دعوتك فى ظنك؟

فألهمت أن أجيب:

ـ لخير هو فوق ما أستحق.

فابتسمت قائلة:

ـ إجابة حسنة، ماذا حصلت من العلم؟

ـ القراءة والكتابة والحساب والشعر والتاريخ والدين بالإضافة إلى الثقافة المنزلية.

ـ وما رأيك فى مصر؟

ـ سيدة الدنيا وملكها ملك الملوك.

وباهتمام سألت:

ـ من إلهك المفضل؟
فقلت مضطرة إلى قول الحقيقة :
ـ آتون يا مولاتى .
ـ وآمون؟
ـ هو مشيد الإمبراطورية ، أما آتون فهو الذى يطوف بها كل يوم!
ـ لا سلطان على ما ينبض به القلب ، ولكن يجب الإقرار بأن آمون هو كبير الآلهة .
فقلت بتسليم :
ـ هو كذلك يا مولاتى .
ـ بصراحة هل ذاق قلبك الحب؟
فقلت دون تردد :
ـ كلا يا مولاتى .
ـ ألم يتقدم أحد لخطبتك؟
ـ كثيرون ، ولكن أبى لم يجد فى أيهم الكفاءة .
وتفرست فى وجهى مليا ، ثم سألتنى :
ـ ما شعورك بصراحة عما يقال عن انحراف ولى العهد عن آمون؟
ولأول مرة تجمد لسانى فلم أنبس ، فقالت بنبرة ملكة :
ـ أجيبينى بصراحة!
فأسعفنى دهائى ، فقلت :
ـ مهما يكن من أمر قلبه فيجب المحافظة على التقاليد المرعية بين العرش والكهنة .
فابتسمت فى ارتياح وقالت :
ـ إجابة حسنة .
ثم اعتدلت فيما يشبه الدلال وسألت :
ـ حدثينى عن فتى أحلامك ، كيف تودين أن يكون؟
فتريثت فى ارتباك ، ثم تمتمت :
ـ أن تكون له قوة المحارب وروح الكاهن .
فقالت ضاحكة :
ـ إنك طموحة جداً ، من تفضلين إذا خُيِّرت؟
ـ أفضل صاحب الروح .

ـ حقًّا؟

ـ أجل يا مولاتى .

ـ لست كغيرك من البنات .

ـ لا دنيا عندى بلا دين .

ـ وهل دين بلا دنيا؟

فتراجعت قائلة :

ـ ولا دين بلا دنيا .

وصمتت طويلا وأنا أكتم انفعالاتى المتصاعدة ، ثم سألتنى :

ـ أرأيت ولى العهد؟

ـ فى حفل عيد الجلوس يا مولاتى .

فسألت بصوت غريب :

ـ وكيف ترينه؟

ـ إنه يتفرد بقوة خفية تميزه عن سائر الشباب . .

ففاجأتنى متسائلة :

ـ أعنى كزوج؟

وخرست من هول المفاجأة حتى كررت السؤال فقلت بصوت متهدج :

ـ لا تسعفنى الكلمات يا مولاتى .

ـ ألم يساورك حلم يوما بأن تصيرى ملكة؟

ـ أحلامى جزء من قلبى المتواضع .

ـ ألا يفتنك العرش؟

ـ إنه فى سماء لا ترتفع إليها أحلامى .

فصمتت قليلا ، ثم قالت :

ـ اخترتك زوجة لابنى ولى العهد .

فأغمضت عينى من شدة التأثر ، ثم قلت عندما استرددت قدرتى :

ـ ولكنه لا يعرفنى ولا يهتم بى .

فقالت باعتزاز :

ـ ولكنه يذعن لمشيئتى عن حب راسخ . .

ثم مواصلة الحديث بجلال :

ـ يهمنى فى المقام الأول أن أجد له شريكة مناسبة ، ولما رأيتك ألهمنى حدسى بأنك الشريكة المطلوبة ، وإنى أومن بالحدس إيمانى بالعقل .

فأخرسنى التأثر الشديد عن التفوه بأى كلمة واستمرت هى تقول :

ـ ولكن الملكة خلقت للواجب قبل كل شيء ، ما رأيك فى ذلك؟

ـ أرجو أن أكون كما تودين يا مولاتى .

فقالت بصوت نافذ :

ـ عدينى بالتعاون معى دون قيد أو شرط .

فقلت وأنا لا أقدر مسئولية قولى :

ـ إنى أعدك بذلك .

ـ وأنا مطمئنة إلى شرف كلمتك .

كاد الامتنان يشلنى عن التفكير ، ولكن ما إن غادرت محضرها حتى شعرت بأننى أرسف فى أغلالها ، وبأنها قوة لا يمكن الاستهانة بها ، وبأنها رقيب يرصدنى من الداخل والخارج معا . وتذكرت ولى العهد فأيقنت من أن جلاله مهما جل فإنه لن يسوغه لى كزوج ، وأننى سأدفع ثمن المجد غاليا . وذهلت الأسرة للخبر وثملت به . أجل ، يمكن تصور أثره فى أعماق قلب موت نجمت ، ويمكن تصور مشاركة تى لابنتها فى عواطفها الخفية ، ولكن الحظ تدفق تلك المرة كالسيل ليغمر الجميع بفيضه وإن تفاوتت الدرجات . وإن يكن وعدني بالعرش فقد رفعهم إلى مقام الأسرة المالكة . من أجل ذلك أقبلوا علىّ يسدون إلىّ القبلات وأطيب الدعوات . وتذكرت النبوءة وكيف تحققت بمعجزة فهل تتحقق أيضا لموت نجمت؟ وساورنى قلق . ولعل موت نجمت تذكرت ذلك أيضا فشحذت صبرها ونواياها ، ولكننى صممت على طرد المخاوف . ودعانى أبى إلى حجرته وقال لى بحنان :

ـ اليوم تسعد أمك فى قبرها .

فقلت بأسى :

ـ لعلها .

فسألنى باسما :

ـ كيف تشعرين؟

فأجبت بصدق :

ـ الحقيقة تفوق أى خيال .

ـ لا يستطيع الحظ أن يهب فرصة للسعادة أقوى من ذلك .

فتساءلت :

ـ هل أضمن السعادة حقّا يا أبى؟

فقال بحنان :

ـ العرش يهب المجد، أما السعادة فرهن بحكمة القلب .

فقلت بتأثر شديد :

ـ ما أصدقك يا أبى !

فقال بعطف :

ـ سأصلى من أجل نجاحك وسعادتك .

وتمت مراسيم الزواج بسرعة غير عادية . واحتفل به فى القصر احتفالا يليق بعظمة الملك أمنحتب الثالث وولعه بمتع الحياة . ومضت بى تى إلى الحجرة المذهبة، وهمست فى أذنى بكلماتها المفيدة، وأجلستنى على السرير الذهبى فى ثوب شفاف يتجلى تحته جسمى العارى . ولاح فى الباب ولى العهد والمشاعل فى الأركان تزهر . نزع شملته عن وزرة شفافة وأقبل نحوى فى خفة يطل من عينيه الشغف العذب . أوقفنى فوق السرير وضم ساقى إلى صدره وهمس فى أذنى :

ـ أنت شمس حياتى .

وكان ينعم روحى بنوره، أما جسدى فقد تقلص وانكمش أمام منظره الغريب . وراح يقول بصراحة عجيبة :

ـ أحببتك فى عيد الجلوس، هرولت إلى أمى وصارحتها برغبتى فى الزواج منك .

وضحك بسرور ثم واصل حديثه :

ـ أنكرت علىّ رغبتى فى الزواج من فتاة لا يجرى فى عروقها الدم الملكى فقلت لها : «وأنت كذلك يا أمى» ، فتظاهرت بالغضب، ولكنها استدعتك إلى مقابلتها، ثم زفت إلىّ موافقتها . .

وتذكرت ما ادعت من أنها صاحبة الفكرة وداريت ابتسامة . وكان علىّ أن أتكلم، وأن أقول قولا صادقا، فقلت :

ـ لقد آمنت بإلهك وبك من قبل أن أراك .

فهتف بحبور :

ـ على لسان آى أليس كذلك؟ إنك أول من آمن يا نفرتيتى .

فقلت وأنا أدفع عن نفسى اللحظة الحرجة ما استطعت :

ـ سأكون أول من يترنم بنشيد الإله فى معبده .

ـ أعدك بذلك .

ثم لثم شفتى وهمس :

ـ ولكن عليك أن تنجبى وريثا لعرش الإله!

وتلاشت مشاعرى القدسية فلم يبق محلها سوى الحياء والضيق . ومضت الحياة بنا كزوجين ومؤمنين . أما عن حياتى الروحية فقد تلقيت منه مددا لا يفنى أترع قلبى بالنور ، حتى توقعت أن يكلمنى الإله كما يكلمه ، وأن يكرم نصف رمزه بما يكرم به نصفه الآخر . أما جسمى فكان يتجلد فى كآبة وصمت . وحلت به الثمرة فتوعكت صحتى وتغير لونى ، وعبث القادم بى ، عبث برشاقة جسمى الجميل . وكان مولاى يعيش فى الحقيقة ويكرس ذاته للحقيقة ، ويتحدى كافة القوى من أجل الحقيقة ، ولا يمقت رذيلة كما يمقت الكذب والكاذبين ، فساءلت نفسى فى قلق : كيف أجيبه لو خطر له يوما أن يسألنى : «أتحبيننى يا نفرتيتى؟» . لن أجد الشجاعة للكذب عليه . وفضلا عن ذلك فقد تعلمت منه أن أحب الحقيقة وأن أكره الكذب . وأعددت إجابة عن سؤاله المحتمل ، وهى أن أقول له :

ـ سيجىء الحب فى وقته فمعذرة لأننى أكره الكذب مثلك .

وهى إجابة ربما تلاشت معها أحلامى ، وأقصتنى عن المجد والنور . ولكنه لم يطرح ذلك السؤال قط ، فظل من هذه الناحية على غموضه وظللت على قلقى . ويوما استدعتنى الملكة تيى إلى استراحتها وراحت تتفحص جسدى باسمة ، ثم قالت :

ـ اعتنى بنفسك ففى بطنك تدب حياة ستنضم عاجلا إلى تاريخ هذا الوطن .

فلمست فى قولها إشارة إلى انتظار ولى العهد ، فقلت :

ـ صلى من أجلى يا مولاتى .

فقالت بثقة :

ـ أمامك عمر طويل .

فقلت بإشفاق :

ـ لا حيلة لى فى ذلك .

فقالت محذرة :

ـ لا تسلطى الخوف على فكرك .

فقلت كالمتشكية :

ـ لن أسأل عما ليس فى طوق البشر .

فهمست :

ـ الملكة ليست كسائر البشر!

إنها تحطم وسائل دفاعي. امرأة قوية وداهية وجديرة بما يصفها أبي به من عظمة. وزوجي يحبها لدرجة مثيرة، وهي تعتبره ملكها وحدها حتى بعد زواجه. وشعرت بأنني ما زلت أرسف في أغلالها. ومضت أنباء الإله الجديد تتسرب إلى الكهنة ومضى الجو يكفهر. وفي تلك الفترة من حياتنا عرفت مدى قوة زوجي المستترة وراء ضعفه الجسدي، لمست صلابة روحه، وقوة تصميمه، وعنف شجاعته، وصموده أمام التحديات. قال لي مرة:

ـ إن أحجار الأهرام مجتمعة لا تستطيع أن تثنيني عن هدفي.

فقلت له متأثرة بحماسه:

ـ إني معك في جميع الأحوال.

فهتف:

ـ لن يخذلنا إلهنا.

حتى أبوه وأمه لم يستطيعا أن يزحزحاه عن موقفه. ودعتني تيي إلى لقاء في يوم أعتبره من أخطر أيام حياتي. سألتني:

ـ هل شغلك الحمل عن أحزان طيبة؟

فقلت لها وأنا أتوثب لمعركة:

ـ أحزان طيبة هي أحزاننا. فتساءلت بدهاء:

ـ ألم تؤثر فيه كلماتك الطيبة؟

فقلت بجرأة:

ـ كلمات إلهه هي الأقوى.

فقالت بتوجس:

ـ ولكنك لا تبدين حزينة أو قلقة.

فهويت على أغلالي قائلة:

ـ إني مؤمنة بما يقول يا مولاتي.

بذلك التصريح أعلنت أن حبي للإله أقوى من حبي للعرش وحررت نفسي. واتسعت عيناها النجلاوان وتساءلت:

ـ آمنت حقًا بالإله الجديد؟

ـ نعم يا مولاتي.

ـ لكن ذلك يعني إنكار آلهة مصر؟

فقلت بحرارة :

ـ إنه واحد لا شريك له .

فتساءلت بنبرة غاضبة :

ـ أليس من حق الآخرين أن يعبدوا آلهتهم؟

ـ إنه لا يتعرض للآخرين .

ـ لكنه سيكون يوما الملك الخادم لجميع الآلهة؟

ـ نحن لا نخدم إلا إلها واحدا .

فهتفت :

ـ ألا تقدرين عواقب هذا التمرد؟

فقلت بثقة صادقة :

ـ إلهنا لن يخذلنا أبدا .

فسألتنى بغيظ ومرارة :

ـ ألم تعدينى بالتعاون دون قيد أو شرط؟

فقلت برقة :

ـ إنك مولاتى ، ولكنه الإله فوق كل شىء .

ورجعت إلى جناحى دامعة العينين ، مجهولة المصير ، ولكن مطمئنة القلب . وسرعان ما صدر الأمر للأمير للقيام على رأس البعثة المشهورة لزيارة الإمبراطورية . وقيل وقتها إنه أريد بها ترويض ولى العهد وتعريفه بواقع إمبراطوريته لعله يرجع عن غيه! ولكنى شعرت أيضا بأن تيى شرعت تعاقبنى بحرمانى من زوجى فى وقت أوشكت فيه على الوضع . ولما ذهب ألقى بى فى خضم تجربة جديدة ما تصورتها قط . ماذا حدث فى تلك الأيام؟ انطفأ نور الدنيا ولم تعد الشمس تسكب إلا ظلاما . وغزتنى وحدة مخيفة خانقة ، لم يخفف منها ملازمة مربيتى تي ولا غناء الجوارى ورقصهن . واحتوتنى الكآبة ودثرتنى بكفنها .

افتقدت مولاى فى كل ركن من أركان جناحى وفى كل ساعة من يومى . لم أتخيل أنه كان يشغل ذلك الحيز كله من حياتى ، واكتشفت أنه سر حياتى وكنز سعادتى ، لا كمعلم فحسب ، ولكن كزوج وحبيب أيضا . وبكيت ندما على عماى وجهلى ، وتلهفت على رجعته لألقى بقلبى تحت قدميه . وحدث فى القصر ما سرى عنه بعض همومه ، فقد جاءنى المخاض ، كما جاء الملكة تيى ، فى وقت واحد تقريبا ، فأنجبت أنا ميريتاتون وأنجبت الملكة توءمين هما : سمنخ رع وتوت عنخ آمون . ولما عرفت بأننى رزقت أنثى

ركبنى الهم والحزن، وتوكد لدى بأن مركزى يزداد ضعفا أمام امرأة القصر القوية . وترامت إلىّ همسات الحريم بأن لعنة الكهنة قد حلت بى وأننى لن أنجب ذكرا ما حييت .

وفى تلك الأثناء جاءت تادوخيبا ابنة ملك ميتانى لتلعب دورها فى طيبة . وكان الملك أمنحتب الثالث قد سمع بجمالها فطلب الزواج منها دعما لأوامر الصداقة بينه وبين ميتانى . . وكانت تيى تدرك بواعث زوجها الحقيقية، ولكنها كانت دائما تسلط عقل الملكة العظمى على عواطف زوجها وتهيمن بقوة خارقة على الغيرة مكرسة جل وقتها للحكم . وجاءت تادوخيبا تشق طريق طيبة فى موكب فخم تتبعها ثلاثمائة جارية . تسليت بسماع الأنباء وأنا غارقة فى وحدتى وأحزانى، وحدثتنى تى عن موكب الأميرة الصغيرة وجمالها، وختمت حديثها بقولها :

ـ ولكن لا تعلو على شمسنا شمس فى الوجود!

وذاع فى جنبات القصر أن الملك العجوز الذى أخذ المرض يكدره قد هام بالعروس الجديدة التى فى عمر أحفاده، وأنه غرق فى بحر العسل . ولكن باله لم يصفُ طويلا إذ جاءت التقارير عن رحلة ولى العهد لتعصف بأمنه وسعادته . ودعيت للاجتماع بالملك والملكة فهالنى أول ما هالنى ما حل بالملك من ضعف؛ نتيجة لإفراطه فى الحب واللهو . رغم ذلك بدا غاضبا شرسا، وجعل يهتف :

ـ يا له من فتى طائش!

فقالت تيى :

ـ يمكن أن نسترد هيبتنا بعرض لجيش الدفاع فى أنحاء الإمبراطورية!

فقال لها ساخرا :

ـ لقد بدد الأحمق مدخره الموروث من الإجلال ولن يسترده مهما فعلنا .

فتساءلت بعد تردد :

ـ ألا يجوز أن يأسرهم بلطف أخلاقه؟

فهتف بى :

ـ ما أنت إلا حمقاء مثله .

وقالت لى المرأة الداهية :

ـ كان بوسعك أن تعقليه!

فقلت لها وأنا أدارى انفعالى :

ـ هيهات أن أقدر على ما تعجزين عنه يا مولاتى!

فقالت متمادية فى تحديها لى :

ـ ولكنك تشجعينه وأنت راضية!

فلوح أمنحتب الثالث بيده مهددا، وقال:

ـ سأخيّره حال عودته بين الطاعة وبين الحرمان من ولاية العهد!

ورجعت إلى أحزانى مشفية على اليأس. ولكن تى أيقظتنى فى صباح اليوم التالى، ثم همست فى أذنى:

ـ مات الملك يا مولاتى.

وثقل قلبى بالحزن. وجعلت أتساءل: ترى هل نفذ الملك وعيده قبل وفاته؟ وهل يمكن أن تضحى تيى بابنها المعبود؟! وفى الفترة التى حمل فيها الجثمان إلى دار التحنيط استدعتنى الملكة وقالت لى وهى ترمقنى من خلال عينيها الحمراوين من أثر البكاء:

ـ اعلمى أن الكهنة اقترحوا علىّ المناداة بسمنخ رع أو توت عنخ آمون ملكا على أن أتولى الوصاية على العرش.

لم أشك فى تلك اللحظة فى أنها أنزلت بى عقابها بكل ثقله وعنفه فقلت مستسلمة لقدرى:

ـ قرارك دائما يصدر عن حكمة وإنى به راضية!

فتساءلت بقسوة:

ـ أتنطقين عن صدق؟

فأجبت بهدوء اليأس:

ـ وماذا أملك سوى ذلك؟

فقالت بحدة:

ـ غلب الحب الحكمة فرفضت الاقتراح!

فتنفست بعد غرق وأعيانى الكلام، فسألتنى ساخرة:

ـ سعيدة؟

فقلت بأمانة:

ـ نعم يا مولاتى فإنى أمقت الكذب!

ـ هل تعديننى بالدفاع عن العقل والتقاليد؟

فقلت وأنا أتمزق:

ـ لا أستطيع يا مولاتى!

فنفخت مغيظة محنقة وهتفت:

- إنك تستحقين العقاب، ولكنك جديرة بالإعجاب أيضا، فلتواجها مصيركما بحكمتكما ولتكن مشيئة الآلهة!

وصرفتنى مكفهرة الوجه فعدت إلى جناحى سعيدة على رغم الحداد وانهلت بالقبل على وجه ميريتاتون الصغيرة. وما لبث حبيبى أن رجع من رحلته بقامته الطويلة النحيلة وأنسه المبدد للظلمات فهرعت إليه وعانقته بكل قوة حبى. وتفرس فى وجهى وقتا، ثم قال بطمأنينة:

- أخيرا جاء الحب يا نفرتيتى!

فأذهلنى قوله وعزانى، وقلت متلعثمة:

- إنى أحبك من قبل أن تراك عيناى.

فقال باسما:

- ولكنك لم تحبينى كزوج إلا هذه المرة!

فأذهلتنى قدرته على قراءة القلوب فلم أنبس. ومثل أمام جثة أبيه قبل الدفن، ورجع إلىّ بأثر البكاء فى عينيه، ثم قال كالمعتذر:

- الموت يهزنى حقّا، ثم إننى لم أحبه كما يجب!

وجلسنا على العرش فى جو مليء بالتربص والتحدى، وسرعان ما تجلت قوة حبيبى الكامنة كأعظم ما تكون القوة. وبدأ بعرض دينه على رجاله فأعلنوا إيمانهم به. ولم أشك أنا فى صدقهم قياسا على نفسى، ولكن الأحداث أثبتت أن أكثرهم لم يكونوا صادقين، أو أن إيمانهم لم يبلغ درجة التضحية بالنفس، باستثناء مرى رع الكاهن الأكبر. ولا أشك اليوم فى أن بصيرته الصافية لم تخدع بهم، وأنها نفذت إلى أغوار قلوبهم، ولكنه كان يؤمن دائما بأن الحب كفيل بهداية الجميع فى النهاية، وأنهم سيعبرون مرحلة الإيمان السطحى إلى الإيمان الحقيقى عندما يأزف الوقت وكما فعلت أنا فى علاقتى الزوجية به. بل أقول أكثر من ذلك بأن نفرا منهم اقتنعوا بعدم أهليته للعرش فحلموا بأن يخلفوه فى ذروة الأزمة، منهم حور محب، بل منهم أبى - آى نفسه - وليس الحدس مرجعى الوحيد فى تصورى هذا، ولكنى استخرجته بفطنة من بعض المواقف أو فيما عرض من حوار مثير فى أيام الهزيمة. لذلك أراحنى جدّا اختيار الكهنة لتوت عنخ آمون دونهم، وإن كنت أشك فى أنهم يئسوا حقّا من تحقيق أحلامهم بطريقة أو بأخرى. على أى حال بدأ حكمنا فى ذلك الجو المتوتر، ولكننا كنا سعداء على رغم كل شيء، وأخذت ميريتاتون تحبو على حين تكونت ثمرة جديدة فى بطنى نتيجة للحب الكامل هذه المرة. ولم يعرف امرأة غيرى على الرغم من أنه ورث حريم أبيه كما تقضى التقاليد، وفيه الميتانية الجميلة تادوخيبا.

وزارتنا الملكة الوالدة تيى فتوقعت متاعب من نوع ما . وصح ظنى فقالت لابنها على مسمع منى :

ـ أيها الملك ، إنك تهمل الحريم . .

فقال زوجى ضاحكا :

ـ إنى موحد فى الحب كما فى الدين !

فقالت بجدية :

ـ ولكنك مطالب بالعدل . ولا تنس تادوخيبا ابنة صديقنا توشراتا فهى تستحق الرعاية إكراما لأبيها . .

ونظرت نحوى فزاغ عنها بصرى وأنا فى غاية الضيق ، فقالت بدهاء :

ـ نفرتيتى تثبت كل يوم أنها جديرة بالعرش فلعلها توافقنى على رأيى . .

فواظبت على صمتى كاظمة غيظى على حين راحت تتحدّث عن واجبات الملكة . ولم أستطع أن أقهر رغبتى فى زيارة الحريم ، فى الظاهر للتعارف وفى الحقيقة لرؤية الأميرة الجميلة . ووجدتها جميلة حقّا ولكن ثقتى بنفسى لم تتزعزع ، وتبادلنا كلمتين للمجاملة وافترقنا عدوتين سافرتين . وفى اليوم التالى جالست زوجى فى جوسق بالحديقة وإذا بى أسأله :

ـ ماذا تنوى بالنسبة للحريم ؟

فأجابنى ببساطة :

ـ لا رغبة لى فيه !

فقلت باحتجاج :

ـ ولكن الملكة الوالدة لا تكترث للرغبات !

فقال بغموض :

ـ إنها مولعة بالتقاليد !

فقلت بوضوح :

ـ أما أنت فإنك عدو التقاليد الأول .

فضحك بسرور وقال :

ـ صدقت يا حبيبتى !

وأظن أنه فى ذلك الوقت تمت المقابلة المثيرة بينى وبين كاهن آمون الأكبر . تمت بناء على طلبه وبوساطة أبى . وقال لى :

ـ مولاتى ، لعلك تعلمين بما جئت من أجله ؟

فقلت له دون مواربة :

ـ إنى مصغية إليك أيها الكاهن الأكبر .

فقال برجاء :

ـ ليعبد الملك ما يشاء من الآلهة ، ولكن لجميع الآلهة وعلى رأسها آمون حقا فى الرعاية .

فقلت :

ـ إننا لا نتعرض بسوء لأى إله .

فقال برقة :

ـ إننى أطمح إلى دفاع الملكة عنا عند الضرورة !

فقلت بصدق :

ـ لا أستطيع أن أعد إلا بما يسعنى الوفاء به .

فقال بأسى :

ـ كان أبوك واحدا منا وبينى وبينه صداقة لا تنفصم عراها .

فقلت :

ـ يسرنى أن أسمع ذلك .

وذهب الرجل ولا شك عندى فى أنه أضمر لى عداوة ثابتة . وكرس الملك حياته كلها لرسالته ، داعيا للحب بالحب ، نافيا العنف والقهر والعقاب ، مخففا الضرائب عن الفقراء . حتى آمن الجميع بأن عهدا جديدا من الخير يحل بأرض مصر . وجاءنى المخاض فولدت ابنتى الثانية سيكيتاتون فخاب رجائى للمرة الثانية فى إنجاب ولى للعهد . وكثر الحديث عن سحر الكهنة ، ولكن زوجى أحب المولودة من أول نظرة وقال لى مواسيا :

ـ سيجىء ولى العهد فى حينه لا قبل ذلك .

وكمل تشييد معبد جديد لإلهنا الواحد فى طيبة ، وذهبنا فى موكب لافتتاحه ، وإذا بالكهنة يجمعون أذنابا لهم فتظاهروا فى طريق الملك وهتفوا لآمون . واستاء القصر لذاك التحدى السافر ، وسهر الملك فى الشرفة مغتما على غير العادة ، وراح يخاطب طيبة قائلا :

ـ طيبة ، يا مدينة الشر والأشرار ، يا مثوى الإله الكاذب والكهنة الفاسقين ، لا أريدك بعد اليوم يا طيبة !

وأمره الإله ببناء مدينة جديدة له ، ونفذ الأمر فرحل بك على رأس ثمانين ألفا من المهندسين والعمال لتشييد مدينة الإله الواحد . وعشنا فى أثناء ذلك هانئين بسعادتنا

الشخصية يتربص بنا جو عدائى شديد التوتر . وأنجبت أنحس ياتون ونفر آتون مسلمة أمرى لإلهى خالق الإناث والذكور . وفى الوقت المناسب انتقلنا إلى المدينة الجديدة مصطحبين معنا سمنخ رع وتوت عنخ آمون ، أما الملكة تيى فأصرت على البقاء فى طيبة على كثب من كهنة آمون كيلا يقطع آخر خيط بين العرش والمعابد .

ولما وجدتنى فى مدينة النور أخت آتون المتجلية فى وحدة هندسية متناسقة استخفنى السرور فهتفت فى نشوة وبراءة :

ـ ما أجمل الجمال! ما أعذب روحك يا إلهى!

وافتتحت المدينة بالصلاة فى المعبد ، وشدوت بنشيد الإله بصوت لم تسمع المعابد أعذب منه ، ثم ألقى الملك موعظته الأولى الشاملة ، ورسم مرى رع كاهنا أكبر . وجرى نهر الحياة حاملا إلينا بركات السعادة والنصر ، حتى رجع إلىّ يوما من خلوته يلوح فى وجهه الجد والتصميم وقال لى :

ـ أمرنى إلهى بأن يعبد وحده فى البلاد!

وفى الحال أدركت خطورة ما ينطوى عليه ذلك الأمر ، فتساءلت :

ـ والآلهة الأخرى؟

فقال بثبات وعيناه تومضان :

ـ سأصدر أمرى بإغلاق معابدها ومصادرة أوقافها .

وران علىّ صمت حتى تساءل :

ـ لا تبدين سعيدة يا نفرتيتى؟

فقلت بعجلة :

ـ إنك تتحدى كهنة البلاد أجمعين .

فقال ببساطة وثقة :

ـ إنى على ذلك لقادر .

فقلت بعد تردد :

ـ ألا يسوقك ذلك لاستعمال العنف وأنت رجل الحب والسلام؟

ـ لن ألجأ إلى العنف ما حييت!

ـ وإذا تصدوا لأمرك بالمقاومة؟

ـ سأوزع الأوقاف على الفقراء ولن أتعرض لمتمرد بسوء قانعا بدعوة شعبى إلى عبادة الإله الواحد وهجر معابد الشرك .

فانكشف عنى الغم ، وقبلته وأنا أقول :

ـ لن يتخلى عنك إلهك .

وصدر الأمر . وحدث ما لم أتوقعه فنفذ بهدوء شامل ، بفضل الإله ، وبقوة العرش المهيمنة على النفوس . وازددنا ثقة بغير حدود . وفى العصارى كنا ننطلق فى عربتنا الملكية بلا حرس نجوب شوارع أخت آتون الواسعة تحف بنا الجماهير المتحمسة والنخيل والصفصاف وأشجار البلخ ، محطمين حواجز الوهم بين العرش والناس ، نكاد نعرف الناس جميعا بملامحهم وحرفهم والبعض بأسمائهم ، وحل الحب حقّا محل الخوف القديم ، وتغنى الجميع بأعذب الألحان القدسية . وهمس أبى فى أذنى مرة :

ـ أخشى أن تبددوا هيبة الملك .

فقلت له وأنا أضحك :

ـ نحن نعيش فى الحقيقة يا أبى . .

وغزونا البلاد برحلاتنا المقدسة داعين لعبادة الواحد الأحد ، وأذهلنا الخصوم والأصدقاء بانتقالنا الدائم من نصر إلى نصر ، ولم نكترث لما أفضى به إلينا محو رئيس الشرطة من أنباء عن نشاط الكهنة السرى ومحاولتهم الدائبة لتأليب الناس علينا . ولم يعد سلوك مولاى يدهش أحدا لانغماسه الكلى فى عالمه المقدس ، أما أنا فأدهشت الكثيرين حتى سلموا بأننى لغز لا يحل . إذ كيف أهيم مثله فى عالمه القدسى ، على رغم وعيى الكامل بواقع الشئون الإدارية والمالية للبلاد! فلعلهم لم يصدقوا أننى كنت صنوه فى الإيمان والحماس للرسالة . وكنت أشاركه الحياة فى الحقيقة وأصدق كل كلمة تصدر عن لسانه الصادق الذى لم يكذب قط . وقال لى ونحن ننتشى بذروة الفوز :

ـ عندما تتطهر الأنفس من أدرانها ستحظى الآذان جميعا بسماع الصوت الإلهى ويعيشون فى الحقيقة!

ذلك كان حلمه ، أن يعيش الناس أجمعون فى الحقيقة .

ورجعنا من رحلاتنا الموفقة فوجدنا ميكيتاتون طريحة الفراش تطالعنا بوجه آخر لم نره ولم نعرفه . وجثا إخناتون إلى جانب فراشها وراح يصلى ، وانتحيت بالطبيب بنتو فى أقصى الحجرة وقلت له :

ـ البنت تموت يا بنتو .

فأجابنى بأسى :

ـ قد بذلت ما فى وسعى!

فقلت فى حنق وقهر :

ـ إنهم يريدون بسحرهم أن يحرموه من أحب الكائنات إلى قلبه . .

وسمعته يهمس بحرارة مخاطبا إلهه :

ـ لا تفجعنى فيها يا إلهى ، إنى أحبها ولا أطيق الحياة بدونها ، إنها أنضج من عمرها وستكرس حياتها لخدمتك . .

ـ لكن روحها مضت تتسرب رويدا من قبضة حبنا حتى تركتنا متسامية للنجوم . وانكببنا عليها نبكى ونولول مستسلمين لطغيان الحزن . وجعل يخاطب إلهه :

ـ لماذا يا إلهى؟ لماذا تمتحن إيمانى بشدة لا داعى لها؟ لماذا تصارحنى بقسوة بأننى ما زلت بعيدا عن معرفتك؟ لماذا تعاملنى بعنف وأنت الرحمة ، وبجفاء وأنت الحبيب ، وبغضب وأنا المطيع ، وبغموض وأنت النور؟ لماذا إذن كسوتها بهذا الجمال ومنحتها هذا الذكاء؟ ولماذا جعلتنا نحبها كل الحب ونعدها لخدمتك فى معبدك؟

وانتشلتنا من حزننا أحزان جديدة شملت داخل البلاد وخارجها مما علمتها بالتفصيل كما ذكرت لى . ولعل أتعس الناس هم الذين يتداوون من حزنهم بحزن أشد . وقابلنا الوزير ناخت وعرض علينا الصورة بحذافيرها . ولا أنكر أن عزيمتى اجتاحتها الكآبة وخامرنى القلق ، أما مولاى فقد صمد أمام العاصفة كأنه الهرم الأكبر . وقال بثقة لا حد لها :

ـ لن يخذلنى إلهى ، ولن أحيد عن الحب قيد ذرة رمل .

وعدتنى قوته الخارقة فانتعشت روحى قاهرة جميع الهواجس والوساوس ، وندمت على ضعفى العابر . ولما ساءت الحال أكثر جاءتنا الملكة الوالدة تيى . واجتمعت بنا بعد أن استقبلت رجالنا فى قصرها بجنوب أخت آتون . وبدأت حديثها قائلة :

ـ السماء مليئة بالغيوم .

ونقلت بيننا عينيها اللتين أحاط بهما الكبر ، وقالت :

ـ أخذت العهد من رجالك بالوفاء لك فى جميع الظروف والأحوال .

فسألتها :

ـ ترى هل داخلك الشك فيهم؟

فقالت لى بعتاب :

ـ المحن تطالبنا بالتماس اليقين . .

فقال إخناتون :

ـ إلهى لا يبالى بالمحن!

فقالت بحدة :

ـ بل عما قليل ستنفجر الفتن .

فقال بثقة :

ـ لن يتخلى عنى إلهى أبدا .

ـ لا أملك الحق فى التحدث باسم الآلهة ، إنهم أكبر من ذلك وإنى أصغر من ذلك ، ولكنى أعرف ما يجرى فى دنيا الناس .

فقال بأسى :

ـ أمى ، إنك غير مؤمنة . .

ـ لا تتحدث عما بينى وبين الغيب ، حدثنى كملك وأصغ الىّ كملكة ، أقول لك تحرك قبل فوات الأوان ، لديك جيش الحدود بقيادة ماى فمره بالزحف على الإمبراطورية ، ولديك قوات الحرس والشرطة فمرها بضرب الفساد والمفسدين ، أسرع قبل أن يتهاوى عرشك أنقاضا . .

فقال بحدة :

ـ لن آمر بسفك نقطة دماء واحدة .

فقالت فى أسى عميق :

ـ لا تجعلنى أندم على تمسكى لك بالعرش .

فهتف :

ـ لا يهمنى العرش إلا باعتباره الوسيلة لخدمة الإله !

فنظرت إلىّ تيى وقالت :

ـ تكلمى أيتها الملكة فلعلى لم أخترك إلا من أجل هذه الساعة . .

فقلت بحماس لا يقل عن حماس مولاى :

ـ لن يخذلنا إلهنا يا أماه .

فاكفهر وجهها المتغضن ، وقالت بغضب :

ـ استحكم الجنون وانتصر القدر .

وغادرت تيى أخت آتون حزينة مريضة ، ولم يمتد بها العمر فى طيبة إلا أياما ثم فاضت روحها الكسيرة . ولم تمض أيام حتى طلب آى وناخت وحور محب مقابلة الملك فاستقبلناهم فى الحال . ولما نظر إخناتون فى وجوههم قال باسما :

ـ لم تجيئوا لخير .

فقال آى :

ـ جئنا يا مولاى مدفوعين بولائنا للعرش والوطن والإمبراطورية !

فتساءل إخناتون :

ـ وماذا عن إيمانكم بخالق كل شىء ؟

فقال آى :

ـ ما زلنا نؤمن به، ولكننا مسئولون عن دنيانا يا مولاى . .

فقال إخناتون :

ـ لا قيمة لهذه المسئولية إذا لم تنبع من ذلك الإيمان . .

وعند ذاك قال ناخت :

ـ العدو يتوغل فى الإمبراطورية، والولايات أعلنت تمردها فى البلاد، ونحن فى الواقع محصورون فى أخت آتون . .

فقال الملك بإصرار :

ـ لن يتخلى عنى إلهى، وبالتالى لن أتخلى عن رسالته!

وهنا قال حور محب :

ـ سوف تفرض الحرب الأهلية نفسها علينا!

فقال إخناتون :

ـ لن تقوم حرب أهلية .

فتساءل حور محب :

ـ هل نترك حتى نذبح كالأغنام؟

فقال الملك :

ـ سألقى الجيش المهاجم وحدى بلا سلاح .

فقال حور محب بحزم :

ـ سيقتلونك ثم يقتلوننا، وطالما أنك مستمسك بديانتك فتنح عن العرش وتفرغ لها . .

فقال بوضوح :

ـ لن أتنحى عن عرش الإله فهى الخيانة!

ثم نظر فى وجوههم وقال :

ـ إنى أعفيكم من الولاء لى .

فقال حور محب :

ـ سنترك لجلالتكم مهلة للتدبر .

وذهبوا مخلفين وراءهم إنذارا نهائيا . وما كنت أتصور أن يلقى فرعون مثل ذلك الهوان . وتساءلت فى حيرة بالغة : حتى متى يضن علينا إلهنا بالنصر؟ وعجبت لإيمان حبيبى الراسخ، واقتنعت بأننى ما زلت دونه بمراحل بخلاف ما كنت أعتقد .

وجاء حور محب لمقابلتى على انفراد وقال لى :

ـ افعلى شيئا ، افعلى ما بوسعك ، سيقتل حتما إذا أصر على موقفه ، بل قد يقتل بيد أحد رجاله ! عليك أن تفعلى شيئا قبل فوات الفرصة . .

وتخايل لعينى شبح الموت والهزيمة ، تسلل وهن إلى إرادتى ، وشىء من الشك إلى عقيدتى ، وتساءلت فى حيرة معذبة : كيف أنقذ حبيبى من الموت؟ ! وخطر لى أننى إذا هجرته فلعل ثقته بنفسه تتزعزع فيذعن لمشيئة رجاله ، ويتنحى عن العرش . أجل ، سيؤمن بأننى خنته كالآخرين ، ولكننى لم أكن أملك وسيلة أخرى . هكذا أقدمت على هجر حبيبى وقصرى ، فلذت بقصرى الخاص فى شمالى أخت آتون باكية العينين ، دامية القلب . وزارتنى أختى موت نجمت ، وأخبرتنى بأن الملك مصر على عناده ، وأنهم وجدوا الحل فى إخلاء المدينة وإعلان ولائهم لفرعون الجديد ، وبذلك تنعدم دواعى الحرب الأهلية . ثم سألتنى بخبث :

ـ متى ترحلين إلى طيبة؟

وكنت أقرأ أفكارها بوضوح ، فقلت بخشونة :

ـ لقد تحققت نبوءة ، وآن للنبوءة الأخرى أن تتحقق ، فاذهبى بسلام ، أما أنا فسأبقى إلى جانب زوجى وإلهى . .

وغمرتنى أيام مثقلة بالتعاسة اقتلعت من قلبى جميع ذكريات السعادة الماضية فكأننى لم أذق للسعادة طعما على مدى عمرى . قبعت فى قوقعة الشعور بالإثم ، أرقب من نافذتى مدينة النور وأهلها يبادرون إلى هجرها قبل أن تحيق بهم اللعنة . ترامى إلىّ هديرهم وبكاؤهم ، وصراخ أطفالهم ، ونباح كلابهم ، ورأيت تياراتهم لا تنقطع ، ماضية فى طوابير ، حاملة ما خف من متاعهم ، مندفعين نحو النيل أو الشمال أو الجنوب ، وأغلقت النوافذ والأبواب ، تابعتهم نظراتى الحائرة حتى آخر حى ، ثم رأيت الوحشة تحل محلهم فى المساكن والحدائق والشوارع وتطوق الأشجار ، ورأيت الفناء يحلق فى الجو مرسلا نذره الساخرة ، فهتفت من قلبى الجريح :

ـ أخت آتون . . يا مدينة النور . . يا مدينة الوحدة القاتلة . . قاسمينا الحظ والمصير . . أين التراتيل والألحان؟ أين قبلات النصر والحب؟ أين أنت يا إلهى الواحد؟ لم تخليت عن المخلصين؟ !

خلت المدينة . وأخذت تلفظ أنفاسها ساعة بعد أخرى . لم يبق من أهلها إلا سجينان ، حبيبى وأنا ، ونفر من حرس الأعداء . ترى فيم يفكر؟ وكيف يرانى؟ وإلام آل إيمانه؟ وقررت أن أذهب إليه لنتكاشف ونصفى الحساب ، ولكنى منعت من مغادرة القصر ، وحيل بينى وبين مراسلته ، فأدركت أنه لم يبق لى إلا انتظار الموت فى السجن .

وكذلك حبيبى ومولاى . وسعيت إلى إرسال رسائل بمطالبى البسيطة والمشروعة إلى الملك الجديد أو أبى آى أو القائد حور محب ، ولكن رئيس الحراس قال لى بحزم وخشونة :

ـ إنك ممنوعة من أى اتصال بالخارج .

فتبصرت على أيام الوحدة والحزن بلا أمل . وغفلت عن معالم الزمن غارقة فى تأملات حزينة وصلوات متواصلة حتى استرددت إيمانا خالصا بإلهى على رغم كل شىء ، بل وآمنت بأن النصر النهائى سيكون له وإن طال الانتظار . وكبر علىّ أن أتصور أن حبيبى الذى عرفته أكثر من أى إنسان يمكن أن ييأس أو ينهزم أو يفقد ثقته بإلهه الذى خصه بمناجاته دون الناس جميعا . لقد فقد العرش والأتباع والمجد الدنيوى ، ولكنه ظل ولا شك هائما فى الحقيقة مطلعا على الأبدية ، سعيدا بين يدى إلهه لا يجد وحدة ولا وحشة ، منغمسا فى الأنس والرضا والحب .

ولذلك فعندما جاءنى رئيس الحرس وقال بصوته الجاف :

ـ أذن لى أن أبلغك بأن الملك المارق قد فارق الحياة بعد مرض طويل ، وأن بعثة ملكية قامت بتحنيطه ودفنه تبعا للمراسيم الفرعونية .

لم أصدق كلمة مما قيل . حبيبى لم يمرض مرضا أفضى به إلى الموت . لعلهم اغتالوه ليؤمنوا نصرهم الزائف ، ففارق الدنيا المارقة ليستقر فى قلب الخلود . وسوف ألحق به ذات يوم ليطلع على براءتى ويمنحنى عفوه ويجلسنى إلى جانبه على عرش الحقيقة .

* * *

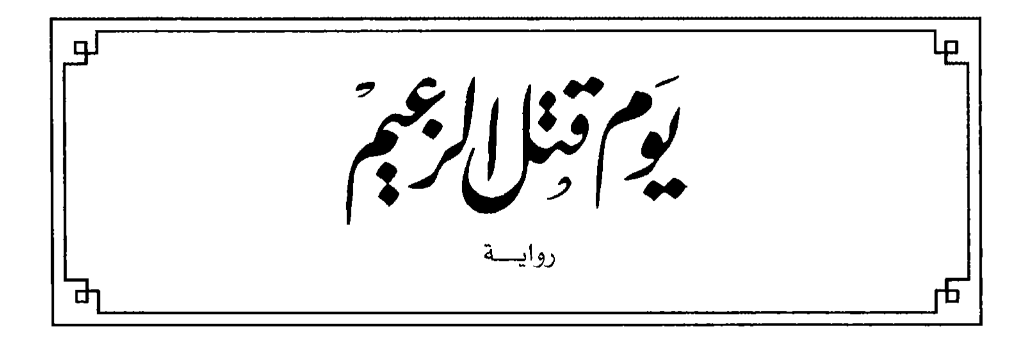
وتلاشى الصوت العذب بعد الجهد ، ولبثت مولاتى صامتة حزينة جليلة تتحدى المحن . ودعتها بكل إكبار ، وانصرفت على رغمى مفعم القلب بأريج الجمال الفاتن والذكريات الآسرة .

* * *

ولما رجعت إلى سايس استقبلنى أبى بشوق ، وراح يسألنى عن رحلتى وأجيبه ، وامتد الحوار بيننا أياما وتشعب . وقلت له كل شىء تقريبا ، ولكنى أخفيت عنه أمرين :

ولعى المتزايد بالأناشيد .

وحبى العميق لتلك السيدة الجميلة .



محتشمي زايد

نوم قليل وفترة انتظار ثملة بالدفء تحت الغطاء الثقيل . النافذة تنضح بضياء خفيف ولكنه يتجلى بقوة فى ظلام الحجرة الدامس . اللهم إنى أنام بأمرك وأصحو بأمرك وإنك مالك كل شىء . ها هو أذان الفجر يفتتح يومى الجديد، ويسبح فى بحر الصمت الشامل هاتفا باسمك . اللهم عونك لهجر حنان الفراش والخروج إلى قسوة برد هذا الشتاء الطويل . حبيبى يغط فى نومه فى الفراش الآخر فلأتلمس طريقى فى الظلام أن أوقظه . ما أبرد ماء الوضوء ولكنى أستمد الحرارة من رحمتك . الصلاة لقاء وفناء . من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . كل يوم لا أزداد فيه علما يقربنى إلى الله فلا بورك لى فى شمس ذلك اليوم . أنتزع نفسى من تأملاتى أخيراً لأوقظ النيام . أنا منبه هذه الأسرة المرهقة . حسن ألا تخلو من نفع وإننى فى هذا العمر . طاعن فى السن متين الصحة بفضل الله . لابأس أن أضىء المصباح الآن . وأنقر باب الحجرة بأصبعى هاتفا «فواز» حتى أسمع صوته وهو يقول : «صباح الخير يا أبى» . أرجع إلى حجرتى وأضىء مصباحها أيضا فأرى حفيدى مستغرقا فى نومه لا يبدو منه إلا وسط وجهه بين حافتى الغطاء والطاقية . ما باليد حيلة . علىّ أن أخرجه من دنيا الراحة إلى الجحيم . وأهمس بقلب مفعم بالعطف عليه وعلى جيله «علوان . . اصح» . ويفتح عينيه العسليتين، ويتثاءب، ويقول باسما : «صباح الخير يا جدى» . ويعقب ذلك حركة أقدام، ونشاط ألسنة . وحياة تدب ما بين الحمام وحجرة السفرة . وأستمع إلى قرآن الصباح فى الراديو حتى تنادينى هناء زوجة ابنى «السفرة جاهزة يا عمى» . أهم ما بقى لى فى مسرات الدنيا الطعام . ما أكثر نعم الله فى دنياه . اللهم جنبنى المرض والعجز . لا أحد ثمة للعناية بالآخرين . ولا فائض مال للتمريض . الويل لمن يسقط . يجمعنا فى الصباح المدمس وحده أو الطعمية . هما معا أهم من قناة السويس . سحقًا لعهد البيض والجبن والبسطرمة والمربى، ذلك عهد بائد، أو ق.ا. أى قبل الانفتاح . الأسعار جنت، كل شىء قد جن . ما زال فواز مائلاً للبدانة، وهو يستعين بالخبز، ومثله هناء ولكنها تسرع نحو الكبر قبل الأوان . ابن خمسين يبدو اليوم كأنه ابن ستين . وقال فواز بصوته الجهير :

ـ سنعمل أياما صباحا ومساء بالوزارة فأضطر إلى الانقطاع عن الشركة . .

ساورنى قلق . إنه وزوجه يعملان فى شركة قطاع خاص . ودخلهما ومعاشى ومرتب علوان تفى بالكاد بضرورات الحياة فما الحال إذا استغنت عنه الشركة؟!

فقلت برجاء :

لعلها أيام قليلة .

وقالت هناء :

ـ سأقوم ببعض عملك وآتيك بما لم ينجز منه واشرح لمدير القسم ظروفك . .

فقال فواز متسخطا :

ـ هذا يعنى أن أعمل من الصباح حتى منتصف الليل .

أتمنى دائما ألا نثير غبار الهموم على المائدة ولكن كيف؟ وقال علوان :

ـ والد أستاذتى علياء سميح يسوق تاكسى فى أوقات فراغه ويربح أكثر طبعا .

فسأله والده :

ـ هل يملك التاكسى؟

ـ أظن ذلك .

ـ ومن أين لى بشراء واحد؟! وهل كان أبو أستاذتك غنيا أو مرتشيا؟

ـ كل ما أعرفه أنه رجل محترم .

فقلت :

ـ اختار طريقا شريفا فى النهاية .

فقال علوان ضاحكا :

ـ لعلى أختار طريقا مثله يوما ما .

فسألته هناء بجدية :

ـ ماذا ستفعل؟

ـ سأكون عصابة للسطو على البنوك!

فقال فواز بامتعاض :

ـ خير ما تفعل .

ومسحت الأطباق مسحا ، ومضت بها هناء إلى المطبخ ، وما لبثوا أن ودعونى وذهبوا . وجدتنى فى الشقة الصغيرة وحيدا كالعادة . اللهم ارزقهم واكفهم شر الأيام . اللهم امنحنى شيئا من نعمة القرب والولاية . لو تركت البيت على حاله لبقى ملهوجا فى

فوضى شاملة حتى المساء. أفعل ما أستطيع فى حجرة نومى، وحجرة المعيشة حيث أمضى وحدتى مستمعًا للقرآن والأغانى والأخبار فى رحاب الراديو أو التليفزيون. ولو توجد حجرة رابعة لأمكن أن يقيم علوان فيها عشه. الحمد الله لا أعترض على قضائه. مر العارف أبو عباس المرسى بالقاهرة بأناس يزدحمون على دكان خباز فى سنة الغلاء فرق قلبه لهم، ثم وقع فى نفسه أنه لو كان معى دراهم لآثرت بها هؤلاء فأحس بثقل جيبه فأدخل فيه يده فوجد فيه جملة من الدراهم فأعطاها للخباز وأخذ بها خبزا فرقه، فلما انصرف وجد الخباز الدراهم زائفة فاستغاث عليه وأمسكه. فعلم أن ما وقع فى نفسه من الرقة اعتراض على قضاء الله فاستغفر وتاب وسرعان ما تبين للخباز أن الدراهم صحيحة! ذلك هو الولى الكامل لا تتأتى الولاية إلا لمن يعرض عن الدنيا. شارفت الثمانين وما وسعنى أن أعرض عن الدنيا. هى دنيا الله وهبته الخاطفة لنا فكيف أعرض عنها؟ أحبها ولكن حب الحر التقى العابد فلمَ تضن علىّ بالولاية؟ يهمنى القرآن والحديث كما يهمنى الانفتاح وكما تهمنى لقمة المدمس بالزيت الحار والكمون والليمون. ومن ذا يحيط برحمة الله الواسعة فقد أشير ذات يوم من بعيد إلى المصباح فيضىء دون أن أمس مفتاحه. لم يبق لى من أصدقاء العمر إلا واحد فرقت بيننا الشيخوخة. وحدة النفس والمكان والزمان. وكفت العينان عن القراءة منذ عام. نومى قليل جدا لا أخاف الموت. أرحب به حالما يجىء ولكن ليس قبل ذلك. عندما افتتح الملك فؤاد المدرسة انتدبت لإلقاء كلمة المدرسين. يوم مجد. أثلج صدرى بهتاف الأولاد «يعيش الملك ويحيا سعد». تغير الهتاف وتغيرت الأغانى. انفجر أخيرا الغلاء. من وراء الزجاج المغلق أرى النيل والأشجار. بيتنا أقدم وأصغر بيت فى شارع النيل. قزم وسط العمائر الحديثة. النيل نفسه تغير وكأنه مثلى يكابد وحدة وشيخوخة. لبسته حال واحدة، فقد مجده وأطواره، لم يعد فى مقدوره الغضب. ما أكثر السيارات! ما أكثر الثروات! ما أشد الفقر! ما أكثر الأحباب الراحلين! يوم غائم منذر بالمطر. فى مثله كانت تحلو الرحلة إلى حدائق القناطر. أصدقاء العمر يجتمعون حول الدجاج المقلى والبطاطس والشراب. والفونوغراف. أسمر ملك روحى، إن كنت أسامح وأنسى الأسية. كلهم هياكل عظمية وضحكاتهم المترعة بالسرور والأمان ذابت فى تضاعيف الفضاء. وقفوا ورائى صفا ليلة الزفاف. ليلة كشف النقاب لأول مرة عن وجه فاطمة. خمس سنوات مضت على آخر زيارة لقبرك. أى سرعة جنونية فى هذا الزحام الذى لم تعرف له الأشجار مثيلا منذ غرست فى عصر إسماعيل! المجنون يجرى بلا وعى نحو حادثة يرصده عندها الأجل. قال رسول الله ﷺ: «يا عبد الله، كن فى الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل، واعدد نفسك فى الموتى». صدق رسول الله.

علوان فواز محتشمي

صباح يوم جديد. قديم. جديد قديم. جديد قديم. جديد قديم. جديد قديم. جديد قديم. دوخيني يا ليمونة. إن لم يوجد قديم حسن فليوجد جديد سيئ. أى شىء. الموت نفسه تجديد. المشى صحة واقتصاد. المفروض أنه طريق العشق والجمال فانظر ما هو. آه يا قدمى! آه يا حذائى! تحملا وتصبرا هذا زمن التحمل والتصبر. فى زمن النار والوحوش لا نسمة ترطب الفؤاد إلا أنت يا حبيبتى. للأشجار الباسقة فضل وللنيل فضل أيضا لا ينكر. انظر إلى أعلى إلى السحب البيضاء ورءوس الأشجار لتنسى سطح الأرض المجدور. ستلقى يوما شيطانا بريئًا فتؤاخيه. إنى عبد العقل الراجح والخلق الكريم والعينين السوداوين المظللتين بحاجبين مقرونين. منذ الصغر منذ الصبا منذ الشباب فى البيت القديم الضائع بين العمائر الشاهقة، دسيسة بين الأغنياء. سيقتلنا صاحب البيت ذات يوم. عجيب أن يخلد الحب فى ظل الفساد المنتشر. هذا الطور المتهرئ هل تخلف عن غارة جوية؟ وأكوام القمامة رابضة بالأركان تحرس العشاق. صباح الخير أيها المكدسون فى الباصات. وجوهكم تطل من وراء الزجاج المشروخ مثل المساجين فى يوم الزيارة. والجسر المكتظ بالعابرين. السائرون على عجل يلتهمون سندوتشات الفول بنهم وبلا تذوق. جدى قال:

ـ اشتدى يا أزمة تنفرجى.

يا جدى المحبوب حتى متى نحفظ ونردد؟ إنه صديقى الأول. ما أنا إلا يتيم. فقدت أبوى بعد أن فقدا نفسيهما فى عمل يتواصل من الصباح حتى المساء. موزعين بين الحكومة والقطاع الخاص فى سبيل اللقمة والضرورة. لا نلتقى إلا خطفا.

ـ لا وقت للفلسفة من فضلك، ألا ترى أننا لا نجد وقتا للنوم؟! إن صادفت إحدى أخواتى عثرة فى حياتها الزوجية ندبت أنا لإصلاح ذات البين! زمن لا يجد فيه أحد عند آخر عونا. على كل أن يصارع وحسن حظه وحده. أخيرا ها هى شركة الأغذية. إحدى شركات القطاع العام. أقرأ على مدخلها بالبنط العريض «أدخلوها بلا أمل» ها هى محبوبتى فى إدارتنا العتيدة، العلاقات العامة والترجمة. تغدق على ابتسامة الحب. قلت لها معاتبا:

ـ لو انتظرت دقائق لجئنا معا.

فقالت بمرح:

ـ لظروف كان علىّ أن أتناول فطورى فى البرازيل.

بفضل جدى جمعتنا شركة واحدة وإدارة واحدة. أو بفضل ضابط من الضباط الأحرار كان يوما تلميذه. جدى شخصيته لا تنسى. يتذكر فضله رجل من جيل أنكر فضل السابقين. ما أكثر البنات فى إدارتنا! ها هى جيوش الأوراق تجم عملنا فى غير حاجة إلى تركيز. جدى. أعمل حينا وأسترق النظر إلى حبيبتى رندة حينا. أتذكر وأحلم وأحلم وأتذكر. قصة طويلة ترجع إلى أقدم عصور الحياة فى بيتنا القديم الفريد. لعبنا فى الطفولة واحد وعمرنا واحد. ماما تؤكد بغير دليل أنها أكبر منى. ويجىء البلوغ مصحوبا بالحياء والحذر. والرقيب يتدخل هادما المسرات. لكن الحب اقتحم فى حينه. فى المرحلة الثانوية. انهالت على السلم بين الطابقين المداعبات العابرة والعبارات الرمزية. وذات يوم دسست فى يدها رسالة اعتراف. كجواب منها أهدتنى قصة وفاء الجيلين. لما نجحنا فى الثانوية العامة فى عام واحد قلت لجدى أريد أن أخطب رندة سليمان جارتنا. جدى قال لى إنه على أيامه لم يكن يباح الكلام فى الخطبة قبل أن يستقل الشاب بحياته ولكنه وعد بمفاتحة بابا وماما فى الموضوع كما وعد بتأييدى. أمى قالت إن آل سليمان مبارك أقرب من الأقارب، ورندة بمنزلة بناتها ولكنها أكبر منك! وقال أبى إنها تماثلك فى السن إن لم تكن أكبر وتماثلك أيضا فى الفقر. أعلنت الخطبة فى يوم سعيد. وقتها كان الحلم يمكن أن يصير واقعا. منذ التحقنا بالعمل موظفين واجهتنا حقائق جديدة. ومرت أعوام ثلاثة فختمنا السادسة والعشرين. كنت عاشقا فأصبحت مرهقا عاجزا مسئولا. لا نجتمع اليوم للمناجاة ولكن لمناقشات توشك أن تلحقنا بالمجموعة الاقتصادية. الشقة.. الأثاث. أعباء الحياة المشتركة. لا حل لديها ولا حل لدى ولا نملك إلا الحب والإصرار. أعلنت الخطبة فى عهد الناصرية وواجهنا الحقيقة فى عصر الانفتاح. غرقنا فى دوامة عالم مجنون. حتى فى الهجرة لا مجال لنا. بين الفلسفة والتاريخ ضعف الطالب والمطلوب. لا لزوم لنا. ما أكثر من لا لزوم لهم. كيف حاق بنا هذا الضياع؟ إنى مسئول مطارد تحاصره التساؤلات. وهى جميلة ومطلوبة وأنا قائم مثل السد فى طريق حظها. نظرات والديها المتعضة لا تفارقنى.. أكاد أسمع ما يقال من ورائى. فوق ذلك تهيم أحلام الإصلاح. تجىء من فوق أو من تحت. بقرارات أو بانتفاضات. معجزة العلم والإنتاج. لكن ما الحل مع ما يقال عن الفساد واللصوص؟ ما أفظع ما تقول الدكتورة علياء سميح وما يقول محمود المحروقى! أين الصواب؟ لم أشك فى كل شىء؟ منذ تهاوى مثلى الأعلى فى ٥ يونيو. كيف يجد أناس سبيلا سحريا إلى الثراء الفاحش وفى زمن لا يصدق؟. ألا يمكن أن يحدث ذلك بلا انحراف؟ ما سر حرصى على الاستقامة؟ ما أطمح فى هذه الساعة إلى أكثر مما يؤهلنى للزواج من رندة. دعينا إلى مقابلة مدير الإدارة أنور علام. أنا ورندة. كثيرا ما ندعى معا لتعاوننا المشترك

على ترجمة اللائحة . إنه مدير لطيف المعاملة جميل الاستقبال محب للدعاية ، نحيل طويل غامق السمرة مستدير العينين ذو نظرة نافذة ، وأيضا كهل يشارف الخمسين من عمره وأعزب . وكعادته قال :

ـ أهلا بالعروسين !

وراح ينظر فى أوراقنا بسرعة وذكاء مبديا بعض الملاحظات . ورد التسويدة متسائلا :

ـ متى نفرح بكما؟

إنى أعتبر أسلوبه فى التدخل فى الشئون الخاصة للموظفين سياسة وإن لم تصادف منى ارتياحا مثل نظرة عينيه . على أنى أحببته .

ـ مشكلتنا حتى الآن لا حل لها .

فقال باستهانة جريئة :

ـ لا مشكلة بلا حل .

فقلت كالمحتج :

ـ ولكن . . .

ـ وإذا به يقاطعنى :

ـ لا تردد أقوال العاجزين .

فملأنى الغيظ وسألته :

ـ ما الحل فى تصورك؟

فضحك ضحكة مستفزة وقال :

ـ لاتطلب الحل عند الآخرين !

رجعت إلى مكتبى وفكرة تساورنى أنه تعمد أن يظهرنى فى صورة العاجز أمام رندة . وعشت فى غبش هذه الفكرة طيلة الوقت حتى أذن موعد الانصراف . ولدى عودتنا معا إلى شارع النيل ملفوفين فى معطفينا قلت لها :

ـ الرجل أثار أعصابى .

فقالت وهى تحبك طوق المعطف حول عنقها السمح :

ـ وأنا كذلك .

ـ إنه سمج يدعى الظرف .

ـ هو كذلك .

ـ هل تصدقين أنه يوجد حل لمشكلتنا لم نهتد إليه بعد؟

فتفكرت قليلاً ثم قالت :

ـ أملى فى الله كبير ، نحن نفكر وكأن كل شىء سيبقى على حاله إلى الأبد !

فقلت بقلق :

ـ ولكن العمر يجرى يا رندة .

فقالت باسمة :

ـ ربما ولكن الحب ثابت !

رندة سليمان مبارك

أصعد السلم إلى الشقة ويقف هو أمام شقته كأنما ليطمئن على حتى أبلغ بابى . ودعنى بقبلة فاترة شأن المهموم بأفكاره . لعنة الله على المدير ، استفزه بلا سبب . ظل طوال الوقت كئيبا مغتما . أفهم ذلك جيدا ولكن ألا يثق بى؟! لا مساحة عندنا لمزيد من القلق . رائحة الملوخية تجول فى الشقة ما أشد استجابتى لها . أبى نائم فوق مقعده . ألثم جبينه فيختلج جفناه . يبتسم بحنان . هزلت وضعفت لعنة الله على الروماتيزم . محتشمى بك جد حبيبى أقوى منه عشر مرات رغم أنه يكبره بعشر سنوات . صوت ماما يعلن أن السفرة جاهزة . أحب الملوخية ولكن ماما لا تعجبها شهيتى . كثيراً ما تقول لى :

ـ النحيف لا يقاوم الأمراض .

فأقول لها :

ـ البدانة أيضا ضارة .

ـ عنيدة ، إن قلت يمينا قالت شمالا .

ماما بدينة وكانت كذلك من قديم . تصلى وهى قاعدة على الكنبة . من أجل ذلك يكتنفنى الحذر عند تناول الطعام . ظنت نفسها غنية بدخلها البالغ خمسة وعشرين جنيها فى الشهر . لعلها كانت على حق فى الأيام الأسطورية التى تحكى لنا ، أى قيمة اليوم لدخلها ومعاش بابا ومرتبى جميعا؟!

ركب أبى طاقم أسنانه الذى لا يستعمله إلا حين تناول الطعام وراح يأكل على مهل ويشكو شدة البرد . انضمت أختى المطلقة سناء التى تشاركنى حجرة نومى . إنها تدرس السكرتارية فى معهد خاص لتجد لها عملا فلا تكون عالة على أحد . بعد الغداء استلقيت على فراشى فعاودتنى ذكرى القبلة الفاترة . لا أحب هذا . إهانة أو ما يشبه ذلك . إذا تكرر ذلك فسوف أصارحه لا تقبلنى إلا وأنت تحبنى لا يشغلك شىء عن

حبى. ماذا بقى لنا سوى الحب؟ أراعيه كأنما أنا أم وكأنما هو ابن مدلل متمرد. آه لو أمكنه أن يكون مهندسا! كان «زمنا» من أبطال الانفتاح لا من ضحاياه. وضحية أيضا لـ ٥ يونيو واختفاء البطل المنهزم. حائر لا موقف له. حتى متى يحتقر السائقين ويؤمن بأنه خير منهم؟ لماذا؟ متى ينظر إلى نفسه نظرة ناقدة موضوعية؟ لعله دورى وواجبى ولكنى أخشى على الشىء الباقى الوحيد حبنا. أحبه والحب لا عقل له. أريده بكل قوة نفسى. كيف؟ ومتى؟ أختى سناء تزوجت عن حب وقنعت بالثانوية العامة ونصيب ست البيت وشاب من ذوى الأملاك ثم لم توفق ومات الحب. الاتهامات انصبت كالعادة على الطرف الآخر ولكنها عصبية. تثور كالبركان لأتفه الأسباب فمن يحتمل ذلك؟! من أجل ذلك تعودت على أن أحذر الغضب كما أحذر الإفراط فى الطعام. متى تتيسر تلك السعادة الملعونة؟! حتى متى يصمد الجمال أمام الزمن الجارف ؟ لا ولم أعرف أننى نمت إلا بحلم رأيته. قمت عصرا. . لاطفت قطتى دقيقة. . صليت العصر والظهر معا. شكرا لماما فهى مربيتى الدينية. أما بابا! ماما زوجة موفقة رغم فارق السن بينها وبين بابا ورغم لا دينية بابا! أتذكرين محاسبتك له فى الزمان الأول؟

- بابا لم لا تصوم مثلنا؟

يقول ضاحكا:

- الصغيرة تحاسب أباها.

- ألا تخاف الله؟

- الصحة يا حبيبتى، لا يغرنك مظهرى.

- والصلاة يا بابا؟

- أوه. . سأحدثك عن ذلك عندما تكبرين. .

ليس كذلك الحال فى شقة حبيبى. الجد والأب والأم يصلون ويصومون. لا دينية أبى اليوم ساطعة مثل شيخوخته ومرضه. لم يتفوه أبدا بكلمة مريبة ولكن فى السلوك ما يكفى. فى ثورات غضبه يسب الدين. ربما استغفر الله إرضاء لى أو لماما كشعار ليس إلا كسائر الشعارات الجوفاء التى تنهال علينا من أفواه المسئولين. زمن شعارات مقزز. حتى الراحل البطل لم يعف عن ترديد الشعارات. وبين الشعار والحقيقة هوة سقطنا فيها ضائعين. ولكن ما حبيبى؟. . متدين؟. . لا دينى؟. . ملتزم؟. . لا ملتزم؟ علياء سميح؟. . محمود المحروقى؟!. . آه. . إنه حبيبى وكفى ورزقى على الله. دائم البحث عن شىء مفقود. لو حلت مشكلتنا لعرف لنفسه مرفأ. ينطح الصخر ويقبض على الهواء. حجرة المعيشة تجمعنا. . أبى بمرضه وشيخوخته وإلحاده، ماما وبدانتها المفرطة وهموم الآخرين، سناء وضيقها بوضعها وشعورها الأليم بالغربة، أنا ومشكلتى المزمنة.

فى الظاهر والداى قد أتما رسالتهما فأى سخرية . ها هو التحقيق الصامت يحاصرنى . ماذا بعد خطبة طالت أحد عشر عاما؟ ألا يوجد بصيص أمل؟

تقول سناء بصوتها الرفيع الحاد :

ـ لتنتظر حتى تترمل وهى مخطوبة !

فأقول لها بصرامة :

ـ لا شأن لك بى .

فتقول ماما :

ـ ذكريه يا رندة كى لا ينسى .

ـ نحن نعيش همومنا كل دقيقة فلا داعى للتذكير .

ثم بمزيد من الحدة :

ـ إنى رشيدة ، اخترت سبيلى بملء حريتى ، ولن أندم على شىء .

ويقول أبى بضجر :

ـ رندة رشيدة ومسئولة عن نفسها .

فتقول ماما بحسرة :

ـ كم من عرسان لقطة فقدناهم .

فأقول بكبرياء :

ـ لست جارية معروضة فى السوق للبيع !

ـ أنا أمك ، فوق أى شبهة ، تزوجت بالطريقة القديمة ووفقت والحمد الله .

ـ يا ماما لكل جيل طريقته ، وجيلنا فاق الجميع فى سوء حظه .

فيقول أبى باسما :

ـ جاء عصر أكل الناس فيه الكلاب والقطط والحمير والأطفال ثم أكل بعضهم البعض !

فقلت بمرارة :

ـ لعلنا أسعد من عصر آكلى البشر . .

وهتف أبى مغيرا الجو :

ـ حسبكم . . المسلسل التليفزيونى بدأ . .

انتزعتنى المقدمة الموسيقية التى أحبها من الصراع . بقوتها الانسيابية دعت حبيبى فهبط من الغيب وجلس إلى جانبى . انقلبت فجأة إلى أنثى حالمة شديدة الفهم للحياة الزوجية . وطاردت دمعة خائنة أوشكت أن تفضحنى . هل تقبل الدنيا بدونه؟

وقالت ماما:

ـ يا بخت أبطال المسلسلات! . . فما أسرع أن يجدوا لمشكلاتهم الحل السعيد!

محتشمي زايد

فى وحدتى أنتظر، أحبك الروب حول جسدى النحيل وأسوى الطاقية فوق رأسى الأصلع، أربت على شاربى وفى وحدتى أنتظر. ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾. جرس الباب يرن. أفتح الباب فتدخل أم على. فى معطف سنجابى والخمار الأبيض يحدق بوجهها القمحى الريان.

ـ كيف حالك يا بك؟

ـ نحمده يا أم على.

ـ الشتاء لا يريد أن يرحم.

وكامرأة يوزن وقتها بالنقود خلعت المعطف وعلقته بمشجب قائم غير بعيد من الباب ثم مضت إلى حجرة نوم فواز وهناء. تبعتها كما نبه على. جلست على مقعد أتابعها وهى تكنس وتنفض وتنظف وتلمع وترتب. نشيطة خفيفة رغم امتلائها. يخافون أن تمتد يدها إلى شيء. سوء ظن لا مبرر له وهو من رواسب الماضى. أم على ساعتها بجنيه وتنتقل من بيت إلى بيت كالنحلة فإيرادها يزيد على مرتباتنا جميعا مجتمعة، ولكنى أرتاح إلى الانفراد بها. نزهة أسبوعية تنفخ فى وجدانى نغمة الحلم الغابر. الانفراد بها يتجسد فى حال يضطرب لها روتين الزمن. ويواجه الأنا القديم الأنا الطارئ فيتناجيان وبينهما فاصل الزمن بلغتين غريبتين لا تفضيان إلى تفاهم ثم يستعير القلب من مخزونه البائد خفقة خاطفة تعيش حياة مقدارها ثلاثون ثانية. وعندما ما تنحنى لتعيد بسط الكليم أتصور أن أقرصها بحنان، مجرد تصور، فإننى مسيطر على زمامى تماما وهى مطمئنة من ناحيتى تماما. كأنها رجل فى النشاط والقوة وتماسك الشخصية. ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾. وأسألها متمرغا فى انفرادى بها:

ـ كيف حال المعلم؟

ـ ربنا يلطف به.

ـ الأولاد؟

ـ هاجروا، لم يبق إلا العبيط.

وتضحك ثم بدورها تسألنى:

ـ ما أخبار صاحب عمارتكم؟

ـ يئس وسكت .

ـ من كان يصدق أن الأرض تجن مثل بنى آدم؟ !

ـ الجنون أصل كل شىء يا أم على . .

ما أشد شعورى بالانفراد بك! حوالينا ولا علينا يا رب، كأيام شارع خيرت المسقوف بالشجر، وتحت مظلة من الأفكار الحرة المستوردة، فكرية ورتيبة المرضتان وشقاوة الغجر . الحياة فصول ولكل فصل مذاقه وطوبى لمن أحب الدنيا بما هى دنيا الله . فى زيارة لسليمان مبارك أبى رندة قال لى :

ـ أغبطك على صحتك يا محتشمى .

فقلت بثقة :

ـ الوراثة والإيمان يا عم سليمان .

فتساءل وهو ينظر نحوى بخبث :

ـ كيف أصدق أن مثلك يؤمن بالخزعبلات؟

ـ الله يهدى من يشاء .

ـ كأنك فى ماض ما، ما كنت ملحدا .

فقلت باسما :

ـ إيمان موروث، شك، إلحاد، عقلانية، لا أدريه، ثم إيمان!

فتساءل ساخرا :

ـ بوفيه مفتوح؟!

ـ هى الحياة الكاملة . .

ـ إنى فخور بثباتى، راض بالعدم، عابد للحقيقة، وقد أوصيت زينب إذا جاء الأجل ألا ينشر نعى ولا تكون جنازة ولا مأتم ولا حداد!

ـ ما هو إلا نور يهبط فجأة فيبدد الظلمات .

ـ المسألة أن العمر تقدم بك حتى لاح لك الموت . .

حوار عقيم، ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾ . صديقى يعيش فى كون خال وأعيش فى كون آهل بالأحباب . أستغفر الله . يا لها من زيارة! زيارة أم على . ماذا يفعل المسكين علوان؟ محرومون وسط سيرك من اللصوص . أحدثه عن زمانى لعله . رمى ببهلوان يطلق فى العطسة عشرة شعارات عقيمة . أم على تنتهى من عملها . تغسل اليدين والوجه وترتدى معطفها السنجابى وتنظر فى ساعة يدها لتعرف مستحقاتها . أسلمها النقود فتذهب قائلة :

ـ فتك بعافية يا بك .

ـ مع السلامة يا أم على ، لا تنسى الميعاد القادم .

وتعود الوحدة . أتمشى فى الشقة بعد تعذر المشى فى الشارع . القرآن والأغانى ، طوبى لكم يا من اخترعتم الراديو والتليفزيون . بامية ومكرونة الغداء . حبب الله إلىّ العبادة وجعل قرة عينى فى الطعام . أى وحدة والكون من حولى مكتظ بملايين من الأرواح ؟أحب الحياة وأرحب بالموت فى حينه . كم من تلميذ قديم لى قد صار اليوم وزيرا . لا رهبانية فى الإسلام . ما مثلى ومثل الدنيا إلا كراكب سار فى يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها . كثيرا ما أحادث حفيدى المحبوب عن الماضى لعله من حيرته يخرج . أغريه بالقراءة وقليلا ما يقرأ ، ويستمع إلىّ بدهشة من يعز التصديق عليه . دعنا من علياء سميح ومحمود المحروقى ، ألم تحملك الأحداث على الإيمان بالوطن والديمقراطية؟ ما معنى الإصرار على التمسك ببطل منهزم راحل؟! كيلا تصبح الدنيا فراغا يا جدى . إنى ألفت نظرك إلى أشياء غاية فى الجمال . يضحك ويقول لى :

ـ ما أريد الآن إلا شقة ومهرا مناسبا!

كيف أستطيع تجنب هموم الدنيا ومعى حفيدى المحبوب؟! ما أجمل كرامات الأولياء!

علوان فواز محتشمى

علمنى زمنى أن أفكر . علمنى أيضا أن أستهين بكل شىء وأن أشك فى كل شىء . ربما قرأت عن مشروع منعش للآمال وسرعان ما يكشف المفسرون عن حقيقته فلا يتمخض عن أكثر من لعبة قذرة . هل تترك السفينة للغرق؟! هى عصابة مسلطة علينا لا أكثر ولا أقل؟! أين الأيام الحلوة؟ كانت توجد أيام حلوة لاشك فى ذلك . ولى أنا أيضا أيام . حين كانت الشقة عامرة بالأخوات والدفء وكانت الأعباء يسيرة . كان لأبى وأمى وجود فى البيت . كان يوجد حوار وضحك وحماس الدراسة وسطوة البطولة . إحنا الشعب . اخترناك من قلب الشعب . والحب كان باقة من الورد فى قرطاس من الأمل . فقدنا زعيمنا الأول ومطربنا الأول . يخرجنا من الهزيمة زعيم مضاد فيفسد علينا لذة النصر . نصر مقابل هزيمتين . اخترناك من قلب الشعب . وتجذب حبيبتى الشص من الماء فتخرج فارغة وتنغرز فى إبهامى وتترك أثراً ما زال باقيا حتى اليوم . على شاطئ

النيل أمام بيتنا قلت لها إنك لا تحسنين صيد السمك ولكنك اصطدت قلبى وأسلت دمى . من الأخوة إلى الحب حدث تغير بطىء مثل قرون أوراق الشجر التى تسبق بالظهور فى أوائل الربيع ولا ترى إلا عند التأمل . أنوثة وتورد الخدين ووشاية أعلى الفستان . باللغة حين تقول الكلمة شيئا وتشير إلى شىء آخر وتلاشت البراءة وحلت محلها مفاوضات وتوسلات من أجل لثمة فوق الخد أو الشفة . أطيب ثمرة فى الشجرة أخلاق وعقل وجمال . يضايقنى أحيانا أن تبدو أعقل منى . لا أنسى حزن نظرتها عندما اعترفت لها بعجزى عن اختيار القسم العلمى . حوار طويل لم يجر على لساننا ولكنه يتربص بنا فى زاوية ما . أسرتانا سقطتا معا فى حفرة الانفتاح . شد ما يحزننى ألا تظهرى فى الملابس اللائقة بجمالك . أى مسئولية تثقل كاهلى . قلت لها مرة فى استراحة الهرم :

ـ فلنتسل بحصر أعدائنا .

فدخلت اللعبة قائلة :

ـ غول الانفتاح واللصوص الأماثل . .

ـ هل ينفعنا قتل مليون؟

فقالت ضاحكة :

ـ قد ينفعنا قتل واحد فقط !

فقالت ضاحكة أيضا :

ـ إنك اليوم رندة المحروقى . .

* * *

أنور علام المدير يستدعينى إلى حجرته ويطلب إلىّ أن أزوره فى مسكنه فى الخامسة مساء لإجراء مراجعة شاملة قبل إعداد الحساب الختامى . أخبرت رندة فلم تعلق . مسكنه فى عمارة نصف جديدة بالدقى تقع أمام أحد مداخل جسر ٦ أكتوبر . استقبلنى ببشاشة وهو مرتد بدلته وقال :

ـ لا تغرقك فخامة الشقة فأختى تعيش معى وهى أرملة غنية . . كأنما ينفى عن نفسه الشبهات . كل فرد مهدد اليوم بالشبهات . وعملنا بهمة حتى الساعة الثامنة . فى أثناء ذلك دخلت الأرملة بالشاى تعارف بيننا وقدمها قائلا «جولستان أختى» . من النظرة الأولى شعرت بأننى أمام امرأة يقع عمرها ما بين الأربعين والخمسين ، مقبولة المنظر ، ممتلئة فى تكوين حسن ، مثيرة رغم رزانتها واحتشامها أو ربما لرزانتها واحتشامها . لم تجلس وقالت وهى تغادرنا :

ـ استبق الأستاذ للعشاء معنا .

فقال أنور علام :

ـ هذا أمر !

أعدت لنا مائدة من الشواء والسلطات المتنوعة والجبن والزيتون ثم مهلبية وتفاح . وسمعت أنور علام يقول ونحن نتناول عشاءنا :

ـ أنا وكيل أعمالها فقد ورثت عن زوجها عمارتين وشهادات استثمار .

لفت نظرى تعريفه لى بأملاكها فسرحت فى أكثر من ظن . وراح يحكى لها عن مشكلة خطبتى بإشفاق .

ـ هذه حال جيل بأسره .

فقال الرجل :

ـ ومما يزيد المشكلة تعقيدا أن علوان من أصحاب المبادئ!

فقالت بإعجاب :

ـ جميل أن أسمع ذلك ، الأخلاق أهم شيء فى الدنيا .

نبرتها لا تدع مجالا للشك فى صدقها . إنى أجدها مثيرة للغاية . وإنى مخزن بارود عند أى إثارة . معاناتى فى هذه الناحية تستحق الرثاء . وقال أنور :

ـ أختى كاملة فى كل شيء إلا شيئا واحدا لا أوافقها عليه هو إعراضها عن أكثر من فرصة زواج طيب . .

فقالت بهدوء :

ـ لست سلعة وليسوا رجالا . .

فقال أنور علام :

ـ ثراء المرأة قيمة مشروعة ولا عيب على الرجل إذا أولاها ما تستحقه بالإضافة إلى المزايا الأخرى .

فقالت السيدة جولستان :

ـ لا رجل جدير بالثقة فى هذا الزمان .

وملت إلى تغيير مجرى الحديث فسألت مديرى :

ـ معذرة يا سيدى لِمَ لم تتزوج حتى اليوم؟!

فقال بغموض :

ـ أسباب كثيرة .

ولم يذكر سببا واحدا فقالت جولستان :

ـ إنه مخطئ ، وهو قادر على الزواج .

وراح يسألنى عن أسرتى وأسرة رندة وأنا أجيبه بصدق وإيجاز حتى قال :

ـ رندة فتاة ممتازة ولكن الزمن يسرقها .

طعنة وأى طعنة! مقصودة أم جاءت عفو الخاطر؟!

على أى حال أفسدت على السهرة . ولم يخفف من حدتها قول جولستان :

ـ الحب هو العمر الحقيقى . .

وغادرت المسكن مشحونا بالسخط على الرجل والإثارة من ناحية شقيقته .

رندة سليمان مبارك

اعتمدت رسائلى المترجمة من المدير ولم يبق إلا أن أذهب ولكنه مال بكرسيه المتحرك إلى الوراء وقال لى :

ـ آنسة رندة ، عندى حكاية تهمك .

ماذا عنده يا ترى؟

قال :

ـ هى طبيبة شابة ، كانت مخطوبة لطبيب زميل لأعوام ، يئسا من الزواج ، فسخا خطبتهما ، تزوجت من تاجر فى وكالة البلح ووافقت على رغبته على البقاء فى البيت كست بيت . .

دهشت واستأت ولكنى سألته بهدوء :

ـ لماذا تتصور أن هذه الحكاية تهمنى؟

فسألنى متجاهلا سؤالى :

ـ ما رأيك فى تلك الطبيبة؟

فقلت بشىء من الجفاء :

ـ لا أستطيع أن أحكم على واحدة لا أعرف ظروفها .

فقال بهدوء :

ـ أنا أعتبرها عاقلة ، فست البيت خير من طبيبة عانس!

غادرته بوجه لا أشك فى أنه عالنه باستيائى . له نظرات طامعة لا يمكن تجاهلها . والحق أنه يشكل عبئا علينا . أنا وعلوان . فى صباح الجمعة التالى لزيارته لبيت المدير ذهبنا إلى استراحة الهرم . الجو بارد حقا ولكن الشمس ساطعة ، ونحن ننظر من عل إلى المدينة

التى تبدو عظيمة هادئة مترامية كأنما خالية من الهموم والقاذورات. وسألته ونحن نحتسى الشاى:

ـ كيف كانت زيارتك للبك المدير؟

فأعادها علىّ بتفاصيلها، حتى أفسدت علىّ جلستى الحلوة. قلت:

ـ يبدو أنها لم تكن زيارة عمل!

ـ بل عملنا ثلاث ساعات متتابعة.

فقلت بتحد:

ـ أنت فاهم قصدى..

فقال بسخط:

ـ إنه شخص مثير للأعصاب..

ـ وأخته؟!

ـ عاقلة متزنة أحترمها كأم..

فضحكت ضحكة باردة وتساءلت:

ـ وهل عاملتك كابن؟

فتساءل محتجا:

ـ تحقيق واتهام يا رندة؟

فقلت بسرعة:

ـ لا سمح الله.

ورويت له ما دار بينى وبينه فى مكتبه فقطب غاضبا وهتف:

ـ سأطالبه بألا يتدخل فيما لا يعنيه.

فقلت بتوسل:

ـ الأفضل أن نهمله كى لا تسوء العلاقة بينك وبين مديرك.

فقال بامتعاض:

ـ المسألة أن موقفى منك ضعيف لا أدرى كيف أدافع عنه..

فقلت بلطف:

ـ لست متهما ولا أطالبك بدفاع.

ـ إنى مسئول وحزين.

ـ لا حيلة لنا.

ـ لكنه وغد ويعد خطة . .

ـ أهملهِ مع حقارته .

وصمتنا قليلا هاربين إلى رحمة الطبيعة حولنا حتى جاءنى صوته متشكيا :

ـ كأننا نسينا حديث الحب . .

فقلت مدارية حزنى :

ـ لسنا فى حاجة إلى مزيد منه .

فقال وهو يرمقنى بامتنان :

ـ أحبك .

فقلت وأنا فى غاية من التأثر :

ـ أحبك .

فتساءل فى حيرة :

ـ ترى ما المغامرة الشريفة التى تدر علينا ما نحن فى حاجة إليه من مال؟

فقلت باسمة :

ـ ألا تملك موهبة الفتى الأول فى السينما؟

ـ وأنت ألم تجربى صوتك ولو فى الحمام؟

وضحكنا رغم همنا المشترك ، وقال :

ـ ليست المشكلة تحسين مرتب ولكنها مشكلة الخلو والأثاث أيضا .

ثم واصل بعد صمت قليل :

ـ المحروقى تزوج بكل بساطة ، ولكنه يعيش فى مخيم مع طائفته . تخيلت المخيم وحياته . كأنه خيال لا حقيقة . رغم ذلك هفا فؤادى إليه . خيمة بسيطة ولكن يخفق بين جوانحها الحب . وفاض من قلبى نبع حنان متدفق . وقال بصوت دلنى على أنه يشاركنى أشواقى :

ـ شد ما أريدك أكثر من أى شىء فى الوجود .

انضباطى خلقة مركبة فى أعماقى منذ الصغر . حوارى مع رغباتى الجامحة دائما ينتصر . لم تؤثر فى تجارب شاهدتها عن كثب . حافظت على تصورى الوقور لمعنى الحرية . لم أتزعزع للتهم الساخرة المألوفة بالانغلاق والرجعية . ولم أبرأ من الحزن .

محتشمي زايد

ليلة أمس رأيت فيما يرى النائم سيدى أبا ذر. العبادة تغدق على شفافية وهابة للرؤى. لحبى الدنيا أقف عند ذاك الخط لا أتجاوزه. وترد على خاطرى هذه الحكاية «قال محمد بن العطار، قال لى الشيخ محمد راهين يوما: كيف قلبك؟ فقلت له: لا أعرف كيفيته، وذكرت ذلك لسيدنا شاه نقشبند وكان واقفا فوضع قدمه على قدمى فغبت عن نفسى فرأيت جميع الموجودات مطوية فى قلبى، فلما أفقت قال: إذا كان القلب هكذا فكيف يتسنى لأحد إدراكه؟ ولهذا قال فى الحديث القدسى: ما وسعنى أرضى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن ترد على خاطرى تلك الحكاية فأغبط الأولياء وأتوق إلى الكرامات ولكنى أقف عند حافة بحر التصوف مستمسكا بالعبادة قانعا بها فى أحضان دنيا الله. وقد يرتد بصرى المتأمل الهادئ بنور من الوهاب. لا، ولا أندم على مراحل الحياة التى مررت بها فقد منحت كل مرحلة نورها. أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا وأعمل لآخرتك كأنك تموت غدا. ويدق جرس الباب عند الضحى. من القادم وليس اليوم بيوم أم على؟ وأفتح الباب فتدخل زينب هانم أم رندة. أستقبلها بترحاب وأنا أعجب لبدانتها رغم الضائقة. وتجلس فى حجرة المعيشة وأسكت الراديو فتقول:

ـ لا أحد لى غيرك يا محتشمى بك.

فقلت وأنا أسائل نفسى عما جاء بها:

ـ لنا الله جميعا..

فواز بك وهناء هانم أولى بالحديث ولكن العمل المتواصل لم يترك لهما فراغا، ولا فائدة ترجى من مخاطبة علوان، ففيك الكفاية والبركة.

آه، فهمت كل شيء مقدما، إنها قادمة من أجل مشكلة علوان ورندة.

ـ إنى مصغ إليك يا زينب هانم.

ـ عندك حسن التقدير، البنت يا محتشمى بك على وشك الضياع.

ـ لا سمح الله.

ـ إنكم لدينا المفضلون على غيركم ولكن حتى متى ننتظر؟

شعرت بالخطر الزاحف نحو حفيدى المحبوب فتساءلت:

ـ زينب هانم، أليست رندة رشيدة ومثقفة وتميز بين ما ينفعها وما يضرها؟

ـ الحب يضل يا محتشمى بك، أصبح الحب فى هذه الأيام إلها.

هل تزوجت أنت عن حب يا محتشمى بك؟ هل تزوج فواز بك عن حب؟

ـ ولكنهما يؤمنان به.

ـ ونتركهما حتى يدمرهما معا؟

وتنهدت بصوت مسموع شأن العاجز فقالت ولغدها يتحرك:

ـ فلنبذل جهدا للإنقاذ وليفعل الله ما يشاء، ربما وجد كلاهما ما يناسبه.

ـ أهذا رأى سليمان بك أيضا؟

ـ إنه أبوها كما أننى أمها، وما يحزننا إلا أن علوان فتى طيب وجدير بكل خير..

وتمتمت وأنا أختم الحديث:

ـ وسيئ الحظ أيضا.

فذهبت وهى تقول:

ـ اعتمادى بعد الله عليك.

يا له من صباح! قضى على أن أكون وسيط السوء إلى أعز الناس على قلبى. انكمشت فى مقعدى متلفعا بالكآبة. وفى أثناء الغداء لم أشر إلى الزيارة حتى انفردت بالشاب عصرا فى حجرة المعيشة. لم ينته بطبيعة الحال إلى معنى نظراتى حتى سألته:

ـ هل تغفر لى حديثا غير سار؟

فرمانى بنظرة متوجسة وقال ساخرا:

ـ هذا هو الأصل فى الأحاديث يا جدى.

ـ عن رندة يا علوان.

فتغير وجهه الحسن وغشيه الحب فعرضت الموضوع بتفاصيله. كور قبضته وألصقها بفيه معتمدا بكوعه على خوان قديم وقال:

ـ كأننى مجرم مطارد يا جدى.

ـ يجب أن نفكر بهدوء وشجاعة.

ـ أريد أن أعرف انطباعك يا جدى.

فازددت ضيقا وأنا أقول:

ـ لهم عذرهم، هذا ما يجب أن نسلم به.

فقال بحدة:

ـ رندة ليست قاصرا.

- بلى، ولكن الانتظار يبدو بلا نهاية.
- أنا لم أقصر.
- لا أحد يتهمك.
- الرأى الأخير لهم أم لها؟
- الآن وهو بين يديك أنت.
- أنا؟
- العمر يجرى، وأنت فتى عاقل، بيدك إنقاذها، وربما إنقاذ نفسك أيضا.. إنه ليس مجرد سوء حظ. إنه خط طويل من المآسى. ٥ يونيو والانفتاح وروسيا والولايات المتحدة ومملكة المنحرفين.

وتساءل:

- لو أصررت على الرفض؟

فقلت بتسليم:

- افعل ما تراه صوابا..

فهز رأسه قائلا فى غموض:

- أعدك بذلك يا جدى.

وعلم فواز وهناء بالموضوع مساء. وانفعلت هناء غاضبة وقالت إن قلبها لم يوافق على الخطبة إلا مضطرا. أما فواز فقال إنه طالما حذر ابنه من هذه النهاية المحتومة. وقال:

- الخطبة تعرقل الاثنين.

وقالت هناء تخاطبنى:

- أقنعه يا عمى، إنه يعاندنا ولكنه يقتنع بك، لو سمع كلامى من أول الأمر ما انتهى بنا الأمر إلى هذه الخاتمة المهينة!

وجالت بنفسى الآية الكريمة ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

علوان فواز محتشمى

لم يبق من الشتاء شىء والجو ينعم بصفاء نادر. السوء كله كامن فى وحدى. كان يجب أن أختار مكانا آخر غير استراحة الهرم. هذا الموقع عند حافة الهضبة سجل لنا

أجمل الذكريات. هدوء نظرة عينيها ضاعف من إحساسى بالذنب. لا يوجد شخص يستحق الاحترام ولا فعل يستحق الثقة ولا وعد يستحق التصديق. ذلك التاريخ المنحدر ما بين العندليب الأسمر والغراب الأسمر فلتكف الدكتورة عن إلقاء الشعارات فهى زوجة وأم وشربت العشق حتى الثمالة فلنحتس الشاى فى هناء، أو لتهنأ به وحدها، أما أذوق له طعما.

- أعوذ بالله من صمتك!

فرنوت إلى هامات النخيل المنثور فوق المنحدر وسألتها:

- رندة، هل علمت بزيارة مامتك لجدى؟

فقالت باستهانة:

- لم تمر بسلام ولكن لا جديد تحت الشمس..

فقلت بأسى:

- لو صح ذلك لتزوجنا منذ سنوات.

- أراك متأثرا أكثر مما توقعت.

- اختنقت الأنفاس.

- اعتدنا أن نصمد حيال المعارضة.

- حتى متى؟

- لا أهمية للوقت.

- الوقت مهم أردنا أم لم نرد، ومسئوليتى ثقيلة.

فقالت بحزم:

- لست معفاة من المسئولية، إنى مثلك تماما.

- لا مفر من التسليم بأنى أهدر مستقبلك.

- ومستقبلك أنت؟

- الأمر يختلف وقد يتزوج الرجل فى الخمسين.

شحب وجهها وهى تتمتم:

- لأول مرة أجدك منهزما يا علوان.

فقلت بعد تردد:

- ربما لأننى أنتصر على أنانيتى لأول مرة!

فهتفت بفزع:

- رباه . . أتفكر حقا فى . . .
وأشفقت من إتمام جملتها فقلت وأنا أمرق من جرحى :
- إنى أحررك من قيدى .
قالت بانفعال شديد :
- علوان لا أطيق سماع ذلك .
- أعيدى التفكير فى موقفك بعيدا عن ظلى الثقيل . .
- إنى حرة ولا سلطان لأحد علىّ . .
- الأمر يتطلب إعادة نظر .
فتفكرت فى وجوم ثم قالت :
- إنه منطق سليم ولكنى أشك فى سلامته فى ظل حب حقيقى . . فقلت بسرعة وحرارة :
- حذار من الشك فى، لا تزيدى الموقف سوءا، فالحب أيضا هو التضحية . .
- لا حاجة لك إلى التضحية . .
- إنى أقرر ما أراه صوابا .
فقالت بمرارة :
- قل إنك أصبحت تجدنى عقبة فى سبيلك .
- سامحك الله يا رندة، لن أدافع عن نفسى . .
- إننى أرفض تضحيتك .
فقلت بوضوح :
- وأنا مصر عليها .

وفصل بيننا صمت أثقل من الليل الزاحف . انسحب كلانا إلى داخل ذاته . وباعد اليأس ما بيننا إلى ما لا نهاية حتى فقد مجلسنا أى معنى . قامت متثاقلة وهى تقول :
- لا وجه لبقائى هنا .

فقمت ضامر الحيوية . كأننا غريبان سيذهب كل إلى وطنه . ولا شىء أقوى من الحب إلا الألم . تخايلت لعينى الوحدة المتربصة بى فى نهاية الطريق . طوال الطريق لم نتبادل كلمة . ولا تحية عند الفراق داخل العمارة القديمة . وجدت والدىّ فى حجرتهما وجدى وحيدا أمام التليفزيون جلست على مقربة منه فنظر نحوى بتوجس واستطلاع ثم قال وكأنما يهرب من أفكاره :
- فيلم عن امرأة مجنونة، لم أحبه . .

فجاريته متسائلا :

ـ ولم ترى ما لا تحب؟

ـ فى القناة الأخرى خطبة .

ـ ولم لا تغلقه؟

ـ هو خير من لا شيء .

فقلت :

ـ الخطبة فسخت!

وجم وتجلى فى عينيه الخابيتين الهم ثم غمغم :

ـ أعانك الله على بلواك!

فقلت بجفاء :

ـ فسخت وانتهى الأمر .

فقال بأسى :

ـ لدى شعور بالذنب .

فقلت بصوت بارد :

ـ لا ذنب لك يا جدى .

رندة سليمان مبارك

رأيت صورة وجهى معكوسة فى نظرة أمى التى استقبلتنى بها . ها هى تدارى عينيها فى إشفاق وما يشبه الخوف . قلت لها على مسمع من أبى :

ـ هنيئا لك ، نجح مسعاك .

فغرقت أكثر فى الصمت حتى اغرورقت عيناها ، وإذا بأبى يقول :

ـ إنى مطمئن إلى رجاحة عقلك .

فقلت محتجة :

ـ بابا . . من فضلك لا تعاملنى كطفلة . .

فقال بهدوء :

ـ لن تندمى ، سوف أذكرك بذلك فى يوم قريب .

ونطقت أمى لأول مرة وقالت :

ـ أنت مؤمنة ولا خوف على مؤمن.

وقال أبى:

ـ أمك لم تخطئ يا رندة!

ولكنها دنيا جديدة تماما التى علىّ أن أعايشها منذ الساعة. دنيا لا يوجد بها أثر لعلوان. دنيا على القلب أن يصبر عليها حتى يجيئه الفرج بموته. ودهمنى شعور قاس بتقدم سنى وأننى أطرق أبواب العنوس برجاء خائب. وتبدت لى حجرة نومى قديمة بالية بسريريها العتيقين وصوانها المقشر وسجادتها الجرداء التى لم يبق من رسومها إلا خيال. حتى سناء أختى باتت مضجرة مؤذية وهى تقول لى ببرود:

ـ إنك تستحقين التهنئة.

وثار غضبى على علوان. أثبت أنه أضعف مما تصورت. وأنه خليق أن يبقى حائرا بلا مرفأ إلى الأبد. بل لعله سرعان ما ينحرف، أو يبيع نفسه لامرأة مثل جولستان. الحقيقة أنه ضاق بحمل المسئولية. إنه يهرب من عجزه. وفى ظنه أنه لن يرمى بعد اليوم بالعجز عن الزواج. وقلت لنفسى إننى يجب أن أسعد بالتحرر منه. إننى أخف مما كنت فى أى يوم مضى. هجرنى وخاننى. من غيره يسأل عن تعاستى ذات الأنياب الحادة. يجب أن أهنئ نفسى على التحرر منه. من الآن فصاعدا أستطيع أن أزن الأمور بعقل غير مشلول بقيود القلب. أنا حرة.. أنا حرة.. حسبى ذلك. ماذا يعنى أنور علام بقوله؟ يا للتعاسة التى تتمطى بلا حدود! هل يشفى الزمن حقا من الحب؟ متى؟ وكيف عليه اللعنة؟ سأضاعف له الازدراء كلما ضاعف لى الذل. والذى يمعنان فى الهرب حتى ينظما صفوفهما. أول النصر هزيمة ثم ينتصر. هرب وتحررت. احملى ألمك بشجاعة حتى يتبخر. انتظرت حضوره فى الإدارة صباحا مصممة على لقائه كزميل وكأن شيئا لم يكن تماديا فى إعلان اللامبالاة. لكننى لم أستطع. لم أنظر نحوه ففضحت تعاستى. ترى كيف بات ليلته؟ شاركنى العذاب أم غط فى نوم الراحة والحرية؟ وكان لابد للسر أن ينكشف فعرف فى الإدارة وأحدث فى الظاهر على الأقل وجوما. لم يعلق أحد بكلمة. لعل المفلسين قد سعدوا فالتعساء يتعزون بالتعساء. ولما جاء دورى للمثول بين يدى مدير الإدارة أنور بدا علام أول الأمر جادا أكثر من المألوف. ولكنه قبل أن يأذن لى فى الانصراف قال:

ـ علمت وأسفت!

فلذت بالصمت فقال:

ـ لكنها نهاية محتومة، وفى تقديرى أنها جاءت متأخرة.

ثم بنبرة أقوى:

ـ مثلك لا يصلح لها أن تعلق مستقبلها بوعد المجهول كأنك لا تدركين قيمتك الحقيقية .

ولم أنبس بكلمة فقال :

ـ عندما قلت يوما إن لكل مشكلة حلا كنت أفكر فى هذه النهاية وإن يكن كل وجود إلى زوال فالحزن لن يشذ عن هذه القاعدة !

ثم قال وهو يعيد إلى الإضبارة :

ـ نصيحتى يا آنسة رندة أن تتذكرى دائما أننا فى عصر العقل وأن تعتمدى عليه كل الاعتماد فكل ما عداه باطل . . باطل . . باطل . .

وطوال حديثه يصفحنى بنظرات جريئة لم يعد يخفف منها الحاجز الذى كان قائما . لم يخف نفورى منه ولم يزدد ولكننى لم أعد أجده ظاهرة شاذة . وفى المساء قال لى أبى :

ـ أود أصارحك يا رندة بأنه لو كان كامل الإخلاص لما تخلى عنك أبدا .

بابا ساخر يسىء الظن بالبشر ودأبه التنقيب وراء كل فعل حسن حتى يعثر له على تفسير قبيح . ورغم أننى ملت لتصديقه إلا أننى قلت :

ـ لأنه لم يعد يحتمل المزيد من اللوم فقد أقدم على تضحية أليمة . إنى أعرفه خيرا منك يا بابا .

فقال باسما :

ـ أتنبأ لك بخاتمة سعيدة .

ولم أعلق بكلمة قال :

ـ ما دمنا قد تحررنا من الحب فلنكل مصيرنا للعقل ، وفى هذه الحالة لا غضاضة من الاستماع لرأى الآخرين .

فقلت باستياء :

ـ إنه أمر يعنينى وحدى .

ـ بل يعنينا جميعا .

واأسفاه ! علوان يمعن فى البعد وها نحن نتحدث عن حياة جديدة .

محتشمى زايد

الحمد الله. كل شيء طيب لولا حزن علوان. ربيع هذا العام لطيف نادر الخماسين فمتى يسلو علوان وينسى. الحمد الله. فاليوم يمضى بين العبادة والتلاوة والطعام والأغانى والأفلام. عند الثمانين نتوقع قدوم ضيف لا ريب فيه فاللهم حسن الختام. اللهم جنبنا العجز والأوجاع وانشر ندى رحمتك فى أركان هذا البيت القويم. ودنيا الله جميلة خليقة بكل حب فأى روح شريرة قد حلت بها. السماء والنيل والاشجار وأسراب الحمام وهذا الصوت المليح ﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ لو تركت وشيخوختى لكنت سعيدا ولكنى لا أترك فى سلام. سقيا لعهد الإيمان الساذج كما تذكره الذاكرة، وعهد الشك ومنازعاته ما أثرها بفتنة اليقظة. وعهد الإلحاد وتحدياته وغناها بالشجاعة والاقتحام، وعهد العقل وحواره الدائم، وأخيرا عهد الإيمان والأمل. أصبح الموت آخر المغامرات الواعدة. مناجاته تهون حمل الأعباء على الحامل. سيجيء فى ساعة ما سافرا عن وجهه وسوف أقول له بكل مودة اقطف الثمرة وهى فى تمام نضجها. يوما كنت أحدث علوان عن المسلسل التليفزيونى الجديد فقال لى:

ـ جدى، أهنئك على راحة بالك.

أزعجنى قوله فقلت له:

ـ فى صوتك احتجاج يا علوان.

فضحك فى حياء ولم ينبس فقلت:

ـ توجد مرحلة أخيرة اسمها الشيخوخة، إنى أمد يدى لأقبض على حلقة الثمانين فى مرقى الجبل فمن حقى أن أركز على خلاصى تاركا هموم وطنى لبنيه، وقد قمت بالتزاماتى فى حينها على قدر استطاعتى. وحاولت جهدى على حملك على الالتزام وما زلت أحذرك عواقب الشيخوخة المبكرة، إن قاموسك لا يحوى إلا بطلا شهيدا واحدا. قضيت فترة متلقيا مسحورا، وتقضى الأخرى متحسرا حائرا، أقل ما أقوله عن نفسى إنى شهدت من تلاميذى ثلاثة من الوزراء!

فتساءل ضاحكا:

ـ أتعد ذلك من حسناتك يا جدى؟

فما تمالكت من الضحك عاليا وقلت :

ـ إن تكن الأخرى فلندع الحكم للتاريخ ، أمامكم تحديات خليقة بأن تخلق أبطالا لا حائرين !

وربت ذراعه بحنان ثم واصلت :

ـ قم بواجبك فى حينه حتى تفرغ ذات يوم لطريق الله وأنت مطمئن الضمير .

لو وهبنى الله الكرامات لأوجدت له شقة ومهرا ولكن العين بصيرة واليد قصيرة . إنه الآن يصارع ألمه وجراحه وما أملك له إلا الدعاء . وأذكر سخريات سليمان مبارك والد رندة فى زمن مضى :

ـ ترى هل نسى الدرويش الماكر عهد فسقه ومجونه؟

فقلت له باسما :

ـ حل الحب محل الخوف فيما بينى وبين ذى الجلال .

ـ تنافس إبليس بالطول والعرض ثم تطمح إلى الغفران .

ـ حتى عهد المجون أعتبره من أطيب ذكريات الحياة .

فصاح الرجل ساخرا :

ـ اشهدوا يا هوه ! . . واعجبوا لهذا الدرويش المودرن . .

ـ يا مخرف ، لقد بلغت فى الطريق درجة من الوعى أجد فيها عند أغنية «حبايبى كتير يحبونى لكن أنت اللى شاغلنى» . روحا من الصوفية .

فقهقه متسائلا :

ـ وماذا تجد فى أغنية «يوم ما عضتنى العضة»؟ !

ـ اسخر ما شئت ، إن نزوات المربى الفاضل التى مارسها وراء ستر وقاره لم تكن إلا صلاة شكر ساذجة .

فهتف :

ـ محتشمى ، أشهد أنك ولى مغانى الهرم وملتقى مهربى الانفتاح . المشكلة الحقيقية هى علوان . ترى هل يعتبرنى المصدر الذى انطلقت منه شرارة تعاسته؟

ـ أود يا علوان أن أحمل عنك بعض حزنك !

فقال بضيق :

ـ الحق أننى لا أدرى ماذا أفعل بحياتى .

ـ سيبلغ البلد يوما شاطئ الأمان .

ـ سأبلغ الشيخوخة قبل ذلك.

فقلت متنهدا:

ـ ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾.

ـ ما أسرع أن تجدوا النجاة فى جملة جميلة يا جدى.

ـ علوان، فى الثلاثينيات فصلت من عملى بتهمة تحريض الطلبة على الإضراب، كنت صاحب أسرة وأبناء ومن كبار الفقراء، اشتغلت بمدرسة الإعدادية الأهلية بمرتب حقير، وأمسكت حسابات بقال من أصدقائى، ومكثنا عاما كاملا لا نطبخ إلا العدس، وعندك أبوك فاسأله..

تابعنى بنصف وعى ثم قال بامتعاض:

ـ بت أكره نفسى.

فقلت برجاء:

ـ لعله إيذان بميلاد جديد.

فقال ساخرا:

ـ أو موت جديد.

فقلت بحرارة:

ـ ليكن حديثنا عن الحياة لا الموت.

وترددت فى نفسى الآية الكريمة ﴿من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها﴾.

علوان فواز محتشمى

جريح القلب والكرامة. أهيم على وجهى ككلب بلا مأوى. حرارة الجو تبخر لذة المشى. مقهى ريش منقذ من ضجر الوحدة. أجلس وأطلب القهوة وأرهف السمع. هنا معبد تقدم به القرابين إلى البطل الراحل الذى أصبح رمزا للآمال الضائعة آمال الفقراء والمعزولين. هنا أيضا تنقض شلالات السخط على بطل النصر والسلام. النصر يتكشف عن لعبة والسلام عن تسليم. على مسمع من السياح الإسرائيليين. أسمع وأهنأ بشىء من العزاء. أنتم إذا شئت حزب وهمى لا شعار له إلا الرفض. إن أضجرك الكلام فمد البصر إلى الطريق. راقب حركة الذاهبين والجائين. حركة سريعة لا تتوقف ولا تنقطع. وجوه مكفهرة ماذا وراءها؟ الرجال والنساء والأطفال، حتى الحبالى لا يقرن فى

بيوتهن. كل يحمل مأساته أو مهزلته. حوانيت الأثاث والبوتيكات مكتظة. كم أمة تعيش جنبا إلى جنب فى هذه الأمة؟ أضواء الميدان قوية مثيرة للأعصاب، ومثيرة للأعصاب أيضا قوارير المياه المعدنية على موائد السياح. ماذا نشرب نحن؟! وأغرب الأغانى تنطلق من التاكسيات فى راديو المجاذيب. لا يبقى على حاله التى كان عليها إلا الشجر والعمائر. وتدوى خطبة من راديو فى مكان ما فتنشر الأكاذيب فى الجو مع الغبار. تعب.. تعب.. فلنعد إلى الكلام. خرابة صغيرة بمائة ألف. الجرائم الأكاديمية فى الجامعة. كم عدد أصحاب الملايين؟ الأقارب والأصهار والطفيليون. المهربون والقوادون والشيعة والسنة. حكايات ولا ألف ليلة. الجرسون عنده أيضا حكاية وعند ماسح الأحذية. متى تبدأ المجاعة؟ الرشوة عينى عينك بأعلى صوت. الاستيلاء على الأراضى. شيخ العصابة له أوراد. والفتنة الطائفية من يوقظها؟ مجلس الشعب كان مكانا للرقص فأصبح مكانا للغناء. الاستيراد بدون تحويل عملة. أنواع الجبن. البنوك الجديدة. بكم البيض اليوم؟ والنقوط فى ملاهى الهرم. وفسخ الخطبة! ماذا قال إمام الجامع على مسمع من جنود الأمن المركزى؟ لا مرحاض عام فى الحى كله. لم لا نؤجرها مفروشة؟ ما هو إلا ممثل فاشل. وضرب المفاعل العراقى؟ صديقى بيجين.. صديقى كيسنجر. الزى زى هتلر والفعل شارلى شابلن. ويسود صمت شامل ريثما تذهب امرأة قادمة من الطريق إلى بيت دعارة وراء المقهى وتعقد مقارنة بين تضخم عجيزتها والتضخم المالى العام. متفائل يؤكد أنها تشتغل لتجمع رسوم رسالة الدكتوراه وأن قلبها أنقى من الذهب. شاب شاذ يقترح الشذوذ كحل لأزمة الحب فى الطبقة ذات الدخل الثابت وأيضا لتحقيق الهدف من تنظيم الأسرة. لا خلاص إلا بالخلاص من كامب ديفيد. العودة إلى العرب والحرب. حرب أبدية والويل لعملاء التطبيع. كفى.. كفى.. فى الوقت متسع لقليل من التسكع. الفرار منك جهد ضائع يا رندة. مرض الحب بطىء الشفاء وأخاف أن يكون من الأمراض المزمنة. لا يعزينى عن إساءتى إليها إلا أننى أسأت ضعفين إلى نفسى. وعندما رأيت والدى على مائدة العشاء حسدتهما. أراحا نفسيهما من هموم كثيرة بالعمل. التهمهما العمل وهذا شىء حسن. ليس كما كنت أتصور بكل حزم يقولان:

- أعفنا من الحديث عن نفسك أو عن البلد. حسبنا أننا نشقى من أجلكم. حل مشاكلك بنفسك والبلد له رب. اذكر أبى المخضرم فى حماسه.

هتف للثورة ولبس الحداد فى هزيمتها وقضى عليه فى الانفتاح. سمعته يقول:

- تمر الأيام فلا أجد وقتا لحلق شعرى أو تقليم أظافرى.

وسمعته يقول لجدى:

- أنحشر فى الباص وآخذ هناء فى حضنى لأبعد عنها أحضان الجياع.

ومرة قال لى :

ـ يوم الجمعة، يوم العطلة، تتراكم الواجبات، وقت للحمام، وقت للعزاء، وقت للاعتذار، ساعة واحدة للاسترخاء وفيها تهجم على همومك وهموم البلد.

فى تخبطى ألقى أستاذتى فى نادى الخريجين، يا أستاذتى لقد فسخت الخطبة. غير موافقة طبعا وتطالبنى بإعداد لقاء بينها وبيننا مجتمعين. الوداع يا أستاذتى مضى وقت الكلام. أعدك بأن أكون عدو للكلام بقية العمر. وخيل إلىّ أن المحروقى حل مشاكله بالمروق من العصر. إنه يعتقد أنه هزم العصر وطوعه لأغراضه. ماذا صنع بنفسه؟ تعلم حرفة السباكة. دفن شهادته فى أول وعاء قمامة. سألته والدكان؟ أجاب دون أن يبتسم فنادرا ما يبتسم «أسير حاملا حقيبة حاوية للأدوات وأنادى سباك.. سباك. فتنهال علىّ الطلبات، سأصير قريبا أغنى من سيدنا الزبير. وعندما هممت بالانصراف قال لى ساخرا: «أدعوك للدخول فى دين جديد اسمه الإسلام» ولما خلا أنور علام إلىّ قال :

ـ آسف، ولكنك فعلت الصواب، وسوف تضحك لك الدنيا.

وعقب انقضاء أسابيع دعانى إلى عمل عاجل فى شقته بالدقى. ولما انتهينا من العمل دعانى للعشاء. توقعت ذلك من بادئ الأمر. وشاركتنا العشاء جولستان فلم أدهش. أعلنت أسفها على فسخ خطبتى بكلمة عابرة ثم تركز الحديث على الغناء الحديث. وأسمعنا أنور علام شرائط متنوعة كعينات منه.

ـ يبدو أنك تحبه يا بك.

فقال ببساطة :

ـ على الأقل لا أنفر منه.

وتلاقيت مع جولستان فى نظرات مسترقة باحت بمودة لا خفاء فيها. دافئة وعميقة ومراوغة. إنها غير مقصرة فى إبداء مفاتنها ورزانتها معا. كأنما تقول لى إنى امرأة فاضلة ولكن لا حيلة لى مع مفاتنى. هل يعجبك هذا الطراز من النضج الأنثوى المتخطى للشباب؟ المسألة بالنسبة إلىّ مسألة جوع أولا وأخيرا. لعلها تنظر إلىّ باعتبارى حملا على حين أنظر إليها بعينى ذئب. أى ضغط يزاح عن أعصابى لو أذعنت لى كخليلة! لكن كيف؟ ومتى؟ وأين؟ وقال أنور علام :

ـ بعد شهر على الاكثر ينتهى العمل فى فيللا جولستان الجديدة، وسوف تنتقل إليها وتتركنى وحدى.

فسألته مجاريا لمسرى الحديث «ولم لا تنتقل معها يا بك؟».

فأجاب :

ـ إنى أفكر فى إعداد شقتى للزواج، آن لى أن أتزوج!

رندة سليمان مبارك

الأمل فى الزمن . هو أيضا يميت ويحيى . سيهلك المكروب ذات يوم ويتجلى وجه الشفاء . ولن يخذل الله مؤمنا صادقا . اليوم نتبادل الحديث ونتعاون كزميلين فى مكتب واحد . كزميلين غريبين لم يذوبا فى قبلة قط . وأحيانا أراه - مثلى - يستحق الرثاء . لم أعد أدينه ولم أعد أحترمه . التجربة الجديدة التى تقتحمنى هى أنور علام . يستقبلنى ببشاشة غير عادية . ويحاورنى مداعبا معلنا عن إعجابه ومودته . إنى أتوقع وأفكر تحت مظلة من الكبرياء تأبى التسليم بالهزيمة . من ناحية أخرى قدرت ماما أن الهدنة انقضت وأنه آن لها أن تتكلم فقالت لى ونحن جلوس معا فى حجرة المعيشة :

- علمت أن إبراهيم بك مستعد أن يتقدم من جديد .

إنه كهل صاحب مصنع معادن تقدم منذ عامين ورفض . والظاهر أنها لاحظت استيائى فقالت :

- نحن متفقان على أنه طالما لا يوجد ارتباط فالأمر يفصل فيه العقل وحده .

فقلت معترضة :

- لكنه أرمل وأب!

فقالت برجاء :

- ولكنه غنى ومستعد أن يأخذك بملابسك .

- ليست مجرد بيع وشراء .

- ولكننا لن نجد مثله بسهولة .

فقلت بحدة :

- لست متعجلة .

فقالت بإشفاق :

- الزمن يجرى بسرعة . .

فقلت بتحد :

- لن أكون أول عانس فى التاريخ .

لزم أبى الصمت طوال الوقت . ولم أكن صادقة تماما فى التعبير عن حالى ، فالحق أننى راغبة فى إثبات وجودى ولكن ليس على حساب كرامتى ، الكفاءة يجب أن تشمل

المال والاحترام، أنور علام يملك الاثنين، ولو كانت به شبهة لطبقت الآفاق. وهو على الأقل مقبول وغير منفر شكلا، والفجوة بين عمرينا معقولة لدرجة. أما الحب فمن الحماقة أن أفكر فيه الآن. ولم يطل بى الانتظار، فعلى أثر اعتماد تقريرى ذات صباح قال لى:

ـ يصح الآن أن أسالك عن رأيك!

تساءلت وقلبى يخفق بالتوقع:

ـ فيم يا بك؟

ـ إنى أطلب يدك، ما رأيك؟

فلذت بالصمت كالمبغوتة فقال:

ـ لعلى لا أجيد حديث الحب، لكنه موجود، لست خياليا وحسبى أن أقول إنى أجدك حائزة لكافة الشروط بكل جدارة..

فهمست:

ـ الأمر مفاجأة.

ـ طبعا تطلبين مهلة للتفكير، معقول، لكن دعينى أزكى نفسى بالقدر اللازم، فمثلى لا يشرع فى الزواج إلا إذا كان على يقين من قدرته لحمل مسئوليته..

ـ إنى شاكرة وسأفكر فى الموضوع..

وعرضت الموضوع على والدى مساء. وقالت أمى بلا تردد:

ـ على خيرة الله.

وقال أبى:

ـ نوافق على ما توافقين عليه.

ولما انفردت بأمى سألتها عما يمكن أن نقدمه فقالت بمرارة:

ـ من ناحية أبيك لا شىء، من ناحيتى فلدى بقية من حلى يمكن أن أجهز شخصك بثمنها، ويستحسن أن يعرف الرجل كل شىء..

مرارة التجربة التى طحنتنى مزقت أقنعة الحياء الفارغة. أنضجتنى أكثر مما قدرت. صممت على الجهر بالحقيقة على أنه لم يكن فى حاجة إلى صراحتى لسابق علمه بأزمتى. وقال لى أيضا بصراحة:

ـ سأقوم بتأثيث الشقة وحسبى ذلك.

فوافقت طبعا فقال:

ـ يجب أن نعرف للوقت قيمته وأن يتم كل شىء فى أقصر وقت.. وتم إعلان الخطبة

فى شقتنا. اقتصر الحفل على والدى وأخواتى، ومن ناحيته على جولستان هانم وأخ طاعن فى السن. لم يشهده أحد من جيران العمر. وقد أهدتنى جولستان قلادة ذهبية ذات فص ماسى ثمين. وكنت فى أعماقى متوترة الأعصاب ولكن ضبطت انفعالاتى بقوة ومثلت دورى بلباقة حسدت نفسى عليها. ولما انفردت بسناء فى حجرتنا انهار سد المقاومة فأجهشت فى البكاء. ورمقتنى بوجوم مليا ثم قالت:

ـ ليكن هذا وداعك الأخير للماضى العقيم.

فقلت مولولة:

ـ خسرت أثمن ما فى حياتى..

فعطفت علىّ أكثر من أى وقت مضى وقالت:

ـ لا أوافقك ولكن لندع كل شىء للزمن.

محتشمى زايد

فوقنا على بعد أشبار ثمة حفل لإعلان خطبة رندة. علوان انتهى من ارتداء قميصه نصف الكم وبنطلونه الرمادى. بدا ساعداه مفتولين وزغب صدره من فتحة القميص فاحما، وتجلى الانسجام فى قسمات وجهه المحتقنة بالحزن، شباب وجمال وأسى، ماذا يعتلج فى أعماقه فى هذه الساعة اللعينة؟ لم أذق مرارتها إلا فى الشعر. هل لدى ما أقوله له؟ لم أجد سوى نظرة وابتسامة. ورفع يده تحية ومضى وهو يقول كعادته:

ـ فتك بعافية يا جدى.

وساء طبعى فجأة كأنما ازدردت كيلو شطة وفلفل. رميت بعيدا عنى بخور العبادة. عالم مجنون وبائس. أيها الأحباء الراقدون تحت الأرض ما أكثركم. رأسى ثمل بذكرياتكم دون سبب واضح. وسبقكم مئات الأنبياء والأولياء فلينعم التراب بأطيب ما فى الحياة. لماذا يتدفق الماضى فى روحى كشلال وبقوة بركان ثائر؟ هتافات الثورة تدوى من جديد، الاستقلال التام أو الموت الزؤام، الشعب فوق الملك. أزيز النار المشتعلة فى القاهرة، عظمة الراحل وهزيمته، عظمة خليفته ونكسته، الجنون يشق طريقه فى الصخر حاملا الجوع والديون، أيها الأحباب الذاهبون ما أكثركم، ما فكرتم فى الموت ولا جرى لكم المرض فى حساب، ومنكم من مزج الكونياك بالزنجبيل وطارد النسوان فى الموالد، ومن كان يخلع نفسه من مائدة القمار ليصلى الفجر حاضرا، ومن رمى نفسه فى مياه النيل المشعشعة بضوء القمر والزورق الشراعى يدور حوله حاملا الحشاشة المجدع، وفتية

القدر الذين تسلحوا بالإيمان والأحجار وخرجوا يتحدون الشرطة والجيش فى عيد الدستور الملغى، إنى أشهد المعركة وأسمع أزيز الرصاص ووقع الأقدام الثقيلة المطاردة، ما أكثركم أيها الراحلون الأعزاء! وما أجهل القبور اللامبالية بأقداركم! وذكرى جدى الأزهرى مدرس النحو الذى كان يخاطب جدتى الأمية بالفصحى وخلف ذرية من العقلاء والمجانين ما زالت حتى اليوم منجبة للعقل والجنون، ما ذنب حفيدى يا حثالة الأرض؟ ورثتم أبناءكم المال والأمان وأورثتمونا الضياع والفقر والديون وكأن الثورة ما قدمت إلا من أجل سعادتكم وتعاستنا. آه يا ربى متى تهبنى الشجاعة لأنبذ الدنيا وما فيها؟! حتى متى أحن إلى كرامات لا تتيسر؟ متى أطير فى الهواء أو أمشى فوق الماء؟ متى أشير إلى الظالم فأصعقه وأريح الدنيا من شره؟ الحق إنها تجربة فاشلة وأن الإنسان عجز عن أن يتعامل معها كنعمة كبرى فنجسها بالغدر والأنانية والخيانة، ها أنا أتمشى فى الشقة لأفرخ غضبى، وها أنا أتصفح قطع الأثاث البالية كأنما أودعها، وأقرأ وسط مسند الكنبة حكمة مرقومة بالخط الفارسى الأسود وسط هلال من الأصداف «من تأنى نال ما تمنى»، أى أناة يا ربى؟ صبرنا آلاف السنين حتى انقلب الصبر رذيلة والتمنى عاهة، وأشرب قدحا من الأنيسون وأعود إلى مجلسى، وترف على شفتى ابتسامة، ابتسامة؟! من أى مكان فى الغيب وردت؟ هذه الابتسامة الضالة فى غابة الأحزان، تقول إنها قادمة من زمن الجنون المليح مقتحمة جدار التقوى، ندية بأنفاس الخمر وعرق الغانيات فى البقاع المحرمة، من محراب أقران الشباب والنزق والجهاد، ضحكاتهم تطير فى الفضاء البعيد لم تظفر بعد بجهاز استقبال يعيدها إلى الأرض، وزمردة ترقص شبه عارية وتغنى «المية حصلت نصى»، ليالى العربدة والمجون والمنبوذين بلا ذنب، حيث تتجلى الحكمة والصدق فوق جباه العاهرات والقوادات، يقلن لنا بكل تواضع ألسنا أرحم بكم من حكامكم العظام؟ نحن نبذل أنفسنا فى سبيل الترفيه عنكم وهم يضحون بكم بغية الترفيه عن ذواتهم، فإلى جنة الخلد يا زمردة ويا لهلوبة ويا أم طاقية، ويا جميع المنحرفين والمنحرفات ممن لم نقر بفضلهن حتى ورد الزمان علينا بأبطال النحس والفاقة والهزائم، سقيا للياليكم المنزوية فى أعطاف الدخان والنشوة، المنطوية فى فنون التلميع والتسمين، المبذولة للدهن والتمشيط، كل جهد وتخطيط من أجل الآخرين، والرضا بعد ذلك باللقمة والازدراء وشماتة الشامتين، هذا ما قالته ابتسامة رفت فى غير أوانها وفى ظل زمن مجنون وقلب كسير، والندم كبير والطمع فى المغفرة بلا حدود، والضيق بالغ غايته من كثرة الأسئلة عما يجوز ولا يجوز وعما يجب أو لا يجب على حين ينشغل اللصوص بتوزيع الغنائم، أستعيذ بالله وبكل صاحب كرامة وبكل مالك علم أن يقدم لتبديد ظلمات هذا الليل الطويل. وجاءنى فواز وهناء قبيل النوم وسألنى الرجل:

- ماذا تتوقع لعلوان؟

فقلت بهدوء يوحى بالثقة :

ـ كل خير ، إنه قوى ، وسوف يعبر الأزمة بسلام .

وقالت هناء :

ـ إنه الآن حر ويستطيع أن يشق طريقه كيفما يشاء .

ـ لا تنس أنه هو صاحب القرار . .

تمنيت أن يرجع قبل أن أخلد للنوم ، وعرضت لى فكرة قديمة جديدة وهى أن الإنسان يجب أن يعشق الدنيا وأن يتحرر من عبوديتها فى آن . وعدت أقول لنفسى ما أكثر الأحباب الذين ذهبوا ، وهل حقا عاشرتهم طويلا فى هذه الدنيا الدائبة على أكل بنيها؟!

علوان فواز محتشمى

قمت بدورى بكل صفاقة . أقبلت على رندة فى مجلسها بالمكتب باسطا يدى وقلت :

ـ أصدق التهانى .

رمقتنى بلمحة عابرة وتمتمت :

ـ شكرا . عقبى لك .

وانتهزت فرصة خلو المكان لفترة قصيرة فقلت لها من موقعى القريب منها :

ـ لا أخفى عنك أننى تمنيت لك زيجة أفضل .

فتساءلت بهدوء :

ـ ما لها هذه؟

ـ الحق . . أريد أن أقول إنك تستحقين أحسن زيجة .

فقالت باسمة فى غموض :

ـ إنه حسن ظنك!

وقلت لنفسى إنه علىّ أن أطوى هذه الصفحة إلى الأبد . ولنتحمل الألم حتى نمحقه محقا . إن استسلمت للحزن جننت . ولما علمت بوصول المدير قصدته فى الحال وقلت له :

ـ معذرة ، إنى قادم للتهنئة .

فقال بمودة :

ـ لولا انصرافك عن الموضوع ما اقتربت منه .

ـ إنك دائما تفعل الصواب .

ـ شكرا وعقبى لك ، عليك من الآن فصاعدا أن تفكر فى مصلحتك . .

لم أدر ماذا أقول فواصل :

ـ الطريق واضح وما عليك إلا أن تفكر بصفاء .

فقلت وأنا أهم بالذهاب :

ـ نصيحة ثمينة يا بك .

فقال بسرعة :

ـ أنا مكلف بدعوتك ، شقيقتى دعتنا لحفل شاى صغير ابتهاجا بانتقالها إلى الفيللا الجديدة . .

حقا إن الطريق واضح . وقلت :

ـ يسعدنى أن أقبل الدعوة .

قبلت الدعوة رغم أن فكرة بيع نفسى لم تخطر لى ببال . وقصدت العنوان حوالى السادسة مساء فى جو حار رطب . وجدت الفيللا غير بعيدة عن عمارة أنور علام . صغيرة وأنيقة وذات حديقة ثرية بأشجار الورد البلدى والبنفسج ، جلست فى ثوى جديد وردى اللون محلاة جدرانه بلوحات مصوغة بالكانفاه . وجلست بيننا جولستان فى فستان أبيض دقيق الرسم لتكونياتها المثيرة . وقال أنور علام :

ـ الحفل مقصور علينا فأنت مدعو باعتبارك من الأسرة !

فقالت جولستان بنعومة :

ـ لم تعجبنى أخلاق أحد من زملائك سواه !

فشكرتها على حين قال أنور علام ضاحكا :

ـ حقا إن شهادتك فى محلها .

وشربنا الشاى والتهمت قطعة كبيرة من التورتة وراح أنور يقول :

ـ يتحدثون عن مضاعفات فتنة طائفية .

فتساءلت جولستان :

ـ ما معنى ذلك؟

وتساءلت بدورى :

ـ أين الحكومة؟

فقال أنور :

- أيام قلق .

فنظرت جولستان نحوى وقالت برثاء :

- يا لكم من جيل يستحق الرثاء !

فقلت بامتعاض مكملا :

- والتعنيف أيضا .

وقام أنور قائلا :

- لدى مكالمات عاجلة ، عن إذنكم دقائق .

فى خلوتنا رنت إلىّ بعطف وتمتمت :

- ما يستحق مثلك إلا كل خير . .

تساءلت عما تعنيه؟ . . السياسة أم مأساتى الشخصية؟ ولكن استحوذ علىّ انفعال جنسى من وحى جسمها الناضج . وركزت فيه نظرة مشحونة بصراحة فاضحة . تمنيت شيئا واحدا هو أن أتخذ منها خليلة . وقلت همسا بريق جاف :

- أود أن أنفرد بك .

فقالت برزانة :

- أرحب بالانفراد برجل ذى خلق مثلك .

تعطل التيار الكهربائى المتدفق فى صدرى . قالت الكثير وبأقل الكلمات . وئدت أحلامى الطائشة ورحبت فى الوقت نفسه بى . وتماديا فى الإيضاح قالت :

- إنى أحترم نفسى وأرحب بمن يحترم نفسه .

فداريت خيبتى قائلا :

- ما أسعدنى بسماع ذلك .

بيتى يرحب بك فى أى وقت ، لقد عرفت عنك الكثير ولكنك لم تعرف عنى شيئا يستحق الذكر . .

رندة سليمان مبارك

إنه يطالب بالزفاف فى أقرب فرصة ولا أجد عذرًا للتأجيل . وتقرر إقامة الاحتفال بفيللا جولستان هانم وتعذر على أبى الحضور . كان حفلا صامتا ولكنه ثرى بالبوفيه الممتاز وبمن شهده من كبار موظفى الشركة ونخبة من رجال الأعمال . وضعت على

وجهى قناع سعادة لا ريب فيه والحق أنى دعوت لنفسى طويلا بالتوفيق وصممت عليه، وكانت ورائى رغبة صادقة فى التفاهم والتكيف مع حياتى الجديدة. أخوف ما خفت أن أرى علوان بين المدعوين ولكنه لم يوجد. وقلبى وإن خلا من الميل فإنه لم يتكدر بالنفور. ترى لو كان علوان هو عريس الليلة فماذا كان سيفعل؟ عشت عمرى لا أتصور أنه يمكن أن أهب نفسى لسواه. ها هو الواقع يفرض قرارا آخر. حسبى أننى شعرت بأن أنور يمكن أن يحب ذات يوم، فى هذا الكفاية. ولم تنقطع وفود المهنئين فى الأيام التالية وخاصة من أهلى. ولكن ما شأن هؤلاء الرجال؟ يجيئون حاملين الهدايا، نرحب بهم معا، تقدم لهم الخمور. ليلة بعد أخرى لا ينقطع تيارهم الغث ومنهم مواظبون. ولما أرهقتنى الوجوه الثابتة، والمجاملة المبذولة من ناحيتى عن تأفف عميق قلت له:

- ما أكثر أصدقاءك من رجال الأعمال!

فقال لى بصراحة لافتة للنظر:

- إنهم فى الحقيقة مستقبلنا.

فتساءلت فى حيرة:

- ماذا تعنى؟

- وظيفة مثل وظيفتى لا قيمة لها إلا فى نظر موظف ناشئ، مستقبلنا الحقيقى فى القطاع الخاص، فى المغامرة الذكية التى ترفع الشخص من طبقة إلى طبقة، فلا تقصرى فى الاحتفاء بهم!

إذن فهى زيارات عمل! لم أرتح لذلك، وقلت:

- إنك أفهمتنى أنك واثق من نفسك من الناحية المالية.

فقال بصراحة مكشوفة:

- عن هذا السبيل وحده، عدا ذلك فلا أمان لأحد فى هذا الموج المتصاعد بلا توقف من الغلاء!

نسجت الكآبة حولى غشاء محكما فقال بحماس:

- إذا لم يكون الإنسان ثروة خيالية فى هذه الظروف فلا بارك الله فيه..

- ألا يكفى ما يوفر لنا معيشة مريحة؟

- مريحة؟!.. نحن فى سباق يا محبوبة لا رحمة فيه..

ها هو شخص جديد يبرز لى من وراء الشخص الآخر، وبعجلة مذهلة، لا يطيق الصبر ولا يصبر على التدرج ولا يعمل حسابا لأثر رد الفعل فى نفسى. إنه يقول لى بكل بساطة إليك ذاتى بلا قناع ولا لف ولا دوران. فما رأيك؟! إنه لا يرى فى هذه الدنيا إلا

طموحه ولا يحفل إلا به، يسدى إليه صلاته مائة مرة فى اليوم، كأنما لا وجود لى إلا من خلال الدور الذى يمكن أن ألعبه فى مخططه المترامى. حتى التمثيل الكاذب لا يتقنه أو لا يبالى به. إنه مفاجأة ومفاجأة صاعقة قذفها السيل من عل، ولا وجود للحب إلا فى لحظته، وسرعان ما شعرت بخيبة أمل لا عزاء فيها، وإننى بعت نفسى بلا مقابل، أو إن الحال أسوأ من ذلك. وإننى أخجل من إعلان خيبتى كنت أتوهم أننى على الأقل غاية فإذا بى وسيلة لا قيمة لها إلا بما تؤديه. وظيفتى هنا أن أجامل وأسامر وأقدم الشراب. ولم يقنع بذلك كله فأخبرنى أنه لا يستطيع أن يؤجل أعماله المسائية أكثر من ذلك وأنه سيعهد إلى وحدى بمهمة الضيافة والاستقبال، قال ضاحكا:

- إنها امتداد لعملك فى العلاقات العامة.

فقلت معترضة:

- ولكن لا شىء مشترك بينى وبينهم..

- لا أهمية لذلك، حسبك أنك لبقة وذكية ومثقفة، ونحن شريكان، والشريك ينوب عن شريكه خاصة فيما يعود عليهما فى النهاية بالخير..

فقلت بحدة، أول حدة تنتاب شهر العسل فى إبانه:

- لغة سوق ما تصورت أننى سأتعامل معها!

فقال باسما:

- خير البر عاجله.

ووخزتنى سخريته فشعرت بأن تجربتى تتهاوى فى جرف الفشل. ووجدت نفسى وحيدة وسط رجال يشربون ويقهقهون، ويتوثبون لاختراق الحدود. وصكت أذنى نكتة وقحة فاقتحمتنى موجة هادرة من الاستياء والغضب، وقلت ببرود:

- حسبكم!

فنظروا إلىّ واجمين فقلت بخشونة:

- كفاكم شربا!

فتساءل أحدهم:

- هل تجاوزنا حدود الأدب؟

فقلت دون مبالاة:

- أظن ذلك!

- لعلها إشارة للانصراف؟

فقلت متمادية فى الغضب:

ـ دون مناقشة!

وانتظرت وأنا على أسوأ حال أدور مع الهواجس وتدور معى. ولما رجع حوالى منتصف الليل غاض البشر من وجهه حال وقوع عينيه علىّ.

تساءل:

ـ خير؟!

ـ لا خير ألبتة، إنه بيت وليس بخمارة..

ـ ماذا حصل؟

ـ باختصار طردتهم وافهم ما تشاء..

انحط على المقعد أمامى صامتا، ثم تمتم بعد صمت:

ـ انهار بناء شامخ.

فصمت بحدة:

ـ فوق رءوس مجموعة من السفلة..

ـ خيبة أمل..

فسألته بغضب شديد:

ـ ألا تريد أن تفهم؟

فقال بهدوء شديد مثير:

ـ حسبتك أوسع إدراكا..

فصمت:

ـ الحق إنى لا أفهمك، أنت شخص غريب..

فقال بهدوئه المثير:

ـ المسألة سوء تفاهم.

ـ سوء تفاهم؟!

ـ أعنى سوء تقدير من ناحيتى..

فصرخت:

ـ يبدو لى أنك إنسان وضيع!

فدعانى إلى تمالك نفسى بإشارة من يده وقال:

ـ لا.. لا.. لا داعى لفتح هذا القاموس، أنا عشت دهرا لم أعرف الغضب.

ـ إنها شهادة ضدك..

ـ هدئى خاطرك، حصل خطأ، وبيدنا تصحيحه . .

فقلت بتصميم :

ـ إنى ذاهبة .

ـ ولم العجلة؟ انتظرى الصباح . .

ـ لن أبقى فى هذا البيت لحظة أخرى .

فقال بتسليم :

ـ لك ما تشائين، ولا داعى للغضب . .

محتشمى زايد

﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ . ما هذا القرار أيها الرجل؟! تعلن ثورة فى ١٥ مايو ثم تصفيها فى ٥ سبتمبر؟ تزج فى السجن بالمصريين جميعا من مسلمين وأقباط رجال أحزاب ورجال فكر؟ لم يعد فى ميدان الحرية إلا الانتهازيون فلك الرحمة يا مصر . ﴿ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا﴾ . وأذكر يوم حددت إقامة سعد زغلول فى بيت الأمة فزحف الانتهازيون بالولاء الزائف نحو القصر، لماذا تعيد تمثيل تلك المسرحية القديمة من ريبوتوار المآسى المصرية؟ وأذكر عهود الاستبداد بسوادها الكالح أفكانت ثورة ١٩١٩ حلما أم أسطورة؟! «ليس الشديد بالصرعة . . إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب» . ترى ماذا تخبئ أيها الغد؟ أما عن أمسى فقد فقدت أقدم وآخر صديق . صداقة دامت خمسة وسبعين عاما . يوم تعارفنا على عتبة المدرسة الأولية . لولا الشيخوخة وسوء المواصلات . . آه . صممت على تشييع الجنازة . رحلة شاقة كرحلة الحاج وتوكأت على علوان . فى دار المناسبات استعرضت فيلم العمر الثرى : المدرسة، الشارع . . المقهى . . الحانة . . لجان الطلبة . . ليالى الزفاف . . أعياد الميلاد . الوجه ها هو . . الابتسامة ها هى . . هل سمعت آخر نكتة؟ . . والشكوى من الدهر . . أنتفق فى كل شىء ونختلف فى الأهلى والزمالك؟ عليك بقدح ماء على الريق . . ولا تنس دواء الذاكرة . فاتنى أن أسمع تعليقك على ٥ سبتمبر ولكننى أعرفه . وبدأت التلاوة . ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ سرعان ما جاء الموت بابتسامته المراوغة وجلس إلى جانبى . لا تتعجل فلم تبق إلا خطوة . موت صديقى القديم بروفة لموتى . أرى كل شىء، الغسل والدفن والمشيعين . وأقرأ النعى، محتشمى زايد من رجال التربية القدامى وشباب الحركة الوطنية . هل تذكره؟ ظننته مات من زمان . ويجىء النسيان متثائبا ولكنى

أسلم بمنتهى الرضا. حقا إنه عمر طويل ولكنه يبدو الساعة كلحظة عابرة. الحب والعنف والغضب والأمل ألا ما أكثر الراحلين! لا فرق الآن بين أن تكون أنت فى النعش وأنا ماش وراءك أو العكس. وحيانى ابنه بحرارة وقال لى فى احتضاره حملنى التحية إليك . .

وفى المساء عاتبنى ابنى فواز قائلا:

ـ فى سنك يعفى الإنسان من أمثال هذه الواجبات.

أما هناء فقالت:

ـ اشتريت اليوم كتابا لا يقدر بثمن هو «كيف تصلح أجهزتك المنزلية»، فلعله يحررنا من السباك والكهربائى.

وعند ذاك تساءل علوان:

ـ ألا يوجد كتاب يحررنا من الحكام؟

فقال فواز:

ـ لا حديث للناس إلا اعتقال الذين اعتقلوا . .

فعاد علوان يقول بعصبية:

ـ أستاذتى علياء فى السجن وصديقى محمود المحروقى أيضا!

فقلت ملاطفا:

ـ ثمة وعد بمحاكمة سريعة حتى لا يضار برىء.

ـ أمازلت تصدق الأكاذيب يا جدى؟

ما أنقذه من القضبان إلا حيرته والويل للمنتمين.

ولما خلا لنا المكان قلت له:

ـ أمل أن تتغلب على أزمتك بما عهده فيك من شجاعة!

فقال ساخرا:

ـ المصائب تقل حدتها بالتكاثر فتنكسر النصال على النصال . . وأغلق التلفزيون ورجع إلى مجلسه إلى جانبى وهو يقول:

ـ جدى، لا أحب أن أخفى عنك سرا . .

أصغيت إليه مستطلعا باهتمام فقال:

ـ توجد قرائن قوية على دعوة موجهة لى للزواج من شقيقة أنور علام زوج رندة . .

ـ حقا! إلىّ بمزيد من المعلومات . .

ـ هى أرملة تكبرنى بعشرين عاما، غنية جدا . .

ـ والشكل؟!

ـ ليس كما تظن، مقبولة ومحترمة أيضا .

فلذت بصمت ثقيل فسألنى :

ـ ما رأيك يا جدى؟

فقلت من مأزقى :

ـ إنه قرار خاص جدا يحسن ألا يشاركك فيه أحد .

ـ ولكننى مصمم على معرفة رأيك .

ـ هل تحبها؟

ـ كلا، ولكننى لا أكرهها . .

ـ لا أدرى ماذا أقول . .

ـ يوجد ما يقال . .

ـ لا حق لى فى تشكيل مصيرها، إنى أنتمى إلى عالم آخر وليس من الحكمة أن يستبد عالم بعالم آخر .

ـ ولكنك لم تعودنى الهرب . .

فصمت قليلا ثم قلت :

ـ للمشروع مزايا لا يستهان بها وعيوب لا يستهان بها أيضا، وفى مثل حالك ترجح مزاياه بعيوبه!

فابتسم ابتسامة غامضة وقال بحدة :

ـ إنى أرفض أن أبيع نفسى!

فجرى ماء الراحة فى أعماقى الملتهبة ولكنى سألته :

ـ هل اتخذت قرارك مع التفكير اللازم؟

ـ وأكثر من اللازم .

فقلت بحرارة :

ـ أسأل الله أن يعوضك خيرا .

وقلت لنفسى «كراماتك يا سيدى الحنفى!» .

علوان فواز المحتشمى

و أنا أهم بالذهاب قال لى جدى :

ـ أما عرفت يا علوان؟

فرمقته متسائلا فقال :

ـ رندة طلقت!

غمرتنى موجة عالية من الذهول والخوف والارتياح وهتفت :

ـ ما زالت فى شهر العسل!

ـ والدتك أنبأتنى به فى هذا الصباح .

ـ كيف يمكن أن يحدث هذا؟

ـ عندما تتعذر المعاشرة . .

ثم وهو يودعنى :

ـ أردت أن أنبهك حتى لا تفاجأ به هناك .

غصت فى انفعالاتى طيلة الطريق . لم أر إلا حزنى وفرحتى التى ضقت بها . ورأيت رندة مستكنة فى غشاوة كآبتها كما رأيت ظل الكآبة منتشرا فى المكتب كله . صافحتها وأنا أقول :

ـ إنى . . .

فقاطعتنى :

ـ شكرا .

فقلت بصدق :

ـ إنك لا تستحقين ذلك .

فقالت بهدوء :

ـ أكرر الشكر ولا داعى للمزيد .

وتطايرت الأقاويل بعيدا عن مسمعها فسمعت الأعاجيب . واضح أنه فشل كما يحدث للكثيرين ممن يتزوجون فى سن متأخرة، لا . . لا . . إنه شاذ . . تأملوا حركات يديه ، بل العلة فى برودها فالجمال الظاهر ليس كل شىء ، يقال أيضا إنه توجد علاقة آثمة بينه وبين أخته ، سمعت وتألمت . إنى أحبك يا رندة كما كنت وأكثر ، يحزننى أن أجدك

فى موقف منهزم، قلبى مع كبريائك الجريح. وخيل إلى أننى قد أقترب من السر عند أنور نفسه. أعلنت له أسفى فحدجنى بنظرة ساخرة.

وتمتم:

ـ شكرا!

أدركت من توى أنه يشك فى صدقى فقلت:

ـ آسف لكما معا.

فقال ببرود:

ـ لا شىء يوجب الأسف.

وعبر إلى الأوراق المعروضة دون زيادة. ودعتنى جولستان هانم لزيارتها فلبيت دون تردد وأنا على شبه يقين من أننى سأعرف عندها الحقيقة. وجدتها متحلية كعروس وقالت لى معاتبة:

ـ ألا تزورنى إلا إذا دعوتك؟

ـ أخاف أن أحرجك.

ـ عذر لا معنى له وأنت أول من يدرك ذلك.

قدمت لى دندرمة محشوة بالمكسرات ثم قالت:

ـ عنت لى فكرة.

فنظرت نحوها باهتمام فقالت:

ـ أخى بدأ ينشغل بنفسه عنى فهل تعمل أنت وكيلا لأعمالى؟

تبدى لى الاقتراح مثل هاوية تنداح تحت قدمى فقلت:

ـ قد يغضبه ذلك!

ـ وهو صاحب الفكرة!

فقلت متحرجا:

ـ أمهلينى كى أفكر فقد عرض على بعضهم أن ألتحق بقسم الماجستير.

ـ العمل بسيط ولكنه يحتاج إلى شخص أمين.

ـ ستكون المهلة قصيرة جدا..

وإذا بها تتطوع لإطلاعى على جانب هام من ماضيها، قالت:

ـ طالما رميت بالجشع بسبب زواجى، والحقيقة أن أبى هو الذى زوجنى من رجل يكبرنى بثلاثين عاما، على ذاك مضت حياتى معه مكللة بالاستقامة والأمانة، وكانت وما زالت سمعتى أنقى من الماس.

فقلت بيأس لم تفطن إليه :

ـ إنك مثال للاحترام .

ثم فى مراوغة :

ـ أنور بك رجل محترم أيضا ولكن تأملى سوء حظه . .

فرمتنى بنظرة متوجسة وسألتنى :

ـ أترثى له أم لزوجته؟

فقلت متحديا :

ـ ما مضى قد مضى وانقضى !

ـ حقا؟ !

ـ هى الحقيقة بكل بساطة .

ـ إذن دعنا من هموم الآخرين ولننته لهمومنا !

فانحصرت فى ركن لا أدرى ماذا أقول فقالت بصراحة ذكرتنى بأخيها :

ـ أنت فاهم وأنا فاهمة . .

ثم بشىء من التأثر :

ـ من حقى أن أسعى إلى سعادتى طالما أن كرامتى مصونة .

فقلت حتى لا ألزم الصمت أكثر مما يحتمل :

ـ إنى أحترم هذا المنطق السديد . .

فقالت بعذوبة :

ـ لن تندم . وإنى منتظرة .

رندة سليمان مبارك

ست أعين تدور فى فلك الحيرة . عيناى فى عينى أمى ، عيناى فى عينى أبى ، عينا أمى فى عينى أبى ، أعيننا جميعا تتنافر هاربة . فى تلك الساعة من الليل ذهلت أمى لمرآى . شحب لون وجهها عاكسا لون وجهى . همست وأبى يغط فى نومه تحت الملاءة الأرجوانية .

ـ رندة . . ماذا وراءك؟

وقفنا فى وسط الصالة وأفرغت ما فى صدرى دفعة واحدة .

ـ إنه الطلاق!

وصببت عليها الحكاية بتفاصيلها. وعلم أبى بها بعد الفطور صباحا على درجات. قلت له:

ـ لا يمكن أن نتفق..

وراحت أمى لتتحدث عن الزوار والخمر. احتقن وجهه بالغضب فقلت له:

ـ لا تحمل صحتك فوق طاقتها.

فقال بحنق:

ـ فهمت كل شىء. لو بى قدرة لأدبته.

ـ لا ضرورة لذلك، كان صريحا وسرعان ما اعترف بفشله.

ـ كيف غابت عنك حقيقته؟

ـ لكل أسراره ولا أنكر أننى خدعت.

ـ يستحسن أن نستشير محاميا.

فقلت بإشفاق:

ـ هو أقصر سبيل لنشر الفضيحة، ومن ناحية أخرى فقد سلم لى بكافة حقوقى دون أدنى اعتراض.

ـ قد يغرى هذا الطلاق السريع ألسنة السوء بك؟

ـ إنى واثقة من نفسى وسرعان ما ينسى كل شىء.

ورغم أن أحدًا من الزملاء لم يكدر صفوى فقد شعرت طيلة الوقت بجو محموم بالتساؤلات المكتومة.

خاصة من ناحية علوان الذى بلغ غضبى منه مداه. ومرة همس لى ونحن منفردان:

ـ إنى حزين جدا.

فسألته ببرود:

ـ لماذا؟

ـ لعله الشعور بالذنب.

ـ لا شأن لك بما كان.

فتحول عنى بعينه وهو يقول:

ـ ما زلت أحبك.

فقلت بحدة:

- لا أريد سماع هذه الكلمة من فضلك!

وبمرور الوقت ضقت بكل شيء وحتى بغضبي ضقت. ورجعت أنظر إليه كما أنظر إلى نفسي برثاء. بل وجدت شيئا من خلو البال فتساءلت: ترى كيف تسير الأمور بينه وبين جولستان؟ هل يتزوج منها يوما ما؟ أي غرابة في ذلك ربما كانت المرأة خيرا من أختها. لم أجد بها ما يسوء. وهي تريده ما في ذلك من شك. اللعنة.. إنها تحبه. من كان يتصور أننا نفترق؟ من كان يتصور أن الآمال الكبار يمكن أن تتلاشى كقبضة من غبار؟ وهمس لي عند ميعاد الانصراف يوما:

- أشعر بدافع قوي لتبادل الرأي!

صمت صمت القبور لرغبتي الشديدة في الحديث.

وذهبنا إلى استراحة الهرم فتناولنا بعض السندوتشات مع الشاي ورحنا نتبادل النظر في بلاهة. سألني:

- هل لديك خطة؟

فقلت ببساطة:

- أعيش بلا خطة ولا أحلام وهو غاية الراحة.

- وأنا أيضا ولكن جدي يقول إنه ما بين غمضة عين و...

قاطعته:

- دعنا من جدك وأمثاله فهي لا تصلح لنا، متى تتزوج من جولستان؟

فقطب متسائلا:

- من قال ذلك؟

- مجرد سؤال.

- أنا لا أبيع نفسي.

- إذن ترى أنني بعت نفسي؟

فقال بسرعة:

- كلا، الأمر مختلف، لا غرابة في أن تتزوج فتاة من رجل يكبرها أما العكس..

وتصفح وجهي بقوة ثم سألني:

- ما أسباب الفشل في زواجك؟

بي رغبة حقيقية للاعتراف له بالحقيقة. وهو دون الآخرين.

- تعدني بألا تبوح بالسر لإنسان؟

- أعد بشرفي.

وأفرجت عن المأساة الحبيسة فى ضلوعى، حتى هتف:

ـ الوغد!

ـ انتهى وقت الغضب فلا تنس وعدك.

ـ فاق أى خيال.

ـ ليس أعجب مما سمعنا فى حياتنا..

محتشمي زايد

أرى فى أحلامى أبى وأمى وأختى محاسن.. ورأيتهم مرة فى منطاد يحلق فوق رأسى، ترى هل أزف الرحيل؟ هل آن للعجوز أن يعفى الدولة من صرف معاشه؟ الصحة جيدة رغم عين الحسود سليمان مبارك، ولكن الصحة مهلكة مثل المرض. كفى بالصحة داء، صدق رسول الله. عبدك منتظر يا رب، يتوقع بين آونة وأخرى أن يدق الجرس وسوف يستقبل الطارق بما يليق به من طاعة وترحاب. حسن الختام يا رب، جنبنى الأوجاع والعجز وشكرا على حياة طويلة عريضة. حسبى أنى لم أقدم أذى لإنسان فى هذا العالم الحافل بالأذى. والشيخوخة قضيتها جوالا بين كلماتك وأنبيائك وأوليائك، وقبل ذلك كابدتها فى دنياك ونعمائك. رياضتى العبادة وتسليتى الطرب وسرورى الطعام الحلال. ها هو العيد يطل علينا متوجا بأنداء الخريف. نهر من السحب البيضاء يتدفق فوق النيل الأسمر والأشجار الباسقة دائمة الخضرة. أيام قلائل نادرة فى حياة هذه الأسرة الممزقة. فواز يملأ جلبابه فى استرخاء، وهناء تمشط شعرها الأبيض، علوان يحلق ذقنه تأهبا للانطلاق. قلت بسرور وأنا أتصفحهم حولى:

ـ أخيرا نجتمع كأسرة يا أولاد!

فقال فواز بصوته الجهير:

ـ نقطة راحة فى بحر من التعب.

ـ لو كانت الدنيا غير الدنيا لخرجنا إلى القناطر.

ـ فكرة غير صالحة للعصر أو قل إنها جنونية.

قالت هناء ضاحكة:

ـ نأكل وننام، هذا ما تبقى لنا من العيد.

ـ وأنت يا علوان؟

- إلى المقهى على الأقدام!

فقال فواز باسما:

- ثرثرة كالعادة!

فقلت:

- وعيد آخر اتفقت دورته مع العيد، عيد النصر.

فقال علوان ساخرا:

- النصر والسجن.

فقلت بنشوة غازية:

- لا دوام لحال، الجديد أيضا آت لا ريب فيه.

- حقا؟!.. يحيا الصبر والانتظار!

فقال فواز حالما:

- مفاجأة بترولية أو اكتشاف نهر مغمور فى الصحراء!

فقال علوان:

- أو اندلاع ثورة.

فتساءل فواز:

- هل تعنى الثورة إلا مزيدا من الخراب؟

فقال علوان متهكما:

- ضربوا الأعور على عينه!

يتحدثون عن الثورة بلا معرفة. لم يسمعوا عنها. حكى لهم الراوى المأجور حكاية زائفة كاذبة. يبدأ المدرس المغلوب على أمره درسه بالسؤال الخائن «لماذا فشلت ثورة ١٩١٩؟». يا أبناء الأبالسة ألا توجد قطرة حياء؟ يا زبانية المعتقلات وعباد نيرون. ها هو علوان يلوح بيده ويذهب. يذهب حاملا خيبة فرد وجيل معا. وفتحت هناء التلفزيون قائلة:

- نشاهد الحفل.

المنظر العام ثرى يوحى بالفرح الشامل. قدوم الرئيس فى هالة لألاءة كليلة القدر. عليه بزة القيادة. وبيده صولجان الملك. وتتابعت الصفوف والأعلام. قالت هناء ببراءة:

- شد ما هو معجب بنفسه..

فقلت:

ـ اليوم يومه .

فقال فواز :

ـ إنه لسعيد ، وهو حقيق بذلك . .

ثم مستدركا فى أسى :

ـ خسر الكثير منذ ٥ سبتمبر .

عرض فوق الأرض وعرض فى السماء ، منظر نادر لا يتكرر . قلت بصوت من الماضى :

ـ لم نكن نرى الجيش إلا يوم المحمل .

ـ انظر يا أبى . هذا عالم آخر .

وقالت هناء ضاحكة :

ـ وجه مورد كأنه مطلى بروج .

وتمر الفيالق ويمر الوقت ، ويزحف على الكسل وشىء من النعاس . وأصحو فى لحظة غريبة من الزمان . قرص التاريخ أذنى ، والدهر قال لى هكذا وقعت الأحداث التى قرأتها فى صحف التاريخ بانتباه عابر . ها هى تقع فى حجرة المعيشة . تضطرب الشاشة الصغيرة وتتميع ، وتنقض حركة غير عادية ، وتنطلق أصوات ، ثم يدهمنا الاختفاء .

ـ هل حصل شىء فى التلفزيون يا فواز؟

ـ ليس فى الجهاز . . لا أدرى ماذا حصل . .

وقالت هناء بقلق :

ـ شىء غير عادى . . قلبى غير مطمئن . .

فقال فواز :

ـ ولا أنا . .

تساءلت :

ـ هل . . ؟!

قال فواز :

ـ الله أعلم يا بابا ، عما قليل سنعرف كل شىء . .

وقلت من قلبى :

ـ اللهم حوالينا ، لا علينا . .

علوان فواز محتشمي

ليكن عيد ولننس همومنا ولو ساعة واحدة. ولكن كيف والباب له مائة مفتاح؟ ماذا يقول لى النيل؟ وماذا يقول الشجر؟اسمع جيدا، إنها تقول، يا علوان يا فقير يا عائشا بين الأسوار، رندة تعود إليك تحت مظلة الصداقة والحوار، فى ظل حب غير معلن يقوم على أرضية مستندة إلى عمودين من الصلب واليأس تظلها أحلام غامضة. لا مطاردة من الأهل ولا أمل ولا يأس. امش مشية عسكرية سريعة فهذا يوم الجنود. وها هو المقهى مكتظ بعلماء الكلام. هنا ينعدم الرضا والفعل. بيننا مائدة عليها ترانزستور تطوع أحدهم بإحضاره. كما فعل يوم أذاع علينا الرئيس الراحل هزيمته عقب ٥ يونيو. أول ما سمعت قائلا يقول:

- الرئيس الراحل فى هزيمته أعظم من هذا فى نصره.

هذا يذكرنى برأى أدلى به جدى مرة، قال لى:

- نحن قوم نرتاح للهزيمة أكثر من النصر، فمن طول الهزائم وكثرتها ترسبت نغمة الأسى فى أعماقنا، فأحببنا الغناء الشجى والمسرحية المفجعة والبطل الشهيد، جميع زعمائنا شهداء: مصطفى كامل شهيد الجهاد والمرض، محمد فريد شهيد المنفى، سعد زغلول شهيد النفى أيضا، مصطفى النحاس شهيد الاضطهاد، جمال شهيد ٥ يونيو، أما هذا المنتصر المعجبانى فقد شذ عن القاعدة، تحدانا بنصره، ألقى فى قلوبنا أحاسيس وعواطف جديدة لم نتهيأ لها، وطالبنا بتغيير النغمة التى ألفناها جيلا بعد جيل، فاستحق منا اللعنة والحقد، ثم غالى بالنصر لنفسه تاركا لنا بانفتاحه الفقر والفساد، هذه هى العقدة.

وغرقنا فى دوامة الحوار الأرعن والترانزستور يذيع تفاصيل عيد النصر لمن يسمع حولنا من رواد المقهى. وسرقنا الوقت كالعادة حتى انتبهنا على أصوات غريبة وصوت المذيع و هو يصرخ:

- الخونة. . الخونة. .

- شلت الألسنة وزاغت الأبصار. تلاصقت الرءوس فوق الترانزستور ولكنه انقطع عن متابعة الحفل وراح يذيع بعض الأغانى.

- ماذا حدث؟

- شىء غير عادى.

- قال . . الخونة . . الخونة . . الخونة . .
- اعتداء !
- على من؟
- سؤال سخيف حقا . .
- الأغانى المذاعة تدل . .
- متى كان للمنطق أهمية؟
- شيئا من الصبر!

ماتت أى رغبة فى العودة إلى البيت . تلاصقنا بشعور دعانا إلى البقاء معا أمام المجهول .

تناولنا غداء موجزا من المكرونة وانتظرنا . وبعد وقت عنيف أعلن المذيع أنه حصلت محاولة للاعتداء فاشلة وأن الرئيس غادر الحفل وأن قوات الأمن مسيطرة على الموقف تماما ، وانطلقت الأغانى من جديد .

- ها هى الحقيقة .
- الحقيقة؟
- فكر قليلا .
- بعض الحقائق لا يمكن إخفاؤها .
- ولكن يمكن تأجيلها .
- من المعتدون؟
- من غير التيار الدينى!
- لكنه يجلس بين الجنود والحرس .
- انتبهوا . . بدأت إذاعة الأناشيد الوطنية . .

وإذا بإذاعة جديدة تعلن عن إصابة طفيفة للرئيس وأنه يلقى العناية الكاملة فى المستشفى . قلوبنا ترقص فى مد الاحتمالات المتصاعد . الزمن توقف وغير لونه ثم أطل علينا بوجه جديد .

- أصيب الرجل ، ماذا بعد؟
- استعدوا للسجن .
- عودة مؤكدة للإرهاب .
- سينجو وينتقم .
- هل نسمع القرآن بعد الأناشيد؟!

وتحملنا الوقت على ثقله حتى صحت النكتة وبدأت التلاوة. بهتنا أول الأمر. إنه اليقين. يا للذهول! حقا؟! انتهى الرجل؟.. من كان يتصور؟ لماذا نؤمن أحيانا بأنه يوجد مستحيل. لماذا نتصور أنه لا توجد حقيقة فى هذه الدنيا سوى الموت؟ الموت هو. الموت هو الدكتاتور الحقيقى. ويجىء البيان الرسمى كالجملة الختامية. ترى ماذا يقول الناس؟ أريد أن أسمع ما يقال حولنا فى المقهى. وتحركت مرهف السمع. لا حول ولا قوة إلا بالله. هو وحده الدائم. البلد يواجه خطرا لا يستهان به. لا يستحق هذه النهاية مهما قيل عن أخطائه.. فى يوم نصره؟ مؤامرة.. توجد مؤامرة محكمة ولاشك. فى داهية.. الموت أنقذه من الجنون. على أى حال كان يجب أن يذهب. هذا جزاء من يتصور أن البلد جثة هامدة. بل هى مؤامرة خارجية. لا يستحق هذه النهاية. إنها نهاية محتومة. كان لعنة. من قتل يقتل ولو بعد حين. فى لحظة انهارت إمبراطورية. إمبراطورية اللصوص فيم تفكر العصابة الآن. عدت إلى مجلسى تمزقنى انفعالات متضاربة من الأسى والخوف والسرور. وأفعمنى ترحيب غامض باحتمالات مجهولة واعدة بتحطيم الجمود والروتين والانطلاق نحو آفاق غير محدودة. ليكن الغد ما يكون أسوأ من اليوم. حتى الفوضى خير من اليأس ومقاتلة الأشباح خير من الخوف. هذه الضربة زلزلت عرشا واخترقت حصوننا. ومع المساء همت على وجهى. أرهقنى الكلام. ما أرغبنى فى المشى. على كل عابر أرى أثرا من الموت. وأجدنى فجأة أمام فيللا جولستان وأرى سيارة أنور علام واقفة تنتظر صاحبها. تتفجر فى داخلى كل شهوة للجنس وكل نزوع القتال..

رندة سليمان مبارك

يا للفظاعة! ألا توجد وسيلة إلا القتل؟ وما ذنب زوجته وبناته؟ لست من أنصاره ولكنه لا يستحق هذه النهاية. إنه يعيدنى إلى المشكلات العامة بعد طول انغماس فى مشكلاتى الخاصة. القتل كريه والله لا يحبه. أمى بكت كإنسان لم تغيره السياسة. وجمت حجرة المعيشة أكثر من وجومها المألوف فى تلك الأيام. سألت أبى عن رأيه فقال:

ـ هيهات أن يرد رأى الحياة لميت.

ورنا إلىّ مليا بعينيه الذابلتين، ثم واصل:

ـ البلد مريض بالتعصب يا رندة، أين أيام «لماذا أنا ملحد؟» يريدون أن يرجعونا أربعة عشر قرنا إلى الوراء.

وصمت قليلا ثم قال:

- أنا عارف أنك لا توافقين على رأيى كله فافعلوا بزمانكم وليفعل بكم ما يشاء ولكننا متفقان على رفض القتل..

إنه الخط الأدنى الذى نقف عليه معا. ترى أين أنت ياعلوان؟ إنك لا تحبه فهل سررت بنهايته؟ وعلى غير توقع اقتحم علوان شقتنا بعد طول انقطاع وبجرأة دلت على قوة دوافعه. وسرعان ما انفردنا بأنفسنا فى الصالة على كرسيين متجاورين حول السفرة. وسألته:

- أين كنت وقتها؟

فقال باضطراب أفزعنى:

- دعينا من ذلك فما من جديد يقال، رندة أصغى إلىّ جيدا..

- ماذا عندك؟

- وجدتنى مساء اليوم أمام فيللا جولستان وسيارة أنور علام المنتظرة. ودون دعوة ولا تدبير سابق اندفعت إلى الداخل، كان هو أول من رأيت فهتفت مرحبا «أهلا» رب صدفة خير من ميعاد، وإذا بى أصيح مفقود الرشد «يا قذر!» ولكمته فى صدره بقوة فترنح وهوى إلى الأرض، وهنا نبهتنى صرخة جولستان إلى وجودها، قالت لى بحزم: «كف عن همجيتك» وساعدته على القيام وهو يلهث فمضت به إلى حجرة نومها. تسمرت فى موقفى غائب الوعى تقريبا. وغابت هى ربع ساعة ثم رجعت شاحبة اللون ذاهلة النظرة وغمغمت:

- ماذا فعلت يا مجنون؟!.. لقد قتلته!

حملقت فى وجهها دون أن أنبس. اغرورقت عيناها وتمتمت:

- ماذا فعلت يا مجنون؟!.. لماذا قتلته؟

وانحطت إعياء على مقعد مسندة رأسها إلى راحتها على حين مضيت أسترد وعيى وأدرك أبعاد فعلى. وأخيرا قلت:

- استدعى الشرطة، إنه قدرى..

لم تند عنها حركة ورغبت بكل قوتى فى التخلص من الموقف فقلت:

- سأذهب بنفسى إلى الشرطة..

فأشارت بيدها إشارة غامضة وهمست:

- اقعد حيث أنت.

ومر الوقت على أعصابى ثقيلا مثل وابور الزلط فقلت:

- لا معنى للانتظار.

فهمست :

ـ انتظر .

وأحنت رأسها تخفى عينيها عنى وهمست :

ـ كان يشكو تعبا مزمنا فى قلبه!

فيم تفكر؟ ساورنى شك عاكس لنور خاطف من أمل مذبذب .

ـ ولكننى أنا الذى . . .

فقالت بهدوء دل على أن رأسها المضطرب شرع يفكر :

ـ لا أثر للضرب .

بهذه العبارة تورطت كشريكة فى الجريمة . تفرست فى وجهها بذهول وأنا أعجب لطبيعة الشخص التى قد تظل خافية فى الظروف العادية إلى الأبد . أى امرأة! ولكن فرحتى بطوق النجاة كانت فرحة غريق يائس . قلت :

ـ لن يخفى شىء على الطبيب .

فقالت بثقة :

ـ لا شأن لك بهذا .

وتبادلنا نظرة فاضحة لكلينا وقالت :

ـ طبعا أنت فاهم لماذا أعمل على إنقاذك؟

فأحنيت رأسى ممتنا وأنا لا أصدق فسألتنى :

ـ هل أثق فى شرفك؟

. . وتعهدت بشرفى . .

ولما انتهى سألته وأنا من اليأس فى نهاية :

ـ لماذا تبوح لى بسرك؟

ـ لاسر بيننا يا رندة .

فقلت بمرارة :

ـ لقد ارتكبت جريمتك غضبا لى ، وأنت تستحق النجاة .

ـ أهذا رأيك؟

ـ طبعا لا يمكن أن أشير عليك بالموت .

فقال بانفعال :

ـ فى الحقيقة إننى لم أقل كل ما عندى ، فما غادرت الفيللا حتى احتقرت نفسى وكرهت القرار الذى اتخذته ، وفى حيرتى قصدتك لأعترف بكل شىء . .

فقلت له بإشفاق :

ـ إنى مدركة تماما لمشاعرك ولكنى لا ألومك على قرارك!

فقال بعناد خفق له قلبى :

ـ ولكنى أرفض .

ـ هذا هو الجنون .

ـ ليكن .

فقلت متوسلة بحرارة :

ـ المعجزة لن تتكرر .

ـ ليكن .

ـ لا وقت للندم .

ـ لن أندم أبدا .

ـ إنى بريئة مما تفكر فيه .

فقام وهو يقول :

ـ سأرجع إليها لأصارحها بكل شىء .

ـ لا أوافق .

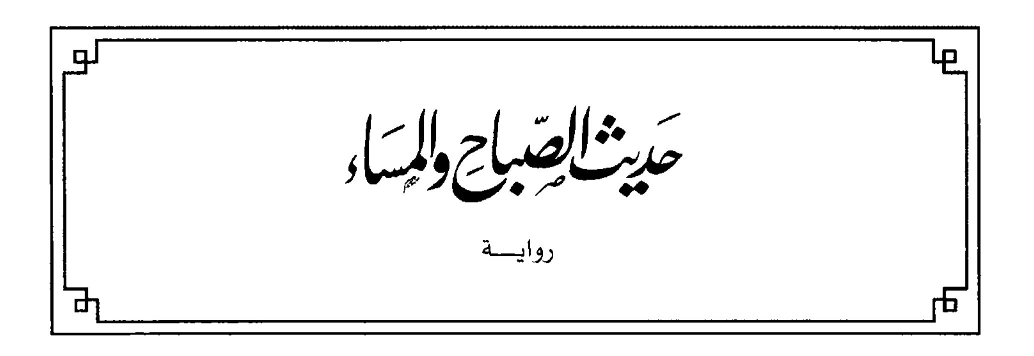
فقال وهو يمضى :

ـ وأنا مصمم . .

محتشمي زايد

بعد اختفاء علوان أغرق فى وحدة مطلقة . حزنى عميق وحزن أبويه لا قرار له ، أما العالم حولنا فيشرئب إلى أمل جديد ، ورندة أى شجاعة ساقتها إلى المحكمة لتدافع عن الشاب بحيائها وكرامتها . وكان من حسن الحظ أن تشخص الجريمة كضرب أفضى إلى موت . أعوام تمر ثم يغادر السجن صاحب حرفة يكون بها أقدر على تحديات الحياة وتحقيق آماله . لا أحسبنى أراه مرة أخرى ، سيجد حجرتى خالية فيمكنه أن يتزوج حبيبته فيها . ترى هل بقيت أكثر مما يجوز وهل لعبت دورا وأنا لا أدرى فى تعقيد مشكلته؟!

آن لى أن أنضم إلى فريق المسبحين المتطلعين إلى الأبدية فى رحاب ذى الجلال .



المحتويات

حرف الألف

أحمد محمد إبراهيم

فى السماء زرقة صافية، وعلى الأرض تغفو ظلال أشجار البلخ، وأديم الميدان العتيق يشرق بنور الشمس، ويتلقى من الحارات هديرا لا ينقطع. ميدان بيت القاضى يضم قسم الشرطة الحديث وبيت العدل والمال القديم، وتطؤه أقدام حافية وشباشب مزخرفة ومراكيب ملونة وحوافر الخيل والحمير والبغال. ويطلع أحمد على ذلك الملعب الواسع فسرعان ما ينسى بيته الأصلى، بيت والديه بحارة الوطاويط. كان ابن أربعة أعوام عندما حمل إلى بيت جده لأمه بميدان بيت القاضى ليؤنس وحدة خاله قاسم الذى كان يكبره بعام ونصف عام. خلا البيت بعد زواج البنات والصبيان فلم يبق فيه إلا عمرو أفندى الأب وراضية الأم، وآخر العنقود قاسم. لم يعرف قاسم أخواته صدرية ومطرية وسميرة، وحبيبة، وأخويه عامر وحامد إلا كضيف عابر مع أمه أو أبيه، يزورهم، كما يزور فروع أسرته فى ميدان خيرت أو سوق الزلط أو العباسية الشرقية. وفى بيت شقيقته مطرية بحارة الوطاويط أحب ابنها أحمد حبا فاق حبه للجميع. وكان لأحمد أخ أكبر يدعى شاذلى وأخت فى اللفة تدعى أمانة ولكنه خص أحمد بكل قلبه. وكانت مطرية تحب قاسم كأبنائها فأهدته إليه ليعيش فى كنف جديه فى بيت كبير خال من الأنيس. ولم يرتح محمد أفندى إبراهيم ـ أبو أحمد ـ لذلك كما لم ترتح له أمه ـ حماة مطرية ـ ولكنهما لم يعترضا مصممين على أن يسترداه حال بلوغه السن المناسبة لدخول الكتاب. وجهل قاسم تلك النية المبيتة فنعم بالصحبة فى صفاء لا يشوبه كدر. وكان أحمد كأنه آية فى الجمال، مورد البشرة ملون العينين ناعم الشعر خفيف الروح، يتبع خاله كظله فى أرجاء الميدان، يشاهدان ألعاب الحاوى، وعربة الرش، وطابور جنود الشرطة. ويستقبلان معا عم كريم بياع الدندورمة، ويتاعبان بشىء من الخوف مواكب الجنازات. وكانت الرائحة والغادية من الجارات تنظر إلى أحمد وتتساءل:

ـ من هذا الولد الجميل؟

فيجيب قاسم باعتزاز.

ـ أحمد ابن أبلة مطرية.

فتمضى المرأة وهى تقول:

ـ الجميل ابن الجميلة.

وكان محمد أفندى إبراهيم يقول لراضية أم قاسم :

ـ لا تملئى رأس أحمد بحكايات العفاريت يا نينة .

فترمقه باحتقار وتقول :

ـ يا لك من مدرس جاهل !

فيضحك الرجل كاشفا عن ثنيتيه المتراكبتين ثم يواصل تدخين غليونه . ذلك أن ختام اليوم يتم عادة بين يدى راضية فتنداح النشوة فى قلبى الطفلين على سماع الحكايات قبيل النوم ، وتنهمر على خيالهما كرامات الأولياء وعبث العفاريت ، وينغمس الواقع فى دنيا الأحلام والخوارق والآيات الربانية . وتمضى بهما فى أوقات الفراغ من بيت إلى بيت ، ومن ضريح ولى إلى جامع حبيب من آل البيت . وظلت الدنيا لهوا ولعبا حتى حمل قاسم ذات يوم إلى الكتاب ليبدأ حياة جديدة وليحرم من رفقة أحمد ثلثى النهار . والكتاب يقع فى منحنى من منحنيات عمارة الكبابجى على بعد خطوات من البيت ، ولكنه محاط بسياج من التقاليد الصارمة تجعل منه سجنا تتلقى فيه المبادئ الإلهية تحت تهديد المقرعة . . ولم تجد التوسلات ولا الدموع . ويغادره عصرا فيلقى أحمد وأم كامل فى انتظاره عند الباب . ولم تعد الدنيا كما كانت . تسللت إليها هموم لا مفر منها . وبغريزة يقظة شعر بخطر آخر يتهدده من ناحية محمد إبراهيم والد أحمد ، فهو لا يرتاح لإقامة أحمد بعيدا عنه . وتتجلى فى عينيه الجاحظتين نظرة باردة نحوه ، ويقول لأمه :

ـ أنا لا أحب هذا الرجل .

فيكفهر وجهها الأسمر الطويل وتقول له :

ـ يا لك من جاحد ! ألم يهد إليك أبنه؟

ـ ولكنه يريده .

فتضحك قائلة :

ـ أترغب فى أن ينزل لك عن ملكيته؟ !

* * *

ولكنه ذات يوم لم يجد أحمد فى انتظاره لدى خروجه من الكتاب ، ووجد أمه جادة أكثر من عادتها ، وقالت له :

ـ حبيبك مريض .

ورآه مستغرقا فى نوم ثقيل فى فراشه ، وراحت أمه تعمل له مكمدات خل وهى تتمتم :

ـ يا ولدى . . يخرج منك صهد كالنار . .

ولا تكف عن تلاوة الآيات. ولما رجع عمرو أفندى إلى البيت مساء رأى أن يرسل أم كامل لإخطار مطرية وزوجها. ولما لم تنخفض الحرارة بالبخور والتعاويذ، جاء عمرو أفندى بطبيب من الجيران، ولكنه أعلن أنه طبيب عيون ونصح باستدعاء الدكتور عبد اللطيف المقيم فى باب الشعرية. واعترض عمرو أفندى قائلا:

ـ ولكنه متزوج من العالمة بمبه كشر!

فقال الطبيب ضاحكا:

ـ بمبه كشر لم تنسه الطب يا عمرو أفندى..

وجاء الطبيب زوج العالمة المشهورة، وشعر قاسم بأنه شحن الجو بمزيد من التوتر. وسمع أمه وهى تقول:

ـ أنا لا أصدق الأطباء ولا أعترف إلا بطبيب واحد هو خالق السماوات والأرض..

وتمر الأيام ويتساءل قاسم أين أحمد، أين غابت نضارته وجماله؟!

عاد عصر يوم من الكتاب.

دهمه البيت بمنظر جديد. رأى أهله جالسين فى صمت غريب. فى حجرة أحمد لمح أمه وجدة صديقه لأبيه، وفى حجرة المعيشة رأى إخوته وأخواته.. عامر وحامد وصدرية وسميرة وحبيبة. أما مطرية فكانت تجهش فى البكاء وإلى جانبها يجلس محمد إبراهيم واجما يدخن غليونه.

وتسرب الخوف إلى قلبه مع الهواء المفعم بالحزن، وأدرك بطريقة ما أن ذلك العدو الذى سمع عنه فى مناسبات ماضية، الذى رآه يخيم فوق الجنازات المتجهة نحو الحسين، قد أقتحم بيته وخطف أحب خلق الله إلى قلبه. وصرخ باكيا حتى حملته أم كامل إلى السطح. ومن وراء خصاص نافذة الحجرة الصيفية رأى جدة أحمد تحمل بين ذراعيها لفافة مزركشة وتستقل حنطورا مع ابنها عمرو أفندى. وذهب الحنطور يتبعه حنطور آخر يحمل عامر وحامد وعمه سرور أفندى جنازة من نوع جديد فهل انتهى أحمد؟! أبى أن يصدق ذلك أو يسلم به: آمن من كل قلبه بأنه سيراه مقبلا ذات يوم مكللا بعذوبته الوردية ولكنه لم يكف عن البكاء. وفى الليل انفض الجمع، نهره أبوه قائلا:

ـ كفاية!

فسأل أباه برجاء:

ـ أين ذهبتم به؟

فقال عمرو.

ـ لم تعد طفلا، أنت فى الكتاب وتحفظ سورا من كتاب الله، أحمد مات، وكل إنسان سيموت كما يشاء الله، وهذه هى إرادة الله..

فتساءل محتجا :

ـ ولكن لماذا؟

ـ إرادة الله ، ألا تفهم؟

ـ لا أفهم يا بابا . .

ـ لا . . هذه قلة أدب أمام الله . . سيذهب أحمد إلى الجنة بغير حساب وهذا حظ عظيم . .

فاحذر قلة الأدب . .

فصاح :

ـ أنا حزين جدا يا بابا . .

ـ اقرأ الفاتحة يبرد قلبك . .

لكن قلبه لم يبرد . وكان كلما تذكره بكى . وقيل إن حزنه عليه فاق حزن أمه نفسها . . ولم يسل عن حزنه حتى تحطم واقعه وخلق خلقا جديدا لم يجر لأحد على بال .

أحمد عطا المراكيبى

عملاق فى الرجال ، بالطول والعرض ، وقسمات الوجه الخليقة بتمثال ، يجرى دمه الدافق فى أديم أسمر ، صورة خيالية لبطل حكاية شعبية بشاربه الكث وراحته المنبسطة ، وظاهر يده الأشعر ، يملأ مقعد الحنطور وهو يتهادى به فى ميدان بيت القاضى قبل أن يقف أمام البيت القديم إذا جاء لزيارته فى هالة إقطاعى كبير . ويتلقى ابن أخته عمرو أفندى ـ وهو يماثله فى السن ـ بين أحضان عامرة بالود ، ويصافح راضية بحرارة ، ويضع الهدايا فوق الكنصول وهو يتساءل :

ـ أين قاسم؟

ويند عنه صوت هادئ خفيض يعد غريبا بالنسبة للهيكل العملاق الصادر عنه ، وتشع من عينه ، البنيتين نظرة وانية متوددة تتحلى بالطيبة والسلام ، كأنه مسجد ضخم يجمع الجلال والأمان .

ـ حدثنا كيف حال أولادنا؟

يقصد البنات والأبناء . وكان يزور الجميع على فترات وخاصة البنات ليزكى مكانتهن أمام أزواجهن . وكان يغمر قاسم بالحلوى ، وقد حزن لوفاة أحمد الذى أحبه كثيرا لجماله .

ويبقى عادة للغداء مشترطا تقديم وجبة بلدية من طواجن راضية التى اشتهرت بإتقانها مع إضافات جاهزة من طعمية الحلوجى وكباب العجاتى، ويواصل البقاء حتى يقضى السهرة مع عمرو، وشقيقه سرور فى الكلوب المصرى. وكان الفرع الفقير من الأسرة يسعد بزيارات الفروع الغنية مثل آل المراكيبى وآل داود ويزهو بما تحدثه من أثر باق فى الحى رغم أن راضية كانت تقول لعمرو.

ـ لا أصل لأحد منهم، كلهم نشأوا فى التراب!

ثم تلتفت إلى قاسم قائلة بتحد:

ـ يوجد رجل واحد ظفره بكل هؤلاء هو جدك الشيخ معاوية!

فيبتسم عمرو ويصمت إيثارا للسلامة. على أن قاسم لا يفيق أبدا من سحر سراى آل المراكيبى بميدان خيرت. فى حجم ميدان بيت القاضى وفى ارتفاع القلعة، ولها حديقة مثل حديقة الحيوان، لا حصر لحجراتها، ولا مثيل لأثاثها، وأى تحف مختلفة الأشكال والألوان وتلك التماثيل من الجص والبرنز فى الأركان، وفوزية هانم حرم أحمد بك ونازلى هانم حرم محمود بك، ذاتا البشرة العاجية والأعين الملونة. عالم حقيقى يفوق بسحره عالم الحكايات والأحلام. وجدته لأبيه نعمة عطا المراكيبى هى أخت أحمد بك ومحمود بك. ولكنها امرأة فقيرة رغم ذلك لا تملك من دنيا الله سوى ابنيها عمرو وسرور وابنتها رشوانة، غير أن الأخوين الثريين كانا يحبان أختهما ويحبان ذريتها وخاصة عمرو أفندى الذى تميز بحكمة فطرية. وكان أحمد بك يوثق عزوته بآل داود، أقارب أولاد أخته نعمة وأصهاره، على ما بين الفرعين الثريين من غيرة متبادلة ويدعوهم لسراى ميدان خيرت، وكان أحمد أحب إلى عبد العظيم باشا داود من أخيه محمود لدماثة خلقه وبساطته وتواضعه. ولكن جرت العادة عند ذكر آل المراكيبى فى بيت عمرو أن يقول عبد العظيم باشا بسخرية:

ـ مال كثير وجهل أكثر وما المنبع؟.. بياع مراكيب حقير بالصلحية!

أو يقول محمود عطا عن آل داود:

ـ ألقاب رنانة.. والأصل أجير على باب الله!

فيقول عمرو بتقواه المعروفة: كلنا أولاد آدم وحواء.

وقد بدأ عمرو وسرور ومحمود وأحمد حياتهم التعليمية فى سنوات متقاربة وقنعوا بالشهادة الابتدائية، فالتحق عمرو وسرور بالحكومة لفقرهما، واقتحم محمود تجربة الحياة تحت جناح أبيه، وجنح أحمد للدعة وحياة الأعيان، فأسقطه أبوه من حسابه. كان يمضى وقتا فى العزبة ببنى سويف على هامش العمل الزراعى، ثم يرجع وحده، أو هو وفوزية هانم إلى السراى بالقاهرة بمقامه فى الدور الثالث، وينفق وقته بين زيارات الأهل واستقبال الأصحاب.

كان بهوه الفخم معدا لاستقبال الأصدقاء والأقارب، يحتسون الشاى والقهوة والقرفة ويلعبون النرد والشطرنج ويدعون للغداء أو العشاء، ويسهرون فى ليالى رمضان والمواسم حتى مطلع الفجر. كان الفونوغراف رفيق خلوته، والحنطور متعته، وحدائق شبرا والقبة مرتاده، والسيدة مصلاه أيام الجمع، وقد يحضر بعض ليالى الذكر الصوفية مع عمرو ابن أخته المنتسب للطريقة الدمرداشية. ولما مات الأب عطا المراكيبى تلقى مجرى حياته الهدئ الدائم الخضرة دفقة هواء عنيفة كادت تعصف به. وجد نفسه بغتة أمام مسئولية ضخمة لم يدرب على التعامل معها، كان عليه أن يدير أرضه الموروثة ـ ثلاثمائة فدان ـ بالإضافة إلى أرض زوجته البالغة المائة. وقال له محمود بك:

ـ ستتعلم كل شىء، ولديك من يعاونك، ولكن.. وكور الرجل يده الغليظة ثم واصل:

ـ عليك أن تتخلى عن طيبتك، فالتعامل مع الفلاحين والمستأجرين غير التعامل مع الأصحاب والأقارب!

وفكر طويلا وهو يتخبط فى الشرك، ثم قال:

ـ أنت أخى الأكبر، وما لقيت منك إلا البر والوفاء، وأنا لم أخلق لذلك..

بذلك حل محمود محل أبيه.. ولم ترتح فوزية هانم للقرار وقالت له بأدبها الجم:

ـ شد ما تعجلت قرارك دون مشاورة.

فسألها بحيرة:

ـ هل يداخلك شك من ناحية أخى؟

فقالت بأمانة:

ـ نعم الأخ هو ولكن لمَ تضع نفسك تحت وصايته؟

فقال:

ـ إنه شقيقى وحبيبى، وأنت شقيقة زوجته، وأسرتنا مثال فى الوئام والحب، وقد فعلت ما أراه مناسبا.

وواصل الحياة الناعمة، وكان يتسلم نصيبه دون مراجعة، وكان الخير عميما والبال رائقا. وانقضت عليه ثورة ١٩١٩ فهزته من الأعماق وأشعله سحر زعيمها، وتبرع لها بعشرة آلاف جنيه مستجيبا لاقتراح أخيه. تناسيا وصية قديمة لأبيهما بالبعد عن السياسة وتجنب ما يثير غضب السلطات الشرعية: كان المد أقوى من أن يفلت منه إنسان. ولكن عندما أطل الشقاق بقرنه وحصل الخلاف بين سعد وعدلى، تشاور الرجلان فيما ينبغى فعله. أو راح محمود يفكر وأحمد يتابعه. قال محمود:

ـ انقضت فترة العواطف وجاءت فترة العقل .

فقال أحمد :

ـ الأرض كلها مع سعد .

ـ نكون حيث تكون مصلحتنا .

فاشتد انتباه أحمد حتى استطرد أخوه :

ـ لا يغرنك الهتاف ، الإنجليز هم القوة الحقيقية ، عدلى قريب منهم ولكنه لا يوفر الأمان الدائم ، هناك سلطة شرعية هى الوسيلة الباقية بين الإنجليز وهى العرش ، فليكن ولاؤنا للملك !

فقال أحمد مستسلما :

ـ الصواب معك دائما يا أخى !

وعرف ذلك الموقف فى بيت القاضى حيث يتجاور بيتا عمرو وسرور . وهمس عمرو بأسلوبه الهادئ :

ـ سلوك غير لائق .

فقال سرور بسخرية :

ـ أقاربنا الأغنياء . وهبهم الله مالا لا يعد وخسة لا تدانى .

وكان عمرو يتحرج من العنف لأكثر من سبب ، لهدوء طبعه من ناحية ، ولزواج حامد أبنه من شكيرة بنت محمود بك ، وعامر من عفت بنت عبد العظيم باشا ، ولكنه لم يخف رأيه عن خاله أحمد بك وهو يتعشى معه فى السراى فقال له أحمد باسما :

ـ علم الله أن قلبى معكم ولكنه رأى محمود !

فقال عمرو آسفا :

ـ الميدان تحت بيتنا يموج بالمظاهرات كل يوم ، والهتاف بسقوط الخونة يتصاعد إلى السماء .

فقال أحمد :

ـ أصحاب المصالح لا يحبون الثورات يا بن أختى . . والواقع أن أحمد هو الذى تعرض لنقد لاختلاطه بالناس ليل نهار ، أما محمود فكان أكثر وقته منغمسا فى عمله فى العزبة . ونتيجة للولاء المعلن فى تلك الفترة الحرجة فاز الأخوان برتبة البكوية فى عيد الجلوس ، وسر بها الرجلان سرورا فاق كل تصور . وأولم أحمد وليمة دعا إليها جميع الأقارب نساء ورجالا ، من آل عمرو وسرور وداود ، وبدت السراى فى حلة لا تبدو بها إلا فى الأفراح . وغاص أحمد فى حياته الخاصة حتى

قمة رأسه، ولم يأذن بهموم الوطن بالتسلل إلى خلوته وتكدير صفوها. ولكن بتقدم الزمن ونمو الأبناء جاءته المتاعب من حيث لم يحتسب. لم يوافق ابنه الأكبر على الوضع الذى اختاره لنفسه تحت وصاية أخيه. وخاض نزاعا طويلا عنيدا مع أمه أولا ثم مع أبيه ثانية. ولم يعف أباه من ملاحقته حتى وعد باسترداد حقه الذى نزل عنه بمحض اختياره. ومن تلك الشرارة اندلعت النيران فى أركان الأسرة المتحدة. وانتهز أحمد فرصة زيارة محمود للقاهرة لبعض شأنه وفاتحه فى الموضوع على استحياء، وختم حديثه كالمعتذر قائلا:

ـ الأولاد كبروا ولهم رأيهم!

أدار محمود ما سمع فى رأسه طويلا وهو يتلقى من الغضب أمواجا هادرة. كان قد تطبع بسلطة غير محدودة، ومارس فى السراى هيبة تجاوزت أسرته إلى أسرة أخيه الوديع الطيب. كانت فوزية هانم تهابه وتصدع بأوامره على حين تناقش زوجها مناقشة الند للند. وكان ابنا أحمد يلتزمان أمامه حدود الأدب والطاعة على حين يتعاملان مع أبيهما بالحب والمرح والحرية. وأفلت الزمام من يدى محمود فقال لأخيه:

ـ يا لك من رجل ضعيف! كيف سمحت لابنك بهذا العبث؟!

فاستاء أحمد ولم يشأ أن يفرط فى احترام أبنائه له فقال:

ـ لا ضرورة للكلمات القارصة يا أخى..

فسأله بوحشية..

ـ هل تشكون من ذمتى؟

فبادر يقول:

ـ معاذ الله، ما هو إلا حقى فى تولى شئونى بنفسى..

ـ حقك فى تدمير نفسك بنفسك بوحى من حماقة أولادك؟

فقال عابسا:

ـ الله المستعان.

وتلا ذلك مناقشة مع عدنان الابن الأكبر لأحمد أعتبرها محمود بك قحة تستحق الزجر. وكان أن خاطب الشاب عمه بشىء من العنف اعتده الرجل جريمة. وسرت النار من فرد إلى فرد.

تخاصم الشقيقان، وانحازت كل زوجة إلى زوجها ممزقة الولاء لشقيقتها، وتبادل أبناء العم أسوأ ألوان السباب، وتهرأت عروة الأسرة، وأنطوى كل فرع على نفسه فى دوره بالسراى كأنه لا يعرف الآخر، وخابت مساعى رشوانة وعمرو وسرور فى إصلاح

البين، بل إن حامد بن عمرو ـ وكان يقيم مع زوجته شكيرة فى دور محمود وأسرته ـ وجد مشقة وحرجا ليحافظ على صلته الطيبة بآل أحمد خال أبيه. وانتقل أحمد بك إلى العزبة فى بنى سويف ليتسلم أرضه على كبر، فيزرع ما يزرعه منها ويؤجر ما يؤجره، ولقى فى ذلك من المتاعب ما لم يتصوره وتعرض لخسائر لم تجر له فى حسبان. وقبيل الحرب العظمى الثانية بقليل أصيب الرجل بالفالج وحمل إلى فراشه بالقاهرة فى انتظار النهاية. كان أول من هوى من الجيل الثانى العتيد، وكانت الأمراض ترشح بقية الجيل للحاق به بطريقة أو بأخرى، وكان عمرو مازال يقاوم الأجل، وفى الحال زار محمود بك وقال له:

ـ آن لك أن تنسى الخصام وأسبابه وأن تعود شقيقك.

وصمت الرجل متأملا ثم قال:

ـ ثمة أمور لا تنسى، ولكنى سأفعل ما يليق بى.. وما تدرى أسرة أحمد بك إلا ومحمود بك يستأذن فى الدخول. وجموا ووقفوا له متأدبين وقد دمعت أعينهم. وكان بصحبته زوجته وأبناؤه فتم التصافح وقال الرجل:

ـ يذهب الشقاق وينسى ويظل القلب ينبض بدقات القربى..

ومضى إلى أخيه المطروح فوق فراشه بلا حركة ولا نطق. انحنت فوزية هانم فوق أذنه وهمست:

ـ أخوك محمود بك جاء ليطمئن عليك.

فانحنى بدوره فوقه ولثم جبينه ثم استقام وهو يقول:

ـ العفو عند الرحمن، شد حيلك.

ـ ورفع الرجل جفنيه الثقيلين، وتبدى عجزه عن النطق، ولكن لم يشك أحد فى الأثر الطيب الذى اختلجت به وجنتاه المحتقنتان. وأسلم الروح عند منتصف تلك الليلة الحزينة.

أدهم حازم سرور

مهندس معمارى من خريجى عام ١٩٧٨، استقبل حياته العملية وهو ابن خمسة وعشرين فى القاهرة الحافلة بالمشكلات، ولكنه لم يعثر فى حياته بمشكلة واحدة. وتلاطمت حوله أمواج البشر والمركبات وانفجر هديرها مثل عزيف البراكين، ولكنه نعم فى فيلا والديه بالدقى بالهدوء والسكينة وشذا الورد والأزهار، وتحير جيله فى مسالك

الحياة بحثا عن الهوية والبيت والزوجة وتحقيق الذات ولكنه وجد مكتب والده الهندسى فى انتظاره ليشغل فيه مركز السيادة المرموق. وسيم مثل أبيه، ومثله أيضا ضعيف العين اليسرى لدرجة العمى، ولا يعرف من شئون الدنيا إلا فنه و لا ينتمى إلا لأحلام التفوق والثراء، ويكاد لرقة دينه أن يكون بلا دين عن غير إلحاد. وقالت سميحة هانم أمه مخاطبة أباه:

ـ خسرنا أخاه الأكبر، فدعنى أهيئ له حياة محترمة!

فقال برقة مشفقا كالعادة من إغضابها:

ـ هذا جيل يختار لنفسه فلا تتحدى كبرياءه.. ولكنها غضبت رغم رقته، اشتعلت كالعادة صائحة:

ـ فى أسرتكم عرق قذر أخشى أن يسوقه إلى طريق أخيه..

فأشعل سيجارة وقال لها:

ـ افعلى ما بدا لك.

ولكن أدهم كان مبادرا بأكثر مما تخيلت، فأخبرهما وهم جلوس فى حديقة مينا هاوس صباح يوم العطلة بأنه اختار شريكة حياته.. وفزعت أمه وحملقت فى وجهه متسائلة، وحدس الشاب مخاوفها فقال باسما:

ـ كريمة، فى السنة النهائية بكلية الحقوق، أبوها محمد فوزى مستشار بقضايا الحكومة..

هدأت أعصابها فيما بدا وتناولت ملعقة من الكاساتا وراحت تلوكها فى فمها المنقوشة حوافيه بتجعيدات السنين، ثم تمتمت:

ـ لا بد من التحرى..

فقطب أدهم، وقال الأب ملاطفا:

ـ مجرد إجراءات ولكنى متفائل:

وتبودلت زيارات، وحظى الاختيار بالرضا، وكان لا بد أن تعلق بنقد ما فقالت لحازم زوجها:

ـ أمها جاهلة فيما يبدو.

فعجب الرجل لقولها إذ أنها ـ سميحة ـ لم تحصل على البكالوريا ولكنه قال:

ـ لا أهمية لذلك.

وتم الاتفاق على كل شىء، واشترى حازم لابنه شقة فى المعادى بتسعين ألفا من الجنيهات، استقر ابنه وعروسه فيها فى نهاية العام.

ولم يكن أدهم يعرف من شجرة أهله إلا فرع أمه، جده محمد سلامة منشئ المكتب الهندسى وأخواله وخالاته. أما أهل أبيه فكان يعرف ـ ربما معرفة عابرة ـ أن جده سرور أفندى عزيز كان موظفا بالسكك الحديدية، وأن عمرو أفندى عم والده كان موظفا بالمعارف، وكان له عمات ولكل أبناء وبنات ولكنه لم ير أحدا منهم. يعرف أيضا أن أسرته من حى الحسين وهو حى يقترن فى ذهنه بالفقر والتأخر فلا حاجة به إلى تذكره، ولم يمر به إلا عابرا وهو فى سيارة. وكثيرا ما يلتقى بنفر منهم فى الميادين أو بعض الأماكن العامة فلا يعرفهم ولا يعرفونه. وتابع أبوه نشاطه بارتياح، واطمأن إلى أنه إذا تقاعد يوما ـ وهو قريب ـ فسيترك المكتب لرجل قادر. وقد قال له يوما بمناسبة ما ذاع وشاع عن الفساد:

ـ كل الفرص متاحة، لك العلم والذكاء والهمة فتجنب الانحراف، لا تسخر من النصيحة. إن كنت ممن يسخرون من القيم، فعلى الأقل احرص على السمعة واخش السجن!

أمانة محمد إبراهيم

مشرقة اللون، دقيقة القسمات، ناعمة الشعر، صورة جديدة لأمها مطرية لولا بروز ما فى ثنيتيها وهى آخر من أنجبت مطرية، وجاء ميلادها قبيل وفاة أحمد بأشهر. وأحبها خالها قاسم ولكنه لم يجرؤ على المطالبة بها كما فعل مع شقيقها الراحل. فجعل يحبها من بعيد حتى انتزعته مأساته الشخصية من هموم الدنيا جميعا. وماتت جدتها لأبيها وهى فى السابعة فحزنت عليها حزنا أكبر مما يجوز فى سنها. ودخلت المدرسة الابتدائية دون اعتراض بحكم زمنها، وبحكم زمنها أيضا انتقلت منها إلى المرحلة الثانوية. ومع أن مطرية لم يكن يشغل بالها إلا الزواج إلا أنها قالت لزوجها:

ـ كبنات أختى سميرة، الدنيا كلها تود أن تتعلم اليوم..

وكان محمد إبراهيم يسلم بذلك دون مناقشة. وكان قد رقى لدرجة مدرس أول مع بقائه فى مدرسة أم الغلام بشفاعة عبد العظيم باشا داود. والحق أن أمانة أبدت استعدادا طيبا للتعليم وتجلى تفوقها فى الرياضيات، وتراءت لها الجامعة كحلم سهل التحقيق. وحصلت على البكالوريا ولكن فى العطلة الصيفية التالية مرض أبوها مرضا لم يمهله فسرعان ما توفى وهو فى الخمسين. وورثت الأسرة البيت والمعاش وإيجار دكان فى أسفل البيت، وكانت الحرب العظمى الثانية قد انتهت ورحل من الجيل الثانى عمرو وسرور

ومحمود عطا، فشعرت مطرية بأنها تواجه الحياة وحيدة فى ذلك الوقت تقدم عبد الرحمن أفندى أمين الموظف بدار الكتب لطلب يد أمانة. رجل يكبرها بخمسة عشر عاما ذو سمعة طيبة وكان رأى أمانة أن الرجل مقبول ولكنها تود أن تكمل تعليمها. وقالت لها مطرية بعطف:

ـ ظروفنا تقتضى تفضيل الزواج.

وشاورت مطرية أمها فقالت راضية:

ـ الرجل المناسب أهم من الجامعة ألف مرة..

ونظرت إلى أمانة بإعجاب وقالت:

ـ كيف تهتم بالتعليم بنت فى جمالك؟

وقال لها خالها الشيخ قاسم:

ـ رأيتك فى المنام و أنت ترقصين فى قسم الجمالية!

وسألت مطرية أمها عن تأويل الحلم فقالت دون تردد:

ـ القسم هو الأمن والأمان، هو بيت الزوجية..

وجهزت مطرية أمانة بمهرها وثمن حليها وحلى جدتها لأبيها وما تبقى من مدخر قليل للمرحوم محمد إبراهيم وزفت إلى زوجها بشارع الأزهر. ووضح أن الحب أظل بجناحه الأسرة الجديدة، ولكن التوافق بين الزوجين بدا من أول الأمر أنه يقتضى عناء مريرا. المسألة أن عبد الرحمن أمين آمن بسيادة الرجل، وأنها كانت شديدة الحساسية تتهول فى وجدانها قرصة نملة فتخالها قرصة ثعبان. سرعان ما تبكى وتنفرد بنفسها أو تذهب من الأزهر إلى حارة الوطاويط. وتمضى بها مطرية لتفض الاشتباك فتتورط فى الخصام. وقالت لها شقيقتها الكبرى صدرية:

ـ ليس زوج بنتك بأسوأ من زوجى.. ومع ذلك لم يدر أحد بما ينشب بيننا، لا تتدخلى بينهما ولا تميلى مع أمانة مع كل خلاف..

وعلمت راضية بذاك النقار المتجدد فاستعانت بالتعاويذ والرقى وزيارة الأضرحة، وبدا أن الحال تنذر دائما بمزيد من الشقاق حتى لاح شبح الطلاق بوجهه القبيح كالوطواط الأعمى. وضاعف من عمق المأساة أن أمانة بمجرد أن أنجبت بكرها محمد استحوذت عليها الأمومة واختفت الزوجة الجميلة أو كادت. وأنجبت بعده عمرو وسرور وهدية، وابتعد شبح الطلاق، واستمر النقار، وانطبع الوجه الجميل بطابع أسى دائم.

وشرع الأبناء فى التعليم مع أول جيل لثورة يوليو، وعبروا جو بيتهم الكئيب فحلقوا فى سماوات من الآمال والمجد حتى غرقوا فى بحر الحيرة الذى ابتلع ضحايا ٥ يونيه ١٩٦٧، ومضوا يستقبلون حياة عملية بعد رحيل الزعيم الأول، وفى موجة النصر

والانفتاح فازوا بعقود عمل فى البلاد العربية حتى هدية لم تتخلف عن ذلك وكانت مطرية قد رحلت بدورها بعد معاناة طويلة لخيبة الأمل، بعد موت البكرى ورحيل الزوج قبل الأوان، وانحراف شاذلى، وسوء حظ أمانة، وسلم عبد الرحمن أمين بالواقع بعد طعونه فى السن، ونعمت أمانة بنجاح أبنائها وإن حل بها الكبر والسقام قبل الأوان. وبحكم الزمن شهدت رحيل الأعزة من الأخوال والخالات وبقية الأقارب، وقرأت كتاب الأحزان وهو يقلب صفحاته صفحة فى إثر صفحة. . واستمعت إلى نبوءات الشيخ قاسم المرسلة من وراء السحب لتجرى أحكامها فوق المصائر. .

أمير سرور عزيز

ولد ونشأ فى بيت القاضى، وكان بيت سرور أفندى يلاصق بيت شقيقة عمرو أفندى، كما كان أمير يقارب ابن عمه قاسم فى سنه، وقد شارك ابن عمه فى لعبه وجولاته، وانفصل عنه عقب مأساته على رغمه، وكان بخلاف إخوته قويا مع ميل إلى البدانة وحب للدعابة، وكان أشبه الجميع بعمه عمرو فى رجولته وتقواه وقد عرف ثورة ١٩١٩ كأسطورة من المظاهرات والمعارك والقصص فترعرع سعديا وطنيا مؤمنا. وحاول أن يقلد أخاه لبيب فى تفوقه واجتهاده فشق طريقه بنجاح ولكن دون أخيه بمراحل. وبسبب من تقواه وروحه المحافظة على الآداب والتقاليد ساءت علاقته بأخته جميلة التى كانت تكبره بأربع سنوات، لاعتراضه على ما اعتبره تحررا فى سلوكها لا يليق بسمعة الأسرة ولا بكرامة الدين. ولم ير أحد من أسرته رأيه فزادوا غضبه حتى قال له أبوه:

ـ أنت متعصب أكثر من اللازم فدع الأمر لى. .

وبدخوله المرحلة الثانوية بدأ يشارك فى المعارك الحزبية التى نشبت بعد رحيل سعد زغلول. اشترك فى المظاهرات التى قامت احتجاجا على دكتاتورية محمد محمود، وأصابته هراوة لبث بسببها فى المستشفى أسبوعين. وكان له ثلاثة أقارب من ضباط الشرطة فى مراكز حساسة بالداخلية، حامد عمرو ابن عمه، وحسن محمود عطا ابن خال أبيه، وحليم عبد العظيم داود ابن عم أبيه، وتشاوروا فى الأمر وكلفوا أقربهم إليه بتحذيره وترشيده، وكان حديث قدّمه حامد على مسمع وشهود من سرور عمه، وعمرو أبيه. قال مخاطبا ابن عمه:

ـ اسمك على رأس قائمة سوداء فى الداخلية. .

فقال أمير ضاحكا:

وكان الضحك عادته :

ـ لى الشرف . .

فأشار ابن عمه إلى اثر الجرح فى صدغه وقال :

ـ ما كل مرة تسلم الجرة .

وقال له أبوه :

ـ لا يتورعون عن فصلك من الكلية . .

وقال حامد :

ـ إنى وفدى مثلك ، ولكن لا بد من النصيحة . .

وكان الشاب لا يخفى احتقاره لآل عطا وآل داود ، وكان يشعر بفتور عواطف أبيه نحوهما . وتهكمه عند كل مناسبة بأصلهما . ومضى أمير يتألق فى سماء السياسة فى أوساط الشباب الوفدى ، ويقدم لزعماء الوفد ، ويطير بطموحه الوطنى إلى آفاق بعيدة . وحاول شقيقه لبيب وكان وكيل نيابة فى ذلك الوقت ـ أن يفرمل من اندفاعه ولكنه قال له :

ـ قد عرفت سبيلى ولن أتراجع عنه . .

فسأله بهدوئه الطبيعى :

ـ وإذا رفت ونحن فقراء كما تعلم؟

فقال بثقة :

ـ فى تلك الحال أعمل فى الصحافة .

ولكنه لم يرفت ولم يعمل فى الصحافة ولم يواصل جهاده السياسى . .

ففى أوائل عهد إسماعيل صدقى ، وفى طوفان المظاهرات والتى قامت احتجاجا على إلغاء دستور ١٩٢٣ ، أردته رصاصة قتيلا فى شارع محمد على . وقد تولى رجال الأمن دفنه مع كثيرين حتى لا تهيئ جنازاتهم فرصة لقيام مظاهرات جديدة ، ولم يسمح لشهود دفنه إلا لأبيه وعمه وأخوته ، وقد هز موته المبكر آل سرور من الأعماق ، وكذلك آل عمرو ، وتذكروا ما قاله الشيخ قاسم فى آخر زيارة لبيت عمه :

ـ سترفع العلم الأحمر .

فأولوا قوله بأنه إشارة إلى دمه المسفوح يوم استشهاده!

حرف الباء

بدرية حسين قابيل

ولدت فى شقة بعمارة حديثة بشارع ابن خلدون، فكانت بكرية حسين قابيل تاجر التحف بخان الخليلى وسميرة كريمة عمرو أفندى والرابعة فى ترتيب ذريته. وكان الحى يعبق برائحة اليهود المتفرنجين. وكانت الشقة تشرق بالأناقة وحسن الذوق ويسر الحياة. وبنمو بدرية جرت العذوبة فى ملامحها والرشاقة فى أطوار سلوكها. وكانت إذا زارت البيت القديم فى بيت القاضى بصحبة والديها لفتت الأنظار بنضجها المبكر.

ويضحك جدها عمرو أفندى ويقول:

ـ الظاهر أنها ستستعمل الحجاب والنقاب قبل الأوان.

فيقول حسين قابيل:

ـ ولكنها يا عمى ستواصل تعليمها إلى النهاية.

فتقول راضية ضاحكة:

ـ يا له من عالم مجنون. ولكنه لذيذ.

فتقول سميرة:

ـ لن نفرق بين البنات والصبيان فى شىء.

وتسألها راضية:

ـ وإذا جاء عريس فى السكة؟

فتقول سميرة دون تردد:

ـ عليه أن ينتظر أو يذهب مع السلامة.

فيقول الأب مداريا اعتراضه بابتسامة:

ـ سميرة.. أنت خواجاية غريبة فى أسرتنا!

وفعلا حين المراهقة رآها تاجر فى زيارة لدكان والدها فأراد أن يخطبها، ثم عدل لما عرف أن عليه أن ينتظر حتى تنتهى من تعليمها. ولكن جاء زائر آخر عجزوا عن التعامل معه. كانت قد جاوزت الخامسة عشرة، وكانت تجالس أمها وإخوة لها فى الشرفة، عندما سقطت على وجهها متصلبة الجسد مرتجفة الأطراف وفوها ينثر الزبد... آه... إنه الصرع. وكانت مأساة قاسم قد حفرت فى الوجدان.. ولكن هذا صرع شديد

العنف. واستدعى الطبيب ونصح بالراحة وتغيير الهواء ومزيد من لين المعاملة، وانقطعت عن المدرسة، وحلت فى عينيها النجلاوين، مكان النظرة المتألقة، أخرى خابية ذاهلة، وتلاشى الحوار وحل محله هذيان. واستغاثت سميرة بأمها، وقال حسين قابيل:

ـ لو كانت تملك نفعا لنفعت به ابنها.

ولكن سميرة لم تأخذ بذلك المنطق، وجاءت راضية ببخورها ورقاها وتعاويذها. وطافت بالبنت أضرحة الأولياء وآل البيت، ومضت الحال من سيئ إلى أسوأ، فلم يبق منها إلا خيال.

وفى صباح يوم من الأيام قالت بدرية لأمها:

ـ رأيت فى النوم أميرا يدعونى إلى نزهة فى القناطر..

فران التشاؤم على قلب سميرة، وعند الضحى احتضرت الفتاة ثم أسلمت الروح. هكذا فقدت سميرة بكريتها كما فقدت مطرية بكريها، ولكنها فقدتها وهى فى أوج صباها، وأحاط بها المعزون من آل عمرو وسرور، ومحمود بك عطا وأحمد بك عطا، وعبد العظيم باشا داود.

وشد ما حزنت راضية، وكانت تتذكر حال ابنتها وتناجى ربها قائلة:

ـ رحمتك يا رحمن يا رحيم.

وكان سرور أفندى يحنق عليها فى باطنه ويتهمها بأنها كانت السبب فى عدم اختيار إحدى كريمتيه لأحد أبنائها، فراح يشنع بها كعادته فى ذلك ويقول لزينب زوجته:

ـ كل ذلك موروث عن أسرتها فما من رجل بها أو امرأة إلا وبه مس من الجنون، وهى فى مقدمة الجميع.

بليغ معاوية القليوبى

هو آخر عنقود الشيخ معاوية القليوبى، وشقيق راضية زوجة عمرو أفندى، وقد ولد فى بيت الشيخ بسوق الزلط بباب الشعرية ,ولعله المولود الوحيد الذى أنجبه الشيخ بعد خروجه من السجن. ونشأ من صغره نشأة دينية، وألحقه أبوه بالأزهر فى سن مبكرة. ويزور شقيقته فى بيت القاضى فيلفت الأنظار بشبابه وجبته وقفطانه وعمامته، ويحدث فى أسرة راضية إثارة تجمع بين الاحترام والفكاهة معا، وهو بطبعه يشبع الناحيتين، فيرتل القرآن بصوت جيد استجابة لأخته، ويداعب البنات والصبيان بالملح. وكان ذا

وجه قمحي مستدير جذاب الملامح، ولا يخفى حبه للطعام اللذيذ، وخبرته بصنوف لا تقل عن خبرته بالدين الذى يدرسه. وتقول له راضية بلسانها اللاذع:

ـ الأصلح أن تكون طباخا من أن تكون عالما من علماء الدين كأبيك. .

فيقهقه قائلا:

ـ أنا رجل حائر بين أب عالم وأخت مؤاخية للعفاريت. .

فى ذلك الوقت كان الشيخ معاوية قد انتقل إلى جوار ربه، وقد تمت خطبة راضية على يديه ولكنه لم يشهد دخلتها. وعقب وفاته لم تجد غرائز بليغ من يكبحها. وفى جلسة جمعت راضية مع جليلة أمها العجوز فوق الكنبة، فى مدخل البيت الذى يتصدره الفرن وتقع البئر فى جناحه الأيسر، فى جلسة حزينة لاحظت راضية أن أمها غارقة فى بحر من الغم على غير عادة، ولما سألتها عما بها قالت:

ـ أتصدقين يا راضية؟. . أخوك الشيخ الأزهرى بات يرجع كل ليلة سكران فاقد الوعى؟

وفزعت راضية وهتفت:

ـ أعوذ بالله. .

ـ أنا. . أمامه بلا حول. .

ووجدت راضية نفسها أعجز من أمها حياله. . واستعانت بعمرو أفندى ولكن بليغ كان يتظاهر بالندم ويتمادى فى ضلاله. وأثار فيما حوله استهجانا عاما وسخطا متصاعدا، فترامت الأنباء إلى إدارة الأزهر، وانتهى الأمر بفصله وطرده بدون أن يحصل على العالمية. وجد نفسه ضائعا وبلا مورد. وكانت أمه تملك قطعة أرض فضاء فنزلت له عنها فباعها، وقرر أن يستثمرها فى بقالة الجملة. وسافر إلى أهل أبيه فى قليوب وراح يشترى الجبن والسمن، ويحملها إلى القاهرة ليوزعها على البقالين، وقامت الحرب العظمى الأولى فأثرى ثراء مذكورا وتحسنت أحواله. ومن يومها أخذ نجمه فى التألق والصعود. وفى تلك الفترة تزوج من أمينة الفنجرى أسرة ذات مال واحترام، ولما قامت الحرب العظمى الثانية بلغ غايته من الثراء، فشيد العمائر، وبنى لنفسه سرايا فى القبيسى عرفت فى الحى «بعابدين القبيسى» لعظمتها وفخامتها، ولم ينجب إلا ولدا واحدا رآه من كبار القضاة، وأثبت أنه تاجر ماهر، ولكنه لم يتخل عن الداء الذى طرد من أجله من الأزهر حتى آخر عمره. وكان يزور بيت القاضى فى الحنطور تارة أو السيارة فيما بعد، محملا بالهدايا، مشيعا فى الخلق الأثر الذى يتابعه خفية بسرور لا مزيد عليه. وكان يحافظ على صلاته وصومه وزكاته محافظته على كأسه، ويثابر على الاستغفار مثابرته على الغرور والفخار. وقد امتد به العمر حتى مشارف الخمسينات، بعد أن رحل أحمد

عطا وعمرو وسرور ومحمود عطا وجليلة أمه وأخواته نهيرة وشهيرة وصديقة فلم يبق بعد إلا أخته الكبرى راضية مؤاخية العفاريت . وقد أصيب بتليف الكبد ، ولا زم الفراش الوثير نصف عام ثم فارق الحياة وهو نائم ، أو هكذا خيل لزوجته أمينة الفنجرى .

بهيجة سرور عزيز

شهد ميدان بيت القاضى ملاعب طفولتها مع أخيها لبيب وأختها جميلة ، ومنذ نشأتها خالطت بنات وأبناء عمها عمرو . وجمع الطبع الهادئ بينها وبين أخيها الأكبر لبيب وابنة عمها سميرة ، وإن ماثلت فى العمر ابن عمها قاسم . تبدى وجهها فى هالة بيضاء كأمها ست زينب مشربة بحمرة . صافية العينين الخضراوين ، فى صوتها دسامة تذكر بصوت والدها سرور أفندى . وفى سجيتها رزانة فطرية جرت عليها تهمة ظالمة بثقل الدم ، ومحافظة على التقاليد وتدين حصناها ضد عبث الصبا . واكتفى فى تعليمها بالكتاب كبنات عمها وأختها جميلة . وتفرغت مثلهن لفن البيت من طهى وحياكة وما يجرى مجراهما ، وأخذت موضعها منذ وقت مبكر فى محطة الانتظار التقليدية ، وانتظار ابن الحلال . ولعل أنسب أحد لها من الأسرة كان حامد ابن عمها ، ولكن آل عطا المراكيبى استولوا عليه بوضع اليد مما أثار أشجان سرور أفندى وزوجته زينب هانم . وكانا قد مرا بالتجربة نفسها عندما راودتهما الأحلام فى زواج عامر من جميلة . وعلى ذلك قال سرور لشقيقه عمرو :

ـ ألم تفكر فى بهيجة قبل أن تهدى حامد لمحمود المراكيبى ؟

فقال له عمرو :

ـ نحن يا سرور فقراء على باب الله ونبحث لطيورنا عن ريش ، وابنتك جميلة والحمد لله ولن يطول انتظارها . .

من أجل ذلك تناقضت عواطف سرور حيال شقيقه الأكبر بين الحب والمرارة ، كعواطفه حيال أهله جميعا مما أطلق لسانه فيهم كالخنجر بلا رحمة ، ومما أنزله فى النهاية من قلوبهم منزلة لا تقارن بحال بالمنزلة التى حظى بها أخوه عمرو . وغضبت زينب زوجته لذلك الجواب الناعم المحبط الذى يلطمهم به للمرة الثانية ، وقالت بسخط شديد رغم أنها لم تخرج عن برودها السطحى :

ـ أنا أعرف السر وراء ذلك كله !

فقال سرور :

ـ المسألة أن أخى شديد الشعور بضعته بين أقاربه الأغنياء.

ويحترق دائما على التعلق بفروعهم العالية. .

ـ ولا تنسى راضية ربيبة الجان والسحر أنها تغار منى وتضن على بالخير.

لم تكثرت بهيجة لضياع حامد. . كانت تنفر من خشونته وابتذاله. فى الوقت نفسه راقبت بازدراء شديد العبث الفاضح الذى تمارسه أختها جميلة مع ابن عمها قاسم. كانت أختها ابنة ست عشرة وابن عمها فى الثانية عشرة أو يزيد قليلا، فما هذا الذى تضبطه أحيانا فوق السطح أو تحت بئر السلم؟! الأخلاق تأباه والدين يتوعده وهى تكتمه خوف العواقب. ولما خطبت جميلة وعقلت وجدت نفسها تفكر فى قاسم بدورها. لم تكن كأختها النزقة المجنونة. خفق قلبها بعاطفة رقيقة ولكن داخل قفص ذى قضبان صلبة من الحياء والتقاليد. وقد انتبه الفتى لها وقرأ فى عينيها الصافيتين النداء الصامت، وسرعان ما لبى مفعما بالشهوة والأمل فى أن يواصل معها العبث الذى انقطع بضياع جميلة. ولكنه وجد قلبا محبا وإرادة من فولاذ. وحام حولها كالمجنون حتى قالت لها أمها:

ـ إنه من سنك فلا يصلح لك.

لم تعترض ولكنها لم توافق فقالت الأم:

ـ أمامه مرحلة طويلة ولا تنسى أمه:

وشعرت بالتعاسة. ولما ألم بالفتى ما ألم فاعتبر مفقودا غرقت فى التعاسة حتى قمة رأسها. ولم تر بدا من العودة إلى. . محطة الانتظار. ولكن انتظارها طال دون سبب حتى وضعتها ألسنة الأسرة فى سلة واحدة مع دنانير بنت عمتها رشوانة. البنت جميلة ومثال كريم للأخلاق الفاضلة، فلمَ صد عنها الخطاب؟! وطال الانتظار وانكسار القلب حتى توفى عمها عمرو وأبوها سرور وأمها زينب.

وجاء عام ١٩٤١ وهى وحيدة فى بيتهم القديم المجاور لبيت عمها فى بيت القاضى، تعاونها أم سيد، وينزل بها أخوها لبيب كالضيف الذى أقصاه عمله عن القاهرة. وجعلت تقترب من الثلاثين وهى تمضغ اليأس ليل نهار، وليس لها من الدنيا إلا نصيبها من معاش أبيها. وفجأة ـ وكأنما بوحى ـ انتبه لها الشيخ قاسم من جديد وقال لأمه:

ـ أريد أن أتزوج من بهيجة!

واعتبرت راضية الطلب كرامة من كراماته، وأمرا تنزل يحيط به الغمام، فحدثت لبيب فى أول زيارة. ففكر الرجل طويلا. ابن عمه لا ينقصه المال ولكن. . ؟! وعرض الأمر على أخته فتلقى الموافقة. أهو اليأس؟ أهو الحب القديم؟. . أهو الخوف من الوحدة؟. .

وتم الزوج الذى تندرت به الأسرة طويلا فى ليلة تعرضت فيها القاهرة لغارة جوية طويلة وزلزلت أركانها بدوى المدافع المضادة . .

وانتقلت بهيجة إلى بيت عمها ، لأن قاسم أمر بألا يغادر بيته . ومضت أعوام دون أن تنجب ولكن قاسم طمأنها قائلا :

ـ سوف تنجبين ذكرا عندما يرضى القمر . .

وقد أنجبته فى عام ١٩٤٥ وأسماه أبوه النقشبندى . بدأ حياته التعليمية عقب قيام ثورة يوليو ، وثمل طوال عهد دراسته بالعظمة والمجد ، وحظى بوجه مشرق وقوام رشيق وذكاء لماح ، وتخرج مهندسا عام ١٩٦٧ ، وتقرر إرساله فى بعثة ، ودعت له راضية وهى فى قمة شيخوختها ، وقال له أبوه :

ـ الله معك ، إنى أودعك بلا دموع . .

وسافر النقشبندى إلى ألمانيا الغربية بعد مضى أشهر على ٥ يونية ، مهيض الجناح حزين الفؤاد ,وعلم هناك بموت الزعيم فلم يحزن ، ولما حصل على الدكتوراه عدل نهائيا عن العودة إلى مصر ، وعمل فى ألمانيا وتزوج من ألمانية ثم تجنس بالجنسية الألمانية ـ ولما علم أبوه بذلك قال مرة أخرى :

ـ الله معك ، إنى أودعك بلا دموع . .

وبعد رحيل راضية بقى قاسم وبهيجة فى البيت القديم وراء شجرة البلخ . التى شهدت حبهما القديم ، وما زال قلباهما ينبضان بالحب والعزلة . .

حرف الجيم

جليلة مرسى الطرابيشى

ولدت فى أواخر الربع الأول من القرن التاسع عشر فى باب الشعرية لأب كان يعمل فى مصنع الطرابيش الذى أنشأه محمد على فيما أنشأ من مصانع . وكان الأب قريبا للشيخ القليوبى وغير بعيد من بيته بسوق الزلط ، فخطب ابنته جليلة لابنه الشيخ معاوية الذى بدأ حياته فى ذلك الوقت كمدرس مبتدئ بالأزهر الشريف . هكذا صارت ربة البيت القديم بسوق الزلط وعرفت فى الحى بجليلة الطرابيشية . وكانت ذات قامة طويلة ، جعلتها تنظر إلى الشيخ من عل ـ الأمر الذى لم يغفره لها أبدا ـ سمراء رشيقة ذات جبهة عالية وعينين بنيتين نجلاوين ، وقد أنجبت له مع الأعوام راضية وشهيرة وصديقة وبليغ

وعرفت بأنها موسوعة فى الغيبيات والكرامات والطب الشعبى، وكأنما أخذت من كل ملة بطرف بدءا من العصر الفرعونى، ومرورا بالعصور الوسطى. وحاول الشيخ معاوية ما استطاع أن يلقنها أصول دينها ولكنه من خلال المعاشرة الطويلة أخذ منها أكثر مما أعطاها. فكان يطاوعها «حين المرض» وكلما دهمه خطب من خطوب الحياة، يسلمها رأسه لترقيه، أو يستسلم لبخورها، أو يردد وراءها بعض التعاويذ. وكانت صلبة، عنيفة إذا لزم الأمر، فكانت الجارات يعملن لها ألف حساب، وقد لقنت بناتها جميع ما لها من علم وخبرة، فاستجبن لها بدرجات متفاوتة، وبرعت راضية فى استيعاب ميراثها أكثر من الجميع وحظيت بحبها أكثر من أى من ذريتها بما فيهم الابن بليغ. وكلما أراد الشيخ معاوية التسلط عليها صمدت له بصلابة، حتى التهديد بالطلاق لا يخيفها، ولم تغب عنه قوة أخلاقها ومهارتها المنزلية الفائقة، فتراجع راضيا بالمهادنة والمشاركة. وكانت تقدس معتقداتها لدرجة التفانى والتصلب، وتجلى ذلك يوم وفاة زوجها الشيخ معاوية فى عصر الاحتلال. كانت خطبة راضية لعمرو قد أعلنت عقب اتفاق جرى بين الشيخ معاوية وعزيز زياد والد عمرو وصديق الشيخ. وعقب الوفاة بساعة واحدة، وصوات ست جليلة يذيع الخبر المشئوم، وصل نيشان العروس، أولى هدايا العريس، على غير علم منه بما حدث. وتقبلت جليلة الهدية ـ سمكة فى حجم ابنها بليغ ـ ونفحت حامليها بما قسم. وانقبض قلبها لمجيء النيشان وسط هدير الصوات، وأشفقت من عواقب ذلك على مستقبل أحب ذريتها إليها. ووقفت فوق رأس الشيخ المسجى بلحافه الأخضر وناجته من قلبها المكلوم:

ـ اغفر لى يا معاوية..

وهرولت إلى حجرة فى الجانب الشرقى للبيت تطل من بعيد على جامع سيدى الشعرانى وهى تقول لنفسها:

ـ لا يفك عقدة النحس إلا استقبال الهدية بما يليق.

وجففت دموعها ووقفت وراء النافذة وأطلقت زغرودة مجلجلة ترقص على أنغام فرح متدفق. ورجعت بسرعة إلى حجرة الجثمان وراحت تصوت من أعماق صدرها. ولم يغب ذلك عن بعض الآذان الماكرة، وتهامسن به، ثم تندرن به على مدى العمر وتنوقل كشهادة حية على غرابة أطوار المرأة المثيرة، والتى جمعت بين التقوى والحب والجنون. ولكن لم ينل خطب من بنيانها المتين ما ناله رحيل زوجها، حزنت عليه بالطول والعرض ولبثت تلهج بمآثره الحقيقية والخيالية طيلة عمرها الطويل. فقد عمرت حتى جاوزت المئة.. بعشرة أعوام، عاصرت فيها فترة من حكم محمد على وعهود إبراهيم وعباس وسعيد وإسماعيل وتوفيق والثورة العرابية وثورة ١٩١٩، ولم يرسب فى

أعماقها زمن كالثورة العرابية التى اعتبرت زوجها من أهم رجالها، وما أكثر ما روت من بطولاته وسجنه لأحفادها، وذهب بها الخيال فى ذلك كل مذهب حتى ليخيل للسامع من أبناء وبنات راضية أن الشيخ معاوية هو الذى عرّب محمد على، وهو الذى اعتمد عليه عرابى بعد الله، واختلطت صورة عرابى فى رأسها بعنترة والهلالى وآل البيت إكراما قبل كل شىء لذكرى الشيخ معاوية. ولم تسعد بذريتها بسوى راضية وأبنائها. وحظى عمرو برضاها، وإن لم تزر بيت القاضى إلا مرات معدودات بسبب طعونها فى السن، أما شهيرة وصديقة وبليغ فقد تركن فى قلبها جراحا لا تلتئم. أنت تقول لبليغ وهو ملقى مخموراً على كنبة المدخل:

ـ أنت سكير عاص وعار على زيك الشريف..

ولما أورقت شجرته وصار تاجرا مرموقا قالت له:

ـ وهبك الله الثروة ليمتحنك فاحذر امتحانه..

وكان بليغ يحبها ويشك فى سلامة عقلها، وقد رجعت شهيرة إلى بيتها طريدة فملأته قططا، وأما صديقة فوا أسفى عليك يا صديقة..

وكان قاسم أحب الأحفاد إلى قلبها. يغمرها بقبلاته، وينصت لحكاياتها، ويصدقها بقلبه وحواسه، ولما حصل ما حصل، لم تجزع وقالت لراضية:

ـ أبشرى، ربنا وهبك وليا..

وفى السنوات الخمس الأخيرة من عمرها نهاية الربع الأول من القرن وعند مشارف الثلاثينات ـ أقعدها الكبر، وسدت المنافذ بينها وبين الوجود ففقدت السمع والبصر، وبقى لها الوعى فكانت تعرف الأحباب بأناملها، وقامت شهيرة بخدمتها ما استطاعت حتى ضاقت بها، وكانت أحن على القطط منها على أمها. وكانت تشكوها إلى راضية كلما قامت بزيارة لها، فتعاقب راضية شقيقتها وتذكرها بوصية الرسول بالأم فتقول شهيرة:

ـ ما أسهل الوعظ، ولكنك تعيشين مكرمة فى بيتك وتلقين علىّ وحدى تنفيذ الوصية!

وفى إحدى الزيارات وجدت راضية المدخل يموج بالقطط، تموء وتتداخل بأسلوب وحشى ينذر بالدهشة، ورأت جليلة ملقاة على الكنبة مسلمة الروح، وكانت شهيرة نائمة فى الدور الأعلى..

جميلة سرور عزيز

لم ير ميدان بيت القاضى وأشجاره المثقلة بأزهار «ذقن الباشا» أجمل منها إلا تكن مطرية ابنة عمها عمرو. وهبتها أمها بشرتها العاجية وعينيها الخضراوين النجلاوين، وفاقت أمها بفيها الأنيق كالقرنفلة وجسمها المدمج. وبخلاف أمها كانت تموج بالحيوية والخفة واستمدت من غرائز أبيها لفحات حارة خضبت وجنتيها بماء الورد الأحمر، وسبقت زمنها لا بالتعليم فلم يجاوز نصيبها منه محو الأمية كأختها وبنات عمها، ولكنه بالتحرر التلقائى المنطلق بقوة نضج مبكر ونداء الأشواق المبهمة، فتلوح فى النافذة لتسقى أصيص الورد، أو تخطر بنصف نقاب فيما بين بيتها وبيت عمها المجاور، أو تلاقى النظرات الجائعة بدلال متمرد، فى طفولتها كانت تجول فى الميدان بصحبة أخيها الأكبر لبيب، وانضم إليهما بعد سنوات قاسم. كانت تكبر قاسما بسنوات ولما ناهزت الحلم لم تجد سواه لعبة لقلبها المتحفز. وكلما خلت به لاعبته لتوقظه من براءته فتبعها فى حيرة ثملة ممتعة كرؤية جمال الفجر لأول مرة، ولمس بأنامله المتشنجة جواهر حال الجهل بينه وبين معرفة قيمتها. ولما قارب الثالثة عشر سقط فى الشهد قبل الأوان. وتفتح على راحتها الناعمة المخضبة بالحناء كالوردة وأخلد بكل عذوبة إلى نفثات صدرها المضطرم، وبسبب من تلك الرعونة تصدى لها أخوها أمير، وعنفها حتى ضاقت به وبكت. وقالت له أمه:

ـ تذكر أنك أخوها الصغير. .

فقال لها:

ـ سمعتنا!

فقالت زينب بهدوئها الذى لا تخرج عنه:

ـ إنى أعرف بنتى تماما وهى مثال للأدب. . .

ولما جاوز أمير حدوده قال له سرور أفندى:

ـ دع الأمر لى. .

وكان سرور أفندى يميل إلى التسامح المعتدل، وكان فى ذلك الوقت يتساءل عما جعل عامر ابن أخيه عمرو يميل إلى عفت بنت عبد العظيم داود دون جميلة بنت عمه. ويقول لزوجته:

ـ الله يخيبه. أليست بنتنا أجمل؟

فتقول زينب ساخرة :

ـ أليس هو ابن راضية المجنونة؟!

ويقول سرور بمرارة :

ـ أخي يزعم أنه من أهل الطريق، ولكن رغبته فى القرب من أهله الأغنياء تفوق رغبته فى القرب من الله!

والحق أن جميلة أخافت الأسر المحافظة من الجيران فأحجمت عنها رغم جمالها، حتى قيض لها حظها ضابط شرطة جديدا بقسم الجمالية يدعى إبراهيم الأسوانى. كان ممشوق القوام طويله غامق السمرة، رآها فأعجبته، ووجد سمعة البنت طيبة، فخطبها بلا تردد. وما يدرى قاسم إلا و فاتنته ومعلمته تتغير بين يوم وليلة كتفاحة اجتاحها العطب. اختفت وحل بها وقار، لا يحل إلا مع الزمن الطويل، وزفت إلى العريس فى مسكنه بدرب الجماميز فى حفل أحيته الصرافية والمطرب أنور.

وما لبثت الأسرة الجديدة أن غادرت القاهرة بحكم عمل الزوج، فمضت أعوام وأعوام وهى تشرق وتغرب دون إنجاب، وبعد أنا مات سرور أفندى قبل أن يرى أحفاده من جميلة. وفى أثناء ذلك حصلت لإبراهيم الأسوانى أمور. فقد كان وفديا، وافتضحت عواطفه فى تراخيه بالقيام بواجبه فى عهود الديكتاتوريات، حتى انتهى الأمر بفصله. وكان قد ورث عشرين فدانا فرحل بأسرته إلى أسوان، وانضم إلى الوفد جهرا، وانتخب عضوا بمجلس النواب، وثبت عضوا دائما بالهيئة الوفدية. وأنجبت جميلة بعد العلاج من عقمها خمسة ذكور عاش منهم سرور ومحمد، وكان الزواج قد حولها من الرعونة إلى رزانة عجيبة وجدية فائقة وأمومة سخية، وكأنها قد تمادت فى بدانتها إلى درجة يضرب بها المثل. ولم يكن إبراهيم الأسوانى يخلو من انفعالات وأحوال ولكنها كانت كالمحيط الذى يستقبل الأمواج العالية والعواصف الهادرة ثم يهضمها فى صبر وأناة كى يعود إلى هدوئه الشامل وسيادته الكاملة. فهذا يصدق أنها هى التى نصحت أمانة بنت مطرية مرة فقالت لها :

ـ على الزوجة أن تكون مروضة للوحوش!

ولما قامت ثورة يوليو أيقن إبراهيم الأسوانى أن حياته السياسية قد انتهت، فاعتزل فى أرضه وتفرغ للزراعة، وكان ابناه سرور ومحمد قد صارا ضابطين طيارين، وانقرضت هذه الأسرة بقضاء لا راد له. أما إبراهيم الأسوانى فقد قتل فى تصادم بين قطارين عام ١٩٥٥، كان فى الخامسة والخمسين وجميلة فى الخمسين. وأصيبت طائرة سرور فى حرب ١٩٥٦ ولقى مصرعه، ولحق به أخوه محمد فى حرب ١٩٦٧، وأنقذت جميلة من الوحدة والأحزان عام ١٩٧٠ فماتت بسرطان المعدة وهى فى الثالثة والستين من عمرها. وكانت حين وفاتها كأنها مقطوعة من شجرة لا أهل لها.

حرف الحاء

حـــازم ســـرور عـــزيز

من أيامه الأولى نشأ عزوفا متوحدا يقف أمام بيته مبتعدا عن أخوته وأبناء عمه يتفرج على الرائح والغادى بين حارات الميدان. لم يدخل بيت عمه عمرو مرة واحدة، وكان عمرو يقول لسرور ضاحكا:

ـ ابنك حازم عدو للبشر . .

وكان وسيما كأمه، قصيرا كبهيجة، وفى عينه اليسرى ضعف طبيعى بلغ بها العمى، ولم ير ضاحكا أو منفعلا قط. وتجلت نجابته منذ كان فى الكتاب فأوشك أن يعيد سيرة أخيه الأكبر لبيب، وانحصر فى ذاته فلم يعرف هدفا فى الحياة سوى النجاح والتفوق، وجهل وجوده جميع أهله من آل عطا وآل داود. ولتفوقه لم يكلف أباه مليما فى تعليمه، حتى الهندسة دخلها بالمجان بكل جدارة وتبين لأخيه أمير أنه لا يعرف اسم رئيس الوزراء ولا ينظر فى الصحف ولا تصل إلى وجدانه أى موجة من بحر الأحداث التى يضطرب بها الوطن. وسأله:

ـ أتظن الدنيا مذاكرة فحسب؟!

ولكن لم يكن بوسع أحد أن يجره إلى مناقشة على الإطلاق. ولما رحل أمير ضحية لجهاده ذهل وصمت ووجم ولم ينبس بكلمة ولم يذرف دمعة، وسرعان ما واصل حياته وتخرج مهندسا فى عام ١٩٣٨، ولم يتجه نحو الحكومة بسبب عجزه، ولكنه وجد وظيفة أفضل فى شركة مقاولات الدكتور محمد سلامة الذى كان أستاذا له فى المدرسة. كان الدكتور المهندس يعجب به ويحبه ويرى فيه مثالا للذكاء والعمل والبعد عما يثير المتاعب. وكان يزور أستاذه فى فيلته بالدقى لإنجاز بعض الأعمال، وهناك عرف كريمته سميحة. كانت على درجة من الجمال مقبولة ولكنها كانت كريمة مديره وأستاذه وهو الأهم. ولم يغب عن فطنته أن البك يشجع تعارفهما، وأدهشه ذلك لما يعرفه الرجل من بساطة أصله وفقره. وركبه الغرور حينا من الدهر، إلى أن تم الزواج وأقام فى شقة بعمارة يملكها الدكتور المهندس وحسب أنه ملك العالمين. هناك وضحت له الحقيقة وجابهته بوجه منذر بالخطر، بأن العروس ذات جهاز عصبى لا يخلو من خلل، وسرعان ما أسفرت عن طبيعة لا يمكن مداراتها. كانت عاصفة تهيج وتنتشر لأوهى الأسباب، وربما بلا سبب البتة، وكان قد خلق بجهاز مانع للصواعق فطرى اقتبسه من ست زينب

أمه، وكان يعيش برأسه لا بقلبه، فقال لنفسه وهو ملتف بالروب الحريرى الكحلى وغائص فى الفوتيل بحجرة المعيشة:

ـ ليكن، فهى زيجة على أى حال عادلة..

ضمنت له مستقبلا يعز عن الأحلام، وهو يملك من الذكاء والهمة ما يجعله قادرا على استثماره على خير ما يمكن أن يكون، ولو كانت سميحة عروسًا كاملة أو حتى عادية لاستحقت زوجا من طبقتها فى درجة عالية أو فى السلك السياسى، ولقد أهداها أبوها إليه بعد تفكير وتدبر وعليه أن يقبل الهدية بتفكير وتدبر كذلك، وقال لنفسه أيضا:

ـ إن تكن مريضة فأنا الطبيب!

وقد كان.

وتتابعت وفيات آل سرور وعمرو الهامة قبيل الحرب العظمى الثانية، وفى أثنائها بدأت برحيل عمرو، فسرور، ثم زينب. وكانت سميحة قد ضاقت بزيارات أمه وأبيه وأخوته فقررت فى لحظة جنون ألا تشارك فى العزاء! ونظر إليها بتوسل وقال:

ـ ولكن..

وضمن لهجته كل المعانى المطلوبة ولكنها قالت بحدة:

ـ لن أذهب إلى ذلك الميدان الملىء بالحشرات، ولا أحب أن يجيئنى أحد منه..

ولم يغضب ولم ينبئ وجهه عن شىء، وسرعان ما انقطعت العلاقة بينه وبين أهله. اندمج فى أهلها كظل لها ونسى أصله. غير أن طاعته العمياء لم تكفل له السلامة. فعلى أثر سهرة فى شقته شهدتها حماته وأختها وبعض الأقارب، قالت له لما انفردا بنفسيهما:

ـ لم تعجبنى، غلب عليك الصمت، وبدرت كلماتك القليلة بلا معنى..!

فقال معتذرا وبأسلوب غاية فى الأدب والرقة:

ـ الكلام الكثير يوجع رأسى، ولم يجر ذكر لأى موضوع هام..

فصرخت:

ـ إن لم يكن الكلام فى الهندسة يصبح لغوا..؟

فلاطفها بابتسامة وإذا بها تثور وتهدر بأقسى الألفاظ ثم تقبض على فازة ثمينة وتقذف بها الجدار فتتحطم وينهال حطامها على غطاء الكنبة المطرزة بالكانافاة. ونظر إليها باسما مشفقا ثم قال بحنان:

ـ لا شىء فى الوجود يستحق أن تجشمى نفسك من أجله هذا الغضب كله.. ولكن الشقة شهدت أيضا العناق والأبوة والأمومة، وقد أنجبت له حسنى وأدهم، وعلا مركزه بثبات وجدارة فى الشركة، وزاد اعتماد محمد بك سلامة عليه مع الأيام

حتى حل محله ـ بعد وفاته ـ نيابة عن سميحة، وشارك فى رأس المال بمدخراته، وازدهرت الشركة فى عهده أكثر من ازدهارها الأول، وشيد حازم فيلا فى الدقى انتقلت الأسرة إليها، وقد هضم نزواتها جميعا ببطولة خارقة، ولكن بعض النزوات بدت عسيرة فى هضمها. مثال ذلك أن محمد بك سلامة كان عضوا فى الهيئة الوفدية، على حين أن حصيلة حازم من السياسة كانت صفرا، ولكنه بإزاء حماسها أعلن فى البيت على الأقل وفديته. وهى لم تقنع بالإعلان البارد، فرجع يوما إلى شقته فرأى صورة النحاس معلقة مكان صورة سرور أفندى أبيه. نظر واجما دون أن يجرؤ على إبداء أى ملاحظة فقالت:

ـ إنى أتشاءم من صور الأموات، وهذه صورة زعيم الأمة.. ولم يبد أى ملاحظة حتى بعد أن رحل محمد بك سلامة والنحاس وظلت صورتاهما بمكانهما! ويوم انتقلت الأسرة إلى الفيلا الجديدة ضحكت ضحكتها العالية وقالت:

ـ احمد ربنا يا غبى، رفعناك من الحضيض إلى القمة..

فقال باستسلام:

ـ الحمد لله على كل شىء..

فقالت مقطبة:

ـ ولا تنس نصيبى من الشكر..

فقال ببروده المعهود

ـ أنت الخير والبركة..

ولما قامت ثورة يوليو خاف أن تكون وفديته المزعومة قد جاوزت جدران مسكنه ولكنه لم يتعرض لسوء، ودأب على مدح الثورة فى شركته، والحملة عليها فى بيته مجاراة لسميحة، وهو يقلب عينيه فيما حوله مستعيذا بالله. ولدى كل مناسبة تقول بحنق:

ـ هل سمعتم عن بلد تحكمه مجموعة من الكونستبلات؟!

فيهمس فى أذنها بتدخل:

ـ احذرى الخدم.. والجدران.. والهواء..

وشد ما فرحت بالعدوان الثلاثى وشد ما خابت آمالها. وفى ٥ يونيه أغلقت على نفسها حجرتها وراحت ترقص، وساعة بلغها نبأ وفاة الزعيم زغردت حتى هب حازم واقفا وهو يصرخ لأول مرة:

ـ أنا فى عرضك!

وكانت الشركة قد أممت، ولكن سائر مقتنيات الأسرة لم تمس، وفى عهد السادات

بلغ حازم ذروته الحقيقية، وفتح مكتبا هندسيا وبات فى عداد أصحاب الملايين. وقالت سميحة عن الزعيم الجديد:

ـ حقيقة أن وجهه أسود ولكن قلبه أبيض..

ولكن لعل هزيمة سميحة على يد ابنها حسنى فاقت هزيمتها السياسية ضرارة. من بادئ الأمر أرادت أن تسيطر على الذرية كما سيطرت على الأب ولكنها سجلت خيبة كاملة، أما حسنى فقد حطم السدود والقيود، أما أدهم فلم يخيب أحلامها بعد أن صنع حياته بقراره المستقل عن الجميع. ولم تجد سميحة من تصب عليه غضبها سوى حازم فقالت له باحتقار:

ـ لولا ضعفك وغباؤك لما كان ما كان..

وسقطت فى كبرها فريسة للاكتئاب حتى اضطرت إلى قضاء شهر فى مصحة أعصاب بحلوان. وبقى حازم صامدا رغم إصابته بالسكر، بل لعله تكيف تماما مع معاشرة المرأة المريضة. أجل شد ما تمنى موتها فترة طويلة من عمره خاصة بعد وفاة حميه. كانت تراوده أحلام غريبة، فيراها مرة ضحية حادث للسيارة، أو مرض عضال، أو غريقة فى البحر الأبيض، أو.. أو..

ولكنه كف عن أحلامه، واستوحش البيت حين إقامتها بالمصحة، واعتبر نفسه قد حقق حلمه الأبدى فى النجاح والثراء..

حامد عمرو عزيز

منذ نشأته الأولى بدأ نبتا شاذا فى أرض أسرته. ولعل عمرو أفندى لم يتعب فى تربية أحد من ذريته كما تعب فى تربيته، أحب اللعب والعراك واكتسب ثروة من قاموس أوباش الحوارى والأزقة، وطالما مارس عنفه مع أخواته برغم أن ترتيبه كان السادس بينهم. ونتيجة لذلك تعثرت خطواته فى الكتاب والمدرسة، وكثيرا ما يرجع إلى البيت القديم ممزق الجلباب أو دامى الأنف فيتعرض لمجابهة أخيه الأكبر عامر، ولم يكن يتورع عن ضربه أحيانا، بخلاف عمرو أفندى الذى كان يقنع بالزجر والنصيحة والتهديد، وتظل راضية من أجله فى تعامل متواصل مع الرقى والتعاويذ وتنذر النذور لأضرحة الأولياء.

وكان يضمر أخبث النوايا لبنات الأقارب مثل جميلة وبهيجة ابنتى عمه. ودنانير بنت عمته رشوانة، لولا سوء سمعته الذى حمل الأمهات على الحذر منه. وامتاز أيضا بين آله

بضخامة فى الجسم وكبر ووضوح فى القسمات أضفت عليه حال رجولة مبكرة. وكان حلمه الأثير أن يقود عصابة مثل مشاهير الفتوات الذين يهدمون اللذات فى حيه العريق. ولما حصل على شهادة الكفاءة بعد أكثر من محاولة نصح محمود عطا المراكيبى والده بأن يختصر الطريق ويدخله مدرسة الشرطة، قال:

ـ هو الحل الذى وجدته لابنى حسن.

ورحب عمرو أفندى بالنصيحة فتعهد محمود عطا بتذليل العقبات بشفاعته التى لا ترد، باعتباره من الأعيان المرموقين. هكذا دخل حامد المدرسة مع حسن ابن خال أبيه فى عام واحد. وجاهر محمود برغبته فى تزويج حامد من كبرى بناته شكيرة فسر عمرو بتلك الرغبة التى توثق علاقته بآل المراكيبى، كما وثق ابنه عامر علاقته بآل داود. هيأ الزواج لفرعه الذابل من أسباب المجد ما يكن يحلم به وعزز موقعه فى الشجرة الشامخة فشعر بالرفعة والرضا. وسر حامد أيضا رغم منظر خطيبته الذى لا يسر لطموحه إلى طيبات الحياة. راضية وحدها امتعضت وقالت:

ـ يا له من اختيار يستحق الرثاء..

فقال لها عمرو:

ـ احمدى الله يا ولية..

فقالت بحدة:

ـ الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه!

فقال الرجل برجاء:

ـ البيوت السعيدة تقوم سعادتها على الأصل والأخلاق..

فقالت بسخرية.

ـ والمال!.. آه يا نارى!

وأفضى سرور أفندى باستيائه إلى شقيقه، وراح يفسر الأمر فيما بينه وبين نفسه برغبة أخيه الجامحة فى التعلق بأذيال أقاربه الأغنياء، وبأن محمود عطا اختار بنفسه عريسا لابنته كحامد لشعوره العميق بتفاهة ابنته، وبأنه إذا لم يظفر لها بشخص بسيط مكبل بأفضاله فلن يتقدم لها إلا بلطجى ممن يطمعون فى مالها واستغلالها ونهبها. ولما اتهمت ست زينب راضية بأنها لا تحب لهم الخير قال لها سرور:

ـ المسألة أكبر من راضية، إنها صفقة يبدو حامد فى ظاهرها هو الرابح، والحقيقة أن الرابح الحقيقى هو المراكيبى وابنته التى ما كانت لتجد عريسا يجبر الخاطر، وأخى رجل طيب ومغفل..

ولم تسر واحدة من بنات عمرو، وقالت صدرية معلقة على الخبر:

ـ سيتزوج أخى من رجل كامل الرجولة!

ولما قامت ثورة ١٩١٩ كان حامد فى السنة النهائية، وقد مال قلبه إليها بمجامعه، واتهم بالتحريض على الإضراب، وحوكم، وأنزل إلى السنة الأولى من جديد، وكان الجميع يستبقون فى بذل التضحيات فلم يحزن عمرو أفندى كثيرا، وحمد لله على أنه لم يفصل ويلق به فى الطريق. ولما تخرج ضابطا، كانت مكانة محمود بك قد ارتفعت بإعلان ولائه للملك، فأمكنه أن يلحق حامد بالمراكز الرئيسية فى الداخلية مع ابنه حسن، وسرعان ما زفت إليه شكيرة دون مطالبته بأى تكاليف فعلية، فانتقل من البيت القديم ببيت القاضى إلى سراى ميدان خيرت ليحتل هو وعروسه جناحا صغيرا فى الطابق الأوسط الخاص بآل محمود.

نقلة ثورية بلا شك، ربيب الحوارى فى زواياها الكاسدة يجد نفسه بين يوم وليلة فى سراى سامقة، تحيط بها حديقة غناء، وتزينها التحف والتماثيل والأثاث الفاخر، وتطربها لغة الهوانم الرفيعة بأعذب ألحانها، وتحفل موائدها بأطيب الأطعمة، وتعبق إلى جانب ذلك بمناخ دينى مهذب لا أثر فيه لغيبيات راضية الخارقة. وجد حامد نفسه فى قفص يحرسه رجل جبار هو محمود عطا المراكيبى وهانم غاية فى العذوبة والجمال هى نازلى هانم، أما شريكة حياته وقريبته فكادت تكون صورة من أبيها فى تكوينه الصلب ونسخة من أمها فى التهذيب والورع. ولم يكن بوسعه أن يغير من طبعه، فقد تعامل فى صباه مع البلطجية وها هو يواصل تعامله معهم كضابط شرطة كلما تمادوا فى انحرافهم، ولم يكن من الممكن أن يولد حب فى خليته الصغيرة، وما جرب فى حياته سوى اللذة العابرة، ومنذ الأسابيع الأولى فى حياته الزوجية أسفرت طبيعته عن حقيقتها فى الكلمة والفعل. أجل لم ينس القفص والحارسين، كان يهاب محمود بك أكثر من أبيه، ويقف أمامه كما يقف أمام رؤسائه العظام بالداخلية، فكبح جماحه، على قدر استطاعته، وروض نفسه على الرضا بواقعه، ولكن العادة قاهرة واللسان خائن. وقد ارتعبت العروس وهمست لأمها: إنه غاية فى الابتذال، أكله وشربه وحديثه..

وكانت الهانم ست بيت بالمعنى الكامل. طالبتها بالحكمة والصبر، وقالت لها:

ـ كل ذلك لا يمنع من أن يكون رجلا صالحا..

كانت خير وساطة بين الطرفين ولم يدر أحد شيئا عما يدور فى الجناح الجديد. سرعان ما اعترضت الهانم مشكلة جديدة نشأت عن الكراهية المتبادلة بين راضية وشكيرة، لم تكن راضية تدرى كيف تدارى عواطفها، وكانت شكيرة لا تمارس النفاق. وكانت المودة بين نازلى هانم وراضية كاملة، ولكنها كانت فى أعماقها تؤمن بخطورتها، وقالت لابنتها:

ـ حذار، حماتك عليمة بفنون السحر وأسرار الأولياء، وأنا أصدق ما يقال من أنها مؤاخية للعفاريت، أعطيها حقها الكامل من الاحترام والمجاملة . .

وكانت تتوسل إلى راضية قائلة :

ـ من أجل عشرتنا وحبنا اصفحى عن ابنتى وامسحى أى خطأ منها فى وجهى . .

فى خضم ذلك الاضطراب أنجبت له وحيدة وصالح وحظيت من حياتها المتوترة بشىء من العزاء، رغم أنها حياة لم تعرف الحب ولا السلام، كما أن منغصاتها انحصرت فى أضيق الحدود. ولما وقع الشقاق بين الشقيقين محمود وأحمد، وتمزقت وحدة الأسرة، خشى عمرو أن يجرف ابنه تيار عداوة لا شأن له بها. وكان عمرو يسعى لإصلاح ذات البين، ويحافظ على علاقته الطيبة بخاليه فنصح حامد بأن يلتزم بموقفه هو ـ عمرو ـ وألا يقطع صلته بأحمد بك، وسعى لدى محمود حتى انتزع منه موافقته على ذلك، وارتاح حامد لذلك إذ كان يميل فى أعماقه إلى خاله أحمد ويؤمن بعدالة مطلبه. وفى الفترة السابقة للحرب العظمى الثانية وما تلاها من أعوام، رحل عن الدنيا أحمد وعمرو ومحمود فشعر حامد بتحرره من الرقباء، وبلغت علاقته بزوجه الغاية من السوء. وقد أشقى ذلك فيمن أشقى وحيدة وصالح فتمزقا بين والديهما. أجل كانت شكيرة صاحبة الأثر الأكبر فى تربيتهما فنشأ نشأة مهذبة وعرفا بالاجتهاد والتدين، ولم يعفيا والدهما قط من الاتهام وأدانا معاملته الفظة لأمهما وأن حافظا ما استطاعا أمامه على الحياد والأدب. ولكنه تلقى نجواهما من نظرات عينيهما، وشعر بالغربة والغضب. وظل حامد على إيلاء حماته بما تستحقه من احترام ومجاملة، ولكنها اضطرت أن تقول له :

ـ لقد أدميت قلبى بسوء معاملتك لشكيرة . .

وكان يحقد على شكيرة ويتصور أنها التهمت خير سنى حياته بغير حق. وتلاحيا مرة وتبادلا كالعادة كلمات قاسية، وإذا بها تصرخ فى وجهه وهى تبكى :

ـ إنى أكرهك أكثر من الموت . .

وأقدم على الحلم الذى راوده طويلا فطلقها، وقال معتذراً لقريبه وصديقه وزميله حسن شقيقها.

ـ معذرة، لم أعد أحتمل، وكل شىء بمشيئة الله . .

ولم يعد إلى البيت القديم فى بيت القاضى إلا شهرا واحدا. ولخصت راضية موقفها قائلة :

ـ ما كان يجب أن يتم ذلك الزواج، ولكن ما كان يحق لك الطلاق إكراما لوحيدة وصالح . .

رغم إنها اتهمت فى السراى بأن سحرها كان وراء الطلاق كما كان وراء فشل الزواج من أول يوم.

وانتقل حامد إلى شقة فى عمارة جديدة بشارع المنيل دله عليها قريبه حليم بن عبد العظيم باشا داود حيث كان يسكن شقة أخرى بها. وفى الخمسينات وهو يقترب من الخمسين أعجبته أرملة فى الأربعين تدعى عصمت الأورفلى فتزوج منها وجاء بها إلى شقته بادئا حياة جديدة. ووهنت علاقته بوحيدة وصالح وإن لم تنقطع. ولما قامت ثورة يوليو أحالته إلى المعاش ضمن ضباط الشرطة الذين اعتبرتهم أعداء للشعب، علما بأنه حافظ على وفديته فى قلبه دائما، ولكن الثورة عدت الوفديين أعداء للشعب أيضا. وأنطوى على نفسه حينا فى مسكنه مع عصمت حتى تبين له أن حكيم ابن شقيقته سميرة من المقربين ومن أصحاب النفوذ، فطلب إليه أن يفعل شيئا من أجله، وفعلا تعين مدير علاقات عامة بعمر أفندى بخمسين جنيها شهريا إلى معاشه. وطابت له الحياة نوعا ما، ووجد فى الزوجة الجديدة امرأة محنكة تعاملت بمكر حسن مع نزواته وابتذالاته وهيأت له حياة مستقرة.. لا انفصام لها فيما بدا. ولم ينقطع أبدا عن زيارة البيت القديم والتودد الصادق لأمه وأخيه قاسم، وكان يجد فى غرابة أطوارهما ما يسره ولا يكف عن ممازحتهما. يترك جبينه لأمه تلثمه بحنان، ويسلم رأسه لها لترقيه وتتلو عليه الصمدية وبعض محفوظاتها من الأوراد، ويسأل أخاه عن الطالع والمستقبل، ثم يجول فى ربوع الصبا ويزور الحسين قارئا الفاتحة، وكان ذلك يمثل الغاية والنهاية فى حياته الدينية. وكان أيضا يزور بيوت أخواته وبيت أخيه عامر وآل داود. وفى تلك الفترة من حياته توثقت علاقته بحليم بن عبد العظيم باشا، وقد جمع بينهما نفس المصير على يد الثورة، كما توثقت صلته أكثر بابن عمه لبيب، وكان يشارك الأول فى تدخين الحشيش وكان يشارك الأخير فى السكر، ثم يؤاخى بين أرواحهم نقد الثورة والسخرية برجالها وتذكر أيام العز الماضية. لم ينغص عليه صفوه إلا شعوره المطارد بأن وحيدة وصالح لا يكنان له من الحب ربع ما يكنه لهما منه، وأنهما يؤثران أمهما عليه بلا حدود. وشهد بكل وجدانه مآسى وطنه، ومآسى أسرته، وشهد أيضا وثبة أكتوبر ١٩٧٣، وفى العالم التالى شعر بضعف، شخّص أولا بأنه فقر دم، ثم عرفت زوجته من نتيجة التحاليل أنه سرطان دم، وأن النهاية واقفة أمام الباب. ولم يدر ما أصابه، ونقل إلى المستشفى وهو يجهله، وشهد ساعته الأخيرة الممزقة بنزع الألم زوجته ووحيدة وصالح، وفى اللحظات الأخيرة طلب رؤية راضية ولكن تعذر ذلك بطبيعة الحال لأنها من ناحية كانت قد جاوزت المائة، ومن ناحية أخرى لم تعلم بمرض ابنها، وظلت على جهلها به حتى وفاتها. وأسلم الرجل الروح بعد عذاب، وودعته دموع زوجته ووحيدة وصالح. أما شكيرة فلم يخفف الموت من كراهيتها العميقة له.

حبيبة عمرو عزيز

إن يكن لميدان بيت القاضى والحوارى التى تصب فيه وأشجار البلخ السامقة أثر فى قلوب آل عمرو وآل سرور . إن يكن للمآذن والدراويش والفتوات والأفراح والمآتم أثر ، إن يكن للحكايات والأساطير والعفاريت أثر ، فهى حياة تجرى مع الدم وتكمن فى جذور البسمات والدموع والأحلام فى قلب حبيبة - الخامسة فى ذرية عمرو أفندى - لم تطق مغادرة الحى على سنوح الفرص الباهرة ، ولم يحب الأب أو الأم أحد كحبها لهما ، ولا الإخوة ولا الأخوات ولا أبناء العم ولا بناته ، حتى الجيران والقطط . بكت كل راحل وراحلة حتى عرفت بالنائحة ، وحفظت الذكريات والعهود ، وثملت دائما بالماضى وأيامه الحلوة . كادت فى الجمال أن تماثل سميرة لولا سحابة تعلو عينها اليسرى . ووقف حظها من التعليم عند محو الأمية ، وسرعان ما استردت أميتها لإهمالها . ولم تعرف من الدين إلا دين أمها الشعبى ولكنها اقتنعت بأن عشق الحسين هو خير وسيلة إلى الآخرة . وفى سن السادسة عشرة خطبها مدرس لغة عربية يدعى الشيخ عارف المنياوى من زملاء أخيها عامر وزفت إليه فى الدرب الأحمر ، وبعد عام من حياة سعيدة أنجبت له «نادر» ، وبعد عام ثان سقط الرجل فى قبضة السرطان ومضى قبل الأوان . وهتفت راضية من قلب مكلوم :

- ما أسوأ حظك يا ابنتى .

وعاشت حبيبة مع حماتها على دخل دكانين بالمغربلين ، مكرسة حياتها لوليدها ، أرملة دون العشرين من عمرها . وأحبت نادر حب الأمومة المعتاد بالإضافة إلى حب قلب كأنما تخصص فى الحب . ولما أنهى نادر مرحلة الكتاب فى أوائل الثلاثينات أراد محمود بك عطا أن يزوجها من عمدة ببنى سويف . وقد رحبت الأسرة بذلك ، وكان عليها أن تسلم نادر إلى عمه ، ولكنها رفضت بقوة ، أبت أن تسلم ابنها كما كرهت أن تغادر الحى . وقال لها حامد أخوها :

- أنت مجنونة ولا تدرين ماذا تفعلين !

فقالت :

- بل أدرى ما أفعل تماما . .

وحاول عمرو وحاولت راضية ولكنها لم تعدل عن قرارها . وتخرج نادر فى مدرسة التجارة العليا فى أثناء الحرب العظمى الثانية . وتعين فى مصلحة الضرائب ، ولكنه عرف

من أول يوم بطموحه الذى لا حد له، وراح يدرس اللغة الإنجليزية فى أحد المعاهد الخاصة، وأشفقت أمه عليه من انهماكه فى العمل ما بين المصلحة والمعهد. وتسأله:

ـ لماذا تكلف نفسك هذا التعب كله..؟

ولكنه كان راسما هدفا ولم تكن قوة هناك لتحيد به عنه. أما حبيبة فقد توجت الكهولة حياتها الجافة فبليت وتبدت كالعليل. وراقبت صعود ابنها بسعادة، ولم يكن يضن عليها بمال، ولكنها أبت أن تهجر الدرب الأحمر إلى مغانيه الجديدة. ولما تركها إلى بيت الزوجية غاصت فى غربة مخيفة لم تفلت من قبضتها حتى الموت. وقالت لها راضية:

ـ نحن نربيهم لهذا وعليك أن تفرحى وتحمدى الله..

فقالت بانكسار:

ـ شد ما ضحيت من أجله!

فقالت راضية:

ـ هكذا كل أم. وعليك أن تزورى سيدى يحيى بن عقب..

وكانت حبيبة آخر من مات من آل عمرو، فبكت الجميع بحرارتها المعروفة حتى صفت عينيها، ولما ماتت لم تجد من يبكى عليها..

حسن محمود المراكيبى

نشأ فى أحضان النعيم ما بين السراى الكبرى بميدان خيرت وسراى العزبة ببنى سويف. وكأنما جىء بنازلى هانم إلى آل المراكيبى لتحسين النسل، فتجلى أثرها الطيب فى الذكور، ومنهم حسن الذى عرف بطول قامته ووسامته ومتانة عوده. وبفضل تقاليد تلك الأيام وسماحة القاهرة على عهدها لم يكن يمر أسبوع دون تزاور بين ميدان خيرت وميدان بيت القاضى. وأراد محمود بك أن يوجه بكريه لدراسة الزراعة لينتفع به فى حينه، ولكن إقباله على الدراسة كان فاترا كقريبه حامد، فأدخلهما الرجل مدرسة الشرطة معا. وغمرته ثورة ١٩١٩ بعواطفها القوية وإن لم يتعرض بسببها للأذى كما حصل لحامد. وسرعان ما شارك أسرته موقفها من زعيم الثورة وولائها للملك. وكان ذلك أوفق لعمله فى الداخلية فلم ينقسم كحامد بين باطن وفدى وظاهر حكومى. وبفضل نفوذ أبيه لم يعرف عناء العمل فى الأقاليم، ولم يستجب لرغبة أبيه فى الزواج المبكر، ولكنه مارس حياة إباحية مستغلا سحر زيه الرسمى الملون وما توفر له من نقود

مرتبه والنفحات التى كانت تكرمه بها أمه. ولكنه أذعن أخيرا فتزوج من عروس تدعى زبيدة من أسرة أمه. فزفت إليه فى شقة بجاردن سيتى، وعاش فى مستوى يحسده عليه وكيل الداخلية نفسه. واشتهر فى عهود الانقلابات السياسية بالعنف فى تفريق المظاهرات. وتلقى حملات متتابعات فى الصحف الوفدية، بقدر ما أساءت إلى سمعته لدى الجماهير فإنها زكته خير تزكية عند السراى والإنجليز، وأتاحت له ترقيات استثنائية. وقال عمرو أفندى لحامد ابنه:

ـ دخلتما المدرسة فى عام واحد وها هو يرقى إلى رتبة اليوزباشى على حين أنك ما زلت ملازما ثانيا..

وكان سرور أفندى حاضرا على نفس مائدة الغداء فقال بلسانه الحاد:

ـ خائن وابن مراكيبى!

ولكن حامد وحسن كانا صديقين بالإضافة إلى قرابتهما، وتوثقت العلاقة أكثر بعد زواج حامد من شكيرة، وقد تعرض حسن للموت فى عهد صدقى فأصابت طوبة رأسه وأخرى عنقه، وقضى فى المستشفى شهرا كاملا. وكان أعنف إخوته على آل عمه أحمد عندما فرق الخلاف بين الأخوين. بل قد تصادم مع ابن عمه عدنان واعتدى عليه بالضرب فى السراى فكان يوما مأساويا فى تاريخ الأسرة. وأنجب حسن ثلاثة من الذكور محمود وشريف وعمر، وضرب بهم المثل فى الجمال والذكاء. ولما قامت ثورة يوليو كان لواء. وكان ثريا جدا بما ورثه وما ورثته زوجته، ولكن الثورة أحالته على المعاش فى حركة تطهير الشرطة فخرج مع حامد فى قائمة واحدة، وكانت علاقته به قد انقطعت بعد طلاق شكيرة. وقال لزبيدة:

ـ علينا أن نبيع الأرض فقد انقلب الدهر على ملاك الأراضى.

والضرر الذى لحقه بيد الثورة لا يقاس بما دهم غيره من طبقته، منهم ابن عمه عدنان، ولكنه وجد نفسه، فى المعسكر المضاد، ومارس عواطفه كلها نحو الثورة الصاعدة. ومضى يبيع أرضه وأرض زبيدة على دفعات وأنشأ بماله متجرا فى شارع شريف راح يديره بنفسه فازدادت ثروته، أما أبناؤه محمود وشريف عمر فقد تربوا فى مدارس الثورة وتشبعوا بفلسفتها وثملوا ببطولة زعيمها، ولم يأسف حسن على ذلك، بل وجد فيهم وفى أخويه عبده ونادر حماية له من أعاصير تلك الأيام، ولعل أخويه كانا وراء الأسباب الخفية التى جنبت متجره التأميم عام ١٩٦١، ولما وقعت كارثة ٥ يونية كان محمود وشريف وعمر قد تخرجوا أطباء وعملوا فى مستشفيات الحكومة، وأدركتهم النكسة التى زلزلت الجيل الناصرى فأذرته مع رياح الضياع واليأس. ولذلك ما كاد الزعيم يرحل ويحل محله السادات حتى هاجر محمود وشريف إلى الولايات المتحدة ليبدآ حياة علمية

جديدة ناجحة، أما عمر فقد فاز بعقد عمل فى السعودية. ووجد حسن فى السادات وسياسة الانفتاح بغيته وعزاءه عن كافة هزائمه الماضية فشمر للعمل والثراء الخيالى، وشيد له ولزوجته قصرا فى مدينة المهندسين وعاش عيشة الملوك وهو يحلم بعودة أولاده ذات يوم ليرثوا ما جمع لهم من ملايين. وانتهت حياته فى الثمانينات فى حادث عارض، إذ كان يسوق سيارته المرسيدس فى شارع الهرم فانقلبت به واحترقت، واستخرجوا جثته منها متفحمة متخلية عن الدنيا وملايينها..

حسنى حازم سرور

هو بكرى حازم وسميحة. وكان ذا جسم رياضى ووجه مليح وذكاء وقاد. وقد نشأ فى النعيم فى فيللا الدقى، وتخرج مهندسا عام ١٩٧٦، ولم يجد ـ كأخيه ـ فى حياته مشكلة ما، ولا عرف هموم الانتماء، ومثل أبيه جرى فى طريق النجاح والثراء فى مكتب أبيه. وأرادت سميحة أن تسيطر عليه كما سيطرت على أبيه ولكنها وجدته مستعصيا على السيطرة، ويثور مثلها لأتفه الأسباب، ولمست فيه المرأة جموحا خطرا فنزعت تخطط لزواجه ولكنه قال لها بوضوح:

ـ لا شأن لك بهذا..

فقالت بحدة:

ـ ولكنك طفل..

فضحك عاليا وهو ينظر نحو أبيه الذى زاغ من عينيه وقال:

ـ أنا المالك الوحيد لحياتى..

ـ ولكنك لا تدرى شيئا عن الزوجة الصالحة..

فسألها بسخرية:

ـ وما الزوجة الصالحة؟

فقالت بصوت مرتفع:

ـ الأصل والمال وهما مترادفان!

فقال مواصلا سخريته:

ـ شكرا لا حاجة بى إلى خاطبة!

وكان قد عشق راقصة بأحد ملاهى الهرم تدعى عجيبة، تجاوز عشقه لها النزوة العابرة، حتى اقترح عليها فكرة الزواج.. وقالت له:

ـ لولا الحب ما قبلت قيد الزواج . .

وسعد بذلك كل السعادة، غير أنها اشترطت عليه ألا يطالبها بهجر حياتها الفنية، فتفكر مغتما ثم قال :

ـ إذن لنبق كما نحن . .

فقالت غاضية :

ـ بل يذهب كل منا إلى حال سبيله .

فقبل مرغما وعقد زواجه عليها . وكان أخوه أدهم أول من علم . وكان أبوه الثانى . ولما حمل الخبر إلى سميحة ثارت ثورة وجم لها الخدم وتساءل الجيران . أما حسنى فانتقل إلى شقة تملكها زوجته بشارع الهرم . وهناك قالت له :

ـ لم أهجر حياتى الفنية لأن السينما بدأت تعترف بأهميتى .

ولكن الظاهر أن طريق ذلك الاعتراف لم يكن ممهدا، وأن الأمر احتاج إلى أن ينشئ حسنى شركة إنتاج سينمائى من أجل عبقرية زوجته . وشعر بأن أباه لا يوليه الثقة التى كان يحظى بها فطالب بنصيبه من رأس المال على أن يتفرغ لعمله الجديد . وحقق له أبوه رغبته وهو يقول له :

ـ ليكن ذلك سرا بيننا . .

بذلك انفصل حسنى تماما عن أمه بل عن أسرته . . وأنتج لعجيبة فيلمين لم يستطيعا أن يخلقا منها شيئا يذكر . وترامت إليه أنباء عن علاقة مريبة بينها وبين ممثل أدوار ثانوية يدعى رشاد الجميل، فرصد لهما العيون حتى ضبطهما فى شقة مفروشة بالعجوزة . واعتدى عليها بالضرب حتى قتلها، وحوكم، وقضى عليه بخمسة عشر عاما . وعرف أقرباؤه خبره مما نشرته الصحف وما كانوا قد سمعوا به من قبل . وأكثر من شخص منهم هتف :

ـ يا ألطاف الله، إنه ابن حازم بن سرور أفندى رحمه الله .

حكيم حسين قابيل

الناظر فى عينيه الواسعتين العسليتين يبهره حسن تكوينهما وقوة إشعاعهما، ورأسه الكبير غزير الشعر يضفى عليه مهابة . هو الثالث فى ترتيب ذرية سميرة بنت عمرو أفندى وزوجها حسين قابيل تاجر التحف بخان الخليلى . وكان شارع ابن خلدون مدرج طفولته وصباه حيث تقيم الأسرة بعمارة به، كما كانت حديقة الظاهر بيبرس ملعبه . وعلى ذكائه

وتفوقه ولع منذ الصغر بالمقامرة، مارسها أولا فى الدومينو والطاولة وأخيرا فى البوكر والكنكان.

كما عرف بصداقته الحميمة لجار من جيرانه تلازما فى المرحلتين الابتدائية والثانوية، ثم اتجه حكيم إلى مدرسة التجارة على حين التحق الآخر بالكلية الحربية. وقد عرف حكيم أهل أمه جميعا، عمرو وسرور والمراكيبى وداود كما عرف أهل أبيه، وأدهش خاليه عامر وحامد بآرائه السياسية الرافضة أو شبه الرافضة للوضع كله. قال له حامد:

ـ إنى أعتبر المعاهدة إنجازا مشرفا للوفد!

فقال حكيم:

ـ لا حصر لسلبياتها، ثم إنى لا أومن بالأحزاب..

ـ الإخوان تجار دين ومصر الفتاة عملاء فاشيست!

ـ ولا هؤلاء جميعا!

ـ إذن بماذا تؤمن؟

ـ لا شيء..

وضحك عامر ضحكة خفيفة فقال حامد:

ـ هذه نغمة نشاز فى أسرتنا..

وتخرج حكيم فى إبان الحرب العظمى الثانية، بعد وفاة والده بقليل، وتعين فى مصلحة الضرائب، وما لبث أن أحب زميلة له تدعى سنية كرم فتزوج منها وأقاما فى شقة بالعباسية الغربية، وأنجب منها حسين وعمرو، ووعدت الحياة بخط روتينى معروف الأول والآخر. ولكن قامت ثورة يوليو وإذا بصديق عمره نجم من نجومها، وبذلك تفتق المستقبل عن أبعاد جديدة لم تجر لأحد فى خاطر. وفى الوقت المناسب اختير حكيم فى وظيفة إشرافية فى إدارة التوزيع بإحدى الصحف الكبرى، ووثب مرتبه بجرة قلم من العشرات إلى المئات. ودوى مقامه فى شجرة الأسرة من أسفلها إلى أعلاها. تاهت به أسرة سميرة، وسعد به آل عمرو رغم وفديتهم المهيضة، أما المعارضون من آل المراكيبى وداود فقد قالوا ساخرين:

ـ ذهب فساد متواضع وجاء فساد شره..

ولصلته بصديقه الحميم هابه حتى الوزراء وداهنه الأعداء والأصدقاء. وسرعان ما انتقل إلى شقة جديدة بالعباسية الشرقية واقتنى سيارة وأصبح حقيقة من رجال العهد. وكان وفيا لأسرته ولأصدقائه، فمد يد المعاونة لخاله حامد ولابن خالته نادر، وبفضله عومل أخوه الأصغر سليم معاملة لم تخل من إنسانية عند التحقيق معه قبل سجنه، كما كان الوساطة الناجعة وراء تعيين كثيرين من أصدقائه حراسا عقب فرض الحراسة على من

فرضت عليهم من الأسر. وظلت علاقته بصديقه الحميم كما كانت رغم استوائه قائدا بين القادة الجدد، فلا يمر أسبوع دون لقاء عائلى فى قصر القائد يتبادلان فيه نجوى الحب والذكريات. وفى إحدى هذه المرات سأله بلا كلفة:

ـ أما آن الأوان لترشحنى وزيرا؟

فقال الرجل:

ـ وما قيمة الوزير؟ سينقص دخلك إلى النصف..

ـ ولو..

فقال الآخر ضاحكا:

ـ أصارحك بأنى فعلت..

ورمقه بنظرة باسمة ذات معنى، فقال حكيم:

ـ أعدك بأن أقلع عن القمار..

فقال واجما:

ـ ومسألة أخيك سليم أيضا!

وعدل عن التفكير فى الوزارة ولكن نجمه استمر فى الصعود فانتخب عضوا فى مجلس الأمة، وما زال نوره يتألق حتى ٥ يونية فابتلعت الظلمات صديقه فيمن ابتلعت، وتلاشى نفوذه بضربة واحدة وإن بقيت له وظيفته. جاء السقوط هزيمة شخصية فوق الهزيمة العامة ومضغ مرارة الهوان بعد حلاوة العزة. وشق عليه تنكر الكثيرين له حتى الذين انتشلهم من التفاهة بوفائه. ولم يبق له من عزاء فى الدنيا إلا فى ابنيه حسين وعمرو اللذين صارا ضابطين فى سلاح الفرسان. وفى تلك الأونة تجلت به أعراض ضغط الدم الخبيث وقاسى منها ما قاسى، ثم دهمته داهية كثيرا ما ناوشته فى أحلام يقظته السوداء، عندما بلغ باستشهاد عمرو فى حرب الاستنزاف وكان ـ بخلاف سنية ـ يحب ضبط النفس والتظاهر بالشجاعة والرضا بالقدر، تاركا أحزانه تنعقد فى أعماقه كالعكارة فى جوف الوعاء. وواصل وجوده حتى رحل زعيم وخلفه آخر، وعاصر ٦ أكتوبر فهزته نشوة لم يشعر بمثلها منذ الأيام السعيدة قبل ٥ يونية، ولكن سرعان ما خمدت شعلتها عندما تلقى نبأ استشهاد ابنه الباقى حسين فى الميدان. وانفجر الضغط صاعدا بلا ضابط فوق ضبط النفس والتظاهر بالشجاعة والرضا بالقدر فقتله، وتحدث تلك الأمور وراضية تهيم فى ذروة شيخوختها. وتضاحك الملائكة فى البيت القديم.

حليم عبد العظيم داود

ولد ونشـأ فى فيـللا أنيقة بالعباسية الشرقية، وهو الابن الثالث لعبد العظيم باشا داود. مقبول الوجه رياضى الجسم مدمن منذ صغره للهو واللعب والمزاح والعربدة، لا تصدر عنه كلمة جد واحدة. أخواه اللذان سبقاه كانا غاية فى الجد والاجتهاد، لذلك قال:

- خلقت لأحدث التوازن الضرورى فى الأسرة.

ويتابع عبد العظيم باشا عثراته المدرسية بمرارة ويقول له:

- ستكون عارا على نفسك وأسرتك.

ولكنه لم يكن يكترث لملامة، ولم يحتفظ من سجايا أسرته إلا بالكبرياء والغرور والنظرة إلى الآخرين من عل، حتى أهله كمال وعمرو وسرور أضمر لهم الازدراء وحنق على المتفوقين منهم، ولم يسلم من لسانه إلا عامر الذى تزوج من شقيقته عفت، أما آل المراكيبى فكان يضعهم - رغم ثرائهم - فى الدرجة التى كرستها لهم أسرة داود باعتبارهم أشباه أميين ومن صلب رجل كان يبيع المراكيب. ولم يكن يتورع عن إغواء قريباته الجميلات اللاتى يقاربن سنه مثل جميلة وبهيجة ابنتى سرور أفندى أو دنانير بنت رشوانة.. لولا ثقل التقاليد ويقظة الأمهات. ولعل حامد كان الوحيد الذى يعمل له ألف حساب لقوته واستعداده الفطرى للعنف، فحقد عليه، ولم يصف ما بينهما إلا حين جمع بينهما سوء المصير فى أواخر العمر وفى صباه ومراهقته - وبتدليل أمه له - أتقن السباحة والكرة والقمار والخمر والعشق والمزاح، وامتاز أيضا بصوت عذب فكان يقول بغروره المعهود.

- لولا تقاليد الأسرة لكنت مطرب العصر.

وبعد صراع طويل مع المدرسة قرر الالتحاق بمدرسة الشرطة. واستاءت الأسرة رجالا ونساء وقال له أبوه:

- نحن أسرة قانون وطب..

فاعترف له قائلا:

- لا صبر لى على المذاكرة.

ولما التحق بالمدرسة وجد حسن محمود عطا المراكيبى بالسنة النهائية وحامد بالمرحلة الوسطى، فكان عليه أن يؤدى لهما فى نطاق التقاليد المدرسية فروض الذل والطاعة،

وكان أهون على نفسه أن يؤدى ذلك لأى جندى . . ومرة تناول الثلاثة الغداء عند راضية، وهناك تحرر من واجباته والتزاماته، وخاضوا ثلاثتهم حديث الأصل، فى مفاخرة ساخرة، فذكرهما بأصلهما وعيروه بأصله. قال له حامد:

ـ أنتم باشوات حقا ولكنكم من طين الأرض خرجتم. .

وتابعت راضية حديثهم باسمة ثم قالت:

ـ الكل فى النهاية من صلب آدم وحواء، وليس فى الأسرة كلها من بطل إلا أبى الشيخ معاوية.

وكان حليم يعتبر راضية من عجائب هذه الدنيا بدروشتها وسحرها وأورادها وعفاريتها، ويقول لأمه:

ـ لولا الحظ لاتخذت مكانها الطبيعى بين مجذوبات الباب الأخضر.

وتهتف به أمه:

ـ إياك أن تمس بسوء أحب الناس إلىّ.

كانت تؤمن بها، وعند كل لقاء تدعوها لقراءة فنجانها، وعندما حدست قرب نهايتها فى كبرها أوصت بأن تشهد راضية غسلها دون غيرها من أهلها أو أهل زوجها.

وتخرج حليم ضابطا بعد حامد بعام، وبفضل أبيه عين فى المراكز الخاصة بالداخلية فقضى أكثر خدمته فى حراسة الأميرات والوزراء. وقد مرت به ثورة ١٩١٩ وكأنها فيلم مثير يشاهده فى إحدى دور العرض لم يعرف طيلة حياته انتماء إلا إلى اللهو والعربدة والمزاح والطرب. . كان أبوه وأخواه من دراويش الأحرار الدستوريين، أما هو فكان درويش الحانات والملاهى الليلية ونوادى القمار. ولم يفكر أبدا فى تكوين أسرة أو الالتزام بأى قيد. وقد اختار لنفسه شقة فى عمارة بشارع النيل ـ هى التى دل عليها حامد بعد طلاقه ـ وزينها بهدايا الأميرات والوزراء، وشهدت من بنات الليل والفنانات أشكالا وألوانا. ولم يكن يتورع حتى عندما ارتفعت رتبته أن يقضى سهرة فى عوامة مونولوجست، يسكر ويعربد ويغنى، ثم يرجع عند الفجر إلى مأواه وهو يترنح. وقد ساءت العلاقة بينه وبين والده، وبينه وبين أخويه، وبذلت محاولات عقيمة لتزويجه. ومع الأيام غلبهم بروحه المرحة فغزا قلوبهم وبيتهم حتى سلموا به كشر لابد منه، بل لعله كان أمتع شر فى أسرتهم. ولما قامت ثورة يوليو نقل إلى التفتيش. أجل كان أحسن حظا من حامد وحسن ولكنه عانى العمل الجاد لأول مرة على كبر. إلى هذا فقد أظهر للثورة حنقا من أول يوم، وتساءل كيف يسرق الحكم أناس لا ميزة لهم إلا استحواذهم على السلاح؟ وهل يحق قياسا على ذلك أن يتحول قطاع الطرق إلى ملوك؟ وما هذا الذى يحدث للأسر الكريمة؟ وكيف تلغى الباشوية بجرة قلم؟ وكيف يخاطب بعد اليوم

أباه وشقيقه الأكبر؟ وكيف يؤدى هو سلام التعظيم لضابط يماثله فى الرتبة أو يقل عنه؟ والأدهى من ذلك كله أنه يوجد من آل المراكيبى ضابطان يعتبران من الصف الثانى من الحكام! وإن حكيم ابن سميرة يلحق أيضا بهيئة الحكام! حقا لقد انقلب العالم فصار عاليه أسفله وصار أسفله عاليه، اضطرمت فى قلبه نيران الغيرة والحنق وتجهم بكل غضب للعالم الجديد الذى تجهمه.

وشد ما فرح بالعدوان الثلاثى فظن أن الستار سيسدل على المهزلة ويستقيم حال الدنيا، ولكن الحوادث خيبت أمله واستقبل الزعيم حياة جديدة كلها فتوة وبطولة. وفى الستينات توفى أبوه، وتبعه شقيقه الأكبر بعد عامين فتضاعفت غربته وأساه وأفرط بلا حرص فى لهوه وعربدته. وكان يقضى ليله فى شقة فاخرة تدار للقمار السرى عندما كبسها البوليس. وأظهر شخصيته لرئيس القوة ولكنه تعامى عن ذلك وساقه مع الآخرين إلى قسم شرطة قصر النيل، ولم تنته المسألة إلى خير فأرسل إليه وزير الداخلية يطالبه بتقديم استقالته تفاديا لما هو أسوأ، فقدمها على رغمه، ووجد نفسه على المعاش. وقرر فى ظلمة اليأس أن يقصر خطوطه. وعرض عليه حامد أن يوسط حكيم ليجد له عملا كما نفعه ولكنه رفض شاكرا. فضل أن يعيش فى نطاق معاشه على أن يذل نفسه أمام حكيم ووجد فى المعاش ما يكفى لمعيشته، واستبدل بالويسكى الحشيش لرخصه النسبى وأثره المناسب، وتفرغ بكليته للحقد على العهد ورجاله والسخرية منهم فى غرزته الخاصة الحافلة بالحاقدين. ولما وقعت كارثة ٥ يونية قرر أن يحج لبيت الله الحرام. ولم يكن له من الدين إلا الاسم كغالبية أسرته، ولكنه حج، ورجع إلى حياته لم يغير منها شيئا، وسكنت انفعالاته بعض الشيء، ولكنه أصيب بالسكر، ولم يكن يملك من الإرادة ما يواجه به متطلباته من الرجيم فاستفحل معه، وحصلت له مضاعفات متلاحقة. وذات مساء اتصل تليفونيا بجاره وقريبه حامد وقال:

ـ تعالى أنت وعصمت هانم.. إنى أحتضر..

وفعلا أسلم الروح تلك الليلة بين حامد وزوجه.

حرف الخاء

خليل صبرى المقلد

بكرى زينة صغرى بنات سرور أفندى، ولد ونشأ فى مسكن الأسرة فى بين الجناين، فى مستوى متوسط حسن بفضل ارتفاع مرتب أبيه النسبى يعتبر أفضل من مستوى جده

الذى توفى قبل زواج أمه من أبيه، وكان أشبه الأحفاد بخاله لبيب، فائق الجمال الموروث عن جدته ست زينب وأمه أيضا زينة التى خصت بجمال لا بأس به وإن يكن دون شقيقتيها جميلة وبهيجة. وكانت زينة تفارق بين وجهه ووجه شقيقته الصغرى أميرة بحسرة، فقد اقتبست البنت من أمها أنفا أفسد صفحة وجهها الحسن ولبد سماء مستقبلها الأنثوى بالمخاوف، غير أنها سرعان ما خطفها الموت عقب نزلة معوية حادة. وأبدى خليل نجابة فى حياته المدرسية، وتشرب بحماس جيل الثورة الناصرية، غير أنه تلقى تجربة عاطفية استثنائية فى ختام مرحلته الثانوية، إذ نشأت علاقة بينه وبين جارة أرملة جاوزت الثلاثين من عمرها تدعى خيرية المهدى كانت تكبره خمسة عشر عاما. .

وذات مساء قالت زينة لزوجها صبرى المقلد :

ـ خيرية المهدى أغوت ابنك المحترم!

وبهت صبرى أول الأمر. لم يكن متزمتا، وكان أبا ودودا متفاهما لأقصى درجة، وقد كان فى شبابه عربيدا حتى انضبط بالزواج بمعجزة. وبقدر ما أزعجه الخبر بقدر ما أثار تيهه، وراقب الولد حتى تأكد له تردده على بيت الأرملة، وقالت له زينة :

ـ إنك لا تتحرك. .

فسألها :

ـ هل تؤمنين بجدوى النصيحة؟

فقالت بقلق :

ـ إنها فى سن أمه. .

ـ سرعان ما يشبع ويذهب. .

فقالت معترفة :

ـ من ناحيتى لن أسكت، فهل تتصور أنهما يفكران فى الزواج؟

وضحك الرجل غير متمالك نفسه وهتف :

ـ العبيط!

وراح يتحرى حتى عرف أشياء. وقال لزينة :

ـ المرأة غنية. .

ولمست منه ترحيبا فاستنجدت بأخيها لبيب، وكانت حياته العامة والخاصة لا تسمح له بتقبل المزيد من المشكلات، وفى الوقت نفسه لم يستطع تجاهل حيرة شقيقته الصغرى، فزار بين الجنايين متفضلا، وجمع بين الابن ووالديه، وعرض الموضوع صراحة، ولم تسفر المناقشة عن نتيجة ترضى زينة، وقال خليل :

ـ لن يحول شىء بينى وبين الاستمرار فى الدراسة . .

فقال لبيب حاسما الموضوع ومخاطبا زينة :

ـ احمدى ربنا ، العروس عمرها كبير ولكن مالها وفير . .

وأرادت زينة أن تؤجل الزواج حتى ينتهى خليل من دراسة الحقوق ولكن العروس كانت أحرص على حظها من ذلك ، ولم يتأخر الزواج إلا ريثما تجدد المرأة بيتها وتؤثثه ، وتزوجت من خليل ، ولما حصل على الليسانس فى عام ١٩٦٥ كان قد أنجب بكريه عثمان وتعين فى قضايا الحكومة ، وقدر كثيرون أن الزواج مقضى عليه بالفشل فى سن معينة ، ولكن خيرية فارقت الحياة فى الخمسين وهى تجرى جراحة فى الكلوة ، ولم تنجب سوى عثمان ، ولم يفكر خليل فى الزواج مرة أخرى .

حرف الدال

داود يـزيــد المصــرى

هو الابن الأصغر ليزيد المصرى وفرجة الصياد . ولد بعد أخيه عزيز بعام فى بيت بالغورية على مبعدة يسيرة من بوابة المتولى ، وكانت فرجة الصياد ترقب الوقت المناسب لإرسالهما إلى أمها بالسوق ليتدربا على بيع السمك ولكن يزيد قال لها :

ـ أحب أن يتعلما أولا فى الكتاب . .

فتساءلت محتجة :

ـ ولم نضيع الوقت بلا ثمرة؟

فقال الرجل بثقة :

ـ لولا أنى أفك الخط وأعرف مبادئ الحساب ما ظفرت بعملى فى وكالة الوراق . .

وكانت المرأة تجد فى بيع السمك فوائد لا يحظى بمثلها زوجها فى الوكالة ، ولكنها لم تستطع ثنيه عما عزم . ووجد الرجل تشجيعا من صديقه الشيخ القليوبى المدرس بالأزهر ، بل قال له :

ـ الكتاب وبعده الأزهر إن شاء الله تعالى . .

ولكن تدين يزيد ـ كصديقه الثانى عطا المراكيبى الذى كان يقيم فى نفس البيت ـ كان قانعا بأداء الفرائض المتاحة كالصلاة والصوم لا يتجاوزهما إلى أحلام دينية أعمق ، فرسم لولديه الكتاب كمدخل للحياة العملية ، وذات يوم والشقيقان يجولان ما بين الغورية

والسكة الجديدة رأيا نفرا من رجال الشرطة، أما عزيز فبإلهام خفى هرب، وأما داود فقد اعتقله رجال الشرطة وساقوه إلى المجهول. وتحدث الناس بما رأوا، وعرفوا أن الوالى محمد على يحمل أبناء الناس إلى ما وراء الأسوار ليلقنوا علوما جديدة، إنه يحبسهم تحت الحراسة حتى لا يفروا من التعليم. وقال عزيز لأبيه:

ـ لولا العناية لسقطت فى أيديهم..

وشكا يزيد «مصيبته» إلى الشيخ القليوبى فقال له:

ـ لا تحزن، ابنك فى الحفظ والصون، وربنا يدفع عنه السوء..

وبلغ الحزن بالأسرة منتهاه، ودعت فرجة على الوالى بالهلاك، وشددوا فى المحافظة على عزيز الذى واصل تعليمه فى الكتاب، ومضت أعوام فاشتغل عزيز ناظرا لسبيل بين القصرين وتزوج من نعمة المراكيبى ابنة عطا المراكيبى، وإذا بداود يرجع إلى الغورية وقد أتم تعليمه.. وفرحت الأسرة بعودته فرحة كبرى، ولكنها لم تدم، إذ قال داود:

ـ سيرسلوننا فى بعثة إلى فرنسا.

فصاح يزيد:

ـ بلاد الكفار!

ـ لنتعلم الطب.

وصاح عزيز:

ـ لولا عنايتك يا رب لكنت من الذاهبين!

وسافر داود ليخوض تجربة ما كانت تجرى له فى حلم. وفى غيابه توفى يزيد المصرى وفرجة الصياد، وأنجب عزيز رشوانة وعمرو وسرور، ووثب عطا المراكيبى من حضيض الفقر إلى ذروة الثراء، ثم انتقل من الغورية إلى سراى ميدان خيرت، ورجع داود طبيبا، وقصد مسكنه القديم بالغورية الذى انفرد به عزيز وأسرته. جمع الحب مرة أخرى بين الشقيقين، وجعل عزيز يراقب أخاه باهتمام وتوجس، سره أن يجده محافظا على صلاته، شغوفا كالعادة القديمة بزيارة الحسين، وإن تغير زيه، إلى درجة ما لهجته، وبدا له أنه يطوى فى أعماقه النصف الآخر الذى اكتسبه فى بلاد الكفار. سأله:

ـ ألم يحاولوا أن يردوك عن دينك؟

فأجاب ضاحكا:

ـ كلا البتة..

وود أن يحدثه أكثر «عنهم» ولكنه آثر السلامة. وسأله أيضا:

ـ هل حقا تشرحون الجثث؟

فأجاب :

ـ عند الضرورة ومن أجل خير البشر !

فيحمد عزيز الله فى سره على إكرامه له بالهرب فى ذلك اليوم البعيد .

وقال لأخيه :

ـ لولا ظروفك لكنت أبا من زمن . .

فقال داود :

ـ هذا هو شغلى الشاغل . .

وكانت توجد أسرة تركية بدرب قرمز . . «آل رأفت» فأشار إليهم قائلا :

ـ لعلهم يرضون لبنتهم بطبيب عائد من فرنسا !

ووجدا فى عطا المراكيبى فى حاله الجديدة الشخص المناسب للكلام فى الموضوع . ولكن داود رفض باعتباره فلاحا حقيرا ولم يشفع له علمه ولا زيه ولا وظيفته . . وتألم الشاب ونظر إلى أخيه مسترشدا فقال عزيز :

ـ عندنا أسرة الوراق التى كان أبونا يشتغل فى وكالتهم . .

أسرة من أصل مصرى شامى ، ووجدوا ضالتهم فى حفيدة الوراق الكبير سنية الوراق ، فرحبوا بالعريس ، وتم الزفاف ، ومضى داود بعروسه إلى بيت جديد بالسيدة ، وقد أنجب منها ولدا ـ عبد العظيم ـ وثلاث بنات اختطفهن الموت صغارا . وترقى داود فى عمله حتى حصل على رتبة الباشوية ورسخت مكانته الرسمية والعلمية . وقيض له أن يوفق بين شخصيتيه المتنافرتين توفيقا ناجحا فكان فى عمله الطبى خير رسول لحضارة جديدة ، له رؤيته المستقبلية الوطنية التى يحفزها شعور أليم بما ينقص وطنه فى مجاله ، وله صداقاته الوطيدة بأقرانه من المصريين والأجانب ، وإلى جانب ذلك توافق مع زوجه ـ رغم جمالها ودرجتها الاجتماعية وتعليمها الأولى الساذج ـ لم تكن تختلف اختلافا جوهريا عن أمه فرجة السماك ، ولا عن زوجة أخيه الأكبر نعمة المراكيبى . . بل إنه لم يتحرر من تقاليد الأسرة والبيئة ، فكان يزور بيت الغورية بدافع الحب والواجب معا ، وهناك ينسى شخصيته المكتسبة تماما فيجلس إلى الطبلية ويأكل بشراهة السمك والطعمية وثريد العدس والفسيخ والبصل الأخضر ، ويتابع بعين العطف والمودة النامية بين عبد العظيم من ناحية وبين رشوانة وعمرو وسرور من ناحية أخرى ، ويزور الحسين ويجول فى الباب الأخضر ، ويتعرف إلى أصهار أخيه عطا المراكيبى ثم ابنه محمود وأحمد ، وصديقه الشيخ معاوية القليوبى الذى يصير حما لابن أخيه عمرو . فى تلك الأوقات كان يرتد إلى داود الأول ابن يزيد المصرى وفرجة الصياد ، ابن الغورية وروائحها الذكية النافذة ومآذنها السامقة ومشربياتها المسربلة بالتاريخ ، وقد تمنى أن يجعل من ابنه عبد

العظيم طبيبا مثله ليعيد سيرته، ولكن الشاب اتجه إلى دراسة الحقوق، مدرسة الصفوة والوزراء، ثم مارس حياة قانونية فخيمة وناجحة. ولما بلغ الدكتور الباشا الخمسين عشق جارية سوداء، وتزوج منها، محدثا فى الأسرة دهشة ومثيرا أقوالا وقد اختار لها مسكنا خاصا فى السيدة، وخصص لها قبرا فى حوش الأسرة الذى شيده يزيد المصرى على كثب من ضريح سيدى نجم الدين عقب حلم رآه. وقد امتد به العمر حتى عصر الاحتلال وعاصر مع أخيه الثورة العرابية، وأيداها بالقلب، وتجرعا مرارة سقوطها، ورحل الشقيقان فى عامين متعاقبين فى أوائل عهد الاحتلال، ودفنا جنبا إلى جنب فى القبر الذى افتتحه يزيد المصرى، وسرعان ما حلت بجناحه الحريمى فرجة الصياد، ونعمة عطا المراكيبى وسنية الوراق، والجارية آدم فى قبرها الخاص.

دلال حمادة القناوى

ولدت ونشأت فى بيت والديها بخان جعفر، وهى صغرى ذرية صدرية وحمادة القناوى، ومسكنها على مبعدة يسيرة جدا من بيت جدها عمرو، وكانت تألف عمرو وراضية كما تألف والديها. ومثل جميع الأحفاد تحب راضية وتسحر بغرائبها، خاصة وأن الجدة لا تكف أبدا عن نشر ثقافتها الفطرية المسربلة بالخوارق فى جميع الأجيال. وتقول لابنتها صدرية:

ـ دلال جميلة ولكن كيف تسللت لذريتك القاهرية هذه النبرة الصعيدية؟

فتقول صدرية ساخرة:

ـ من البغل!

مشيرة إلى زوجها الذى أنفقت حياتها فى ترويضه، وتضحك راضية قائلة:

ـ إنه غبى كالحجر ولكنه رجل كريم.

وكعادته لم يسمح لدلال ـ كنهاد ووردة ـ بأكثر من عامين فى الكتاب ثم تولت صدريةتربيتها وتدريبها. وراحت صدرية تستعرض فتيان الأسرة من أبناء أخواتها وأخويها وعمها وآل المراكيبى وداود. ولكن بنات القناوى كن يجيئهن العرسان من قنا وما حولها باسم آل قناوى، تقدم لها عمدة شاب يدعى زهران المراسينى يملك أرضا مجاورة لأرض أبيها وأعمامه.

وقالت صدرية:

ـ قضى على بأن يفرق القطار بينى وبين بناتى.

وأجلت مأساة شقيقتها وردة الزواج عاما، ثم زفت إليه فى القاهرة، وبعد أسبوع واحد حملها إلى وطنه، واستقرت دلال بالكرنك بصفة نهائية، وأنجبت أربع بنات وثلاثة صبيان، ولم تكن تزور القاهرة إلا فى المناسبات.

دنانير صادق بركات

هى الابنة الوحيدة لرشوانة ـ الشقيقة الكبرى لعمرو وسرور ـ وصادق بركات تاجر الدقيق بالخرنفش. ولدت فى بين القصرين ببيت يملكه أبوها، ونشأت فى أحضان نعمة لا بأس بها وتبشر بالمزيد ولم تتجنب رشوانة غير وحيدتها لعيب فيها. ولكن لحسن حظ الأسرة أن صادق بركات كان يسبق له الزواج مرتين دون إنجاب، فعد العيب مشتركا. وترعرعت دنانير بين أم متدينة لحد المشيخة وأب ينتمى لأسرة تعتبر رائدة فى تعليم البنات. وكانت على قدر من الجمال لا بأس به واستعداد للبدانة وكانت تعد من المزايا، وإلى ذلك فقد أبدت نشاطا يبشر فى المدرسة بكل خير. ونالت الشهادة الابتدائية فألحقت بالثانوية الأمر الذى لفت انتباه خال رشوانة محمود ـ بك عطا المراكيبى فسأل عمرو:

ـ أأنت راض عن ذلك؟

ـ فقال عمرو:

ـ أبوها راض.

وزار الرجل بين القصرين واجتمع بالأسرة، وقال:

ـ إنى لم أسمح لشكيرة بتجاوز الابتدائية.

فقال صادق بركات:

ـ الزمن تقدم يا محمود بك والبكالوريا مناسبة لهذا الزمن.

وقالت رشوانة:

ـ إنى واثقة من أخلاق ابنتى..

وكان محمود بك لا يخلو من دعابة ولو بأسلوبه الفظ فقال:

ـ ربما قالت أم ريا وسكينة: عنهما يوما ما تقولين.

وغادرهما ساخطا. وفرحت دنانير بقرار أبيها. ستصير بالبكالوريا قريبة من مستوى فهيمة وعفت ابنتى عبد العظيم داود. وسترتفع درجات على جميع بنات خاليها عمرو وسرور، ولها أن تحلم بعد ذلك بعريس لائق. وكانت رشوانة تستصحبها لزيارة الأصول

والفروع فترى الشجرة مثقلة بالثمار، عامر وحامد ولبيب وحسن وغسان وحليم، وهى فى نظر نفسها على الأقل لا تقل جمالا عن أجمل بنات الأسرة. ولما قاربت الختام حدث شيء كالمصادفة أقنعها بأن المصادفة مأساة المآسى فى حياة البشر. سقط أبوها فى الدكان مشلولا وحمل إلى البيت ليرقد على فراشه بلا حول حتى النهاية. صفيت التجارة بإشراف عمرو وسرور ومحمود بك وقبض الرجل خمسمائة جنيه هى كل ما بقى له للعلاج وحياة الأسرة. ورأت دنانير أنه لم يعد أمامها إلا مواصلة التعليم والتطلع إلى العمل. لم يكن متاحا لها إلا مدرسة المعلمات وكان على المعلمات وقتذاك أن يمضين حياتهن بلا زواج ما أردن الاحتفاظ بالوظيفة. وتوكدت هذه الخطة عقب وفاة صادق بركات. أجل رأى محمود بك رأيا آخر، قال:

ـ لتتزوج دنانير.. وأنا أتكفل بك يا رشوانة..

ومالت رشوانة للموافقة، ولكن دنانير ـ وبدافع من كبريائها ـ أبت ذلك وأصرت على اختيار مصيرها. لم تكن سعيدة باختيارها، زهدت فجأة فى حلم الزواج الذى صاحبها منذ الصبا. كانت أتعس أهل الأرض ولكنها اختارت تعاستها بنفسها. وقالت لها رشوانة:

ـ إنك تضحين بنفسك من أجلى..

فقالت بثبات:

ـ بل اخترت ما يسعدنى..

وأصبحت معلمة وعانسا إلى الأبد، تعزت عن خيبتها بإتقان العمل والإفراط فى الطعام. وتمضى فى الحياة متسائلة أين كان يختبئ لى هذا الحظ الأسود؟! ما أكثر الأعين التى ترمقها بنهم، من شباب الأسرة والأغراب، كأنهم يتساءلون! هذه الفتاة الممنوعة من الزواج ألا تحلم بالحب! جميع قريباتها مستقرات فى بيوت الزوجية حتى الدميمة المذكرة، وهى لا تعبرها النظرات دون أثر يبقى ويستحفل. وما تأوى إلى فراشها بعد يوم مليء بالسخرة إلا وتتأبط معها خيالا ليؤنس وحدتها. إنها دائبة على تعويض لهفاتها وحسراتها بالأخيلة المحمومة الفاجرة والسقوط الوهمى، والصداقات الحميمة العقيمة مع الزميلات المحرومات فى مجال عملها الرهبانى. مكاتب حياة سرية فى عالم الحلم تتناقض تماما مع حياتها الظاهرة القائمة على عمل جاد استوجب الثناء، والتزام بالفرائض الدينية استحق الاحترام وسلوك رصين أيأس منها الطامعين وحاز تقديرها، وفى تلك الفترة الصاعدة من شبابها ونشاطها عرض لها ابن خالها لبيب بشبابه وجماله ووظيفته القضائية اللامعة، وكان سبيل الغزو له ممهدا لولا أنانيته القبيحة. دعاها إلى حديقة الأسماك الهادئة ليعرض عليها علاقة سرية تناسب فى تصوره حالهما. قال:

ـ أنت ممنوعة من الزواج وأنا مضرب عنه . .

وقالت لنفسها حانقة إنه يريدها خليلة ولا يراها أهلا للزوجية .

وقالت بامتعاض وازدراء :

ـ عرض جدير بامرأة ساقطة!

وتلقى اللطمة ببروده الطبيعى الموروث عند ست زينب أمه ، ورجعت هى إلى بين القصرين مفعمة حنقا على آلها جميعا . . إنهم حقراء ، أغنياؤهم وفقرائهم على السواء . يبيعون أنفسهم بلا كرامة . من أجل ذلك تزوج عامر من عفت بنت عبد العظيم ، وتزوج حامد من شكيرة رغم قبحها . وعندما ترنو عين شاب من آل المراكيبى أو آل داود إلى بنت من بنات عمرو أو سرور تقوم القيامة وتثور الكرامة . حقراء حقراء . .

آل مراكيبى باعوا أنفسهم للملك ضمانا للمصالح ، وآل داود انضموا للأحرار الدستوريين متوهمين أنهم يتبعون طريق الأسر الكريمة وأصلهم الحقيقى نابع من التراب ، وما كان داود باشا إلا الشقيق الأصغر لعزيز ناظر السبيل! ما من شاب منهم من سنها أو أكبر إلا وطمع فى عرضها ، ولم يفكر أحدهم فى الزواج منها ، وأطيبهم جميعا مجذوب من مجاذيب الحسين . على أن فترة الشباب الخضراء لم تخل من فرصة عريقة ، أتاحها لها ناظر المدرسة الذى اقترح عليها الاستقالة والزواج منه ، ولكنها بقدر ما سعدت باقتراحه لم تتردد فى رفضه حفاظا على أمها أن تعيش تحت رحمة أحد من هذه الأسرة الحقيرة التى تعبد المال والجاه وتستبيح فى سبيلهما كل جليل . وواصلت حياتها الشاقة القاحلة ، تربى بنات الناس وتعدهن للأزواج ، منقسمة بين سلوك خيالى فاجر ، وواقع متسم بالجدية والتقوى والاحترام . وهامت شجرة الشباب فى ربيع تعلوه كآبة الوحدة وآلام الحرمان وعبث الأخيلة المحرومة ، ثم مضت أوراقها تتساقط ورقة بعد ورقة ، تاركة آثارها فى بدانة تتمادى وقسمات تغلظ ، وعضلات ترهل ، ومرارة تستفحل . وفى أثناء ذلك رحل عمرو وسرور وأحمد ومحمود ، وتنكرت أشياء كثيرة ، ثم مرضت أمها بداء القلب ولزمت الفراش . وكانت تقول لها :

ـ لن أغفر لنفسى ما حل بك . .

فتجيبها باسمة متظاهرة بالمرح :

ـ لقد اخترت ما يناسبنى . .

فتتوسل إليها قائلة :

ـ تزوجى عند أول فرصة . .

فتكذب قائلة :

ـ سيحدث ذلك قريبا جدا . .

رغم أنها لم تعد تلفت نظر أحد. واحتضرت رشوانة وهى تقدم لها تفاحة للعشاء. وأدركت دنانير الموقف على عدم خبرتها به فهتفت:

ـ لا تتركينى وحدى..

ولفظت المرأة أنفاسها الأخيرة وهى تسندها إلى حضنها. وأجهشت فى البكاء، وأرسلت الخادم العجوز لإحضار راضية من بيت القاضى. وبرحيل الأم.. عانت وحدة مطلقة فى بين القصرين. وباتت مثالا للبدانة والكآبة. ولما قامت ثورة يوليو وجدت فيها انتقاما أيضا من الجبارين والمنحلين والانتهازيين، وعاشرتها بارتياح فاتر، وكان الفتور قد أدرك كل شىء حتى حياتها السرية وعبثها العقيم، وبفضل الراديو ثم التليفزيون اقتحمت أعاصير الثورة وأحداثها وحدتها، ونفخت قبسات من الروح فى فتورها، ولكن ذلك عبرها بسرعة، حتى أحيلت على المعاش وأوت إلى ظلمة ظلمات الوحدة. ولم يعد لها من عزاء فى هذه الدنيا سوى العبادة وتلاوة القرآن. ومات زعيم وتولى زعيم، وانفجرت أحداث جديدة، ثم جاء الانفتاح، وبدأت تعانى مع الوحدة والكبر الغلاء المتصاعد. وأخذت تعيد حسابها وتتساءل:

ـ أكتب علىّ أن أقاسى متاعب المعيشة من جديد؟!.. وهل حقًا يخفى الغد ما هو أسوأ؟!

حرف الراء

راضيــة معاويــة القليــوبى

بكرية الشيخ معاوية القليوبى وجليلة الطرابيشية. ولدت ونشأت فى البيت القديم بسوق الزلط، وتبعتها شهيرة وصديقة وبليغ. وكانت صديقة أجمل الأخوات الثلاث أما راضية فأقواهن شخصية وأحدهن ذكاء، وإلى ذلك فجمالها لا بأس به. كانت طويلة القامة ممشوقة القوام عالية الجبين ذات أنف مستقيم وعينين لوزيتين سوداوين وبشرة قمحية، وكأنها صورة من أمها. وقد عنى الشيخ بتربية ذريته تربية دينية فكانت الأكثر استجابة رغم أن حصيلتها من الناحية النظرية لم تجاوز معرفة الصلاة والصوم وحفظ بعض السور الصغيرة ولكن قلبها تشرب حب الله وآل البيت، على ذاك فما تلقنته عن أبيها لا يقاس بعشر معشار ما تلقنته عن أمها من الغيبيات والخوارق وسير الأولياء وكراماتهم وأسرار السحر والعفاريت. والأرواح الساكنة فى القطط والطيور والزواحف، والأحلام وتأويلها، وقراءة الطالع، والطب الشعبى وبركات الأديرة

والقدسين والقديسات. ورسخ من إيمانها بأمها ما شهدته من ركون أبيها نفسه ـ العالم الأزهرى ـ إلى وصفاتها الطبية ورقاها وتعاويذها، واحتفاظه بالحجاب الذى أهدته إليه فوق صدره. وكانت راضية عصبية المزاج، تمارس الحب والكراهية فى اليوم الواحد عشرات المرات. وقد شهد مدخل البيت ـ حيث الفرن والبئر وركن المعيشة اليومية ـ تسلطها على أختيها، وتحيز الأم لها، مما أثار ضغينتهما عليها. وما كادت تبلغ الرابعة عشرة حتى خطبها عزيز يزيد المصرى صديق الشيخ معاوية لابنه عمرو أفندى الموظف بنظارة المعارف. وكان الشيخ فى ذلك الوقت معتزلا فى بيته عقب خروجه من السجن الذى قضى عليه به بسبب اشتراكه فى الثورة العرابية، فتلقى أول فرحة فى حياة لم تعد تبشر بخير فى ظل الاحتلال. ولكن الحظ لم يمهله فتوفى قبل أن يجهز ابنته، وحمل نيشان العروس إلى بيته فى نفس يوم الوفاة، الأمر الذى أغرى جليلة بأن تزغرد وتصوت فى لحظتين متعاقبتين وتصير بذلك نادرة فى الحى كله. وخلا زفاف راضية من الأفراح المعهودة، وانتقلت إلى البيت الذى أعده عمرو لحياته الزوجية بميدان بيت القاضى، وكان عمرو فى العشرين من عمره، طويل القامة متوسط القد، ذا شارب غزير وقسمات واضحة، واستعداد كامل للحياة الزوجية. وسرعان ما ربط الزوجين حب زوجى متين صمد لتقلبات الحياة وتضارب العادات والأمزجة، ومع الحب عرفت راضية أول صداقة مع رشوانة أخت زوجها بخلاف نعمة المراكيبى حماتها، وكأنما حدست ما دار من ورائها عندما ذهبت المرأتان لخطبتها، إذ قالت نعمة لابنتها رشوانة وهما فى طريق العودة:

ـ أجمل البنات الصغرى!

فقالت رشوانة:

العروس مناسبة جداً وعلى خيرة الله..

فقالت نعمة بارتياب:

ـ أخاف أن تكون أطول من عمرو.

فقالت رشوانة بيقين:

ـ كلا، عمرو أطول يا نينة..

على أى حال حدست راضية بشفافيتها تحفظ نعمة حيالها وتوثبت من أول يوم للدفاع أو الهجوم إن اقتضى الأمر، ولكن الله سلم دائما فلم يقع بينهما ما يصلح للقيل والقال. وأقبل رجال الأسرة ونساؤها للتعارف والتوادد، سرور شقيق زوجها، وعزيز حموها، والدكتور داود، وحرمه سنية هانم الوراق وابنهما عبد العظيم، ومحمود عطا المراكيبى، ونازلى هانم وأحمد عطا المراكيبى، وفوزية هانم. اعتقدت أنها ستعرف نساء على شاكلتها أو لعلها تتفوق عليهن كما تفوقت على شقيقتيها، ولكنها وجدت نفسها حيال

هوانم من طبقة عالية. ربما هون من وطأة الفوارق دماثة أخلاقهن وما طبعن عليه من أدب فائق، ولتقارب العقلية رغم تفاوت المظهر والمنظر. واشتد الإحساس بالفوارق أكثر عندما ردت الزيارات بصحبة عمرو، فرأت بيت الدكتور بالسيدة، ثم تاهت فى سراى ميدان خيرت بأبهتها الأسطورية. هناك فقط تنبهت إلى أن جهازها لا شىء، لا شىء ألبتة، وكم توهمت أن فراشها ذا العمد الأربعة والسلم الخشبى، ومرآة حجرة الاستقبال ذات الحوافى المرشوقة بالورد الاصطناعى والكنبة الاسطمبولية الطويلة، كم توهمت أن ذلك الأثاث من التحف المبهرات، وانكسرت نفسها، وقالت لأمها بنبرة المعترف:

ـ سأحدثك عما رأيت..

وأصغت جليلة إليها صامتة، ثم تساءلت باستهانة هل يوجد بينهم بطل من أبطال عرابى باشا كالشيخ معاوية؟

وسرعان ما استردت راضية ثقتها بنفسها، وراحت تحدث الهوانم عن تراثها من الغيبيات والكرامات. ولكن العلاقة الجديدة تعطرت بماء الورد بفضل أخلاق الهوانم، ونشأت مودة حقيقية بين الجميع، وكان لأطوار راضية الغريبة فضل فى ذلك بما تميزت به من إثارة لا تقاوم. واحتدم صراع بين الزوجين على السيادة، فقد أراد عمرو أن تنطوى زوجة فى البيت. فلا تعبر عتبته إلا بصحبته، ورأت هى أن علمها الغيبى يطالبها بزيارات دورية لآل البيت وأضرحة الأولياء. وحذرته من أن يقف عثرة فى ذلك السبيل. وكان عمرو من أتباع الطريقة الدمرداشية ويؤمن بأفكار راضية وتراثها ويخشى عواقب التمادى والمغالاة، فأذن لها بالحركة مستوهبا من ورائها خيرا وبركة، مطمئنا إلى خلقها، راضيا بمهارتها الفائقة فى إدارة بيته وتفانيها فى توفير أسباب الفرحة له. وسارت الأمور سيرا حسنا، وما من نزاع بينهما دام أكثر من ساعات، فكانت إذا غضبت حلمت، وإذا انفجرت عصبيتها تغاضى وتسامح. وتوطدت مكانتها بين فروع الأسرة الباسقة حتى قبل أن تتوثق بالمصاهرة، فشاركت سنية الوراق فى الخطبة لعبد العظيم، كما شاركت نعمة المراكيبى فى الخطبة لسرور أفندى، وأنجبت مع الأيام صدرية وعامر ومطرية وسميرة وحبيبة وحامد وختمت بقاسم. ولم تكف يوما عن بث رسالتها التراثية فى ذريتها أسوة بفروع الأسرة والجيران، حتى تبلورت شخصيتها فى الحى كله كسيدة الأسرار الغيبية، وأضافت إليها الفخر ببطولة أبيها الذى بفضله جعلت من عرابى وثورته أسطورة ذات كرامات وخوارق تداخلت فى كرامات البدوى وأبى العباس وأبى السعود والشعرانى وامتزجت بعنترة ودياب وإناث الجن وذكورهم والسحر والتمائم والأحجبة والبخور والرقا. ولم تتردد عن مصارحة داود باشا قائلة:

ـ طبّك هذا لا جدوى منه ولا خير فيه.

أو تقول له :

ـ يوجد طبيب واحد لا شريك له هو الله عز وجل .

وكان الباشا يحب حديثها ويجاريها على قد عقلها ، ويداعبها أحيانا فيقول :

ـ ولكنك يا ست أم عامر تجعلين مع الله آلهة أخرى من الأولياء والعفاريت . .

فتقول بإيمان :

ـ أبدا . . إرادته وراء كل شيء . . لولاه ما أمكن سيدى النقشبندى أن يوجد فى مكة وبغداد والقاهرة فى وقت واحد!

وكان يجمعها وعمرو تصورات متقاربة فوجدا دائما الحديث المشترك والتفاهم الدائم . وقد شاهدت ثورة ١٩١٩ من مشربية بيتها العتيق ، وسجلت فى قاموسها الخالد وليا جديدا ، اسمه سعد زغلول .

ولما اشترك عمرو فى إضراب الموظفين تساءلت بقلق :

ـ هل يسجنونه كما سجنوا الشيخ معاوية؟

واخترقت الشوارع المليئة بالفتن وزارت ضريح سيدى يحيى بن عقب ودعت على الإنجليز وملكتهم ـ كانت تعتقد أن الملكة ما زالت على قيد الحياة ـ بالهلاك الأبدى . وساورها القلق لاشتراك عامر فى المظاهرات ، والعقاب الذى حل بحامد لاتهامه بالتحريض على الإضراب فى مدرسة البوليس .

وأمام ضريح الحسين هتفت من قلب معذب :

ـ اللهم نجنا من شر هذه الأيام . . اللهم انصر المظلومين . .

كانت تربى ذريتها بتراثها وإذا بالجميع يتكلمون عن الوطن وسعد ، اتسع مجال الوجدان وأصبحت الحوادث هى المربى الأول . وصمدت راضية وعمرت مثل أمها حتى جاوزت المائة سنة . فى أثناء ذلك تحول الأبناء إلى أسر وشب أحفاد جدد . وسمعت بولى آخر اسمه مصطفى النحاس ، وأخيراً آخر الأولياء الذين عاصرتهم جمال عبد الناصر الذى رفع أحفادا لها حتى السماء وخفض أعزة منهم إلى الحضيض أو السجن ، فراوحت بين الدعاء له والدعاء عليه . وقد انقرضت من أسرتها فى حياتها الأم والأخوات ، وأحمد عطا وعمرو وسرور ومحمود عطا ، وآخرون لم تدر بهم . ولكن قلبها لم يعرف الرعب أكثر مما عرفه فى زمانين . . وفاة عمرو الذى حزنت عليه عمرا كاملا . ومأساة قاسم وخاصة فى أول العهد بها . غير أنها صمدت بقوة خارقة ، وهزمت همومها بحيوية نادرة المثال ، ولم تتقاعد فى بيت إلا وهى تشارف المائة ، وواظبت على الحركة فى مداخله ، ولم تعجز عن الحركة إلا فى عامها الأخير ، ولما حتم القضاء طرقها

الموت بلطف ودماثة. كانت صدرية متربعة على الفراش عند قدميها، وإذا بها تسمعها تغنى بصوت ضعيف:

عودى يا ليالى العز عودى

فضحكت صدرية وتساءلت:

ـ أتغنين يا نينة؟

فقالت:

ـ كنت أغنى هذه الأغنية وأنا أرقص بين البئر والفرن.

ومال رأسها الناحية اليسرى لائذا بالصمت الأبدى..

رشوانة عزيز يزيد المصرى

هى بكرية عزيز أفندى ونعمة عطا المراكيبى. ولدت ونشأت فى مسكن الأسرة بالغورية حيث أقام يزيد المصرى بالدور الأول وسكن الثانى عطا المراكيبى جد رشوانة لأمها. ولما ولد عمرو وسرور تبين أن الولدين أجمل من البنت ولكنها كانت مقبولة ذات جسم ممتاز. وألقاها أبوها على أخيها ولكنها دربت خير تدريب على فنون البيت ومالت بطبعها وتأثرها بأمها إلى التدين فعرفت على مدى عمرها بالتقوى والورع. ولما بلغت الخامسة عشرة رغب فى الزواج منها المعلم صادق بركات تاجر الدقيق بالخرنفش.. كان من المتعاملين مع عطا المراكيبى، ومنه عرف عزيز ناظر السبيل وزوج ابنته.. فطلب منه يد بكريته، وزفت إليه فى بيت يملكه فى بين القصرين على كثب من سبيل أبيها.. وكان صادق بركات قد سبق له الزواج مرتين ولم ينجب، ومرت أعوام على رشوانة دون حمل، ثم أنجبت ابنتها الوحيدة دنانير، فسر الجميع لذلك وخاصة صادق بركات نفسه. وكان مستوى الرجل المالى حسنا، وأفضل بكثير من عطا المراكيبى وعزيز يزيد المصرى، فتمتعت رشوانة بحياة طيبة، مطبخها عامر وعروس برقعها من الذهب الخالص. وتزور والديها فى الغورية أو أخويها عمرو وسرور فى بيت القاضى محملة بالهدايا. واستوت دنانير على مثال أمها مقبولة أو أحسن درجة، وأثبتت نجابة فى المدرسة فشجعها أبوها على الاستمرار رغم اعتراض محمود بك عطا المراكيبى. وأيدت رشوانة خطة زوجها لتتساوى ابنتها مع فيهمة وعفت كريمتى عبد العظيم داود ابن عمها، ولكنها كانت راسمة الزواج كنهاية سعيدة يقف عندها التعليم. ولذلك دربت ابنتها على فنون البيت فى العطلة المدرسية الطويلة وانتظرت على لهف ابن الحلال. ولما لزم صادق بركات الفراش

نتيجة لمأساة مرضه سلمت باستمرار دنانير فى التعليم كضرورة لا مفر منها، على الأقل حتى يتيسر لها الزواج، واشتدت الحاجة إلى ذلك عقب وفاة صادق بركات، وبعد أن أصبحت بلا مورد، ولم تجد بأسا فى أن تتزوج دنانير على أن تعتمد هى فى معاشها على خالها محمود بك لولا إباء دنانير وإصرارها على العمل حتى مع الحرمان من حقها المشروع فى الزواج. وقد مات أبوها عزيز دون أن يترك لها شيئا تركن إليه، وماتت أمها نعمة فقيرة، إذ أن ثراء عطا المراكيبى جاءه من زوجته الجديدة التى تزوج منها بعد وفاة زوجه الأولى أم نعمة وكانت تدعى سكينة وهى ابنة صاحب دكان المراكيبى الذى ورثه عطا عنه أو أداره نيابة عن سكينة صاحبته الأصلية، وقد صفى الدكان بعد وفاة سكينة. كرهت رشوانة فكرة التضحية بدنانير من أجلها هى، وحاولت إقناعها عبثا بعرض خالها محمود الكريم، والذى أبدى أخوه أحمد المشاركة فيه حبا وكرامة، ولكن دنانير أبت ذلك، وقالت لأمها:

ـ سنعيش بكرامتنا مهما كلفنا ذلك..

ولم تخف عنها انتقادها الثابت لخالها ولسائر أسرتها، قالت:

ـ إنهم يعبدون المال والجاه ولا كرامة لهم..

فقالت لها رشوانة بارتياع:

ـ ما أقساك فى حكمك، إنهم أناس طيبون ويتقون ربهم..

فقالت لها برقة:

ـ أنت طيبة وتحكمين عليهم بطيبتك، ومن هنا الخطأ..

وراحت تبث قلقها للجميع.. لأخيها عمرو، وراضية، ولنازلى هانم وفوزية هانم، وفريدة هانم حسام حرم عبد العظيم داود، فلم يوافق أحد على كبرياء البنت، وتنبأوا لها بالندم حيث لا ينفع الندم، أما راضية فتساءلت:

ـ ومن الكافر الذى حرم الزواج على المعلمات؟!

وكانت رشوانة تلاحظ ابنتها بقلق، محاولة النفاذ إلى أعماقها، متسائلة عن أفكارها وعواطفها وعن المخبأ لها فى زوايا حياتها الغريبة التى تشبه حياة الرجال.

وكلما توترت لها أعصاب أو شكت شأنا من شئون العمل فسرت رشوانة الحال بدواع أخرى مستقرة فى أعماق تلك الحياة الشاذة السقيمة، وتراها وهى تزداد بدانة وتفقد طلاوة شبابها وجمالها يوما بعد يوم، وتتطبع بطابع الجدية والخشونة كأنما يحولها العمل وهى لا تدرى إلى رجل. وتخلو إلى أخيها سرور أفندى فى بيته بميدان بيت القاضى وتقول له:

ـ فيك الخير يا أخى، لماذا لا تخطب دنانير لابنك لبيب؟

فيقول سرور متهربا :

ـ لكنها لا تريد أن تتركك تحت رحمة الغير . .

ـ أستطيع أن أقنعها إذا سعدت بعريس لقطة كابنك .

فقال لها بصراحة :

ـ الحق إنى لا أرحب بزواج لبيب حتى تتزوج جميلة وبهيجة وزينة ، أنا رجل لا أملك سوى مرتبى الصغير ولا غنى عن مساعدته لتجهيز البنات . .

وترجع بغصة لتجتر همومها التى لا تتخلى عنها إلا أويقات صلاتها . وتنظر فترى الشباب يختفى تماما وتحل محله صورة كئيبة موسومة بالخشونة والجفاف فلا يشك أحد أنه خيال عانس تعكر لها الدهر وتتراكم الهموم برحيل الأحبة واحد فى إثر آخر ، ذهب أحمد وعمرو ومحمود وسرور ، وإذا بقلبها يخونها بالمرض بعد أن خانها بالحزن الدائم . وتستوطن الفراش على كره ، وتسهر ليالى من الألم ، وتشعر بأن الموت يأخذ أهبته . . ويعودها آل المراكيبى وآل داود ويتردد عليها آل عمرو وسرور ، وتوصى كل فرد بدنانير ، وقالت لابنتها وكأنما تلقى إليها بوصيتها الأخيرة :

ـ تزوجى فى أقرب فرصة!

وساعة الاحتضار وثبت دنانير إلى الفراش ، وأسندتها إلى صدرها ، وراحت تتلو ما تيسر لها من الآيات ، حتى لفظت المرأة أنفاسها ، وأصبحت هى وحيدة بكل معنى الكلمة . .

حرف الزاى

زينب عبد الحليم النجار

ولدت ونشأت فى عطفة الكردى بالحسينية لأب مصرى يدعى عبد الحليم النجار ـ صاحب دكان نجارة صغير بالحسينية ـ وأم سورية .

وقد تزوجت من سرور أفندى بعد زواج شقيقه الأكبر عمرو بثلاثة أعوام . وكان عزيز يؤمن بالزواج المبكر فلم يلق بالا لاعتراض سرور وقال له :

ـ الزواج لأمثالك دواء ناجع . .

وقال له أخوه عمرو :

ـ أنت صاحب مزاج وعلى قد حالك ، والزواج أرخص وسيلة!

واستعانوا بخاطبة فدلتهم على بيت عبد الحليم. وكان الرجل ذا سمعة طيبة وميسور الحال لدرجة لا بأس بها. أجل اعترض عليه بصفة صاحب حرفة ولكن الخاطبة قالت:

ـ البنت أدب وجمال..

وذهبت نعمة وراضية للزيارة التقليدية. انبهرا حقا بجمال العروس. وكانت بيضاء فاحمة الشعر ذات عينين خضراوين وجسم لدن ونظرة عميقة الهدوء. وقالت نعمة وهما فى طريق العودة:

ـ آية فى الجمال..

فأشعلت غيرة راضية وقالت وكأنما تؤيد وتدافع:

ـ أما الأصل فكلنا أولاد حوا وآدم!

وزفت زينب إلى سرور فى بيت مجاور لبيت عمرو بميدان بيت القاضى، وحال رفع النقاب عن وجهها وقع فى غرامها، أما هى فقد أحبته حتى آخر عهدها بالحياة. وقد أنجبت له من الذرية: لبيب وجميلة وبهيجة وزينة وأمير وحازم وكان جمالها جواز المرور إلى احتفاء الاسرة وفروعها بها، ورسخ الأثر بأدبها ودماثتها وهدوء طبعها. أجل شعرت بغريزة ما بغيرة راضية منها ولكن لم ينجم عن ذلك أى مضاعفات بفضل هدوء طبعها المتمادى لحد البرود. طالما احترمتها وجاملتها وقدمتها على نفسها بوصفها حرم الشقيق الأكبر. وطالما أملت أن يكون أبناؤها أزواجا لبناتها، وكلما اتجه أحدهم إلى قبلة أخرى اتهمت راضية بأنها وراء انحرافه عن قبلته المشروعة وصاحبة الحق الأول فيه. ولكن ذلك لم يفسد الود بين الأسرتين ولا ظهر فيه أثر فوق السطح. متاعبها الحقيقية بدأت مع اقتراب سرور من الكهولة فلم يغب عن إحساسها اليقظ تململه ولا تطلعه التلقائى لكل من هبت ودبت من حسان الحى. وبسبب ذلك قام النزاع بينهما على كبر. من ناحيته دفع عن نفسه التهم بحدة وعصبية، ومن ناحيتها عاتبت واشتكت بصوتها المهموس ودماثتها الصامدة، ولما فرغ صبرها شكته إلى أخيه الأكبر عمرو أفندى، وقال عمرو لأخيه:

ـ الناس تكبر تعقل..

فأكد له أن الأوهام لا تريح زوجته، فقال عمرو:

ـ أولادك كبروا أيضا..

وعلمت راضية بالمشكلة فراحت تقول لسلفتها:

ـ وأين يجد جمالا كجمالك؟!

ولكنها سرت فى باطنها وقالت لنفسها إن المرأة لا تحيا بجمالها وحده!

ولم تنج من عواقب الحزن فأصابها مرض السكر والضغط وتناوبتها الوعكات

وزحف الشحوب على رونقها المتألق ليطفئه رويدا رويدا قبل الأوان. وقرأت دواما أحلام الجشع فى نظرات سرور، وعاشت فى جو ملبد بسحب المخاوف. وتناوبتها هواجس محضة بأنه لولا الفقر لتزوج مرة أخرى، وهل يبعد أن يظفر بامرأة غنية تحبه كما جرى حظ عطا المراكيبى قديما؟! وطالما غبطت راضية على قناعة زوجها وعلو مكانتها فى الأسرة نتيجة لمصاهرتها لآل المراكيبى وآل داود. وتقول لزوجها:

ـ انظر كيف يحبون أخاك ويغدقون عليه الهدايا، أما أنت فقد أثرت نفورهم بحدة لسانك!

وجاءت الحرب العظمى الثانية بإظلامها وغاراتها. ولكن أفظع غارة انقضّت من القدر على سرور نفسه فأتلفت صحته وسلمته ليد الموت قبل الأوان وهو فى عامه الأخير من الخدمة. ضربة قاضية نزلت بها بغياب الرجل الذى لم يفتر حبها له ساعة واحدة من عمرها رغم فتور رغبته وركود حبه. وعقب عام واحد من وفاته أصابها نزيف فى المخ فراحت فى غيبوبة امتدت ثلاثة أيام، ثم أسلمت الروح فى صباح اليوم الرابع بين يدى راضية..

زينة سرور عزيز

هى صغرى بنات سرور أفندى والرابعة فى ذريته. اشتهرت بعينين خضراوين واسعتين وجسم سريع النضج يوحى بأنه جسم امرأة لا بنت عذراء. وحجزت فى البيت فى سن مبكرة بعد فك الخط فى الكتاب، ومضت نحو المراهقة فى محطة انتظار ابن الحلال. وذهبت جميلة إلى بيت الزوجية، وبقيت هى مع بهيجة فى محطة الانتظار. تفتح شبابها على أسرتها حين دهمها الغروب والتوتر فى جو الإظلام والغارات، ولحظت من وقت مبكر مناورات القلوب التى تدور بين بهيجة وقاسم، وفطنت بغريزة متوقدة إلى أن سنهما المتماثل لا يرشحهما للزواج، وأنه أولى بالفتى أن ينتبه إليها هى. ودأبت ست زينب على اصطحابها ـ هى وبهيجة ـ فى زياراتها لبيوت الأسرة. شد ما تلتهمها الأعين ولكن يبدو أن أحدا لا يراهما أهلا للزواج. إنها أسرة تستأهل ما يردها أبوها عنها وأكثر.. وحل المرض بقاسم فلاذ بعالمه الجديد، وتلقت أختها الطعنة فى صمت وصبر وتسليم. ورحل أبوها ثم تبعته أمها، فوجدت نفسها مع أختها وحيدتين، يلم بهما أخوها لبيب كلما سمح له عمله خارج القاهرة. وقالت لهما راضية:

ـ الله لا ينسى عباده ومن توكل على الله فلا يحزن.

وذات يوم وكان لبيب يجالسهما فى جلبابه، قال:

ـ جاءنى أحدهم يطلب يدك يا زينة .

خفق قلبها، ونظرت نحو بهيجة نظرة مفعمة بالذنب . فقال لبيب :

ـ لكل إنسان حظه، وفى وقت لا يتقدم ولا يتأخر .

فقالت بهيجة رغم غرقها فى اليأس :

ـ صدقت تماما يا أخى . . مبارك عليها . .

فقال الرجل :

ـ ومن ناحيتى لا أستطيع أن أهمل فرصة . .

وساد صمت ثقيل، ثم قال وكان ذا قدرة على مواجهة أحرج المواقف :

ـ اسمه صبرى المقلد، موظف بشركة الكيماويات .

فتمتمت زينة بريبة !

ـ شركة !

ـ أفضل من الحكومة . . الدنيا تتغير . .

ثم وهو يهز رأسه الكبير :

ـ سمعت أنه سكير، وهو نفسه اعترف بذلك، ولكنه أكد لى أنه تاب وأنه يؤهل نفسه للزواج بجدية . . ما رأيك؟

قالت باستسلام :

ـ الرأى رأيك .

ـ هذا الكلام لا ينفع اليوم . . سوف ترينه بنفسك . .

وجاء صبرى المقلد فاستقبله لبيب فى حجرة الاستقبال القديمة . وتزينت زينة وارتدت أحسن ما عندها من ملابس ودخلت للقاء حظها . لم تستطع أن تتفرس فى وجهه، ولكن لمحة كفت لإعطاء صورة عنه . كان نحيلا بدرجة ملحوظة هائل الأنف كبير الشدقين طويل الوجه . ولما ذهب قال لبيب :

ـ لا يعيب الرجل قبحه . . مرتبه محترم . . أسرته طيبة . . والرأى الأخير لك . .

تبين لها أنها تريد زوجا بأى ثمن : لا صبر لها على تلك الحياة الكئيبة وليكن الله مع بهيجة . وزفت إليه فى بيت تملكه أمه ببين الجناين . . وبدت سعيدة بزواجها تماما وأنجبت له خليل وأميرة . وماتت أميرة طفلة مخلفة جرحا غائرا فى قلب الأم الشابة . وكان صبرى يكبرها بعشرين عاما ولكنها نعمت فى كنفه بحياة طيبة، فرفلت فى أجمل الثياب وتناولت أشهى الأطعمة حتى تمادت فى السمانة وشابهت عوالم الزمان الأول . وقد صدمها زواج ابنها خليل من أرملة فى مثل سنها، ولكنها عبرت محنتها بسرعة ودون

أزمة حقيقية. ولم يكدر صفوها إلا الزمن الذى قطع ما بينها وبين أهلها جميعا حتى تخايلت لعينيها القبيلة القديمة المتداخلة باللقاءات المتواصلة مثل حلم لا ظل له عن الواقع. وقد جاء الزمن بالراديو والتليفزيون وراحت القاهرة تتضخم وتنهمر عليها الأحداث والحروب والعلل. وكأن بين الجناين أصبحت مثل غيرها من الأحياء مملكة مستقلة لا تعبر حدودها إلا فى الملمات.

حرف السين

سرور عزيز يزيد المصرى

ولد ونشأ فى بيت الغورية على مرأى من بوابة المتولى، مع شقيقه الأكبر عمرو وأختهما الكبرى رشوانة. وترامى مراح طفولتهم ما بين البوابة وسبيل بين القصرين حيث يجلس الأب عزيز على عرشه المائى. وكان سرور يشبه أخاه فى طوله ووضوح ملامحه، ولكن وجهه أنبأ عن تناسق ألطف كما مال جسمه إلى البدانة. وكانت جدته نعمة المراكيبى تخصه بحب لا يحظى بمثله عمرو أو رشوانة، وتدلله رغم احتجاج عزيز وتحذيراته. ونشأ طبعا مؤمنا ولكن بلا قيود بخلاف أسرته جميعا، فلم يؤد الصلاة، ولا الصيام حتى بلغ الخمسين من عمره، وستنطبع أسرته الخاصة بطابعه فيما بعد، وبدا كسولا كارها للتعلم فتعثرت خطواته.. أما فى معابثة البنات ومطاوعة الغريزة فقد أنذر سلوكه بالمتاعب. وحاول جر أخيه عمرو معه ولكنه لم يجد منه استجابة تذكر، ووجد على العكس صدا وملامة. وقد تبادلا حبا أخويا متينا وصمد فى النهاية أمام ما شاب علاقتهما مع الزمن من خلافات. ومضى فى مدرسته الابتدائية بصعوبة، ولم يكن حظ عمرو أوفر منه، ولذلك ما كان يحصل على الابتدائية حتى ألقى سلاحه، وسعد بوظيفة فى السكك الحديدية. كانت الابتدائية شهادة ذات شأن فارتاح بال عزيز وحمد الله. أجل تمنى المزيد لابنيه متأثرا بمثال أخيه داود باشا وابنه عبد العظيم، ولكنه قال لنفسه «القناعة كنز». بل راح يفكر فى الخطوة التالية المهمة وهى الزواج.. ولما حادثه أبوه فى الأمر وجد منه فتورا، فصارحه بأنه لا يبارك سلوكه وأنه يرى فى الزواج خير علاج له.. وانضم عمرو إلى رأى والده بحماس، وسرعان ما أذعن سرور احتراما لهما وتطلعا لسحر الزواج أيضا.. ودلتهم الخاطبة على بيت زينب، وذهبت قافلة من نعمة ورشوانة وراضية لخطبة زينب. وزفت إليه فى البيت المجاور لبيت أخيه بميدان بيت القاضى، وبهر سرور بجمال زوجته وطبعها الهادئ وخلقها الدمث، ووجد بين يديها الحب والشفاء،

وأنجبت له فى حياة موفقة لبيب وجميلة وبهيجة وزينة وأمير وحازم، كان لسرور من وظيفته الرسمية وزوجته الممتازة وذريته الجميلة ما يؤهله لطمأنينة النفس، ولكنه كان دائما يحوم حول ما يفتقده فخسر كثيرا من الأحلام وأحد الحسد قلبه ولسانه. جمع بينه وبين زينب حال واحدة، توارت عند زوجة وراء طبعها الهادئ وخلقها الدمث، وتجلت مع فحولته غير المبالية. عرف ـ كان لا بد أن يعرف ـ ماذا كان جده عطا المراكيبى وماذا صار وكيف ابتسم له الحظ، كما عرف الأصل الذى صدرت عنه باشوية عمه داود، واحتج على ثراء جده وفقر أمه واتهم جده بالدناءة والقسوة، ولسعته الغيرة من أخيه المحبوب عمرو لإغداق الجميع عليه بالحب والهدايا وتجاهله هو كأنه ليس بشقيق عمرو، متغافلا عن حدة لسانه التى نفرت القلوب منه. وضاعف من تأزمه أن عمرو تخطى ابنتيه وزوج ابنيه من آل داود وآل المراكيبى. أجل لم تطف عواطف السخط إلى السطح فيما بين الشقيقين أو الأسرتين وغلب الحب دائما، ولكن الباطن ماج كثيرا بالانفعالات المتضاربة. حتى ما بين راضية وزينب فقد غطاه السلام دائما وحسن المعاشرة، وشد ما بكى سرور يوم وفاة عمرو كما احتضرت زينب تحت مظلة حانية من تلاوة راضية ودموعها. وكما كان سرور دون أخيه فى تقواه كان كذلك فى وطنيته، ولكن ثورة ١٩١٩، أودعت قلبه المتمرد قدرا من الدفء لم يتلاش حتى النفس الأخير. وظل يفاخر باشتراكه فى إضراب الموظفين كما لو كان المضرب الوحيد، وظلت ذكريات مظاهراتها عالقة بخياله كأفتن الطيبات التى عشقها فى حياته. تلك الموجة العاتية الهادرة بأناشيد المجد التى جرفت الآباء والأبناء واقتحمت قلوب النساء وراء المشربيات، ولذلك وجد فى ارتداء آل المراكيبى وآل داود عن زعامتها المقدسة مجالا يضرب فيه لسانه بغير تحفظ يقول لأخيه:

ـ لنا خال لا يعبد فى الدنيا إلا مصالحه..

أو يقول:

ـ وبيت عمنا الجليل المنضم لعدلى توهما أنه حقا من العائلات!

ومع الكهولة تفجرت ثورة أخرى فى أعماق سرور تمرد بها على حب زوجته وانطلقت عيناه وغرائزه وراء أحلام المراهقة من جديد. ونشب الشقاق بينه وبين زينب الوديعة المحبة الحزينة. وتعاتبه بصوتها المهموس:

ـ ماذا نصنع لو شكتك جارتنا إلى زوجها؟

فيقول بحدة:

ـ لا يوجد أصلا موضوع للشكوى.

ولما شكته هى إلى عمرو صب غضبه عليها وهددها بأنه سيتزوج ثانية وقتما يشاء.

وكان الزواج مرة أخرى أمنية يعجز عن تحقيقها. والحق أنه لم يخن زوجته إلا مرتين، واحدة فى بيت من بيوت البغاء، والأخرى علاقة عابرة لم تدم أكثر من أسبوع. وحنق أكثر على فقره، وأكثر وأكثر على جده الفظ، ودأب على شراء أوراق اليانصيب لعل وعسى، ولكنه لم يجن من ذلك كله إلا العتاب الصامت يلوح فى أعين بكريه لبيب وبناته، خاصة عندما تدهورت صحة زينب. ولما رحل عمرو دهمه شعور بالوحدة والكآبة، وجاءت الحرب والإظلام والغارات فأعلن أن الحياة صفقة خاسرة، ولم يجد من سلوى فى الحياة إلا فى عظمة ابنه لبيب الذى تاه بها مع الجميع، الأمر الذى زاده ثقلا على قلوب الأهل، وفى الفترة الأخيرة من حياته انقطع عن زيارة آل مراكيبى وآل داود، ولكنه كان يزور كثيرا أبناء عمرو وبناته ويشارك فى أفراحهم وأحزانهم، كذلك بيت أخيه، وكانوا يحبونه منذ صغرهما وتضاعف حبهم له عقب وفاة أبيهم. وفى العام الأخير من خدمته الحكومية أصابته أزمة قلبية وهو جالس فى المشربية فى ليلة خريف يرنو إلى الظلام الجاثم فوق البيوت والمآذن، متوقعا بين ساعة وأخرى نذير الغارة المعتاد. وقد فارق الحياة فى أقل من دقيقة واحدة.

سليم حسين قابيل

آخر ذرية سميرة عمرو وحسين قابيل. ولد ونشأ فى شارع ابن خلدون، وتوفى أبوه وسنه عام واحد فترعرع فى حياة منضبطة غير الحياة الرخية التى تقلبت فيها أسرته وهو خاطرة فى عالم الغيب. وكان وسيما كأمه، فارع العود كأبيه، كبير الرأس والعقل كأخيه حكيم. ومنذ صغره تجلت صلابته وعناده كما تجلى تفوقه الدراسى. وعدته أخته هنومة بتدينها وصرامتها الأخلاقية. وظن عهدا طويلا أنه يتلقى حقائق الغيب عن لسان جدته راضية. وكان يحب كرة القدم ويجيدها، ويحب مخالطة البنات فى حديقة الظاهر بيبرس، ويكره الإنجليز، ودائما تداعب خياله أحلام الإصلاح والمدينة الفاضلة. ولم يمل إلى حزب من الأحزاب، صده عن ذلك أخوه حكيم الذى رفض الجميع بدون استثناء. وسمع حكيم يقول مرة:

ـ نريد شيئا جديدا.

فقال بتلقائية:

ـ مثل سيدنا عمر بن الخطاب..

واتجه بدافع من مزاجه وبتأثير من هنومة إلى الكتب الدينية فى مكتبة أخيه. كان حلم

المدينة الفاضلة يغلب عليه الكرة والبنات . ولما قامت ثورة يوليو كان فى المرحلة الثانوية فرحب بها بكل حماس كمنقذ من الضياع ، وشد من ارتباطه بها الدور الذى لعبه شقيقه حكيم فيها . لأول مرة خيل إليه أن المدينة الفاضلة تبنى حجرا بعد حجر . وظن أنه بانضمامه إلى الإخوان إنما يندمج أكثر فى الثورة ، فلما وقع أول تناقض بين الثورة والإخوان أبقاه قلبه مع الإخوان ، ومضى يختلف مع شقيقه . وقال له حكيم :

ـ الحذر .

فقال :

ـ الحذر لا ينجى من القدر .

والتحق بالحقوق ونشاطه السياسى ـ أو الدينى فى تصاعد . ولكن أحدا من أهله لم يتصور أنه سيكون بين المتهمين فى قضية الإخوان الكبرى . وتحير حكيم وقال لأمه الجزعة :

ـ لا حيلة لمخلوق !

وحكم عليه بعشر سنوات فترنحت سميرة تحت وطأة الضربة ، ووجدت أن تألق نجم حكيم لا يعزيها شيئا عن سجن سليم ، فأضمرت الكراهية للثورة وراحت راضية تدعو على الثورة ورجالها ، وخرج سليم من السجن قبل ٥ يونية بعام فأتم المتبقى له من الدراسة وحصل على الليسانس ، وعمل فى مكتب محام إخوانى كبير . ولما وقعت الهزيمة الكبرى اعتبرها عقابا إلهيا على حكم كافر . ولم تنقطع صلاته بالزملاء ولكنها مضت فى تكتم شديد وحذر ، ووجد متنفسا فى الكتابة فوهب لها سنوات من عمره تمخضت عن ثمرة جيدة فى كتاب «العصر الذهبى للإسلام» ثم أتبعه بكتاب أهل العزم والتقوى . وفى الوقت نفسه أحرز نجاحا لا بأس به كمحام ، وتحسنت أحواله المالية من رواج كتابيه خاصة بعد أن ابتاعت السعودية منهما كمية موفورة . ولما رحل زعيم الثورة داخله شىء من الطمأنينة ، فقالت له سميرة :

ـ آن لك أن تفكر فى الزواج .

فاستجاب لصوتها استجابة ملهوف فقالت :

ـ عليك أن ترى هدية بنت أمانة بنت خالتك مطرية .

هى صغرى ذرية أمانة وكانت قد رجعت توا من الخليج بعد اشتغالها بالتدريس هناك عامين واشترت شقة فى منشية البكرى . وزار بصحبة سميرة بيت عبد الرحمن أمين وأمانة فى الأزهر ورأى هدية ، مدرسة جميلة وفى ريعان الشباب تمت بجمالها إلى جمال جدتها مطرية قمة جمال الأسرة . وخطبتها سميرة وزفت إليه واستقر بها فى شقتها بمنشية البكرى ، وحظى سليم بزوجة طيبة وحياة عملية آخذة فى الازدهار ، وأنس فى حكم

السادات مودة ورحمة، ولم يقلقه إلا التيارات الدينية الجديدة التى انبثقت من الإخوان، ثم شقت لنفسها مجارى جديدة محفوفة بالتطرف والغموض. وكان يقول لأخيه حكيم:

ـ ثمة صحوة إسلامية شاملة لا شك فيها، ولكنها بعثت فيما بعثت خلافات قديمة تستنفد قواها فيما لا يجدى..

ولكن حكيم كان يهيم فى واد آخر، وكان رغم عواطفه الشخصية ـ يعتبر ما حل بالنظام فى ٥ يونية كارثة محققة، وأن الوطن يمضى إلى مجهول. ومضت الأيام فتلقى سليم من ربه عهد الأبوة والوفرة فى الرزق، والرضوان يوم النصر، ولا شىء من ذلك كله يزحم فى نفسه إيمانه الراسخ وحلمه الأبدى بالمدينة الإلهية الفاضلة، وجرف معه فى تياره العارم هدية حتى قالت:

ـ كنت ضالة فهديت والحمد لله..

وأصبح سليم من كتاب الدعوة فى مجلة الإخوان، ودهمه ما دهم زمرته من غضب لمغامرة السادات الكبرى فى سبيل السلام، وارتد مرة أخرى إلى عنفوان السخط والتمرد، حتى صدرت قرارات سبتمبر ١٩٨١، ورمى به فى السجن من جديد. ولما وقع حادث المنصة قال:

ـ عقاب إلهى لحكم كافر..

وتنفس الحرية فى جو جديد، ولكنه كان قد فقد الثقة فى كل شىء إلا حلمه، فمن أجله يعمل ومن أجله يعيش..

سميرة عمرو عزيز

هى الرابعة فى ذرية عمرو والثانية فى الجمال بعد مطرية. ومن خلال لعبها فوق السطح وتحت شجرة البلخ فى الميدان، أو دراستها فى الكتاب تبلورت لها شخصية رزينة وطبع هادئ وذكاء وقاد. نادرا ما التحمت فى «نقار» مع إخوتها، وعند احتدام العنف كانت تنزوى فى ركن قانعة بمشاهدة ما يجرى مما ستدعى للشهادة عليه فيما بعد. ورغم أنها فاقت أمها بجمالها، إلا أنها كانت تمت إليها فى الهيئة العامة ـ عدا الطول ـ الأمر الذى جعل راضية تخصها بإعجاب شديد. وبخلاف أخواتها حفظت المبادئ التى لقنتها فى الكتاب ونمتها بالاجتهاد فكانت الوحيدة بينهن التى تواظب على قراءة الصحف والمجلات فى الكبر. وفى زياراتها لآل مراكيبى بسراى ميدان خيرت أو آل داود

بالعباسية الشرقية كانت تسجل فى وعيها ما تراه من أناقة الترتيب وآداب المائدة وإيقاع الحديث وجمال الموضة وتحاول اكتسابه والتطبع به ما وسعتها الحيلة وسمحت الظروف. وكان محمود بك عطا يقول بمزاحه الخشن:

ـ أنتم أسرة بلدى، ولكن فيكم بنت من بنات الفرنجة!

وأدركتها المراهقة ولكنها لم تعاشر طويلا أحلام العواطف الدفينة، إذ سرعان ما تقدم لخطبتها صديق لأخيها عامر يدعى حسين قابيل صاحب دكان تحف فى خان الخليلى. زامل أخاها حتى البكالوريا ثم خلف أباه فى الدكان عقب وفاته، وكان رغم شبابه ذا سمات فحلة وثبت به إلى الرجولة قبل الأوان، ضخم الجسم، كبير الرأس، حاد البصر. وعلى خلق كريم وثراء لا بأس به، وبخلاف صدرية ومطرية زفت سميرة إلى زوجها فى حى الظاهر، بشقة فى عمارة جديدة بشارع ابن خلدون. وجاء ذلك مناسبا لها تماما، فصادفت كثرة من الأسر اليهودية، وتعلمت العزف على البيانو، وربت كلبة لولى كانت تصحبها فى نزهاتها بحديقة الظاهر بيبرس. ولما علم عمرو بذلك قال محتجا ومسلما بالأمر الواقع فى آن.. ما شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله..

وكان حسين قابيل ميسور الحال وكريما، فتفجرت ينابيع الحياة الرغيدة فى مسكنه، وأشبعت سميرة هواها الكامن إلى الموضة والمعيشة الأنيقة، وضاعف من سرورها ما طبع عليه زوجها من جميل المعاشرة وأدب المعاملة، وأمام الآخرين كان يخاطبها بقوله «يا سميرة هانم» وتناديه بقولها «يا حسين بك» وكان الرجل يجمع فى قلبه بين الوطنية الصادقة والتدين العميق، وينشرهما فى قلب أى من أخواتها، كذلك كان تدينها أسلم من الشوائب إذ كانت أقل أخواتها تأثرا بغيبيات راضية. وقد أنجبت له بدرية وصفاء وحكيم وفاروق وهنومة وسليم، وجميعهم حظوا بنصيب موفور من الجمال والذكاء، وتعاون الوالدان على تربيتهم تربية سليمة فى كنف الدين والمبادئ. ومن أول يوم قالت له:

ـ سنعلم البنات كالصبيان.

فوافق بحماس، واستطاعت سميرة بتألقها أن تحرك شيئا من الغيرة عند آل مراكيبى وآل داود أنفسهم، غير أن حياتها لم تخل من أحزان كثيرة ففقدت بدرية وحكيم وأسرته، وانشق قلبها قلقا على سليم فى شتى أطوار حياته. ومن العجيب أنها كانت تلقى المصائب بإرادة مؤمنة صابرة قوية، قادرة على تلقى المصائب وهضمها، ومعايشة الحزن الباقى بحكمة جعلتها غرضا سهلا للاتهام بالبرود. وتقول لها راضية:

ـ إنك لا تؤمنين كما يجب بالحجاب والرقا والبخور والأضرحة، ولا علم إلا علم الأولين..

وتتساءل سميرة فى نفسها دون أن تبين هل أجدت هذه الوسائل فى دفع المصائب عن صدرية ومطرية؟! وحم القضاء فتوفى حسين قابيل بعد مولد سليم بعام واحد وأربعة أعوام خلت على وفاة أبيها. ولم ترث عنه إلا مخزنا من التحف، دبرت أمورها على عوائد بيعها عند الحاجة، وقد رحل الأب، وذريته ماضية فى مراحل التعليم ما بين الثانوية والجامعة. . وسألتها راضية:

ـ ماذا تبقى لك يا سميرة؟

فأجابت:

ـ مخزن من التحف.

فقالت المرأة:

ـ بل يبقى لك خالق السماوات والأرض. .

حرف الشين

شاذلى محمد إبراهيم

الابن الثانى لمطرية ومحمد إبراهيم وقد ولد ونشأ فى بيت والديه بحارة الوطاويط. كان جميلا ولكن دون أخيه أحمد المتوفى درجة، وحل محل أخيه الراحل فى زمالة خاله قاسم، ولكنه لم يفز بالمنزلة الأسطورية التى فاز بها أحمد. ومن صغره خالط بيت جده عمرو، وآل سرور، والمراكيبى وداود، وثابر على ذلك فى سائر أطوار حياته ناهجا سبيل أمه فى حب الناس والإكثار من معاشرتهم. ومن صغره أيضا تجلت له مواهب سوف تصحبه فى حياته كخفة روحه وميله للهو وتطلعه للمعرفة وحبه البنات وتوفيقه فى ذلك كله، رغم أنه لم يحرز فى حياته التعليمية إلا درجة وسطى. ولعله ورث عن أبيه حب الاطلاع ووجد زاده فى الكتب والمجلات التى يقتنيها. وأضاف إلى معارفه من الأهل أصدقاء جددا من قادة الفكر المعاصر، أيقظوه من سباته وألهبوه بالتساؤلات التى لم ينقطع عنها طيلة عمره. ورغم ثقافته الإنسانية المتنامية وجد استعداده فى دارسة العلوم الرياضية فالتحق بكلية العلوم، ثم اشتغل مدرسا كأبيه، واستقر فى القاهرة بوساطة آل المراكيبى وآل داود. وواصل حياته مشغولا بثقافته ولهوه عن المستقبل حتى قال له أبوه:

ـ إنك مدرس، ومهنة التدريس ذات تقاليد، وأرى أن تفكر فى الزواج. .

وقالت مطرية.

ـ البنات فى أسرتنا كثيرات، بنات خالاتك، وبنت عمنا زينة!

وكان قد غازل الكثيرات دون جدية، ولم يشعر نحو إحداهن بحب حقيقى، فقال:

ـ سأتزوج بالأسلوب الذى أقتنع به..

فقال أبوه محذرا:

ـ المدرس يجب أن يكون حسن السمعة..

حسن السمعة؟! كان يعبر فترة من الحياة يتساءل فيها عن معنى كل شىء حتى حسن السمعة! وكان كلما خلا إلى نفسه طرح هذا السؤال: من أنا؟! كان ظمؤه إلى تحديد علاقته بالكون جنونيا مضنيًا. وكان لا يكف عن مناقشة الجميع، خاصة من يأنس فيهم ميلا للمناقشة، كابن خالته حكيم، وغيره من شباب آل المراكيبى وآل داود وآل سرور. وتجرأ بعد ذلك على مقابلة طه حسين والعقاد والمازنى وهيكل وسلامة موسى والشيخ مصطفى عبد الرازق ـ ولم يكن الدين موضع رفضه ولكنه أراد أن يعتمد على عقله حتى آخر المدى، وكل يوم كان له شأن. حتى خاله قاسم كان يحاوره ويناجيه. وحتى الثاوون فى مقابرهم من أهله كان يسائلهم فى مراسم القرافة. ولما حمل جده عمرو إلى فراشه وهو يودع الحياة، جئ بممرضة تدعى سهير لتحقنه، فأعجب بها شاذلى رغم تسلط الحزن. وراح يساعدها فى تسخين الماء تحت مراقبة خفيفة من عينى عفت زوجة خاله عامر اللتين ندت عنهما نظرة خبيثة ماكرة. وتوطدت علاقة حب بين الاثنين قبل حلول الأربعين. وتبين له أنه جاد هذه المرة أكثر مما تصور فأعلن رغبته فى الزواج منها. وصارحته مطرية قائلة:

ـ لك وجه جميل وذوق ردىء!

وكان يرد على العتاب بالضحك. وقالت مطرية:

ـ أصلها واطى وجمالها مبتذل.

فقال لها:

ـ استعدى للفرح.

وسلم محمد إبراهيم بالأمر الواقع دون اكتراث، ولم تفكر مطرية فى إغضاب ابنها أكثر مما قالت، واختار شاذلى شقة فى عمارة جديدة بشارع أبو خوده واستقبل حياة الحب والزوجية. واستقالت سهير من عملها وتفرغت لحياتها الزوجية، وأثبتت أنها فتاة لبقة وطيبة وسرعان ما حازت رضا حماتها. وكان شاذلى سيئ الحظ فى ذريته، توفى له خمسة فى سن الرضاعة، وعاش محمد وحده، وصار ضابطا فى الجيش، ولكنه استشهد فى الاعتداء الثلاثى. وعاش شاذلى حياته منقبا عن ذاته، يقرأ ويناقش ويتساءل ثم يصطدم بجدار اللاأدرية فيبدأ الشوط من جديد. ولم يهتم بالسياسة إلا باعتبارها حوادث تدعو للتأمل والمعرفة، فلم يقع تحت سحر الوفد، وتابع تقلبات ثورة يوليو كما

يتابع فيلما سينمائيا مثيرا، ولكنه حزن على ضياع محمد حزنا لم يبرأ منه طيلة عمره. وقال مرة لشقيقته أمانة:

ـ كلانا لم يخلق للسعادة الصافية..

ووجد شيئا من العزاء فى حب ذريتها، أما سليم ابن خالته وزوج هدية بنت أخته فكان يخيفه بصرامته وحدته. لم يجد فى حواره متاعا ولا لذة وقال له سليم:

ـ حيرتك مستوردة ولا يجوز لمسلم أن يقع فيها.

وظل على وده لقاسم رغم ما طرأ عليه، وكان يصطحبه أحيانا إلى الكلوب المصرى حيث تنهمر عليهما ذكريات الآباء والأجداد وكمعلم راح يراقب الأجيال المتعاقبة بذهول، وقال مرة يحادث نفسه:

ـ لا أحد يشغل باله إلا بلقمة العيش والهجرة فما جدوى العذاب؟!

شاكر عامر عمرو

ولد ونشأ فى «بين الجناين» وهو شارع تقوم على جانبيه بيوت حديثة وتمتد شرقية وغربية الحقول المزروعة بالخضروات وأشجار الحناء. وهو بكرى عامر وعفت وحفيد عمرو أفندى من ناحية وعبد العظيم باشا داود من ناحية أخرى. وكان دخل أبيه من مرتبه ودروسه الخصوصية، بالإضافة إلى ملكية أمه للبيت الصغير الأنيق ذى الحديقة الخلفية بتكعيبة العنب وشجرة الجوافة وشجيرات القرنفل، كل أولئك هيأ معيشة حسنة المستوى للأسرة، كما وفر لشاكر البكرى مظهرا جميلا وتدليلا لا يفتقر للإرشاد القويم. وبالرغم من تفوقه الرياضى شق طريقه فى المدارس بنجاح. ولما لحق به فى الوجود أخواه قدرى وفايد لعبت الغيرة دورها بين الإخوة، ولم تخل من معارك، ونزاع مع الوالدين، ولكنها اعتبرت رغم ذلك أسرة متماسكة يغلب عليها الوفاق. وكان للحب المتبادل بين الزوجين نفحاته الزكية فى إضفاء جو السلام ونشر المحبة، وبقدر ما تجلى الأب صديقا أبدت الأم محاولاتها فى التسلط. وأحب شاكر جده عمرو وجدته راضية وتظاهر دائما باحترام غيبياتها، كما أحب جده عبد العظيم باشا وجدته فريدة هانم حسام. وتلقى عن آل داود احتقارهم التقليدى لآل المراكيبى الذى اشتد بعد أن صارت شكيرة سلفة لعفت أم شاكر. ونشأ شاكر، وانتماؤه لأسرته وذاته يغلب فيه أى انتماء لوطن أو لحزب من الأحزاب. ورث ذلك عن أمه التى كانت غير منتمية بحكم تربيتها وإن أعلنت فى المناسبات ولاءها للعدليين متابعة لأبيها، أما الأب فلم يعدل من وفديته القديمة ـ فى بيت الزوجية ـ إلا

عاطفة باهتة أخفاها فى أعماقه فلم يمتد تأثيرها إلى أولاده، والتحق شاكر بكلية الطب، وخاض أول تجربة عاطفية جادة فى حياته بحبه صفاء بنت عمته سميرة. وكانت لهما قصة ترامت أنباؤها إلى عفت أمه فجن جنونها. لم يكن فى صفاء ما يعيب، فهى جميلة وطالبة فى الآداب، وقريبته. ولكن عفت، رغم علاقتها الطيبة بآل عمرو ابن عم أبيها، إلا أنها كانت تراهم دون مستواهم، وأن عروس ابنها يجب أن تكون من درجة أعلى بمراحل. وثار غضبها ولم تخفه، وعلمت به سميرة وآل عمرو، وأحدث ما أحدث من استياء، وفى الوقت نفسه لم يبد شاكر مقاومة جدية لأمه. فنصحت سميرة ابنتها صفاء بقطع علاقتها بابن خالها. وغضبت الفتاة لكرامة أسرتها وقطعت العلاقة بعد اقتناع بعدم جدية شاكر، لم يخرج شاكر من تلك التجربة مهيض الجناح ولكنه لم يخل من حنق على أمه. وقد تخرج طبيبا، وبفضل خاله الدكتور لطفى باشا عبد العظيم عين فى وظيفة بالمعامل بوزارة الصحة، ثم أمكنه فتح عيادة خاصة لأمراض الدم بعد بضع سنين. وراحت أمه ترسم خطة لتحقق حلم الزواج الجدير به فى نظرها. وكان هو يتردد على ملاهى الهرم القديمة فأحب راقصة هنغارية، واكترى لها شقة فى الهرم، وتحولت العلاقة إلى حب حقيقى فتزوج منها سرا، ولم يجرؤ على مكاشفة أمه بالحقيقة ولكنه كاشف بها أباه. وصعقت عفت، وثارت ثورة علم بها القاصى والدانى وكثر الشامتون. وانتقل الدكتور إلى مأواه الجديد وأنذر الحال بالانفصال الكلى عن أسرته. وقالت راضية لعفت:

ـ لا يجوز أن تخسرى ابنك والزواج فى النهاية قسمة ونصيب..

ومع الزمن رجعت العلاقات فى أضيق الحدود. وقامت ثورة يوليو وانقلب المجتمع رأسا على عقب، وطارت الباشوية من آل داود، وهبطت قيمة الأطباء والقضاة، فحقد شاكر على العهد الجديد حقدا أفسد عليه أعصابه. ودبر أمره للهرب، فانتهز فرصة حضور مؤتمر طبى فى شيكاغو، وهاجر إلى الولايات المتحدة وأقام بها قاطعا علاقته بوطنه وأهله. وقد رجع فى منتصف الثمانينات مصطحبا زوجته وأولاده فزار والديه وأخويه وجدته راضية كضيف أجنبى، ثم سرعان ما رجع إلى وطنه الجديد..

شكيرة محمود عطا المراكيبى

فتحت عينيها على سراى ميدان خيرت برياشها وتحفها وحديقتها الغناء. من سوء حظها أنها اقتبست أهم معالمها من أبيها محمود بك متجاهلة أصل أمها نازلى هانم المترع بالجمال والعذوبة، ربعة قوية الجسم كبيرة الرأس خشنة القسمات، عنيدة متطرفة فى

أحكامها متعصبة لرأيها لا تتزحزح عن عاطفة، مع تدين قوى وأخلاق متينة وعادات مهذبة رفيعة. لولا ذلك ما خطب أبوها حامد عمرو لها بنفسه وقاية لها من الانتهازيين. ورغم الفارق الشاسع بين الأسرتين فلم يتحمس للزواج أحد من آل عمرو سوى عمرو نفسه. وأطلقوا على شكيرة منذ إعلان الخطبة «شكير بك عطا». وبكل أمانة أحبت شكيرة زوجها الشاب من أول يوم، وكانت على أتم استعداد لفتح قلبها لآله جميعا. أجل لم يغب عنها ما يحمل فى طياته من ذوق وتقاليد ومعاملة بعيدة بشعبيتها كل البعد عن تربيتها الرفيعة المهذبة، ولكنها قالت لنفسها:

ـ كل شىء قابل للتغيير!

ولكنها لاحظت أيضا أن عاطفته كانت نهما عابرا وأن طلائع الفتور لاحت فى شهر العسل نفسه. ودهمها ذلك كصاعقة فآلمها أشد الألم وطعن برأسه السام المسنون حبها وكبرياءها، ولم تكن تخفى عن أمها شيئا فقالت نازلى هانم:

ـ هذه أحوال تمر، كونى لبقة كيسة.

وحدثتها حديث الهوانم المجربات طاوية قلقها فى قلبها. وقالت لها أيضا:

ـ إنه من بيئة شعبية، وبحكم عمله كضابط شرطة لا يتعامل إلا مع الساقطين!

وكان حامد يعمل حاسبا لجبروت حميه ولإقامته بين أفراد قبيلته فلم يرتفع له صوت، ولكنه كان يدس بدواته دسا رفيقا ومؤذيا فى آن. وغضبت مرة فقالت له:

ـ كثيرون لا يعرفون النعمة إلا بعد زوالها!

فقهقه ساخرا وقال:

ـ إن زواجك منى هو النعمة حقا لك أنت!

ـ إذن لماذا رضيت؟!

ـ الزواج قسمة ونصيب.

ـ وطمع وجشع أيضا.

هكذا بدأ عراك لم ينقطع على مدى السنين حتى حسمه الطلاق فيما بعد. وارتفع درجة فى حرارته فصاحت به مرة:

ـ إنك تنضح بالقذارة..

فسألها متهكما:

ـ ألم يحدثوك عن جدك بياع المراكيب؟!

ولكن شكيرة رغم غضبها وصلابتها لم تخل من حكمة، فظلت أسرار حياتها الزوجية التعسة خافية فى أضيق الحدود، حتى نازلى هانم لم تعلم بكل تفاصيلها.. بل

يمكن القول بأنها لم تنضب من حب رغم كل شيء حتى وفاة أبيها، وأنجبت له وحيدة وصالح، وأملت كثيرا أن يستقيم حاله مع الزمن ولكن دون جدوى. ولم تكن علاقتها مع أسرته بأحسن من علاقتها معه. كانت تعتبر راضية ـ قبل زواجها ـ امرأة غريبة الأطوار، ثم حكمت بعد ذلك بجنونها، وتبادلتا كراهية ماحقة رغم الصداقة الجميلة بين راضية ونازلي. وقالت نازلي:

ـ حذار أن تغضبي حماتك، إنها مؤاخية للجان!

فقالت شكيرة:

ـ اعتمادي على الله وحده.

كذلك تبادلت كراهية مع عفت زوجة عامر ضاعفت ما بين آل عطا وآل داود من غيرة ومنافرة. ولما رحل جيل الكبار تنفس حامد وتطاير سخطه في الهواء بلا ضابط، وانتهى الأمر بالطلاق. وقد كرهت شكيرة حامد وأهله كراهية عميقة لم تخف حدتها أبدا. وواظبت على لعنه وتشريحه حتى بعد موته. وفي وحدتها استغرقها التدين وحجت أكثر من مرة، وكانت تحرص على الفرائض من صلاة وصوم وزكاة، كما تحرص على لعن أعدائها والدعاء عليهم في الدنيا والآخرة.

شهيرة معاوية القليوبي

هي الابنه الثانية للشيخ معاوية وجليلة الطرابيشية. ولدت ونشأت ببيت الأسرة القديم بسوق الزلط بباب الشعرية، وملعبهن كان مدخل البيت ما بين الفرن والبئر وكنبة المعيشة، هو الذي جمع بين راضية وشهيرة وصديقة وبيلغ. وفيه سمعت وصايا الشيخ الأب، وجرت كلمات جليلة محملة بغيبيات العصور الخوالي. ومن بادئ الأمر لم تستجب شهيرة للدين وفرائضه ولكنها استقبلت التراث الغيبي بحماس وأضافت إليه من خيالها الكثير، وكانت تشبه راضية جسما ووجها مع ميل أكثر إلى البياض وتفوق في العنف وسلاطة اللسان وتماد في غرابة الأطوار التي تماس حافة الجنون. وعقب وفاة أبيها بعامين خطبها أحد تلاميذه من قراء القرآن الكريم، ذو صوت عذب ومنظر وجيه ورزق موفور، فزفت إليه في مسكنه بباب البحر غير بعيد من بيت الأسرة. وأنجبت منه ولدا جميل الصورة أسماه أبوه عبده تيمنا باسم سي عبده الحامولي الذي كان مولعا بصوته. ومضت حياتها الزوجية في توفيق رغم حدة طبعها وسلاطة لسانها، ولكن الشيخ على بلال ـ الزوج ـ كان يعلق على ذلك بدعابة قائلا:

ـ هذه توابل الحياة الزوجية .

وقد توطدت مودته لعمرو أفندى وآله ، وكلما زار بيت ميدان بيت القاضى رجاه عمرو أن يبارك البيت بتلاوة منه فيتربع فى حجرة الاستقبال عقب الغداء واحتساء القهوة ويقرأ ما تيسر من القرآن الكريم بصوته العذب . وأغراه صوته وأصدقاؤه بإنشاد المدائح النبوية فى المواسم ، فاتسع مجال رزقه وكثر المعجبون به حتى دعى لإحياء بعض الأفراح بإنشاد المدائح ، وفى ذلك الجو المعبق بالأفراح ، والليالى الملاح جرت رجله لتدخين الحشيش . وأخير اقترح عليه أحد الملحنين أن يتحول إلى مطرب متنبئا له بمستقبل وردى . واستجاب للدعوة بقلب طروب ، ولم يجد بأسا فى هجر السور الشريفة ليغنى «اوع تكلمنى بابا جى ورايا» و«ارخى الستارة اللى فى ريحنا» و«الهف يا لا بف يا سمك مقلى» ونجح فى ذلك نجاحا مرموقا وسجل أسطوانات راجت فى السوق وأذاعت اسمه على الألسنة . وضرب عمرو أفندى كفا بكف وقال :

ـ يا للخسارة . .

وبدأت شهيرة تخاف على مكانتها الزوجية من إغراءات الوسط الجديد فقالت له :

ـ تزوجتك شيخا مباركا فانقلبت إلى عالمة !

وثمل الرجل بنجاحه وصار واسطة العقد فى كثير من جلسات الحشيش ، ولم يتورع بعد ذلك عن معاقرة الخمر وتبخير بيته آخر الليل برائحتها الكريهة النفاذة مذكرا شهيرة بمأساة أخيها بليغ ، فغطى صوتها على مؤذن الفجر فى زجره وسلقه بلسانها الحاد . ثم ترامى إليها أنه بدأ يغازل العوالم فانقضت عليه بوحشية فتحت له أبواب الجحيم على مصاريعها فقر عزمه على تطليقها . ولكنه قبل أن ينفذ عزمه أفرط ليلة فى البلبعة فكبست على قلبه وأسلم الروح فى مجلس أنس وهو يداعب أوتار عوده . وأدت شهيرة طقوس الحزن بلا مشاركة وجدانية ، وأجرت البيت ودكانين أسفله ، وحملت عبده راجعة إلى بيتها القديم لتشارك أمها وحدتها .

وقالت لها راضية :

ـ ليكن عبده لك قرة عين . .

ولكن عبده انخطف فى حمى كحلم بعد أن عرفت أمه فى الحى بأم عبده ، والتصق بها اللقب حتى أخر عهدها بالحياة . وولعت بتربية القطط ، وكرست حياتها للعناية بها حتى ملأت عليها فراغ حياتها ، وزحمت البيت القديم . . وراحت تؤكد أنها باتت خبيرة بلغتها وبالأرواح التى تسكن أجسادها ، وأنها عن طريقهن تتصل بعالم الغيب . ووجدت فى راضية خير صديقة لها . وكان اجتماعهما سواء فى بيت القاضى أم فى سوق الزلط تمهيدا طبيعيا لعقد جلسة غريبة تتبادل فيها الخبرات عن عوالم الجان والغيب وأبناء

الأسرار الخفية، كانتا فى ذلك قلبا واحدا وعقلا واحدا رغم سوء ظن راضية بها واتهامها لهـا بحسدها على ذريتها وزواجها الموفق. واشتهرت فى حى سوق الزلط بشخصيتها الغامضة المرهوبة ولسانها السليط. ولم يعرف عنها أنها أدت فريضة، وكانت تجهر بإفطارها فى رمضان وتقول:

ـ الواصل ليس فى حاجة إلى فريضة تقربه من الله..

ولما رحلت أمها غرقت فى وحدتها وانغمست فى دنيا القطط حتى قمة رأسها الأشيب، وكان أخوها بليغ يتعهدها برعايته ويدعوها لزيارة قصره المنيف ولكنها كرهت زوجته بلا سبب، ولم تكن تغادر القطط إلا لزيارة سيدى الشعرانى أو زيارة راضية.. وفى عام ١٩٤٧ أصابها وباء الكوليرا فنقلت إلى مستشفى الحميات بعد أن أوصت جارة بالذهاب إلى راضية للعناية بالقطط. وماتت فى المستشفى مخلفة حوالى أربعين قطة وقطا. وبكى أبناء وبنات راضية الخالة التى كانت تثير ضحكهم فى حياتها..

حرف الصاد

صالح حامد عمرو

نشأ فى سراى ميدان خيرت فى الجناح المخصص لحامد وشكيرة. وهو وأخته وحيدة يمثلان أول جيل للأحفاد فى آل المراكيبى ولذلك حظيا بتكريم خاص من الجدود والأخوال. وكانت الحديقة الكبيرة ملعبه وحلمه، أحبها فى الربيع وهى تجود بأخلاط روائحها الزكية، كما أحبها فى الشتاء إذا غسلتها مياه الأمطار النادرة. وارتبط بأمه أكثر من أبيه لانشغال أبيه بعمله، وارتبط بها أكثر كلما لمس آثار محنتها مع أبيه. وكان قوى الجسم كأبيه حسن الملامح كجده، ولكن أمه ربته تربية دينية أرستقراطية رفيعة فنشأ ذا ضمير ومبادئ تقوى، وكان عنيدا كأمه مما أضفى عليه شبهة غباء هو فى الحقيقة أبعد ما يكون عنه. وأكد ذلك تشدده فى الحكم على الناس، بالقرآن والسنة، دون تسامح أو لين. وربما كان أبوه أولى ضحاياه رغم حب الرجل الشديد له. هو أيضا كان يحب أباه ولكنه رآه مبتذلا ووضعه فى خانة واحدة مع الخطأة والساقطين مع إيلائه حقه الكامل من البر والولاء. ولم يغب موقفه عن غريزة حامد، وشكا أمره إلى أخيه عامر قائلا:

ـ شكيرة أنشأتهم على النفور منى..

ومن أجل ذلك قال عامر لصالح مرة:

ـ أنت رجل صالح يا صالح فلا تنس البر بأبيك.

فقال صالح :

ـ ما أهملت له حقا أبدا .

ـ لعله لا يقنع بالرسميات . .

فقال بصراحته الحادة :

ـ إنه يظلم ماما يا عمى .

وقرب ذلك الخلق بينه وبين سليم ابن عمته ، مع فارق وهو أن سليم كان يقرن العاطفة بالعمل أما صالح فكان يقول لنفسه :

ـ حسبى القلب وهو أضعف الإيمان . .

لذلك أحب الإخوان دون أن ينخرط فى سلكهم ، وأدان ولاء آله ـ آل المراكيبى ـ للملك كما أدان الأحزاب جميعا ، وبمتابعة الصراع الدائم بين والدين نفر نفورا عاما من آل أبيه ، آل عمرو وسرور ، كما احتقر آل داود ، وآمن مع أمه بأن جدته راضية ما هى إلا امرأة مخبولة! وبنجاحه المتواصل فى المدارس قال له حامد :

ـ عليك بالطب وأنت أهل ذلك!

ولكن شكيرة قالت :

ـ بل الزراعة ولك أرضى بعد ذلك تعمل بها .

وطابت له فكرة أمه فلعنهما حامد فى سره . وبعد تخرجه فى الزراعة سافر إلى بنى سويف مصمما على خلق مزرعة حديثة من أرض أمه التى ورثتها بعد وفاة جده الجبار . وخطب إحدى قريبات جدته نازلى هانم وتدعى جلفدان ، وتوفرللعمل فى الأرض بهمة عالية ، كما ربى العجول وأقام منحلا للعسل . وارتدى ملابس أعيان الريف . ولم يكن يرتدى البدلة إلا حين زيارة القاهرة . ولما قامت ثورة يوليو عاداها بقلبه رغم أنها لم تمسه بسوء ، ورغم أنه وجد خاليه عبده وماهر من رجالها . وفى عهد الانفتاح اتسع رزقه وكثرت ذريته وظل على ولائه لمبادئه . وازداد استياء من أبيه بعد تطليقه أمه وزواجه الثانى ، ولكنه لم يخل من حزن صادق لدى وفاته . وتأقلم بالريف وأحبه وعشق عمله ونجاحه وأصبح يطلق على القاهرة «مدينة العذاب» .

صدرية عمرو عزيز

قيل عنها بحق نحلة آل عمرو . كالآخرين ولدت ونشأت فى البيت القديم بميدان بيت القاضى . بلون ضارب لسمرة أعمق ، وقامة أميل للقصر ، وجسم نحيل حسن التكوين ،

وقسمات مقبولة، استقبلت بفرحة يشوبها فتور إذ انعقد الأمل بمولد ولد ولكنها بحكم سنها مارست الأمومة لإخوتها وأخواتها منذ الصبا. وكانت نجية أمها ووريثة تراثها، ولم تخل أيضا من قدر من الدين الصحيح. أما براعتها فى فنون البيت من طهى وتنظيف وشغل الإبرة فكان مضرب الامثال، وتعلمت فى الكتاب أشياء وفكت الخط ولو أنها ردت إلى الأمية لعدم الاستعمال. ولم تكن تكف عن العمل ولا عن الغناء رغم أنها لم ترزق أى ميزة فى حنجرتها، ترى فى المطبخ مساعدة لأمها أو حالة محلها، أو جالسة إلى ماكينة الخياطة، أو فوق السطح تتفقد أحوال الدجاج والأرانب. وعندما اكتظ البيت بعامر ومطرية وسميرة وحبيبة وحامد وقاسم لعبت دور نائبة الأم وأسهمت فى اللعب والسرور والصراخ والعراك وتفوقت فى كل. وقد اكتسبت منزلة لم يشاركها فيها أحد، وحافظت عليها حتى آخر العمر، وقسمت الجميع همومهم رغم ثقل همومها، وآمنت بأمها واعتبرتها من صاحبات الكرامات. وما كادت تبلغ الخامسة عشرة حتى تقدم لطلب يدها صعيدى من الأعيان يدعى حمادة القناوى فتحقق الحلم الذى راودها منذ جاوزت العاشرة! وكان ذهابها يمثل أول فراق فى الاسرة وأول فرح لها. وكان حمادة من معارف عمرو، وكان من عشاق القاهرة فأقام بها مع أمه ـ عقب وفاة أبيه ـ مؤجرا أرضه البالغة ثلاثين فدانا لعمه فى قنا. وقد زارت رشوانة وراضية وزينب حرم سرور بيت الرجل بدرب القزازين، وقالت رشوانة لأخيها عمرو:

ـ أم حمادة امرأة تقية لا تفوتها فريضة.

وفى مجلس ببيت عمرو جمع بينه وبين سرور ومحمود بك عطا قال سرور أفندى:

ـ العريس عاطل لا عمل له وهذا شىء ردىء.

فقال عمرو:

ـ إنه يملك ثلاثين فدانا.

فقال سرور بغروره الخاوى:

ـ ولو.. إنه لا يكاد يفك الخط..

فقال محمود عطا:

ـ قيمة الرجل فى ماله.

وقال عمرو:

ـ وأسرته محافظة طيبة.

وارتاحت صدرية إلى منظره ذى الطول والقوة، وأناقة جبته وقفطانه، ورجولة ملامحه، كما تراءى لها من وراء خصاص المشربية. وزفت إليه فى بيت اكتراه فى خان جعفر من أملاك الدهل الحلوانى. وقد أهداها محمود عطا حجرة الاستقبال كما أهدها

أحمد بك عطا حليا وثيابا، وأهداها عبد العظيم داود ثوب العرس. وبدأت صدرية حياتها الزوجية مع حمادة القناوى معتمدة على وصايا أمها وبركاتها ومهارتها الفائقة كست بيت. وكان حمادة مشكلة متعددة الأطراف. أجل تبادلا استجابة مفعمة بالمودة، وشعر كلاهما بأنه فى حاجة متينة إلى الآخر. ولكن صدرية كانت ذات حساسية وحدة فى الطبع والعناد لا يستهان به، وكان الرجل ثرثاراً ضيق الذهن محبا للفخر والسيطرة، وهيأ له فراغه غير المحدود التدخل فيمايعنيه ومالا يعنيه. لم تعتد أن رجلا يغط فى نومه حتى الضحى، ويستيقظ فيوقف نشاطها المنزلى ليحدثها حديثا لا أول له ولا آخر عن أسرته وأمجادها وأمجاده هو الخيالية، ويلاحقها بملاحظاته الغبية عن عملها الذى لا يفقه فيه شيئا. ولم يكن يعرف من دينه إلا اسمه، فلا يصلى ولا يصوم، ولا تكاد تمضى ليلة دون أن يسهر فى البارزيانا فيشرب النبيذ ويتعشى بالمزة. لم يكفا عن الزوجية والإنجاب فأنجبت له «نهاد وعقل ووردة ودلال» ولم ينقطعا عن الجدل العقيم، فيفاخر بأسرته من الملاك. وتساق إلى المفاخرة بآل عطا وداود والشيخ معاوية بطل الثورة العرابية، وأحيانا تحتد المناقشة فيتبادلان أقسى الكلمات.

وكانت صدرية حريصة على كتم بخار حلتها تحت غطائها المحكم، وعلى حل مشاكلها بنفسها دون إشراك أهلها فيها. ولكن راضية كانت تفطن إلى أشياء بوحى غريزتها، وأيضا بما لمسته فى الرجل من ثرثرة موجعة للرأس. وقالت لابنتها:

ـ الزوجة يجب أن تكون طبيبة!

فقالت صدرية:

ـ عليك بزيارة الأضرحة المفيدة لهذه الحال..

فقالت راضية:

ـ وما جدوى زيارة الأضرحة فى هذه الحال؟.. العلاج الناجع فى قطع لسانه!

والواقع أن أذى ثرثرته لم يقتصر على زوجته ولكنه جاوزها ـ بزياراته ـ إلى آل عمرو وسرور والمراكيبى وداود حتى صار نادرة فى الأسرة كلها. وتبين لها بعد ذلك أن عينه لا تعرف الحياء، فهى تمتد إلى أى امرأة جميلة ذاهبة أو آئبة فتنغص عليها صفوها أكثر وأكثر. وتسأله مستنكرة:

ـ أليس عندك حياء؟

فيقول ساخرا:

ـ لا ضرر من النظر..

ولكنها ضبطت إشارات متبادلة بينه وبين أرملة حسناء تقيم فى البيت المواجه لها. واشتعلت بها نار طيرت النوم من عينيها فظلت متيقظة حتى ميعاد عودته من سهرة

البارزيانا . وغادرت بيتها إلى الطريق متلفعة بالظلام وبيدها وعاء مملوء بالماء . وجاء الرجل يشق الظلماء فأحست بباب بيت الأرملة وهو يفتح وشبحها يتخايل فى مدخله . وتوقف الرجل ، ثم مال نحوها . وتقدمت هى بسرعة إلى منتصف الطريق وقذفت بالماء على شبح المرأة فصرخت وتهاوت فى الداخل . وذهل الرجل ونظر نحوها متسائلا :

ـ من ؟

فقالت بصوت محتدم :

ـ إلى بيتك يا قليل الحياء . .

وكان تلك الليلة يترنح . ودخل صامتا ، وهتف غاضبا :

ـ سأثبت لك أنى رجل متوحش عند اللزوم . .

ولكن الضحك غلبه فى سكره فارتمى على الكنبة وهو يقول :

ـ أنت امرأة مجنونة مثل أمك

وخاصمته زمنا ، ثم رجعا إلى المعاشرة والمناقرة ، ولم يحسم الأمر بينهما إلا المرض . أصابه ضغط دم أثر فى سلامة قلبه فاضطر إلى الامتناع عن الشرب وحل به خمول عام يشبه ـ فى بعض مظاهره ـ الحكمة . ووفدت الأحزان ، ففقدت صدرية ابنتها وردة فى عز شبابها ، ثم أباها ، وأختها مطرية . وأخيرا مات حمادة وهو فى زيارة لأهله فى قنا ، وبقيت صدرية وحيدة فى خان جعفر رافضة الانتقال إلى بيت ابنها عقل رغم بره الشديد بها . ولما شعرت راضية بتدهور صحتها قالت لصدرية :

ـ أريد أن تكونى إلى جانبى حتى تغمضى عينى . .

فأغلقت بيتها راجعة إلى البيت الذى شهد مولدها لتكون إلى جانب الأم التى فضلتها على الجميع . كانت الأم قد جاوزت المائة بسنوات والابنة قد اقتربت من التسعين رغم تماسكها ونشاطها . وتقضت تلك الأيام الأخيرة فى حومة الذكريات ، ورددت الام أغنية كانت ترددها فى أواخر الربع الأول من القرن التاسع عشر ثم أسلمت الروح ، فأغمضت صدرية عينيها وهى تود أن تبكى فلا تستطيع . .

صديقة معاوية القليوبى

ثالثة بنات الشيخ معاوية وجليلة الطرابيشية ، وجاء مولدها بالبيت القديم بسوق الزلط بعد سجن الشيخ بنصف عام . وفاقت شقيقتيها راضية وشهيرة بجمالها ، بل كانت بوجهها المائل للبياض وخديها الموردتين وقسماتها المتناسقة وشعرها الأسود الغزير وقدها

الطرى الرشيق مثالا للحسن بغير منازع فى الحى كله، ولم يفقها فى الأسرة سوى مطرية بنت عمرو وراضية التى شابهتها فى الأصول وتجاوزتها فى الخفة والتهذيب. وكانت الوحيدة التى لم تنل حظها من تربية الشيخ الدينية، فنشأت ثمرة خالصة لتراث جليلة، مع عذوبة فى المعاملة وحب للغناء تزكيه حنجرة لا تخلو من جودة فى الأداء. ولجمالها وعذوبتها حظيت بأكبر قسط من حب أبناء راضية وبناتها، وتقدم لها بعد وفاة أبيها بأعوام وبعد زواج شهيرة بعام واحد طبيب أسنان شامى من سكان الحى فزفت إليه، وأقاما فى عمارة جديدة بالفجالة. وسرعان ما دهمتها الخطوب فمات زوجها قبل أن تحبل، ومرضت بالسل، ورجعت إلى حضن جليلة تنشد الأنس والشفاء. واهتزت قلوب الاسرة لفجيعتها، وذوى جمالها وتغير حالها وتكالبت عليها الآلام دون أى أمل فى الشفاء. وشعرت بأنها تنحدر نحو الهاوية، وضاقت باليأس والألم والأرق والسعال، وفى لحظة يأس مدلهمة رمت بنفسها فى البئر. وصوتت جليلة فهرع إليها أهل النجدة من الجيران، وانتشلوا صديقة وهى فى الرمق الأخير. وقضت ساعات عذاب من ليل طويل محموم، يحيط بها أمها وأختاها راضية وشهيرة، وقد اكتظ المدخل بالرجال من الأسرة والجيران، وفاضت روحها بعد نضال معذب قبيل الفجر وهى فى عز الشباب واليأس والألم. وحزنت جليلة عليها طويلا، وأمرت بتغطية البئر بغطاء متين من الخشب والاستغناء عنها كلية. وكانت تحلم بها من حين لآخر وقالت مرة لراضية:

ـ فى ليلة سيدى الشعرانى رأيت صديقة على مقربة من البئر واقفة فى سحابة بيضاء مشرقة الوجه بابتسامة. .

فصدقتها راضية بإيمان عميق وسألتها:

ـ هل حدثتك يا أمى؟

فقالت جليلة:

ـ سألتها عن حالها فقالت لى إن الله غفر لها انتحارها، وإنها تخبرنى بذلك ليطمئن قلبى. .

فهتفت راضية:

ـ الحمد لله الرحمن الرحيم. .

فقالت جليلة:

ـ رأيتها فى غاية من الجمال كالأيام الماضية. .

صفاء حسين قابيل

هى الثانية فى ذرية سميرة وحسين قابيل، ولدت ونشأت فى بيت ابن خلدون، ورضعت فى مهدها اليسر والهناء مستظلة بأيام العز والهناء وخمائل حديقة الظاهر بيبرس. ومع أن جميع أبناء سميرة عرفوا بالجمال والصحة والنجابة، فإن صفاء كانت أوفرهن جمالا ومرحا. كم لاعبت جدتها راضية ورقصت بين يديها ونفثت حرارتها الزكية فى كل مكان تحل فيه. ونمت بسيطة ومتسامحة، تحب الحياة أكثر من المبادئ التى توزعت إخوتها وأخواتها. وهام بها حسين قابيل هياما واعتدها تحفة أجمل من جميع التحف التى يتاجر بها. ومضت فى الدراسة بنجاح حسن، والتحقت بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية، ومات حسين قابيل تاركا فى قلبها جرحا عميقا، وشعرت بعناء أمها وهى تعد الأسرة لمستوى جديد من المعيشة فخيم على مرحها ظلام أشد من ظلام ليالى الحرب والغارات. وتلاقت فى تجوالها بشباب الأسرة ما بين آل سرور والمراكيبى وداود ولكن شاكر ابن خالها عامر كان الذى ألقى عليها شباك اهتمامه وإعجابه. كان طالبا بالطب فأمكنهما أن يلتقيا كثيرا بعيدا عن تقاليد الأسرة، وبلغ قلبها فطامه على يديه، فاعتقدت بأنه فتى المستقبل المأمول لا سعادها. ولم يغب عنها حرصه على احاطة علاقتهما بالسرية، ولم تدرك لذلك مغزى، فسألته مرة:

ـ مم تخاف؟

فأجاب بصراحة وسخط:

ـ ماما!

فعجبت لشأنه وشأنها وحدست أنه ليس الرجل كما ينبغى له. ورجعت ذات يوم من كليتها فوجدت أمها واجمة متجهمة فأدركت لسابق معرفتها بقوة انضباطها أن حدثا قد حدث.

وقالت سميرة باستياء:

ـ عفت زوجة خالك!

وخنق قلبها وشعرت بتلاشى أملها. وقالت سميرة:

ـ صارحتنى بلا حياء بأن على أن أمنعك عن ابنها..

فهتفت صفاء بغضب:

ـ ولكنى لا أطارده.

فقالت سميرة بأسى:

ـ أغلقى هذا الباب بالضبة والمفتاح . .

أجـل. لا مفر من ذلك. ولا نجاة من الألم، ولكن لماذا؟ وواصلت سميرة:

ـ ينظرون إلينا من فوق، وقديما حصل ذلك مع خالتك مطرية!

تساءلت بحنق:

ـ كيف يتصورون أنفسهم؟!

ـ ما علينا، أريد أن أطمئن عليك . .

فقالت باستهانة:

ـ اطمئنى تماما . .

وقد تجرعت ألما ومهانة ولكنها لم تخل من بعض سجايا أمها الفريدة وهى القدرة على التصدى للكوارث. وانقطعت العلاقة مشفوعة بالازدراء. وتخرجت وتعينت مترجمة بإدارة الجامعة بوساطة الأكابر من أهل أمها! ورآها السكرتير المساعد للإدارة فرغب فى الزواج منها. كان يكبرها بحوالى عشرين عاما ولكنه ذو درجة عالية ودخل لا بأس به. ووزنت العرض فوجدته مناسبا لحالها تماما، وتبين لها أنها «عملية» أكثر مما ظنت. وزفت إلى صبرى بك القاضى بفيلته بحدائق القبة. ووهبتها حياتها الجديدة ما تحب من عيشة رغدة وزوج محب كريم وأمومة قنعت بولدين على وعمرو. ولما قامت ثورة يوليو لعبت بأسرتها كما شاءت فرفعت شقيقها حكيم وضيعت سليم، ومن حسن حظها هى أن صبرى القاضى كان قريبا لضابط مهم فترقى فى مدة قصيرة حتى شغل وظيفة وكيل وزارة التربية، وأحيل إلى المعاش لبلوغه السن ولكنه دفعها مرات حتى وصلت إلى درجة مدير عام. وأشرفت بنفسها على تربية على وعمرو حتى التحقا بالسلك السياسى. هكذا تألق هذا الفرع فى عقد البيروقراطية الماسى ونجا من شر العواصف.

حرف العين

عامر عمرو عزيز

أول هدية من عالم الغيب تغمر قلبى عمرو وراضية بالفرحة والرضا والفخر، وتؤكد الحقيقة التى يؤمن بها ميدان بيت القاضى وهى أن ليس الذكر كالأنثى. وجاء مشرقا

بوجه مليح، يقتبس ملاحته من خير ما حظيت به راضية من استقامة الأنف وعلو الجبهة، وما ستعرف به سميرة فيما بعد من دقة القسمات وتناسقها. ومن أبيه أخذ هدوء الطبع والتقوى ونزعة القيادة والرعاية. طالما جمع أخواته فوق السطح ليقوم بينهن بدور شيخ الكتاب، وبيده عصا منعه من استعمالها الحياء والعذوبة. ونشأ نظيفا أنيقا يطوف بالأحياء باسما متأملا ويتربع أمام ضريح الحسين لاهجا بالدعاء. ونجح دائما فى كسب الأصدقاء من الجيران، من طبقته ومن الطبقة الأعلى. ولم يستطع الأدنون أن يتحرشوا به أبدا. وفاز بالحظوة أيضا فى سراى ميدان خيرت وعند آل داود. وشق طريقه التعليمى بالنجاح وتفوق فى العلوم والرياضة، وبفضل كبراء الأسرة نال امتياز المجانية فتخفف أبوه من عبء لم يكن ليتحمله وهو فى حومة تزويج صدرية ومطرية وسميرة. . ومنذ صباه حدث الميل المتبادل بينه وبين عفت بنت عبد العظيم باشا داود. حدث فوق السطح فى ظل الغسيل المنشور، ونما مع الأيام والزيارات المتبادلة حتى صار حبا وحلما للمستقبل. وكانت تلك الأمور تقع سرا ولكن رائحتها تفوح كالوردة، وانتصر الحب أول ما انتصر على البنت المترفعة التى كانت تنظر إلى أسرتها من عل كأن الله لم يخلق للنبل إلا أسرتها. وقالت فريدة هانم حسام لعبد العظيم باشا:

ـ نحن نربى بناتنا فى المدارس الإفرنجية ليكن صالحات لطبيب أو وكيل نيابة من أسرة. .

فقال الباشا:

ـ عمرو ابن عمى ولا أعدل به أحدا. .

وكانت الهانم تشاركه عواطفه، تحب راضية، وتحب عامرا بصفة خاصة فسرعان ما استجابت. وسر عمرو وراضية بذلك، وكان عمرو تياها فخورا بأقاربه العظام فاعتبر ارتباطه بهم بالمصاهرة فوزا كبيرا. وكان محمود عطا بك يفكر فى عامر كزوج لشكيرة، فلما سقط الفتى فى أيدى منافسيه قال لعمرو:

ـ سيكون حامد لشكيرة. .

وتمت بذلك سعادة عمرو، الأمر الذى عرضه لملامة شقيقه سرور، فأخذ عليه تجاهله لبناته، ودافع عمرو عن موقفه متعللا بجمال بنات أخيه اللاتى لا يخشى عليهن من البوار، وبفقر أولاده الذين فى حاجة إلى دعامة. فقال سرور بمرارة:

ـ إنهم يضنون عليك بالذكور. .

فتألم عمرو ولكنه قال مستوحيا طبيعته المتواضعة:

ـ رحم الله امرأ عرف قدر نفسه. .

فقال سرور وهو يدارى غضبه:

ـ أصبحت يا أخى درويشا لا تغضب!

وود عامر أن يلتحق بمدرسة الطب معتمدا على تفوقه العلمى، ليكون أهلا بكل معنى الكلمة بعفت، ولكن أباه اختار له مدرسة المعلمين لامتيازها بالمجانية، قائلا لابنه المحبوب:

ـ المجانية فى الطب متعذرة، والعين بصيرة واليد قصيرة..

وكان عامر مثالا فى الطاعة والتجاوب مع الحقائق مهما تكن مرارتها، فقال لأبيه متظاهرا بالرضا:

ـ المعلمين مدرسة عليا على أى حال..

وتسامحت عفت وآلها، وقالت عفت لنفسها إن معلما تحبه خير من طبيب لا تحبه. وهضم عامر خيبة أمله العسيرة ومضى فى طريقه مكللا بالنجاح والرضا. ولما قامت ثورة ١٩١٩ دخل معبدها مع أسرته، واشترك فى المظاهرات، من قلبه الصافى يحياسعد. وكان فى السنة النهائية فسرعان ما ابتعد عن النشاط المباشر بممارسة حياته العملية. وقد اتفق على الزواج بعد عام واحد من ذلك التاريخ. أصبح ضيفا فى أسرته التى لم يخلف فى صدور أبنائها إلا كل طيب، باستثناء المشاحنات التى كانت تقوم بينه وبين أخيه حامد بسبب طبيعة حامد المتمردة وسلوكه الجامح.. وكم بذلت راضية من تعاويذها وتمائمها لطرد روح الشر من بين الشقيقين، ولكن ما إن بدآ حياتهما العملية حتى حل الصفاء مكان الكدر. وكان عبد العظيم داود قد شيد لابنته بيتا فى بين الجناين، دخلته الكهرباء والماء والمجارى، وتحلى فى خلفيته بحديقة صغيرة، فانتقل عامر مع عروسه المتفرنجة إلى البيت الجديد ليستهل حياة زوجية سعيدة طويلة. وقد هز الزواجَ أسرة آل عمرو من أول يوم. وضح تماما أن العروس الجديدة من طراز مخالف لأخوات عامر، فهى متخرجة فى الميردى دييه، ترطن بأكثر من لغة، وتتقن اللعب بالبيانو وتعرف معلومات عن فرنسا وتاريخها وديانتها ولا تكاد تعرف شيئا عن بلدها تاريخا أو عقيدة، وتفاخر بذلك دون خفاء، برغم تفشى الروح الى أطلقتها الثورة الوطنية. وكانت ذات شخصية قوية متسلطة فالتهمت شخصية زوجها الوديعة الدمثة، فلم يجرؤ الشاب على تذكيرها بأن الصوم واجب فى رمضان، وصام وحده معتمدا على نفسه فى إعداد سحوره، وإلى ذلك فقد بهر برطانتها ومهارتها فى العزف. ولما خرج العدليون على سعد زغلول وجد عامر نفسه غريبا فى آل داود، وتجنب تكدير الصفو بالدفاع عن وفديته الكامنة فطواها فى صدره. ولم تكن عفت تهتم بالسياسة أى اهتمام جدى، ولكنها جارت أباها تعصبا له ليس إلا، وكانت تقول لزوجها:

ـ لا وجه للمقارنة بين عدلى باشا النبيل وبين زعيمك الأزهرى!

فيبتسم عامر متحاشيا الجدل، ومرة سأله عبد العظيم داود:

ـ هل تعتقد حقا أننا نستطيع تحمل أعباء الاستقلال؟

فتساءل عامر:

ـ لِمَ لا؟

فأجاب الرجل:

ـ حسبنا استقلال ذاتى ولكننا بدون حماية الإنجليز نضيع بلا رحمة..

أيضا فإن راضية غضبت من تعالى عفت واستسلام عامر رغم صداقتها الوطيدة مع فريدة هانم، ورغم إعجابها بجمال عفت، وقالت لابنها:

ـ الرجل يجب أن يكون سيدا فى بيته..

وقالت لعمرو:

ـ عفت تتوهم أنها أميرة..

فقال لها الرجل:

ـ لا تحرضى عامر على ما يفسد سعادته..

واقتنعت بذلك آخر الأمر، خاصة بعد أن أنجبت عفت شاكر وقدرى وفايد الذين أحبتهم راضية بمجامع قلبها. واستوعب الحب المكين كافة التناقضات، واستوت زيجة عامر وعفت مثلا نادرا فى الزيجات الموفقة. زواج لم يعرف الملل أو الانتكاس أو الفكر وآثار الغيرة والحسد، قال حامد عنه:

ـ سر سعادة أخى أنه ذاب فى إرادة زوجته، يا له من ثمن..

وعلى عادة سرور أفندى فى النقد المر قال يوما لزينب زوجته:

ـ لقد تزوج حامد برجل كما تزوجت عفت بامرأة.

ووفق عامر فى حياته المهنية توفيقه فى حياته الزوجية، فكان من أحب المعلمين إلى تلاميذه وأعظمهم تأثيرا فيهم، ومن القلة التى تعيش ذكراها مع الأجيال التى تربيها حتى آخر العمر. وقد انتفع بذلك فى زيادة إيراده بفضل الدروس الخصوصية، وفى تذليل كثير من الصعوبات بفضل ذوى النفوذ من تلاميذه السابقين، أما أعلى درجة سجلها حظه فقد حدثت بعد قيام ثورة يوليو ووجد أن اثنين من تلاميذه فى مجلس قيادة ثورتها. أما عفت فقد مقتت الثورة لإلغائها باشوية شقيقها ولم تغفر لها استهانتها بالمهن الرفيعة كالطب والقضاء، ولكن عامرا شعر بأنه ـ بفضل تلميذيه ـ من رجالها رغم وفديته المكبوتة بين جدران آل داود. ولم تكن سعادة عامر بأبنائه دون سعادته بزواجه. لتفوقهم ونجاحهم، ولكنهم أحدثوا له ولأمهم متاعب، لم تجر لهم على بال، سواء كان ذلك

بسبب السلوك الشخصى أم بسبب السياسة، ثم عرف كل أمر مستقره، واستقبل عامر حياة معاش امتدت ربع قرن فى بيت صار مثالا لرفقة الشيخوخة كما كان مثالا لسعادة الحب. وحافظ الرجل على صحته وحيويته، يقرأ الصحف والمجلات، ويسمع الأغانى، ويشاهد التليفزيون، ولتفوقه فى الصحة وتدهور زوجته راح يقدم لها الخدمات ويشرف بنفسه على الخادم والطاهية، ويلاعب الأحفاد، أو يوخزه الحنين فيمضى مع أحد أبنائه فى سيارته إلى الحى العتيق، فيزور البيت القديم حيث يقيم قاسم، ويصلى فى الحسين، ويجلس ساعة فى الفيشاوى، ويتناول غداءه عند الدهان، ثم يرجع إلى بين الجناين منتشيا مغرد الروح. وعاش حتى قارب التسعين، فطرب لأمجاد يوليو، وانكوى بخمسة يونية، وأفاق فى ١٥ مايو، وطرب مرة أخرى فى ٦ أكتوبر المجلجلة، وانقبض فى ٦ أكتوبر الدامية، وفارق الدنيا بهدوء يغبط عليه كختام حسن. استيقظ صباحا فى ميعاده، مضى إلى المطبخ ليعد الشاى لنفسه ولعفت، وعاد به ليحسواه فى الفراش ولما فرغ من قدحه قال:

ـ قلبى ليس على ما يرام.

واستلقى على ظهره ليستريح، وسرعان ما مال رأسه على الوسادة وكأنما قد غفا..

عبد العظيم داود يزيد

الابن الوحيد الذى بقى من ذرية داود باشا وسنية الوراق. نشأ فى بيت السيدة وتلقى تربية رفيعة من أم هانم وأب يعتبر من الرجال المعدودين فى عصره. ومنذ صغره خالط أهله فى الحى العتيق، وأحب بصفة خاصة ابن عمه عمرو، ولكنه خالط أيضا نوعا آخر من البشر هم الأجانب من أقران أبيه الذين كثيرا ما تناولوا عشاءهم على مائدته وتبادلوا الأنخاب. تقلب بين التراث والمعاصرة ولكن الدين لم يلعب فى حياته عشر معشار دوره فى حياة صديق روحه عمرو. وكان نحيلا أسمر وسيم الطلعة كبير الرأس راجح العقل كبير الطموح. وشق طريقه الدراسى بتفوق ثم التحق بكلية الحقوق. كان أمل أبيه أن يجعل منه طبيبا ولكنه عشق البلاغة والآداب وتخصص فى القانون المناسب لأمثاله من أبناء الكبراء. وتعين فى النيابة دون حاجة إلى وساطة أبيه العظيم واستحق من أول يوم احترام رؤسائه وخاصة الإنجليز. ولعله أول من اختار زوجة برؤية عينيه فى أسرته. لمح فريدة فى حنطور الأسرة، فسره لونها الأبيض وقسماتها الأنيقة، ثم عرف اسم الأسرة. وذهبت سنية الوراق وراضية ورشوانة لزيارة الأسرة الكريمة ورفع التقرير عنها. وكان

حسام تاجر حرير سوريا وذا مال، وزفت إليه فريدة فى فيللا شارع السرايات مصطحبة معها جمالا جديدا ومالا واستعدادا طيبا للمعاشرة الزوجية. وأنجبت له مع الأيام لطفى وغسان وحليم وفهيمة وعفت. وكان عبد العظيم ممتازا فى عمله وذا اهتمام بالسياسة. وكان من أنصار حزب الأمة وصديقا لبعض رجاله المبرزين وممن يؤمنون بتهريج الحزب الوطنى. وتوهج فؤاده بالحماس لثورة ١٩١٩ ولكن ما إن انقسمت الجبهة حتى مال بعقله وقلبه إلى عدلى يكن وصحبه. وكان يرمق انزعاج ابن عمه عمرو مقهقها ويقول:

ـ سحرك المهرج الكبير..

فيقول عمرو:

ـ إنه زعيم الأمة وأملها..

كان عمرو يشعر بدفء الرابطة بينه وبين عبد العظيم عندما يزوره هذا فى بيت القاضى، أما إذا ذهب عمرو إلى فيللا السرايات فتواتيه غربة فى الجو «الإفرنجى» الذى يسود السلوك والعادات، من ذلك أن عبد العظيم باشا كان يفتح شهيته عادة بكأسين من الويسكى، أو يخاطب كريمته فهيمة وعفت أحيانا بالفرنسية! وكان محمود عطا المراكيبى يتودد إلى الباشا ويحب أن يوثق علاقته به رغم المنافسة الخفية بين الأسرتين. والحق أن عبد العظيم باشا لم يكن يميل إليه ولكنه تبادل معه الزيارة إكراما لابن عمه عمرو. وقد أراد محمود بك أن يستعين بنفوذه فى إحدى قضاياه الكثيرة فقطب عبد العظيم وقال بوضوح:

ـ الظاهر أنه لا فكرة لك عن نزاهة القضاء.

وكان محمود بك يؤمن ـ بوحى حياته العملية ـ بأن الشعار شيء والواقع شيء آخر، فصدمه جفاء صاحبه ولعنه فى سره. ولكه وجد نفسه معه فى جبهة واحدة بعد الانقسام السياسى. وأراد أن يهون من شأن الخلاف فقال:

ـ الولاء للملك أو الإنجليز سيان..

فقال عبد العظيم باشا:

ـ لا ولاء للإنجليز ولكنها صداقة..

ـ أليس الملك أفضل؟

ـ الملك ذو ولاء للإنجليز ونحن دعاة الدستور.

ـ ولكن الدستور سيسلم الحكم لسعد.

ـ لعله وهم..

ـ إنه يسحر الناس بدعوة الاستقلال التام، وبهذه المناسبة ما رأيك فى هذه الدعوة؟!

فقال الرجل وهو يهز رأسه الكبير :

ـ المجانين لا يعرفون معنى الاستقلال، الاستقلال مسئولية ضخمة، من أين لنا الإنفاق على الدفاع؟! . .

أليس الأفضل أن نترك ذلك للإنجليز ونتفرغ لإصلاح أحوالنا؟

فقال محمود بك بحرارة :

ـ صدقت، واستقلال زغلول خليق بأن يقود إلى ثورة عرابية جديدة . .

وقد حقق لطفى البكرى لأبيه أمله بخلاف غسان وحليم ولكن عبد العظيم يعتبر بصفة عامة أبا سعيدا . وكاد لطفى ينحرف عندما مال إلى مطرية بنت عمرو ولكن الله سلم، وإن أسف عبد العظيم على موقفه من ابنة حبيبه عمرو . وولى مع الأيام مناصب قضائية عظيمة ثم أحيل إلى المعاش وهو رئيس لمحكمة الاستئناف العليا . ولقوة حيويته عمل محاميا حتى الخمسينات، ثم تقاعد بعد أن طعن فى السن . لم يقعد عن الحركة فكان يذهب كل مساء إلى مقهى لونا بارك ليلعب الطاولة مع المعمرين من جيله . ولما قامت ثورة يوليو كان قد توغل فى الشيخوخة للدرجة التى يهون معها الاهتمام بالأشياء . وأصابه التهاب حاد فى البروستاتا فنقل إلى المستشفى ولكنه أسلم الروح بعد يومين .

عبده محمود عطا المراكيبى

ولد ونشأ فى سراى ميدان خيرت . وهو الثالث فى ذرية محمود بك ونازلى هانم، واتسم منذ صغره بالوسامة والنجابة . وتربى فى أحضان العز، وتلقن مبادئ الأخلاق والتهذيب والتدين على يد أمه الجميلة المهذبة، ونما نفورا من الاختلاط بصفة عامة فعرف أهله من آل عمرو وسرور ورشوانة ولكنه لم يتخذ صديقا منهم . وأغرم بالرياضة وتفوق خاصة فى السباحة، وعشق المطالعة، وشق طريقه فى المدارس بتفوق أهله للالتحاق بكلية الهندسة . ولما تخرج التحق بسلاح المهندسين بالجيش بعد المعاهدة . وبدأ يخرج عن خط الأسرة السياسى فلم يتشيع للملك كأبيه وعمه، ولكنه انضم إلى الجيل القلق الغاضب على الجميع والمتطلع إلى الجديد مثل قريبه حكيم حسين قابيل . واقترحت عليه أمه الزواج من آل الماوردى وهم أسرة إقطاعية، فتزوج . واستأجر لعروسه شقة أنيقة فى الزمالك، غير أن ذلك الزواج لم ينجب ولم يوفق ولعل فائدته الوحيدة انحصرت فى تعريفه بنفسه وأبعادها . تبين له أنه رغم يسره لا يطيق الإنفاق ويتألم لبذل قرش واحد فى غير موضعه ودون حساب وتخطيط . وكانت جولستان من محبات البذخ والحياة

الاجتماعية والتباهى بكافة جماليات المظاهر المبهرة، فعجز كل طرف عن النزوع عن شىء من تقاليده وعاداته، فارتطما فى عنف جعل من حياتهما جحيما لا يطاق. وقالت له الفتاة بصراحة:

ـ لم نخلق لحياة مشتركة.

فقال لها متلمسا طريقه للنجاة:

ـ أوافق على ذلك دون قيد أو شرط!

وهجرت بيت الزوجية انتظارا للطلاق، ودرست المسألة على أعلى المستويات، فوجد عبده من والديه تأييدا لموقفه أو على الأقل معارضة صريحة لأسلوب جولستان فى الحياة. وقال محمود بك:

ـ أنا لا أحب الطلاق ولكنه ضرورة لا مهرب منها فى بعض الظروف.

ووقع الطلاق جارا وراءه خسائر مادية لا يستهان بها ما بين مؤخر الصداق والنفقة مما حمل الشاب على اتخاذ قرار من الزواج التزم به بقية عمره. وعاد إلى حجرته الجميلة بالطابق الثانى من سراى ميدان خيرت، ومكرسا نشاطه لعمله ومطالعاته المتنوعة. وألف المزاج بينه وبين أخته نادرة وأخيه ماهر، وانضم الأخوان فى الوقت المناسب إلى الضباط الأحرار. ولما قامت ثورة يوليه وجدا نفسيهما بين رجال الصف الثانى، وكان محمود بك قد توفى قبل ذلك فنجا الورثة من قبضة الإصلاح الزراعى. وتقلد عبده مركزا قياديا فى سلاح المهندسين، وعقب النكسة تولى رياسة شركة المعادن جزاء ولائه المستمر لعبد الناصر. ورغم تأثره الشديد لهزيمة ٥ يونيه إلا أنه كان ضمن الذين اعتبروا أن خسارة الأرض كارثة تهون بالقياس إلى النصر المعنوى الذى حققه البلد بالاحتفاظ بزعامة عبد الناصر والنظام الاشتراكى. وطبعا لم يكن سعيدا بطرد أخيه ماهر لولائه لعبد الحكيم عامر، كما لم يسعد من قبل بإحالة أخيه الأكبر حسن إلى المعاش، وتعزى دائما بقوله:

ـ الوطن فوق كل شىء..

واستغنى عنه فى عهد الرئيس السادات فآوى إلى بيته وأرضه، ولما هل عصر الانفتاح أنشأ مكتبا هندسيا مع بعض الزملاء وأثرى ثراء فاحشا. ولم يبارح السرى التى ولد فيها ولا الطبع الذى قضى عليه بالوحدة، والتزم بالحياة البسيطة رغم إيغاله فى الثراء ويقينه من أنه يكتنز المال للآخرين..

عدنان أحمد عطا المراكيبى

ولد ونشأ بسرى آل المراكيبى بميدان خيرت، وتلقى فى أحضان النعيم مبادئ التربية الرفيعة والدين. وبالرغم من أنه نما بين والد وديع دمث وأم هانم جليلة المقام والخلق (فوزية هانم شقيقة نازلى هانم)، إلا أنه كان أشبه بعمه الجبار محمود بك فى صلابته وميله إلى السيطرة. وكان أكثر ذلك الجيل حبا لآله الآخرين عمرو وسرور ورشوانة، وتعلقا بالحى العتيق. ومن بادئ الأمر تمرد باطنه على عمه الجبار الذى يفرض سطوته على السراى بما فيهم أسرة شقيقه أحمد. وما كاد يناهز الحلم حتى أعلن سخطه على وصاية عمه واستئثاره بإدارة الأرض كأنه مالكها الوحيد. وسأل أمه عن سر ذلك فقالت:

ـ أبوك راض بذلك..

فانقلب إلى أبيه يحاوره، حتى نغص عليه صفوه. وقال له بصراحة:

ـ إنه لوضع مهين!

وما زال وراءه حتى أخرجه من جنته فكان ما كان فبدأ الخصام الذى قسم الأسرة العريقة إلى جبهتين متعاديتين، فأنكر الأخ أخاه والأخت أختها وأبناء العم والخالة أبناء عمهم وخالتهم. وتحدى عدنان عمه فبصق هذا على وجهه، وتبادل عدنان وحسن الضرب فى حديقة السراى، فأظلت الأسرة غمامة سوداء ما زالت تحجب النور والدفء عنها حتى تلاشت عند احتضار أحمد بك. وتسلم أحمد بك أرضهن وهو على جهل تام بكل شىء، وحدثت خسائر لا مفر منها، حتى ختم عدنان دراسته الزراعية وهرع إلى بنى سويف فتسلم العمل من أبيه وأنقذه من التلف. وكان عدنان بخلاف أخيه وأبناء عمه يعشق بنات البلد، فأحب أرملة فى الخامسة والثلاثين على حين لم يكن جاوز الثلاثين، وأعلن رغبته فى الزواج منها غير ملق بالا إلى جزع أمه، وحقق رغبته وجاء بست تهانى إلى السراى ثم حملها إلى سراى العزبة. وقد أنجبت له فؤاد وفاروق ثم انقطعت عن الحمل. وكانت كلما ضاقت بالريف سافرت إلى القاهرة لتنكد عيشة فوزية هانم. ولما قامت ثورة يوليو كان عدنان ـ لأكثر من سبب ـ الوحيد الذى طبق عليه قانون الإصلاح الزراعى، ولم يكن يختلف عن أبيه وعمه ولاء للعرش وكراهية للثورة، ولكن لم يند عنه قول أو فعل يعرضه للمؤاخذة. وقد نجح فؤاد فى أن يصير زراعيا كأبيه ويعاونه أما فاروق فلم يوفق فى الدراسة واحترف الإجرام على الأسلوب الريفى حتى قتل رميا بالرصاص وهو يغادر المسجد عقب صلاة الجمعة. وقد سعد عدنان بالاعتداء الثلاثى ولكن سعادته انتكست، وسعد أكثر فى ٥ يونية، وتمت سعادته فى سبتمبر ١٩٧٠،

وبتولى السادات رجع الرجل إلى الشعور بالولاء نحو الحاكم، وشاركه بقلبه انتصاراته فى ٦ أكتوبر والسلام، أما الانفتاح فقد اعتبره بابا من أبواب الجنة، وعمل فى تربية العجول والدجاج والبيض وربح أرباحا خيالية، ولم يكتف بذلك فانضم إلى الحزب الوطنى وانتخب عضوا فى مجلس الشعب . .

عزيز يزيد المصرى

ولد ونشأ فى الدور الأول من بيت الغورية فى ظل بوابة المتولى، وهو بكرى يزيد المصرى وفرجة الصياد. وقد أنجب الزوجان ولدين وأربع بنات فماتت البنات وهن فى المهد وبقى عزيز وداود. وتمتع الولدان بصحة جيدة ونمو يبشر بالقوة مع وسامة فى الخلق ووضوح فى الملامح، واتخذا من الطريق العامر بالناس والحوانيت وعربات اليد المحفوف بالجوامع والمآذن ملعبا ما بين البوابة ووكالة الوراق فى الجمالية حيث كان يشتغل أبوهما خازنا بوكالة الوراق. وجاءت الحملة الفرنسية وذهبت قبل أن يبلغ الشقيقان الوعى فمر بهما نابليون بونابرت كما يمر بياع الفجل أو بياع الدوم. ولما استوى عزيز طفلا ناضجا قال عمر يزيد المصرى بلكنته الاسكندرية:

ـ آن أوان الكتاب . .

فاعترضت فرجة الصياد قائلة:

ـ بل أرسله إلى أمى فى السوق . .

فقال:

ـ فك الخط هو الذى يسر لى عملى فى وكالة الوراق . .

وكانت فرجة تؤمن بالسوق التى جاءت منها ولكنها لم تستطع أن تثنيه عن رأيه. وبارك رأيه ـ فضيلة الشيخ القليوبى فى قهوة الشربينى، فقال:

ـ نعم الرأى . . وبعد الكتاب إلى الأزهر.

ولاذ الصديق الثالث عطا المراكيبى بالصمت. وعطا المراكيبى كان ساكن الدور الثانى ببيت الغورية هو وزوجه سكينة الفرارجى وابنته الوليدة نعمة. وقد تم التعارف بين الرجال الثلاثة فى دكان عطا المراكيبى فى الصالحية، ثم صارت تجمعهم قهوة الشربينى بالدرب الأحمر فيشربون الزنجبيل ويدخنون الحشيش. وكان الشيخ القليوبى مدرسا فى الأزهر وقد دعاهما على الغداء أكثر من مرة فى بيته بسوق الزلط. رأوا وليده معاوية وهو يلعب بين البئر والفرن. وتساءل عطا المراكيبى:

ـ هل تدخله الأزهر بعد الكتاب؟

فقال يزيد :

ـ يفعل الله ما يشاء .

لكنه كان يقنع من الدين بالفرائض المتاحة كصديقه عطا ولا طموح له بعد ذلك . والتحق عزيز بالكتاب ثم لحق به داود فحفظا أجزاء من القرآن وتعلما مبادئ القراءة والكتابة والحساب . وفى تلك الأثناء وقع داود فى مصيدة التعليم ونجا عزيز بمعجزة ظل يحمد الله عليها حتى آخر عمره . وكان من حياة داود ما كان أما عزيز فلما بلغ سن العمل سعى له الشيخ القليوبى فى ديوان الأوقاف فتعين ناظرا لسبيل بين القصرين . ارتدى الجلباب والمركوب وشملة من الكتان صيفا وأخرى من الصوف شتاء ، ولكنه استبدل بالعمامة الطربوش فعرف فى الحى بعزيز أفندى على سبيل الفكاهة ، ثم التصقت به على مدى العمر . وتقرر له مليم على كل قربة فقال له يزيد :

ـ من الله عليك بوظيفة مهمة . .

لم يكن يحزنه فى تلك الأيام السعيدة سوى عثرة حظ أخيه ، وتضاعف حزنه حين تقرر إرساله إلى فرنسا . وسأل صديقه الشيخ معاوية الذى حل محل أبيه فى الأزهر بعد تقاعد الرجل لكبره :

ـ ما ذنب داود يا شيخ معاوية؟

فأجاب الشاب :

ـ ليس كل علوم الكفار بكفر ولا الإقامة فى بلاد الكفار ، وليحفظه الله . .

ودخل عزيز فى فرن المراهقة ، وتسلل إليه رغم تقواه الخطأ فقال يزيد لفرجة :

ـ علينا أن نزوجه . .

فقالت فرجة :

ـ نعمة بنت صديقك عطا مليحة ومناسبة . .

وزفت إليه البنت فى بيت أبيه بالغورية ، وعقب عامين تزوج صديقه الشيخ معاوية من جليلة الطرابيشية فى بيت سوق الزلط . وعاش يزيد المصرى وفرجة حتى شهدا مولد رشوانة وعمرو وسرور ، ثم مات يزيد فى أثناء عمله بالوكالة ودفن بحوشه الذى بناه على كثب من ضريح سيدى نجم الدين بعد حلم رأى فيه الشيخ وهو يدعوه إلى جواره ، ولحقت به فرجة الصياد بعد عام واحد من وفاته . وحدثت أمور ذوات شأن ، فقد ماتت سكينة أم نعمة ، وتزوج عطا المراكيبى من أرملة غنية كانت تقيم فى الدور الأعلى للبيت المواجه لدكانه ، وانتقل الرجل فجأة إلى طبقة عالية ، فشيد سراياه بميدان خيرت ، وابتاع عزبة ببنى سويف ، وأنجب على كبر محمود وأحمد ، واستهل حياة جديدة كأنما هى حلم

من الأحلام . ووجد عزيز أفندى نفسه صهرا لرجل عظيم من الأعيان كما وجدت نعمة زوجته نفسها ابنة لذلك الرجل العظيم . ولهجت الألسنة بقصة عطا المراكيبى وحظه وذوبان الزوجة الغنية تحت جناحه ، ولكن نعمة لم يصبها من ذلك كله خير ، لا هى ولا أسرتها ، فيما عدا بعض الهبات فى المواسم . وقال الشيخ معاوية لصديقه عزيز :

ـ إذا سبقت الزوجة زوجها فى الوفاة ورثها مع ابنيه ، فترثه زوجتك ، أما إذا سبق هو فلاحظ لحرمك . .

وكان آل عطا وآل عزيز يتبادلون الزيارات ، ويختلط عمرو وسرور ورشوانة بمحمود وأحمد ، ويقلب عزيز عينيه فى الحديقة والتحف ويغمغم فى نفسه :

ـ سبحان المنعم الوهاب . .

ويقول لصديقه الشيخ معاوية :

ـ إنه جلف لا يستحق النعمة .

فيقول الشيخ :

ـ لله فى خلقه شئون . .

وفى أثناء ذلك رجع داود من فرنسا طبيبا ، ثم تزوج من حفيدة الوراق وأقام فى بيت السيدة وأنجب عبد العظيم . وعلم عزيز أفندى ابنيه عمرو وسرور فتعين عمرو فى نظارة المعارف كما تعين سرور فى السكك الحديدية ، وتزوجت رشوانة من صادق بركات تاجر الدقيق بالخرنفش وزفت إليه فى بيته ببين القصرين ، وتزوج عمرو من راضية كبرى بنات الشيخ معاوية كما تزوج سرور من زينب النجار ، وانتقل الأخوان إلى بيتين متجاورين فى ميدان بيت القاضى . ولما قامت الثورة العرابية اشترك فيها عزيز بقلبه ولكن الشيخ معاوية أسهم بقلبه ولسانه ، وحكم عليه بالسجن بعد تصفية الثورة .

وقد تم زواج عمرو من راضية فى الفترة التى أعقبت الإفراج عن الشيخ ، ولكن لم يتسن للشيخ شهود الزفاف فقد وفاها الأجل بعد أسبوع من إعلان الخطبة وقراءة الفاتحة . وحظى عزيز أفندى بالصحة وطول العمر والراحة الزوجية ولم يعان الفقر أو الحرمان ، وتمتع بدفء الوشائج العائلية ما بين ميدان خيرت والسيدة وسوق الزلط ، وتقدست منزلته عند ذريته كما فرح بتعليمهم وانتسابهم إلى الحكومة وخطرانهم فى البدلة والطربوش . ولم يخل مع الأيام من اعتزاز بمنزلة شقيقه الأصغر ورتبته ، خاصة بعد أن اطمأن إلى إيمانه ومحافظته على الفرائض وولائه الودود له وجلوس الأسرتين حول الطبلية كما آنسه بالزيارة وطوافه معه بالحسين والقرافة . ومن الله عليه فشهد مولد أحفاده ، وأكرمه أخيرا بميتة طاهرة فأسلم الروح وهو ساجد فوق سجادة الصلاة فى صباح يوم من أيام الخريف فى بيت الغورية . . ودفن إلى جوار أبيه فى حوش الأسرة الذى اصبح يعرف بحوش نجم الدين .

عفت عبد العظيم داود

ولدت ونشأت بفيلا الأسرة بشارع السرايات بالعباسية الشرقية. وبها ختم عبد العظيم باشا داود وفريدة حسام ذريتهما المكونة من لطفى وغسان وحليم وفهيمة وعفت. ولدت عفت على وسامة لا يستهان بها، امتزج فى وجنتيها بياض أمها الشامية وسمرة أبيها فاسفرا عن لون قمحى مورد وعينين لوزيتين سوداوين لا تخلو نظرتهما من تسلط ومكر، وتقلبت فى نعيم فى فيلا أنيقة تحدق بها الرتب والنياشين فنهضت ـ كسائر أعضاء أسرتها ـ على قوائم راسخة من الكبرياء والتعالى والغرور.. ومن بادئ الأمر لم يرض الأب لكريمتيه الأمية أو شبه الأمية كبنات الفروع الأخرى، كما لم يفكر فى تعليمهما تمهيدا للعمل الأمر الذى رآه أولى ببنات الفقراء من عامة الشعب، فاختار لهما التعليم التهذيبى فى نظره الذى يعدهما للزواج من الكبراء. ووجد بغيته فى المدارس الأجنبية والميردى دييه بصفة خاصة. وتعلمت عفت الفرنسية والإنجليزية والآداب وفن البيت والموسيقى، وتشربت روحها بتراث غريب حتى ليخيل للرائى أنها افرنجية ذوقا وعقلا وتراثا. ومع أنها لم تنطق بكلمة تخدش إيمانها إلا أنها عاشت حياتها وهى تجهل دينها وتراثها جهلا تاما، ولا تجد فى ذاتها أى انتماء إلى وطنها رغم معايشتها لثورة ١٩١٩، لولا تعصب سطحى لموقف أبيها السياسى انطلقت إليه من منطلق الكبرياء والأسرة. ولكن الغريزة تمردت على ذلك كله فأمالت قلبها منذ الصغر نحو عامر قريب أبيها. فى ذلك الزمان كانت رابطة الأسرة أقوى من الطبقة والرتبة والجاه والثروة، وكانت زيارة بيت القاضى تعد فى وجدان آل داود من الرحلات الممتعة، بمناظرها الطريفة وأغذيتها البلدى وغيبيات راضية، رغم أن شعورهم بالتعالى لا يمكن أن يفارقهم. ولم يجد الميل المتبادل بين عامر وعفت معارضة فى بيت عبد العظيم، بل لعله وجد ترحيبا. وعلى أى حال فالنظرة إلى البنت تختلف عن النظرة إلى الولد، فإهداء بنتهم إلى ولد من آل عمرو لا بأس من قبوله، أما أن يرغب ولد من آل داود فى بنت من بنات عمرو أو سرور فانحراف خطير يجب أن يكبح بكل حزم. ودماثة أخلاق عمرو هونت عليه التسامح مع ذلك الموقف وتلمس الأعذار له، أما سرور فلم يعفه من لسانه الحاد الذى أبعده درجات عن قلوب آل المراكيبى وآل داود جميعا. كان عند الضرورة يقول متهكما:

ـ لماذا ينسى آل عطا العظام المراكيب ودكان الصالحية؟.. ولماذا ينسى آل داود عم يزيد وفرجة السماك؟

ولما آن لعفت أن تتزوج شيد لها الباشا بيتا جميلا فى بين الجناين استقبلت فيه حياتها الزوجية السعيدة التى حطمت منطق أعداء الزواج. أجل فمنذ اليوم الأول سلكت عفت سلوك أميرة وضعتها الظروف بين الرعية، فلم تخل الحياة الجديدة من توترات بين عفت وأخوات عامر، أو بنات سرور، أو شكيرة عندما صارت سلفة لها، بل حتى راضية نفسها على ما بينها وبين فريدة حسام من مودة، ولكن لم ينعقد الخصام لحد القطيعة أو العداوة، وغلب دائما هوى المودة القديمة الراسخة، أما ما بين الزوجين فقد مضى فى عذوبة وسلام، وتسليم كلى من جانب عامر لإرادة محبوبته القوية فلم يرتفع له صوت غضب أكثر من مرات معدودات، ولم يبيتا أبدا على خصام. وقد أنجبت له شاكر وقدرى وفايد، ولم تستطع أن تمد فوقهم مظلة سطوتها، فجرح شاكر كبرياءها، وحرك قدرى مخاوفها وإشفاقها، ولكن ثلاثتهم كانوا أمثلة طيبة للنجابة والنجاح. وقامت ثورة يوليو وتعاقبت الهزائم ثم هل النصر والسلام وتجمعت سحب الفتن والجريمة، وهى لائذة بحصن المتفرج لا يعنيها شىء إلا بقدر أثره المباشر على أسرتها أو أبنائها. وتقدم بها العمر وهدأت نوازع كبريائها ونعمت رغم جريان الأحداث برفقة حبيب العمر والأبناء والأحفاد، حتى غاب عامر عن دنياها فى غمضة عين وهو يحادثها، ومن ثم استقبلت حياة صامتة تعلوها كآبة دائمة..

عطا المراكيبى

فى الأصل كان صبيا فى دكان الصالحية لصاحبها المغربى جلعاد المغاورى، التقطه الرجل يتيما ورباه وأذن له بالبيات فى دكانه. وأثبت الصبى جدارة وأمانة، ولزم صاحبه حتى صار شابا يافعا قوى الجسم ربعة غليظ القسمات ضخم الرأس، فزوجه من ابنته الوحيدة سكينة وجعله نائبه فى الدكان. وأقام معه فى مسكن الغورية جارا للمعلم يزيد وابنه عزيز. ولما رحل جلعاد وزوجه ورثت سكينة الدكان شرعا وورثها عطا فعلا، وكان متحليا بأخلاق التجار الدمثة يغطى بها خشونة سجاياه فأمكنه أن يكون صديقا ليزيد والشيخ القليوبى. أما سكينة فكانت على قدر من الوسامة وبنيان هلهله الضعف، فتلكأ إنجابها فترة، ثم أنجبت نعمة عقب ولادة عسيرة كادت تبذل فيها حياتها. وورثت نعمة عن أمها عينيها السوداوين النجلاوين ونعومة بشرتها السمراء وغزارة شعرها الكستنائى مع صحة جيدة. وكانت سكينة جارة حسنة الجوار ففازت بقلب فرجة السماك ومهدت بذلك الطريق لزواج نعمة من عزيز فى الوقت المناسب. وجمع مقهى الشربينى بالدرب

الأحمر بين الشيخ القليوبى ويزيد وعطا ليلة بعد أخرى، وشهد الرجال نابليون بونابرت على جواده وهو يسير على رأس جنوده أمام المشهد الحسينى، وعاصروا تقلبات حملته، وخاصة ثورتى القاهرة، وكاد يزيد يهلك فى الثورة الثانية، وعاصروا بعد ذلك ولاية محمد على ومذبحة المماليك. والثورة التى أحدثها الوالى فى البلد وأهلها. ورغم أن الشيخ القليوبى كان يمتاز بثقافته الدينية إلا أن الوشائج الشعبية والتراثية كانت تقربه من وجدان صاحبيه، ولم يغب عنه ما طبعا عليه من حرص وجهل ولكنه كان يأخذ الناس على علاتها ويقنع منها بالجانب الأليف والمودة المتاحة. وقد دعاهما مرات إلى بيت سوق الزلط فى مقابل مرة يتيمة دعى فيها إلى بيت الغورية، وكان يزيد أحب إليه من عطا، ولمس فيه أركانا من الرجولة والشهامة والتقوى افتقدها فى الآخر، ومع ذلك لم يضق أبدا بعطا ولا فكر فى نبذه، وظل عطا على حاله من القناعة والرقة حتى توفيت امرأته سكينة بعد عام من زواج ابنتها نعمة من عزيز أفندى ابن المعلم يزيد. وإذا بالحى كله يفاجأ بزواجه من الأرملة الثرية هدى الألوزى. كانت تقيم فى بيتها العتيق على الجانب المواجه لدكان المراكيبى فهل كان للقصة تمهيد قديم لم يفطن إليه أحد؟ وقال القليوبى ليزيد:

ـ ستحدث أمور، لا يمكن أن توافق هدى هانم على بقاء زوجها فى دكانه..

وراح عطا يفكر بعقل مدبر لم يجد من قبل الفرصة المناسبة لاستغلال مواهبه. وشاور فى أمره أهل الحل والعقد فى تلك الشئون من جيرانه الأغنياء واليهود المدربين. وفى الحال اقتنى أراضى فضاء، وشرع فى تشييد السراى الكبرى بميدان خيرت، وعقب مرور زمن اشترى عزبته فى بنى سويف وأقام فيها السراى الريفية. وأنجبت له هدى هانم الألوزى محمود وأحمد، ومضى يدرس الزراعة ويوثق علاقاته بجيرانه الجدد، والحق أن الثروة كشفت عن مواهبه الكامنة وقوة شخصيته، كما هتكت حرصه وشحه وجشعه اللا نهائى إلى الثراء. وبخلاف الظنون فرض سيطرته الكاملة على امرأته والمتعاملين معه حتى شبهه الشيخ القليوبى بالوالى الذى جاء مصر جنديا بسيطا ثم تعملق فوق هامة امبراطورية مترامية. بل كانت نهاية إمبراطور بنى سويف خيرا من نهاية الوالى ألف مرة. ووهنت علاقته باصدقائه القدامى ولكنه لم ينقطع من زيارة نعمة وعزيز فى الغورية، يغزو الحى فى حنطوره طاويا نظرات الحسد تحت حذائه، مقدما الهدايا العابرة فى المناسبات، ويدعو الأسرة إلى سرايا ميدان خيرت، الأمر الذى ربط بالمحبة قلوب رشوانة وعمرو وسرور ومحمود وأحمد. ولكن نوبات كرمه تلك لم تجاوز حدودها أبدا، بل بدا أن ابنيه أحن على أختهما الفقيرة نعمة منه هو. وطبعا دفع بابنيه إلى المدارس ولكن أنفاسهما انقطعت بعد الابتدائية كابنى أختهما عمرو وسرور، ولم يأبه لذلك وراح يعدهما للزراعة إلى جانبه، أما محمود فقد شرح صدره بقوة استجابته وصلابة شخصيته، وأما أحمد فقد خاب أمله فيه حتى تركه يائسا لحياته الوادعة. وكان بكرى

العرشى رب أسرة مملوكية تجاور عزبته وكانت له بنتان، نازلى وفوزية، مثالان فى الجمال والتهذيب، فخطبهما لابنيه محمود وأحمد، واحتفل بزواجهما فى فرح واحد أحياه عبده الحامولى والمظ. وعمر عطا فى الوجود حتى أدرك الثورة العرابية، ولم تغز وجدانه من مدخل وطنى لكن من زاوية أملاكه وأمواله، فلما صعدت موجتها حتى ظن لها النصر المبين أعلن تاييده لها، وتبرع بشىء من المال طاويا آلامه فى صدره، ولما تكالبت عليها القوى المعادية ولاح فشلها فى الأفق أعلن ولاءه للخديو. وجاء عصر الاحتلال البريطانى فساوره القلق مرة أخرى من تلك الأحداث التى لا يدرى ما عقباها على أرضه. وقال له نسيبه بكرى العرشى:

ـ لن يغادر الإنجليز هذا القطر ولن نخرج ما حيينا من الإمبراطورية البريطانية..

ولما شعر بأنه يمضى نحو النهاية قال لابنه محمود:

ـ سأترك لك نصيحة هى أغلى من المال، اعتبر العزبة وطنك وهبها كل نقطة إخلاص فى قلبك وحذار من الخطب والشعر..

ومات الرجل بالشيخوخة وحدها، ولحقت به زوجته بعد أشهر، فورث الثروة كلها محمود وأحمد، وانطفأ أمل عزيز ونعمة إلى الأبد..

عقل حمادة القناوى

فى خان جعفر ولد، وفيما بين بيت القاضى وبين القصرين وحارة الوطاويط وابن خلدون والعباسية الشرقية وبين الجناين وميدان خيرت، لعب وطاف وساح وصادق وأحب. وهو الثانى فى ذرية صدرية وحمادة القناوى، اقتبس من أمه عينيها الجميلتين ومن أبيه أنفه الأفطس وقوة جسده مع ميل شديد إلى القصر. وعشقه أبوه وكرسه بكل فخار وليا للعهد. وتابع نجاحه فى التعليم بسعادة وزهو، فعوضه عن جهله وأميته خيرا وأى خير. وعشق منذ صباه الدين والهندسة، والتحق بكلية الهندسة، ولم ينقطع عن القراءات الدينية، ومال إلى الفلسفة الدينية أيضا ثم جرفه تيار من الأفكار المتضاربة فاستقر عمرا فى مقام الحيرة. وفى تجواله فى فروع أسرته أعجبته هنومة بنت خالته سميرة فأراد أن يحجزها لنفسه ولكن البنت قالت لأمها:

ـ أنا أطول منه بصورة واضحة فهو غير مناسب!

وصدمه ذلك وأشعل فى جوارحه الغضب. وظل مواظبا على الصلاة والصوم رغم شكوكه. لم يستطع أن يؤمن ورفض أن يكفر ولاذ بالفرائض. وتفشى الشك فى خلاياه

فلم يستطع أن ينتمى. انتبه إلى الوفد فى عصر هبوطه، كره انغلاق الماركسيين، واحتقر تهريج مصر الفتاة، ولما قامت ثورة يوليو نفر منها رغم عدم مساسها له لشعوره بعداوتها لطبقة الملاك التى ينتسب فى النهاية إليها. وحزن كثيرا على أخته وردة كما حزن على أبيه. ولما تخرج توظف فى مكتب هندسى وفكر جادا فى الزواج لعله ينتشله من الخواء الذى يخنقه. وأعجبته أخت لزوج أخته نهاد فخطبها وتزوج منها، وأقام معها فى شقة فى عمارة صغيرة مجاورة لبيت خاله عامر ببين الجناين. وكانت لهفته على الإنجاب حارة كآل أبيه، ولكن تبين له أنه عقيم لا ينجب. وشد ما أحزنه ذلك وأوجعه. وقالت له جدته راضية:

ـ لا تصدق الأطباء ولا تيأس من رحمة الله..

وتبدت له الحياة فى صورة رغائب مستحيلة. دائما حبيبة ومستحيلة. ولما خلا بيت أمه من الأنيس وانفردت صدرية بوحدتها قال لها:

ـ تعلمين كم أحبك، أقيمى معنا فى بين الجناين..

فقالت باسمة:

ـ لا أترك الحسين ولا جدتك.

وحرص اكثر على أداء الفرائض وعلى جنى أرباح موهبته المعمارية. وذات يوم قال لحكمت زوجته:

ـ لا أحب أن تبقى معى يوما واحدا دون رغبة حقيقية..

فتجهمت دقيقة ثم قالت:

ـ إنى راضية تماما والحمد لله..

فالشك أخذ يساوره فى مستقبل علاقته بزوجته، كما مضى يملك عليه تفكيره بالنسبة لمستقبل وطنه الذى يتزحزح من مأزق إلى مأزق. ولم يعاوده تنفسه الطبيعى إلا فى عهد السادات. ووجد فى الانفتاح فرصة لأعمال كبيرة تنسيه الوساوس والهواجس. واختار الشقق ميدانا لتجارته مستفيدا من مدخراته وبيع نصيبه من ميراث أبيه. وربح أموالا طائلة، وعمل بنشاط فائق حتى عبر الستين، وعند ذاك تساءل:

ـ وبعد؟!

وفكر طويلا ثم قال لحكمت:

ـ مللت العمل وآن لنا أن نستمتع بأموالنا..

فتساءلت ببراءة:

ـ ماذا ينقصك؟

فضحك ساخرا وقال:

ـ السياحة، علينا بالسياحة، سنرى الدنيا ونذوق أجمل ما فيها . .

فارتبكت. إنها لم تعرف من دنياها إلا قرية أبيها وبين الجناين ولا رغبة لها فى المزيد.

ولما لمس حيرتها قال:

ـ لن تحتاجى معى إلى ترجمان . .

وقال لنفسه إذا كرهت الفكرة مضيت لها وحدى. ولكنها كالعادة طاوعته ومضت تجهز الحقائب. وانطلقت من جوفه شرارة شك فتأمل ما حوله قليلا ثم قال لنفسه:

ـ لا يبعد أن تحترق بنا الطائرة، إنى خبير بمنطق الحوادث! .

ولكن الطيارة لم تحترق والوساوس لم تخمد . .

عمرو عزيز يزيد المصرى

ولد ونشأ فى بيت الغورية، بين رشوانة وسرور، وتشرب قلبه رحيق الحى بحب وشغف، فاختالت فى نفسه تقاليد أهل البلد وانتشر من أردانه عبير الروح والدين. ولعله كان أحب الثلاثة إلى عزيز ونعمة لشبهه بأبيه بجسمه المليء فى اعتدال وبشرته القمحية وعينيه الواسعتين الصافيتين. وكان العقل المدبر الكابح لرشوانة وسرور فى لعبهم وتجوالهم بين بوابة المتولى وسبيل بين القصرين، وعرف فيما بعد بالحكيم الذى يرجع إلى رأيه فى شتى الأمور. وحظى بنفس المنزلة بين خاليه محمود وأحمد وابن عمه عبد العظيم. وقد أخلص لفرائض الدين منذ صغره، ولعب دور الشرطى فى حياة سرور المحفوفة بالنزوات. ودخل الكتاب فحفظ ما تيسر له من القرآن الكريم، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة، ثم دخل المدرسة الابتدائية فى الثانية عشرة من عمره فحصل على الابتدائية بعد بذل أقصى ما يملك للتعلم. وبسعى من داود باشا عين فى حسابات نظارة المعارف. وحاز دائما تقدير الرؤساء والزملاء، وأثرى حياته بصداقة الأصدقاء، ونورها بقراءة القرآن وكتب الأولياء، ونوع مجال حركته بأريحية معطرة بحب الدين والدنيا، فكان يشهد الأذكار فى الصنادقية، ويسمع الحامولى فى الأفراح، ويجالس الأحباب فى الكلوب المصرى. وكان هادئ الطبع، ينال بالحلم ما لا يناله بالقوة والغضب، وما كاد أبوه يزكى له فكرة الزواج حتى رحب بها ترحيب شاب قوى تقى. وتم اختيار راضية له، كبرى بنات الشيخ معاوية صديق أبيه، فزفت إليه فى بيت حديث البناء بميدان بيت القاضى، حيث استهل حياة زوجية موفقة مثمرة. وجد فى راضية شخصية مناقضة لذاته، بعصبيتها وعنادها، وغيبياتها التى لا ضابط لها، ولولا هدوء طبعه وحلمه ما

جرت الأمور فى مجراها الآمن مع عدم إهدار شىء من مهابته فى بيته. ولكنه لم ينج من تأثيرها فآمن بتراثها وطبها الشعبى، واضطر إلى أن يسمح لها بزيارة أضرحة الأولياء، رغم أنه كان يفضل أن تستكن فى بيتها أسوة بزينب امرأة أخيه والهوانم زوجات محمود وأحمد وعبد العظيم. قالت له فى اختيال:

ـ كلهن هوانم طيبات ولكنهن جاهلات لا شأن لهن بأمور الغيب..

وفى مقابل ذلك جعلت له من بيته مستقر رحمة ومودة، وأنجبت له صدرية وعامر ومطرية وسميرة وحبيبة وحامد وقاسم. وكان عمرو ـ بخلاف سرور ـ فخورا بأهله، بسراى ميدان خيرت وفيللا شارع السرايات والأراضى والأملاك والرتب، ولذلك حظى بيته بعطف الجميع، وطاف به الحنطور تلو الحنطور، يحمل إليه أعيان بنى سويف وهوانمهم وآل داود وهوانمهم، يجلسون حول طبليته، ويغمرونه بالهدايا، ويستمعون إلى نوادر راضية وتراثها منوهين ببطولة أبيها بطل الثورة العرابية. وتلك المودة العميقة هى التى فتحت باب المصاهرة إلى آل عطا وآل داود فزادت منزلته رفعة وقوة، وأثارت من سوء التفاهم بينه وبين سرور ما كان خليقا بأن يفسد العلاقة بينهما لولا متانة الأساس وعمق الذكريات. وطالما قال سرور بحسرة:

ـ لو ماتت هدى الألوزى قبل عطا المراكيبى لكنا من الوارثين!

فيقول:

ـ لا اعتراض على المشيئة الإلهية.

تغلب على تلك الوخزة بسماحة إيمانه، وكان دأبه إذا ناوشته نقمة أن يذكر نفسه بالنعم الكثيرة المتاحة كالصحة والأولاد. أجل تفجر غضبه يوم وأد آل داود ميل لطفى لمطرية وترك راضية تهدر قاذفة لعناتها وقال لنفسه:

ـ صدق من قال إن الأقارب عقارب!

ولكنها كانت غمامة ما لبثت أن تلاشت تحت أشعة شمس دائمة واتسع قلبه أيضا للعواطف الوطنية. فاته أن يشارك أباه خيبته لنكسة الثورة العرابية، ولكنه كثيرا ما رأى جنود الاحتلال وهم يطوفون بالحى العتيق كالسائحين. وأفعم وجدانه فيما بعد بكلمات مصطفى كامل ومحمد فريد، ثم بلغ قمة انفعاله فى ثورة ١٩١٩، وعشق زعيمها، واشترك فى إضراب الموظفين، وحافظ على ولائه للزعيم رغم انشقاق أهله العظام محمود وأحمد وعبد العظيم عليه. وتابع خليفة الزعيم ـ مصطفى النحاس ـ بكل وجدانه، ووزع الشربات يوم عقد المعاهدة. وأيد الزعيم بقلبه ضد الملك الجديد، وغضب مع الغاضبين لإقالته من الحكم رغم أنه كان يعانى ضعف القلب الذى أودى به بعد ذلك بقليل. وقد تحمل عبء الأولاد وهم فى رعايته، وشارك فى همومهم بعد أن استقل كل ببيته. وكان يقول:

ـ نحن نحلم بالراحة دائما ولكن لا راحة مع الحياة . .

ثم يلوذ بإيمانه تاركا الخلق للخالق . وكم ناط بقاسم من آمال، وماذا كان المصير؟! ولما أحيل إلى المعاش غشيته وحشة لم يكن يفيق منها أبدا، ثم دهمه مرض القلب من حيث لم يحتسب فحدد حركته ومسراته الحميمة وغاص به إلى قعر الكآبة . وذات مساء وهو جالس فى الكلوب المصرى أغمى عليه، فحمل إلى فراشه فى حال احتضار، وأسلم الروح قبيل الفجر على صدر راضية . .

حرف الغين

غســـان عبد العظيم داود

ولد ونشأ فى فيللا شارع السرايات وهو الثانى فى ذرية عبد العظيم باشا داود . ولعله الوحيد من أبناء عبد العظيم باشا الذى لم يقتبس من رواد أمه فريدة هانم حسام شيئا . كان مائلا للقصر، نحيفا، غامق السمرة، متجهم الوجه غالبا، وغالبا يحمل طابع المتقزز كأن ليمونة تعصر فى فيه! وكأنما خلق ليشمئز من الدنيا ومن عليها، فهو فى الفيللا منفرد بنفسه فى حجرته، أو يتمشى فى الشوارع الشرقية الصامتة تحت ظل أشجارها الفارعة، أو يتوغل فى الصحراء الخالية، لم يعرف له صديق واحد من الجيران، ولا نمت بينه وبين أخويه لطفى وحليم أو حتى فهيمة وعفت وشيجة أخويه، وفى المرات النادرة التى لاعب فيها أخاه حليم سواء فى حديقة الفيللا أم فى الشارع انتهت بسوء تفاهم وخصام، وختمت مرة بمشاجرة هزم فيها رغم أنه الأكبر . واصطحبه أبوه معه لزيارة أهله خاصة آل عمرو، ودعى مرة مع الأسرة إلى سراى آل عطا بميدان خيرت، فكان يشاهد بعينيه ولا يكاد ينبس بكلمة ولم يفز بصديق واحد . وأطلقوا عليه « عدو البشر»، وتهكموا بوجهه الصامت المشمئز، وعوده النحيل، ونفوره الدائم، وكبريائه المتوحد . أجل كانت عيناه تعكسان شعاع النهم وهما تنظران إلى البنات الجميلات من قريباته ولكنه لم يصل النظرة بابتسامة ولا بأى إشارة . ويقول له أبوه :

ـ يجب أن تخرج من عزلتك .

فيقول بنبرة قاطعة :

ـ إنى أعرف أين توجد راحتى ولا أهمية لشىء وراء ذلك . .

ـ وماذا تفعل فى حجرتك المغلقة؟

ـ أسمع أسطوانات . . أو أقرأ . .

ولكنه لم يكشف عن أى موهبة ذوقية أو فكرية. وقد تابع رؤية أبيه السياسية ربما لأنها وافقت تعاليه واحتقاره الطبيعى للعامة، واعتبر المطالب الوطنية والزعامة الشعبية ألوانا من التهريج المبتذل. ولم تغب عن حاسته تدنى صورته الكئيبة بين صور أسرته الرائقة، وتحدى عزة نفسه قدر من الغباء أعجزه عن بلوغ التفوق الجدير فى نظره بمركزه الاجتماعى كبريائه الطبقى. وقد قسا على نفسه وكلفها من الاجتهاد ما لا تطيق، وسهر الليالى فى المذاكرة فلم يظفر إلا بالنجاح العادى الذى بالكاد ينقله من مرحلة إلى مرحلة فى ذيل الناجحين. سأم نفسه العذاب ليتفوق دون جدوى، ورمق المتفوقين بالحقد والاحترام، وأترع قلبه بالأسى لعجزه. كيف يعاشر هذا العجز على حين أن جده باشا وأبوه باشا وشقيقه الأكبر باشا؟! وتراءى له المستقبل كخصومة عارية مفعمة بالتحدى ولاستفزاز. ولم يجد فى الدين أى عزاء لأنه كسائر إخوته لم يعرفوا الدين إلا عنوان هوية بلا مضمون، فعبد العمل عبادة ووهبه نفسه كلها ليقنع فى النهاية مرغما بأقل ثمرة تنبتها أرضه القاحلة. ولما التحق بالحقوق وجد هناك قريبه لبيب بن سرور أفندى محاطا بهالة من الإعجاب لتفوقه وحداثة سنه فضاعف ذلك من كآبته وتعاسته، واحتج على الأقدار التى ميزت قريبه الفقير ابن الفقير بالموهبة وحرمته منها هو سليل الباشوات والمهن القضائية والطبية الرفيعة. ولعل من أسباب احتقاره للوطنية كان حماس أهله الفقراء ـ وآل عمرو وآل سرور ـ لها، فلم يتحمس لثورة ١٩١٩ فى إبانها وسرعان ما لاذ بجناح الخارجين عليها مع أبيه وأسرته. وعند التخرج رأى قريبه يتعين فى النيابة، ووجد نفسه رغم العرق والسهر فى الذيل. وبسعى من أبيه المستشار الكبير عين فى قضايا الحكومة بوزارة المعارف فالتحق بالعمل ساخطا متبرما رغم أنه لا يستحقه. واشتهر فى حياته العملية بالانطواء والاجتهاد والغباء، ولدى كل حركة ترقيات كان أبوه يسعفه، ومضى فى عزلته ما بين الديوان والفيللا، بلا صديق ولا حبيب، لا يكاد يبرح متكتبته التى كونها عاما بعد عام إلا حين الضرورة القصوى. وربما رؤى وحيدا فى حديقة عامة أو فى النادى، وربما تسلل فى حذر تام إلى بيت راق من بيوت الدعارة السرية. وقالت له فريدة هانم حسام:

ـ آن لك أن تفكر فى الزواج..

فرمقها بدهشة وامتعاض وتمتم:

ـ لم يبق إلا هذا..

أكثر من سبب كره إليه فكرة الزواج. فى مقدمتها انغماسه فى وحدته المقدسة وعجزه عن الخروج منها وخوفه أن ترفضه الفتاة اللائقة بمركزه وأسرته للمآخذ الكثيرة التى لا تغيب عن وجدانه. ولم تكف فريدة هانم عن القلق عليه، خاصة بعد وفاة عبد العظيم باشا وشعورها بدنو الأجل، وبأنها ستتركه فى فيللا كبيرة خالية. يضاف إلى ذلك ما

صبته عليه ثورة يوليو من أحزان جديدة لم تخطر له على بال من قبل. تساءل فى جزع:

ـ أيبلغ بنا التدهور أن تحكمنا مجموعة من العساكر الأميين؟!

وراقب ما حاق برتب أسرته وقيمها القانونية والطبية بفزع، وتساءل:

ـ هل أبكى اليوم رعاع الوفد؟!

وقالت له فريدة:

ـ غدا ألحق بأبيك، يلزمك زوجة وأبناء..

فقال لها بخشونة:

ـ العقم هو العزاء المتبقى لنا!

وأصر على عناده الحقود، ولم يتزعزع تصميمه بعد وفاة أمه، وأحيل على المعاش فى أوائل السبعينات فواصل حياته فى وحدته كالشبح، وكأنما لم يحظ من دنياه إلا بصحة متينة صامدة قانعا من مسرات الدنيا بالطعام والكتب ثم بالتليفزيون والخادمة الجديدة..

حرف الفاء

فاروق حسين قابيل

الخامس فى ذرية سميرة وحسين قابيل. ولد ونشأ فى شارع ابن خلدون، واستقبل الدنيا بجسم رشيق قوى ووجه وسيم مثل إخوته وأخواته، وذكاء وقَّاد يبشر بكل خير، ولكنه نما فى مناخ الانضباط الذى ساد الأسرة بعد وفاة حسين قابيل. ومنذ صغره حلم بأن يكون طبيبا وبعزيمة قوية حقق حلمه عابرا عقبات التنسيق. وقد توزع قلبه الحماس لثورة يوليو بحكم مولده وميلا مع أخيه حكيم، والنفور منها أحيانا عطفا على الإخوان وحبا فى أخيه سليم الذى قذف به فى السجن. ووجد الخلاص من التناقضات فى الاهتمام بمهنته، فحصل على الدكتوراه، وفتح عيادة خاصة إلى جانب عمله فى المستشفى. وجمع الحب بينه وبين زميلة هى الدكتورة عقيلة ثابت، فتزوجا وأقاما فى شقة حديثة بمصر الجديدة. وشد ما حزن فاروق على مصير شقيقه حكيم، وغربة شقيقه سليم، فقد عرف أبناء سميرة بقوة تماسكهم، كما عرفوا أيضا ـ كأمهم ـ بالصمود حيال المصائب. ولكنه تجنب الجهر بآرائه السياسية خارج محيط أسرته اتعاظا بما أصاب أخويه حكيم وسليم، متفرغا لمهنته. وفى هذا المجال أحرز منزلة فريدة كجراح، كما وليت

زوجته مناصب رفيعة كمولدة، وقد أنجبت له بنتين توجهتا بكفاءة نحو الطب أيضا. وكان فاروق من القلة التى آمنت بسياسة السادات فيما عدا الانفتاح غير المنضبط الذى فتح أبوابه باندفاع جرَّ على البلد ويلات اقتصادية لا يستهان بها. ولم يكن ضمن القطاع الذى سر لمصرعه، وقال مرة لخاله عامر:

ـ لقد ولى السادات نيابة ـ عن عبد الناصر ثم قتل كذلك نيابة عنه!

ومما يذكر له كطبيب معدود ومقصود أنه لم يتهاون فى جانب المبادئ فلم تجاوز تسعيرة أتعابه حدود المعقول أبدا..

فايد عامر عمرو

الابن الثالث لعامر وعفت. ولد ونشأ كأخويه فى بيت بين الجناين، وكان كثير الشبه بجدته فريدة حسام فى بياض البشرة وجمال العينين، ورشاقة القد. وقد رضع غير قليل من تراث راضية وعمرو والحى العتيق، ولكنه تشبع بتقاليد جدته فريدة وجده عبد العظيم باشا داود. ومنذ صباه عشق القانون والمجد القضائى، كما عشق الثقافة الحديثة، ثقافة السينما والراديو ثم التليفزيون، ورغم حبه لجديه عمرو وعبد العظيم فلم يكترث لا للوفد ولا للأحزاب الأخرى، ولما تخرج فى الكلية كان من المتفوقين، وبفضل تفوقه ومنزلة عبد العظيم باشا تعين من فوره فى النيابة. ولعله الوحيد من أبناء عفت وعامر الذى لم يكدر صفوهما بسلوكه أو فكره مثل أخويه شاكر وقدرى، ولما أعلن ذات يوم أنه يحب بنتا تدعى ماجدة العرشى طالبة بكلية الحقوق اضطربت عفت لمرارة التجارب الماضية، ولكنها سعدت عندما توكدت من أن البنت كريمة لطبيب وحفيدة لطبيب أيضا وأن الأسرة على مستوى طيب جدا ومناسب جدا. وقالت عفت لعامر:

ـ أول زيجة تبل الريق!

وتزوج فايد ودخل فى شقة بمصر الجديدة. ولما قامت الثورة لم ينفر منها رغم إهدارها لرتب جده وخاله، بل ربما مال إليها ولم يخف ذلك عن أمه وأبيه.. قال:

ـ جاءت فى وقتها تماما..

وترقى فايد فى درجاته المعهودة حتى درجة المستشار. ولم يتغير موقفه من الثورة وزعيمها، حتى محنة ٥ يونيو لم تغيره وإن مزقت قلبه تمزيقا. أما السادات فقد أيده فى حربه وفتحه صفحة الديموقراطية من جديد، وشك كثيرا فى خطوة السلام، ثم لعنه بسبب الانفتاح والنكسة الديموقراطية، ومع أنه لم يوافق على الاغتيال إلا أنه لم يحزن

عليه واعتقد أنه نال ما يستحقه تماما. ولم ينجب فايد سوى بنت وحيدة، وقد تخصصت فى الكيمياء، ودعتها عفت باسم أمها فريدة.

فرجة الصياد

عرفتها الغورية فى الرابعة عشرة، قوية الجسم، مليحة الوجه، تجول فى جلباب أزرق، وعلى رأسها مقطف فيه سمك وميزان. اضطرت إلى الخروج من مسكنها فى السكرية بعد وفاة أبيها وعجز أمها عن الحركة، ورعتها تقاليد الجيرة والتقى. وذات يوم ناداها رجل قوى ذو لهجة غير قاهرية ليبتاع سمكا فأنزلت المقطف إلى الأرض وقرفصت وراءه وراحت تزن له رطلا. ونظر إليها مليا ثم قال:

ـ أنت حلوة يا شابة..

فقالت له بخشونة:

ـ تريد السمك أم الميزان يحطم وجهك؟

فشخر الرجل بعفوية فانتصبت واقفة مستعدية أهل المروءة. وانقض على الرجل الغريب رجال وتحرج الموقف، ولكن برز من الجمع رجل يعرفونه هو عطا المراكيبى وهتف:

ـ صلوا على النبى..

وضحك قائلا:

ـ إنه اسكندرى، جارى فى بيتى، لا يعرف عادات البلد، والشخر عندهم كالتنفس عندنا..

وأنقذ جاره ومضى به إلى دكانه..

وعطا نفسه تشاءم من مقدم الرجل، لأنه جر وراءه جيش الكفار، جيش نابليون، وقد سأله:

ـ ماذا جاء بك؟

فأجاب:

ـ قتل الوباء أهلى فعزمت على هجر الإسكندرية.

وتغير الحال عندما تزوج عطا من سكينة ابنة معلمه فتفاءل بمقدمه وأحبه وقال له:

ـ قدم خير يا عم يزيد!

ولم ينس يزيد المصرى فرجة الصياد فقال لصاحبه :

ـ أريد أن أكمل نصف دينى ببياعة السمك . .

وخطبها عطا المراكيبى من أمها ثم زفت إليه فى شقته ببيت الغورية . ويقول عطا المراكيبى إنه بمجرد أن أغلق الباب على العروسين سمع المدعوون فى الصالة الخارجية شخرة تنفذ من ثقب الباب مثل قرقرة الماء فى النارجيلة!

وقد وفق يزيد المصرى فى زواجه وأنجبت له فرجة ذرية كثيرة لم يبق منها إلا عزيز وداود . وامتد العمر بالزوجين حتى شهدا مولد الأحفاد . وفى ليلة رأى يزيد رجلا فى المنام قال له إنه نجم الدين الذى يصلى أحيانا فى ضريحه ونصحه قائلا :

ـ شيد قبرك جنب ضريحى لنتلاقى كما يتلاقى المحبون . .

ولم يتردد الرجل فبنى حوشه الذى دفن فيه ، وما زال حتى اليوم يستقبل الراحلين من ذريته المنتشرة فى أنحاء القاهرة .

فهيمة عبد العظيم داود

كانت تدعى بعاشقة الورد من طول مكثها فى حديقة الفيللا بشارع بين السرايات . وكانت أجمل ذرية عبد العظيم باشا داود ، وفى الجمال فاقت فريدة هانم حسام . وربما كانت فى الذكاء دون عفت ولكنها كانت أطيب قلبا وأصفى روحا . وقد تربت معها فى الميردى دييه ولنفس الهدف أى إعدادها للحياة الزوجية الرفيعة . وجاء زواجها تقليديا رغم ذلك فخطبت ـ عن طريق جارة ـ لوكيل نيابة يدعى على طلعت . وشيد عبد العظيم باشا داود لها بيتا فى بين الجناين كما فعل لعفت وزفت فيه إلى العريس . كانت الزيجة فى غاية من التوفيق ، وأنجبت له داود عبد العظيم وفريدة ، ولكن سوء البخت الذى تربص بالأسرة بعد ذلك صار مضربا للأمثال . فقدت فهيمة ذريتها بعد أن اكتمل لها الشباب وأضاء الأمل . مات داود بالتيفود وهو طالب فى السنة الثالثة بكلية الحقوق ، ومات عبد العظيم بالكوليرا بعد تخرجه من العلوم بأشهر ، وماتت فريدة بروماتيزم القلب وهى فى الثانوية العامة . وأذهل الأسى العميق الوالدين لدرجة الزهد فى الحياة ، فطلب على طلعت الإحالة إلى المعاش وهو مستشار فى استئناف القاهرة وتفرغ للعبادة والقراءات الدينية فى عزلة دائمة ما بين بيته والقرافة ، أما فهيمة ـ وهى من أسرة يقبع الدين فيها منزويا على هامش حياتها ـ فقد بدأت تتساءل عن المصير ، وعن اليوم الذى تجتمع فيه بذريتها الهالكة مرة أخرى ، وراحت تقتنى من السوق جميع ما فيها من كتب

الأرواح وتحضيرها والقوى الخفية، وآمنت أخيراً براضية وتراثها الذى كانت تتابعه فيما مضى بابتسام وسخرية. وقال لها أبوها عبد العظيم باشا:

ـ الصبر يا بنتى، وددت لو كنت الفداء لأبنائك:

فقالت له:

ـ أنت الخير والبركة يا بابا، ربنا يطول لنا فى عمرك . .

وكان كلما شيع جنازة شاب من أبنائها فتقدم المشيعين بشيخوخته الطاعنة شعر بحرج وما يشبه الذنب، وتضايق من النظارات المحدقة به فى إجلال صامت. وما لبث على طلعت أن انتقل إلى رحمة الله مصابا بأنفلونزا حادة فوجدت فهيمة نفسها وحيدة فى ملكوت أرواحها، وقد عمرت طويلا بعد وفاة والديها وأقاربها من ذلك الجيل العريق المقدس للتقاليد ووشائج القربى، فباتت نسيا منسيا فيما عدا كلمة تتبادلها فى التليفون مع شقيقتها عفت . .

حرف القاف

قاسم عمرو عزيز

آخر عنقود ذرية عمرو وراضية. ولد ونشأ فى بيت ميدان بيت القاضى، وهو الوحيد من الأبناء الذى لم يبارحه. وبدا من مطلعه نحيلا متحركا، ولم يكن به شبه واضح لوالديه، ولكنه إذا ضحك استحضر صورة أبيه الضاحكة، وإذا انفعل ذكر الملاحظ براضية. وكان السطح ملعبه والميدان بأشجاره الفارعة وعاش بكل وجدانه فى أمطار الشتاء ورياح الخماسين. ولم يتح له أن يتخذ من أحد من إخوته أو أخواته رفيقا فما كاد يشب حتى كانوا قد تفرقوا فى بيوت الزوجية، ولكنه وجد العوض فى أبناء عمه سرور وأبناء الجيران، كما وجد مراحه فى بيوت المتزوجين وعند آل عطا وآل داود. وكان أخلص المستمعين لأمه وأصدق التابعين لها فى أحلامها وجولاتها الروحية بين الجوامع والأضرحة. وكلما جمح به الخيال وجد عندها الأذن الصاغية والقلب المصدق، ففى إحدى ليالى رمضان أخبرها أنه رأى ليلة القدر كطاقة من نور مشع انداحت لحظات فى السماء، وأنه اطلع فى ليلة أخرى من وراء خصاص المشربية على زفة من العفاريت. ومنذ صباه وهو يتطلع إلى بنات الأسرة بحب استطلاع موسوم بشهوة مستوفزة قبل أوانها، وحام بصفة خاصة حول دنانير وجميلة وبهيجة إلى بنات الجيران وفتياتهم ولم يعتق سيداتهم منه رغباته الغامضة الآثمة، مع تدين مبكر وصلاة وصيام. ودخل الكتاب

على رغمه وتلقى فيه المبادئ بقلب نفور وعقل متمرد ولم يستطع أبدا أن يفرق بين المدرسة وسجن قسم الجمالية الذى رأى الوجوه التعيسة تلوح وراء قضبان نافذته.

ويسأله عمرو فى مجلس الليل بعد العشاء:

ـ ألا تريد أن تكون كأخويك؟

فيقول بصراحة:

ـ كلا..

فيقطب الرجل ويقول منذرا:

ـ لا تضطرنى إلى تغيير معاملتى لك..

اهتزت صورة أبيه فى عينيه من عجز عن دفع الموت عن ابن أخته أحمد، حين تركه لدموعه غير المجدية. يريد الآن أن ينعم بحضن جميلة رغم ما يعقبه من ألم يقبض على قلبه عندما يقبل على صلاته. دائما تعذب بين الحب والعبادة. وأعين الرقباء أيضا مثل بهيجة وأمه. بين الدجاج والأرانب والقطط فوق السطح ضبطتهما راضية مرة. لدى ظهورها انفك الاشتباك فطارت جميلة كالحمامة والدم ينبثق من وجنتيها من شدة الحياء. وقطبت راضية، ثم أشارت بيدها المعروقة إلى السماء الحانية فوق السطح وقالت:

ـ من هناك يرى الله كل شىء..

وتوارت جميلة عندما جاء ابن الحلال، وألحق قاسم جرح الحب بجرح الموت، وراح يراقب رءوس الأرانب المطلة من فوهة البلاص المقلوب. وسرعان ما وجد نفسه حيال أوهامه وجها لوجه، ودروس المدرسة الثقيلة، وابتسامة لا ترى بالعين المجردة آتية من عينى بهيجة الجميلتين. وظن الأخت مثل أختها ولكنه وجد قلبا عذبا وإرادة صلبة. أى فائدة ترجى من ذلك الحوار الصامت؟!. حتى ست زينب أمها قالت لها:

ـ إنكما متماثلان فى السن فهو غير مناسب..

وقالت له راضية:

ـ المهم أن تشد حيلك فى المدرسة..

وبسط عمرو راحتيه داعيا:

ـ اللهم اجبر بخاطرى فى هذا الولد..

ومن شدة الحصار بكى قاسم. كان بمجلس والديه الليلى فسأله أبوه عما يبكيه فقال:

ـ تذكرت أحمد!

فقطب عمرو وهتف:

ـ ذاك تاريخ قديم، حتى أمه نسيته!

ومضى ينظر إلى الأشياء بحزن ويبكى. قالت راضية لعمرو وهما منفردان:

ـ عين أصابت الولد.

فقال عمرو بغيظ:

ـ يحسدونه على خيبته!

وبخرته، وجعل يتشمم الشذا الغامض ثم سقط مغشيا عليه. ومضى به أبوه إلى الطبيب فقرر أنها حالة صرع خفيف لا خوف منه ولكن يلزمه راحة وتغيير هواء. وتذكروا مأساة بدرية بنت سميرة. ونظر مرة إلى الفراغ بحضور والديه وقال:

ـ سأفعل جميع ما تريدون..

وتساءل عمرو:

ـ أهو هذيان مرض؟

فقالت راضية بيقين:

ـ بل هو اتصال بأهل الغيب..

وعلم الأهل بحاله فتقاطروا على بيت القاضى يعودونه، وحدجوه بنظرات مليئة بحب الاستطلاع والتوجس، وجرى التهامس فى سراى آل عطا فقالت شكيرة لأمها:

ـ ما هو إلا عرف الجنون النابض من قديم فى أسرة راضية..

وقالت مثل ذلك ست زينب لسرور فى بيتها. أما راضية فوكدت لعمرو علمها بتلك الحال وقالت له بثقة ويقين:

ـ لا تخف ولا تحزن وكن مع الله..

ودارت بابنها على الأضرحة، وحرقت البخور فى أركان البيت من بابه إلى سطحه. أما قاسم فهجر المدرسة باستهانة، وراح يتجول فى الحوارى، أو يطوف ببيوت إخوته وأخواته وأقربائه فى ميدان خيرت وشارع السرايات وبين الجناين، وفى كل موقع يتناول المشروبات وينثر كلماته الغامضة تنبئا عن المستقبل كما يتراءى له، وتجىء الحوادث مصدقة لنبوءاته حتى عرف بينهم بالشيخ ولم يعد أحد منهم يجرؤ على السخرية منه. وقال محمود بك عطا لعمرو المحزون:

ـ إنها مشيئة الله، وأنت رجل مؤمن، والولد فيه سر لا يعلمه إلا الله، إنه يقرأ خواطرى حتى بت أعمل له ألف حساب..

فتساءل عمرو:

ـ ولكن مستقبله ورزقه؟

فقالت خالته شهيرة وكانت حاضرة:

ـ الله لا ينسى مخلوقا من مخلوقاته فما بالكم بواحد من أوليائه؟

والواقع أن سمعته انتشرت فى صورة أساطير فأخذ يقصده أصحاب الآمال المعذبة محملين بالهدايا ثم النقود، حتى اضطرت الأسرة لإعداد حجرة المعيشة بالدور الأول لاستقبال زواره، وحتى ذهل عمرو عندما وجد رزقه ينمو ويفوق رزق أخويه مجتمعين. وتلاشت مشكلته بحكم العادة، وكأنما خلق لهذه الولاية، وبدل قاسم بملابسه الإفرنجية الجلباب والعباءة والعمامة، وأرسل لحيته، وقسم وقته بين استقبال زواره وبين العبادة فوق السطح، وحتى أمه ـ الأستاذة العريقة ـ أصبحت من تلامذته ومريديه. وفتح صدره لأحزان أسرته وانغمس فى مآسيهم، وشيع أمواتهم، وصلى عليهم فى جوف مقابرهم. وذات يوم وكان قد بلغ الثلاثين من عمره خفق قلبه خفقة أعادت إليه ذكريات قديمة مبللة بماء الورد، وناداه صوت ناعم للخروج من بيته فاشتمل بعباءته وخرج، ومن توه توجه نحو بيت عمه المجاور. واستقبلته بهيجة بذهول وهى تسائل نفسها عما جعله يقتحم وحدتها اليائسة. راحا يتبادلان النظرات كالأيام الخالية، ثم قال:

ـ رأيتك فى المنام تلوحين لى..

فابتسمت ابتسامة باهتة لا معنى لها فقال:

ـ وقال لى هاتف من الغيب آن لكما أن تتزوجا..

وقام من فوره فغادر البيت راجعا إلى بيته وقال لأمه:

ـ أريد أن أتزوج فاخطبى لى بهيجة..

وقالت راضية لنفسها إن جميع الأولياء تزوجوا وأنجبوا. وعندما جاء لبيب لزيارتها أبلغته بالخبر. وشاور لبيب ابنى عمه عامر وحامد فاتفق الرأى على أن قاسم قادر على القيام بأعباء أسرة ولكن الأمر رهن بموافقة بهيجة. والعجيب أن بهيجة وافقت. قيل إنه اليأس وقيل إنه الحب القديم، ومهما يكن من أمر فقد زفت إليه بعد أن تجدد البيت القديم بالأثاث الجديد. وتم الزفاف فيما يشبه الصمت بسبب الإظلام المخيم فى فترة الحرب. واحتفلت به المدافع المضادة للطيارات. ومضت سنوات عقم ثم أنجبت بهيجة ابنها الوحيد النقشبندى الذى شابه فى جماله خاله لبيب. وكان كامل الصحة والذكاء فتخرج مهندسا فى عام النكسة. وأرسل قبيل السبعينات فى بعثة إلى ألمانيا الغربية، وكانت حال البلد قد أرهقت صحته النفسية فقرر الهجرة، والتحق بعمل هام فى مصنع صلب بعد حصوله على الدكتوراه، وتزوج من ألمانية واستقر هناك بصفة نهائية. وحزنت بهيجة لذلك حزنا شديدا أما قاسم فلم يكن يحزن لشىء.. وودعه قلبه بغير دموع..

قدرى عامر عمرو

ولد ونشأ فى بيت بين الجناين وهو الابن الأوسط لعامر وعفت. من صغره كان شعلة فى اللعب والجد والخيال. ومن صغره أيضا أولع بالاطلاع والاهتمام بالحياة العامة بخلاف أخويه، ثم وجد نفسه فى اليسارية. وعشق الفن والأدب رغم موهبته العلمية ووضع حجر الأساس فى مكتبته الخاصة وهو فى أولى سنى الدراسة الثانوية. وكاد يكون صورة من أبيه غير أنه كان أفرع طولا وأقوى بنيانا، إلى طبيعة إيجابية ضاربة جرت عليه المتاعب. وكم كانت دهشة عامر كبيرة عندما قبض على ابنه ضمن نفر من اليساريين. وهرع الرجل إلى حميه عبد العظيم باشا فسعى الرجل إلى الإفراج عنه بحجة حداثته ولكن الباشا ذهل وقال لعامر وعفت:

ـ كيف تكوّن هذا الولد فى بيتكما؟

فقال عامر فى حياء:

ـ نحن لا نقصر فى تربيتهم ولكن الآخرين يتسللون إلى حياتهم فيفسدونها..

ودخل قدرى كلية الهندسة وهو مسجل فى الصفحة السوداء فى جهاز الأمن. ونبه حليم أخته إلى خطورة الوضع على مستقبله، وهذا ما فعله حامد مع شقيقه عامر. وتكرر اعتقاله والإفراج عنه وهو طالب فى الهندسة. وانجذب ذات يوم إلى شاذلى ابن عمته مطرية لجامع الثقافة بينهما ولكنه وجده بلا أدريته وصوفيته العقلية نقيضا له فضاق به وهجره. ولما تخرج مهندسا تجنب التوظف فى الحكومة، فاشتغل فى مكتب هندسى لأحد أساتذته المحالين على المعاش. وكان مهندسا كفئا ولكنه سيئ السمعة من الناحية السياسية. وأرادت أمه أن تزوجه ليستقيم أمره من ناحية وليعوضها عن خسارتها فى شاكر، ورحب من ناحيته بالفكرة. وأرادت أن تزوجه من إحدى بنات خاله لطفى باشا ولكنها لم تلق الحماس الذى حلمت به وحدست ما وراء ذلك من سمعته السياسية. وتضاعف همها عندما رفضه جيران لها لشكهم فى إسلامه وبالتالى فى بطلان الزواج! وغضب قدرى على فكرة الزواج كغضبه على البورجوازية بعامة، وآمن بحكمة خاليه غسان وحليم فى إضرابهما عن الزواج. ولما قامت ثورة يوليو كان قد كف عن نشاطه العملى فى السياسة ولكن ظل مبقيا على اعتقاده وأصدقائه فلم تتبدد من حوله عتمة السمعة. وتقدم فى عمله تقدما ملموسا ومبشرا بالمزيد، ولكنه اعتقل للمرة الثالثة، واستنجد أبوه ببعض كبار الضباط من تلاميذه السابقين فأكرموه بالإفراج عنه. ومنذ

ارتبطت الثورة بالكتلة الشرقية مال إليها ومضى يرى فى خطاها ما لم يكن يراه من قبل . ولعل ذلك مما هون عليه بعض الشىء مصاب الوطن فى ٥ يونيو باعتباره كان مدخلا حاسما لترسيخ النفوذ السوفييتى فى مصر ومقربا إلى الثورة الشاملة حين تنضج أسبابها . ولعل ذلك ما جعله يستقبل نصر ٦ أكتوبر بسخط لم يستطع أن يخفيه ، وبذله أقصى ما عنده ممن منطق ومعلومات ليفرغه من مضمونه أو تصويره فى صورة التمثيلية المفتعلة ، وقال لنفسه :

ـ انتصار البورجوازية يعنى انتصار الرجعية!

ومن أجل ذلك ناصب السادات العداء منذ تجلى للعين خطه السياسى وأضمر له الكره حيا وقتيلا ، رغم إقبال الثراء عليه بغير حساب فى عصر انفتاحه . وقد اعتقل فى طوفان سبتمبر ١٩٨١ ، وافرج عنه مع الجميع ليواصل عمله الناجح وآماله الحبيسة ، وكان ذلك قبل وفاة أبيه بأيام . .

حرف اللام

لبيب سرور عزيز

هو بكرى ذرية سرور وزينب ، طالع الدنيا بوجه مليح مشرق شبيه بوجه أمه وقامة دون المتوسط فى الطول رقيقة البنيان كأنما أعدت لتلقى أنوثة عذراء . ومن عجب أنه طبع منذ طفولته على الهدوء والرزانة وكأنما ولد بالغ الرشد . ولم يجاوز لعبه الوقوف أما باب البيت ليشاهد الأشياء أو يتابع تحركات ابن عمه قاسم ـ الذى يصغره بسنوات ـ وهو يتعفرت كأمثاله ، أو يتمشى فى الميدان وهو يقزقز اللب . وكانت راضية تناديه فتقول بمحبة :

ـ يا صاحب العقل الكامل .

وكانت تقول عنه أيضا :

ـ أبوه موفور الحظ من الحماقة وأمه عبيطة فمن أين له هذا العقل ! !

وفى الرابعة من عمره أرسله سرور أفندى إلى الكتاب متشجعا برزانته وإعراضه عن شقاوة الأطفال ، ورأى أنه لن يخسر زمنا إذا انقضى عام أو عامان قبل أن يستطيع الاستيعاب والإدراك ، ولكنه حصل فى العامين معرفة حازت رضى سيدنا الشيخ فقال لعمه عمرو أفندى :

ـ ابن أخيك لبيب ولد عجيب وعليكم أن تدخلوه المدرسة الابتدائية . .

لم يكن أحد يقترب من المدرسة الابتدائية فى ذلك الوقت دون الثامنة أو التاسعة فقدم له أبوه فى امتحان القبول بلا اكتراث جدى ، وجاء نجاحه مفاجأة ، وانتظم فى الدراسة وهو ابن ست سنوات . ومضى ينجح عاما بعد عام محدثا فى محيط الأسرة دهشة ، والأعجب من ذلك أنه واظب على المذاكرة بلا حض أو إغراء ، وبلا مساعدة من أحد ، حتى حصل على الابتدائية وهو ابن عشر . وأهّله سنه وتفوقه لدخول إحدى مدارس الخاصة الملكية بالمجان . وشق طريقه فى المدرسة الثانوية كالعهد به ، ولما ناهز الحلم صد عن أى إغراء جاءه من أركان الأسرة أو الطريق ، مطاوعا تحذيرات أمه ، منصرفا بإرادته عما يعيق اجتهاده واستقامته ، حتى حصل على البكالوريا وهو ابن ست عشرة . وكانت المعلمين العليا هى المدرسة المفضلة والمناسبة لظروف الأسرة ، ولكن الفتى الطموح أعلن عن رغبته فى الالتحاق بمدرسة الحقوق . وتمتم سرور وهو بين الخوف والرجاء :

ـ إنها مدرسة الحكام!

وقال عمرو :

ـ نشاور عبد العظيم . .

وكان الباشا معجبا بسيرة الفتى فسعى لإلحاقه بالمدرسة وبالمجان أيضا . وفصل له أبوه بدلة ذات بنطلون طويل لأول مرة ، وذهب إلى المدرسة لتحدق به الأعين بدهشة ، وتحوم من حوله التعليقات الساخرة عن «مدرسة الحقوق الأولية» و« روضة الأطفال الملكية» ولم تتغير النظرة نحوه حتى أثبت تفوقه وقدراته . بل لم يتأخر عن الاشتراك فى المظاهرات لما اندلعت ثورة ١٩١٩ وتوزيع المنشورات وإن جرى تحركه غالبا فى الظل والأمان . ولم يغب عنه شيء من الفوارق الطبقية بينه وبين أقرانه ، وخلفت رواسب فى النفس ولكنه تجاوزها بهدوء طبعه وحكمته الفطرية . لم يغتم لبدلته الوحيدة ، وعدم مشاركته فى أى حياة اجتماعية أو ترفيهية أو لركوبه الدرجة الثانية فى الترام ، وتجنب إزعاج أبيه بأى مطلب يتحدى قدراته ، كان دائما صاحب العقل الكامل كما قالت راضية . وجنى من صبره واجتهاده الثمرة فحصل على الليسانس وهو ابن ثمانى عشرة معدودا بين العشرة الأوائل . ولم تعترض النيابة على قبوله بسبب الأصل إكراما لعبد العظيم داود ، ولكنها أبت تعيين معاون نيابة قاصرا! فاتفق على إلحاقه بوظيفة كتابية فى محكمة حتى يبلغ سن الرشد . والتحق بعد ذلك بالنيابة رافعا رأس آل عزيز ، وظافرا لهم بمركز فى البيروقراطية العالية ، فى مواجهة آل داود وآل عطا ، ومحدثا فى الوقت نفسه انفعالات من الغيرة والحسد والإعجاب فى فروع الأسرة جميعا حتى أقرب الناس إليه وهم أبناء عمه . وشمخ سرور أفندى برأسه عاليا كأنما أصبح النائب العمومى ، فازداد لسانه حدة ، وأثره سوءا فى أنفس الآخرين ، وبات ثقيلا لا يطاق ، وبخلاف المظنون والمنطقى هبت على لبيب رياح الهموم . أجل أثبت دائما كفاءة ونزاهة كوكيل نيابة

وقاض فحاز الثقة والاحترام، ولكن ظروف أسرته حتمت عليه تأجيل الزواج حتى يعاون فى تربية إخوته وتزويج أخواته. من ناحية أخرى انطلقت غرائزه المكبوحة لتستعيض عما فاتها فى الطفولة والصبا والمراهقة، وإذا به يولع بالخمر والنساء، فيمارس العربدة والفسق مع المحافظة على تقاليد مهنته ما وسعه ذلك. وألف تلك الحياة حتى عشقها لذاتها، ولم يفكر فى تغييرها لما فرغ من واجباته العائلية، على تهديدها لسمعته وإنهاكها لصحته. ولما قامت ثورة يوليو، واهتز مركز القانون ورجاله، غزته الكآبة كوفدى قديم من ناحية وكرجل من رجال القانون من ناحية أخرى. ولم ينقطع أبدا عن زيارة أسرته فى جميع فروعها، وراح يتابع أثر الثورة فيها مع الحرص التام فى الإفصاح عن ذاته. وربما كان حامد ابن عمه أقربهم لنفسه فهمس له مرة:

ـ ما الحيلة؟.. أمامنا رجل يدعى الزعامة وبيده مسدس!

ولما رقى إلى رياسة محكمة استئناف الإسكندرية وقارب سنه المعاش تفجر تغيير فى داخله فى صورة طفرة عارمة فاندفع بكل قواه فى طريق العبادة والزواج. مارس العبادة لحد الدروشة، وفكر أول ما فكر فى الزواج من دنانير بنت عمته. لم ينس أنه حاول يوما فى غيه أن يرافقها لولا رفضها الحاسم له، ولكن منظرها الذى آلت إليه أثار نفوره. فاتجه نحو امرأة من بنات الهوى عرفها مطربة من الدرجة الرابعة بملهى ليلى على عهد الشباب. ولم يقطع صلته بها على كثرة من تقلب فى حبهن من النساء. وكانت فى ذلك الوقت قد كفت عن الحرفة لكبر سنها ولكنها لم تعطل تماما من الأنوثة. وسرعان ما تزوجا، وأقام بشقة أنيقة بمصر الجديدة. وأديا معا فريضة الحج، وعاشا مع فى سلام زهاء عام. وكانت الخمر قد استهلكت كبده فأصابه نزيف داخلى وهو يرأس المحكمة. وحمل من الإسكندرية إلى بيته فى القاهرة حيث أسلم الروح. وغادر الحياة ومصر فى عز مجدها الناصرى قبيل هزيمة يونيو بأشهر.

لطفى عبد العظيم داود

هو بكرى عبد العظيم داود وفريدة حسام. كان فى الجمال صورة من أمه وشقيقته فهيمة كما حظى بذكاء أبيه وجده داود. وفى صباه ومراهقته توثقت أسباب المودة بينه وبين آل عمرو وخاصة عامر، كما هام بالحى العتيق وأطوار راضية الغريبة الخارقة للمألوف. وفتنه جمال مطرية كما فتنها جماله، فنشأت قصة حب حييَّة فى تقاليد ذلك الزمان. وتفتحت القلوب وربت لاستقبال أمطار الأنباء السعيدة. ولكن ما كاد لطفى يشير من بعيد إلى رغائبه حتى كأنه فجر قنبلة فى فيللا آل داود بشارع السرايات. تناسوا

القربى، وحب عامر وعفت، وأخوة عمرو وعبد العظيم، واعتبروا الإشارة زلة ذوق ضل الهدى وتردى فى هاوية الانحطاط. وحوصر لطفى حتى خطبت مطرية وتلاشى الخطر. وغضبت راضية وصبت لعناتها على من لا أصل لهم، وتوجع قلب عمرو واحتقن وجهه بالدم. وحرض سرور أخاه قائلا:

ـ ما ينبغى لغضبك أن ينطفىء..

غير أن صداقة فريدة حسام تكفلت براضية، وأحسن عمرو ـ كالعادة ـ الحوار مع انفعالاته. وغلبت رابطة الأسرة طوارئ نزواتها. ما أكثر ما يقول بنات داود فى بنات عمرو وسرور وما أكثر ما يقول بنات عمرو وسرور فى بنات داود، وما أفظع ما يتهكم به آل داود على آل عطا وما أقسى ما يتندر به آل عطا على آل داود، ولكن متانة الأساس كانت تصمد للزوابع والأعاصير التى تهب على البيت الكبير. وفى تلك الأيام الغريبة كان الحب ينسى فى مواعيده المعقولة. وسرعان ما انشغل لطفى بدراسة الطب حتى حصل على إجازته. وسافر فى بعثة إلى ألمانيا ثم رجع ليستهل حياته العلمية الفريدة فى وزارة الصحة. وأثبت نبوغه فى الإدارة والعلم، وظفر بمكانة مرموقة بين الأحزاب المتخاصمة رغم انتماء أسرته المعروف، ولكنه كان أدنى إلى الاستقلال منه إلى الحزبية، ولم يتردد فى إعلان ولائه للعرش كموظف كبير أمين، وبذلك ظفر بالبكوية ثم الباشوية وهو ما بين الشباب والكهولة. وقد لعب عمرو دورا تاريخيا فى تزويج لطفى. ذلك أنه كان صديق صبا لرجل أصبح رئيسا للقومسيون الطبى هو بهجت بك عمر. ورأى كريمته آمال خريجة الميردى دييه وذات الجمال الفريد، فخطر له انسياقا مع طبيعته الدمثة حرصه على كسب القلوب أن يخطبها للطفى فسعى سعيه الجميل بين آل عبد العظيم وآل بهجت. وتمت على يديه زيجة من أسعد الزيجات، وأصبح بها صاحب الفضل المعترف به فى الأسرتين. ونشأت الأسرة الجديدة فى فيللا بالدقى، ولم تتردد تلك الأسرة المصرو ـ أوربية عند زيارة منشئها عمرو أفندى فى بيته العتيق بميدان بيت القاضى. وفتنت آمال بالحى العريق وبراضية، وأضافت إلى زوار البيت الكبراء أمثال آل عطا وداود وآل بليغ معاوية وردة جديدة فواحة بعبير إفرنجى وسحر من نوع جديد فتن الأهل والجيران بمثل الجذبة الصوفية، وقد أنجبت له فريدة وميرفت وداود، وعاشوا ـ عقب المراهقة ـ فى الخارج فريدة وميرفت زوجتين لرجلين فى السلك السياسى، وداود طبيبا فى سويسرا وتزوج من سويسرية. ولما قامت ثورة يوليو كان لطفى من القلة التى لم يمسها سوء من طبقته حتى أحيل إلى المعاش وهو وكيل وزارة. ولكنه خسر جُلَّ مدخراته الموظفة فى أسهم وسندات عند التأميم، وقد توفى عقب وفاة أبيه فى السبعين بسرطان المعدة، وهى سن تعتبر من الشباب فى أسرة عبد العظيم المعمرة..

حرف الميم

مازن أحمد عطا المراكيبى

أعذب من الورود التى تتلألأ فى الحديقة الكبيرة بسرى آل المراكيبى. ازدهرت فى شخصه دماثة أبيه أحمد بك وجمال أمه فوزية هانم. وكان من أحب الشخصيات إلى قلوب آل عمرو بل وسرور وداود. منذ صباه أحب ابنة عمه نادرة وأحبته. ولذلك كان أشقى الناس جميعا بالخلاف الذى مزق الأسرة، وتعرض لذلك إلى غضب شقيقه عدنان مفجر الثورة. وكان متعثر الخطوات فى دراسته، ولكنه اختار الزراعة ليستثمر دراسته فى حياته العملية كى لا تتكرر المأساة مرة أخرى فى المستقبل. ورغم حداثة سنه النسبية سعى سرا لدى قريبه عمرو أفندى ليبارك محاولاته للتوفيق بين الشقيقين الغاضبين، وحث خفية حبيبته وابنة عمه على حفظ حبهما بمنجاة من العاصفة حتى تهدأ. ولما مرض أبوه الطيب مرض الوفاة وانقشعت غيوم الأحزان لم يمنعه الحزن على أبيه من الترحيب القلبى بعودة السلام إلى أركان الأسرة. وقرر أن يعلن خطبته عقب انقضاء عام الحداد، وكان يطوى العام الأخير من دراسته. وفى مطلع الربيع سافر مع بعثة من الطلبة إلى الإسكندرية فى رحلة دراسية، وخطر له أن يستحم فى الشاطبى مع بعض الصحاب، فخانه الموج فغرق. حقا لقد أحدث موته هزة عنيفة فى الأسرة ولكنه ترك فى أعماق نادرة جرحا لم يقدر له أن يندمل أبدا. وورثه عدنان، وصار بذلك أثرى آل عطا، ولكنه كان أيضا الوحيد الذى طبق عليه قانون الإصلاح الزراعى بعد قيام ثورة يوليو. .

ماهر محمود عطا المراكيبى

ولد ونشأ فى سراى ميدان خيرت، وكإخوته تلقى التربية الجادة والرفيعة معا. وكان طويلا رشيقا وسيما وذا كبرياء طبقى ملموس. ولم يكن يزور أهله إلا فى المناسبات، وتجنب آل داود بصفة خاصة. ولم تكن حياته الدراسية تبشر بخير فاختار الكلية الحربية هدفا لحياته التعليمية. وشغف بالحياة الأرستقراطية فى جميع مظاهرها من إيثار العرش على الأحزاب، ومصادقة ابناء طبقته، واستثمار جماله فى عشق الغوانى. وأزعج أباه بمطالبه المالية، وكان محمود بك يحب أن ينشئ أبناءه على الانضباط من غير حرمان،

فأزعجه ذلك الابن الخارج عن الخط المرسوم . وفى الوقت نفسه كان يحبه ويعجب به فتغافل عن تحيز زوجته له وإسعافه بما يحتاج إليه ، وكان الكبر قد ألان عريكته ، وكذلك المرض . والتحق ماهر بالكلية الحربية وتخرج فى مطلع الحرب العالمية الثانية ، وبحكم الصلات الشخصية وبتأثير شقيقه عبده انتظم فى سلك الضباط الأحرار مرتكزا إلى عواطف سطحية وغير مؤمن إيمانا جديا بما يقال عن آلام الشعب وصراع الطبقات . ولما قامت الثورة وجد نفسه من المقربين ، ووثب دون عناء إلى منزلة لم يستطع أن يبلغها بخطواته الدراسية المتعثرة . ولم يكن مقتنعا بقانون الإصلاح الزراعى رغم أنه لم يطبق فى أسرته إلا على ابن عمه عدنان ولكن مجال الطموح انفسح أمامه إلى آفاق غير محدودة . واستأجر شقة فى الزمالك لغرامياته ، وعلا نجمه فعين فى الحرس الخاص للزعيم . وظل فى مكانه بعد النكسة وحتى وفاة عبد الناصر . وأحيل إلى المعاش بعد ذلك بقليل فتفرغ لشقة الزمالك ، وطيلة ذلك العمر لم يكن الزواج يخطر على باله قط . ولما هلت طلائع الانفتاح أقنعه بعض الأصحاب بالعمل فى الاستيراد فباع أرضه وانهمك فى عمله الجديد وأثرى من ورائه إثراء عظيما . وجمعت السراى عبده وماهر ونادرة على عقم من ناحية الذرية ، ومال يتدفق وكأنما يعدونه للآخرين . .

محمود عطا المراكيبى

أول ثمرة لزواج عطا المراكيبى من الأرملة الثرية هدى الألوزى . ولد ونشأ وترعرع فى أحضان العز والفخامة ما بين سراى ميدان خيرت وسراى العزبة فى بنى سويف ، ودون أن يعلم شيئا عن حياة أبيه الأولى . ولكنه خالط أقاربه ـ أخته نعمة وذريتها رشوانة وعمرو وسرور ـ منذ سنيه الأولى وتشرب قلبه بحب الحى العتيق . ومنذ نشأته وضحت معالم شخصيته الإيجابية القوية وزادت معالمها بروزا بالمقارنة بشخصية أخيه الأصغر أحمد الوديعة الدمثة . غير أنهما فى التعليم كانا على مستوى واحد لا يبشر بالاستمرار ، فاكتفيا كابنى أختهما عمرو وسرور بالابتدائية ، ثم ركن أحمد إلى حياة أبناء الذوات على حين لازم محمود أباه ، تلميذا فطنا ومريدا صادقا ومساعدا قويا . وتجلى بنيانه مثالا للقوة والفظاظة بقوامه الربعة ووجهه الغليظ حسن القسمات ورأسه الكبير القائم على عنق قصير مليء ، وشفت هيئته ونظراته المقتحمة ومتانة هيكله عن التحدى والصراع والبطش . ولم يجد أبوه ما يؤاخذه عليه فى شبابه الأول سوى نزوات مما يجرى فى الحقول ، فخطب له ولأخيه شقيقتين مهذبتين من آل بكرى جيرانه ، فبدأ محمود حياته

الزوجية الموفقة مع نازلى هانم، ولم تنحرف عينه إلى امرأة أخرى طوال حياته، نجحت الحياة الزوجية بفضل تعلقه بالهانم، وبفضل تربية المرأة الرفيعة وتقديسها التقليدى للزوج والحياة الزوجية، وأنجبت له مع الزمن حسن وشكيرة وعبده ونادرة وماهر. ومن بادئ الأمر وبدهاء فريد قرر محمود الاستحواذ على قلب أبيه. عرف فيه البخل فمثل بين يديه دور البخيل وإن كان فى ذلك معتدلا لا هو بالبخيل ولا بالكريم. أما فى العمل فقد حاز إعجابه بمثابرته ودقته وحسن تقديره مع مغالاة فى العنف فى معاملة الآخرين ورفض التساهل كأنما هو جريمة أو خيانة. وأبوه نفسه كان يساوره الجبن أحيانا فيقول له:

ـ من الحكمة أيضا ألا نخلق لنا عدوا كل يوم..

فيقول الابن:

ـ الجميع يحبون أخى أحمد، لا أهمية للحب، وبالقوة وحدها تصان الحقوق.

حتى قال عطا مرة:

ـ لقد أنجبت رجلا واحدا وامرأتين!

لم يبال محمود بكثرة الأعداء وتصاعد أعدادهم، وآثر دائما أن يكون موهوبا على أن يكون محبوبا سواء لدى الموظفين أم المتعاملين، ولا ضجر يوما من رفع القضايا والتردد على المحاكم بصحبة المحامين. ولما مات الأب عطا خلا محمود إلى أخيه أحمد بحضور أمهما وقال له:

ـ أصبح من حقك أن تدير نصف الأملاك.

فارتبك أحمد وبانت الحيرة فى عينيه فقال محمود:

ـ إنه صراع فى غابة الوحوش، وحظ الطيب فيها الضياع..

فازداد أحمد حيرة وارتباكا فقال الآخر:

ـ أتوافق على أن أقوم بالعمل وحدى؟

ـ بكل ارتياح، أنت أخى الأكبر وحبيبى وما عرفنا فى حياتنا إلا الحب..

ـ وأيضا فإنى لم أهمل فريضة فى حياتى، وأعمل وكأن الله يرانى..

فقال أحمد وهو يتنهد فى ارتياح:

ـ ما فى ذلك شك عندى..

هكذا حل محمود محل عطا، وكان يوما أسود فى حياة الموظفين والخفراء والمتعاملين. كان يمضى فى الحقل أو الدائرة أو السوق مثل وابور الزلط، والأعين ترمقه بالحقد والدعوات تنهال عليه من الرجال والنساء. وذات ليلة وهو راجع إلى السراى انقض عليه مجهولان بهراواتهم حتى تهاوى فاقد الوعى ثم قذفوه فى مصرف وتلاشوا

فى الظلام . ومرت دورية على أثر ذلك فتهادى إلى مسامعها أنين من المصرف فهرعت إليه وأنقذته وهو على شفا الموت . ونقل إلى المستشفى ، وكلما سمع سامع بالخبر ضرب جبينه غيظا ولعن سوء الحظ الذى بادر إلى إنقاذه فى اللحظة الحرجة . وغادر المستشفى صحيحا معافَى ، بإضافات جديدة من الكدمات وآثار الجراحة فى الجبين والخد والعنق ضاعفت من جهامة منظره ووحشية طلعته ، ولكنها لم تغير من طبعه شيئا وإن زادته تسلحا وحذرا . وقال له ابن أخته عمرو أفندى وكان أحب الناس إلى قلبه :

ـ لابد من سياسة جديدة يا حبيبى . .

فقال محمود :

ـ الناس لم يخلقوا إلا لسياسة واحدة والويل للمتراجع !

وكان يزور بيت القاضى فى حنطوره الفخيم محملا بالهدايا ، ويطيب له الحديث مع عمرو وراضية ، ثم يستغرقه الحديث عن قضاياه التى لا حصر لها . ومرة قال له عمرو ضاحكا :

ـ ستصبح من فقهاء القانون مثل عبد العظيم !

فيضحك ـ وكان يكثر من الضحك فى بيت القاضى ـ ويقول :

ـ الموت أهون من التفريط فى الحقوق . .

فتقول راضية بحماسها المندفع :

ـ ولكن الدنيا لا تساوى هذا التعب . .

فيقول مقهقها :

ـ ما خلقنا إلا للتعب يا درويشة !

وكان يزور عبد العظيم داود فى العباسية الشرقية ، ويسعد بأخباره عن نجاحه وأمواله ، ويناقشه فى القضايا ، وكان عبد العظيم يقول لفريدة عقب انصرافه :

ـ المرض أحب إلىّ من لقاء هذا الجلف . .

فتقول فريدة هانم :

ـ امرأته جوهرة ثمينة . .

فيقول ساخرا :

ـ ربنا يصبرها على ما بلاها !

ولم تقصر نازلى التى تحبه أكثر من أى شىء فى دنياها فى نصحه بالاعتدال ولكن شيئا لم يكن يثنيه عن خطه أبدا . وسألته أيضا :

ـ ألا يمكن أن ينفعك عبد العظيم داود فى قضاياك ؟

فقال ممتعضا :

ـ إنه يتظاهر بالنزاهة ليدارى نذالته وانعدام مروءته، وماهو إلا كافر ومقلد للإنجليز فيشرب الويسكى مع الغداء والعشاء!

ولما قامت ثورة ١٩١٩ تحرك قلبه بعاطفة جديدة لأول مرة، ومسه سحر الزعيم، وتبرع ببضعة آلاف من الجنيهات، ولأول مرة أيضا يلمس فى الفلاحين البسطاء قوة مخيفة لم يعهدها من قبل. ولما حصل الخلاف، وتبين أن للعرش موقفه، وللعدليين موقفهم، وللزعيم موقفه، أخذ يعيد حساباته. واجتمع بأخيه فى سراى ميدان خيرت، وسأله :

ـ ما رأيك فيما يجرى اليوم؟

فقال أحمد ببراءة :

ـ لا شك أن سعد على حق. .

فقال ببرود :

ـ إنى أسأل عن مصلحتنا. .

فقال أحمد بحيرة :

ـ لم أفكر فى ذلك، هل تفكر فى تأييد عدلى باشا؟

ـ المركز الثابت هو العرش. .

فقال أحمد ببساطة :

ـ دائما الحق معك يا أخى. .

ـ ماذا يقول أصحابك من السمَّار؟

ـ كلهم سعديون.

ـ أعلن انتماءك كى يعرف على أوسع نطاق. .

ـ وأولاد أختنا عمرو وسرور مع سعد أيضا. .

ـ هؤلاء لا مصالح لهم، لقد انتهت اللعبة، فلا تتصور أن الإنجليز سيغادرون مصر ولا تتصور أن مصر تستطيع أن تعيش بغير الإنجليز. .

وجزاء ولائه للعرش فاز هو وأخوه برتبة البيكوية، وقال لأخيه :

ـ كى يسلم آل داود أن الرتب ليست قاصرة عليهم. .

غير أن ثورة من نوع آخر اندلعت فى الأسرة وكان قائدها عدنان ابن أخيه. وانشقت الأسرة نصفين متخاصمين، رجالا ونساء، وشمت بها المتنافسون، كما حزن لها المحبون مثل عمرو ورشوانة. حتى سرور قال :

ـ حلت اللعنة بالأسرة الملعونة . .

ولم يجتمع لها شمل إلا عند وفاة أحمد. وعقب وفاته بأشهر استفحل مرض السكر بمحمود، وكان عمرو وسرور قد رحلا عن الدنيا، فحلت بقلبه كآبة ضاعفت من تأثير المرض، ووهنت عزيمته، وزهد فى العمل، وأقام أكثر وقته فى سراى ميدان خيرت حتى وافته أزمة قلبية ذات صباح فأسلم الروح. ولحقت به نازلى هانم بعد عامين، وفى نفس عام وفاتها توفيت فوزية هانم. ولم يبق من ذلك الجيل إلا المعمرون مثل راضية وعبد العظيم باشا وبليغ معاوية وهم الذين امتد بهم العمر حتى قيام ثورة يوليو. .

مطرية عمرو عزيز

ولدت ونشأت فى بيت القاضى وهى الثالثة فى ذرية عمرو وراضية. وكانت أشبه الجميع بخالتها المنتحرة صديقة فى جمال وجهها ورشاقة قدها وعذوبتها. وكانت أجمل الأخوات بل لعلها كانت أجمل بنات الأسرة جميعا، ومع أنها ترعرعت فى عبير الدين والدروشة إلا أن السر لم ينفذ إلى أعماقها واعتقدت أن حب الله ورسوله يعفيها من أداء الفرائض. وكان تفوّقها فى الجمال يحرك الغيرة فى قلوب أخواتها ثم حل الرثاء محل الغيرة مع تقلبات الزمن. وعرفت فى صباها ومطلع شبابها بالظرف والمرح وحب الناس والقدرة على كسب محبتهم فلم ينج من سحرها امرأة أو فتاة من آل سرور وعطا عبد العظيم. أجل لم يشفع لها ذلك كله عندما أغرى سحرها شابا مثل لطفى عبد العظيم بالتفكير فى الزواج منها، ذلك أن السحر نفسه له حدود فى الوجدان الطبقى. بذلك تحولت أول تجربة سعيدة فى حياتها إلى محنة عاطفية ذبحت قلبها الطرى وأدمت كبرياءها. وهون من آلامها وقدة الغضب التى اندلعت من حولها دفاعا عنها وعن الأسرة. وهوّن منه أيضا أن الحب لم يكن حظى بالاعتراف بعد، فدارت المعركة حول الكبرياء وحدها، وهمدت فى هاوية التقاليد العريقة. وما لبثت أن خطبتها صديقة لأمها، تم تعارفهما فى ضريح سيدى يحيى بن عقب، وتفاءلت بالتعارف ومكانه، وحكمت بالطيبة على المرأة التى كانت تقيم غير بعيد فى حارة الوطاويط. وكان العريس ـ محمد إبراهيم ـ مدرسا بمدرسة أم الغلام، فهو من ناحيتى الشهادة والمهنة مثل عامر، ورأته مطرية من وراء خصاص المشربية فأعجبها وجهه القمحى وجسمه المليء والغليون الذى يدخنه كالإنجليز! . وزفت إليه فى البيت الذى تملكه أمه بحارة الوطاويط، وكان من حسن الطالع أن كسبت مطرية قلب حماتها، ونعمت بحب صادق جمع بينها وبين

زوجها حتى آخر يوم من حياته. وأشرقت أعوام متلاحقة بالهناء والوفاق، وأنجبت فيها مطرية أحمد وشاذلى وأمانة، وكان ثلاثتهم كالأقمار فى الوضاءة والوسامة، وحق لكل إنسان أن يعد بيت حارة الوطاويط من البيوت السعيدة بكل معنى الكلمة. وكان محمد إبراهيم ثانى رجل ينضم إلى آل عمرو بعد حمادة القناوى، ولكنه كان مهذبا دمث الأخلاق ومربيا مثقفا ذا مكتبة متنوعة المصادر، وشتان بين حديثه المنضبط وثرثرة حمادة وخيلائه القائمة على غير أساس. ولم يستطع محمد إبراهيم أن يتخذ من حمادة صديقا حقيقيا، وجامله كثيرا إكراما لصدرية التى حظيت بإعجابه ولم تخف عن فطنته مزاياها كست بيت. تلك الأعوام السعيدة خلدت فى وجدان مطرية بتفاصيل حياتها اليومية، بدفء عواطف الزوج وحنان أمه وتسامحها وبريق الأبناء المبشر بالنور والانبهار. وتلقت بعد ذلك أول ضربة من ضربات القدر بوفاة أحمد وهو فى الخامسة، جربت عذاب الأم الثكلى وحزنها العميق، وانبسط القبر أمام عينيها الدامعتين فى هالة من العواطف الجديدة بعد أن سكنه جزء من قلبها النابض ونفحة من خيالها المحروم. وتضاعف حبها لقاسم بعد أن تجلى حزينا لا يتعزى عن فقد الراحل الصغير. وتحولت أمومتها الجريحة إلى شاذلى وأمانة. ولكن قلبها لم يسعد السعادة المأمولة بزواجهما. ورحلت حماتها فى الثلاثينات فورثت أعباء لم تعتد حملها، ثم نكبت بوفاة أبيها قبيل الحرب العالمية، ووفاة عمها سرور بعده بأعوام، فكابد قلبها آلاما حقيقية لشدة وفائه للعواطف الأسرية. واعتبرت زواج شاذلى خيبة ظالمة وضعتها فى كفة حظها العاثر حتى قال لها محمد إبراهيم.

ـ ليس الأمر بالسوء الذى ترين..

فقالت متشكية:

ـ كان يستحق عروسا أفضل..

فقال الرجل:

ـ إنه أدرى بما يسعده..

وتابعت نجاح أمانة فى دراستها بارتياح وأمل وإذا بزوجها المحبوب يصاب بتليف فى الكبد، فيلزم الفراش وتتدهور حاله، ثم يسلم الروح فى العطلة الصيفية بعد نجاح أمانة فى البكالوريا. تلقت مطرية أقسى ضربات حظها، ووجدت نفسها أرملة دون الخمسين. واضطرت إلى تزويج أمانة من عبد الرحمن أمين، ومكثت فى بيت حارة الوطاويط مع خادمتها، وحيدة حزينة، وضاعف من همومها ما صادفته أمانة فى حياتها الزوجية من متاعب. وكانت تتسلى بزيارة الأهل، أمها وأخواتها وإخوتها وبنات عمها وآل عطا وآل عبد العظيم داود، وفى مقدمة الجميع شاذلى وأمانة. مضت تذبل وتجف، وتتغير

معالمها، ولكنها أبقت على ميزتها الفريدة وهى تبادل الحب مع الأهل والناس. ولعلها الوحيدة من أسرتها التى لم تنقطع صلتها بشكيرة زوجة أخيها حامد بعد أن فصل الطلاق بين الزوجين. وشد ما أحزنها الموت المبكر لأبناء شاذلى، ولما نجا ابنه محمد من قدرهم دعت الله أن يبقيه لأبيه ولها، وتوسلت إلى أمها راضية أن تحميه بكل ما لديها من وسائل. وكانت ضربة قاضية لها عندما وافتها أنباء استشهاده فى الاعتداء الثلاثى. واشتد بها الذبول والجفاف. وتبين أنها مصابة بسرطان. وما زالت تتدهور وتسير من سيئ إلى أسوأ حتى أسلمت الروح وهى فى الستين. كانت أول من يموت من الجيل الثانى فى آل عمرو بل فى الأسرة كلها. واقتضت الظروف ألا يحزن عليها كما ينبغى أحب الناس لها. شاذلى لم يترك له حزنه على ذريته فائضا. وراضية كانت فى الثمانين وحزن الثمانين سريع الزوال. وقاسم كان قد استوى لديه الحزن والسرور.. فلم تجد أمانة من يشاركها البكاء واللطم.

معاوية القليوبى

ولد ونشأ فى بيت سوق الزلط. وتربى تربية دينية خالصة واقتبس من أبيه معلومات وسلوكا حتى قبل أن يجاور فى الأزهر وأبدى نجابة وتفوقا، وغراما خاصا بالنحو الذى راح يدرسه فى الأزهر بعد حصوله على العالمية. وقبيل وفاة والده بأشهر زوَّجه الرجل من جليلة الطرابيشية، وهى كريمة سلمان الطرابيشى الذى كان يعمل فى مصنع طرابيشى الباشا. وكان معاوية يزاول نشاط إضافيا فى جوامع حيه، مما أضفى على شخصه مهابة ومحبة. وكانت جليلة تفوقه طولا، وكانت ذات أطوار غريبة، وعصبية حادة، وتراث حافل بالغرائب، فصمم الرجل على أن يلقنها مبادئ دينها الصحيح، ونشب بينهما صراع ودى طويل، فأعطاها وأخذ منها، وكلما أصابته وعكة سلم نفسه إلى طبها الشعبى دون منازع، وذاعت شهرتها فى الحى حتى كادت تغطى على شهرته. وقد ربط الحب بينهما، وبفضله استمرت الحياة الزوجية، رغم حدة طبعها وتعصبها لأفكارها، وأنجبت له مع الأيام راضية وشهيرة وصديقة وبليغ. ولما قامت الثورة العرابية تحمس لها الشيخ، ومال إلى تيارها، وأيدها بالقلب واللسان. ولما فشلت الثورة واحتل الإنجليز مصر قبض عليه فيمن قبض عليهم، وقدم للمحاكمة فقضت عليه بالسجن خمسة أعوام. وراحت جليلة تطوف بأضرحة الأولياء داعية على الخديو والإنجليز، ودبرت شئون أسرتها بشىء من المال ورثته عن أبيها. وغادر الشيخ معاوية السجن ليجد نفسه فى دنيا غريبة، فلا احد يذكر الثورة أو أحدا من رجالها، أو تذكر بعض الأسماء مسحوبة

باللعنات، ولم يجد عينا تنظر إليه بعطف سوى عين يزيد المصرى صديقه القديم وناظر سبيل بين القصرين. شعر الرجل بغربة وأسى وانطوى على نفسه حتى وجد وظيفة معلم بمدرسة أهلية. وقال له صديقه عزيز ذات يوم:

ـ ابنى عمرو موظف فى نظارة المعارف فى العشرين من عمره وأود له أن يكمل نصف دينه. فأدرك الشيخ ما يرمى إليه وقال:

ـ على بركة الله..

فقال عزيز..

ـ ستتم على يديك بإذن الله ومن بيتك..

فقال الشيخ:

ـ راضية بنتى وعمرو ابنى!

وذهبت نعمة عطا وابنتها لخطبة راضية. ورجعتا مبهورتين بجمال صديقة وراضيتين عن جمال راضية ووجهها الشامخ، غير أن نعمة تساءلت:

ـ أهى أطول من عمرو؟

فقالت رشوانة باطمئنان:

ـ كلا يا أمى، هو الأطول..

ولكن الأجل عاجل الشيخ قبل أن يشهد زفاف كريمته، وصادف وصول نيشان العروس يوم الوفاة، الأمر الذى أدى بجليلة من خلال اجتهادها الشخصى مع تراثها إلى أن تطلق زغرودة من نافذة ثم تواصل صواتها على الراحل العزيز، وتصير بذلك نادرة الحى على مجرى العمر. ودفن الشيخ فى حوشه القريب من حوش عزيز فى رحاب سيدى نجم الدين..

حرف النون

نادر عارف المنياوى

ولد ونشأ فى الدرب الأحمر، الابن الوحيد لحبيبة عمرو والشيخ عارف المنياوى: لم يترك أبوه فى وعيه أية ذكرى فترعرع فى بحيرة ثرية بحنان أمه وجدته لأبيه، ورحلت الجدة وهو ابن ستة فوجد فى قلوب عمرو وراضية وبقية الأسرة ما أنساه يتمه ووحدته. وربما كان من حسن حظه أن يعشق التفوق ويهيم فى الطموح من صغره ولكنه لم يقدر

التضحية الجنونية التى ضحتها أمه من أجله برفضها فرصة حسنة للزواج، وبقائها أرملة طيلة العمر عقب حياة زوجية لم تستمر سوى عامين. وشب نادر ذا رونق وفحولة، ولم تخل فترة من حياته من مغامرة عاطفية فى نطاق ميزانيته المحدودة. وحصل على بكالوريوس التجارة فى أثناء الحرب العظمى وألحق بوظيفة فى وزارة المالية. ودأب على كره فقره والتطلع الدائم إلى أفق سامق، ومن أجل ذلك التحق بمعهد لتعليم اللغة الإنجليزية، وأتقن الكتابة على الآلة الكاتبة، ثم قدم لامتحان أعلنت عنه شركة إنجليزية للمعادن فنجح، واستقال من الحكومة ليشغل وظيفة فى قسم الحاسبات بالشركة. وأرعبت مغامرته أخواله وأقاربه وأمه ولكنه قال بثقة لا عهد للأسرة بها:

ـ لا مستقبل للحكومة..

وتحسنت أحواله ولكن طموحه لم يشبع. ولما قامت ثورة يوليو لم يأنس إلى أسلوبها كشاب طموح يحلم بالثراء. وتحققت مخاوفه عقب الاعتداء الثلاثى ومصادرة الشركات البريطانية، عندما وجد نفسه مرة أخرى موظفا فى الحكومة على غير إرادته. وعند ذاك درس حال أسرته وفروعها على ضوء الوضع الثورى الجديد، فرأى فى آل عطا المراكيبى وآل سميرة خالته بعض الممثلين للثورة مثل عبده عطا وماهر عطا وابن خالته حكيم. وقرر فيما بينه وبين نفسه أن يتزوج من نادرة شقيقة عبده وماهر أو من هنومة شقيقة حكيم. وشاور أمه فى الأمر فقالت:

ـ هنومة أقرب لنا وهى الأجمل..

وبإيعاز منه خطبتها له. وهى مذيعة فى الراديو وذات مبادئ وخلق كأخيها سليم، وكانت قد رفضت يد ابن خالتها عقل ولكنها وافقت على الزواج من نادر، وتم الزفاف فى شقة بشارع حسن صبرى بالزمالك، وألح نادر على أمه أن تعيش معه ولكنها أبت أن تغادر الدرب الأحمر أو تبتعد عن بركات الحى العتيق حيث تقيم أيضا أمها المحبوبة وكثرة من أخواتها وبنات عمها. ونعمت الأسرة الجديدة بالسعادة وأنجبت له هنومة ثلاث بنات، سميرة وراضية وصفاء. وتوثقت العلاقة بين نادر وحكيم، وبفضل حكيم رقى نادر رئيسا لمجلس إدارة الشركة دون شبع من ناحيته حتى سألته هنومة:

ـ ماذا تريد؟

فقال بغموض:

ـ إنى أحتقر المرتبات الثابتة..

فقالت هنومة بوضوح:

ـ وأنا لا أكره الثراء شريطة أن يقترن بالنقاء!

فتوجس خيفة من نظرة عينيها وقال بعجلة:

ـ طبعا . .

وشعر بأن شريكة حياته ليست شريكة فى طموحه . وكان يؤمن فى أعماقه بأن الفارق الوحيد بين أهل السجون وأهل الخارج هو الحظ لا الخلق أو المبادئ، وأن العالم مجموعة من الأوغاد لا ينجو منها إلا القوى الشاطر . واعتبر زوجته امتدادًا للرأى العام الأحمق الذى عليه أن يداريه طالما أصر على تحقيق طموحه . مضى يوثق علاقاته ببعض الضباط وآخرين من رجال القطاع الخاص . حتى كانت هزيمة ٥ يونيو ، وانكشف أمره فيما انكشف المستور من أمورهم . واكتفى بإحالته إلى المعاش بفضل حكيم أيضا ولكن هنومة ثارت عليه ثورة لم يفلح فى مهادنتها إلا بالطلاق . وقالت سميرة لهنومة بهدوئها المعهود :

ـ أنت مسئولة عن نفسك فقط . .

فقالت الفتاة بشدة :

ـ لا أستطيع أن أغمض عينى وأهدم بنيان حياتى كله . .

واحتفظت هنومة بالشقة والبنات وراح يتنقل بين الفنادق والدرب الأحمر ، وفسر لأمه الساذجة الطلاق على أنه خلاف مما يفسد الحياة الزوجية . ولما تغير الحال وهلت طلائع الانفتاح تنفس من جديد ، واستمد من الجو الطارئ حياة لم يحلم بها من قبل . واشتغل بكل همة فى الاستيراد ، وحقق لنفسه أخيرا الحلم الذى راوده من الصغر . وانفسح المجال أمامه ما بين الخارج والداخل . وفى إحدى رحلاته تعرف بأرملة أسترالية فتزوج منها ، وأقام معها فى فيللا فى المعادى . وكثيرا ما يقول ضاحكا :

ـ إنها قسمة عادلة ، فالثراء للأقوياء والأخلاق للضعفاء . .

نادرة محمود عطا المراكيبى

هى الرابعة فى ذرية محمود بك عطا ، ولدت ونشأت فى سراى ميدان خيرت ، فى الجو المعبق بالعز والرفاهية . وكانت على قدر من الوسامة وإن تكن دون إخوتها الذكور ، وعلى مثال أختها الكبرى شكيرة فى الخلق والمبادئ والتدين مع شىء كثير من المرونة والدماثة . وكانت حادة الذكاء محبة للتعليم فلم يعارض أبوها فى استمرارها فيه بعد أن غزاه الزمن بمفاهيمه الجديدة . وقد توجت سعادة صباها بالحب الذى ربط بينها وبين مازن ابن عمها . استوى فارسا لأحلامها منذ مراهقتها وحتى آخر يوم فى حياته بل لعله ظل كذلك طيلة عمرها . أحبته كما لم تحب شيئا فى الوجود ، وناطت به أحلامها وسعادتها

وأمانيها. وشد ما جزعت للخصام الذى مزق أسرتها، وشد ما خافته على سعادتها وآمالها، وقالت لأمها:

ـ بابا جاوز غضبه الحد. .

ولم تنقطع الصلة بينها وبينه طوال أعوام الخصومة. . وفى أثناء ذلك حصلت على البكالوريا والتحقت بكلية الطب. ثم كانت الكارثة التى هلك فيها مازن وتلاشى من وجودها. كادت تجن من الحزن بل والغضب، وقضت عاما فى السراى أسيرة للكآبة، ثم واصلت دراستها وقد تحجر قلبها وصمم على الزهد فى الدنيا. خرجت من حياتها فى تلك الأيام بتجربتين مرتين، وفاة حبيبها، وخيبة أمل شقيقتها فى حياتها الزوجية. ونزعت بكل قواها لتكريس حياتها للعمل والوحدة والقراءة الدينية. وعرضت لها فرص زواج طيبة ولكنها كانت قد تطبعت بسوء الظن بالنوايا، وكرهت فكرة الحياة الزوجية. وتخصصت فى طب الولادة، وحصلت على الدكتوراه، وأحرزت نجاحا مرموقا تزايد يوما بعد يوم. ولم تحفل بنصائح إخوتها لها بإعادة النظر فى الزواج وثابرت على عملها ووحدتها وتدينها حتى فاتها القطار دون أسف مسجلة فى عالم الأحزان ظاهرة فريدة لا تتكرر. وجمعت السراى بين شكيرة وعبده ونادرة وماهر فى الكبر كما جمعت بينهم فى مطلع الحياة، أمثلة حية للنجاح والفشل معا. .

نعمة عطا المراكيبى

ابنة عطا المراكيبى وسكينة جلعاد المغاورى. ولدت ونشأت ببيت الغورية، وورثت عن أمها عينيها النجلاوين وشعرها الأسود الغزير بالإضافة إلى صحة جيدة لم تحظ بها الأم. ولما عزم يزيد المصرى على تزويج ابنه عزيز وجد فيها الشروط المزكية، فهى ابنة جاره وصديقه عطا المراكيبى، وهى مصونة وجميلة، وزفت نعمة إلى عزيز منتقلة من دور إلى دور فى نفس البيت بالغورية. وكانت مثالا طيبا للزوجة العاقلة المدبرة المطيعة، وأنجبت لعزيز رشوانة وعمرو وسرور. وتلقت من زواج أبيها بالأرملة الغنية صدمة، ثم تابعت ارتفاع أبيها إلى طبقة جديدة بذهول، وزارت السراى الجديدة بميدان خيرت، وسراى العزبة ببنى سويف فانبهرت بما رأت أى انبهار ولم تصدق عينيها. وتوقعت أن تنهال عليها دفقات من الخير ولكن خاب رجاؤها، وفيما عدا هدايا المناسبات فقد قبض الرجل يده عنها كأنها ليست بكريته، وليست الأخت الكبرى لمحمود وأحمد. وقال لها عزيز:

ـ إنه شحيح وممن يحبسون النعمة . .

ولكنها رغم حنقها دافعت عن أبيها قائلة :

ـ بل يخاف أن تتهمه المرأة بتبديد ثروتها !

ورغم تقواها حلمت بأن تسبق الأرملة أباها إلى الآخرة فيرثها وبالتالى ترث هى حظا من الثروة يدعم رشوانة وعمرو وسرور فى حياتهم ، ولكن الرجل رحل قبل زوجته بقليل ، مخيبا رجاءها بموته كما خيبه بحياته . والحق أن مخالطة أخويها ـ محمود وأحمد ـ لها ولأولادها وبرهما بهم أنساها أحزانها فبادلتهما حبا بحب حتى آخر عهدها بالحياة . وامتد بها العمر حتى قرت عينا بأحفادها ، ورحلت عن الدنيا بعد عزيز بعامين . .

نهاد حمادة القناوى

بكرية صدرية وحمادة القناوى . ولدت ونشأت فى خان جعفر ، ومرحت فى طفولتها فى بيت القاضى ، وحظيت بمنزلة طيبة لدى عمرو وراضية بوصفها طليعة الأحفاد . وكانت على جمال مقبول ، وتعليم قليل سرعان ما تلاشى . ولما قاربت الخامسة عشرة خطبها عمدة متوسط العمر من أقارب أبيها فرحب به حمادة أيما ترحيب ، وأدركت صدرية بأسى عميق أن ابنتها تنفصل عنها إلى الأبد وأنها لن تراها إلا فى المناسبات ، وأنها ستنتمى من الآن فصاعدا إلى الصعيد . وتأقلمت نهاد مع البيئة الجديدة فتطبعت بسجايا جديدة واكتسبت لهجة جديدة ، وأنجبت للعمدة عشرا ، نصفهم ذكور ونصفهم إناث ، وكلما زارت القاهرة كوافدة غريبة تطلعت إليها الأبصار بغرابة ، وهى تشهد حرم العمدة بجسمها المترامى ، وحليها الذهبية التى تغطى الساعدين والعنق ، ولكنها الغريبة المثيرة للضحك . .

حرف الهاء

هنومة حسين قابيل

صغرى بنات سميرة وحسين قابيل ، ولدت ونشأت فى بيت ابن خلدون ، على طراز أمها فى الجمال ، طويلة القامة ، رشيقة القد ، حادة الذكاء ، شديدة فى التمسك بالأخلاق والمبادئ ، وشديدة الشبه فى ذلك بأخيها الأصغر سليم ، وتفوقت فى الدراسة والتحقت

بالآداب قسم اللغة الفرنسية. وقد تحمست لثورة يوليو باعتبارها ثورة إصلاح وأخلاق، ولكنها انقلبت عليها مذ حكم على سليم بالسجن، ولم تتردد فى اتهام حكيم بالخطأ فى موالاته لها. وقد تخرجت فى الكلية، والتحقت بالإذاعة لتفوقها من ناحية وبفضل توصيات حكيم من ناحية أخرى، وأراد عقل ابن خالتها صدرية أن يتزوج منها ولكنها رفضته لطولها وقصره وقالت لأمها:

ـ سيكون منظرنا مضحكا إذا سرنا معا فى الطريق..

ووافقت على الزواج من نادر، لمركزه، ووسامته، وحسن ظنها بأخلاقه، وعاشت معه عمرا فى شقة أنيقة بشارع حسن صبرى بالزمالك وأنجبت له سميرة وراضية وصفاء. ولما تكشف لها انحرافه ثارت ثورة عنيفة لم يتوقعها الرجل من شريكة حياته. وقالت له بصراحتها الحادة:

ـ إنى أرفض الاستمرار فى معاشرة رجل تبين لى انحرافه..

وكانت سميرة تكره فكرة الطلاق وحاولت أن تقنعها بأنها ليست مسئولة عنه، وأنها يجب أن تزن عواقب تصميمها على بناتها ولكن قالت لأمها:

ـ لقد سقط فى نظرى ولا حيلة لى فى ذلك..

وانتهى الخلاف بالطلاق، واحتفظت ببناتها معها فى شقة الزمالك، وراحت تربيهن على مثالها، ولم تأسف قط على القرار الصارم الذى اتخذته. ومضت الأيام وآن للبنات أن تتزوج، وكان الزواج قد أصبح مشكلة غير قابلة للحل لارتفاع تكاليفه وصعوبة الفوز بشقة، ولكن نادر ذلل كافة الصعوبات، فابتاع شقة لكل بنت وجهزهن على المستوى اللائق به. وقالت هنومة تعزى نفسها:

ـ إنه أبوهن والمسئول عنهن..

ولكنها لم تستطع أن تغفل عن الحقيقة المرة وهى أنه لولا ماله الحرام ما تيسر لبنت منهن أن تستقر فى بيت الزوجية. وتساءلت فى أسى عميق:

ـ هل أصبحت الحياة الشريفة مستحيلة حقا؟!

حرف الواو

وحيدة حامد عمرو

بكرية حامد وشكيرة، ولدت ونشأت فى سراى ميدان خيرت، ولعبت طفولتها فى حديقتها المترامية الغناء. ووضح من الصغر ذكاؤها، إلى جمال قلبها، وروح مرحة

غالتها رياح النكد. من قديم تشرب قلبها بالكآبة فى مناخ الحياة الزوجية المسموم، وتمثلت أحزان أمها الدائمة حتى ترسب النفور من أبيها فى أعماقها. ولم تجد فى أخيها صالح أى عزاء لعنف خلقه وملاحقته الناس بأخطائهم كأنه الحسيب عليهم، ثم جاء الانشقاق بين جدها محمود وأخيه أحمد ليقضى على البقية الباقية لها من أمل فى حياة يمكن أن تعد بشىء من التفاؤل أو السعادة. وترامت إليها عداوة أهل أبيها لأمها، وكلماتهم المدببة، بالإضافة إلى المآسى الكثيرة التى هصرت الفروع حتى سلمت بلا وعى منها بأن الحياة ما هى إلا سلسلة من الأحزان والانحرافات والانفعالات القاسية. ووجدت سلواها الوحيدة فى الدراسة فتفوقت، والتحقت مثل خالتها نادرة بكلية الطب، وما إن وجدت فرصة للعمل فى السعودية حتى ولت هاربة. وبعد أعوام من الغربة كانت مفاجأة لأمها أن تتلقى منها رسالة تنبئها فيها بأنها ستتزوج من زميل باكستانى يعمل معها فى نفس المستشفى.

وردة حمادة القناوى

هى الثالثة فى ذرية صدرية وحمادة. ولدت ونشأت فى خان جعفر، ولكنها عشقت البيت القديم بميدان بيت القاضى وتعلقت بجدتها راضية فبادلتها الجدة حبا بحب، وكانت تقول لصدرية عنها:

ـ وردة أجمل البنات ولكن ميزتها الأولى فى العقل..

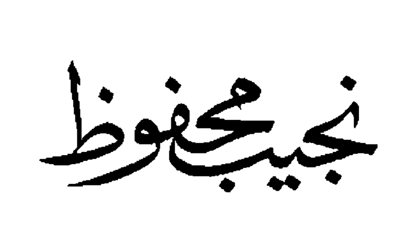
وقد خطبت لابن عم أبيها الشاب وهى دون سن الزواج، ولكنها أصيبت بالملاريا، ولم تستطع المقاومة ففاضت روحها تاركة فى قلب أمها جرحا لا يندمل.

حرف الياء

يـــزيـــد المصـــرى

وصل إلى القاهرة قبل وصول الحملة الفرنسية بأيام. وكان فى الإسكندرية من أسرة عطارين، ولما انتشر الوباء أهلك أفرادها فلم يبق على رجل أو امرأة سواه. وكره البلد فقرر هجرها ويمم شطر القاهرة. وكان معه شىء من المال، وميزة نادرة فى ذلك الزمان

وهى أنه كان يعرف القراءة والكتابة، لقنها فى المعهد الدينى قبل أن ينقطع عنه ليعاون أباه فى دكان العطارة. وتحير فى القاهرة فترة حتى وجد مأواه فى بيت بالغورية، كما وجد عملا كخازن فى وكالة الوراق. كان شابا قوى الجسم غامق السمرة واضح الملامح، يرتدى الجلباب والشملة والعمامة، ولتقواه ووحدته تاقت نفسه للزواج. ورأى فرجة السماك وهى تبيع السمك فى الطريق فأعجبته، وبمعاونة جاره عطا المراكيبى تزوج منها. وقد أنجبت له ذرية وفيرة بقى منها على قيد الحياة عزيز وداود، وامتد به العمر حتى شهد مولد أحفاده رشوانة وعمرو وسرور. وزاره سيدى نجم الدين فى المنام وأمره أن يبنى قبره فى جوار ضريحه فصدع بما أمر، وشيد الحوش الذى دفن فيه، وما زال يستقبل الراحلين من ذريته المنتشرة فى أنحاء القاهرة.



١ ـ مصر القديمة	ترجمـــة	١٩٣٢
٢ ـ همس الجنون	مجموعة قصصية	١٩٣٨
٣ ـ عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
٤ ـ رادوبيــس	رواية تاريخية	١٩٤٣
٥ ـ كفاح طيبـة	رواية تاريخية	١٩٤٤
٦ ـ القاهرة الجديدة	روايـــة	١٩٤٥
٧ ـ خان الخليلى	روايـــة	١٩٤٦
٨ ـ زقاق المدق	روايـــة	١٩٤٧
٩ ـ الســـراب	روايـــة	١٩٤٨
١٠ ـ بداية ونهاية	روايـــة	١٩٤٩
١١ ـ بين القصرين	روايـــة	١٩٥٦
١٢ ـ قصر الشوق	روايـــة	١٩٥٧
١٣ ـ الســـكرية	روايـــة	١٩٥٧
١٤ ـ اللص والكلاب	روايـــة	١٩٦١
١٥ ـ السمان والخريف	روايـــة	١٩٦٢
١٦ ـ دنيــا اللــه	مجموعة قصصية	١٩٦٢
١٧ ـ الطـــريق	روايـــة	١٩٦٤
١٨ ـ بيت سيئ السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ ـ الشـــحاذ	روايـــة	١٩٦٥
٢٠ ـ ثرثرة فوق النيل	روايـــة	١٩٦٦
٢١ ـ ميــرامـــار	روايـــة	١٩٦٧
٢٢ ـ أولاد حارتنا	روايـــة	١٩٦٧

٢٣ ـ خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ ـ تحت المظلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ ـ حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٦ ـ شهر العسل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ ـ المرايا	رواية	١٩٧٢
٢٨ ـ الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣
٢٩ ـ الجريمة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ ـ الكرنك	رواية	١٩٧٤
٣١ ـ حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
٣٢ ـ قلب الليل	رواية	١٩٧٥
٣٣ ـ حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
٣٤ ـ الحرافيش	رواية	١٩٧٧
٣٥ ـ الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ ـ الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ ـ عصر الحب	رواية	١٩٨٠
٣٨ ـ أفراح القبة	رواية	١٩٨١
٣٩ ـ ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢
٤٠ ـ رأيت فيما يرى النائم	مجموعة قصصية	١٩٨٢
٤١ ـ الباقى من الزمن ساعة	رواية	١٩٨٢
٤٢ ـ أمام العرش (حوار بين الحكام)	رواية	١٩٨٣
٤٣ ـ رحلة ابن فطومة	رواية	١٩٨٣
٤٤ ـ التنظيم السرى	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٤٥ ـ العائش فى الحقيقة	رواية	١٩٨٥
٤٦ ـ يوم قتل الزعيم	رواية	١٩٨٥
٤٧ ـ حديث الصباح والمساء	رواية	١٩٨٧
٤٨ ـ صباح الورد	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤٩ ـ قشتمر	رواية	١٩٨٨
٥٠ ـ الفجر الكاذب	مجموعة قصصية	١٩٨٨

٥١ ـ أصداء السيرة الذاتية	مجموعة قصصية	١٩٩٥
٥٢ ـ القـــرار الأخيــر	مجموعة قصصية	١٩٩٦
٥٣ ـ صـــدى النســيان	مجموعة قصصية	١٩٩٩
٥٤ ـ فتـــوة العطـــوف	مجموعة قصصية	٢٠٠١
٥٥ ـ أحـلام فترة النقاهة	مجموعة قصصية	٢٠٠٤
٥٦ ـ المسرحيات	مسرحيات	٢٠٠٦

رقم الإيداع ٢١٩٤٢ / ٢٠٠٦
الترقيم الدولى 9 - 1898 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥(٠١)


6 221102 018227